تاريخ الأدب العربي

تأليف
نخبة من الأساتذة المختصين

طلاس
لدراسات والترجمة والنشر
الجمهورية العربية السورية
دمشق
بوابة الصالحية ـ دار المهندسين
هاتف ٢٢٨٨٥٥ ـ ٢٢٨٢٥٥

ريع الدار مخصص
لمدارس ابناء الشهداء
في القطر العربي السوري

تاريخ
الأدب العربي

تاريخ

الأدب الغربي

(في جزءين)

الجزء الأوّل

نخبة من الأساتذة المختصّين

المقدمـــة

تاريخ الأدب الغربي

تستخدم كلمة « أدب » للدلالة على معان كثيرة مختلفة لدى شعوب الأرض كافة وهي مرادف لكلمة (Literature) [1] في اللغات الأوربية وترجمة لها بالعربية وان اختلفت عنها في أصلها واشتقاقها .

فلفظة « الأدب » في لغة العرب من الالفاظ التي تطور معناها بتطور حياة الامة العربية وانتقالها من طور الترحل والبداوة الى أطوار الاستقرار والحضارة . . . وكانت تدل في أول امرها ـ ولا تزال ـ على سمات الخلق النبيل والطبع الرضي ، وكل ما أضفى عليها الاسلام من معان سامية في قول الرسول الكريم « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » ، حين قصد من قوله هذا رياضة النفس على مكارم الأخلاق والتهذيب القويم والتزود بالمعارف والحكمة . ومن ثمّ اتسع مدلول الكلمة حتى صارت تعني اكتساب الثقافة بالتعلم ، وبخاصة ما يتعلق بأشعار العرب وخطبهم وأمثالهم وأخبارهم وانسابهم وأيامهم الى أن غلب عليها معنى النثر وما يتصل به من لغة ونقد وفصاحة وبلاغة كما قال الجاحظ في مقدمة كتابه البيان والتبيين : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منشور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » .

ويكاد ينطبق مدلول القول هذا على ما تعنيه كلمة (Literature) في اللغات الاوربية واللاتينية كالفرنسية والانكليزية والالمانية والروسية ، وقد جاء في المعجم الموسوعي العالمي أن هذه الكلمة تعني كتابات لها صفتان متميزتان أو معلمان أساسيان هما التعبير والاسلوب تربط بينهما أفكار مثيرة للاهتمام . والأدب بمعناه الواسع يشمل أي نوع من الكتابة ، في أي موضوع كان ، (كأدب الطب مثلا) وهو

---

١) هكذا بالانكليزية وبالفرنسية (Littérature) .

يعني عموما مجموعة الكتابات الفنية التي تخص بلدا ما أو عصراً ما وتميزت بجمال المبنى وسمو المعنى وكان لها أثر عاطفي أو عقلاني او شامل .

وقد حدد في موسوعة بريتانيكا أن كلمة (Literature) مشتقة من اللاتينية وأصلها (Littera) وهي تعني حرفاً من حروف الألفبائية فالأدب على هذا النحو هو أبداً كل ما خطه انسان ، وهو بعد ذلك مجموعة الكتابات التي تخص لغة بعينها أو شعباً بذاته ، وهو في خاتمة المطاف كل قطعة فنية من كتابات مفردة ، ويعرف معجم اكسفورد كلمة (Literature) انها الكتابات التي تنطوي قيمتها على جمال شكلها وتأثيرها العاطفي « بينما يرى الناقد والتربيتر في القرن التاسع عشر ان « الادب كتابة لا تشتمل على الحقيقة مجردة وانما تشتمل على الحقيقة في أشكالها المتنوعة تنوعاً يصعب حصره . ولا بد هنا من تصنيف هذه الأقوال وتحديد مجالها ، اذ ان استخدام كلمة « الكتابة » في التحدث عن الأدب قول فيه بعض التضليل لأن ذلك قد يستثنى من ذهن القارىء أدب الخطابة أو المشافهة الأدبية أو أدب شعوب ما قبل عصر الكتابة ، فالأدب ليس محصوراً في كلمات مسطورة على صفحة ورق أو في تنميق الخط وتهذيبه ، وانما هو كلام منظم يمنح سامعه او قارئه المسرة والبهجة ، وينقل اليه الخبرة وينميها من خلال كلماته ، فيؤثر في المجتمع وقيمه ، ضمن منظومة نقد مستمرة . وهو شكل من أشكال التعبير الانساني ، ولكنه ليس كل ما يُعبر عنه الانسان بالكلام حتى ولو كان منظوماً ومكتوباً .

نلمس مما سبق شمول لفظة « الأدب » العربية وتميزها عن لفظة (Literature) الأجنبية اسلوباً ومضموناً ، الا أن المعنى الذي تنطوي عليه الكلمتان يكاد يكون متطابقاً في مفهوم العصر الحالي . ويقول كارل بروكلمان انه يمكن اطلاق لفظة « الادب » بأوسع معانيه على كل ما صاغه الانسان في قالب لغوي ليوصله الى ذاكرة الانسان ، حتّى ان أغسطس بوخ (A. Bockh) اعتبر النقوش الباقية لشعب من الشعوب داخلة ضمن دائرة أدبه ، واذا كان تاريخ احدى اللغات الميتة ينبني على أساس آثار محدودة لها ، فالاولى ان نعد ، من أدب هذه اللغة ، وثائقها ورسائلها وما أشبه ذلك . لكن اذا رن صدى لغة من اللغات في ثروة لفظية ضخمة ، فلن يسمى أدباً من نتاجها حينئذ ، إلاّ ما اتجه مباشرة الى دائرة أوسع من السّماع والقّراء ليؤثر في مشاعرهم ويزيد من معارفهم ، على أن ظواهر هذا النتاج تزداد وتتكاثر عند شعوب الثقافة الحديثة الى حد يضطر معه مؤرخ الادب الى الاقتصار على باب

واحد منه هو « الشعر » ، فالذي يعد أدباً ، على وجه العموم ، عند شعوب الثقافة الحديثة هو نماء الشعر بأوسع معانيه ، أما فلهلم شيرر (W. Scherer) فيرى أن يدخل تاريخ العلوم في دائرة البحث الأدبي التاريخي ، لأن علم اللغة القديم يجمع تحت مدلول الادب آثار المعرفة الى جانب آثار فن القول . الاّ ان تنوع الحياة الحديثة تنوعاً لا نهاية له هو الذي يحول دون تحقيق هذا المطلب . وعلى هذا نقول انه ينبغي على مؤرخ الادب أن يدخل كل ظواهر التعبير اللغوي في دائرة عمله ، ولا يجوز له الاقتصار على فن القول في نطاقه الضيق ، إلاّ في عصرنا الحديث .

يتضح مما سبق ان دلالات كلمة «أدب» تتمخض عن معنيين متباينين ضيقاً واتساعاً . أولهما أن الكلمة تشمل ، بمعناها الواسع ، ما نرمي اليه اليوم من كلمة « الثقافة » او « المعرفة » ، ولا سيما ما يدور منها في فلك العلوم الانسانية التي تضم ألوان المعرفة وفنون القول وقضايا الفلسفة ، بل وبعض المهارات الفكرية والفنية كأدب الشطرنج وأدب الموسيقي وغيرهما ، مما له صلات بالمجتمع المتحضر والبراعة والموهبة . والأديب في هذا المعنى الموسع هو الرجل المثقف والمستنير والطليعي والعارف بالكثير من أنماط النشاط الفكري والفني ، أمّا المعنى الآخر والأضيق لكلمة « أدب » فهو أقرب الى الاصطلاح المحدد بالمأثور من فنون القول من منظوم ومنثور أي ما اشتمل على فنون الشعر وألوان النثر من رجز وقصيد وموشح وخطبة ومقال ورسالة ومقامة وقصة ، وهاتان الدلالتان لا تزالان سائرتين على نحو متواز في أيامنا هذه .

فعلم الادب ـ بمعناه الاسمى ـ يهدف الى العناية بفهم ما كتبه شعب من الشعوب ، على انه حلقة من حضارة ذلك الشعب ودوره في التراث العالمي ، كما يهدف الى تفهم ما يشمله الكتاب الواحد من خصوصية المؤلف ومؤثرات المحيط الذي يعيش فيه . إلاّ أن من يشرع في عرض المادة بتمامها يجد نفسه مضطرا الى الاقتصار على الحياة الظاهرة للأدب كما تصورها حياة المؤلفين ومؤلفاتهم فقط . وقدأشار «تين» (Taine) الى مؤثرات المحيط الخاص بالمؤلف وضرورةبذل الجهد لتحديد أثرها في استعداده الشخصي ، كما اتجه النظر الى البحث في آثار الشاعر والمفكر وملاحظة تأثيره في نمو الحياة العقلية برمتها ، من حيث اتصال هذا النمو بتلك الآثار والكشف عن القوى المؤثرة فيها وهذا ما ليس ممكناً إلاّ في حدود الأسس الكبرى للبحوث المتفرقة بعيدة الارتباط .

ولما كانت الحضارة التي يقوم عليها عالمنا الحديث وليدة تراث ضخم أسهمت فيه الانسانية جمعاء إسهاماً تختلف اهميته وآثاره باختلاف شعوب الارض ومناطق عيشها ، وكان لكل من تلك الشعوب دوره الخاص والمميز في دفع عجلة الحضارة نحو الرقي والتقدم ، فقد توجب على دارسي الأدب ومؤ رخيه تصنيف آثاره في فترات وعصور زمنية ومناطق جغرافية ، وتخصيصه بكل شعب وأمة ، فعرفنا الادب القديم والادب الحديث الجاهلي والادب العربي والآداب الغربية وآداب شرقي آسية وغيرها ، وقد تقاربت هذه الآداب جميعها مع اشراقة فجر النهضة الحديثة واقتراب انحاء العالم بعضها من بعض ، فتهيأت لتبادل الأفكار وتفاعل الثقافات فرص ، لم تكن لتسنح للبشرية الا بفضل ما اتصل به العلم العالمي من تقدم في العصر الحديث ، على هدى خطوات الاولين ، ولا يزال عالم الناطقين باللغة العربية يتصل منذ نهاية القرن التاسع عشر اتصالا مضطرد التقارب بدائرة الثقافة الغربية ، مما فتح للعرب عالم التفكير الغربي ، وما انتهت اليه جهود العلم والفن والادب سواء عن طريق الترجمة أو الدراسة او العرض المستقل .

وفي الكتاب الذي نحن بصدده سعينا لاعطاء صورة متكاملة ومختصرة لتطور العلوم والفنون والآداب الغربية ، مع فكرة عن تراجم مشاهير الكتاب والأدباء الذين ساهموا في تطوير مجموع ما يسمى « بالأدب الغربي » في مختلف أزمنته وأمكنته وفنونه منذ نشأته وحتى عصرنا الحاضر ، ومع محاولة القاء الضوء على التأثير المتبادل بين ثقافات الشعوب الغربية وأثرها في نمو ثقافة العالم وحضارته وما عمل حولها من ترجمات وبحوث ودراسات ، وما أسهمت به قديماً وحديثاً في تربية العقول وتنمية المعارف وتوليد الافكار وقيادة ركب المدنية ورفع منار الثقافة في العصور الحديثة . وهو خطوة في سبر الجهود الأدبية ومتابعة خطاها في تأسيس ثقافة العالم وتنمية حضارته ، وحصر ما تشتت واحصاء ما تفرق من تراث العالم الغربي ، والدور العالمي الذي اضطلع به الادب الغربي في دفع موكب الحضارة مع وصف تاريخي لأساليب الكلام ومنازع انشائه وصياغته ومذاهبه ومدارسه ومناهجه ومغارسه في مختلف العصور الادبية ولكل شعب من الشعوب التي تنتمي الى عالم الغرب ، في عقد الموازنات والمفاضلات ، بين ذلك كله من حيث النوازع والأغراض والمعاني والألفاظ والبواعث والأسباب ، شاملا أسماء الأدباء من كتاب وشعراء وعلماء وفلاسفة وأشهر ما كتبوه باللغات الاوربية ، بدءا من الاغريقية

القديمة وانتهاء باللغات التي تتحدث بها شعوب أوربة والامريكتين ، بالاضافة الى شواهد مختصرة وفقرات مترجمة عما تركه هؤلاء من تراث لبني البشر .

وقد عهدت الى لجنة تولت اعداد هذا الكتاب واخراجه والاشراف على طبعه شملت كلا من السادة الدكتور عادل عبد الله والدكتور فؤاد شعبان والعميد صبحي الجابي والعميد وليد الجلاد والأستاذ نديم مرعشلي بمشاركة عدد من الأساتذة والأدباء المتخصصين واستعين على ذلك بعدد كبير من المراجع والمصادر والموسوعات «يجدها القارىء في ثبت المصادر» وجرى انتقاء الشواهد والنصوص من مصادرها مع ترجمة ما لم يسبق أن ترجم منها الى العربية وروعي في اختيارها اثبات ما ذهب اليه متن الكتاب من شرح لها .

والكتاب في ذاته مجرد دليل يتلمس به الطالب والدارس طريقه للوصول الى معرفة بالآداب الغربية وأخذ فكرة عنها يساعده في انتقاء مصادره للاستزادة من العلم في هذا المجال كما أنه تسلية مفيدة للمثقف المحب للاطلاع ، يفتح افاقه على مواطن الأدب ومناهله في الغرب بما يكفيه من علم ، والله من وراء القصد .

الشام في ١٨/ ١/ ١٩٨٤

العماد

مصطفى طلاس

تمهـــيد

تعتبر الآداب الغربية على اختلاف ضروبها أجزاء من تراث مشترك ، شأنها في ذلك شأن اللغات الأوروبية ، فاليونانية واللاتينية والألمانية والبلطيقية والسلافية والكلتية والرومانية أفراد أسرة واحدة هي أسرة اللغات الهندية الأوروبية (أما اللغتان الفنلندية والهنغارية فليستا هندية أوروبية رغم عرضهما هنا) نظراً لكونهما على صلة وثقى باللغات الأوروبية الرئيسية) .ينبع التراث الأدبي المشترك لهذه اللغات جميعاً من روما واليونان القديمتين ، وهو تراث صانته المسيحية ونشرته بعد أن حورته ، وانتقل على هذا النحو الى اللغات المحلية في القارة الأوروبية والى العالم الجديد ومناطق اخرى استوطن فيها الاوروبيون .

ما انفكت تلك المجموعة من الكتابات تتكشف عن وحدة في ملامحها الرئيسية التي تميزها عن آداب بقية العالم . ولقد نهجنا في معالجة هذا الموضوع بتقسيمه تاريخياً الى اقسام سبعة تبعاً للمراحل السبع التي مرَّ بها وهي : الفترة القديمة ، القرون الوسطى ، عصر النهضة ، القرن السابع عشر ، القرن الثامن عشر ، القرن التاسع عشر ، وفترة القرن العشرين . وقسمنا كل باب الى فصول يدور كل منها حول الأنماط الأوروبية التي ازدهرت عهد ذاك .

انقضت المرحلة القديمة الأولى بسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦ م . وفي الردح الممتد ما بين عام ٨٠٠ ق . م وسقوط تلك الامبراطورية تكوّنَ في إطار الحضارات القديمة عدد من الاشكال الأدبية وانماطها الرئيسية كالملحمة والمأساة والملهاة والقصيدة الغنائية والهجاء والتاريخ والسيرة والنثرالقصصي ،وقد قدّر لها ـ في المستقبل ـ أن تقرر الكثير من التطور التقليدي الرسمي للأدب الغربي ، كما

أهدت الى ما جاء بعدها مجموعة غنية من الميثولوجيا والأدب الفلسفي المعقد حددت سلفاً المسار الذي نهجه الفكر الغربي .

تتميز المرحلة الثانية ، وهي فترة العصور الوسطى التي امتدت حتى نهاية القرن الخامس عشر برسوخ اقدام المسيحية ، وهيمنة وجهة نظرها عن الكون ـ عمقاً وامتداداً ـ في الاصقاع التي كانت تكوّن جزءاً من الامبراطورية الرومانية السابقة . ومع أن اللاتينية لم تحتفظ بشكلها الكلاسيكي النقيَ فقد ظلت لغة عالمية في الغرب ، على حين تطورت اللغات العامية الدارجة لتصبح فيما بعد ذات كيان خاص بها كوسائل تعبير عن الأدب المكتوب ، حتى اذا ما تقضت نهاية تلك الفترة اخذت سبيلها الى الوجود أعمال أدبية هي من الرفعة في المقام الأسمى ، كما ظهر كتّاب بارزون كتبوا بمعظم اللغات العامية الأوروبية الرئيسية .

وفي حوالي منتصف القرن الخامس عشر تجلت روح جديدة في بعض الكتابات الأوروبية، بيد أن نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة ليستا حادثة يمكن تقييدها بتاريخ واحد محدد لها ، لأن ما مردت عليه الكاثوليكية من نظرة الى الوجود خامره التغير تدريجياً مخلياً السبيل لوجهة نظر أخرى عن الكون والانسان أكثر علمانية . وتميزت هذه الفترة الثالثة باهتمام مجدد بالعلم ، وبخاصة باحياء العلوم الكلاسيكية (الحركة الانسانية)، كما تمخض أدب عصر النهضة عن حركة الاصلاح البروتستنتي وروح التوسع الثقافي كحصيلة لتحريات العصر وكشوفاته .

أما الفترات المتبقية والتي قسمت حسب القرون بدءاً من القرن السابع عشر وحتى العشرين فهي ـ الى حد ما ـ تقسيمات اعتباطية تبررها بعض التطورات الاساسية التي تركت بصماتها على أدب كل فترة منها .

يتميز القرن السابع عشر في معظم الاصقاع الاوروبية بالاضطراب السياسي والديني . ولقد استجاب الادب لهذه القلاقل كما استجاب لاتجاهات متزايدة من التشكيك والعقلانية رافقت تجلي العلم كأسلوب فكري دارج وسائد في الغرب . وتوصف المرحلة الثالثة عن حق ، وهي حقبة القرن الثامن عشر بأنها عصر العقل والتنور ، إذ انعكس مظهرها العقلي على أدب يتسم بالفكاهة الساخرة العقلانية

اللفظية ، وبالجدل والهجاء . وفي الوقت نفسه أوحى الاهتمام بالعواطف والاحاسيس وغيرها من الصفات اللاعقلانية في الانسان بانواع اخرى من الكتابة كالنثر القوطي Gothic الذي ارتكز على الهول ومظاهر ما وراء الطبيعة ، والشعر الذي اهتم بتعهد العواطف والاحتفال بتصورها وبما هو رفيع ، فضلاً عن الرواية التي صبت اهتمامها على الناحية النفسية .

تجلت آثار الثورة الفرنسية (١٧٨٩) والثورة الصناعية بدورها في كتابات القرن التاسع عشر ، وهي فترة تم فيها سبراغوار اهتمامات أدبية درجت سابقاً على معارج التطور متمثلة بمؤلفات شعراء ابداعيين (رومانسيين) وروائيين عظماء من القرن التاسع عشر . .

بينما تبدت الملامح المميزة لأدب القرن العشرين في ظهوره بعد الحرب العالمية الأولى ، لأن الاشكال والموضوعات الرئيسية للكتابات الحديثة تتبدى واضحة في طور النمو والتكاثر انطلاقاً من العام ١٩٢٠ فصاعداً .

الباب الاول

الادب القديم

ميزات الادب القديم

إن الحقيقة الصارخة عن الأدب الغربي القديم هي اندثار الجزء الأكبر منه ، إذ نسي بعضه قبل أن يغدو في المستطاع تدوينه ، وأتت النار والحرب وعوادي الزمن على معظم ما تبقى منه . أما ما يعثر عليه الببليوغرافيون وعلماء الآثار بين الفينة والفينة فنزر يسير . ومع ذلك تشمل الكتابات المتبقية في اللغتين اليونانية واللاتينية - إلى حدّ كبير - أوج ما وصل إليه عقل العالم القديم وخياله ، بشهادة ذاك العالم .

كانت هناك أربع حضارات في الشرق الأدنى وفي الغرب ، هي حضارات بابل وآشور ، ومصر ، واليونان ، وروما ، على اتصال ببعضها بعضاً ، ومع أن الحضارتين الأكثر قدماً : الآشورية - البابلية برقمها الفخارية المصدوعة ، ومصر بلفافات برديها المتآكلة لا تؤثر مباشرة على العصر الحديث فمما لا مرية فيه أن بابل كانت المجلية في إنتاج أول مجموعة قوانين كاملة وملحمتين كانتا نموذجين رائدين لميثولوجيا تردد صداها ، وأعيد ترديده في الآفاق بعيداً عن البلد الأم ، كما أثر حدس مصر الصوفي لعالم ما وراء الطبيعة على خيال اليونان والرومان . أما الثقافة التوراتية التي ظلّت منفصلة الى حد ما عن العالم اليوناني والروماني حتى انتشار المسيحية فيه فكان لها تأثيرها الأدبي الأكبر على الغرب لما لكتاباتها الأولى من مكانة كالعهد القديم من الكتاب المقدس المسيحي . وكان لها أثرها العميق على الوعي الغربي عبر ترجمات هذه الكتب إلى اللغات العامية والدارجة وإلى اللاتينية نفسها منذ أيام القديس أوغسطين (St. Augustine of Hippo) (٣٥٤ - ٤٣٠ م) فصاعداً .

ومع أن الأدب الأغريقي تأثر بالأساطير الدينية لما بين النهرين وآسيا الصغرى ومصر فليست له جذور أدبية مباشرة ، ويبدو أنه ينبع من ذاته . ولقد اعتمد

الكتّاب الرومان المفاهيم اليونانية ـ كأساس ـ في شعرهم وأوزانه وموضوعاته وطرق معالجتها . وقامت رومة ـ في آخر المطاف ـ بنقل تلك الشعلة الأدبية إلى أوائل العصور الوسطى في وقت انضوت فيه الثقافة اليونانية تحت لواء التقاليد الأدبية الرومانية ولم يصر الى كشفها كشيء مستقل إلا في عصر النهضة . ومنذئذٍ اعتبرت التقاليد الكلاسيكية تهديداً للتطور الأدبي الطبيعي وبخاصة عندما شرع بعض نقاد القرن السابع عشر يصرون على ضرورة مطابقة الكتابة المعاصرة مع الأساليب والموضوعات التي استعملها الكتّاب اليونان والرومان .

لقد أرسى اليونان والرومان أسس الضروب الأدبية الرئيسية كافة، حتى ليمكن القول إن ما تلا ذلك من تطورات كان بشكل عام مجرد امتدادات ثانوية لها . فملحمة هوميروس اليونانية كانت نموذجاً لملحمة فيرجيل اللاتينية ، وشعر كتلوس (Catullus) وأوفيد (Ovid) الغنائي هو رجع الصدى لمقطوعات الكيوس (Alceaus) وصافو (Sappho) الغنائية ، وتاريخ ليفي (Livy) وتاسيتوس (Tacitus) كان الخلف الصالح لثيوسيديس (Thucydides)، إلا أن المأساة اليونانية في القرن الخامس قبل الميلاد لم تجد لها الرديف الكفء في مسرحيات سينيكة (Seneca) الروماني ، شأنها في ذلك شأن أفلاطون وكتابات أرسطو الفلسفية ، لأن الرومان العمليين لم يكونوا فلاسفة . وعلى حين تفوق الكتّاب الاغريق في الأمور المجردة كان للرومان رؤى حسية غير عادية ، وكانوا شديدي الاهتمام بالفردية الانسانية كما تدل على ذلك صورهم .

إن أعمال هؤلاء الكتّاب وغيرهم ـ وربما أعمال المؤلفين الإغريق أيضاً ـ تعبّر عن المزاج الأخلاقي للرجل الغربي ونوعية خياله ، مما ساعد على تكوين قيمه وبالتالي نقل تقاليده إلى الأجيال البعيدة. وعلى سبيل المثال وسعت ملحمات هوميروس من اهتماماتها بدءاً من مجرد المعاملة الحسنة للأغراب وانتهاء بمواقف سلوكية عميقة التشابك بين الأبطال المتنافسين من جهة، وأعدائهم من جهة ثانية والالهة المهيمنة من جهة ثالثة . كما ان مآسي أسخيلوس (Aeschylus) وسوفوكليس (Sophocles) تعبر بشكل رفيع عن نفاذ الإنسان الى فهم موقفه من الكون خلقياً . بله أننا نجد بين المؤلفين الرومان رواقية سامية تؤكد على الشعور بالواجب بدءاً من

نافيوس (Naevius) واينوس (Ennius) وامتداداً الى فيرجـل (Virgil) وهـوراس (Horace) وسينكة (Seneca) . كما نتلمس في نقد جوفنـال (Juvenal) الشرير وأغاني اناكريون (Anacreon) عن الحب والخمرة صورة نموذجية للانسان تعكس بوضوح فكر أفلاطون وأرسطو الفلسفي . لقـد عبّـر الخـورس (الـكورس) في أعمال سوفكليس عن هذه الصورة بقولهم : « إن العجائب جمّة ، لكن الانسـان أكثرها روعة إذ هو القوة التي تعبر البحر الأبيض » .

وهكذا قدر للصورة النموذجية عن الانسان ـ التي انعكست جليـة في الأدبين اليوناني واللاتيني ، والتي تكونت بعد أن خرج الانسان من عهـــود البربرية ـ ان تتحول وتتبدل ـ إلى المثل الروحي الذي عبرت عنه الديانتان اليهـودية والنصرانية مجتمعتين ، ـ قبل أن يسدل الستار على العالم القديم ـ ، في حـين مهّـد كتـابها لأدب العصر الوسيط وكانوا إرهاصاً له .

الفَصْل الأول

الأدَب البَابلي الآشوري

تعتبر الأكادية لغة بابل وآشور القديمتين وأساس الثقافة الآشورية البابلية التي ازدهرت على ضفاف دجلة والفرات . وهي أقدم لغة سامية حفظتها السجلات ، ولذا فهي بالغة الأهمية لعلماء اللسانيات . وقد أخذت نظامها الكتابي عن السومرية ، أقدم لغة عالمية مكتوبة ،عندما حلّت محلها كلغة تخاطب في الألف الثالث قبل الميلاد . إلاّ أن السومرية ظلّت تستعمل في الكتابة حتى القرن الأول الميلادي الذي يمثل نهاية فترة الاستعمال النشط للاكادية .

أن الكثير من سجلات هذه الحضارة ذو أهمية تاريخية ولغوية أكثر من قيمته الادبية . فهناك العديد من قوائم الكلمات الدالة على أسماء الآلهة والمفردات العادية ، الهدف منها معجمي ، إذ تكون مجموعات نموذجية لكل الكلمات والمفاهيم الممكنة . ولربما أفادت هذه القوائم الطلاب والباحثين كدليل لتهجئتها . وأستخدمت تلك القوائم ، التي تعطي العلامة أو العلامات الدّالة على الكلمة ، وبجانبها اللفظ السومري وما يقابله من لفظ أكادي مرتبة في أعمدة كمفردات ظلت أنواع عديدة منها قيد الاستعمال حتى نهاية فترة النشاط العلمي البابلي ، وتعتبر أقدم النقوش الملكية ذات أهمية تاريخية ولغوية ، وتشتمل على إهداءات أو تكريسات لأشياء أو لأبنية حسب النموذج التالي مثلاً : لقد اهدى « أ » ابن « ب » ملك مدينة « ي » هذه المزهرية ، أو بنى هذا المعبد الى الاله « س » . وطور الآشوريون هذا النموذج الى ما يعرف بالسجلات التاريخية ، وهي تقارير مفصلة لمنجزات ملك ما في كل عام ـ حوليات . ومع ان بعض القصص الشعبية او الاسطورة وردت ضمن هذه السجلات فان اهميتها تاريخية في المقام الأول وبشكل رئيسي .

هذا وقد وجدت بعض النصوص الأشورية البابلية الأدبية على لوحات ترقى بتاريخها الى حوالي ٢٥٠٠ ق. م. وتشمل أساطير وملاحم عن أعمال الملوك الأوائل ، وترانيم دينية وأدب الحكمة كالأمثال .

وهناك ملحمتان لهما أهمية أدبية عظمى ، أولاهما ملحمة أنيومة اليش (Enuma Elish) (ملحمة الخلق) وتروي كيف أن مردوك (Marduk) إله مدينة بابل ذبح التنين تيامات (Tiamat) وخلق من جسمه العالم فكافأته الآلهة على صنيعه هذا بأن وهبته حكماً عالمياً . أما الملحمة الثانية فهي جلجامش (Gilgamesh) - وقد تكون أهم إنتاج أدبي باللغة الأكادية - وتروي قصة البطل السومري جلجامش ورفيقه أنكيدو (Enkidu) . وأكمل نص لها ذلك المكتوب على لوحات وجدت في نينوى بمكتبة آشور بانيبال (Ashurbanipal) ملك آشور (٦٦٨ - ٦٢٧ ق . م .) . والملحمة من إبداع مخيلة البابليين ، وتتضمن قصصاً سومرية عن جلجامش وصديقه أنكيدو ، وتضيف عنصراً قصصياً جديداً هو سعي جلجامش ليظل خالداً بعد وفاة صديقه . ومما يثير الاهتمام في هذه الملحمة - الرواية البابلية لقصة الطوفان المشابهة لطوفان نوح الواردة في التوراة ، والتي يقصها على جلجامش أحد الناجين من الغرق واسمه أوتنابشتيم (Utnapishtim) . ويعتقد أن قصة جلجامش الشائعة بآسية الصغرى في لغات أخرى غير الأكادية كان لها أثرها على الأوديسة اليونانية ، كما نجد مواضيع منها متناثرة في القصص الشعبي الباسيفيكي .

الفَصْل الثّاني

الأدَب المصري القدِيم

انتهت إلينا نصوص « هيروغليفية » على ورق البَرْديِّ ، أو نسـخ مدرسية مكتوبة على ألواح كسر من الأواني الفخارية وصفائح الحجر الكلسي عـرف منهـا حوالي ٧٠ عملاً أدبياً أغلبها غير كامل وهي لا تمثل سوى جزء من أعمال أدبية لقدماء المصريين ضاع معظمهـا . ويمـكن تصنيفهـا نصوصـاً ابـداعية ـ (رومانسية) أو شعبية ، أو أسطورية المعين أو تاريخية دينية أو علمانية أو نماذج لرسائل ومجموعات لمفاهيم أو تعليمات أخلاقية .

وفي عداد ما وصلنا من القصص الشعبي قصة « الملك خوفو والسحرة » ، وهي مجموعة من الحوادث زاخرة بالحيوية عن ملـوك قدمـاء مشهـورين . وقصـة « البحار الذي تحطمت سفينته » ، فتقاذفته الأمواج حتى رمت به في جزيرة مـا حيث تعهدته بالرعاية أفعى غريبة الشكل . « وقصة الأخـوين » التي تتلاقـى وأسطورة أوزريس إله العالم السفلي وموضوعها الصراع بين الشر والخير . وقصة « مبـارايات هورس (Horus) وسيث (Seth) » وفيهـا تلعـب الآلهـة أدواراً شبـه هزلية . وهناك قصص شعبية أخرى لا تنطوي على عناصر ما وراء الطبيعة ، منها « قصة الفلاح النصيح » وهي تروي حكاية فلاح نال العدالة بفصاحة مرافعته . « وقصة سنوهي (Sinuhe) » التي تروي كيف أن فارّاً منفياً فاز بعفو فرعون وعاد الى وطنه، « وتقرير ويناموں (Wenamun) » ، ويصف مغامرات مبعوث مصري إلى فينيقيا ليشتري الخشب . وتصنَّف الأمثال والحكم في باب الأدب التعليمي ، أو أدب الحكمة ، شأن مأثورات بتاحوتب (Ptahhotep) وكاجمني (Kagemni) وآنـي (Ani) وآمنيموب (Amnimope) . وهي في معظمها نصائح يسديها أب عجوز لابنه

الشاب ، أو ملك لوريثه . ويتضمن بعضها ما يماثل أدب الحكمة التوراثـي . وهناك النصوص المنقوشة على جدران القبور وهي سوداوية متشائمة مثل « أغنيات عازفي القيثارة » . وأبرزها نص الرجل الذي أثقلت كاهليه الحياة فتوجه بالنصح إلى رجل يفكر في الانتحار . وفي مقابل هذه المؤلفات قصائد في مدح إله الشمس وآلهة غيره . ومع أن القليل من الأساطير الأدبية وصلتنا كاملة ، إلاّ ان هناك نصوصاً طقسيةً طويلة النفس ، غالباً ما تكون ذات محتوى أسطوري ، وقد نقشت على جدران المعابد ، مثل « كتاب الموتى » الذي هو خليط من السحر والأسطورة ويشتمل على إشارات كثيرة لعالم الآلهة . والجدير بالذكر ان الكتّاب اليونان واللاتين عالجوا ، وبشكل كامل ، الأساطير المصرية استجابة منهم لغناها وقدمها .

الفَصْل الثّالث

الأدَب الاغريقي القدِيم

يتألف الإغريق القدامى من مجموعات عرقية عدة ، وفدت على شكل موجات ، واستقرت في اليونان وعلى ساحل آسيا الصغرى ، وفي جزر عديدة من بحر إيجه بما فيها جزيرة كريت وفي صقلية وجنوبي ايطالية (وعرفت مجتمعة باسم بلاد الاغريق الكبرى) . وقد وجدت حوالي عام ١٠٠٠ق.م ثلاث مجموعات تتكلم كل منها لهجتها الاغريقية الخاصة بها، إذ استقر الدوريون جنوباً في اسبارطة مدينتهم الرئيسية ، كما استقرّ الإيوليون في أواسط اليونان وشمالها وكان انطلاقهم منها لاستعمار لسبوس (Lesbos) والساحل المجاور من آسيا الصغرى . أما الإيونيون فاستوطنوا أتيكا(Attica) ، وهي المنطقة المحيطة بأثينا وجزر أواسط إيجه ، وأطلقوا على مستعمراتهم القائمة على سواحل آسيا الصغرى المقابلة اسم إيونية، وأصبحت لهجتهم ـ بشكلها الخاص بأتكا ـ اللغة الأدبية لكل الإغريق .

يؤلف الأدب اليوناني تاريخاً مستمراً يمتد من الألف الأول قبل الميلاد وحتى اليوم الراهن وفيه نجد معظم الأشكال الأدبية المعترف بها حالياً ، كالملحمةوالدراما والشعر الغنائي والأنماط المختلفةمن الأعمال النثرية . ولم يكن مؤلفوها من الإغريق يعيشون في البداية ،في اليونان المتعارف عليها حالياً فحسب، بل ويقطنون الأصقاع المجاورة لها والمذكورة آنفاً . ثم اتسعت رقعة الأدب الأغريقي إثر فتوحات الاسكندر الأكبر عندما اصبحت الإغريقية اللغة العامة المشتركة في منطقة شرقي البحر المتوسط ، وفي الامبراطورية البيزنطية من بعد ، ونهض بالكتابة من لم تكن الإغريقية لغتهم الأم . وانتقل المركز الثقافي للعالم الناطق بالأغريقية تدريجياً وعلى مر القرون من بلد إلى آخر . إذ سيطرت ـ بادىء ذي بدء ـ مدن المنطقة الساحلية من

آسة الصغـرى حتـى القـرن الخــامس قبــل الميلاد ، ثم غدت أثينــا المركز في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، لينتقل النشاط الأدبي الإغريقي بعد ذلك إلى الاسكندرية ، وبقي فيها إلى أن ضمت المنطقة بأسرها إلى الامبراطورية الرومانية . لم يصل إلينا من أدب الاغريق القديم سوى جزء ضئيل نسبياً ، إلا أن أثره على غيره من الآداب خلال العصور كان عظيماً ورائعاً .

١ ـ الفترات الأدبية أسلوبياً :

يقسم تاريخ الأدب الإغريقي القديم إلى ثلاث فترات هي :

فترة ما قبل الكلاسيكية (حتى نهاية القرن السادس قبـل الميلاد) والفتـرة الكلاسيكية (القرنـان الخـامس والرابـع قبـل الميلاد) والعهـد الهيلينـي مع الـدور الروماني الاغريقي (القرن الثالث قبل الميلاد وما بعده) . وفيما يلي تلخيص لهـذه المراحل ، ودراسة للأنماط التي نشأت فيها ، والكتّاب ذوو العلاقة بها .

فترة ما قبل الكلاسيكية حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد: جادت قرائح الإغريق بالشعر وأبدعوا فيه قبل ان يستعملوا الكتابة للأغراض الأدبية وقصدوا من شعرهم في البداية الغناءوالانشاد ـ كان الالمام بفن الكتابة ضئيلاً قبل القرن السابع قبل الميلاد، وليس معروفاً ما إذا كان الخط المستعمل في كريت ومسينة(Mycenae) (النوع B) قد استخدم لأغراض غيرإدارية ـ ونسي كلية بعد دمـار المدن المسينية وتدور موضوعاته حول الأساطير، التـي هي مزيج من خرافـات بنيت على ذكرى باهتة لأحداث تاريخية ومن القصص الشعبي ومن تأمـل دينـي بدائـي . وبمـا ان الأساطير غير وثيقة الارتباط بالطقوس الدينية، رغم أنها كثيراً ما تتحدث عن الآلهة أو أبطال غير خالدين ، فهي غير جازمة أو ملزمة وبمقدور الشاعر ان يأخذ بأطرافها تنويعاً ليعبر عن مفاهيم جديدة . وهكذا كان الفكر الاغريقي متقدماً ، منذ العهود الأولى نظراً لأن العديد من الشعراء كانوا يعيدون صياغة أشعارهم .

تنتمي ملحمتا هوميروس ، الإلياذةوالأوديسة ، اللتان أعادتا بالسرد رواية بعض

أحـداث العصر المسينـي مختلطـة بأساطـيره، الى هذه المرحلـة من الأدب ما قبـل الكلاسيكي. وأرست هاتان الملحمتان العظيمتان في بداية الأدب الاغريقي أسس معظم التقاليد والمصطلحات الأوروبية المتعلقة بالملحمة الشعرية. ولربما كان شعر هسيود (Hesiod) (حوالي ٧٠٠ ق.م.) التعليمي قد نظم في فتـرة تلـت ملحمتـي هوميروس، ورغم انه يختلف عنهما موضوعاً ومعالجة إلاّ أنه يعد استمراراً للتقاليد الملحمية.

تعود الأنماط المتنوعة للشعر الغنائـي الاغريقـي بجذورهـا الى فتـرة ما قبـل الكلاسيكية اذ انطلقت على السنة شعراء جزر بحر ايجة، وفي ايونية على سواحل آسية الصغرى . وكان أرخيلـوخس (Archilochus) من مواطنـي باروس (Paros) الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد أول شاعر رثائي يتناوب في قصيدته البيت الملحمي والبيت الأقصر فضلاً عن صيغ الشعر الغنائي الذاتي. وأنزل الإغريقيون القدامى شعره مقاماً رفيعاً من مراتب التقدير ، بيد أنه لم يصل إلينا من نتاجه سوى مقطوعات وقصائد غير كاملة . إلا ان أشكاله وأنماطه العروضية كالمزدوجة المرثاوية وبحور شعره الغنائي المتنوعة غدت نماذج حذا حذوها الشعراء الأيونيون الواحد إثر الآخر . وفي أوائل القرن السادس نهض شاعران ينظمان باللهجـة الأيونية لمدينـة لسبوس (Lesbos) ، هما الكيوس (Alcaeus) وصافو (Sappho) ، ويتسم شعـرهما بغنائية خاصة وبإيقاعية مبتكرة مستعملـين بحـوراً سميت باسـمهما ، ثم كيّفهـا هوراس (Horace) بما يتطابـق والشعـر الرومانـي . ولـم يقـدّر لأي من الشعـراء اليونانيين الآخرين القدامى أن يتغلغل في وجدان القارىء ويخامر شخصـه صنيع الكيوس وصافو وأرخيلوخس ، وانما مضى على نهجهم أناكريون (Anacreon) من تيوس (Theos) الذي نظم سلك قصائده الغنائية باللهجة الأيونية شأنه في ذلك شأن ارخيلوخس . أما القصيدة الغنائية الـكورالية التـي تصاحبهـا الموسيقـى فمردهـا التقـاليد الـدورية ولهجتهـا . ويعتبـر الشاعـران ألـكمان (Alcman) الإسبارطـي وستسخورس (Stesichorus) الصقلي خير من يمثل هذا النوع من الشعر.

ان أصل المأساة وكذلك الملهاة هو اليونان . ويقال ان مهد الكورس المأساوي

اليونان الدورية حوالي ٦٠٠ ق. م. ومن ثم غدت المأساة جزءاً من احتفال مدينة أثينة بالعيد السنوي لديونيسوس حوالي ٥٣٤ ق. م. وكذلك الحال بالنسبة للملهاة التي نشأت جزئياً في اليونان الدورية، وتطورت في أتيكة حيث اعترف بها رسمياً في وقت تال للمأساة. وكلتاهما مرتبطتان بعبادة ديونيسوس (Dionysus) إله الخصب والتلبس الشيطاني.

كانت مجموعات القوانين اول شكل من أشكال النثر المكتوب، وظهرت أول ما ظهرت في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، عندما أخذ الإلمام بالكتابة يصبح اكثر انتشاراً .ويعتبر فريسيديس (Pherecydes) من سيروس (Syros) حوالي ٥٠٠ ق.م. اول ناثر، وقد كتب عن بداءات الكون. الا ان أعرق مؤلف كبير هو هيكاتيوس (Hecataeus) من ميلتيوس (Miletus) الذي تصدى للكتابة عن الماضي الأسطوري وجغرافية البحر المتوسط والأراضي المحيطة به. ويعزى الى ايسوب(Aesop) الشخصية شبه الاسطورية وشبه التاريخية من جيل منتصف القرن السادس ق.م. كتابة خرافات الحيوان التعليمية التي نسخها كتاب أتوا من بعده.

الفترة الكلاسيكية في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد: كان اسخيلوس (Aeschylus) أول من ألّف المأساة الحقيقية التي بلغت الأوج على ايدي سوفكليس (Sophocles) ويوربيدس (Euripides) في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد. اما اريستوفان (Aristophanes)، أعظم الشعراء الهزليين، فقد عاش حتى القرن الرابع. إلا أن الملهاة القديمة انتهت بسقوط اثينة عام ٤٠٤ ق . م .

وتمثل الأورستية (Oresteia)، ثلاثيةاسخيلوس الوحيدة التي وصلتنا كاملة في مسرحياتها الثلاث ، المواضيع الرفيعة للمأساة الأسخيلية. وفيها يواجه الانسان الآلهة، ومنهم يتلقى درساً يحلّيه ببعد نظر هو من الرهبة بمكان في أهدافهم ومراميهم . أما مأساة سوفكليس فتعد خطوة متقدمة بالنسبة للتعقيد المسرحي والواقعية المسرحية، بينما ظلت متزمتة في معالجتها للمسائل الدينية والأخلاقية. بينما عالج يوربيديس ، الذي هو أصغر المؤلفين التراجيديين الثلاثة الكبار سناً، موضوعاته على صعيد الشك المستنير ، وبذلك ألقى ظلالاً من الشك على الصورة

التقليدية للآلهة . ورافق تغيّر هذه الرؤ ية تطور مماثل في عدد الممثلين ، إذ ارتفع عددهم الى ثلاثة ، واصبح كل منهم قادراً على القيام بعدة أدوار .

ومع أن الملهاة القديمة لاريستوفان تأسست بعد المأساة بقليل ، إلا انها بطقوسها احتفظت بآثار اوضح عن اصلها ، لأن القوة والفكاهة والبذاءة التي ترسلها بسلاطة لنقد القضايا العامة والشخصيات البارزة تشير بوضوح الى اصلها الذي نبعت منه ، وهو الهرج والمزاح البذيء والبدائي بالشكل الذي اتسمت به أعياد ديونيسوس . وتظهر ملاهي اريستوفان الأخيرة انتقالاً نحو الكوميديا الوسطى (Middle Comedy ، يشير اليه تضاؤ ل أهمية الكورس ولم يصل الينا منها أية ملهاة. لقد تبع هذا الطور طور آخر في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ويسمى بالكوميديا الجديدة (New Gomedy) التي أدخلها مناندر (Menander) والتي أولت اهتمامها العالم القصصي الخاص بالناس العاديين ، وانتقل أثرها الى العصور الوسطى والحديثة فكان اقتباسها وتحويرها على أيدي الكتّاب اللاتينيين أمثال بلوتوس (Plautus) وترنس (Terence) .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد وقف أعظم الغنائيين الكوراليين الإغريق خارج التيار الأيوني الأتيكي الرئيسي ، ليجسّد في قصائده الغنائية من نوع الأود (Ode)' رؤ ياه عن العالم عبر قيمه الارستقراطية التي كانت آنئذ تؤ ذن بالانقراض . وفي هذه الفترة بلغ النثر الاغريقي مرحلة النضج . وكان الكتّاب الأوائل ـ مثل الفيلسوف انكساغوراس (Anaxagoras) والسفسطائي بروتاغوراس (Protagoras) ـ قد استخدموا اللهجة الأيونية التقليدية ، شأنهم في ذلك شأن المؤ رخ هيرودوتس (Herodotus) . اما خلفاؤ ه في كتابة التاريخ أمثال : ثيوسديدس (Thucydides) وكزنفون (Xenphon) فقد كتبوا باللهجة الاتيكية . وثيوسديدس هو ألمع الثلاثة فكرياً لروعة أسلوبه وأمانته الموضوعية ، مما بوأه منزلة أول مؤ رخ يوناني . إن أقدم قطعة نثرية اتيكية كانت مقالاً ضد الديمقراطية حول الدستور في أثينة وعُزيت خطأ الى كزنفون ، لأنها تعود بتاريخها ، الى حوالي ٤٣٠ ق. م.

تعتبر مؤ لفات أفلاطون وارسطو العائدة الى القرن الرابع قبل الميلاد أهم ما أنتجته الثقافة الاغريقية في التاريخ الفكري الغربي ، فقد شغلتها الأخلاقيات

والميتافيزيقيات السياسية ايضاً التي اعتبراها أرفع دراسة للانسان . واتسع مدى نشاط أرسطو الفكري ليشمل الفيزياء والتاريخ الطبيعي وعلم النفس والنقد الأدبي . وقد ارسى هذان الفيلسوفان قاعدة الفلسفة الغربية، ويمكن القول ان الأثنين معاً حددا لأجيال تلت مسار تطور الفكر الأوروبي .

كان هذا العصر ذهبياً بالنسبة للبلاغة والخطابة ، وكان رائدهما كوراكس (Corax) السيراقوسي في القرن الخامس قبل الميلاد . وثمة دراسات تتعلق بالبحث عن الحقيقة والأخلاق في الجدل كانت تحظى باهتمام الفيلسوف والمحامي والسياسي ، وكان الأساتذة يتوسعون في شرحها والاستزادة منها وفي طليعتهم ايسوقراطس (Isocratés) . وتشتهر خطب ديموستين (Demosthenes) ، وهو أحد سياسيي أثينة في القرن الرابع ق.م. ، بقوتها وعنفها .

الفترات الهلينية واليونانية الرومانية : ألّف الاغريق والمكدونيون الطبقة الحاكمة الجديدة في امبراطورية الاسكندر الكبير المترامية الأطراف ، وغدت اليونانية لغة الإدارة فيها . وكانت هذه اليونانية لهجة مركبة تستند الى حد ما على اللهجة الأتيكية وتسمى كوين (Koine) أو اللغة المشتركة . وكانت الدويلات المدينية التقليدية - أنّى كانت - في تقهقر مستمر ، وأصبح الفرد مدركاً لانعزاله ، لذا أخذ يفتش عن الرضا النفسي والتماسك خارج مجتمعه المشترك . كما خضع الخلق الفنّي للرعاية الفردية . وباستثناء الكوميديا الأثينية اتجهت المؤلفات نحو جمهور ضيق مختار يؤخذ إعجاباً بالصقل ، والعلم الغزير والمهارة الفنية .

والحادثة ذات الأهمية الكبرى في هذه الفترة التي أثرت في تطوير الاتجاهات الجديدة تجلت بتأسيس المتحف، او مقام عرائس الفن، مع مكتبته الضخمة في أثينا . وكان قيِّم المكتبة الرئيسية أحياناً شاعراً او مربياً لولي العهد . وأول من شرع بجمع المعرفة من مظانها وحفظها هم السفسطائيون ، ثم جاء أرسطو وأتباعه فقضوا على آثارهم، وكرّس الاتجاه على الوجه الصحيح بتأسيس المكتبة والمتحف. وعبر بحوث علماء الاسكندرية حفظت نصوص المؤلفين القدماء. وغالباً ما كان العلماء هم

شعراء العصر الهليني الذين تركت بحوثهم آثارها على شعرهـم . وامتـدت الفتـرة الهلينية بين نهايتي القرنين الرابع والأول قبل الميلاد . ومنذ هذا التـاريخ ولقرون ثلاثة ـ والى ان اصبحت القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ـ كان الكّتاب الأغريق يدركون انهم يمتون الى عالم تشكل رومة مركزه .

٢ ـ الفنون الأدبية

الملحمة وتقاليدها : برزت في فجر الأدب اليوناني ملحمتان عظيمتـان هما الألياذة والأوديسة ، وتمتدان بجذورهما الى العصر المسّيني ، أو ربما ترجعان الى عام ١٥٠٠ ق.م. بيد أنهما تقليدياً تعزيان الى هوميروس ، وربما عادتا بشكلهما الراهن الى القرن الثامن قبل الميلاد . كانت الألياذة القصة المأساوية المكرسة لغضب اخيل (Achilles) من بيليوس (Peleus) وابن الالهة تيتس (Thetis) ، وكان آخيل يتصف بكل السجايا التي تجعل الانسان مثـار الاعجـاب . وعندمـا يستخف به القائـد الاغريقي آغا ممنـون (Agamemnon) يرفض الإسهـام بخـوض غمار الحـرب ضد طروادة ، ولكن عندما يشتد الضغط على الاغريق يجهد آغا ممنون ـ دونما طائـل ـ لاصلاح ذات البين بينه وبين آخيل بعروض مسرفة . تزداد ـ بطبيعة الحال ـ حالة الاغريق السيئة تردياً ، فيشفق آخيل على بني جلدته ويبعث بصديقـه بتـروكلس (Patroclus) لشد أزرهم بعـد أن يسربلـه بدرعـه ، وينجـح بتـروكلس في إنقـاذ الاغريق إلا انه يلقى مصرعه . وفي موجة جنونية من الحزن يدفع آخيل بنفسه الى حومة الوغى ويقتل البطل الطروادي هكتور (Hector) الذي كان قد قتل بتروكلس ومثّل به. ويرضى أخيل في النهاية بأن يعيد جثة هكتور الى والـده بريام(Priam) وتنتهي الملحمة بالصلح . أما موت آخيل ونهايته فليسا جزءاً من الملحمة ، ولكن ظلال الموت المبكر تُرين على البطل اللامع ، وهو يجسد المثـل الاغريقـي الأعلى للبطولة ، لأنه استعد للتضحية بكل شيء في سبيل الشرف . إن المقارنة بين سجاياه الرائعة وحياته القصيرة المفعمة بالمتاعب تعكس الروح المأساوية التي تسود الفـكر الاغريقي . وعلى حين ان الالياذة صرف مأساوية فالأوديسـة مأسـاوية هزلية بآن معاً ، وفي الواقع ليست الأخيـرة الا نسخة من القصة الشعبية القديمة التي تروى

عودة المغامر التائه وانتصاره على أولئك الذين اغتصبوا حقوقه واضطهدوا زوجه في بيته، لكنها أكثر غنى أدبياً وفنياً من مجرد قصة شعبية). يمثل أدويسيوس (Odysseus) بدوره مثلاً يونانياً أعلى، ومع أنه ليس ضعيفاً بل ند نزال وقتال يظل سلاحه الرئيسي الحيلة والمكر بالخصم. وبهذه الوسيلة الوحيدة ظهر على العمالقة الذين يفوقونه قوة، كما تغلب على الكثرة العددية لخطاب زوجته الذين احتلوا قصره. وخلال رحلته التي دامت عشرة اعوام، في طريق عودته من طروادة الى منزله، نراه يفقد جميع رفاقه وسفنه ويتنقل في اتاكا (Ithaca) متخفياً في زي شحاذ حتى في قصره. وفي غمرة هذه المخاطر جميعاً لا يبعثه على التشبث بالحياة ونشدانه النجاح سوى رجاحة عقله. ترتكز الملحمتان على حبكة تأخذ بانفاس القارىء وتستحوذ على اهتمامه، وتجريان سرداً بلغة سهلة بسيطة ومباشرة، لكنها فصيحة بليغة. ومع أن الملحمتين أقدم الشعر الاغريقي تاريخياً، فليستا بدائيتين، وتشيران الى انهما أوج الأدب الملحمي لا بدايته. وكانتا أساساً قصيدتين تناقلهما الناس شفوياً وأخذوا بتطويرهما والاضافة اليهما عبر حقبة طويلة، واسهم بتلك الاضافات ارتجالاً العديد من الشعراء المجهولين. ذلك لان العالم الذي يعكسانه مشحون بالمتناقضات. ويمت بعض اسلحة القتال فيهما الى العصر البرونزي، وبعضها الآخر الى العصر الحديدي، وأشياء منها الى العصر المسيني، وتتدافع متلاقية مع غيرها مما يعود الى القرون الخمسة التي تلت. كل ذلك، بله بعض الامور الغامضة، ومنها تاريخ الشاعر او الشعراء العظام الذين تمخضت قرائحهم عن تلك البنية والشكل الحاليين للملحمتين ووظيفتهما الاجتماعية، نظراً لأنهما تحتاجان لعدة ايام لانشادهما، ناهيك بالطريقة التي تم بها تدوينها كتابة، والتي قد تعود الى القرن السادس قبل الميلاد.

وقديماً أنزل الناس الالياذة والأوديسة مقاماً لم ينزلوه اية ملاحم اخرى على كثرتها. وعرف منها العديد فيما بعد بمجموعة أو بدورة الملاحم، وهي تغطي قصة سائر احداث حروب طيبة وطروادة، كما أنها تغطي الأساطير الأخرى الشهيرة. وهناك طائفة من القصائد الاقصر مكتوبة حسب الاسلوب الملحمي، تعرف بالترانيم الهومرية (Homeric Hymns) وتتحلى بالروعة والجمال.

لم يكن الشعر التعليمي في نظر الاغريق ليختلف عن الشعر الملحمي ، بيد أن عالم الشاعر هسيود مغاير بل مناقض لدنيا هوميروس . فقد عاش في بيوتية (Boeotia) في أواسط اليونان حوالي عام ٨٠٠ق.م، وفي كتابه «أعمال وأيام» يصف انماط حياة الفلاحين ويتطرق عرضاً لوصف سهول بيوتية الموحشة ، بعد ان دهمها الجفاف والصقيع وطغيان الارستقراطية الشرهة . وكان على راسخ الاعتقاد بأن زيوس (Zeus) يحفل بالخطأ والصواب ، وان العدل ابنته . اما قصيدته الاخرى وعنوانها تيوغومية (أصل الآلهة وتحدرهم)(Theogomy) ، فيحاول فيها تتبع أصل الآلهة ـ بشكل منظم ـ ويعيد فيها رواية العديد من الاساطير ذات الصلة بخلق العالم . وبوضوح يمكن مشاهدة أثر الشرق الأوسط فيها ، ولا سيما في بعض التأملات البسيطة عن أصل الكون . وفي نهاية القرن السادس فقدت التقاليد الملحمية نضارتها ، وظلت على حالها من الخمود حتى انتعشت من جديد في الفترة الهيلينية ، أما الشعراء القلائل الذين نظموا ملاحمهم فلم يخلفوا وراءهم سوى النزر اليسير باستثناء اسمائهم .

الشعر الغنائي : يعطينا هيسيود صورة عن نفسه ، على عكس هوميروس ، شأنه شأن الشعراء الغنائيين . وإذا استثنينا بندار وبكيليدس (Bacchylides) اللذين كتبا في نهاية الفترة الكلاسيكية ، لم يصلنا من الأعمال الغنائية لهذه الفترة سوى اجزاء ضئيلة . وكان في اليونان شعر غنائي تدور موضوعاته حول سائر حوادث الحياة الكبرى وجميع مشاغلها . وهنا كذلك نجد الطريق معبداً للانتقال من الشاعر المجهول الى الشاعر الفردي.

تشمل كلمة غنائي أنواعاً عديدة من القصائد، فهناك القصائد التي تغنى أحياناً بمصاحبة المزمار(الفلوت)سواء غناها أفراد أو مجموعات وقد سميت ملك(Melic) وهناك المراثي التي يتناوب فيها بيت من البحر الملحمي المعروف بالسداسي (سداسي التفاعل) مع بيت أقصر . واقترن هذان البيتان تقليدياً بالندب ومصاحبة المزمار، الا انهما استعملا كذلك للشعر الشخصي سواء انشد أو ردد . وهناك البحر الرباعي المسمى «أيامباك» (Iambic) (بحر الوحدات العروضية المؤلفة بشكل رئيسي من

أربع وحدات ، يتألف كل منها من مقطعين اولهما قصير وثانيهما طويل) وقد استعمل تقليدياً للتهكم اللاذع أو الهجاء المقذع ، أو النقد الساخر ولم يستعمل للغناء بشكل اعتيادي.

وإذا كان ارخيلوخس من سكان باروس (Paros) قد كتب حقاً حوالي عام ٧٠٠ ق .م ، فهو ولا مرية أول شاعر أتى في فترة ما بعد الملحمة. وتدل الأجزاء من قصائده القليلة على شخصيته اللاذعة التي اطلقها على سجيتها ، كما تعكس الحياة المضطربة لمغامر خائب جياش العاطفة ثائرها ، مر اللسان بالناس ، ذماً وقدحاً ، ساخر بالتقاليد . وبالرغم من ان شعره غير تعليمي فقد اعتبره القدامى شاعراً رئيسياً .

أما الشعراء الذين خلفوا أرخيلوخس ، أمثال سيمونيدس (Semonides) من أمورغوس (Amorgos) وهيبوناكس (Hipponax) من أفسوس (Ephesus) فهم أقل شأناً . وبشكل عام ، انحدر شعراء المراثي ، شأنهم شأن شعراء التهكم والنقد الذين نظموا على البحر الرباعي ، من الجزر والاقاليم الأيونية من آسيا الصغرى . ومن اشهرهم كلينوس (Callinus) من افسس وممنرمس (Mimnermus) من المدينة المجاورة كولوفون (Colophon) وهو معاصر للسياسي الأثيني صولون (Solon) . وعلى البر اليوناني استثار ترتايوس (Tyrtaeus) همم الاسبارطيين في نضالهم المرير ضد الثائرين الميسينيين في السنوات التي تلت عام ٦٥٠ ق.م، وتعتبر قصائده الحماسية ذات قيمة تاريخية اكثر منها أدبية ، وينطبق هذا الى حد ما على الشعر المفرغ في بحور مرثاوية أو هزلية أو تروكية (Trochaic) (يتألف هذا البحر من أربع وحدات قوام كل منها مقطع طويل يتلوه مقطع قصير) صاغ بها صولون شعره الدعائي . ونحا كزنوفانيس (Xenophanes) المولود حوالي عام ٥٦٠ ق .م في قصائده المنحى نفسه لنشر افكاره الثورية والدينية والأخلاقية . ويبدو ان قصائد المراثي التي تعزى الى ثيوجنيس (Theognis) ذات تواريخ متنوعة ، وتصلح للأداء على الموائد الخضراء، وقد نظم معظمها حوالي ٥٤٠ق.م الا ان بعضها يعبر بشكل صارخ عن

كره الحكام الذين قفزوا من الحضيض ليحلوا محل الطبقة الارستقراطية في ميغارة (Megara) . وما خلا هذا النمط من شعره فمجرد قصائد غزل موجهة للصبي سيرنوس (Cyrnus) واقوال مأثورة ومجرد حكم واخلاقيات يونانية شائعة . ومع بدء القرن السادس ظهر نوع جديد من الشعر في جزيرة لسبوس (Lesbos) نظمه باللهجة الايونية المحلية افراد من الطبقة الارستقراطية المتحزبين المشاغبين ، ومن أعلامه الكيوس (Alcaeus) (المولود حوالي ٦٢٠ ق . م) الذي انغمس في التحريات السياسية والحرب الاهلية مندفعاً بالتعبير عن مشاعره بشكل مباشر أخاذ تنفيساً للكره الاعمى والفرح اللذين لا حدود لهما . وبالاداء المباشر ، والرشاقة المتناهية نفسهما ، تحدثت صافو (Sappho) المعاصرة والاكثر حداثة ـ والتي يبدو انها تمتعت بحرية لم تعرفها نساء البر الاغريقي ـ تحدثت عن أولئك الذين كرهتهم او شغفت بهم حباً رغم ان ما شاع من اخبار علاقتها بالبنات اللواتي ذكرتهن في قصائدها قليل لا يروي غليلاً . أما القصائد التي وصلتنا من شعر خلفها أنكريون (Anacreon) من تيوس (Teos) فتوحي غزلياً بطابع اكثر بهجة .

ويقترن الشعر الغنائي الكورالي بالاجزاء الدُورية (Dorian) من البر اليوناني والمستوطنات في صقليةوجنوبي ايطاليا ، على حين كان الشعر الغنائي الفردي من نتاج الساحل الأيوني وجزر بحر إيجة . وهكذا نرى أن الاغاني الكورالية التي تصاحبها الموسيقى بالغة التعقيد في تركيبها لانها لم تستعمل البحور الشعرية التقليدية ولا مجموعاتها وانما كان لكل قصيدة منها بحرها الخاص الذي لا تشاركها به قصيدة أخرى ، مع ان الوحدات العروضية التي تتألف منها المقاطع او الاستروفية كانت تغرف من معين واحد . وبدوره كان شكل «الاستروفية» يتكيف مع الرقصة التي توافقها . وبالنسبة لبندار ، ارتبط نمط هذا الفن المعقد بشكل رئيسي بمراسيم عبادة الآلهة ، او بمراسيم الاحتفال بالمنتصرين في الألعاب الهيلينية .

وكان ألكمان (Alcman) من اسبارطة (عاش حوالي ٦٢٠ ق . م) اول شاعر نظم قصائد كورالية وصلتنا . وبعد فترة نرى ستسيكورس (Stesichorus) يعمل في صقلية ، ويعيد من رواية الاساطير العظيمة وصياغتها شعراً غنائياً ، وهذه مرحلة هامة في تطور القصص الشعري . أما سيمونيدس (Simonides) من كيوس (Ceos)

في ايونية فكان ـ من بين الشعراء الاغـريق ـ الاكثـر تنويعـاً في الشعر ، تلتهب العواطف على ايقاع كلماته ، وان اشتهـر بمراثيـه ، وبخاصة قصائده التي رثى بها الجنود اليونان في حربهم ضد فارس .

وكان بندار من ثيبة في بيوتية (المولود عام ٥١٨ أو عام ٥٢٢ والمتوفى بعد عام ٤٤٦ ق .م) اعظم شعراء الغنـاء الـكورالي ، واشتهـر بشـكل خاص بقصائـده الغنائية التي نظمها تكريماً للمنتصرين في حفلات الألعاب الكبرى التي كانت تقام في اولمبيا ودلفي وبرزخ كورنثـة (Corinth) ونيمية (Nemea) . وكان مؤمنـاً بأنـه يستعمل موهبته استعمالا مشرفاً بتكريمه الرياضيين ساعة انتصارهم ، اذ يرفعهم الى مستوى الابطال القدامى الذين يزعمون انهم تحدروا عنهـم . امـا آخـر الشعـراء الغنائيين فكان بكيليديس (Bacchylides) (اشتهر في القرن الخامس ق.م) وتتصف اعماله الادبية بضحالة المعنى والتصنع المتقـن شكلاً ، كما تعـكس انحـدار قيمـة الاساطير .

المأساة : يعتقد بشكل عام ان المأساة تطورت من الترانيم الكورالية الحماسية المعروفة باسم «ديتيرامب» (Dithyramb) وهي أناشيد دينية كورالية تتجه بالانشـاد لعبادة ديونيسوس . وأول من تصدى جدياً للنظم في هذا المجال هو أريون (Arion) من لسبوس، وكان يعمل في كورنثة حوالي ٦٠٠ ق.م، ثم جاء تسبس (Thespis) (القرن السادس قبل الميلاد) الذي ربما ابتكر المأساة بمزجه الترانيم الحماسية ببعض مراسيم العبادة الاتيكية للاله ديونيسيوس من اليوثيرة (Eleutherae) ، وذلك بأن أدخل ممثلاً يتحدث مع قائد الكورس . وبذا غدت هذه العروض ظاهرة منتظمة من ظواهر الاحتفال العظيم بديونيسوس في أثينة حوالي ٥٣٤ ق.م أما اسخيلوس (٥٢٥/ ٥٢٤ ـ ٤٥٦ ق.م) فهو وجه المأساة الحقيقية، لأنه أدخل ممثلاً ثانياً ، رغم ان التركيز في مسرحياته ظل على الكورس الذي يتوجه اليه ممثلوه بأحاديثهم، وليس الى بعضهم بعضاً . .

وكان كل من الشعراء المتبارين الثلاثة في احتفالات ديونيسيوس يقدم ثلاث مسرحيات مأساوية ومسرحية هزلية عربيدة أو مسرحية هزلية الشكل جدية المحتوى تتضمن كورساً تزيا بزي الساطير (Satyr) (وهو إله يوناني من آلهة الغابات نصفه

إنسان والنصف الآخر حيوان) . وعلى عكس الشعراء الذين أتوا بعده افرغ اسخيلوس مآسيه الثلاث بوحدة درامية متكاملة تعالج قصة واحدةكما هي الحال في الأورسيتا (Oresteia) الثلاثية الوحيدة التي وصلتنا كاملة . ولم يكن هدفه الرئيسي الاثارة الدرامية ورسم الشخصيات ، بل عرض العمل الانساني وعلاقته بمشيئة الآلهة ذوي الكلمة المهيمنة على مصير الانسان .

وخلف اسخيلوس سوفوكليس حوالي (٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق .م) والذي غالباً ما تخلى عن ممارسة الكتابة بالثلاثيات ، وقلل من شأن الكورس وأدخل ممثلاً ثالثاً . وكان عمله هو الآخر مبنياً على الاساطير ، وبينما حاول اسخيلوس ان يوضح كيف تمارس مقدرات الآلهة تأثيراً على حياة الانسان ، كان سوفكليس اكثر استعداداً لتقبل الآلهة كما هي ، وكشف عن قيم الحياة كما يمكن ان يعيشها الناس ضمن الاطار التقليدي للمقاييس الاخلاقية ، وكرس مهارته في السيطرة على الحركة المسرحية والتمكن من ادارة الحوار لعرض الساعات الحاسمة والمأساوية في حياة رجال ونساء هم بطوليون وبشر بآن معاً أمثال أوديب (Oedipus) .

كان يوربيديس (حوالي ٤٨٠ ـ ٤٠٦) ، آخر الشعراء المأساويين الثلاثة ، يمت الى عالم مختلف ، لانه عندما بلغ طور الرجولة كانت المعتقدات التقليدية للاغريق ـ كما طالب السفسطائيون بحق ـ قد محصت على ضوء العقل . وتلك تجربة قاسية بالنسبة للكثير مما في الديانة الاغريقية التي اثبتت انها سهلة المأخذ . وقد عم التساؤل كل بنية المجتمع وقيمه ، ولم تكن هذه الحركة ـ في غالبيتها من النقد الهدام ـ غير مناسبة لطبيعة يوربيديس . الا انه ـ ككاتب مسرحي ـ كان مضطراً لان يستقي حادثة من الأساطير التي فقدت معناها الى حد كبير بالنسبة له ، ويكيّفها بحيث تغدو متنفساً لعرض المشاكل المعاصرة التي كانت محور اهتمامه الحقيقي . ومع ان العديد من مسرحياته ، يعاني نوعاً من عدم الانسجام الداخلي ، فان رهف احساساته وعمق تصويره النفسي ونفاذ بصيرته جعلته أقرب الكتاب المسرحيين الاغريق الى الذوق الحديث . وهناك دراسات رائعة عن العاطفة في أعمال غير عاطفية كلياً كمسرحيتي ميدية (Medea) وهيبوليتوس (Hippolytus) ، وتصوير حي للجمال والروعة المتعلقين بالتصوف الديني في مسرحية باخي (Bacchae) ، وتقليل من

شأن القيم الى درجة سخيفة في اسطورة تبرر قتل الام فيمسرحية الكترا (Electra) ، وميلودراما ذات طابع رومانسي في مسرحيتي «هيلين»(Helen) «وافجينية في طورس» (Iphigenea in Tauris) .

الملهاة: نشأت الملهاة ـ شأنها شأن المأساة ـ من طقوس تكرم ديونيسوس، وهي مشحونة بالذم والبذاءة دفعاً للشر وتشجيعاً للخصب. ولربما كان الجزء من المسرحية الذي يقطع فيه الكورس العمل المسرحي ، ويخاطب الجمهور معلقاً على حوادث الساعة وعلى الشخصيات المعاصرة ، تقليداً انحدر من مثل هذا المسرح الصاخب . اما العنصر المسرحي فلربما أخذ من المسرحية الدورية (Dorian) العلمانية الخالية من الكورس . ويقال انها نشأت في ميغارة (Megara) وتطورت في سرقسطة على أيدي ابيكارموس (Epicharmas) حوالي ٥٣٠ ـ ٤٤٠ ق .م) وهي تشبه المسرحية القديمة التي تألفت من مشاهد قصيرة واقعية مأخوذة من الحياة اليومية والمسماة مايم(Mime) . وقد كتب سوفرون السرقسطي (Sophorn) مثل هذه المشاهد في وقت لاحق ولم يبق منها الا اجزاء قليلة . ومع ذلك فهي هامة لتأثيرها على صيغة حوار أفلاطون وعلى «المايم» الهيلينية وفي أثينة اصبحت الملهاة جزءاً رسمياً من احتفالات ديونيسوس بعد عام ٤٨٦ ق. م، وكان كرتينوس(Cratinus) أول شاعر كوميدي عظيم . وبعد حوالي ٥٠ عاماً هذب أرستوفانس (Aristophanes) ويوبولس (Eupolis) من خشونة الشعراء الاوائل . ومع ذلك فقد ظلت الكوميديا القديمة لأرستوفانس لا تبارى لما اتسمت به من خيال جامح ، وقدح لا يعرف الشفقة ، وبذاءة عديمة الخجل ، وحرية في النقد السياسي . وسوفكليس هو المسرحي الوحيد الذي وصلتنا مؤلفاته، ومن ضحايا لاذع نقده كليون (Cleon) السياسي وسقراط الفيلسوف ويوربيدس الشاعر وقد ظهر الأول منهما في ملهاة الفرسان (The Knights) ، والثاني في ملهاة الغيوم(The Clouds)، والثالث في ملهاة تيسموفوريازوسي (Thesmophoriazusae) والضفادع (The Frogs) بينما تسخر مسرحية الطيور(The Birds) بشكل مهذب ـ من الديمقراطية الاثينية .

لقد عاش أرستوفانس الى ما بعد سقوط أثينة ، الا ان الملهاة القديمة فقدت مكانتها في الديمقراطية التي بعثت للحياة مجدداً . حدث الانتقال من الكوميديا القديمة الى الكوميديا المتوسطة في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد ، لكن لم يصلنا اي نموذج كامل التطور عن هذه الكوميديا ، ويبدو أنها تميزت باختفاء الكورس والنقد السياسي المكشوف ونمو النقد الاجتماعي والتقليد الهزلي . وكان انتيفانيس (Antiphanes) والكسيس (Alexis) ابرز من جلّوا في هذا المجال ، وقد أدت الحيل الفنية المعقدة التي تضمنتها بعض مسرحياتهم الى تطوير الكوميديا الجديدة في نهاية القرن ، ويمثلها ميناندر (Menander) أحسن تمثيل . ولم يصلنا من أعمال هذا الأخير البالغة (١٠٥) مسرحيات سوى مسرحية واحدة كاملة هي كوميديا ديسكولس (Dyscolos) وأجزاء من مسرحيات أربع اخرى . تعود الكوميديا الجديدة في بعض أصولها الى تراجيديا يوريبيدس، وتدور حبكتها المميزة حول قصة قديمة سربلت حلة مدينية للعذراء التي نازعها العفاف أحد الآلهة فحملت منه سرّاً ، ثم تخلت عن مولودها لتتعرف عليه فيما بعد بوساطة حلية بسيطة تركتها في مهده . ويتحول الآله في القصة الى واحد من شباب اللهو في المدينة ، أما الطفلة فيتعشقها واحد من شباب المدينة ، ويعقد عليها بسرور عندما يتبين انها سليلة ابوين من الاحرار .

<u>التاريخ</u> : يعتبر هيرودتس (Herodotus) من هليكارناسوس (Halicarnassus) أول مؤرخ اغريقي، وهو الى جانب ذلك جغرافي وعالم اجتماعي وموضوع تاريخه الذي كتب معظمه للقارىء الأثيني هو الصدام ما بين أسية وأوروبة الذي بلغ الأوج في الحروب الفارسية . أما وقائع الحرب نفسها التي تكاد تملأ النصف الثاني من كتابه فيبدو أنه الفها بعد تحقيقات مضنية بمشافهة من تذكروا الحرب التي جرت وقائعها عندما كان هيرودتس في طور الطفولة او ربما قبل ذلك . وتاريخ هذا المؤرخ بمجموعه عمل رائع في شموله مع انه سيىء التلاحم في بعض أجزائه التي يوحد فيما بينها الشعور بقوة مهيمنة تكبح جماح الكون والبشرية ، وتضفي بساطة نثره وانسيابه على الكتاب سحراً خاصاً به .

ربما كان ثيوسيديدس (Thucydides) (حوالي ٤٦٠-٤٠٠ ق.م) أول رائد من الطراز الأول يمحص عقلياً وبشكل مسهب طبيعة القوة الأساسية والعوامل التي تقرر سياسة الدول . واكتسب باعتباره عضواً في هيئة القيادة علماً عملياً في الطريقة التي تمارس بها السياسة . وبعد أن فشل في انقاذ امفيبولس (Amphipolis) عام ٤٢٤ ق.م قضى عشرين عاماً في المنفى احتسبها فرصة مناسبة للوقوف على الحقيقة من كلا الطرفين المتنازعين . وكانت الحصيلة تاريخاً حربياً وسياسياً ضيق النطاق ولكنه من نوع ثاقب . لقد تحرى ثيوسيديدس أثر المميزات النفسية والصدف على الأفراد والأمم . ويمكننا أن نستنتج ما توصل اليه عبر الأحاديث العديدة التي وضعها على ألسنة شخصياته التاريخية . وهو قليل التعصب ولكننا نرى اعجابه بالسياسي الأثيني بركليس (Pericles) وكرهه لخصمه كليون (Cleon) .

وكما ابتدأ ثيوسيديدس تاريخه من حيث انتهى هيرودوتس وصل كزنوفون (Xenophon) (٤٣١ - وتوفي قبل ٣٥٠ ق .م) بتاريخه هلينيكة (Hellinica) ما انقطع عنده تاريخ ثيوسيديدس غير الكامل عام ٤١١ ، وامتد حتى عام ٣٦٢ ق .م . ويتسم تاريخه بالسطحية اذا ما قورن بثيوسيديدس، لكنه كتب كتابة العالم في القضايا الحربية ، وعلى ذلك فأفضل انتاجه كتابه «اناباسيس» (Anabasis) وفيه يصف اشتراكه في المغامرة كجندي في جيش يوناني مرتزق استأجره الامير الفارسي قورش كي يزيح اخاه عن العرش ، ولكن القائد اليوناني لقي مصرعه واضطر جيشه للانسحاب منكفئاً من قرب مدينة بابل حتى شواطىء البحر الاسود . وكتب كزنوفون مؤلفات اخرى بمديح سقراط ، ولكن تقويمه وتقديره له كان ناقصاً . ولم تصلنا أية كتابات تاريخية من القرن الرابع باستثناء قطعة من ورق البَرْديِّ تضم سجلاً هو حوليات لاحداث ٣٩٦-٣٩٥ ق .م . اما ما اعقب تلك الفترة من كتب فمتدنية المستوى حتى لكأنها مجرد كلمات جوفاء طنانة .

البلاغة والخطابة : قليلة هي المجتمعات التي أعطيت القدرة على الخطاب الطلق والمقنع حق قدره اكثر مما أعطَى اليونانيون ، وحتى في مؤلفات هوميروس هناك خطابات كاملة البلاغة ، لكن قيام اشكال من الحكم الديمقراطي زاد في زخم

دراسة فن الاقناع وتعلمه ، وكل ذلك ضروري للنقاش السياسي في الجمعية العامة ، وللمرافعات في محاكم القضاء . ويبدو ان الدراسة الرسمية للبلاغة نبعت في سرقسطة حوالي ٤٦٠ ق . م . ومن اعلامها كوراكس (Corax) وتلميذيه تيسياس (Tisias) وجورجياس (Giorgias) (المتوفي حوالي عام ٣٧٦ ق . م) وكان الأخير بالغ الأثر كذلك في أثينا . ويشتهر كوراكس بأنه اول من كتب مرشداً في علم البلاغة وعالج مواضيع عدة كالنقاش بدءاً مما هو معقول القول وممكنه والأجزاء التي يجب ان تقسم اليها الخطب . ونسب معظم السفسطائيين لأنفسهم أنهم اساتذة فن الكلام وبخاصة بروتاغوراس (Protagoras) الذي ادّعى أنّ وجهة النظر الضعيفة في النقاش يمكن ان تكون لها الغلبة بتوسل المهارة في الحديث ـ وبروديكوس (Prodicus) من كيوس (Ceos) الذي ميز بين خمسة ظلال من المعاني .

كان انتيفون (Antiphon) (حوالي ٤٨٠ ـ ٤١١ ق . م) ، وهو أول كاتب خطب محترف ، خصماً للديموقراطية ذو نفوذ . وانتهى الينا من اعماله ثلاثة أحاديث تتعلق بقضايا القتل . كما وصلتنا ثلاث رباعيات ، وهي مجموعات عمادها زوجان من الخطب ، في اطار من الحجج التي يستخدمها الطرفان المتحاوران في حالات قتل وهمية . وفيها عبَّر الكاتب عن آرائه متوسلاً افكاراً بدائية ، بتصور ذنب سفك الدم وواجب الانتقام . ويتصف اسلوب انتيفون بالوضوح والاعتماد على توازن الجمل والتعبير الذي ينقصه الصقل . اما جورجياس الصقلي الذي زار أثينة عام ٤٢٧ ق . م فأسلوبه يعتمد على توازن الجمل ، والتنسيق المنتظم فيها والتعقيد ، والتنقل ما بين القافية والسجعة . واسهم تراسيماخوس (Thracymachus) من كاليدونيا (Chalcedon) مساهمة أكبر بفن البلاغة ، وذلك بتطويره اسلوباً خطابياً رناناً يعتمد التوقع وتعليق الاخبار في جُمَلِهِ .

كتب اندوسيديس (Andocides) (ولد حوالي ٤٤٠ ق . م وتوفي بعد عام ٣٩١) الذي قضى شطراً طويلاً من حياته منفياً في أثينا ثلاث خطب تتخللها قصص حية ، الا أنه باعترافه كان هاوياً كخطيب . أما ليسياس (Lysias) (ولد حوالي ٤٥٥ ق . م وتوفى بعد عام ٣٨٠ ق . م) فقد عاش في أثينا كأجنبي يكسب عيشه بعد أن فقد

ثروته ، بما يدبج من خطب . ولاسلوبه البسيط السلس سحره البين ، وتبين خطبه التي كتب بعضها لمترافعين من الطبقات الدنيا ، كيف يتكيف الاداء ليتناسب وشخصية المتكلمين ، مع ان أمتع خطبه وأهمها تتمحور على مهاجمة إيراتوستين (Eratosthenes) احد الثلاثين طاغية الذين فرضتهم اسبارطة على أثينا عام ٤٠٤ ق .م . وتتضمن هذه الخطبة وصفاً رائعاً لحكم الرعب الذي مرت به أثينا خلال حكمهم .

نشط أسايوس (Isaeus) في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد . وتلقي خطبه الاثنتا عشرة التي وصلتنا الضوء على نواح من القانون الاثيني . اما ايسوقراط (Isocrates) ـ الذي كان بليغ الاثر في أثينا سحابة نصف قرن قبل وفاته عام ٣٣٨ ق .م فقد اتقن اسلوباً نثرياً خطابياً قوبل بالرضا العام عندما طبق على اللاتينية . كما ساعد على تبوّؤ البلاغة منزلة السيادة في النظام التعليمي للعالم القديم . ويكشف ايسوقراط في كتاباته ، التي هي أقرب الى الكتيبات ، وان اتخذت شكل خطب ، عن عمق اطلاعه على خفايا القلاقل السياسية التي انتابت المدن اليونانية غير القادرة على التعاون فيما بينها ، مما أسفر عن خصومات لا نهاية لها . ومع ذلك تنقص ايسوقراط حرارة النبرة ونبضها . وأسلوبه على الغالب رتيب .

وكان ديموستين (Demosthenes) (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق .م) أعظم الخطباء قاطبة . رغم ما ينقصه من بعض المهارة البلاغية المرهفة الدقيقة ـ متفوقاً بعنفه وشدة مراسه . وكانت خطبه سياسية بشكل رئيسي . وخير ما يذكر به معارضته ، مجسدة في الفيلبّينات ، مطامع مقدونية تحت حكم ملكها فيليب الثاني ، باخضاع البر اليوناني . وبعد وفاته ذوت الخطابة مع اضمحلال الخلفية السياسية التي بلغت بفضلها هذه المنزلة من الأهمية . وفي هذا المجال لا بد من ذكر خطيبين اثنين عاشا في القرن الرابع قبل الميلاد ، وهما هايبريديس (Hayperides) (ولد حوالي ٣٩٠ ـ ٣٢٢ ق.م) وليكورغس (Lycurgus) (ولد حوالي ٣٩٠ ـ ٣٢٤ ق.م) .

الفلسفة : يتمثل نبع النثر الفلسفي ، وهو أكبر انجاز أدبي في القرن الرابع بسقراط (الذي لم يكتب شيئا) بأسلوبه المتميز في التعليم والجاري على شكل سؤ ال

وجواب ، والآيل حكما الى الحوار . كان اليكسامينوس(Alexamenus) من تيوس (Teos) وانتيستينيس(Antisthenes) ـ وكلاهما من تلامذة سقراط ـ أول من استعمل الحوار. ولكن رافع رايته الاعظم هو افلاطون الاثيني (حوالي ٤٢٨ ـ ٣٤٨/ ٣٤٧ ق . م) الذي كتب بعد وفاة سقراط مباشرة عام ٣٩٩ ق . م بعض الحوار ، ومعظمه قصير . وتحت هذا النوع من الكتابة تصنف مؤلفاته التالية : اعتذار(Apology) وبروتاغوراس(Protagoras) وجورجياس(Gorgias) وفي نهاية العقد الذي تلا عام ٣٨٥ ق . م دفع للتراء بسلسلة من الاعمال الرائعة مثل فيدو(Phaedo) وفيدرس (Phaedrus) وسمبوزيوم(Symposium) والجمهورية(The Repuplic) . وتعتبر كتاباته عن سقراط اكثر الشخصيات المرسومة بعناية في الأدب الاغريقي . اما حواره الذي تلا ذلك فهو أكثر فلسفة وأقل طلاوة ، اذ تحول سقراط فيها الى مجرد ناطق بفلسفة افلاطون . وفي آخر مؤلفاته «القوانين» (The Laws) انقلب الى مجرد شخص اقل تنميقاً في كتاباته . ويتميز اسلوب افلاطون بجماله الذي لا يضارع ومع ان النقاد القدماء الذين قيدوا أنفسهم بالقوانين التي ابتدعوها وجدوه شاعرياً اكثر مما يجب ، فليس هناك من تجربة إنسانية لا تقع في مداه . وهو يتلاءم مع كل خطوة من خطوات النقاش المتطور ، بالغاً بالفصاحة الاوج في كلمته عن مصير الانسان ، وعاكساً بصدق مماثل ومرح حفلات الشراب وطلاوتها وعظمة سقراط في زنزانته .

أما أرسطو تلميذ افلاطون (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) فقد حظي باعجاب العالم القديم لفصاحة أسلوبه . الا ان سائر مؤلفاته التي وصلتنا تعتبر وقفاً على فئة خاصة من الناس وكتبت لتستعمل في مدرسته الفلسفية والعلمية المسماة بالليسيوم (Lyceum) . فهي خالية من الرشاقة الادبية ، وتقارب في شكلها احياناً رؤوس الاقلام التي تؤخذ في المحاضرات . وكان لكتابيه البلاغة (Rhetoric) وشاعريات (Poetics) اللذين طرحا مواضيع ادبية ـ وبخاصة كتابه الثاني ـ أثر بالغ على النظريات الأدبية في القرون التي تلت عصر النهضة وفي العالم القديم . وعرفت مبادىء ارسطو ـ بشكل رئيسي ـ عبر مؤلفات خلفه تيوفراستس(Theophrastus) (حوالي ٣٧٢ ـ ٢٨٨/ ٢٨٧ ق . م) التي ضاعت كلها باستثناء كتابين عن النباتات ، ومجموعته الشهيرة عن الثلاثين شخصية . وهي صورة لنماذج بشرية نهج

على تقليدها الكتاب الانكليز في القرن السابع عشر . وبزوال تيوفراستوس ، خمد النثر الايتيكي بعض الوقت . اما النثر الفني في هذه الفترة فغزير ، لكن البلاغة غدت مجرد كلمات منمقة بعد ان تحولت الى محض تمرين ادبي لا صلة له بالسياسة .

الأشكال الشعرية المتأخرة : انحصرت الفترة الخلاقة للعصر الهيليني بالقرن الثالث قبل الميلاد تقريباً . واليها يرجع ثلاثة من الشعراء البارزين هم ثيوقريطس (Theocritus) وكاليماخوس (Callimachus) وأبولونيوس (Apollonius) من رودس (Rhodes) . واشتهر ثيوقريطس (حوالي ٣١٠ ـ ٢٥٠ ق.م) المولود في سرقسطة بأنه مبتكر التقليد الرعوي او الشعر الرعوي ، الذي عرض فيه مشاهد من حياة الرعاة في صقلية وجنوبي ايطالية ، والى جانب ذلك وصر مشاهد من حياة الطبقة المتوسطة . وفي انشودته الرعوية الثانية التي يصور فيها شخصية سيماثة (Simaetha) التي تحاول ـ متوسلة السحر ـ ان تستعيد حب الرجل الذي هجرها يبلغ حدود المأساة . كما استعمل شكلاً آخر من أشكال الأدب الهيليني المسمى ابليون (Epylion) وهو عبارة عن مشهد قصير من الشعر القصصي البطولي ، يتسم بالواقعية المرحة ، والوصف النفسي الدقيق ، الأمر الذي ينقص من شأنه البطولي . وعلى يديه بلغ بحر السداسي (سداسي التفاعيل) صفاء وحلاوة غنائية لا تضاهى . لقد كان أول شعراء الطبيعة ، وخلفه في ذلك موسخس (Moschus) وبيون (Bion) .

اما كاليماخوس (Calimachus) الذي اشتهر حوالي ٢٦٠ ق .م فكان عالماً الى جانب كونه شاعراً. وأهم عمل أدبي له وصلتنا منه أجزاء كبيرة قصيدة تأملية عنوانها آيتية (Aitia)، وتصف أصول بعض الطقوس والعادات مثقلة بالعلم . الا ان منثورات تخللتها من القصص الممتع تضفي عليها صبغة التنوع . وتدل ترانيمه الست على خبرة شعرية راسخة دونما شعور ديني ، لأن آلهة جبل الاوليمب قد بادوا منذ عهد بعيد . كما كتب قصائد قصيرة من النوع الذي يطلق عليه شعر الحكمة (Epigram) وصلتنا أجزاء منها منظومة على بحر الايمب (Iambic) ، وهو بحر يتألف من مقطع صغير يتلوه مقطع طويل في التفعيلة ، وقد شاع جداً في القرن الثالث

لشجب خيلاء هذه الحياة وأباطيلها . ولهذه المقطوعات التي داخلها النثر احياناً صلة بالنقد اللاذع ، وكان المع من اشاعها بيون البورستيني (Bion The Borysthenite) ومنيبوس (Menippus) من غادارا (Gadara) وسيرسيداس (Cercidas) وفينكس (Phoenix) من كولوفون (Colophon) .

وجانب كاليماخوس الملحمة مركزاً على القصائد الاقصر ، وكان خلفه في الاسكندرية ابولونيوس (Appolonius) (ولد عام ٢٩٥ق.م في رودس) آخر من نظم ملحمة يونانية وصلتَ إلينا ، إلا ان وصفه لرحلة أبطال السفينة آرغو Argonauts المغامرين مشحون بالاساطير لدرجة افقد القصيدة ترابطها . وتتصف قصة غرام ميديا (Medea) المدلهة بجاسون (Jason) قائد زعيم أولئك الأبطال بنوع جديد من الادراك الابداعي الذي يتحقق بشكل كامل في حادثة هيام ديدو (Dido) باينياس (Aeneas) في اينادة (Aeneid) فيرجيل .

هذا وقد أدت الرغبة في ربط العلم بالشعر الى احياء الشعر التعليمي . فقصيدة فينومينا (Phaenomena) للشاعر اراتوس (Aratus) من صولي (Soli) حوالي (٣١٥ - حوالي ٢٤٠ ق .م) ليست سوى نظم شعري لمقال عن النجوم كتبه ايودوكس (Eudoxus) من كنيدوس (Cnidus) (حوالي ٣٩٠ - حوالي ٣٤٠ ق.م). وحالفنا الحظ بحفظ قصيدة نيكاندر (Nicander) (ربما كان من القرن الثاني قبل الميلاد) وهي قصيدة لا يتوقع النظم بموضوعها الذي يدور حول عضات الحشرات والحيوانات ، وطرق العلاج منها ، وحول البلاسم المستعملة ضد السموم .

اما القصائد الهزلية من نوع «المايم» لهيروداس (Herodas) من القرن الثالث ق .م فواقعية مختزلة للحياة الدنيا ، ومنظومة على بحر «الايامب»، وهي قريبة الصلة بقصائد ثيوقريط الهزلية وغير الرعوية ، وربما اعطتنا تلميحاً الى شخصية أدب الترفيه الشعبي الذي فقد معظمه. فقد كانت المحاكاة وبخاصة الصامتة منها التسلية الرئيسية خلال الفترة الاولى من الامبراطورية الرومانية .

اضمحل النشاط الشعري بعد منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بشكل عام مع ان الفترة الكبرى للبحث العلمي في الاسكندرية وبرغاموم (Pergamum) لم تحن

بعد . وانتهت الينا اسماء بعض الشعراء أمثال يوفوريون (Euphorion) المولود عام ٢٧٥ في تشالسس (Chalcis) وبارثينيوس (Parthenius) (نشط في القرن الاول ق .م) استاذ فيرجيل . وبعد هذه الفترة جمد الادب اليوناني تقريباً باستثناء احياء متقطع في القرن الرابع بعد الميلاد . والاستثناء الوحيد في هذا الصدد هو الشعر الحكمي (القصائد القصيرة ذات الصبغة التعليمية) المنظوم في مزدوجات تأملية ، وقد وصلنا في مجموعتين هما المجموعة البلانودية (Planudean) والمجموعةالبلاطينية (Palatine) .

الأشكال المتأخرة من النثر : عبثت يد الضياع بمعظم نثر الفترة الهيلينية وما بعدها ، سواء كان تاريخياً أو علمياً أو تعليمياً . ومن المؤ رخين يمكننا أن نذكر بوليبيوس (Polybius) (حوالي ٢٠٠ - ١١٨ ق .م) وهو أبرزهم ولم يصلنا من أعماله سوى اجزاء قليلة ، لأنه كان في رومة عندما خضعت لتباشير تأثيرات الأدب اليوناني ، وهي تحدثنا عن الحوادث التي خبرها مباشرة بكثير من العمق ونفاذ البصيرة . وغطت مؤ لفاته الفترة ما بين عامي ٢٦٤-١٤٦ ق . م - أما التاريخ العام لديودوروس سيكولس (Diodorus Siculus) (القرن الاول قبل الميلاد) فتنبع أهميته من المصادر التي استشهد بها . وأهم المؤ رخين الذين ضاعت مؤ لفاتهم هو تمايوس (Timaeus) (حوالي ٣٥٠ - ٢٥٠ ق .م) الذي اعطى بكتابه عن تاريخ اليونان في الغرب حتى عام ٢٦٤ ق .م نقطة البدء لبوليبيوس (Polybius). ومن المؤ رخين المتأخرين الذين جاءوا بعده يمكننا ان نذكر ديونيسيوس (Dionysius) من هليكارناسوس (Hallicarasus) (ازدهرت اعماله حوالي ٢٠ ق .م) وأبيان (Appian) من الاسكندرية (القرن الثاني بعد الميلاد) الذي كتب عن رومة وفتوحاتها ، وأريان (Arrian) (حوالي ٩٦ - حوالي ١٨٠م) من بيثينية (Bithynia) ويعتبر أهم مصدر قيم عن الاسكندر الكبير .

أما أهم المؤ لفات في النقد الادبي التي وصلنا القليل منها فكتبها ديونيسوس من هليكارناسوس ، ولونجانوس (Longinus) الغامض السيرة الذي تتميز مقالته

«حول السمو في الأدب»(On The Sublime) (حوالي ٤٠م) ، بأنها فريدة في تحليلها العميق للادب الخلاق. وفي هذا الصدد لا مناص من ذكر كتاب البيبليوتيكا (Bibliotheca) الذي يعزى الى ابولودورس (Appolodorus) حوالي ١٨٠ ق .م وينطوي على خلاصة مفيدة للأساطير. اما بالنسبة للأعمال العلمية كالجغرافية وعلم الفلك لايراتوستينس (Eratosthenes) (حوالي ٢٧٦ ـ حوالي ١٩٤) من الاسكندرية فمعروفة بشكل رئيسي من ملخصات أخذت فيما بعد . وقد وصلنا الكثير مما كتبه علماء الرياضيات وبخاصة اقليدس (Euclides) (ازدهرت اعماله حوالي ٣٠٠ ق .م) وأرخميدس (Archimedes) (حوالي ٢٨٧ ـ ٢١٢ ق .م). كما وصلنا العديد من مؤلفات الطبيب غالن (Galen) (١٢٩ ـ ١٩٩م) . أما معاصره سكستوس امبريكوس (Sextus Empricus) فمصدر هام لتاريخ الفلسفة الاغريقية ، وحفظ مسح سترابو للبحر المتوسط في عهد أغسطس الكثير من المعلومات القيمة ، شأنه في ذلك شأن كتاب بوسانياس (Pausanias) (القرن الثاني الميلادي) وفيه يصف اليونان ، ولكن في مجال أضيق .وكل ما توصل اليه الاغريق في علمي الفلك والجغرافيا يكثفه بطليموس (Ptolemy) الاسكندراني في القرن الثاني الميلادي .

استخدم يهود الاسكندرية اللغة اليونانية في كتاباتهم الدينية ، فترجمت السبعونية (Septuagint) ، في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، وهي النسخة اليونانية للعهد القديم . كما ألف الكثير من القصص الديني المتوارث باللغة الاغريقية وكتب العهد الجديد بالاغريقية الدارجة . بينما كان كلمنت (Clement) من الاسكندرية (حوالي ١٥٠م ـ حوالي ٢١٥م) ، وأوريجين (Origen) حوالي ١٨٥م ـ حوالي ٢٥٤م) بالاضافة الى كلمنت من روما واغناطيوس (Ignatius) من انطاكية ، من اشهر الكتاب المسيحيين الاوائل الذين ألّفوا بالاغريقية .

ظل كتاب «التراجم المتقابلة» (Parallel Libes) عن حياة عظماء الاغريق والرومان لمؤلفه بلوتارخ (Plutarch) (حوالي ٤٦م ـ حوالي ١١٩م) من خايرونيا (Chaeronea) في بيوتية (Boeotia) أحد المصادر التي كونت عقول المثقفين الاوروبيين لقرون عديدة . وفيه يعرض المؤلف شخصيات عظيمة من ماض اعتبر مثالياً لتعليم معاصريه الاقل شأناً . أما الحكايات التي يزخر بها المؤلف فتختلف في

معقوليتها ، وهي مما يصلح للتراجم أكثر منها للتاريخ ، رغم كونها مصدراً هاماً للمؤ رخين . ووصلنا عدد من مؤ لفات اقل حجماً متنوعة المواضيع منها «موراليا» (Moralia) وهي تعكس التيار الفكري الاغريقي في جزره .

وكان هناك اهتمام بالغ في مسألة طالما نوقشت منذ ان توقفت أثينة عن ان تكون مدينة حرة، ومدارها هذا السؤ ال: الى أي حد يمكن اعتبار النثر الايتيكي نموذجاً على الكتاب والخطباء ان يحتذوه؟لقد جانب الكثيرون هذا النثر مفضلين عليه اسلوباً آسيوياً اكثر تنميقاً ، لكن ما لبثت ان حدثت في نهاية القرن الاول الميلادي حركة احياء للهجة أتيكة ، وباطارها دبجت الخطب والمقالات بغرض تعميمها. ويعرف هذا الاحياء بالحركة السفسطائية الثانية ، وفي عداد قادة كتابها ديوكريسوستوم (Diochrysostom) (القرن الاول الميلادي) ، وايليوس اريتسيديس (Aelius Aristedes) (القرن الثاني) وفيلوستراتس (Philostratus) (أوائل القرن الثالث) . وبكل حال يعتبر لوسيان (Lucian) (حوالي ١٢٠/ ١٢٥م - حوالي ١٩٠م) الكاتب الوحيد ذا الأهمية الكبرى . وتتصف كتاباته بالندرة ونكهتها الناقدة، الا ان موهبة النكتة المرحة المتكررة لديه أمر لا يمكن تجاهله . أما كتاب «تراجم عظماء الفلاسفة وآرائهم» (Lives And Opinions Of Famous Philosohers) فسفر قيم من القرن الثالث - لمؤ لفه - ديوجنيس ليرتيوس (Diogenes Laertius) الذي لولا كتابه هذا لما عرف .

ويتميز النشاط الفلسفي في أوائل عهد الامبراطورية ، بشكل رئيسي، بتعليم دروس أخلاقية قوامها مبدأ الرواقية ، تلك الفلسفة التي تدعو الى حياة تنسجم والطبيعة وعدم الاكتراث باللذة والالم . وقد أثر ابكتيتوس (Epictetus) (المولود حوالي عام ٥٥م) بشكل خاص على الامبراطور الروماني ماركوس اوريليوس (Marcus Aurelius) (١٢١ - ١٨٠م) ذي الميل الفلسفي بحيث اتخذ كتابه «تأملات» (Meditations) مكانه جنباً الى جنب مع مؤ لفات العبادة المسيحية الاخرى . ويمكن اعتبار الكثير من كتاب موراليا (Moralia) لبلوتارخ افلاطونية تشوبها نزعات صوفية ، الا ان أفلوطين (Plotinus) حوالي (٢٠٥ - ٢٦٠/ ٢٧٠م) وهو آخر مفكر رئيسي في العالم الكلاسيكي - اضفى اتجاهات جديدة على صوفية افلاطون وبيثاغوراس .

كانت الرواية ، وبالتالي قصص الاثارة الجنسية آخر ما تفتقت عنه العبقرية الاغريقية ، وقد تعود الى أوائل القرن الاول قبل الميلاد ، فهي ترجع بجذورها الى مسرحيات ينتصر فيها الحب ، كمسرحية اندروميدة (Andromeda) التي ضاعت لمؤلفها يوربيديس ، والى الكوميديا الجديدة ، والى أحلام يقظة كزنفون عن تعليم قورش ، والى القصص التي هي الى حد كبير مختلفة وان اعتبرت تاريخياً بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد وخير مثال على النوع الاخير « قصص الاسكندر» تلك الرواية الشديدة التشويه والتزيين لاعمال الاسكندر البطولية ، والتي كانت في العصور الوسطى واحدة من امتع القراءات المفضلة . ولربما ساعد على نشوئها القصائد التأملية الجنسية والقصائد الحكمية القصيرة . كما ردفتها القصص المليزية (Milesian Tales) الضائعة ، والتي ألفها أرستيديس (Aristedes) من ميليتس (Miletus) (حوالي ١٠٠ ق .م) مع ان الأخيرة اعتمدت كما يبدو على الفحش الذي تكاد تخلو منه القصص الاغريقية . ولم تصلنا منها سوى اجزاء من قصة نينوس (Ninos) مؤسس نينوى الاسطوري . وقد ترجع بتاريخها الى القرن الاول قبل الميلاد . بيد انه وصلتنا كاملة مؤلفات شاريتون (Chariton) (القرن الثاني الميلادي) ، وهليودورس (Heliodorus) (القرن الثالث الميلادي) وكزنفون (القرن الثاني او الثالث الميلادي) من افسوس (Ephesus) واخيل طاطيوس (Achilles Tatius) (القرن الثاني الميلادي). وجميع هذه الروايات تروي قصص محبين صادقين تفرق ما بينهم عوائق لا تحصى من الخبث الانساني والكوارث الطبيعية ، ثم يجتمع شملهم في نهاية المطاف . اما قصة « دفنه وخلوي » (Dephnis And Chloë) لمؤلفها لونغوس (Longus) (ما بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين) فتتميز عما سواها بخلفيتها الرعوية بدلاً من الخلفية شبه التاريخية . وتعود اعمال ديكتس كرتنسيس (Dictys Cretensis) وداريس الفريجي (Dares الى الفترة نفسها . ويدعي كل منهما بأنه رصد يراعه لوصف حروب طروادة قبل هوميروس . غير ان اصلها الاغريقي ضاع بكليته تقريباً ، الا ان الرواية اللاتينية لها كانت بالنسبة للقرون الوسطى المصدر الأصلي لقصة طروادة .

الفصل الرّابع

الأدب اللاّتيني القديم

كان الادب اللاتيني نتاج الجمهورية والامبراطورية الرومانيتين ، وبعد سقوط رومة ظلت اللاتينية لغة العالم الغربي الوسيط حتى حل محلها ما تفرع عنها وعن غيرها من اللغات. بدأ الأدب اول ما بدأ بتوسل الترجمة عن الاغريقية، وتلك حقيقة كان لها أكبر الأثر في تطوره، ولقد اعتبر اليونانيون أنفسهم أن الأصالة في طرائق معالجةالأدب أكثر قيمةمن إبداعه. ولقد كان الأدب اللاتيني أكثر تقليدية بما استفاده من الكتاب السابقين كمصدر لحوادث أو مواضيع او مناقشات تتكرر . وبينما نجد الاغريق متفوقين في النواحي التجريدية ، كان للرومان رؤ ية حسية تنير التعتيم الاغريقي بشواهد حية، وتفوقوا كفنانين بصياغة الكلمة اكثر منهم كمفكرين . ولكونهم شديدي الاهتام بالفردية الانسانية ، تجلت عبقريتهم في المناحي الاخلاقية والسياسية . وكان مثلهم الاعلى مضمون كلمة « انساني » باعتبارها مزيجاً من الثقافة واللطف والرقة ، وتداني مفهومنا لكلمة « متمدن » في الوقت الحاضر كما تطلق على الأفراد. ولا حاجة لقول الكثير عن الفترة السابقة لعصر الكتابة . فقد وفد الأثر الهيليني من الجنوب والأثر الهيليني الاتروسكي (Etrusco-Hellenic) من الشمال .

ولربما كان الهزل المرتجل وعماده الحركة والبذاءة والشخوص التقليدية المتكررة المقنّعة إبداعاً وطنياً مصدره كمبانية (Campania) (ريف نابلي الحديثة) . وأرجع المؤ رخ ليفي (Livy) العرض المسمى باللاتينيةساتورا (Satura) ،وهو مزيج شبه درامي، إلى الاترسكيين . وقال السياسي والكاتب كاتو (Cato) والعالم فارو (Varro) إن الشعر كان فيما سلف مناطاً بمدح الابطال ويغنى بعد الولائم بمصاحبة المزمار (الفلوت) ، وربما كانت هذه عادة اترسكية . وهذا القول ، ان صدق ، تكون « الاغاني المرحة » (Catmina Convivalia) خلفية لبعض الاساطير التي

وصلت الى ليفي . وهناك كذلك الأشعار غير المنمقة المرتجلة في احتفالات الحصاد والاعراس وبعض الصيغ التي كانت تردد كطقوس دينية . ولكن القليل الذي وصلنا منها يحتوي على الجناس والسجع ، وأقرب الكتابات الى الادب كانت بدون شك السجلات العامة والخاصة والخطب التي دونت .

الفترات الأدبية مقسمة حسب الاسلوب : يمكن تقسيم الادب اللاتيني بشكل ملائم الى اربع فترات هي : الكتاب الأوائل حتى عام ٧٠ ق . م والعصر الذهبي من ٧٠ ق . م ـ ١٨ م والعصر الفضي ١٨ ـ ١٣٣ م والكتاب المتأخرون . وفيما يلي الخطوط العامة لهذه الفترات يتلوها وصف لضروبها الأدبية وأهم كتابها .

الكتاب الأوائل : بدأت مرحلة الاعداد للأدب الروماني بالاستيلاء عام ٢٧٢ ق . م على المستعمرة الاسبارطية تارنتوم (Tarentum) وما تلاه من تدفق العبيد الاغريق الذين استخدم بعضهم لتعليم ابناء النبلاء الرومان ، وكان في عدادهم ليفيوس اندرونيكس (Livius Andrcmicus) الذي اشتهر بعد ذلك ولمع كأول كاتب لاتيني . وفي عام ٢٤٠ ق .م . ألف مسرحية أصيلة حورها عن الاغريقية ، بمناسبة الاحتفال بالنصر على قرطاجة . وأدى نجاحه الى إحداث تقليد لعرض مثل هذه المسرحيات جنباً الى جنب مع العروض الوطنية الأكثر بساطة وبدائية ، كما قام فضلا عن ذلك بترجمة الأوديسة بعد ان كيف العروض اليونانية لتناسب اللاتينية . ولكنه استعمل وزناً لاتينياً تقليدياً في تلك الترجمة شأنه في ذلك شأن غنيوس نافيوس (Gnaeus Naevius) في ملحمته المكرسة للحرب القرطاجية الأولى (وهي الاولى من ثلاث حروب خاضتها روما ضد قرطاجة) . الا ان العلماء ليسوا على يقين مما اذا كان وزن هذه الملحمة يعتمد على عدد المقاطع أو على النبرات . وتبنى انيوس (Ennius) (٢٣٩ ـ ١٦٩ ق .م) الخلاسي (نصفه يوناني) البحر اليوناني السداسي كوزن لملحمته المسماة « سجلات تاريخية »(Annales) . وكان مدى مواضيعه مترامي الاطراف اذ عرَّف روما بالعالم الهليني ، لكن لسوء الطالع لم تصلنا سوى اجزاء من مؤلفاته . وهكذا نرى ان الشخصية الاغريقية التي فرضت على الأدب اللاتيني جعلته وقفاً على النخبة المثقفة . وتبعاً لهذا برزت في

روما زمر خاصة كالحلقة التي تكونت حول القنصل الروماني الجنرال شيبو اميليانوس (Scipio Ameilianus) (١٨٥/ ١٨٤ ـ ١٢٩ ق . م) الذي قاد روما الى النصر الاخير في الحرب القرطاجية الثالثة . وضمَّت هذه الحلقة فيمن ضمته الخطيب والسياسي غايوس ليليوس (Gaius Laelius) والفيلسوف الرواقي الاغريقي باناتيوس (Panaetius) والمؤرخ الاغريقي بوليبيوس (Polybius) والناقد الهجاء لوسيليوس (Lucilius) والافريقي العبقري الذي ولد عبداً والكاتب الهزلي ترنس (Terence) . وازداد الاثر الاغريقي بعد ضم اليونان كولاية رومانية وما حدث من تدفق العلماء الإغريق إلى روما ، وسرعان ما اصبحت اليونانية اللغة الثانية للرومان المثقفين . وفي أوائل القرن الأول قبل الميلاد تأسست الخطابة اللاتينية ، وبتأثرها بالاغريقية أصبحت أرفع فناً واكثر صقلا .

يعتبر بلوتوس (Plautus) ، وهو اكبر شاعر كوميدي ، احد المصادر الرئيسية للاتينية الدارجة ولكن انيوس الذي نهج نهج ليفيوس سعى الى رفع مستوى الاسلوب الكتابي للملحمة والمأساة بما استعمل من الكلمات القديمة غير الدارجة . وهو أسلوب غدا منذئذ تقليداً متّبعاً في لغة الادب (باستثناء بعض الحالات مثل قصائد كاتولوس (Catullus) القصيرة وقصائد لوسيليوس (Lucilius) وهوراس (Horace) الهجائية وقصائد بترونيوس (Petronius) المسماة « ساتيركون » (Satyricon) التي اصبح جرسها مجافياً للغة الشعب واكثر بعداً عنها حتى أتت ردة الفعل في القرن الثاني الميلادي .

العصر الذهبي ـ ٧٠ ق. م ـ ١٨ م : امتدت الفترة الذهبية للأدب اللاتيني بدءاً من السنوات الأخيرة للجمهورية حتى التأسيس الفعلي للأمبراطورية الرومانية تحت حكم الامبراطور اغسطوس (Augustus) (٢٧ ق.م ـ ١٤ م) وسمي بحق الجزء الاول من تلك الحقبة(من ٧٠ ـ ٤٢ ق.م) الفترة الشيشرونية (Ciceronian) وكان نتاجها كتاباً بارزين اتصفوا باسهامهم في الاحداث أمثال يوليوس قيصر . ويعتبر فارو(Varro) (اعلم الرومانيين) اكثرهم انتاجاً . إلا أن الذي طور اللاتينية لتعبر بوضوح عن الفكر التجريدي والمعقد هو شيشرون السياسي والخطيب والشاعر والناقد والفيلسوف، وتبعاً لذلك اصبح

الاسلوب النثري يتراوح ما بين رد فعل ضد أسلوبه أو عودة إليه . ومع انه لم يكن ملهماً كشاعر ، الا انه كان حاذقاً في أسلوبه وألف كتابه «دي ريروم ناتورا» (De rerum natura) حول الشاعر الفلسفي لوكريتيوس (Lucritius) ، وكان معجباً باينيوس (Ennius) وبالشعر الروماني القديم شأنه في ذلك شأن لوكريتيوس . ورغم كونه مهتماً بالمؤلفات الهلينية بشكل ظاهر، فقد ألمح بسخرية الى أنصارها المتطرفين الذين أطلق عليهم اسم « الشعراء المحدثون». وبعد تدمير قرطاجنة وكورنثة عام ١٤٦ ق.م أدى الرخاء والشعور بالاستقرار والأمن الخارجي الى ظهور مبدأ الفراغ والراحة الشخصية وفكرة العيش لذات الانسان ، ومن هنا نشأ أدب التعبير الشخصي وأدب التسلية . وفي هذا المناخ ازدهرت مدرسة الشعراء الجدد التي ضمت بشكل عام ايطاليين غير رومانيين من الشمال ، ادخلوا مبدأ الفن للفن. ولا يعرف من هؤلاء الشعراء مباشرة سوى كاتولوس (Catullus) من فيرونة (Verona). وكوّن هؤلاء الشعراء ردة فعل ضد التضخيم وتقاليد الوقار الأدبي الذي دعا اليه انيوس ومدرسته ، كما ضاهى شعرهم التلميحي المعقد عن قصد مدرسة كاليماخوس في الاسكندرية ، في القرن الثالث قبل الميلاد . واستمر اثر الشعراء الجدد ماداً رواقه الى الجيل التالي : الى فيرجل مروراً بكرنيلوس غالوس (Cornelius Gallus) .

ولد فيرجيل (Virgil) في مانتوا (Mantua) وتلقى علومه في كرمونة وميلان ، واختار تيوقرطس نموذجه الأول ، وهدف من محاوراته الرعوية (Eclogues) تكرار ايقاعات ثيوقريطس وخلق روائع في النغمة الايقاعية تضاهي جمال الحياة الرعوية للرعيان الذين صُوِّروا في مناظر طبيعية خيالية . وتمثل هذه القصائد الأبيقورية هروباً من الواقع ، الا انها مشحونة بالاشارات عن مواضيع الساعة . ويتبدى فيرجيل في القصيدة الرعوية الرابعة بمظهر النبي القومي ، وكان احد اعضاء الحلقة التي كونها ميكيناس (Maecenas) الوزير الأول لأغسطوس . وفي عام ٣٨ ق . م قام بالاشتراك مع فاريوس بتقديم الشاعر الشاب هوراس ـ الذي بدت عليه مخايل مستقبل مرموق ـ الى ميكيناس . وعندما احرز اغسطوس نصره النهائي عام ٣٠ ق .م . توثقت عرى الصداقة بين أعضاء الحلقة ، وفي ظلال حكمه بدأت المرحلة الثانية من العصر الذهبي للأدب اللاتيني المعروفة بالعصر الأوغسطي ، وسميت هذه الحقبة بالفترة الكلاسيكية التي تطلب من الكاتب ان لا يحاول ان يقول

اشياء جديدة بقدر ما يقول الأشياء القديمة بشكل أفضل . وهذا ما ادى الى التمكن من الوسائل البلاغية أسلوباً وفكراً حتى اصبحت سليقة . وأدى هذا الى استعمال السجع ومطابقة الجرس والصوت للمعني ، وهما وسيلتان بيانيتان اشتط شعراء مدرسة انيوس في استعمالهما وتجنبهما الشعراء الجدد . وكان استخدامهما هذه المرة بتعقل وبشكل مؤثر . ويميز هذا الاتقان للصيغة قصائد هوراس الغنائية من نوع « الأود » بما في ذلك المرثاة التي اصبحت اكثر صقلا .

شهد العقد الأول من الدفع الأوغسطي (٢٩ - ١٩ ق . م) نشر كتاب فيرجيل المسمى الجورجيكات (Georgics) وتأليف الاينادة (Aeneid) كاملة عند وفاته كما شهد الكتب الثلاثة الأولى من قصائد هوراس الغنائية المسماة « أود »(odes) والكتاب الأول « الرسائل »(Episteles) . وفي ميدان المرثاة الفت الكتب الثلاثة الأولى لبرُبرتيوس(Propertius) وهو بدوره من حلقة مكيناس الأدبية ، والكتابان الأولان لطيبلوس (Tibullus) بالاضافة الى غيرها من دواوين شعراء حلقة ماركوس فلريوس مسّالاكورنينوس (Marcus Valerius Messalla Corninus) وفضلا عن كل هذا ظهرت الانشادات الأولى لأحد اعضاء الحلقة الشباب الاصغر سناً واسمه اوفيد (Ovid) وفي عام ٢٨ أو ٢٧ ق . م بدأ ليفي (Livy) كتابه التاريخي الضخم .

لم تكن حلقة ميكيناس مكتب دعاية ولو انه كان يقترح احياناً بعض المناسبات العامة التي تستدعي الاحتفال بها . ويشهد بذلك تلك القصائد الرائعة التي يرفض فيها ناظموها الاقتراح بلباقة بينما تدل لهجتها على ان الرفض لم يكن عسيراً ، لأن ميكيناس بقدر ما كان راعياً للادب ، وان مؤهلات الانضمام للمجموعة منوطة بدلائل العبقرية الشعرية وحدها . فعندما قبل بُربرتيوس عضواً في الحلقة كان مجرد شاب ذي خلفية معادية للقيصرية الرومانية ومع ذلك حظي بالقبول والتفضيل ووسيلته تلك القصائد التأملية الغزلية الجياشة العاطفة ، الا انه اشتبك بخصام مع هوراس . وبعد وفاة فيرجيل اضمحلت الحلقة الأدبية مع وجود عدد وفير ممن ودوا الانسلاك فيها من شعراء امثال اتباع هوراس ومن كانوا تحت رعايته ، والذين ترد اسماؤهم في « الرسائل » ، وأمثال

اصدقاء اوفيد الذين تفيض نفسه مسرة لذكراهم في منفاه ، ومنيليوس (Manilius) الذي لا يذكره احد . وكانت القصائد تنشد في الحلقات الادبية وفي الاجتماعات العامة . ومن هنا برزت اهمية تناسق الاصوات ومخملية التركيب الفني ، وجرى التعرف عليها تدريجياً . وقد فسحت دونها فرص التحسين بما يرد عليها من الاقتراحات والردود . وعندما جمعت في أسفار اخيراً لاقت عناية فائقة في ترتيبها الفني ذي المعنى ، دون تركيبها زمنياً .

وفي أثناء ذلك كانت هنالك ردة الفعل بالنسبة للنثر الشيشروني الذي تسامق للأوج ، وقادها سالوست (Sallust) . وفي عام ٤٣ ق . م بدأ سالوست في اصدار سلسلة من المؤلفات التاريخية كتبت بأسلوب مختصر جزل تحليه بعض الكلمات القديمة ، ولكنه تحاشى الاطناب الجرسي لشيشرون . وبعد ذلك انتقلت الفصاحة الخالية من الأثر السياسي في قاعات الاجتماع العامة الى المدارس إذ أضفت عليها المهارة والتركيز قيمة هي أهم من سلاسة الجمل المتتابعة . وهكذا نشأ وتطور الأسلوب الجزل ذو الجمل المحكمة على يد كتاب أمثال سنيكا (Seneca) الشاب آنئذ وتاسيتوس (Tacitus) الذي ضرب في هذا المضمار حتى أبعد الحدود . وعندما انتشر هذا الاسلوب شعرياً أدى الى مزدوجات (Complets) اوفيد الفكاهية الساخرة والى مآسي سنيكا المسرحية ، ونقد جوفنال (Juvenal) الهجائي . وإذ ظل ليفي خارج الحلبة لم تجد الشيشرونية من مدافع حقيقي عنها إلا في شخص استاذ البيان كونتليان (Quintilian) .

العصر الفضي : بعد الدفقة الأولى من الحماسة للمثل الأوغسطية للإحياء القومي، دفع الأدب خلال فترة الأمبراطورية ثمن الأبوة السياسية، فغدا عقيماً بفقد الحرية، وكان أوفيد الأول في عداد الكثيرين من الكتاب الذين تجلى فيهم الكبت وعقل ألسنتهم الخوف فعلاً . اما تاسيتوس وجوفنال اللذان كتبا في ظل حكم أباطرة متسامحين فحولا العواطف المكبوتة عهد حكم الرعب للأمبراطورة دوميسيان (Domitian) الى قوة ساحقة من الأدب العظيم . وأدرك الكتاب - أمثال ليفي - في اواخر حكم اغسطوس ان روما تخطت القمة جنوحاً للانحدار . لكن عنوان العصر الفضي أُطلق بجدارة على قرن كان نتاجه مؤلفون أمثال تاسيتوس وجوفنال وسنكا الأكبر وابنه وابن اخيه لوكان (Lucan)(وبليني الكبير وبليني (Plinys) وكونتليان

(Quinlilian) وبترونيوس Petronius) وستانيوس (Stanus) ومارشال (Martial) ، وكتاب دونهم شأناً أمثال مانليوس (Manilius) وبرسيوس (Persius) وفاليريوس فلاكوس (Valerius Flaccus) وسيليوس أتاليكوس (Silius Italicus) وسويتونيوس (Suetonius) .

الكتاب المتأخرون : أضعف فقدان المركزية في الأمبراطورية الرومانية ـ تحت حكم هادريان (Hadrian) وخلفائه من سلالة أنطونين (Antonine) ـ الكبرياء الروماني وتعشق الرومان للحرية . وهكذا كانت الكتابة بالتالي بالاغريقية واللاتينية . وبدورها أثرت الحركة السفسطائية الجديدة في اليونان على الشعراء الجدد أمثال فلورس (Florus) ، إذ كرست الثقافة العقيمة نفسها للاهتمام بقواعد اللغة وبحورها وتاريخ تطورها ، وأوابد كلماتها وحذلقتها ، وانقضى ٢٥٠ عاماً قبل ان ينبغ كتاب أمثال اسونيوس (Ausonius) من بوردو (Bordeaux) (القرن الرابع الميلادي) وكلوديان (Claudian) ـ آخر الكتاب الكلاسيكيين الحقيقيين ـ الذي ازدهرت اعماله حوالي عام ٤٠٠ م ، ولم تنتج الفترة سوى كتاب «يقظة فينوس» (Perivigilium Veneris) المجهول المؤلف الذي أرهص بالقرون الوسطى في حيويته وبحوره العروضية المتواترة النبرات . ورغم ان اسونيوس كتب حسب التقاليد الوثنية فقد كان مسيحياً ومعاصراً لشاعر مسيحي ذي اصالة حقيقية هو الاسباني برودنتوس (Prudentius) . ومنذ ذلك الحين نجد الادب المسيحي يمازج الادب الوثني ويتخطاه بشكل عام .

أما بالنسبة للنثر فكان نتاج هذه القرون اكثر مدعاة للفخر ، مع أن أجلّ عمل كان ذاك الذي كتبه روماني صياغة بالاغريقية ، هو سفر « تأملات » للامبراطور ماركوس اوريليوس . أما القصة القصيرة المسماة «Elocutio nouvella» وهي تعتبر مزيجاً شائعاً من الكلمات القديمة واللغة الدارجة فيمثلها أبوليوس (Apuleius) المولود حوالي ١٢٥ م . ومن الكتاب الآخرين البارزين اولوس غاليوس (Aulus Gellius) ومَكروبيوس (Macrobius) ، ومع ان القرن الرابع الميلادي كان عصر اللغويين والمعلقين فإن أهم ما كتب من نثر كان مسيحياً كتبه مؤلفون أمثال ترتليان

، (Augustine) وأمبـروز (Ambrose) وجـروم (Jerome) واغسطـين(Augustine) (Tertullian)
وكذلك بثيوس (Boethius) (حوالي ٤٨٠ ـ ٥٢٤) وهو أخر فيلسوف روماني ـ ربما كان مسيحياً ـ عاش بعد سقوط روما الامبراطورية . وكان كتابه « مواساة الفلسفة » (Consolation of Philosophy) عظيم الانتشار بالغ الشعبية في اوروبا القرون الوسطى .

٢ ـ الأنواع الأدبية :

الملهاة : كانت الملهاة الرومانية مبنية على الملهاة الحديثة الدارجة في اليونان التي كان ميناندر ممثلها الكلاسيكي ، لكنها ، فيما كانت بالنسبة للاغريق تقليداً للحياة ، فهي للرومان هروب إلى الخيال والتقاليد الأدبية . ولربما كان نافيوس (Naevius) ـ خلف ليفيوس (Livius) الذي طور هذا النوع من المسرحية في حلقة يونانية ـ أول من أدخل الانشاد والأغنية اليها. فزاد بذلك من عدم واقعيتها، الا انه انزلق نحو تفاصيل الحياة الرومانية ونقدَ رجالاً أقوياء فيها . ولقد أدى حبسُه الى انذار كتّاب الملهاة لتجنب الاشارة الى مواضيع الساعة ولكن النظارة الرومان أضحوا منتبهين الى تطبيق ما سطِّر في الماضي حول الأوضاع المعاصرة وإظهار عواطفهم بالتصفيق المناسب .

وقد تخصص بلوتوس (Plautus) ، على عكس من سبقوه ، بكتابة المسرحيات الهزلية التي تتضمن روح النكتة العالية ، والتجديف ، والتلاعب بالكلمات ، والمرح الذي يعتمد على الحركات والموسيقى وتكييف الايقاع بمهارة ليتناسب مع الموضوع المطروح .

ويجب أن تؤخذ مسرحياته على أنها هزلية تقريبا. ويأتي قسم من المرح نتيجة إدخال عناصر رومانية محدثة إلى العالم اليوناني التقليدي ويتسم الجديد الذي قدمه بلوتس للملهاة بصفة الادخال اكثر من كونه ابتكارات في الحبكة أو الأسلوب وهو مع ذلك لا يعد من الكتاب اللاتينيين المفضلين ، بسبب من شخوصه ومواقفه التي تقولبت فلم تتغير .

وبازدياد الاثر الاغريقي على الثقافة الرومانية اصبحت المسرحية الرومانية اكثر اعتمادا على النماذج الاغرقية. وبالتالي اختلفت ملهاة ترنس(Terence) عن ملهاة بلوتس اذ اختفى الغناء تقريباً من مسرحياته واصبح القسم الانشادي أقل بروزاً، وتعلم مناندر من المسرحي اليوناني طرق ادخال دقائق نفسية لتركيب حبكة تدل على المهارة، لكن كانت تنقصه القوة الهزلية لأنه لم يكن مهتما باضحاك النظارة، وتميز بلغته المهذبة وتجنب البذاءة والغموض واستخدام القسم والكلمات العلمية. وكانت شخوصه اقل تفاوتاً بكلمات حوارها من شخوص بلوتس، لكن احاديثها تتميز بسحر أنيق. وكان المجتمع الذي رسمه ترنس اكثر حساسية من مجتمع هزليات بلوتس، اذ كان يميل عموماً الى إبراز الاخلاص لدى المحبين من شخوصه والطاعة وعند الأبناء. وازدادت اهميته التاريخية ـ ولا ريب ـ بسبب ضياع جميع هزليات ميناندر تقريباً.

بعد وفاة ترنس قلما كتبت مسرحيات تتخذ الدراما اليونانية نموذجا لها مع أن هذه المسرحيات غالبا ما كان يعاد احياؤ ها بين الفينة والفينة. فقد كان العصر الشيشروني عصر التمثيل، وفي عام ٥٥ ق.م شيد بومبي(Pompey) في روما مسرحا دائما فشاعت في هذه الفترة مسرحيات ذات خلفية وملابس ايطالية ولئن كان اطارها الكوميديا الاغريقية الحديثة فموضوعها المجتمع الروماني وفي هذه الفترة بعثت الى الحياة كذلك شكل محلي من الهزل المعتمد على الحركة والبذاءة، وحل محله في عهد يوليوس قيصر الشعر التقليدي الهزلي من نوع « المايم » ذي الاصل اليوناني والاتجاه الواقعي، والذي غالباً ما اتصف بالبذاءة، وان كثرت فيه الحكم والأقوال المأثورة التي تصلح للاقتباس والترديد. واخيراً تسبب المايم في نشوء المشاهد الايمائية التي تعتمد التقليد الأخرس والمحاكاة دون كلام او ما يسمى الايماء البانتومايم (Pantomimus) يصاحبه الكورس، واصبحت المشاهد الغريبة مطلباً جماهرياً، مما ادى الى انحطاط الملهاة وزوالها.

المأساة: كان ليفيوس أول من أدخل المأساة والملهاة الاغريقيتين الى اللاتينية، ونحا في هذا السبيل نحوه نافيوس وأنيوس الذي أحب يوربيديس شأنه شأن اليونانيين الهلينيين،أما باكوفيوس(Placuvius)الذي كان أعظم كاتب تراجيديا فاحب

سوفوكليس، وزاد من رفعة الاسلوب المأساوي اكثر من انيوس. أما خليفته اكيوس (Accius) فاكثر تنميقا لاسلوبه واندفاعا في روحه. والأجزاء التي وصلتنا لهـذين الشاعرين تنم عن رفعة الاسلوب الروماني رغم انها تتصف بالخشونة. ولم يستعمل أي منهما الاساطير الاغـريقية في جميع ما كتبـه وانمـا استغـلا الاساطـير الرومـانية والتاريخ القريب من عصرهما. ويؤدي الكورس الروماني دوره على المسرح مباشرة على العكس من الكورس الاغريقي، ويعتبر مرتبطا ارتباطا وثيقا بالعمل المسرحي. وبعد اكيوس توقفت المأساة الكلاسيكية فلم تكتب، وإن أعيد احياؤها مراراً. أما المسرحيات، التي كان يقوم العبيد والمحـررون بكتابتهـا عادة فتحولـت إلى هواية ومصدر تسلية للهواة الارستقراطيين. وليس مستغرباً ان لا يفكر هؤلاء الكتاب في اخراجها مسرحياً، إذ غدت مسرحيات الفترة التي تلت حكم اغسطـوس للقـراءة فقط. وواضح أن المسرحيات التسع التي وصلتنا من تأليف سنيكا الاصغر لم تكتب بهدف العرض على الجماهير، فهي ميلودراما رعب وعنف تكشف عن عيوب غـير ظاهرة في مؤلفات يوربيدس، وتتسم بواقعية مثيرة ومهارة بلاغية، ويبدو الاجهاد واضحاً في كل نقطة منها . اما التشخيص فينقصه الصقل وهو محشـو بالـدروس الأخلاقية على الطريقة الرواقية بشكل مصطنع . اما الشعر الذي نظمه على بحر « الأيامب » ـ وان اتسم بالسطحية ـ فيدل على كفاءة صاحبه ، ومع ذلك اتخـذه كتاب المأساة في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ولا سيما في فرنسا مثلهم الأعلى . واذا قرأنا مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير ، ومشاهد الأشباح في مسرحيات يوليوس قيصر هملت ومكبث تذكرنا سنيكا وما جاء في مسرحياته .

الملحمة والقصيدة المسماة ابيليون (Epiyllion) : لقد كانت ملحمة الأودية الرائدة لليفيوس ، رغم بدائيتها ، هامة بالنسبة لفرجيل شأنها شأن ملحمة نيفيوس (Bellum Punicсum) ألغيناها نظراً لكونها تبدأ بالأصول الاسطـورية لقرطاجـة في فينيقيا وروما في طروادة .

أمـا ملحمـة انيوس « حـوليات » (Annales) فقـد أتـت بعـد ذلك وكانت مزيجاً من التاريخ والأساطير كتبها باللاتينية في بحر عروضي مستورد شاعر يتمتع

بالخيال والادراك لعظمة روما الصاعدة. ولا شك أن قصيدته من حيث الشكل سيئة التوازن، إذ يتجاهل تقريبا الحرب القرطاجية الأولى باعتبار أن ناقيوس غطاها، ثم يوغل تفصيلا كلما اقترب من أحداث عصره. الا ان فضائله تبرز بما وصل إلينا من أجزاء تتسم بالأخلاقية ونبل اللغة. وكان أثره عميقا على من تلاه من نفوس منفتحة حساسة سهلة الانطباع كشيشرون ولوكريشيوس وفرجيل وظل مدة قرن ونصف لا ينازع ككاتب ملاحم .

ان ما نعرفه عن الملحمة القوية التي اشتهر بها قاريوس صديق فرجيل قليل الا ان انيادة فرجيل هي بالتأكيد شيء جديد . فالكتابة عن التاريخ المعاصر لفرجيل كان موضوعاً محدداً اكثر مما يجب ، لذلك وكبديل طور فرجيل رواية ناقوس عن رحلة إنياس من طروادة ليؤسس روما . وتبدو القصيدة لأول وهلة أوديسية الترحال تتخللها قصة حب محشورة حشرا ، تتبعها الياذة فتوحات هي في واقعها أكثر من ذلك ، فهي ملحمة رمزية ذات صلة وثيقة وعميقة بعصرها . إذ ان بطل الملحمة هي روما ، واينياس هو النموذج القديم للروماني . ولب الموضوع هو تحوله من قائد فرد إلى خادم يكرس نفسه لخدمة مصير روما . وتعلم ما يجب فعله من تتابع الوعود النبوية التي تزداد وضوحاً ، وخطيئته الوحيدة تلكؤه في قرطاجة . وعندما يتلقى أمر الوحي بوجوب ترك ديدو (Dido) ملكة قرطاجة ، يهتز كيانه بعنف أليم ، لأن معنى ذلك التخلي عن الاغراء الوحيد والأخير الذي يؤمن له السعادة الفردية . لكن قبوله الطوعي للامور لا يتحول إلى حماسة خيالية ، الا عندما يزور الجحيم ، ويرى رؤيا « عظمة روما » المستقبلية . وهو ما يتطلبه المثل ايعلى الاوغسطي من التضحية الفردية ، اما القسم الثاني من القصيدة فيمثل المزج في بوتقة الحرب بين فضائل حضارة الطرواديين وفضائل الرجولة الرومانية ـ وكان سقي الثقافة الرومانية بفولذة الصلابة الايطالية جزء لا يتجزأ من المثل الأعلى الاوغسطي ، شأنها في ذلك شأن احياء الاهتمام بالعادات القديمة واقامة الشعائر الدينية التي تمكن فرجيل من الانغماس فيها بشكل ملائم . ويتميز الشعر في الملحمة كلها بتنوعه الفائق وجرسه الموسيقي ، وملائمته للموضوع وتنميقه وبلاغته .

دشن كليماخوس القصيدة القصصية القصيرة المؤلفة بعناية على البحر السداسي والمسماة ابيليون (Epyllion) بكتابة هيكال Hecal وأراد بها ان تحل محل

الملحمة الضخمة . لقد بدأ « هيكال » تقليداً لادراج القصة القصيرة ، فأدرج كاتولوس قصة « أريادنة » Ariadne في جزيرة نكسوس Naxos ضمن قصة زواج بيليوس Beleus « وثيتس » Thetis . وللقصيدة جمال رتيب إلا أن قصة أرستايوس في نهاية جورجيكات فرجيل تدل مع قصة اورفيوس ويوريديس على المستوى العالي الذي يمكن ان تبلغه « الأبيليون » .

يتألف كتاب أوفيد « مسخيات » من سلسلة مترابطة من خمسين « ابيليونة » تتضمنها حوادث صغيرة . وابتكر أوفيد في الكتاب عالماً خيالياً مقنعاً ذا منطق سحري قائم بذاته . وتعتبر قصيدته التي تنساب باستمرار بدءاً من خلق الكون الى تأليه يوليوس قيصر وكأنها « باروكية » [1] من حيث بنيتها نفذت بأوزان سداسية سريعة واضحة . وهي تتميز بروح النكتة والاشارة الساخرة الآخاذة . وتكاثرت الملاحم بعد هذه القصيدة فهناك ملحمة « ثيبيد » Thebaid وملحمة أشيل (Achilleid) الناقصة لمؤلفها ستاتيوس (Statius) وهناك ملحمة ارغونوتيكا (Argonautica) لقاليريوس Valerius التي قل عدد قرائها الآن . أما ملحمة لوكان الناقصة المسماة « فارساليا » (Pharsalia) فذات موضوع اكثر امتاعاً : وهو النزاع بين قيصر وبومبي الذي يتحيز له الكاتب ، ويترك الآلهة جانباً ، وقد ساعده اسلوبه البليغ في نجاح القصيدة ، وان كانت بادية التوتر ، وتعتمد معالجتها على حوادث ضعيفة الترابط .

الشعر التعليمي : حاول انيوس ان يقرض شعراً تعليمياً في « ابيكارموس » Epicharmus ، وهو مؤلف يبحث في طبيعة الكون مادياً . اما تحفة لوكريشوس « دي ريروم ناتورا » (De — Rerum Batura) فهي بحق خير خلف لخير سلف اذ تتركز قوتها الدافعة على قلق لوكريشوس الذي يحاول ان يعتق نفسه من خوف الموت وقوى ما وراء الطبيعة . بيد انه ليس مفكراً اصيلاً . وان توصل الى مفهوم يشوبه

الباروك (Baroque) في الفن اسلوب ساد في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، يتميز بدقة الزخرف وغرابته ،وبالاشكال المنحرفة وبالتعقيد والزخور بالصور .

الخيال حول تأثير الذرة ـ حسب مفهوم أبيقور لها ـ على كل شيء حوله وبداخله . وقصيدته تعليمية في الواقع ، وبعض أفضل شعره فيه استطرادات كثيرة ، إلا ان عظمة الرؤ يا الاجمالية مفقودة إذا ما أغفلت التفاصيل والحجج المشبوبة بالعاطفة .

ومما لا مرية فيه ان ظهور هذه القصيدة اثر على فرجيل تأثيراً عميقاً ، الا ان ردة الفعل الشعرية لديه تأخرت ١٧ عاماً . ومع أن الجيورجيكات(Georgics) تأثرت تأثراً كبيراً بلوكريشوس فهي ليست تعليمية تماماً . ورغم ان فيرجل ولد في الريف فقد توجه بنتاج قلمه لقراء الادب من امثاله ، واختار كل ما يعطي تفاصيل حية فاتنة لصورته الانطباعية عن الحياة الريفية . تصور «الجيورجكات» ارض ايطاليا التي كانت قد توحدت مؤخراً ، كما علمت القراء ان العصر الذهبي المتسم بالكسل الذي تصوره القصائد الرعوية المساة(Eclogues) انما هو مجرد سراب ، فالعمل الدؤوب الذي يدخله جوبيتر الابوي الرعاية لشحذ عقول البشر هو الذي يحقق « عظمة الريف السماوي » ويتمثل التعويض الذي يحصل عليه الانسان لقاء هذا الجهد بذلك التنوع اللانهائي للحياة المتحضرة . اما بالنسبة لهدفها السياسي فقد شجعت « الجيورجكات » على احياء الزراعة التي دمرتها الحروب ، وكذلك احياء الفضائل الرومانية القديمة ، وبعث فكرة روما ذات الرسالة الحضارية في ايطاليا والعالم .

كان كتاب اوفيد المسمى «فن الحب»(Ars Amatoria) هزلاً أو نقداً هجائياً بحلة تعليمية ، كما انه تعليق ممتع عن بسيكولوجية الحب . وكان مؤلف «فاستي» (Fasti) تعليمياً لانه عمم التقويم الجديد ، لكن من الواضح ان هدفه الاساسي كان التسلية لان الادب التعليمي الحق كان في تقهقر وتقلص .

ـ **النقد الهجائي** : كانت كلمة ساتورا (Satura) اللاتينية تعنى « المزج » وتطلق على استعراضات متنوعة كان الاتروسكيون اول من أدخلها حسب قول

ليفي . أما النقـد الأدبـي الهجائـي فيبـدأ بأنيوس (Ennius) الا ان لوسيليوس هو مؤسس هذا النوع الأدبي . وبعد التجربة استقر على البحور السداسية التفاعيل (Hexameters) ، واعتمدها موازين للهجاء المتعارف عليهـا . امـا الاتجـاه نحـو الانتقال الى الحوار في هذه القصائد فربما نتج عن آثار دراسية في المقطوعات الهجائية غير الأدبية . واستعمل لوسيليوس هذه الوسيلة للتعبير عن النفس ، منتقداً السلوك الفردي والعام لا يداخل ذاته خوف ولا وجل . وهو مدين بالكثـير لمواعـظ اتبـاع المدرسة الرواقية الشعـرية والنثـرية من اصحـاب الشـك في النـوازع البشرية من الاغريق أمثال بيون (Bion) . ولكن الكاتب الهيليني الذي سبقه الى هذا النوع من الادب وبشر به بوضوح في كتاباته التي وصلتنا اجزاء منها هو كاليماخوس بما نظمه من نوع « الايامب » . اما الهجاء المينبي (Menipean) الذي انحـدر من الأصـل الاغريقي القديم بكتابات منبوس Menippus ومزج النثر بالشعـر ، فادخلـه فارو Varro الى روما .

أدرك هوراس ان الهجـاء كان بحاجـة للتحسـين ، اذ كان لوسيليوس شاعراً سيء السبـك . وتبـين المقطوعـات الثـلاث في كتابـه « قصائـد هجائية » وبخاصة الجزء الاول منه (Satires I) على انها محاولات هجائية على نمط لوسيليوس . ولما كانت طبيعة هوراس هي الاضحاك وليست سلخ الجلود كانت الشخصيات التي اختارها لاثارة الضحك تافهة أو ميتة وقدر أن الوجه الحقيقي للوسيلـوس لم يكن شجب الذات بل تعريتها . وهذا ما شجعه على التحدث عن نفسـه وفي مؤلفـه « قصائد هجائية » ـ الجـزء الثانـي ـ (Satires II) طور اجـزاء من هجـاء المواعـظ الاخلاقية التي تشير الى جوفنال . الا انه كان لا يزال يؤلف المواعظ ، على حين كان خلفه برسيوس (Presius) يمـزج لوسيليوس وهـوراس والمواعـظ والشعـر التقليدي الهزلي من نوع « المايم » ليكون منها مواعظ شعـرية ، مشحونـة بأشـكال البيان المعاصرة . والمنتقد الاعظم هو جوفنال الذي ثبت فكرة الهجاء للاجيال القادمة . وذهبت الى غير رجعة المعالجة الشخصية التي تميز بها لوسيليوس وهوراس ، ولربما اصبح الغضب ، حبيس القمقم خلال حكم الامبراطور دومتيان ، عادة استمرأها العقل ، او انه استغل لهذا الغرض . وكان جوفنال يهدف من كتاباته بشكل التأثير

بصورة رئيسية ، لكن مقدرته على التركيز في أبيات أو جمل مؤثرة ومحشوة تجعله مثيراً ، فهو ولا مراء لامع في أحسن شعره .

جاء كتاب ابوكولوسينتوسيس (Apocolocyntosis) لمؤلفه سنيكا الاصغر (Seneca) مزيجاً من النثر والشعر ،ولكن هجاءه الساخر ونقده اللاذع لتأليه الامبراطور كلوديوس كان على طريقة لوسليوس (Lucilius) . أما كتاب «ستريكون» (Satyricon) لبترونيوس (Petronius) فكان الهجاء فيه على طريقة مانيبوس (Menippus) نظراً لاحتوائه على استطراد منوع ، وعلى الشعر العرضي (Occasional) لذا يصنف بشكل رئيسي تحت باب أدب الرواية .

هذا ويمكن تصنيف القصص الخرافية القصيرة عن الحيوانات التي كتبها فايدروس (Phaedrùs) عبد اغسطس المحرر والمسمى ايسوب (Aesop) الروماني من الهجاء اللوسيلي لكونه دبج قصصه عن الحيوان بتلميحات سياسية واجتماعية .

الشعر الهزلي والغنائي والحكمي : (Iambic. Lyric and Epigram) أطلق كاتولوس على قصائده القصيرة أسم « توافه » لكنها تختلف عن بعضها بعضاً في طابعها والهدف منها . وهو يستعمل بحر « الايامب » الذي يقترن عادة بالنقد الساخر ليس فقط عند هجائه لقيصر وبومبي ، بل وفي قصيدته الرفيعة التي يصف فيها عودته الى وطنه سرميو (Sirmio) . وبعض شعره هذا قصائد غنائية بديعة . ومما لا شك فيه ان كاتولوس وزملاؤه تركوا أثرهم على من نظم هذا النوع من الشعر .

كان هوراس رائداً في مجموعة القصائد الغنائية «الايبود»[1] (Epodes) واستعمل بحر الايامب ليعبر عن اخلاصه لميكيناس (Maecenas) ، مع انه تبنى بالاضافة الى البحر المذكور موقفاً عدائياً من الشاعر اليوناني أرخيلوخس (Archilochus) الا ان هدفه الاول ظل نظم الشعر ، بينما كان هدف الكتاب الذين

(١) الايبودة(Epode) هي قصيدة غنائية يعقب فيها بين بيت قصير بيتا اطول منه

اتخذهم نموذجاً يحتذى هو الافصاح عن مشاعرهم . وهنـاك عدة قصائـد في هذه المجموعة لا أثر فيها لأي عنصر «ارخيلوخسي» أما مجموعته المسماة قصائد غنائية من نوع «الاود»(Odes) فقد حور فيها بحـوراً عروضية اغـريقية اخـرى . وعـوض الاشكال الشعرية الناتجة عن نقصان العفوية الانسابية في اللاتينية بأن أكسب قصائده هذه اناقة وفخامة فنيتين . وبذا آمن هوراس لنفسه الخلود بصفته أول من أدخل الشعر الغنائي الاغريقي الى اللاتينية . وقلما تُظهر قصائده هذهَ العاطفة التي تقترن الآن بالقصيدة الغنائية . الا ان صفات الأصول التي استقى منها عدلت، وحورت مكونة شيئاً خاصاً بهوراس يكاد يكون كامـلاً كعمـل فنـي مرّ في مرحلـة التأمـل الفكري .

أما مارتيال(Martial) فغالبـاً ما كان يرجـع الى كاتولـوس في بحـور شعـره وفكاهته الساخرة البذيئة . وثبت فكرة قول الحكمة فجعلها ثاقبـة مؤثـرة بشـكل مميز ، لكنه يختلف عن كاتولوس بما اتصف من مراء وصغر النفس ، ورغم ذلك فمعلوماته الاجتماعية قيمة .

الشعر التأملي : تبنـى كاتولـوس المزدوجـة التـأملية من بحـري السـداسي والخماسي التفعيلات ، وأدى به الى الخـروج عن التقليد ، بأن حسر التأمـل في العاطفة الشخصية ، وتصل احدى أشد قصائده عاطفة وهي منظومة على هذا البحر عن لزبيا(Lesbia) الى ٢٦ بيتا ، وهناك قصيدة اخرى طويلة ذات تصميم متشابك يذكر فيهـا عرضـاً حب لاودامية (Laodamein) الأسطـوري لبروتسـلاوس (Protesilaus) كنموذج . وتبوئه هاتان القصيدتان منزلة مبتدع قصيدة الحب التأملية الذاتية التي تتحدث عن عاطفة الشاعر نفسه . وأسس غالوس —Gallus) الـذي ضاعت مؤلفاته هذا النوع الادبي ثم طوره طيبلوس وبروبريتوس اللـذان هذبـا بحره العروضي .

ولا يزال أثركاتولوس واضحاً في كتاب بروبريتوس الاول ، لأنه كما يظهر يتلقى الايحاء بشكل أصيل من عاطفته نحو سينيثيا(Cynthia) . أما تورط طيبلوس فأقل تأكيداً . وفي الكتاب الثاني يبدو ان بروبريتوس هو الآخر بدأ يقرض قصائد حب تأملية بشكل أدبي له تقاليده وأعرافه ، مأخوذة من اشـكال أدبية اخـرى .

وتتألف قصيدة طيبلوس التأملية من أقسام ذات مزدوجات هادئة ، وانتقالات تدل على المهارة والحذاقة . وأسس هذان الشاعران اصطلاح «الشاعر الرقيق» المقدام فقط في حملات الحب ، والخالد عن طريقها ، وعن طريق الحوريات[1] . وبادىء ذي بدء كان بروبريتوس غير قابل للتأثر بالمثل العليا الاغسطية الآخذة بالتشكل آنئذ ، بل وجد المجد في عبوديته للحب ، واباحيته فيه ، مع انه تأقلم فيما بعد ومع حلقة ميكيناس . بينما اتسم شعر طيبلوس المحب للسلام وحياة الريف والتقاليد الدينية القديمة بسحره ورشاقته وروح النكتة الهادئة . وكان بمستطاع بروبريتوس ان يكون ساحراً الا انه كان اكثر من ذلك . وغالباً ما كتب بزخم مستخدماً لغة المتعلق بتداعي المعاني والخواطر المشبوبة بالعاطفة والتلميح الساخر او الخيال المطلق . وكان لأوفيد هدف مغاير ، فلم يتعمد ان يزيح العبء عن روحه ، ولا ان يؤثر في روح القارىء بل سعى الى التسلية والامتاع . وفي مجموعة قصائده عن الحب (Amores) نراه فاضحاً ومسلياً بما اخذ عن بروبرتيوس . وقد تكون شخصية كورينا (Corina) في قصيدته خيالية وخرافية . الا ان قصائده التراجع كانت وسيلته المميزة في السفر ، كما طور المزدوجة الشعرية التي اقتبسها عن اسلافه الى نهايتها المنطقية ، وجعلها متميزة بالتوازي ، وبالمد والجزر المنتظمين ، وباناقة جعلت فكاهيته الساخرة اكثر حدة ـ ولم يخلفه أي كاتب ذي شأن في ذلك .

البلاغة والتعليم : كان التحدث في المجلس والمحاكم أساسياً لكل عمل شعبي في روما ، ولذا كان المران عليه حاجة تعليمية ، وبعد القرن الثاني قبل الميلاد أثر الفن الاغريقي على الخطابة اللاتينية ، وكان الاسلوب الغالب أيام شيشرون الاسلوب الاسيوي المثير والمنمق . وتعلم شيشرون ـ الاسيوي في بادىء الامر ـ ان يخفف من حدة اسلوبه . وعندما انتقده الكتاب الذين احيوا البساطة أصر على ان يكون الاسلوب متنوعاً بتنوع الموضوع ، لكنه اعتقد ان الجماهير عند مخاطبتها أقل تأثراً بالنقاش منه بالعاطفة . فكان سيد المنابر بلا منازع من عام ٧٠ ق .م وحتى وفاته عام ٤٣ ق .م ، وقد شرح في كتابه بروتس (Brutus) تاريخ الخطابة الرومانية ، كما بسط مبادئه وممارساته في دى أوراتور (De oratore) . وأدى

(١) الحوريات(Nuses) : إنهن إلهات تسع في اساطيراليونان تخصصن بحماية الآداب والفنون والعلم .

تأسيس الامبراطورية الى سلب الخطابة اهميتها الجماهيرية ومع ذلك ظلت البلاغة تاج التعليم . وبقدر ما علمت البلاغة الطلاب ان يجمعوا مادتهم بوضوح ومنطق ، وان يعبروا عن أنفسهم باقناع بقدر ما حلت محل المقالة المعاصرة . لكنها اصبحت مجهدة متوترة متكلفة تحت ضغط الرغبة في نيل التصفيق فانقلب مفعولها عكسياً .

ودافع شيشرون عن وجهة نظره (من خلال شخصية كراسوس (Crassus) في مقالته (De oratore) مبيناً ان على الخطيب ان يتدرب على جميع الفنون العقلية . ولا بد للتعليم من أن يشمل الخطابة ، لكن ما اقترحه شيشرون هو ان تطعم الخطابة بنظام كامل من التعليم العالي . وعاد كونتيليان ، في كتابه انستيتيو واوراتوريا (Institutio-oratoria) الى شيشرون بحثاً عن الوحي والاسلوب . والكثير مما تضمنه هذا الكتاب تقليدي ، ويظهر من المنطق السليم والانسانية ما يدعو إلى الإعجاب . وأثرت اعماله كل التأثير على التعليم في فترة عصر النهضة .

التاريخ : ألف كونتوس فابيوس بكتور (Quintus Fabius Pictor) كتابه الرائد عن تاريخ روما خلال الحرب القرطاجية الثانية باللغة الاغريقية ، مستخدماً فيه السجلات الدينية والعائلية (يحتفظ القساوسة والعائلات الكبرى عادة بمثل هذه السجلات) ، ومعتمداً عليها في تقرير التواريخ والسنين . وتبعه في هذا السبيل من أتى بعده . وقد بدأت الكتابات التاريخية بكتاب كاتو (Cato) المسمى الاصول (Origines) ليتبعه عدد لا حصر له من المؤرخين التافهين يضاهي عدد مدّعي الشعر الذين ازدارهم شيشرون . اما كتاب يوليوس قيصر « تعليقات »(Commentaries) ، وهو دفاع سياسي يأخذ شكل قصة غير مصقولة ، فيتسم اسلوبه بالوقار والقوة والوضوح ويخلو من البديع .

واتخذ سلوست (Sallust) من تيويديديس نموذجاً له ، ففسر وتبسط مستعملا الأحاديث والخطب والدوافع المسببة . وتخطى اسلوب السجلات التاريخية في رسائله التي وصلتنا (والتي خصص واحدة لكل موضوع) أمثال حرب كاتلين (Bellum Catiline) وحرب جوغرته (Bellum Jugurthinum) مستخدماً التاريخ للتدليل على انحطاط الطبقة المسيطرة ، وتضفي عليه الثورة في الاسلوب الذي دشنه

أهمية عند بحث الأدب اللاتيني . ومع انه قيصري فقد اصطنع موضوعية تيوسديسية (نسبة لِـ ثيو سدِّيس) ولكنه في كتاباته غني باللائمة على تبذير الجمهورية المحتضرة .

بدأ ليفي عمله الذي دام ٤٠ عاماً عندما تسلم اغسطس مقاليد الحكم ، ارتقى به تقاليد وأعراف كتابة الحوليات . ومع انه لم يبلغ المستوى الحديث في أسلوبه التاريخي إلا انه تحلى بالفضائل الأدبية واستطاع ان يصور الحوادث الماضية ويصفها بحيوية ويفسر وجهات نظر المشاركين فيها بأحاديث هي غاية في الفصاحة . وكما أنه ورث عن شيشرون مفهومه الأدبي عن التاريخ كذلك ورث إطنابه ومبدأه في مطابقته الشكل مع المحتوى وربما كان ليفي عن حق اعظم البيانيين اللاتينيين . وتعتبر كتبه الأولى ـ وفيها اطلق لخياله العنان ـ أمتعها قراءة . اما كتبه التي خطها مؤخراً ، والتي تصف عصوراً أقرب واكثر تاريخية ، بأساليبها الخالية من النقد وبتعصبها الوطني . وهناك اتجاه في الوقت الحاضر لاعتبار اعماله ، أدباً على وجه العموم .

ومن ناحية أخرى نجد ان تاسيتوس (Tacitus) رفع في الوقت الحاضر الى مرتبة لم يتسنها قديماً . ومع ان تعصبه ضد الامبراطوريةواضح في تفسيره للدوافع ، فالحقائق التي أشار اليها قلما تقبل الطعن ، ووصفه لرعب الطغيان لا ينسى ، ونقرؤه الآن لتشخيصه الذي يتغلغل في الاعماق ، ولدراميته واقواله المأثورة الساخرة ، وعدم توقع ما سيقوله . واسلوبه تطوير لاسلوب سلست الى أبعد الحدود ، تلونه الكلمات الشعرية القديمة مجانباً ما استطاع استعمال الكلمات الشائعة . واذا وضعنا سويتونيوس (Suetonius) وما شابهها جانباً الفينا ان علم التاريخ قد انحط على مستوى كتيبات من نوع الدليل والملخصات الى ان ظهر اميانوس مارسيلينس (Ammianus Marcellinus) وكان موضوعياً واسلوبه منمقاً نوعاً ما ، ولكنه صالح للقصص والوصف الحي . فأكمل ما كتبه تاسيتوس بدءاً من وفاة دومتيان حتى عام ٣٧٨ م ، وخصص اكثر من نصف عمله لوصف عصره .

السيرة والرسائل : تبنّي صديق شيشرون كور نيليوس نيبوس (Cornelius Nepos) ، فكرة مقارنة الرومان بالأجانب ، ولم يصلنا من كتابه « رجال

مشهـورون » (Deviris illustribus) سوى ٢٤ فقـرة تافهــة عن شخصيات بارزة تاريخية قديمة . وواحـدة أخـرى ذات قيمـة عن أحـد اصدقائـه واسمـه أتيكس (Atticus) والواقع ان قرار الاخير مع صديقه تيرو (Tiro) ان ينشرا ألفا من رسائل شيشرون لدليل على الاهتمام العام بالشعب ، وادى الاعجاب بهذه الرسائل الساحرة إلى فرز أدب الرسائل كنوع أدبي خاص . وتعطينا رسائل بليني الأصغر(Younger Pliny) التي كتبت على أمل النشر صورة براقة عن الحياة المتمدنة . وهي أقل قيمة من مراسلاته العفـوية إلى تراجـان (Trajan) ، بحيث يأخـذ المرء فكرة عن القضـايا الروتينية مثل المؤاخاة بـين المسيحيين وأحـد الحـكام في بيزينية (Bithynia) . اما الرسالة كصيغة شعرية التي كان كانولوس أول من مهـد لهـا فتأسسـت على يدي هوراس . اذ تبدو بعض رسائله الشعـرية في مؤلفـه « رسائـل ـ الجـزء الاول » (Epistles) ، وكأنها رسائل حقيقية ، على حين يبدو بعضها الآخـر وكأنـه مجـرد أحاديث .

يتضمن كتاب سويتيونيوس (Suetonius) عن سير القياصرة والشعراء الكثير من المعلومات القيمة لكونه استطاع الوصول الى الارشيف الامبراطوري ، واتبع فيه أسلوب تسجيل كل ما يجده في قوائم مع ترك هذه المادة الخام لحكم القارىء. ويتألف كتاب « هستوريا أوغسطا » (Historia Augusta) الذي يغطي عهد الاباطرة من عام ١١٧ ـ ٢٨٤ م ـ من مجموعة من السير كتبت حسب طريقة سوتيونيوس في حين يعتبر كتاب « اغـريكولا » (Agricola) لتَستيوس (Tacitus) دراسـة تنـم عن اعجاب المؤلف بشخصه دون مبالغة في زهو ألوانها . وكان تأليف بعض اهم السير عرضياً مثل وصف شيشرون لمجرى حياته في حقل الخطابة في « بروتس »(Brutus) ومثل عمل هوراس الأدبي المسمى « رسائـل ـ الجـزء الأول » والـذي هو وصف للكاتب بقلمه ، وينتهي بصورة شخصية مصغرة عنه ، ومثل وصف اوفيد لحياته في « ترستيا ـ الجزء الرابع » وذلك بعد ان خشي أن تنساه روما وهو في المنفى .

الفلسفة والتعلم : لم ينتج العقل الروماني العلمي اية فلاسفة أصلاً ، والاسم الـوحيد الـذي يستحـق الاعتبـار هو شيشرون . فقـد تدرب في أثينـا في الاكاديمية الجديدة ذات الفلسفة الانتقائية ، وواضح أنه بقي انتقـائياً ساعياً وراء

الفلسفة ، لانها تناسبت وبنيته العقلية في الدرجة الاولى ، لا لأنها نظام منطقي يناسب الجميع . وقد توسل صيغة الحوار لأنها باعترافه تجعل الناس يفكرون بأنفسهم بدلا من اتباع أهل الثقة . وكان صحفياً فلسفياً ألف اعمالا أدبية اصبحت احدى الوسائل التي انتقل بوساطتها الفكر اليوناني الى التفكير المسيحي . ويتصف كتابه « دي أوفيكس » (De officüs) بأنه بحث في الاخلاق ، والحوار لا يتبع النمط الأفلاطوني أو الديالكتيكي ، بل ينحو نحو ارسطو الذي يتلخص في أن يفيض المتحدثون في تفصيل آراء كوّنوها مسبقاً .

في مجال العلوم لم يكن الرومان اكثر أصالة منهم في مجال الادب . فعمدوا الى انتاج الموسوعات بدلا من الخلق والابداع كموسوعة فارو (Varo) وكلسيوس (Celsus) وكتاب بليني « التاريخ الطبيعي (Natural History) الذي لا يعدو كونه مجموعة مختلطة جذابة وهامة تختص بتاريخ الفن وتبين الى أي مدى اضطربت المنجزات الهيلينية في مجال العلم وضاعت .

النقد الأدبي : يعطينا كتاب شيشرون « بروتس » (Brutus) والكتاب العاشر من مؤلف كونتليان (Quintilian) المسمى « تعليم الخطابة (Institution oratoriqa) امثلة عن النقد العام وقد ركز شيشرون على أهمية العقل المثقف والفكاهة الاصيلة ضد تكتيك الدليل والكتيب . غدا الوقت اكثر مناسبة أيام هوراس للتأكيد على الأهمية المتساوية للفن . ونجد بعض أفضل نقد أدبي لهوراس في كتابه هجائيات (Satires) (الجزء الاول رقم ٤ و١٠ والجزء الثاني رقم ١) ، وفي الرسالة الموجهة إلى فلورس (Florus) (الجزء الثاني رقم ٢) وفي الرسالة الموجهة الى اغسطس (الجزء الثاني رقم ١) وهي دفاع صريح عن الأوغسطيين ضد دعاة القديم المتزمتين . ولكن رسالته التي وجهها الى بيزو (Piso) وابنائه ودعيت فيما بعد « بفن الشعراء » (Ars Poetica) كان لها أثرها في أوربا القرن الثامن عشر ،وهي مقال مبتكر بمهارة وحذق ، لكنها ترتكز على ناقد هيليني هو نيوبتوليموس (Neoptolemus) من باريوم(Parium) وتدافع عن الفرضية المشكوك فيها ، ومؤداها ان الشعر أفضل بالضرورة عندما يمتزج المفيد منه بالمجتمع (وبخاصة اذا كان درساً في الاخلاق) ولقد شُغل معظم النقد الأدبي بالمسرحية وكان الرومان اكثر اجادة في بحثهم الاتجاهات الأدبية منهم في

بحث المبادىء الرئيسية للمسرح وهنـاك الكثـير الجيد في هذا المجـال في مؤلفـات كونتيال . اما محاورات «Dialogues» تاستيوس فهي بحـث جيد عن انحطـاط من الخطابة .

أدب القصة : لم تعرف روما في عهد الجمهورية وأوائل فجر الامبراطورية أي ادب قصة لاتيني غير ترجمةِ سيزنا (Sisenna) لقصص ارستيديس المعروفة باسم « قصص ميليسيه » (Milesian Tales) إلاّ ان هناك مؤلفين منذ أيام الأمبراطـورية وصلتنا مقتطفات عنهـم مثـل الجـزأين رقـم ١٥ و١٦ من مؤلف « ستيريكون » (Satyricon) المعزو إلى بترونيوس ، وهي تبين بوضوح أن القصة من حكايا الشطار غير مترابطة الحوادث . ويقوم شخوص القصة ذوو السمعة السيئة بمغامرات متنوعة ويستخدمون حواراً حياً بلاتينية عامية . واشتهر بحق وصف مُحْدَث النعمة السوقي تريمـا لكيو (Trimalchio) وصفـاً نقـدياً . امـا رواية أبـو ليوس « مســخيات » (Metamorphoses) أو (الحمار الذهبي) فبطلها اسمه لوسيوس (Lucius) ويمسخ خطأ على شكل حمار . وبعد مغامرات غريبة تعيده الإلهة ايزيس الى جبلته الأولى . وفي الكتاب مقطوعات متعددة نخص بالذكر منها قصة « كيوبيد وسبايكي » وهي ذات جمال يصل الأوج بظهور شبح ايزيس ، وفي اطّلاع البطل (الذي يتحول الى المؤلف في آخر القصة) على شعائرها الغامضة .

الباب الثاني

العصور الوسطى

ميزات الفترة : يستعمل تعريف « الأدب الوسيطي » للدلالة على أدب أوربا وشرقي البحر المتوسط بدءاً من تأسيس الامبراطورية الرومانية الشرقية او البيزنطية حوالي العام ٣٠٠ م حاوياً بذلك الأدب الاغريقي الوسيط مروراً بالفترة التي تلت سقوط روما العام ٤٧٦ م ليشمل الأدب اللاتيني ، ثم عصر شارلمان وعصر النهضة الكارولنجي الذي بعثه شارلمان في فرنسا حوالي العام ٨٠٠ م وحتى نهاية القرن الخامس عشر متضمناً معظم الآداب الشعبية التي كتبت باللغات العامية الدارجة في أوربا آنذاك . وهكذا نرى ان التعريف هنا أعطي مدلولا أوسع من ذلك الذي يحدد تلك الفترة بالسنوات ما بين ١٠٠٠ ـ ١٤٥٠ م .

وقعت في القرون التي تلت سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية حادثة رئيسية غيرت مجرى التطور الأوروبي ، باستمرار إذ ان توطد أركان الديانة المسيحية في المناطق التي تتكون منها الامبراطورية الرومانية كان يعني تعرض أوربة لطريقة حياة منظمة جديدة وتعلمها لآداب وديانة طورها آباء الكنيسة الأوائل . وشكل الدمج بين الفلسفة المسيحية والكلاسيكية في الغرب أساس العادات الوسيطة لتفسير الحياة رمزياً ، وتم على يدي القديس أغسطين التوفيق ما بين الفكرين الأفلاطوني والمسيحي ، وأعطي النظام الدائم والثابت للكون حسب المفهوم الاغريقي صيغة مسيحية فاصبحت الطبيعة شيئاً مقدساً ، أو اصبحت كشفاً رمزياً للحقيقة المقدسة . وتسربل الأدب الكلاسيكي الحلة نفسها من الرمزية فامتدت الأساليب ، التي استعملت في تأويل الكتاب المقدس ، إلى الكتابات الكلاسيكية والعلمانية . وتعود طريقة المعالجة الرمزية أو المجازية (التي رأت في فيرجيل نبياً سبق المسيحيين ، وفي الانيادة قصة لرحلة الروح خلال الحياة إلى الفردوس (روما)) إلى التقاليد نفسه الذي ينسب اليه مفهوم دانتي المجازي لنفسه ، ولرحلته في الكوميديا الالهية .

لم تحدد الكنيسة هدف الأدب فحسب بل حفظته أيضاً . وأغلقت الطريق دون العلم الاغريقي في أوربا الغربية حتى القرنين الثاني عشر والثالث عشر لاسباب عدة . اذ تأسس دير القديس بندكت في مونت كاسينو (Mont Cassino) في ايطاليا عام ٥٢٩ وتبعته أديرة اخرى كمراكز للعلم ، وبخاصة بعد البعثات التبشيرية الايرلندية إلى الراين وبريطانية العظمى في القرنين السادس والسابع الميلاديين ، والبعثات الغوطية إلى أعالي الدانوب . وتمكنت هذه الأديرة من حفظ الأدب الكلاسيكي الوحيد الذي بقي في متناول الغرب في أوقات كانت تكتسح أوربا موجات الغوط والفاندال والفرنجة والاسكندنافيين على التوالي . وهكذا تمت المحافظة على مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين اللاتين ، كما سيطرت الأعمال التي تكتب باللاتينية على ما يكتب باللغة الدارجة خلال معظم تلك الفترة .

فكتبت باللاتينية مؤلفات هامة أمثال « مدينة الله » (City of God) للقديس أوغسطين « والتاريخ الاكليريكي » (Ecclesiastical History) للأب بيد (Bede) والسجلات التاريخية الدنماركية لسكسو كراماتيكوس (Saxo Grammaticus) شأنها شأن معظم المؤلفات الرئيسية في مجالات الفلسفة واللاهوت والتاريخ والعلوم .

وتكمن القيم الأدبية الرئيسية لهذه الفترة في الأعمال التي ألفت باللغة العامية الدارجة ويرجع أدب ما قبل المسيحيين في أوربا إلى تقاليد شفوية انعكست في الأدّا الشعرية (Poetic Edda) والملاحم البطولية الايسلندية (الساغا) (Sagas) وبيوولف (Beowulf) الانكلوسكسوني واغنية « هيلد براند » الالمانية(Song of Hilde brand) وجميع هذه المؤلفات تعود الى تقليد ألماني جناسي مشترك ، بيد انها جميعاً دونت ولأول مرة على ايدي نساخ مسيحيين في الفترة التاريخية التي تلت حوادثها ، وسربلت عناصرها الوثنية بفكر وشعور مسيحيين . إن صدى الأساطير الايسلندية يتردد في كل لغة جرمانية ، وواضح انها جميعاً تنحدر من مصدر أوربي مشترك ، إلا ان النصوص الاسكندنافية وحدها هي التي تعطينا وصفاً مترابطاً للقصص والشخصيات ذات العلاقة . ويعكس العديد من القصائد الشعبية القصصية

الغنائية القصيرة من نوع البالاد (Ballad) في اقطار مختلفة تقليداً محلياً أقدم زماناً من الانشاد الشفوي . وتعتبر القصص الرومانسية وقصائد الحب الرفيع البلاطي الغنائية تحوي كلتاهما عناصر من التقاليد الشعبية المتناقلة ممزوجة بعناصر من أدب علمي أكثر صقلا وتهذيباً ومصدرهما الرئيسي من فرنسا) من أشهر الأنواع الأدبية المعروفة التي نشأت في الأدب العامي الدارج الوسيط . واستمدت القصص من مصادر كلاسيكية أو آرثرية (نسبة إلى الملك آرثر) وسبكت بقالب شاعري ، لتحل محل الملاحم البطولية التي سادت المجتمع الاقطاعي ، كأغنية رولاند/(The Song of Roland) مثلا ، وهي قصة بطولية تدور حول شجاعة الفرسان ، كما اشتملت تلك القصص على مواضع معقدة في الحب والاخلاق والنزاهة مع بحث عن الحقيقة الروحية ، وتمثل هذا المزيج في كل أدب أوربي رئيسي من ذلك العصر . وكان لقصيدة الحب الغنائية خلفية متغايرة الخواص والعناصر ، وهناك كبير جدل حول الاصول الدقيقة للجب البلاطي الرفيع ، وحول أثر التقاليد الشعبية في شعر الحب. وواضح في جميع الاحوال ان عنصر المرأة الرفيعة المقام التي تبوأت درجة المثالية وعنصر محبها المدنف ـ وهما ركنان من عناصر شعر شعراء الحب في جنوب فرنسا وشمالها ـ كانا القدوة التي تمت محاكاتها أو أعيدت صياغتها في طول أوربا وعرضها ، ونلقاها في المدرسة العقلية في ايطالية ولدى شعراء الهوى في المانية وفي مجموعة قصائد لاتينية تدعى « كارمينا|بورانا » (Carmina Burana) .

بدأت المسرحية الوسيطية بالاحتفالات الدبنية التي كانت تقام في الكنيسة بالمناسبات الهامة للتقويم المسيحي . ثم توسعت وتطورت الصفة الدرامية للطقوس الدينية فيها وربما كانت بادىء ذي بدء على شكل ايماءات ومحاكاة صامتة ثم تطورت بإدخال إضافات درامية على حوادث او أشخاص يرد ذكرهم في الشعائر الدينية . وزاد هذا التوسع والتطور حتى غدت الدراما مسألة علمانية تمثل على مسارح أو عربات في شوارع المدينة أو ساحاتها العامة . وكان الممثلون حرفيين تابعين للنقابات الحرفية أو ممثلين محترفين تستأجرهم المدن ليمثلوا في الاحتفالات المحلية أو الدينية . وتطورت عنها ثلاثة أنواع من المسرحية : الأولى تتحدث عن خلق الكون وتسمى مسرحية الغموض (Mystery) ، والثانية تتحدث عن معجزات المسيح وحوارييه وتسمى مسرحية المعجزات (Miracle) ، والثالثة تعالج بشكل مجازي

سعي الانسان لدخول جنة الخلد وتسمى الأخلاقية (Morality) . وبقيت عناوين المسرحية الوسيطة وموضوعاتها دينية ، إلا ان عناوين عناصر مشاهدها تشير إلى طبيعتها الهزلية أو المرحة والبدائية أحياناً . وترجمت إحدى احسن المسرحيات « الاخلاقية » التي وصلتنا عن الهولندية وعرفت في الانكليزية بعنوان « كل انسان » (Everyman) . اما القسم الانكليزي من الأدب الوسيطي فمجهول التأليف ويصعب تأريخه . بينما جاء بعض أعظم كتاب الأدب الوسيطي امثال دانتي (Dante) وتشوسر (Chaucer) وبترارك (Petrarch) وبوكاتشيو (Boccaccio) في وقت متأخر من تلك الفترة ، وتبين أعمالهم الادبية الطبيعة الانتقالية لأفضل ضروب الأدب الوسيطي ، لأنهم بصفتهم معلقين مهرة على ما جرى خلال العصور الوسطى بشروا جميعاً بالانجازات العظمى لأدب عصر النهضة واشكالها .

الفَصْل الأول

الأدب اللاتيني الوسيط

عكس الأدب اللاتيني في العصور الوسطى مباشرة تاريخ المجتمع الذي ولد فيه . ولم يكن مقدراً للأدب اللاتيني الواسع الذي انتجه الغرب خلال الألف عام التي فصلت نهاية الامبراطورية الغربية عن عصر النهضة أن يرى النور لولا سيطرة روما الواسعة خلال الخمسمائة عام التي سبقت . وما دامت رومة عاصمة ثقافية ظل بالمستطاع وجود أدب كلاسيكي موحد بينما حال الحفاظ على اللاتينية كلغة للطبقة الحاكمة في الامبراطورية دون نمو الادب العامي المنافس لها . وعندما دحرت روما حيال الغزوات البربرية ، وجزئت بقيام بيزنطة في النصف الشرقي المستقل للامبراطورية ، وحلت المسيحية محل الوثنية كان بقاء ما يسمى ادباً لاتينياً رهناً بوجود الكنيسة وحدها . وهكذا اصبحت رومة مركز ثقافة عالمية جديدة . وحفظ العلم والأدب كما أنتجا في الأديرة ومدارسها وفي مدارس الكاتدرائيات ، ومن ثم في الجامعات الناشئة .

تألف النثر اللاتيني في العصور الوسطى : اذا وضعنا جانباً الوثائق الرسمية والسجلات التاريخية والقوانين والمعاهدات والمراسلات الدبلوماسية وما شابهها ـ من المقالات اللاهوتية والفلسفية والعلمية ومن الصلوات وشروح الانجيل والجدل اللاهوتي والتاريخ وسير الاشخاص والقديسين والمراسلات الشخصية . وكان للكتاب في كل هذا أهداف عملية اكثر منها ادبية . ولم يكن الشعر نفعياً أو ديني النزعة الى هذا الحد ، فقد شمل ملاحم علمانية واخرى دينية كما ضم قصائد تعليمية وشعر المناسبات من كل ضرب . لكن لم يكن كل ذلك الشعر ذا قيمة ادبية تذكر باستثناء الترانيم والقصائد الغنائية الرومانطيقية . والمقارنة أخاذة بين الادب الكلاسيكي وذاك الذي تبعه كماً ونوعاً ، كما هي سهلة التعليل ، اذ لم يصلنا من

الأدب الكلاسيكـــي سوى النزر اليسير ،وان كان أفضله ، في حين حفظت كل النصوص الوسيطية ، الجيدة منها والـرديئة ، كما أن أثر المسيحيـة على الأدباء في القرون الوسطى ليس له ما يضارعه في العصور الكلاسيكية ، فقد سيطرت تلك الديانة على حياتهم ولوَّنت افكارهم ، وتغلغلت الى اعماق كتاباتهم. وكان أثرها ايجابياً ، اذ قدمت المادة والوحي وزودت الشعر بصيغ دينية جديـدة ، لكنها من جهة اخرى كانت سلبية الاثر لاعتبارها الأدب الكلاسيكي نتاجاً وثنياً يقرأ توسلاً للـدراسات الانجيليـة . ومع ذلك درست النصوص الكلاسيكيـة في الأديـرة ونسخت ، الا ان بعضها حور - مثل مؤلفات فيرجيل - فعمد للاستعمال المسيحي بأن فسر مجازياً ، بينما ظلت العلوم العقلية أو الفنون الحرة قاعدة للتعليم الوسيطي في الثلاثيـة (النحو- والبلاغة - المنطق) والرباعيـة (الهندسة والحساب والفلك والموسقا) . كما صنف الطب وهندسة البناء في عداد الفنون العقلية . وأدى التركيز على هذه الفنون على حساب المؤلفين والمفهوم المتدني للبيان الى تسديد ضربة قاتلة الى نوعية الأدب حتى انتهى الأمر بالشعراء الى الاستغراق في المحسنات البديعية كأن تؤلف اوائل او آواخر مفردات بيت من الشعر كلمة ذات معنى ، الى غير ذلك من الصيغ التافهة والمعقدة التي قدمت المتعة للعقل الوسيطي .

استخدم الأدب اللاتيني المسيحي المكتوب مفردات جديدة ومتنوعة اقتضتها حاجات مسيحية معينة في القرنين الثالث والرابع كان أول من أدخلها مجموعة من الكتاب الافريقيين الذين دربوا في مدارس النحو والبلاغة ، وكان ترتليان (Tertullian) ومينوسيوس فيلكس (Minucius Felix) وسيبريان (Cyprian) وارنوبيوس (Arnobius) ولكتانتيوس (Lactantius) أهم هؤلاء الكتاب . وناقش القديس اغسطيس مطران هبو (Hippo) في كتابه «حول المبدأ المسيحي» (De Doctrin achristiana) مسألة الموقف الذي يجب ان يتخذه المتعلمون المسيحيون من الثقافة الادبية العلمانية ،كما وافق بصفته استاذاً للبيان على مبدأ قبول المسيحيين للعلم الكلاسيكي والوثني واساليبه بشروط معينة . وقد خلق أثر الأدب الكلاسيكي العلماني مشكلة للقديس جيروم ، الا انه انتج تحفة من اللاتينية المسيحية في ترجمته

للكتاب المقدس المعروفة باسم «فلغيت»(Vulgate) كان لها أثرها العميق في العصور الوسطى . وكان معظم نثر القرن الرابع يدور حول مسائل عقائدية ، الا ان كتاب « الاعترافات » (Confessiones) للقديس اوغسطين هو الكتاب الوحيد ذو القيمة الادبية .

شهد أواخر القرن الرابع نهاية الشعر الوثني في احاسيسه ، الكلاسيكي في صيغته ، ولم ترفع له راية بعد أوسونيوس (Ausonios) وكلوديان (Claudian) على حين وقف بولينوس (Paulinus) اسقف نولا (Nola) على مفترق الطرق ، وأما برودنتيوس (Prudentius) الاسباني الذي ابتكر القصيدة الغنائية المسيحية من نوع «الأود» فقد لقح التعاليم المسيحية بنبرات كلاسيكية . واكثر الانتاج الادبي اصالة في القرن الرابع هو الترانيم اللاتينية المسيحية ، التي حلت فيها الاوزان المقفاة وغير المقفاة التي اعتمدت التناسق في المقاطع ، والنبرات والجرس الموسيقي محل البحور الشعرية الكلاسيكية التي عمادها عدد المقاطع . وتعتبر ترانيم القديس أمبروز (Ambrose) أول كشف في هذا المجال ، وأغنى شريان للشعر الوسيطي اللاتيني .

وما بين عامي ٥٠٠ و٧٠٠م كان الاسهام الرئيسي في الادب عبر تأسيس الاديرة التي كونت مراكز لنسخ النصوص الكلاسيكية . ومن بين الأعمال الاصيلة التي تستحق الذكر مؤلفان لكاتبين وثنيين في القرن الخامس الميلادي هما «تعليق مكروبيوس» (Macrobius) على كتاب «حلم شبيو» (Somnium Scipionus) لشيشرون ومؤلَّف مارتيانوس كابلا (Martianus Capella) ويعد مقدمة في العلوم العقلية أو الفنون الحرة تحت عنوان «حول زواج فقه اللغة وميركوري» (De nuptiis Philologiae et Mercurii) ، وهما كتابان أثرا عميقاً فيما بعد بمدارس العصور الوسطى . وخدم كتاب «أصول الكلمات» (Etymologiae) لاسيدور (Isidore) أسقف اشبيلية (Seville) كموسوعة لاجيال عديدة . وتفيض ترانيم فينانتيوس فورتوناتس (Venantius Fortanatus) بشعور مسيحي جياش مصاغ بقالب كلاسيكي . اما كتاب بيذيوس (Boethius) حول مواساة الفلسفة (De Consolatione Philosophiae) وهو سفر فلسفي رفيع صيغ شعراً ونثراً معاً ، فقد سيطر على العالم المتعلم خلال القرون الوسطى وما بعدها .

كان القرنان السابع والثامن الميلاديان فترة عقيمة فنشد العلم ملاذه من الغليان السياسي في البر الاوروبي بالاديرة ومؤسساتها في بريطانية وايرلندة ، ومن هناك اعاد العلماء المبشرون نقله عبر بحر المانش . ونذكر من أبرز العلماء الانكليز ألدهلم (Aldhelm) الذي تميز بعلمه اكثر مما تميز برشاقته الادبية ، والمبجل بيد (Venerablle Bede) الذي يعتبر كتابه «تاريخ الكنيسة الانكليزية» مناراً من العلم والعبقرية التاريخية .

وشهد أواخر القرن الثامن الميلادي حركة احياء للآداب برعاية حكومة شارلمان القوية والمستنيرة ، فسميت الفترة باسمه (كارولنجيةCarolingian) . وقد استدعى ألكوين (Alcuin) الشاعر والعالم من انكلترة كي يساعد في تنظيم المدارس الفرنسية لتثقيف القساوسة المتعلمين . ووفد على بلاط شارلمان مجموعة مزدهرة من الشعراء ، على رأسهم تيودولف(Theodulf) من اورليانز(Orléans) ذلك الكاتب الكلاسيكي الرفيع الثقافة الذي خلف ألكوين بادارة مدرسة القصر في آخن (Aachen) . وهكذا صدر عن الأديرة سيل وافر من الشعر الديني وغير الديني في أوزان كلاسيكية او جرسية . ولقد أظهر شاعران اصالة خاصة في الاوزان الغنائية وهما ولفريد سترابو(Walafrid Strabo) وكوتشوك(Cottshalk) وكلاهما تتلمذ على ربانوس موروس(Rabanus Maurus) وهو راهب عالم من فولدا(Fulda) . وتجلت في تلميذ آخر من تلامذته وهو لوبس(Lupus) من «فيريير»(Ferrières)- بما دبج من رسائل - عاطفة رائعة للادب والكلاسيكيات . واذا كانت النهضة الكارولنجية أهلاً لتسميتها فمرد ذلك بالدرجة الاولى لاهتمامها بالأدب ، وحماستها للعلم ومهارتها في نسخ المخطوطات ، وليس بنتاجها الادبي . وأهم عمل نثري لتلك الفترة ، سفر العالم الاسكتلندي جون سكوتوس اريجينا(John Scotus Erigena) «حول تقسيم الطبيعة » (De Divisione Naturae) وفيه يشرح نظرية فلسفية للكون استقاها من مصادر يونانية . وما خلا ذلك لم يكن هناك أي مؤلف نثري في القرن التاسع يستحق الخلود . ولم ينتج من الأدب ما له أهمية تذكر سوى قلة من بين العديد من اللاهوتيين والمؤرخين وكتاب سير القديسيين والشعراء في القرنين العاشر والحادي عشر سواء كان ذلك الادب دينياً او علمانياً . وتمثل اهم تطور في القرن الحادي عشر

في القصيدة الغنائية العلمانية التي كشفت لأول مرة من حيث وزنها وشكل مقطوعاتها ، عن أهمية « التتابع » الديني الذي هو ابتكار شعري أصيل للأدب اللاتيني في القرون الوسطي الذي نظم ليغني عند الصلاة بين قراءة الرسالة والانجيل . وتضم أغاني كمبردج (Cambridg Songs) ـ وهي مجموعة شعرية تعود الى القرن الحادي عشر وضعت في المانيا ـ عدداً من القصائد التي اغفلت اسماء واضعيها ، وتبين استعمال التتابع في المقطوعات العلمانية .

وفي نهاية القرن الحادي عشر واوائل الثاني عشر أصدرت مدارس الكاتدرائيات الفرنسية كمية وفيرة من الشعر كتبت لمناسبات معينة في نماذج كلاسيكية . نذكر من شعرائها ماربو (Marbod) من رينز (Rennes) وهيلدبرت (Hildebert) من لافاردان (Lavardin) وبودري (Baudry) من بورغيل (Bourgueil) وقد نظم جميعهم الترانيم الدينية بأوزان نبرية .

وفي القرن الثاني عشر أيضاً حلت مدارس الكاتدرائيات التي سبقت الجامعات محل الاديرة كمراكز للادب فانفتح بذلك مدى اوسع للدراسات ، وفيه تأكيد أذكى على المؤلفين. وظهرت في مدرسة كاتدرائية شارتر (Chartre) في فرنسا مجموعة من الكتاب تجلى في كتاباتهم الأثر الافلاطوني ، ومن اشهرهم برنار سيلفستري (Bernard Silvestris) وآلن دوليل (Alain Dellile) . كما استفاد من نتاجهما من أتى بعدهما من مؤلفين كتبوا باللغة العامية الدارجة . أما في انكلترة فظهر جون أوف ساليزبري (John Of Salisbury) ، وهو عالم انساني وسيطي مشهور كتب باللاتينية ، ويدين بالكثير لاساتذة شارتر ، وهناك كاتبان انكليزيان آخران يستحقان الذكر وهما جفري اوف مونماوث (Geoffrey Of Monmouth) كاتب تاريخ ملوك بريطانيا (Historia Regum Britanniae) الذي لاقى نجاحاً منقطع النظير في عصر اهتم كثيراً بالقصص العاطفية ، وولترماب (Walter Map) أحد اعضاء الحلقة الادبية في كنتربري ذاتها التي انضم اليها جون اوف ساليزبري ، وقد كتب مزيجاً من النثرثرة والقصص الشعبي والهجاء في مؤلفه «حول فكاهات رجال البلاط» (De Nugis Curialium) .

ومن الأسماء اللامعة التي عاشت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر نذكر بيتر إبلارد (Peter Abelard) وتوماس اكونيـاس (Thomas Aqiunas) وبرنارد أوف كلـيرفو (Bernard Of Clairvaux) ودنزسكـوتس (Duns Scotus) وروجر بيـكن (Roger Bacon) واشتهر جميعهم باسهامهم الفلسفي والـديني . وكـانت الترنيات افضل ما جاد به شعرهم . ولقد أظهر إبلارد أصالة في ابتكار اشكال جديدة من المقاطع الشعرية ، بينما بلغت صيغة «التتابع» درجة الكمال على يد آدم اوف سانت فيكتور (Adam Of St. Victor) وفي القرن الثالث عشر عمت الحياة الدينية والادب الـديني بتأثير القديس فرانسيس أوف اسيسي (St. Francis Of Assisi) نزعة من العاطفة الشخصية وجدت متنفسها بالتعبير الرفيع في «المديح» الذي نظمه (Laude) جاكوبون داتودي (Jacopone da Todi) وبالترانيم اللاتينية من مثل «ستابات ماتر» (Stabat Mater) . وفي هذه الفترة ولمدة قرن من الـزمن برزت موجة جديـدة من الاحساس بالشعر العلماني المنظوم باللاتينيـة أو العاميـة الـدارجة وحفظ نتاج هذا الشعر في مجموعة امثال كارمينا بيورانا (Carmina Burana) التي تضم قصائد حب غنائية وأغاني شراب وقصائد تنوعت مواضيعها بتنوع أشكالها ، وتتسم بشكل عام بالحيويـة والعفويـة ، لكنها خلـو من الصيغة الادبيـة وهي بمعظمها نتاج «علماء متجولين» ومؤلفين أغفلت اسماؤهم ، وان كان من الممكن ذكر بعضهم من أمثال ولتر أوف تشاتلون (Walter Of Chatillon) ، وشخص غامض يدعى هيو بريماس (Hugh Primas) ، وشاعر مجهول أطلق عليـه اسم «الشاعر الـكبير» . ويتصف بعض نتاجهم بأنه مثال جيد لشعر الحانات المرح .

وقبل عام ١٤٥٣ بأمد طويل . عندما انتقلت بسقوط القسطنطينية كموجة عارمة من النصوص الاغريقية وعلماء الاغريقية القادرين على شرحها نحو الغرب ـ نهض كتاب لاتين في ايطالية رافضين البربرية الوسيطية شكلاً ومفردات ، واتجهوا ـ تبعاً لذلك ـ نحو الكتاب الكلاسيكيين كنماذج يحتذونها متحدين الكنيسة التي انكرتها . ومن الأسماء البارزة لكتاب أثروا في عصر النهضة نذكـر البرتينومساتو (Albertino Mussato) (١٢٦١ ـ ١٣٢٩) وهو كاتب تراجيديـا على نمط سينكـة وبترارك (Petrarch) وهو مدبج رسائل على نمط هوراس ، وناظم ملحمة « افريقية » (Africa) ، وجيوفاني بوكاشيو (Giovanni Bacaccio) مؤلف كتاب «حول أصل آلهة

الوثنيـــين» (De Genealogia Deorum Gentilium) وهو موسوعة أساطير . وساعد اساتذة آخرون (مثل غوارينوفيرونيــز) (Guarino Veronese) وفيتورينو دافلتر (Vittorino da Feltre) وقيمو مكتبات وجامعو مخطوطات مثل (كولوتشيو سلوتاتي) (Coluccio Salutati) وبوجيـو براتشيـوليني (Poggio Bracciolini) في خلـق عاطفة جياشة نحو العلم الكلاسيكي والادب الانساني فابتعثوهما حتى تغلغلا في المدارس والجامعات الايطالية في اواسط القرن الخامس عشر . وزاد في اضطرام شعلة هذه العاطفة أنصار اشداء للعلم أمثال (آل مديشي) (Medicci) في فلورنسة (Florence) ، وبلاط آل أراغون (Aragonesse) في نابلي ، والبلاط البابوي في روما في عهد البابا بيوس الثاني (Pius 2) (ارتقى العرش البابوي من عام ١٤٥٨ الى ١٤٦٤ م) بمشاركة رجال الأدب . وأسهمت المطابع التي شاعـت مؤخـراً في نشر مؤلفـات الكتـاب المعاصرين والكلاسيكيين من كتبوا باللاتينية . وفي حوالي عام ١٥٠٠ م ازدهر في ايطاليا أدب لاتيني كتبه رجال أولوا الشكل اهتماماً زاد عن الحد احياناً ، واتخـذوا الانماط الكلاسيكية القديمة نماذج احتذوها ، وأتـى تقليدهـم احيانـاً آلياً اكثـر ممـا يجب ، مستعملين الشعر والنثر اللاتينيين كوسيلة تعبير عن شخصياتهم ، ولنقل وجهة نظر انسانية ناضجة عن الحياة .

الفَصْل الثّاني

الأدَب الفرنسي في العُصور الوسطى - العصر الوسيط-

تم استيطان بلاد الغال او فرنسة ، وبخاصة الاقسام الجنوبية والوسطى منها منذ القدم . وخلال الالف الاول قبل الميلاد غزا السلت معظم البلاد ، وما زالت لقابهم القبلية حية في أسماء المدن الفرنسية ، لكن معرفتنا عن الاساطير والخرافات السلتية جاءت على وجه العموم من مصادر الجزر البريطانية وليس من فرنسا . وكان الرومان هم الذين أدخلوا الادب المكتوب . وظلت اللاتينية لغة الوثائق والأدب المكتوب كله تقريباً حتى القرن الثاني عشر .

أما القاعدة السياسية لفرنسا الحديثة فرسخ أسسها الفرنجة الذين حكموا من البلاد ما يعرف الان بجنوبي بلجيكا ووادي الراين (حوالي ٥٠٠ ـ ٩٠٠م) وسيطروا بالتالي على الكثير من أوروبا الوسطى . وادى احتلال شارلمان (Charlmagne) لسكسونيا (٧٧٢ ـ ٨٠٤م) الى زعزعة استقرار الشمال الوثني ، بيد ان هجمات الفايكنغ «رجال الشمال» (Vikings) التي تلت ، وعدم نضج الطبقة الفرنسية الحاكمة سياسياً ، آذنا بسقوط امبراطورية شارلمان الكارولنجية . وتمخض عن هذا الوضع تدريجياً مملكة غربية اتخذت لنفسها الاسم القديم « فرانسيا » (Franscia) أو فرنسا وفيها نشأ نوعان من اللاتينية العامية او الريفية وهما لغة الويل (D'oil) في الشمال ، والدوك (D'oc) في الجنوب . وهما لفظان مختلفان لكلمة « نعم » في اللهجتين . وهكذا غدت كل لهجة وسيلة ادبية لأدب هام . وتطور الشعر الغنائي في الجنوب بينما نشأ في الشمال أدب اكثر تنوعاً يغلب عليه القصص .

وساهم الكثيرون بالاضافة الى الفرنجة في خلق تراث ثقافي لشمال فرنسا . فبعد انسحاب الرومان احتل السلتيون ما يعرف الآن باسم «بريتاني» (Brittany) .

ومما له دلالته ان تكون افضل المواضيع المطروقة في الأدب الفرنسي القديم - وهي سلسلة حكايات الملك آرثر - سلتية في أصلها ، لان هذا الملك بطل في نظر اهالي كورنول في انكلترا وبريتاني في فرنسا . وارست استيطانات الاسكندنافيين عام ٩١١م اسس دوقيه نورمندي التي تحكمت بمسار فرنسا السياسي حتى عام ١٢١٠م . كما قوى فتح انكلترا او جنوبي ويلز على ايدي حكام نورمانديين من الروابط بين فرنسا والعالمين الاسكندنافي والسلتي . ولـذا نجد أن بعض اقدمَ واجمل القصائد القصصية الفرنسية - وتعود بتاريخها الى القرن الثاني عشر (أمثال «القديس برندان» (St. Brendan) «وترستان»(Tristan) «وهافلوك»(Haveloc) - تصف مغامرات ابطال ايرلنديين وكورنوليين (نسبة الى كورنول) وانكليز اسكندنافيين . وفي عام ١١٥٤ عندما تربع هنري بلانتجنيت - دوق نورماندي وكونت آنجو(Cont Of Anjou) وزوج اليانور (Dleanor) من اكيتين (Aquitaine) - عرش بريطانيا باسم هنري الثاني أدمجت هذه الدولة الانكلونورمندية في إطار امبراطورية واسعة - امبراطورية « انجفان » (Angevin) وتمتد من جنوبي شرقي ايرلندا الى جبال البيرنية(Pyrenees)

مكانة الأدب الفرنسي القديم دولياً :

يعزى استخدام اللغة الفرنسية القديمة وهي لغة الويل(D'oil) في الاغنية والقصة والقانون والادارة في بلاد أبعد بكثير من فرنسا الى تغيير البنية السكانية والفتوحات الاجنبية التي قام بها نبلاء اقطاعيون ، والى احياء الدراسات الأدبية في مدارس الكاتدرائيات في شمالي فرنسا . وخلال الفترة التي تكوَّن فيها الادب الفرنسي (١٠٥٠ - ١٢١٠م) كان النبلاء الفرنسيون يبرزون في نوع جديد من الحرب والفروسية عندما نشأت عن الحرب الصليبية الاولى - وفيها هيمن القادة الفرنسيون - مملكة في فلسطين ، وامارات اقطاعية في سورية . وفي عام ١٢٠٤ تسلم عرش بيزنطية حاكم فرنسي . وبينما كان الشعراء الانكلو نورمانديون والانكلو انجفيون ينظمون الثنائيات الشعرية حول الاساطير السلتية والدانماركية كان المستوطنون في الشرق الاوسط يترسلون بالنثر وصفاً لمعاركهم . وامتد رواق الأدب الفرنسي القديم بعيداً ، لكنه اينما نبت كان يعكس اذواق الطبقة المحاربة واهتماماتها وآراءها لأنها المسؤولة عن انتشاره .

الشعر المتناقل وأناشيد البطولة . (Chansons De Geste) -

كانت النصوص القصيرة المكتوبة في القرنين التاسع والعاشر نادرة وتثير اهتمامنا من ناحية أصول الكلمات وتطور معانيها . اما القرن الحادي عشر فقد خلا من أي نص بالفرنسية القديمة الا ان هناك مخطوط «لاغنية رولاند» (Charson de Roland) ، وهي أعظم الملاحم الفرنسية القديمة ، وهو النص الادبي الوحيد والهام الذي يرجع بالتأكيد الى تاريخ يسبق ١١٥٠ . والمخطوط في حد ذاته انكلو نورماندي ، لكن القصيدة المقفاة - المؤلفة من مقاطع كل منها من عشرة أبيات - اوروبية الاصل وتعود الى تقليد قديم للشعر الشفهي المتناقل .

وبعد انهيار السلالة الكارولنجية جرت محاولات أولى لتوحيد الطبقة المحاربة في القرن الحادي عشر ، ونظمت مساعدات عسكرية للادارات المسيحية في شمال اسبانيا تساندها الاديرة البندكتية المصلحة (Benedictine) تحت اشراف كلوني (Cluny) . وزحف المحاربون والتجار ورجال الدين على الطرق التي يربطها ممران رئيسيان في جبال « البرانس ، (البيرينية) وهما ممر رونيفو (Ronnevaux) وممر سمبور (Somport) وكانوا ينطلقون من هناك الى مركز للحج اسمه سانتيا غودوكومبستلا (Santiago de Compostela) . ولتسلية الحجيج نشأت مجموعة كبرى من الشعر الملحمي أخذت مواضيعها من جميع انحاء فرنسا وتطورت قصص شفهية حول المواضيع التقليدية على أيدي الشعراء الشعبيين الذين كانوا اما خدماً للنبلاء العظام أو لرجال الدين ، كما كان بعضهم من ذوي رتب الفرسان أو ذوي دراسة اكليريكية احياناً . وبشكل عام اعتمدت هذه الحلقات في مواضيعها من الشعر الملحمي على ذكريات عميقة عن النزاع في القرن الثامن بين الفرنجة والغاسقونيين (Gascons) والأمراء المستعربين (Mosorabic) بغية السيطرة على جنوب فرنسا ، واندمجت هذه الذكريات في خيالهم الشاعري بأحداث الثورات والخلافات السلالية التي تلت .

يطلق الشعراء احياناً اسم «تأريخيات سلالية» (Chansons de Geste) على حوالي ٨٠ من قصائدهم الملحمية المكتوبة والتي أغفل في الغالب اسم ناظميها . وفي صميم هذه الملاحم أساطير تدور حول شارلمان كامبراطور وحام للمسيحية

وبطلها ، مع أن محور الكثير منها أشخاص من النبلاء الكبار أمثال جيرار دو روسيلو (Girart de Rousillon) ودون دومايبنس (Doon de Mayence) واوجير الدنماركي (Ogier The Dane) واللوارنيين (Loherains) ورأول دي كامبري (Raoul de Cambrai) . وقاسمها المشترك بشكل رئيسي هو موضوعها البطولي ، وطرق معالجتها وتفصيل خاص لوصف المعارك الكبرى سواء أكانت بين المسيحيين والمسلمين أم بين جيش أحد البارونات ضد بارون آخر ،او بين ابن وابيه او اخ واخيه بله المبارزات بين أبطال منفردين . واتخذت حروب شارلمان ضد المسلمين ، خلفية لاغنية رولان الملحمية (Chanson de Roland) ، وصور فيها رولان بطل معركة رونسيران (Ronceran) كمثل أعلى للمحارب الذي لا يستسلم بل يعد منتصراً ولو اندحر ، كما أخضع موضوع الشرف والانتقام الفردي لموضوع اوروبا في حربها الصليبية ضد المسلمين . وتروي قصيدة «حج شارلمان» (Pèlerinage de Charlemagne) عدة مغامرات له ولنبلائه امثال رولان واولفيه (Olivier) وغيلوم دورانج (Guillaume D'Orange) وأوجير الدانماركي وغيرهم في اطار الرحلة الى القسطنطينية ثم الى القدس . ولمع غيلوم دورانج كبطل رئيسي في حوالى ٢٤ ملحمة تعود الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ومما لا مرية فيه ان غيلوم هو الشخص المعروف باسم ولهلموس (Wilhelmus) النبيل الفرنجي ، وابن عم شارلمان . أما ملحمة هون دوبوردو (Huon de Bordeaux) ففي تضاعيفها مادة خيالية غريبة ، اذ يساعد ملك الجن او برون (Oberon) البطل فيما هو ذاهب في مغامراته . وهذه الملحمة معروفة لدى ادموند سبنسر (Edmund Spenser) وشكسبير وجون كيتس (John Keats) في ترجمة انكليزية .

الرومانسية : (Romance)

نشأ في فرنسا في القرن الثاني عشر نوع آخر من الأدب القصصي من الصعب تحديده . وفي السابق تميزت القصة عن الملحمة بأن كتبت في مزدوجات ثمانية المقاطع موزونة ، بدلاً من القطع الشعرية المسجوعة . والتقليد المتبع في القصة تبويبها حسب موضوعها . فهناك المجموعة البريطانية وتدور قصصها حول المغامرات الأسطورية لفرسان الملك آرثر . وهناك مجموعة روما أو على الأصح

روايات العصور القديمة (romans d'antiqite) وتتحدث عن الاسكندر الكبير واينياس وأساطير طيبة (ثيبة) وطروادة . وهناك مجموعة ثالثة تعرف باسم « قصص المغامرة » (Romans d'aventure) وتتضمن مواضيع متنوعة ، وأفضل ما يمثلها قصائد أمثال « فلوار وبلانشفلور » (Floir et Blanchefleur) و« لاسكوفل » (L'Escoufle) (حوالي ١٢٠٠) التي كتبها جان رينار (Jean Renart) .

تختلف القصة كشكل أدبي عن الملحمة والقصة الدينية بأنها تروي القصص للمتعة والاثارة وما يلفت النظر خلوها من أي هدف ديني او سياسي او تعليمي أو أخلاقي ، وكانت قصص الحب والفروسية والمغامرة التي ظهرت في البداية بفرنسا حصيلة ابداع كتاب محترفين تثقفوا بعد دراسة الثلاثية الوسيطة (النحو والبلاغة والمنطق) وكتبوا لامتاع مشجعي العلم من الأرستقراطية . واستعملت كلمة قصة (Romanz) ـ ومعناها الأصلي « عامي » بالمقارنة باللغة اللاتينية حوالي ١١٤٠ للدلالة على الترجمات والاقتباسات من اللاتينية في اللغة العامية الدارجة ذات المضمون التاريخي او شبه التاريخي . فمثلاً تعرف ترجمة ويس (Wace) لكتاب جفري أوف مونموث (Geoffrey of Monmouth) المسمى « تاريخ ملوك بريطانيا » (Historia regum Britania) تحت اسم « قصة بروت » (Romanz de Brut) (بالنسبة لبروتس مؤسس بريطانيا الأسطوري) . كما قام مجهول باقتباس انيادة فيرجيل وحورها تحت اسم قصة إينياس (L'Romanz d'Enéas) . ودشنت القصة نشوءها كاسم وشكل أدبيين بهذه المؤلفات وأعمال أخرى مماثلة كقصة الاسكندر الكبير وقصص طيبة وطروادة .

وقد روت قصص الاسكندر ـ وهي في أسلوبها وشكلها ملحمة اكثر منها سرد قصة ـ سيرة هذا الفاتح الأسطورية ، وانتقلت الى العصر الوسيط عن طريق الوسطاء اللاتين ، أما قصة الاسكندر (Romanz d'Alexandre) التي ساهم بكتابتها عدة مؤلفين فقد بدأها إلبرك دو بريانسون (Alberic de Briançon) ـ وتكاملت خلال أكثر من قرن ، وأعطيت شكلها النهائي على يد ألكساندر دوبرناي (Alexandre de Bernai) . ويدور شطرها الأكبر ـ شأنها شأن الأغاني البطولية ـ حول الحروب والمعارك ولكنها قمينة بالاهتمام لما تضمنته من عناصر خيالية بعيدة ،

ولا سيما ذلك الجزء الخاص بأعاجيب الهند والذي كتبه لامبير لاتـور (Lambert le tort) ، وهي مدينة بشعبيتها ـ بشكل رئيسي ـ لهذه المراجع الغريبة والعجيبة .

ألفت قصة طيبـة (Roman de Thebes) وقصـة اينياس (Roman de Enéas) وقصة طروادة (Roman de Troie) في الفترة ما بين الأعوام ١١٥٠ ـ ١١٦٥ واستغل مؤلفوها العالم القديم الكلاسيكي بأن أظهروا محاربيه يتصرفون وكأنهم فرسان من العصور الوسطى . والجدير بالملاحظة تكتيكها الذي عكس اثر البلاغة المعاصرة ، بما ادخلوه من نصوص وصفية مطولة وصفحات من النقاش بين البطل ونفسـه ، حول أمور الحب والقلب . وفي قصتي « طروادة » و« إينياس » اهتمام بالغ بالحب مبني على مفهوم أوفيد عن الحب ، على انه مرض يسبب القلق . ناهيك عن أننا نجد في قصة « طروادة » قصة برزيس (Brisis) الخائن الذي تخلى عن ترويلـوس (Triolus) ووسع من أطراف هذه القصة جيوفاني بوكاتشيو لتصبح القاعدة التي بنى عليها تشوسر قصيدته ترويلوس وكروسيد (Troillus and Criseyde) كما بنى عليها شكسبير مسرحية « ترويلوس وكرسيدا » (Troilus and Cressida) .

وانفتح أمام كتاب القصة عالم جديد من الخيال هو عالم بريطانيا وبلاط الملك آرثر بفضل كتاب « تاريخ ملوك بريطانيا » لجفري أوف مونمـاوث عام ١١٣٧ . فاقتبسـه ونظّمـه واس (Wace) شعـراً في كتابـه بروت (Brut) عام ١١٥٥ . وكان كريتان دوتري (Chrétien de Triaye) (إزدهرت اعماله ١١٦٥ ـ ١١٨٠) . وهو من أبرز كتاب هذا النوع من الأدب ، ولولاه لفقدت أسطورة آرثر وقصة البلاط اثرهما في الأدب الذي تلا تلك الفترة .

أما قصـص كريتـان الأخرى مثل « اريك وأنيد » (Erec et Enide) التي يروى فيها قصة زواج لوارد من فتاة فقيرة هي اريك ، وقصة كليجية (Cligés) وهي تروي قصة حب فارس شاب لزوجة امبراطور بيزنطة وقصة « فارس العربة » (Le Chevalier de la Charette) وهي تروي كيف أن سير لانسلوت (Lancelot) عشيق جنيفر (Gunivere) زوجة سيده الملك آرثر أنقـذ معشوقتـه من الأسر ، وقصـة

« ايفان » (Yvan) وهي قصة رجل يتزوج أرملة رجل آخر كان قد قتله في مبارزة فردية ويقوم بمغامرات يساعده فيها أسد شاكر للجميل اسمه « ايفان » . وقصة برسيفال (Perceval) أو الكونت دو غرال (Li Conte de Grail) وهي قصة تروي تدرج فارس صغير في الخبرة نحو النضج بالاضافة الى محاولة إدخال موضوع الكأس المقدسة (Grail) إلى عالم قصة الملك آرثر .

ومن بين المواضيع الأخرى التي نجدها في القصة الفرنسية القديمة موضوع الطفل المضطهد الذي يسترد إرثه بعد مغامرات عديدة ، وتعتبر قصة هون دوبوردو (Huon de Bordeaux) التي هي ملحمة من الناحية الفنية شكلاً آخر لهذا الموضوع . بينما تدور القصة ذات الشعبية الفريدة المسماة فلوار وبلانشفلير - والتي ترجمت إلى الانكليزية والاسكندنافية والألمانية الوسطى والعالية والهولندية الوسطى حول موضوع شعبي مطروق هو فراق واجتماع محبين شابين . أما أهم قصة حب وسيطية فهي قصة تريستان وإزوالت (Tristan and Iseult) التي ألفت وبقي نصها بالشكل الذي عرفت فيه أصلاً في الربع الثاني أو الثالث من القرن الثاني عشر ، في المؤلفات الفرنسية فقط ، وحورت عنها في اللغات الأوروبية الأخرى ، كالألمانية والانكليزية والاسكندينافية القديمة والايطالية . وتعدّ القصائد القصصية التي كتبها بيرول (Béroul) وتوماس (Thomas) (أواخر القرن الثاني عشر) وجوتفريد فون ستراسبورغ (Gottfried Von Strassburg) في قصيدته ترستان (Tristan) (حوالي ١٢١٠) من بين أهم روائع العصور الوسطى .

إنه لمن الصعب القول ماذا يقصد كريتان دوتروي بإدخاله عنصر الكأس المقدسة إلى آخر قصصه عن الملك آرثر ، ولكن عمله هذا أدى الى نتائج هامة في تطور القصة . ففي عام ١٢٠٠ أنتج روبرت دو بورون (Robert de Borron) - وهو فارس برغندي قصيدة تتعلق بأصول الكأس . ويبدو أن قصد روبرت الظاهر كان ربط الكأس (التي وصفت بأنها الآنية التي استعملت في العشاء الأخير) بمجيء المنقذ أيام الملك آرثر . وأصبحت فكرة بطل الكأس الموعود زمن الملك آرثر موضوع قصتين نثريتين هما برسيفال (Perceval) وبارلسفو (Perlesvaux) . ويشير هذان المؤلفان الى بداية قصص نثري عن الملك آرثر . ثم أصبح النثر

بعدهما الاسلوب الرئيسي للقصة وتطورت قصة الملك آرثر في مرحلتها الكلاسيكية تطوراً كاملاً في حلقة من القصص مجهولة المؤلف مكتوبة باللغة العامية ، وتشمل التناسق المركب المعهود من القصص المتشابكة عن الملك الصياد (Fisher King) والحربة التي تنزف والأرض الخراب (Waste Land) وحب لانسلوت لجنيفر وأعمال ميرلين (Merlin) السحرية وخيانة موردرد (Morderd) . ومعظم هذه القصص متوفرة لقراء الانكليزية في قصة سير توماس مالوري Sir) Thomas Malory) « وفاة الملك آرثر » (Morte d'arthure) وهي مثل رائع على التكييف العظيم والخلاق الذي ضمن بقاء قصة الملك آرثر في العصر الحاضر .

الشعر الغنائي المبكر :

كان الخيال الشعري للشعراء الجوالين في الشمال « التروفير »(Trouvéres) منطلق الشعر الغنائي الأول في شمال فرنسا ، وتأثر هؤلاء الشعراء الموسيقيون من القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والذين استعملوا لهجة « الأويل »(d'oil) بالشعراءالجوالين في الجنوب «التروبادور»(Troubadours) . ولربما عنت ملحمة « تروفيري » أول ما عنت صانع المجاز (Tropes) أو « الحشو في الانشاد الديني » . وبينما بلغت مدرسة التروبادور الأوج حوالي عام ١١٥٠ ، نجد أن الشعر الغنائي في الشمال لم يرسخ أقدامه حتى الحرب الصليبية الثالثة عام ١١٨٩ .

وكما هي الحال في بروفنس (Provence) كان معظم هذه القصائد الغنائية تعبيراً عن الحب الرفيع . والسمة الرئيسية لعبارة الحب هذه عبادة المحب محبوبته التي تصورها اكثر روعة منه ، والتي كرمتها عبودية الحب والمعاناة التي يستلزمها . ولقي هذا الموقف الرفيع تأكيداً غير عادي في جميع الشعر الغنائي لهذه الفترة .

تشبه الأشكال الشعرية في الشمال مثيلاتها لدى التروبادور بكل وضوح ، كالقصيدة الغنائية الجدية التي توازي في العصور الوسطى القصيدة الغنائية الكلاسيكية من نوع « الأود » . وكان الشاعر غالباً يخاطب ملهمته في هذه القصيدة ، وإن كانت تعالج أحياناً مواضيع صليبية ، وهي تتميز باللازمة ، شأنها شأن الأنواع المتعددة من أغاني الرقص مثل « الروندو » [1](Rondeau) « والفيريلية » [2] (Virelai) والأغنية الراقصة العاطفية من نوع « البَلاد »

(١) الروندو Rondeau قصيدة غنائية مؤلفة من ١٣ بيتاً وقافيتين .

(٢) الفيرلية Virelai شكل قديم من أشكال القصيدة الفرنسية .

وكالقطع الشعرية التي صيغت على شكل شبه درامي كالقصيدة (Ballade) ، « الرعوية » (Postoral) وأغاني « الفجر » (aube) . وكان يفترض « بأغنية النسيج» (Chanson de toile) أن تغنيها سيدة أثناء التطريز وشغل الإبرة أما كلمة « سيرفنتوا » (Sirventois) المشتقة من كلمة « سيرفنت » (sirventes) في لهجة بروفنسال (Provençal) فتعني أغنية هجائية بذيئة تصلح للجندي المرتزق (Servent) وإنما أطلقت في الشمال على الترانيم التي تدل على الورع ، ويغنيها خادم السيدة العذراء . وجميع هذه الأنواع الشعرية نظمت لتغنّى .

هنالك الكثير من القصائد الغنائية مجهولة المؤلفين . إلا أننا نعرف بعض هؤلاء من أمثال غاي دو كوسي (Guy de Coucy) (وبلوندل دونل) (Blondel de Nesle) اللذين تبوءا مركزاً أسطورياً إذ قضى الأول في الحروب الصليبية عام ١٢٠٣ م ، بينما يقرن إسم بلوندل باسم ريتشارد ملك إنكلترا . وأشهر شاعر تروفيري هو ثيبو الرابع من شامبانيا (Thibalt IV of Champagne) ملك نافار (Navarre) . وكان نصف القصائد الغنائية التروفيرية التي وصلتنا من نظم شعراء من مواطني آراس (Arras) ، الذين شكلوا لأنفسهم ما يشبه النقابة او الاتحاد ، وليس من عمل النبلاء الاقطاعيين . وكان آدم دو لا هال(Adam de la Halle) أبرعهم جميعاً ، وقد ادخل تقليد النقاش في الشعر ونقله الى الأجيال التي تلت ، وشاركه في ذلك جان برتال (Jean Bretal) . وكان كولن موسيه (Colin Muset) ـ الذي تقلب في قصور الاقطاعيين بوادي المارن (Marne) ـ أكثر أصالة منه . وميز بوضوح بين مشجعي الشعر من الكرماء والبخلاء وجمع بين مواضيع الشباب التقليدي وبين التصوير الواقعي لذوقه الشخصي ، (نار متأججة في الشتاء ديكة سمينة وخمر قوية) . وتناول روتبف (Rutebeuf) الكثير التنوع الناحية الشخصية في وصفه ، لتذوق الأكل والنواحي المتعلقة بشخص الشاعر ، إلا أن اعماله تضمنت الكثير من الجدل والهجاء الموجه ضد الرهبان . ويُعَدُّ آخر الشعراء التروفيريين وأول شاعر حديث وأديباً تناول قلمه كل شيء .

المسرح

المسرح : يألف المسرحيات الأولى في فرنسا كما هي الحال في اوروبا من مسرحيات ذات علاقة بالطقوس الدينية ، وأشهرها مسرحيات اسمها « ميستيري »

(Mystery) (وتعني أصلاً « فصولا شعائرية ») ولكنها أصبحت في القرن الرابع عشر تعني « عروضاً درامية » وهي ليست مرادفة تماماً للمسرحيات الانكليزية المسماة « ميستيري » (Mystery) . واستمدت هذه المسرحيات مادتها من الكتاب المقدس ، بينما استندت المسرحيات المسماة « المعجزات » (Miracles) على أساطير غير انجيلية عن القديسين . وشعائر الكنيسة الدرامية في حد ذاتها لم تكن بحاجة إلا الى القليل من التطوير على أيدي كتاب الأسرار « الميستيري » ، إذ ساعد المسرح الصاخب للقساوسة الأدنى مرتبة ، مثل « عيد الأغبياء » الذي يحتفل به في عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة ، على تطوير مسرحية متميزة عن تلك التي تركزت في الطقوس الدينية .

كانت اولى الأعمال المسرحية التي استخدمت العامية مسرحيات من القرن الثاني عشر مجهولة المؤلفين أمثال « سبنسوس » (Sponsus) التي وصل جزء منها مكتوباً باللاتينية والجزء الآخر بفرنسية بروفنسال ، ومثل « دانيال »(Daniel) وبوفيه (Beauvais(التي كتبت باللاتينية باستثناء لازماتها التي كتبت بالفرنسية ، و« سر آدم » (Mystère d'Adam) المكتوبة بالفرنسية (ويبدو انها من أصل نورماندي إنكليزي) باستثناء التوجيهات المسرحية والاقتباسات من الكتاب المقدس التي كتبت باللاتينية . وأقدم المسرحيات التي وصلتنا عن معجزات القديسين بالفرنسية ، ومن الأمثلة البارزة على هذا النوع مسرحية « القديس نيقولا »(Jeu de Saint Nicolas) (١٢٠٠ م) لمؤلفها جهان بودل (Jehan Bodel) ومعجزة تيوفيل (Miracle de Theophile) (حوالي ١٢٦١) لروتبيف (Rutebeuf) . وتعتبر مسرحية « كورتوا داراس » (Courtois d'Arras) (قبل عام ١٢٢٨) ، وهي عرض مسرحي لقصة الابن المبذر ذات خلفية معاصرة ، ومسرحية « الولد والأعمى »(Le Garçon et l'aveugle) مثلين لأقدم المسرحيات العلمانية التي وصلتنا وخير ممثل لها . وكان أول عمل هزلي علماني تماماً ذي قيمة أدبية مسرحية كتبها آدم دولا هال (Adam de la Halle) هي مسرحية « ورقة الشجر » (Jeu de la feuillée) (كتبت بعد عام ١٢٧٥) وفيها يسخر الكاتب من عائلة آدم وأصدقائه ومواطنيه بمزيج من النقد والخيال الغريب ، ويستعمل شخصيات من الفولكلور (مثل الجنيات الثلاث) . أما مسرحيته « روبن وماريو » (Jeu de Robin et Marion) (حوالي ١٢٨٠) فقصيدة

شعرية من نوع « الباستورال » أعطيت شكل المسرحية ، وتضمنت أغاني ورقصات .

وبدءاً من نهاية القرن الثالث عشر أنتجت مسرحيات ناجحة تتعلق بآلام المسيح وكانت مسرحية « آلام سيمور » (Passion de Semur) مميزة لهذا النوع من المسرحيات إذ تألفت من ٩٥٠٠ بيت من الشعر ، واستغرق تمثيلها يومين ، وتبدأ بخلق الكون وتنتهي بالصعود . أما مسرحية طقوس آلام المسيح Mystére de la) passion (١٤٥٠) التي استغرق تمثيلها أربعة أيام ، فهي أشهر مسرحيات الآلام الشعرية والمأساوية الفرنسية . إلا أن هذه المسرحيات التي ظلت شائعة حتى منتصف القرن السادس عشر أخذت تفسح المجال ابتداء من القرن الخامس عشر للمسرحيات الأخلاقية (Moralités) والهزليات التي تعتمد البذاءة والحركة (Farces) وكذلك هزليات البلهاء (Soties) ، وهي ثلاثة أنواع من الملهاة يصعب التمييز فيما بينها . وكانت المسرحيات الأخلاقية جدية أو هزلية لكن هدفها كان تعليمياً أبداً . ولما كانت مملة في الغالب فقد أدخل إليها الهزل المعتمد على الحركة والبذاءة. وكانت هزليات البلهاء هجائية علنية ويرتدي الممثلون فيها ما يناسب أدوارهم . ولم يكتب لمثل هذه المسرحيات البقاء بسبب التهجم السياسي الذي تتضمنه والمثال على ذلك مسرحية بيير غرانغوار (Pierre Gringoire) المسماة مسرحية « أمير البلهاء ، وأم البلاهة » . (Jeu du Prince des sots et mère sotte) التي كتبها عام ١٥١٢ م والموجهة ضد البابا يوليوس الثاني (Julius 2) والتي منعت فيما بعد ، فانتضى النقاد بعدها سلاح الكتيبات النثرية وأشكالاً أخرى من الهجاء أكثر عمومية . أما الهزلية التي اعتمدت البذاءة والحركة المسماة « فارس »(Farce) فليست بذات هدف أخلاقي أو سياسي ، ولذا لم تكن مهددة بالزوال . ضُمنت مسرحيات الطقوس الدينية مقطوعات هزلية من نوع « الفارس» كما استعملت هذه المقطوعات بهدف إضفاء الحيوية على المسرحيات الأخلاقية . وفي العصور الوسطى شابهت الهزليات في موضوعاتها الحكايا القصيرة الهزلية (Fabliaux) ولا يبعد أن تكون مصدرها الأصلي . أما الطريقة التي عولجت بها هذه الهزليات فقصصية أكثر منها درامية ، وكان الحوار الحي يعوض النقص في التركيب البنيوي للحبكة .

المجاز (Allegory) :

كان رجل العصور الوسطى على معرفة بالمجاز ـ وهو القدرة على ابتكار الأنماط المتكررة في الطبيعة وعلى رؤ ية التشابهات في مختلف نواحي الخبرة الانسانية ـ أيام دراسته ، (قراءة أوفيد مع تفسير أساطيره تفسيراً أخلاقياً) . ويختلف المجاز عن الرمزية الشعرية بتوازيه مع الواقع (كاعتباره حياة الانسان رحلة تحف بها المخاطر والمُلْهيات) وقد عُرِّف بأنه « صورة واضحة ومرئية زيد في تركيزها باعطائها معنى » . فالكأس المقدسة رمز حسب هذا المفهوم ، وينطبق هذا على المجموعة الكبرى من الأخيلة المقرونة بالورد في مجازية غيلوم دو لوري(Guillaume de Lorris) « قصة الوردة » (Roman de la rose) (حوالي ١٢٣٠) .

تبدإ « قصة الوردة » بحالمٍ يدخل حديقة مسورة ، ويمعن النظر في بركة ماء أو بئر فيرى انعكاس الوردة فيها . وقد تمثل البركة أعين المحبة ، ولكن الشاعر يقول انها البئر التي غرق فيها نارسيسوس (Narcissus) عندما أنعم النظر طويلاً في صورته . وركِّب فوق هذا العالم من الرموز المتضادة مجازاً يتصف بالرسمية والشكلية : يحاول الحالم أن يحصل على الوردة يساعده أو يصده أشخاص مجازيون يمثلون مشاعر المحبة أمثال « الترحيب الطيب »(Fair Welcome) والاحتقار (Disdain) وغير ذلك . وقبل أن تتكشف نتيجة بحث المحب يترك غيلوم رومانسيته دون أن يُتمها . وفي حوالي العام ١٢٧٥ م أتمها جان دوميونغ(Jean de Meung) الذي استعملها كمطية لسلسلة من النقاش السفسطائي . تشترك فيه الطبيعة والعبقرية حول هدف الجنس والإنجاب ويقدّم النفاق كوصف لكيد الرهبان المتسولين في جامعة باريس ، كما فحص بعض العقائد السياسية تمحيصاً دقيقاً ، وتتمتع هذه القصيدة بشعبية هائلة ، إلا أنها من أكثر القصائد الوسيطية فوضى ، إذ تبدأ كخيال شاعري رقيق وتنتهي كملخص للعلم الحديث ـ وهي تضع العامة في العصور الوسطى على مفترق الطرق ، فهي أمية سياسياً إلا انها تواقة للمشاركة في تأملات قساوسة جامعات العصور الوسطى واندفاعهم .

الأدب الفرنسي القديم في مرحلته الكلاسيكية :

استهلت بداية جديدة في التاريخ القومي الفرنسي بمؤلف « السجلات التاريخية العظمى للقديس دنيس (Grands Chroniques de Saint - Denis) (عام ١٢٧٤ وما بعد) وبسيرة لويس التاسع التي كتبها رفيقه جان دوجو انفيل Jean de) Joiniville) . والكتاب الثاني وصف جذاب للملك الورع وتجاربه اليومية خلال الحملة الفاشلة على دلتا النيل في الحرب الصليبية (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩) وأعاد الكاتب تنقيحه ما بين عامي ١٣٠٤ و١٣٠٩ بعد أن ضُمَّ راعيه إلى قائمة القديسين .

ازدهر الأدب التعليمي المتنوع في هذه الفترة ، إذ جمع الكاتب فيليب دوريمي سير بومانوار (Philippe de Rémi sire Beaumanoir) (١٢٥٠ ـ ١٢٩٦) قصص القوانين المطبقة في المقاطعة التي عاش فيها وهي مقاطعة بوفيه (Beauvais) وسمي الكتاب « عادات بوفيه » (Coutume de Beauvaisis) ، وهو الأول من سلسلة طويلة من هذه المحاولات. وكانت الفرنسية تكاد تصبح اللغة الرسمية للقانون في انكلترة ، وفي المدن الساحلية الباقية من مملكة القدس . ولقد كتبت أولى المقالات النحوية في انكلترة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كما ألفت موسوعات علمية كاملة عن الشعر الفرنسي قام بكتابتها غوتييه دومتس (Gautier de metz) ، والكاتب الايطالي برونتو لاتيني (Brunitto Latini) .

وفي القرن الرابع عشر حدث تنوع ضخم في الأشكال الأدبية التي وجدت آنئذٍ ، فحفظت القصص الشعرية القصيرة من النوع الخرافي(Fabliaux) (وهي مشتقة من الحكاية الجغرافية Fable في الفرنسية) في محفوظات تعود بتاريخها الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وتتصف هذه القصائد القصصية القصيرة بتفاصيلها الواقعية ، وبأنها تهدف للتسلية وإثارة الضحك . وكانت القاعدة التي تدور حولها القصة أحياناً مجرد موقف بسيط يمكن رؤيته في الحياة الحقيقية ، وقد اعتمد المرح الذي أثاره الكثير من هذه القصص على مواقف وملاحظات إما غير

محتشمة أو بذيئة بشكل فاضح ، وكان الشعراء المحترفون أشهر مؤلفي هذه القصص أمثال جهان بودل (Jehan Bodel) وروتبوف (Rutebeuf) وجان دو كونديه (Jean de Condé) ، مع انه كان إلى جانب أولئك بعض الهواة الموهوبين أمثال هنري داندلي (Henri d'Andeli) وفيليب دوريمي سير بومانوار . وازدادت شعبية القصص الخرافية مثل قصص الحيوانات التعليمية التي تتبع حلقة « رينار الثعلب » (Reynerd the fox) .

ورغم أن الشعر كان الوسيلة اللغوية المفضلة قبل القرن الخامس عشر فإن الأعمال الأخلاقية والتعليمية كتبت نثراً وفي وقت مبكر . وحفظت كتب منزلية تحتوي بالإضافة الى الحسابات تأريخات عائلية وما شابهها من مادة تعود بتاريخها إلى القرن الثالث عشر . اما قصص الرحالة ولاسيما تلك التي يرويها حجاج بيت المقدس وبلغت الأوج في رحلات (Voyages) السير جون مندفيل (Sir John Mandeville) الذي اشتهرت كتاباته عام ١٣٥٦ م) وكتبت بالفرنسية الأنكلونورماندية .. والى الفترة ذاتها (القرن الرابع عشر) يعود كتاب شوفاليه (Chevalier) المسمى « كتاب شوفاليه في رحلاته » (Livre du chevalier de la tour Landry) والذي كتبه لتعليم بناته .

واشتهر يوستاك دو شامب (Eustache De champs) ـ وهو صحفي قرض الشعر وكتب القصيدة الغنائية القصيرة من نوع « بالأد »(Ballada) ليعبر عن المصالح المؤقتة سريعة الزوال لطبقات الفرسان ـ اشتهر بكونه الرائد الأول في موضوع العروض الفرنسي في كتابه « فن الكتابة » (Art de dictier) وقد سبق فيه سلسلة طويلة من كتب فنون الشعر . أما اعظم شاعر وموسيقي في ذلك العصر فهو غيلوم دوماشو (Guillaume de Machaut) بينما يعتبر جان فرويسار(Jean Froissart) نظير دو كامب في النثر ، فكان آخر وأعظم كُتّاب السجلات التاريخية في العصور الوسطى . ومع كل فضائله ككاتب يوميات في فترة لامعة ـ وإن كانت مضطربة ـ فهو أقل أهمية من الناحية السياسية من مؤرخي العصر السابق بدءاً من غيرن

دوبـــون سان ماكسنس (Guernes de Pont — Saint — Maxence) ، وانتهـــاء بجوانفيل (Joinville) وفيليب أوف نوفارا (Philip of Novara) اللذين كانا أكثر نقداً وأقرب الى مصادر السلطة .

ويمكن سبر غور مكانة الفرنسية في الأدب الأوروبي في القرن الرابع عشر بدقة أكثر عبر انعكاساتها على كتاب من بلاد متعددة اجتازوا مراحل لا بأس بها في اتجاه النضج الأدبي، إذانغمس في الفـرنسيةكل من جيوفـري تشـوسر (Geoffrey Chaucer) في انكلتـــرة ، ودافيد آب غويليم (Dafy d ap Gwilym) في ويلـــز ، واركبريست دي هيتا (Arcipreste de hita) في قشتالة (Castile) وجيوفاني بوكاتشيو (Giovanni Boccaccio) في ايطالية . ولقد تعمق كل أولئك في قصصها وبحورهـا الشعرية وأساليبها وبيانها إلا أن كلا منهم احتفظ بمزاجه القومي وأصالته الشخصية ضمن إطار أوروبي هو على مستوى الثقافة العلمانية فرنسي لا لبس فيه .

فترة الفرنسية الوسطى (١٣٨٠ - ١٥٣٠) :

تعتبر المراحل الأخيرة من حروب المائة عام ونفي البابا في أفينيون(Avignon) عصراً جديداً في أوروبا الغربية ، أثربه - بادىء ذي بدء - تأثيراً بالغاً حكام عائلة فالوا (Valois) في فرنسة. وتحدته كل من انكلتـــرة وفلانـــدر (Flanders) . كما تحدته بعد ذلك الأمبراطورية البرغاندية التي تداعت بوفاة شارل الجريء(Charles the Bold) عام ١٤٧٧ . ولكن المطامح الفرنسية ما لبثت أن تجددت في التسعينات من القرن الخامس عشر بأول سلسلة طويلـة من الفتوحـات في ايطاليـة واحتـلال بيدمونت وميلان بصورة متقطعة. ولكن بعد معركة بافيا (Pavia) عام ١٥٢٥ م ، وفيها أُسر فرنسوا الأول ، ضمت أمبراطورية آل هبسرغ (Habsburg) ، بنتيجة المعاهـدة التـي تلـت ، كل منطقـة ارتـوا (Artois) حتـى حدود آراس (Aras) واحتفظت بها سحابة قرن كامل ، كما احتفظت بسيطرتها على الفلانـدرز وهانـو (Hainout) . وخلال هذه الحروب انتقلت مراكز الثقافة الفرنسية جنوباً الى وادي اللوار وليون التي أصبحـت في هـذه الفترة المركز الثقافـي والتجاري لفرنسا ، وفي

هـذا العصر تحولت فرنسا ـ بعد أن فقدت مكانتها كمركز رئيسي للعلم والفروسية الأوروبيين ، إلى دولة أمة تنافس دولا غيرهـا في أوروبـا التـي تغـيرت أساليبهـا العسكرية وجغرافيتها السياسية تغيراً كلياً . إلا أنه من الممكن ملاحظة بعض الولاء للملكية خلال حكم شارل الخامس ، وأوائل حكم شارل السادس . عندما نرى مجموعة من الانسانيين تحت ظل رعاية البلاط ـ مثل المترجمين العظيمين بيير برسوير (Pierre Bersuire) ونيقول دورزم (Nicole d'Oresme) وجان دو مونتريل Jean) de Montreuil (وجونتيه كول (Gontier Col) ، بالاضافة الى أول كاتبة عميقـة العلم في أوروبا وهي كرستـين دوبيزان (Christine de Pisan) وهـذا ما يدل على الجذور الحقيقية للنهضة في فرنسا . وأدى جنون الملك شارل السادس عام ١٣٩٢ م إلى سلسلة من المصائب لحقت بفرنسا تبعتهـا نزاعـات عشائـرية . وفي أجنـكور (Agincourt) عام ١٤١٥ ذبح رماة السهام الإنـكليز أبطـال الفـروسية الفـرنسية وتسلمت حكومة لندن ، على هذا النحو زمام الأمور ، ونظم آلان شارتيه Alain) (Chartier سكرتير ولي العهد المبعد وأكثر كتاب عصره تنوعاً قصيدة درامية تصف تعاسة أربع سيدات قتل محبوهن ، أو أُسروا ، أو فقدوا ، أو هربـوا من ساحـة المعركة يسربلهم العار .

وفي مجتمع ما بعد الحـرب الـذي ران عليه الجـزع ، والـذي استحـوذ فيه البرجوازيون على ثروات هائلة ، أضحت النسوة في بعض الدوائر أكثر عدداً من الرجال . فقد دمرت الأسلحة الجديدة طبقة اجتماعية قديمة ، وساد موقف تجريبي حديث غريب ،وظهر هناك رجال جدد يدعون فروسية وورعاً لم يعهدها أسلافهم أو أعرافهم . وسعوا إلى إثبات أهليتهم في مبارزات كثيرة التكاليف ونصب تذكارية غريبة الشكل. كما انتشرت أزياء صارخة في الملبس ، وآراء شاذة عن العلاقـات الجنسية ، وهذا ما قاد إلى جدل أدبي صاخب كذلك الذي ابتدأته كريستين دوبيزان (Christine de Pisan) بنقدها المرِّ والأنثوي « رواية الوردة » واستمر فيه آلان شارتيه بحواره اللامع بين سيدة متعجرفة عزباء ومحبها اليائس في مؤلفه « السيدة الجميلة العـديمة الرحمة » (La Belle Damme sans merci) .

كان آلان شارتيه بالنسبة لمعاصريه شاعر العصر الأكبر ، لكن معظم النقاد الحديثين يعتبرون شارل دورليان (Charles d'Orlean) شاعراً متفوقـاً ذا قصائـد

رشيقة ذات جرس موسيقي (حتى في القصائد التي لم تنظم للغناء) ساعد عليها نموذج ، مصطنع لاعداد والتنفيذ من النظم الشعري بما فيه من تكرار في الأبيات وتعديل في الايقاع .

ومع أن قصائده البطولية الغنائية من نوع « البلاد » أدنى شاعرية من قصائد فرنسوا فيلون (Francois Villon) إلا أن قصائد شارل من نوع « الروندل » (١٣ بيتاً يتبعها قافيتان) لا تجاري . ولقد مات فيلون بعد عام ١٤٦٣ إلا أنه كان شخصية لا مثيل لها في الأدب الفرنسي الوسيط المتأخر . فقد نظمت مؤلفاته الرئيسية « العهد » (Le Testament) « والعهد الصغير » (Le petit Testament) في قطع قوامها أبيات ذات ثمانية مقاطع ، تشيع فيها قصائد غنائية من نوع « البلاد » أو « الروندل » . وقليل من الأدب الفرنسي القديم ما يضاهي أفضل هذه القصائد ، إذ تتسم أعماله الأدبية بشكل عام بقوة السبك ودافق العاطفة .

وعدّلت اللغة بتأثير الاتجاه الانساني والترجمة عن الأدب اللاتيني الاغريقي الكلاسيكي والأثر الإيطالي . وهناك عامل جديد حاسم ، وهو استعمال الفرنسية لأغراض إدارية في سائر أنحاء المملكة . وأدى جلاء الانكليز النهائي عن المحافظات التي سيطروا عليها طيلة ثلاثة قرون الى تأسيس المحاكم المحلية العليا أو المجالس النيابية التي كان موظفوها من الطبقة القانونية البالغة الولاء للملكية والتي استعملت الفرنسية في مناقشاتها العامة واللهجة المحلية (التي كانت غالباً إما برفنسالية أو غاسقونية) في حياتها اليومية . وهكذا اختفت الرشاقة الرقراقة التي تميزت بها الفرنسية القديمة في مرحلتها الكلاسيكية ، كما اختفى نقاء ايقاعها الصوتي ودقة معانيها ، وذلك عندما اصبحت الفرنسية اللغة العامية لدولة امة في المهد .

وعبّرت المدرسة العظيمة للمؤرخين المعاصرين التي ازدهرت في بلاط بيرغندي عن النواحي الفردية لعصر النهضة ، والهوس بالنجاح امام المجتمع وصعود القادة العسكريين وسقوطهم . وفي عداد أبرز أفراد هذه المدرسة جورج شاستيلان (Georges Chastellain) المتوفى عام ١٤٧٤ وجان مولينيه (Jean Molinet) المتوفى عام ١٥٠٧ وأوليفيه دو لا مارش Olivier de la Marche المتوفى عام ١٠٥٢ . وأعظم

هؤلاء الكتّاب جميعاً فيليب دوكومين (Philippe de Commynes) المتوفى عام ١١٥١ والذي اعتزل خدمة شارل الجريء ليلتحق ببلاط لويس الحادي عشر ١٤٧٢ . وبعد أن اضطلع بعمل دبلوماسي معقد انتهى به المطاف ليكون سفير بلاده للبندقية خلال الاكتساح الفرنسي لايطاليا ما بين عامي ١٤٩٤ - ١٤٩٥ . وحاز على لقب أول مؤرخ فرنسي حديث « بمذكراته» (Memoires) التي تغطي فترة أربعين عاماً .

ان عصراً من الحداثة المدركة ذاتها ينتج بشكل عام أدب افكار ، ومصيره آيل الى الزوال السريع ولذا لم يلق أدب القرن الخامس عشر احتفاء القراء والدارسين واقبالهم عليه حتى العلماء منهم ؛ على حين ظل الأدب الوسيطي القديم بما فيه من انسانية وفكاهة عميقة محببة حيّاً في القصة القصيرة المسماة « نوفل »(Nouvelle) ، والتي خلفت القصة المرحة من نوع « الفابليون »(Fablion) ، وفي الأدب المسرحي والهزليات من نوع « الفارس » ومسرحيات الطقوس الدينية من نوع « المستري » وهي جميعا أدب العصر الحي . وحفظ الشعر الغنائي بتزاوجه مع الموسيقا التقليد « التروفيري » القديم بل طوره وارتفع به الى مستويات لم يبلغها من قبل . وتسنمت الموسيقا المتعددة الاصوات بعد ماشو (Machault) قمما سامقة التركيب الرياضي وكان مألوفا أن تُغَنـىً في آن واحد نصوص بلغات مختلفة في مواضيع متنوعة ، كما هي الحال في بعض مشاهد الأوبرا الحديثة . ودخلت فرنسا وانجلترا وفلاندرز وبيرغندي وشمالي ايطاليا مرحلة من التكامل الثقافي ظل متماسكا حتى فترة الإصلاح الديني عندما بدأت حقبة أدبية جديدة بعد انشقاق الشمال عن روما ، والانتقال الحاسم للثقافة الفرنسية الى مركز « ليوني » (Lyonnese) جديد .

الفَصْـل الثّالث

الأدَب الانغلونورماندي

يعرف الأدب المكتوب باللهجة الفرنسية لانكلترا العصـور الوسطـى كذلك باسم الأدب الفرنسي النورماندي ، والادب الانكلوفرنسي . ورغم أن الفـرنسية النورماندية أدخلت دوائر البلاط الانكليزي زمن الملك ادوارد المعترف(Edward the Confessor) فإن تاريخها يعود في الحقيقة الى الفتح النورماندي لبريطانيا عام ١٠٦٦ م ، عندما اصبحت اللغَة الشائعة في البلاط والقانون والمدارس والجامعات والمجلس النيابي وغدت فيما بعد لغة البلديات والتجارة . بل أضحت بالنسبة للارستقراطيين اللسان المكتسب الذي يدل على النبل ؛ الاّ أنها كلما زاد انتشارها زادت اعجميتها . ثم تسربت الى ويلز وايرلندا واستعملت بشكل محدود في اسكتلندا قبـل حروب الاستقلال وخلالها . وتعود اولى النصوص الأدبية التي وصلتنا الى عهد الملك هنري الأول وآخرها الى حكم هنري الرابع . وأدى تقلص العلاقات الطيبة مع فرنسـا خلال حروب المائة سنة الى زيادة استعمال الانكليزية وكان آخـر معاقـل اللهجـة الفرنسية يتمثل في المجلس النيابي والقانون ، وما تزال حية في كليهما بصيغ قليلة .

ومُثِّلَت معظم الأشكال الادبية في اللغة الانكلونورماندية ؛ كما مُثِّلت في الفرنسية ، لكن باختلاف طفيف في مواضيع التأكيد . وشذّت الأغاني البطولية من نوع « الشانسون دوجيسـت » (Chanson de geste) عن هذا التعميم ، لكن ذلك لا يعني ان هذا النوع من الأدب لم يكن معروفا في انكلترا (فالمخطوط الوحيد الذي وصلنـا متضمنـا نسخـة مسجوعـة من اغنية رولان (Chanson de Roland) مكتوب باللغة الانكلونورماندية) . بل يبدو أنه لم يكتب نتاج أصيل بهذه اللغة . ومن ناحية اخرى كانت الاعمال الادبية الانكلونورماندية معروفة في القـارة حيث نسخت أو قلدت . والفارق الهام الوحيد بين الادب الفـرنسي في القـارة والأدب

الانكلونور ماندي هو أن المجلس اللِّتراني الرابع (Fourth Lateran Council) لعام ١٢١٥ تسبب بتدفق أعمال عقائدية وتعبدية للعلمانيين في انكلترا لا يوازيه اي شيء في فرنسا ، وقد يفسر ذلك ان انكلترا كانت في الغالب متقدمة على اوروبا في الفترات الأولى بتطوير اشكال أدبية جديدة .

أما النتاج التاريخي فكان منتشراً في كل من نورمانديا والقارة الاوروبية . ومع أن اللاتينية حلت محل الانكليزية في السجلات العادية والتاريخية فهناك امثلة من كلتيهما في اللغة الانكلونورماندية اذ أكّبت البيوتات الدينية على كتابة سير القديسين المحليين ، وكان للنبلاء ميل للقصص المتحدرة عن الاسلاف الانكليز الخياليين . وهكذا نرى أن الاختلافات الاجتماعية والسياسية بين البلدين حالت دون الأدب الانكلونورماندي من أن يكون مجرد تقليد للأدب الفرنسي .

المؤلفات الدينية والتعليمية :

وفي انكلترا ، كان اقدم مؤلف نثري كبير في القرن الثاني عشر واسمه « كتاب الملوك » (the Book of Kings) مكتوباً باللغة الانكلونورماندية كما ترجمت « المزامير » عدة ترجمات ، وقام سانسون دو نانتيل (Sanson de Nanteuil) بترجمة أمثال سليمان شعراً وعلق عليها، وفي القرن الثالث عشر كتب روبرت اوف كريتام (Robert of Greatham) اناجيل الاحد لسيدة نبيلة ، وشهد نفس القرن بدء السلسلة الرائعة من اسفار الرؤيا الانكلونورماندية المشهورة بصورها الايضاحية والتزيينية التي استخدمت كنموذج لسلسلة من الصور المطرزة على القماش في انجيه (Angers) بفرنسا . وفي القرن الرابع عشر بدىء بكتابة كتاب مقدس انكلونورماندي ، مع انه لم يكمل البتة . وكان الادب الانكلونورماندي غنياً بأساطير القديسين . ولربما كانت رحلة القديس براندان(Voyage of St. Brendan) إلى بنديت (Benedeit) أقدم قصيدة فرنسية قصصية صرفة مسبوكة في المزدوجة الثمانية المقاطع . ونهض ويس (Wace) في طليعة مؤلفي سير القديسين بشكل اعتبر نموذجاً قفّى على أثره كتاب انجلونورمانديون في القرن الثاني عشر كتبوا سيراً عديدة يربط الكثير منها المؤسسات الدينية بحماتها من القديسين .

أمـا « أسرار آدم » (Mystère d'Adam) أقـدم مسرحية فرنسية ، فهي انكلونورماندية . ولربما عادت مسرحية البعث المسماة « لا سينت ريزركسيون » (Le Seint Resureccion) الى القرن الثاني عشر ، بيد ان كتابتها أعيدت أكثر من مرة في القرن الثالث عشر ، وهي فريدة في نوعها بما اتسمت من خلفية مناظرها ، وعملها المسرحي الذي تصفه نصوص شعرية يبدو أن الغرض من وجودها أن تقرأ خلال العرض ، وهناك بعض القصائد الدينية المجازية وأهمها قصيدة « قلعة الحب »(Castle of love) بالفرنسية .

وتمخض اجتماع المجلس اللتراني(Lateran) الرابع (١٢١٥) عن جمع اعمال أدبية تعليمية أقدمها واكثرها جاذبية « مرآة الكنيسة المقدسة » (Merure de Seinte église) التي كتبها القديس ادموند اوف ابنجدون (St. Edmund of Abingdon) . وظهرت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر مقالات عديدة في مواضيع تكنيكية : أدلة للاعتراف ، الزراعة ، القانون ، الطب ، النحو ، والعلوم ، تمدها مؤلفات اخرى تتعلق بالعادات والصيد باستخدام الصقور ، والشطرنج . اما المقالات المتعلقة بتهجئة الكلمات ، والتي انتجت في اواخر القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فتكمن قيمتها بما تلقيه من أضواء على فرنسية القارة الأوروبية بل الانكلونورماندية .

القصة :

كان الأدب الانكلونورماندي مشحوناً بالقصص . ففي القرن الثاني عشر كتب شخص يدعى توماس نسخة رفيعة لقصة ترستان(Tristan) وقد وصلت هذه القصة على شكل قطع مبعثرة . واستعملها جوتفريد فون ستراسبورغ (Gottfried Von Strassburg) في قصصه ترستان وايسولد(Tristan and Isolde) ، كما كانت مصدراً للنسخ الاسكندنافية القديمة والايطالية والانكليزية المتوسطة لنفس القصة . وربما كتبت في انكلترا قصة بيرول (Béroul) المسماة « ترستان »(Tristan) ، والتي تعود الى القرن الثاني عشر . ولكن كاتبها كان نورمانديا . وتحوى قصة « والدف » (Waldef) وهي رواية طويلة مشوشة تتحدث عن ملك خيالي من ملوك

شرقي أنكليا (East Anglia) وعن ابنائه في مقطوعات ذات أصالة رائعة . وألفت بعض القصص في القرن الثاني عشر على شكل الاغنية البطولية(Chanson de geste) مثل « هورن » (Horn) لمؤلفها ماستر توماس (Master Thomas) وهي ترتبط بالانشودة المكتوبة بالانكليزية الوسطى والمسماة « الطفلة هورن والعذراء رمينلد » (Horn Childe and Maiden Rimnild) . ومع ذلك قام توماس آخر بكتابة « قصة كل الفروسية » (Roman de toute Chevalerie) وهي نسخة مستقلة لقصة الاسكندر ، وأصل لتلك المكتوبة بالانكليزية الوسطى (Mildle English) المسماة « الملك اليزوندر » (King Alisaúder) . وفي القرن الثالث عشر عادت القصص الاكثر رفعة وصلة بالبلاط الى الظهور وذلك في قصة « أدامس إدوان »(Adamas et Idoine) وفي قصة « آمي واميلو » (Amis et Amilon) التي نهلت من نفس المنبع الذي استقت منه القصيدة المكتوبة في الانكليزية الوسطى والمسماة « أميس وأميلون » (Amis et Amilon) .

القصة الهزلية القصيرة من نوع الفابليو(Fabliau) والقصة الواقعية الخرافية من نوع « الليه » (Lai)

كتبت ماري دوفرانس(Marie de France) ـ أول من سميت شاعرة فرنسية ، والتي لا نعرف عنها الا القليل ـ قصصاً خرافية قصيرة مبنية على مصدر انكليزي واثنتي عشرة قصة من نوع يسمى « ليه »(Lay) (يحتمل انها مهداة الى هنري الثاني ملك انكلترا) في مزدوجات مقفاة بثماني تفعيلات. وادعت أن لها أصولا بريطانية (Breton) . وهذا الضرب من القصص يجمع عناصر واقعية الى أخرى خرافية عن الجنيات . واتصفت مؤلفتها بالمهارة بتحليل قضايا الحب ، وغالبا ما أظهرت اهتماماً بالغاً بالحياة المعاصرة . ووجد عدد قليل من القصص الهزلية القصيرة منسوخاً في مخطوطات من البيوتات الدينية وغالباً ما كان هدفها شواهد تعليمية .

الكتابات السياسية والتاريخية :

نادرة هي القصائد الغنائية الانكلونورماندية ، وغير ذات اصالة في شكلها ، لكن عديدة هي القصائد الهجائية والأغاني . وفي مؤلف عنوانه « التاريخ »

(Chronicle) لـ بيتر لانغتوفت (Peter Langtoft) وجدت اجزاء من أغان سياسية. ويبدأ هذا المؤلف على أنه سجل كامل للتاريخ البريطاني ، ولكنه أصبح مصدراً لعصر ادوارد الأول(Edward I) . أما الناشر نيقولا ترفيه الدومنيكاني(Dominican Nicholas Trevet) فقد كتب عرضاً تاريخياً للتاريخ الاوروبي ، ومنه استقى تشوسر قصة عنوانها « قصة رجل القانون » . (Man of law's Tale) لكن الكتاب الذي سبق هذه المؤلفات والذي نظم شعراً هو « تاريخ الانكليز »(Histoire des Englais) لمؤلفه جفري كيمر (Geffrei Caimer) حوالي ١١٤٠ م) ويعتبر أول عرض تاريخي بالفرنسية . وكُتبت سيرتان رائعتان احداهما سيرة ايرل بمبروك الأول(1 ST Earl of Pembrok) (وليام مارشال) (William Marshal) ، والثانية لأدوارد الملك الاسود (Edward the Black Prince) ، وقد كتبهما اجانب لمشجعي الادب من الانكليز . كتبت السجلات الرسمية بالانكلونورماندية غالباً . اما الحوليات (Year Books) - وهي تقارير غير رسمية لقضايا مرافعات عامة - فقد امتدت من عهد ادوارد الأول الى أيام هنري الثامن . وفي القرن الرابع عشر شرع باستعمال الانكليزية جنباً الى جنب مع الفرنسية في المجلس النيابي .

التاريخ الطبيعي والعلوم :

ألف فيليب دوتاون (Philippe de Thaon) احد اوائل الكتاب بالانكلونورماندية كتاباً سماه التقويم(The Computus) ، وهو أول مؤلف رمزي عن الحيوانات بالفرنسية ، وكتب سفراً آخر عن الاحجار الثمينة . اما سيمون دوفرين(Simund de Freine) فقد استند الى بيذيوس(Boethius) عندما ألف كتاباً سماه « قصة الفلسفة » (Roman de Philosophie) وله يدين بالشيء الكثير مؤلف « الفلسفة الصغيرة » (Petite Philosophie) من القرن الثالث عشر . وجميع هذه المؤلفات مجازية أو تعليمية .

الفَصْل الرَّابع
الأدَب البروفنسالي الوَسِيط

يمكن تقسيم الادب الذي كتب باللهجة الفرنسية الجنوبية المسماة «أوك» ولأمد قصير في الاقاليم الايطالية والاسبانية التي اعتمدت ثقافياً على فرنسا الى ثلاث مراحل ، اثنتان منها تقعان خارج نطاق هذا الجزء ، وتتميز الاولى بأنها فترة وحدة كتبت خلالها بشكل شامل لغة أدبية عرفت باسم « بروفنسال الاتباعية الكلاسيكية » الا ان التكلم بها لم يكن بنفس الشمول ، وامتدت ما بين القرنيين الحادي عشر والخامس عشر . اما المرحلة الثانية فكانت فترة تفرق تطورت خلالها لهجات محلية متعددة (١٦٠٠ ـ ١٨٠٠) اما المرحلة الثالثة فكانت فترة انتعاش جزئي : القرن التاسع عشر ـ القرن العشرين .

الشعر : ان اقدم مقطوعة وصلتنا من الشعر البروفنسالي هي لازمة موجودة بمخطوط في الفاتيكان ربما تعود الى القرن العاشر ، والأهم منها قطعة من شعر تعليمي محفوظة في مخطوط من اورليان (Orleans) ، ومطلع لمنظومة تستند الى مقال بيذيوس المشهور «حول مواساة الفلسفة» (On The Consolation Of Philosophy) . وفي نهاية القرن الحادي عشر كانت قصائد وليام التاسع (William IX) دوق آكيتين (Aquitaine) أو (غليوم السابع من بواتية (Guilhem VII Of Poitiers) واحدى عشرة قطعةستروفية[1] في شكل قطع (Stanza) بأبيات متكررة قصد لها ان تغنى ، وفي تضاعفها اغاني حب ، وأهمها ما يعبر فيه عن أسف الكاتب لتفاهة ماضيه وجزعه من فراق بلده وولده . وبالمقارنة بين قصيدة بيذيوس (Boethius) وقطع وليام التاسع الشعرية نرى أنه في حوالي القرن الحادي عشر كان الشعر البروفنسالي يتطور في اتجاهات متعددة ، ويبدو أن الشعر الابداعي (الرومانسي) نشأ من اصول شعبية ترجع الى ايام الرومان . وبالتدريج صقل هذا الشعر ليتناسب واذواق مستمعيه الارستقراطيين . أما أصول الشعراء فدل عليها المؤرخون اللاتين الذين يذكرون « الجوكلير » (Joculares) انهم رجال من طبقة متواضعة المنبت مهنتهم تسلية النظارة

(١) الاستروفية : هي الجزء من القصيدة اليونانية الذي تنشده المجموعة .

بحيل الحواة ، عارضين حيوانات مهرة بأداء الالعاب او الانشاد أو الغناء . وقد دعوا بالبروفنسالية « جوكلار » وبالفرنسية « جونكلير » ، ونشأ من صفوفهم التروبادور الذين قد يكونون بأصلهم « جوكلار » علا كعبهم في الشعر .

وعكست اغاني الحب الاوضاع الاجتماعية في جنوبي فرنسا تحت سيطرة الاقطاعية . وكانت بنات اللوردات الاقطاعيين يزوجن لاسباب سياسية ، ولذا كن يرحبن باحتفال رجال البلاط بهن ، وتوجه هؤلاء بدورهم اليهن بأغاني الحب ، ولما كان الشعراء عادة دونهن في المنزلة الاجتماعية ، لذا احتاطوا بالغ الحيطة بانتقاء الكلمات واسلوب الاداء ، وهكذا اصبحت المهنة في حب البلاط أو الحب الفروسي مسألة عرف وتقليد ، ولكن من الخطأ الافتراض ان التجارب الفعلية كانت عذرية افلاطونية بنفس الدرجة التي صورت بها شعراً .

التروبادور (The Troubadours) الشعراء ، الجوالون) : وفي نهاية القرن الحادي عشر ميز بين الطبقة الادنى من الشعراء المسمين الجوكلار (Joglars) والطبقة الاعلى منهم ، وهم شعراء التروبادور سواء أكانوا من الطبقات العليا أم الدنيا للمجتمع ، اذا كان وليام التاسع اول التبروبادور . وفي أوائل القرن الثاني عشر ألف سيركامون (Cercamon) الغسكوني شعراً رعوياً ونظم تلميذه ماركابرو (Marcabrun) حوالي ٤٠ قطعة يتعلق العديد منها بالتاريخ المعاصر . كما أن جفري رودل (Jaufre Rudel) من بليه (Blaye) ، مغني الحنين في الحب البعيد لم يكن أقل شهرة . وفي نفس القرن ، وإنما بعد هؤلاء الشعراء بقليل نظم برنارد دو فنتادور (Bernart de Ventadour) اغاني اتسمت ببساطة أنيقة يمكن اعتبار بعضها نماذج مثالية للشعر البروفنسالي ، واشتهر معاصره برتران دوبورن(Bertran de Born) بالدور الذي يقال بأنه لعبه بسيفه وبقصائده في النزاع الدائر بين هنري الثاني الانكليزي وابنائه الذين ثاروا عليه . ويمكننا ان نذكر من الشعراء التروبادورد ارنودانيال (Arnaut Daniel) الذي جلى بقرض الشعر المعقد والصعب ، وغيرو دو بورنيل (Guiraut de Boneil) واشتهر بالاسلوب المتلاحم الذرية (Trobar Clus) مع انه الف اغاني ساحرة ببساطتها وعذوبتها ، وآرنو دو ماريل(Arnaut de Mareuil) شاعر العاطفة الرقيقة والرفيعة ، وبير فيدال (Pier Vidal) من طولوز(Toulouse)

ذلك الانسان الغريب الاطوار ، والشهم رامبو دو فاكيرا (Raimbaut de Vaqueyras) وفولكيه دو مارسيل (Folquet de Marseille) (وهو الراهب الذي غدا فيما بعد أسقف طولوز) وراهب مونتادو (Mantaudon) اللاذع ، والناقد الهجاء بيير كاردينال (Piere Cardenal) .

لكن عندما أتت الحرب الصليبية الالبجنسية (Albigensian) في العقود الاولى من القرن الثالث عشر على عدد جم من نبلاء جنوبي فرنسا لم تعد مهنة التروبادور مجزية، وشد الكثير منهم الرحال ليقضوا أخريات ايامهم في شمالي اسبانيا وايطاليا حيث لاقى الشعر البروفنسالي التقدير والاحترام . وحذا شعراء آخرون حذوهم وطفقوا ينظمون بالبروفنسالية لكنهم شرعوا منذ منتصف القرن الثالث عشر يهجرون اللغة الاجنبية ، وينصرفون الى النظم باللهجات المحلية . ويتوافق ذلك الوقت واحتضار الشعر في جنوبي فرنسا باستثناء اماكن قليلة . وفي القرن الرابع عشر نظمت المؤلفات للتوجيه والتعليم ، وبهذا ذوت دوحة شعر التروبادور .

الشعر البطولي (Chansons de Geste) والقصائد التاريخية :

يتضمن الادب البروفنسالي بعض النماذج الهامة جداً من الشعر البطولي (وهو قصائد في مقطوعات غير محددة الطول ذات قافية واحدة) ويشغل المركز الأول في هذه القصائد قصيدة بعنوان « جيرا دو روسيون » . (Girat de Roussillon) تتألف من عشرة آلاف بيت ، وتروي قصة نزاع شارل مارتل (Charles Martel) ضد تابعه جيرار دو روسيون . ويبدو انها مجرد اعادة صياغة لقصيدة أطول لم تصلنا من أصل فرنسي او برغندي . وفي منتصف السبيل بين الاسطورة والتاريخ تقع الانشودة البروفنسالية عن حصار انطاكية . وهناك قصيدة تاريخية حول الحملة الصليبية ضد الالبجنسيين (Albigensians) تتألف في شكلها الراهن من قصيدتين اولاهما من تأليف غيلهم دو توديلا (Fuilhem de Tudela) ، اما الثانية التي تختلف بالاسلوب واللغة والآراء فتحفة من روائع الادب البروفنسالي .

القصائد القصصية :

لم تصلنا الا ثلاث قصص من المغامرات وهي جوفرية (Jau Fré) وبلاندا دو كورنولها (Blandin de Cornoalha) وغيلم دو لابارا (Guillem de la Barra) وارتبط بقصص المغامرة ضرب آخر من القصص هو الحكاية (Novel) التي كانت في الأصل وصفاً لحادثة وقعت مؤخراً . ويمكن رفع بعضها الى مصاف أكثر الاعمال الادبية البروفنسالية رشاقة ، وقد كتب اثنتين منها المؤلف الكتالي (Catalan) راموفيدال دو بيسالــو (Raimon Vidal de Besalu) وهما «كاستياغيلــوس» (Castia Gilos) وهي معالجة انيقة لقصة الزوج الذي يتخفى كعشيق لزوجته ، والثانية صياغة شعريـة لمسألة قانون الحب . ويمكننا أن نشير الى قصيدة «نوفاس دل باباغاي» (Novas del Papagai) لأرنو دي كاركاسيه (Arnaut de Carcasses) التي يؤدي دور الشخصيـة الرئيسية فيها ببغاء فصيح يساعد في مغامرات سيده الغرامية . اما القصائد فطولت الى حجم القصــص ، فقصيــدة «فلامنكا» (Flamenca) تزيد على ٨٠٠٠ بيت ، وفيها تتخلص سيدة من مراقبة زوجها الغيور بوسائل غاية في المهارة ، ولا يعادلها اي كتاب في الادب الوسيــطي سرعة خاطر ورجاحة عقل ، وبما تضمنت من ارشادات حول عادات المجتمع الراقي في القرن الثالث عشر وتصرفه .

الشعر التعليمي والديني

كانت المؤلفات الأهم شأناً تتألف من قصيدة لبويثيوس (Boethius) ذكرت سابقاً ، ومن ترجمة شعريــة قديمة لكتاب ديستيشادو موريبوس (Disticha de Moribus) لديــونيسوس كاتو (Dionysius Cato) وكتاب أوزل كاسادور (Auzels Cassadors) لمؤلفه دود دو براد (Daude de Prades) وهو مصدر لدراسة البزدرة[1] . وهناك بعض المؤلفات الاكثر اصالة والتي كان هدفها العام تعليم سيدات الـطبقة النبيلة . ولقد وصلتنا اثنتا عشرة قصيدة تدور حول سير القديسين ، وتتضمن سيرة

---

١) فن رياضة الصقور.

القديس فيد(Fide) وحيـاة القديس ايميـا(Eimia) لبرتران المـارسيلي(Bertran Of Marseilles) ، وسيرة القديس اونوراتس اوف لوران(St. Honoratus Of Lerins) التي تتميز بتنوعها وأناقة نظمها ، ولكنها بمجموعها تقريباً ترجمة من اللاتينية قام بها ريمون فيرو(Raimon Feraut) .

المسرحية : تألف الادب الدرامي لجنوبي فرنسا من مسرحيات حول الخلق ومعجزات القديسين من نوع الاسرار « الميستري » والمعجزات « والميراكل » قلما تجاوزن ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠٠ بيت . وترجع بشكل عام الى القرنـين الخـامس عشر والسادس عشر ـ ويبدو ان اقدمها مسرحية تدور حول القديس « أنْييس »(Agnes) كتبت في آرل (Arles) وتليها مسرحية « آلام المسيح » واخرى « زواج العـذراء » والاخيرة تكييف وتحوير لقصيدة فرنسية من القرن الثالث عشر .

النثر : كتبت في القرن الثاني عشر في لغة الأوك (Langue d'oc) عظات ذات أهمية لغوية أكثر منها أدبية . وفي حوالي نفس الوقت ترجم انجيل القديس يوحنا في ليموزان (Limousin) . وفي لغتي الأوك والبروفنسال ظهرت عدة ترجمات للعهد الجديد ولبعض اسفار العهد القديم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . والى القرن الثالث عشر تعود سير لبعض شعراء التروبادور قصد منها ان تكون مقدمة لاشعارهم وتفسيراً لها . وكتب الكثير قبل عام ١٢٥٠ عندما صنفت المجموعـات الأول لشعراء التروبادور . وتعود الى نفس الفترة قصيدة عنوانها لارازو دوتروبار (Las Razos de Trobar) للشاعر التروبادوري رامـون فيدال دو بيسالـو(Ramon Vidal de Besalu) (وهي مقالة مدارهـا فن الشعـر وعـدة نقـاط نحـوية) . ومـن المؤلفات النثرية الرئيسية في هذه الحقبة مقالة حول الشعر والنحو والبيان تعـرف باسم « ليه دامور » (Lays D'amour) ، ألفت في طولـوز . وكان تفسُّخ الأدب البروفنسالي بسبب الظروف السياسية اسرع مما يتوقع وهكذا لم يفسح المجال لتطور كامل للنثر .

الفَصْل الخَامِس
الأدَب الانكليزي الوَسِيط

فترة الانكليزية القديمة :

نتيجة لآثار الفتح النورماندي على الادب الانكليزي التي بدأت بالظهور في اوائل القرن الثاني عشر تنقسم الكتابات التي سبقت تشوسر ـ تسهيلاً للدراسة ـ الى حقبة انكليزية قديمة انكلوسكسونية ، والى فترة انكليزية متوسطة مبكـرة . وخط الفصل هو عام ١١٠٠م .

الشعر :

كان لقبائـل الانـكليز والسكسـون والجـوت (Angles, Saxons, Jutes) التي استقرت في بريطانيا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين تقاليد شعر شفهي ، لكن لم يصلنا أي من اشعارهم يعود للفترة التي سبقت المسيحية باستثناء مقطوعات من قصائد تتضمن اقوالاً مأثورة وحكماً أو بطولات نظمت في العصور المسيحية . فجذور البحر العروضي للشعر الانكليزي القديم ـ بأسلوبه الغني بما هو شاعري ، والذي يصلح للمواضيع البطولية ـ عميقة ممتدة الى الماضي الوثني . وكان هذا الشعر يغنى احياناً بمصاحبة القيثارة : لم يغنه الشعراء او المغنون الشعبيـون المتجولـون فحسب ، بل اشخاص أكثر تواضعاً امثال الفلاحين ، كما تذكـر قصة كادمون (Caedmon) للكـاتب القس المبجل بيـد (Bede) الـذي يقول في كتابه «التاريخ الاكليريكي للشعب الانكليزي» (Ecclesiastical History Of The English Alation) ـ الذي يعتبر مصدراً رئيسياً للتاريخ الانكلوسكسوني ـ ان فلاحاً من نورثمبريا ، واسمه كادمون ، هو أول من استعمل البحر والاسلوب التقليديين للشعر المسيحي الديني . لقد دخل دير وتيبي (Whitby) حيث نظم قصائد كثيرة ، لكن لم تصلنا من اشعاره سوى الابيات التسعة الاولى من ترنيمة عن الخلق . وتتضمن مخطوطة جونيـوس كادمون (Junius Caedmon) قصائد ذات مواضيع انجيليـة ، وثلاث قصائد تعرف مجتمعة باسم «المسيح والشيطان» (Christ And Satan) وهذه المخطوطة

واحدة من أربع مجموعات من المخطوطات للشعر الانكليزي القديم كتبت جميعها حوالي ١٠٠٠م . أما المخططوطات الاخرى فهي مخطوطة «بيـوولف» (Beowulf) «وكتاب فرسلي» (Vercelli Book) «وكتاب اكـزتر» (The Exeter Boock) ويـرجع تاريخ معظم الشعر فيها الى القرنين الثامن والتاسع . وفضلاً عنها هنالك مقطوعات شعرية قليلة متنوعة المصادر تعود بشكلها الى القرن الثامن .

وبما أن البيوتات الدينية هي التي حفظت الأدب الانكليزي القـديم برمتـه تقريباً فليس مفاجأ ان الشعر الذي وصلنا بمعظمه دينـي . فبالاضافـة الى الشعـر التعليمي ولبعض المعالجة الدقيقة لمواد انجيلية كسفر التكوين وسفر دانيال (مخطوطة جونيوس Junius) توجد من سفر الخروج (Exodus) صورة بطولية لموسى كتبها شاعر أصيل ذو خيال مجنح (نفس المخطوطة) . أما «جودث» (Judith) (من مخطوطة بيو ولف) فتبسط لنا قصة ابوكريفية (١) زاهية الألوان . وأثر العرف والتقليد البطوليين على قصيدتي «الين» (Elene) «وجوليانا» (Juliana) للشاعر كنيولف (Cynewulf) . وقد وصلتنا هاتان القصيدتان بالاضافة الى قصيدتين آخريين هما «مصير الرسـل» (The Fases of The Apostles) «والصعـود» (The Ascension) (Crist II) . ويتميز شعره بالنصاعة والمهارة العروضية واستعمال القافية كزينة اضافية . وكانـت أهـم قصيدة دينية هي «حلم الصليب» (The Dream of Rood) لوصفها المؤثر للصليب . وهذا الوصف جزء من حلم يرى فيه الحالم الصليب يسيطر على الكون . وهـذه القصيدة احدى اعظم الخرائد الدينية لما فيها من عمق الشعور وصدق التعبير .

يطلق تعبير غنائي وتأملي على قصائد «كتاب اكزتر» ، وهي «المتجول» (The Wanderer) «والبحار» (The Seafarer) «والخراب» (The Ruin) «وتذمـر الزوجـة» (The Wife's Complaint) «ورسالـة الـزوج» (The Husband's Message) «وديور» (Deor) . وهي جميعاً قصائد كتبت بجزالة بالغة وتحدثت عن مشاعر افراد في مواقف نموذجية . وقـد استخدمـت «ديور» الاساطـير البطـولية ، لأن المغنـي الشعبـي الاسطوري فيها ، يعزّي نفسه لفقدان وظيفته بتذكره كيف أن ابطالاً عديدين قد

---

(١) الابوكريفيا : هي اربعة عشر سفراً ملحقة بالعهد القديم لا تعتـرف بهـا بعض المذاهـب المسيحية شأن مذهب الانجيليين .

نفذوا عبر المصائب الى ظروف أفضل . ولو أن «كتاب اكزتر» قد ضاع لما شك احد في وجود كل هذه الكمية من القصائد الغنائية الحساسة والمؤثرة .

لم يصلنا سوى قطعتين من «والدير»(Waldere) «والقتال عند فينز برغ»(The Fight at Finnesburg) لتعطيانا لمحة عن الصفة الدرامية للشعر البطولي القصصي . واستعملت الاشارة الى مثل هذه القصص لأغراض متعددة في «ديور»(Deor) «وبيوولف» . وفي هذه القصيدة التي تعتبر أهم قصيدة وصلتنا وصف لقصة مغامرات البطل ومنجزاته ضد الوحوش الغريبة في مضمون الماضي البطولي . وتعتبر «بيوولف» اكثر من قصيدة بطولية ، لأنها ذات دلالة دينية عميقة ، فقد صورت الوحوش على انها اعداء الله ، واظهرت الاعمال البشرية العنيفة والخيانة والمطامع على انها مجلبة للعقاب . وهي تحتل - فيما وصلنا من شعر هذا العصر - المرتبة الاولى لما تزخر به من جذالة اسلوب وحيوية وطاقة قصصية .

وأخيراً كان هناك بعض الشعر حول المواضيع التاريخية وأبرزها معركتا «برونانبر»(Brunanburh) «ومولدن»(Maldon) (كتبت مباشرة بعد عام (٩٩١) التي لم يصلنا سوى مقاطع منها ، وهي قصيدة درامية وقصصية جزلة المبنى تبين أن المثل البطولية من الاخلاص والشجاعة كانت ما تزال حية .

النثر :

بدأت كتابة النثر بالانكليزية القديمة بعد التحول الى المسيحية مباشرة ، وأثر الحملة التبشيرية التي قادها القديس اغسطين من كانتربري الى جنوب شرقي انكلترا في الفترة ما بين ٥٩٦ - ٥٩٧ . وقد كتبت قوانين اثيلبرت الأول (Aethelberht I) حوالي ٦٠٢ - ٦٠٣ مع أنها وصلتنا فقط في مخطوطة من القرن الثاني عشر . ولقد كان تحويل صلاة الرب (Lord's Prayer) والعقيدة المسيحية الى الانكليزية مبكراً . كما أصدر ملوك كنت(Kent) الانكليز في القرن السابع دساتير قانونية باللغة الانكليزية ،وفي القرن التاسع كان من المألوف بالنسبة للوصايا وغيرها من العقود ان تكتب بالانكليزية أيضاً . وادعى الملك الفرد(Alfred) قبل انقضاء القرن بأن اشخاصاً عديدين يمكنهم قراءة الانكليزية . ويعود أول نثر أدبي وصلنا الى فترة حكمه (٨٧١ - ٨٩٩) ومع أن الكثير مما كتب استند الى أصول لاتينية ، الا انه من الخطأ وضعه جانباً على انه غير ممتع . وحتى ترجمة ورفيرث(Werferth) لمحاورات(Dialogues) القديس غريغوري وترجمة الفرد(Alfred) «للعناية الرعوية»

(Cura Pastoralis) تضمنت نصوصاً ليست في المؤلفات الاصـلية . فقـد احتـوت نسخة بيد(Bede)من كتاب «تاريخ بريطانيا الاكليريكي» المترجم عن اللاتينية اجزاء كتبت بنثر حي طبيعي . والكتابات الاكثر أهمية من الناحية الادبية هي نسخة الفرد من كتاب بيذيوس «مواساة الفلسفة» المترجمة بتصرف ، ونسخة من كتاب القديس اغسطين المسمـى « مناجـات » (Soliloquies) . وفي كليهما استعملـت مصـادر اخرى ، وأدخلت نصوص ذات قيمة ادبية رفيعة . اما ترجمة كتـاب اوروسيوس (Orosius) المسمى « التاريخ ضد الوثنيين » (Historia Adversus Paganus) والتـي تعزى الى الفرد فكانت مكثفة جداً ، الا انها احتوت موضوعاً عاماً عن العمل ضد ارادة الله في التـاريخ ، وكشفـت عن وجهـة نظـر فردية متأثـرة بالتقليد والعـرف البطوليين .

لقد جمع «التاريخ الانكلوسكسوني» (Anglo Saxo nchronicle) للمرة الاولى زمن الملك الفرد . وتضمن باختصار حوادث جرت قبل القـرن التاسـع باستثنـاء وصف حي غير نموذجي لنزاع أدخل لسجل عام ٧٥٥م . ورويت حوادث القرن التاسع باساليب قصصية بسيطـة ، واستمـرت كذلك حتـى وفـاة ادوارد الأكبـر (Edward The Elder) عام ٩٢٤ م . وتوقفـت كتابـة التـاريخ طوال نصف قرن ، وعندما تؤنفت أسهمت بذلك التقدم العـظيم الـذي ميز مؤلفـات الفتـرة بعد الانتعاش الذي تم للاديرة خلال القرن العاشر والتي تعتبر احدى أهم فترات النثر الانكليزي . وكان الراهب الفريك(Aelfric) وكبير الاساقفة ولفستان أوف يورك (Wulfstan of York) كبيـري أنصـار النثـر . وعـاش كلاهما زمـن حكم ايثلـريد (Aethelred) . واسلوب الفريك متزن فيه الكثير من الجمال والروعة ، بينما تراوح اسلوب ولفستان بين النداء العاطفي والوصف المتزن للحقائق الدينية . والكثير من مضامين مؤلفات هذا العصر نبعت من مصادر لاتينية ، ولكنهـا عولجـت بشـكل يجعلها أدباً قائماً بذاته . كما ترجم اسقف اثلود(Aethelwold) من ونشستر احكام البندكتيين ، وترجمت الاناجيل وأسفار من العهد القديم في هذه الفترة . ونتيجـة لكل هذا النشاط تطورت مفردات رائعـة . وتبـدى الاهتمام بالعلـم بتـأليف دليل (Manuel) بيرفيرث(Byrhferth) وبكتاب الفـريك المسمـى «دو تمبوريبـوس»(De Temporibus) ويستند كلاهما على أعمال بيد(Bede) العلمية . وأخيراً وصلنا شيء من أدب التسلية ، فقد كتبت ثلاث قطع عن الاعاجيب في مخطوطة «بيوولف» وهي

جزء من سيرة «حياة القديس كرستوفر» (Life of St. Christopher) «ورسالة الاسكندر الى ارسطو » (Alexander's Letter To Aristotle) « وأعاجيب الشرق » (Wonders Of The East) وجميعها عرضت بنثر غير متقن . اما القصة الاغريقية « ابولونيوس من صور » (Apolonius Of Tyre) فقد ترجمت بنثر منساب متين الحبكة .

وخلال الفترة من أواخر القرن السابع وما تلاها ، ظهرت مؤلفات لاتينية ، الا ان أهم منجزات الانكلوسكسون كانت خلق أدب عامي ضخم الكم شعراً ونثراً ، منقطع النظير لدى الشعوب الاوروبية الاخرى في العصور الوسطى . واستمرت الكتابة الرائعة «للتاريخ» (Chronicle) خلال القرن الحادي عشر ، وتابع النشاط العظيم مسيرته في انتاج المخطوطات التي كان بعضها موضحاً برسوم جميلة . وفي الادب وفي نواح اخرى عديدة كانت حضارة الانكلوسكسون تفوق حضارة النورمانديين الذين غلبوهم عام ١٠٦٦ م .

الفترة الاولى من الانكليزية الوسطى :

تظهر النصوص التي وصلتنا أن الفتح النورماندي كان ضحل الاثر المباشر على الكتابات الانكليزية . وقد تم التغيير تدريجياً عن طريق أثر الثقافة الاوروبية .

النثر :

استمرت كتابة « التاريخ الانكلوسكسوني » (The Anglo-Saxon Chronicle) حتى عام ١١٥٤ حسب التقاليد القديمة وأن عدلت في الوقت نفسه . ويحتوي القسمان الاخيران من الكتاب على وصف شهير للفوضى اثناء حكم ستيفن (Stephen) وللمهزلة السوداء لتسلم هنري اوف انجيلي (Henry Of Angély) رئاسة الدير في بيتربورو . (Pterborough). ويعود هجر الكتابات التاريخية الانكليزية بشكل رئيسي الى الازدياد المستمر في استعمال اللاتينية لكل عمل تتوخى فيه الديمومة وليس مجرد المتعة العابرة . وذلك ليس نتيجة للفتح النورماندي بقدر ما هو ناجم عن احياء العلوم في اوروبا الغربية . وبرزت مدرسة لامعة من كتاب التاريخ

الانكلوسكسوني أقدم افرادها ادمير أوف كانتر بري (Edmer Of Canterbury) ووليم أوف مالمزبـري (William Of Malmesbury) . وفي حوالي الثلاثينـات من القــرن الثاني عشر اندمجت في اللاتينية كتابة التاريخ بأدب الرواية النثري . وكان من ثمار هذا الدمج كتاب جفري اوف موغوث المسمى تاريخ ملوك بريطانيا (History Of The Kings Of Britain) ويعتبر من أقدم ما وصلنا من معالجة لاسطورة آرثر التي تمتزج بتلك الاسطورة التي تروي كيف استعمـر بروتس الطـروادي بريطـانيا . واستعملـت الـلاتينية كذلك في مؤلفـات ذات أهمية محلية ، ولسـير القديسـين المعـاصرين أمثـال ولفـريك اوف هيزلبـري (Wulfric Of Haselbury) ووليم اوف نوريتش (William Of Norich) وايلـــرد اوف ريفـــول (Aelred Of Rievaulx) . وسرعان ما استعمل الشعر الفرنسي في هذا المجال . وقبل عام ١١٤٠م كان جفري غيمر (Geffrei Gaimar) قد جمع كتابه تاريخ الانكليز (Estoire de Engleis) ، كما ان كتب تاريخ اخرى شعرية تضمنت كتاب ويس (Wace) واسمه « قصـة رو » (Roman de Rou) . وفي حوالي عام ١٣٠٠ ظهرت مؤلفات تاريخ شعرية وسـير قديسين بالانكليزية ، وأشهرها من تأليف روبـرتماننـغ (Robert Mannying) وروبرت اوف كلوستر (Robert Of Cloucester) .

ورغم منافسة اللاتينية والفرنسية معاً ، كان النثر الانكليزي ما يزال يستعمل لكتابات العبادة لان الهدف هنا لـم يكن الرعاية الارستقراطية او التظاهر الفكري بقدر الفهم العام . وكانت اشهر المؤلفات الانكليزية النثرية لهذه الفترة مجموعـة تعرف باسم «مجموعة كاترين» (Katherine Group) ومقال طويل عن الحياة الدينية يعرف باسم «انكرين رايل» (Anren Riwle) أو «انكرين ويس» (Ancren Wisse) (دليل الراهبات) ومع ان اسلوب هذه المؤلفات متنوع ومختلف ـ فمجموعة كاترين قديمة في لغتها وكثيرة الجناس ، اما « انكرين ويس » أو « دليل الراهبات » فمرنة في اسلوبها ولغتها ، وتتضمن العديد من الكلمات الفـرنسية المستعـارة ـ الا انهـا تشترك جميعاً بذلك الاثر للفكر الاوروبي فيها .

الشعر :

كان مدى الاشـكال الادبية الشعـرية واسعـاً ، وتأثـير النقـل عن الفرنسية واللاتينية اكثر تعقيداً . وقد درجت الترانيم الدينية وشاعت أنى وصلت

الكنيسة الرومانية ، وبسبب رعاية الارستقراطيين الانكلونورمانديين للادب العلماني ازدهر الشعر الفرنسي في انكلترا بعد الفتح النورماندي ، وكانت افضل وأقدم مخطوطة لملحمة فرنسا الاولى انشودة رولان القديمة والقومية انكلونورماندية العظيمة . ولما كان الكثيرون في انكلترا يتكلمون لغتين او ثلاثاً كان لا مناص للاشكال الشعرية الانكليزية من أن تتأثر بالشعرين اللاتيني والفرنسي ، ولذا غيرت هذه التأثيرات العروض الانكليزي وكيفته في حوالي نهاية القرن الثاني عشر .
وبينما استعملت قصيدة بروت (Brut) للشاعر ليامون (Layamon) بحراً عروضياً غير منتظم ، هو عبارة عن تلاقح بين الشعر الانكلوسكسوني ذي الجناس ، والمزدوجة الفرنسية ذات التفعيلات الثمان نجد ان اورمولوم (Ormulum) وهي سلسلة من المواعظ الشعرية نظمها اورم(Orm) في حوالي نفس الفترة - استعملت البيت اللاتيني الاصل المؤلف من ١٤ مقطعاً . اما الجناس فيه فأداته للزخرفة والتأكيد . واستعملت قصيدة « البوم والعندليب » (The Owl And The Nightingale) التي تعود الى القرن الثاني عشر تكييفاً لأكثر البحور الفرنسية شيوعاً وهو المزدوجة ذات الثماني تفعيلات التي أصبحت البحر العروضي الانكليزي القياسي للكتابات القصصية والاسترسالية وأظهرت القصيدة قبولاً متوازناً للمواضيع والصيغ الاوروبية . وبتوسل نقاش بين الطائرين استعرض الشاعر العديد من المواضيع مثل السحر والكنيسة والزواج مع ان تمثيل الطائرين لأي قيم رمزية ثابتة أمر مشكوك فيه . ويكمن الكثير من فضائل القصيدة في لغتها وأسلوبها الذي يتميز بأنه طبيعي ، حيوي ، انيق .

والمقارنة واضحة بين قصيدة «بروت»(Brut) للشاعر لايامون(Layamon) وقصيدة «البوم» . فالأولى منها وهي ترجمة لقصيدة الشاعر واس(Wace) المسماة « قصة بروت » وهذه بدورها ترجمة لكتاب « تاريخ ملوك بريطانيا » لمؤلفه جفري أوف مونمات تعرض مادتها حسب مفاهيم انكلوسكسونية بطولية ، الا أنها تكبت العناصر الفروسية . والقصيدة قديمة الأسلوب، حتى في عصرها مما حوّل الملك آرثر الى بطل جرماني قديم . ولربما ظل أول عمل عن الملك آرثر في الانكليزية ، وهو قصيدة (بروت) (Brut) للايمون المؤلَّف الوحيد ، قصيدة آرثر وميرلن(Arthur And Merlin) في حوالي نهاية القرن الثالث عشر .

والعمل البرجوازي المقابل لحلقة الملك آرثر الارستقراطية هو « قصص رنار » (oman de Renart) ، وهـي قصيدة تتميز بالهجـاء وعـدم الكياسـة . ويمـكن الاستدلال على مدى انتشارها وتذوق الانكليز إياها من النقش الواسع الانتشار لحوادث منها على الخشب لكن لم يصلنا منها سوى قصة واحدة قبل تشوسر ، وهي « قصة الثعلب والذئب » (The Vox And The Wolf) وفي نفس المخطوطة نجد قصة السيدة سيريث (Dame Sirith) وهي الممثل الانكليزي الوحيد ما قبل تشوسر للقصة الشعرية الواقعية انبذيئة عادة ، والمعروفة باسم خرافة « فابليو » (Fabliau) .

وهنـاك اشـكال قصصية أخـرى اكثـر تمثيلاً . فالقصـة الشعـرية كانت واسعة الانتشار بالانكليزية في منتصف القرن الثالث عشر ، وأقدم مثال وصلنا عنها قصيـدة «الملك هورن» (King Horn) (حوالي ١٢٢٥م) ، ويبدو ان أقدم القصص الانكليزية كتبت للعامة وليس للارستقـراطيين ، مثـال قصيدة «هيفلوك الدانمركي»(Havelok The Dane) وتروي كيف أن اميراً دانمركياً متخفيـاً في المنفى بزي ابن صيـاد سمك في كرمزبي(Crimsby) استرد ارثه ، كما تعطينا وجهة نظر مساعد الطاهي في حيـاة القلعة ، وما يتصف بطلها من قيـم الـطبقةالعاملة. اما «فلورس وبلانشفلور» (Floris And Blauncheflur) المترجمة عن قصة فرنسيـة من

أصل شرقي فقد تجنبت أي زخرف عاطفي لتفسح المجال امام التركيز على الحبكة . ويدخل في نطاق القصص السماعية القصة البريطانية المسماة ليه (Lay) . وهي قصة حب وسحر ذات خلفية كلتية ، كما هي الحال بالنسبة لقصة ماري دوفرانس(Marie de France) . واكثر القصص البريطانية امتاعاً قصة « سير اورفيو »(Sir Orfeo) وهي اعادة لرواية اسطورة « أورفيوس » (Orpheus) حسب المفهوم الكلتي . وهذه القصة مشهورة بجمال البساطة وما يتسم به تركيبها وأسلوبها .

كانت القصيدة الغنائية في أوائل مرحلة الانكليزيـة الـوسطى أحدث شكل أدبي ، أما البحور الشعرية الغنائية فكانت مجهولـة في فترة الانكليزيـة القديمة ، وأقرب الاوزان الى الغنائي من الشعر وزن «ديـور»(Deor) وبعض التعويـذات (Charms) . كما ان شعراء فترة الانكليزية القديمة لم يحفلوا كثيراً بمواضيع الحب

والربيع . وبشكل عام لم تبدأ القصيدة الغنائية العامية في غربي اوروبا الا حوالي عام ١١٠٠م على أيدي شعراء التروبادور في بروفنسال ، الا إنها سرعان ما انتشرت وظهرت في الانكليزية بأوائل القرن الثالث عشر . وقبل عام ١١٧٠م نظم القديس غودرك أوف فينشال(St Godric Of Finchale) ترانيم دينية بسيطة ،وحسبما يقول جيرالدوس كمبنسيس(Giraldus Cambensis) ـ وتعتبر تقاريره المعاصرة مصدراً قيماً لهذه الفترة ـ انتشرت اغاني الرقص ذات اللازمات بين الفلاحين في أواخر القرن الثاني عشر ، وتعود أقدم قصيدة غنائية انكليزية علمانية وصلتنا الى حوالي ١٢٠٠م . أما أقدم قصيدة غنائية ملحنة فهي «ميري بينما يدوم الصيف»(Mirie It Is While Sumer Iiast) وتعود بتاريخها الى حوالي ١٢٢٥م ، والاغنية الشهيرة «الصيف آت» (Sumer Is Icumen In) ومن منتصف القرن الثالث عشر فما بعد وصلتنا مجموعات شعرية غنائية بعدد لا بأس به ، وأهمها «منوعات هارليان» (Harleian Miscellany) التي ربما جمعت حوالي ١٣٣٠ ـ ١٣٤٠ وهي مزيج من المحتويات ، فاليد التي كتبت الشعر الديني هي نفس اليد التي كتبت صنوه العلماني والنثر والشعر الفرنسيين ، بله اللاتيني والانكليزي .

وهكذا جلت الفترة الاولى من الانكليزية الوسطى الادب الانكليزي ووضحت من معالمه وقد تغير تحت تأثيرات القارة الاوروبية ، لكن بالتدريج ودون ان يفقد شخصيته .

من تشوسر الى عصر النهضة : تقليد الجناس وعرفه الشعر :

شهد منتصف القرن الرابع عشر بدء نتاج جديد في نظم قصائد طويلة على بحر يعتمد على الجناس ، وقد شملت اول مجموعة مواضيع متنوعة : قصص شعرية مثل قصيدة وليام أوف بالرن (William Of Palerne) (قبل عام ١٣٦١) ، وأجزاء من قصائد شبه تاريخية تدور حول حياة الاسكندر ، وهجاء سياسي مثل قصيدة « الرابح والمبذر » (Winner And Waster) ، وأساطير دينية مثل « جوزيف أوف اريماتي » (Joseph Of Arimathie) (حوالي ١٣٥٠ م) تعالج موضوع الكأس المقدسة . هذا وان السجلات التي وصلتنا توحي الينا الانطباع بأن الشعر الجناسي

استعمل ثانية بشكل مفاجيء بعد انقطاع طويل ، وذاك ما يدعى حركة الاحياء الجناسي ، وتعود الاختلافات عن التكنيك المتبع في الانكليزية القديمة الى تطورات باللغة بشكل رئيسي ، ويجب ان ينظر الى الاحياء على انه تبسيط واضح لطريقة في الكتابة موجودة . وكانت الحركة شمالية وغربية ويمكن مقارنتها بفن القافية المنتشر في لندن والشرق ، واستمرت كتابة هذا النوع من الشعر في اسكتلندا حتى مطلع القرن السادس عشر ، وهناك مجلد ضخم منها وأفضلها (يعود الى القرن الرابع عشر كما يبدو) يعادل بقيمته أفضل ما كتبه تشوسر (Chaucer) . وتتصف الرومانسية البطولية في قصيدة « موت آرثر » (Morte d'Arthure) بالرجولة والنبل وكانت النموذج الذي احتذاه سيرتوماس مالوري في كتابة جزء من قصيدته « موت آرثر » (Morte d'Arthure) . وقد عبرت قصيدة « بييرز بلاومان » (Piers Plowman) أقدم نسخة منها حوالي ١٣٧٠ ، وتعزى الى وليام لانكلاند (William Langland) بتصوير مجازي معقد وغنى فريدين عن ثقة مؤلفها في حاجة الانسان للاحسان وللحقيقة التي تدعو اليها المسيحية . والقصيدة طويلة ، وغير منتظمة التركيب ، ولغتها غالباً غير مصقولة وبحرها العروضي مفكك . الا ان قوة الشعور وطاقة الفكر فيها لا نظير لها . انها تقرير رائع عن فكر أواخر القرن الرابع عشر وعقيدته ، وتعتبر خريدة من أعظم القصائد الانكليزية .

أما الرومانسية البطولية «السير غاوين والفارس الاخضر» (Sir Gawayne And The Grene Knight) فذات روح مغايرة تماماً ، وفيها يروي الشاعر قصة سحر تشبه بخلفيتها قصص الملك آرثر ، الا انه جلا شخوصه ومعضلة بطله الاخلاقية بتفهم دقيق ، حتى لتبدو القصيدة تفكيراً جدياً في السلوك الانساني ، فلقد صور غاوين (Gawayne) كمسيحي ورع غير كامل من الناحية الانسانية . والابيات الجناسية متماسكة التركيب ، والمفردات غنية بشكل غير اعتيادي ، شديدة التأثر بالفرنسية ، الا انها طرقت الواناً من المفردات الشائعة الاستعمال في لهجات شمالي غربي انكلترا . والانطباع الذي يوحي به الجو السفسطائي ـ وعمق التحليل النفسي ، واللغة المحلية ـ لا يماثله اي انطباع لأي عمل أدبي آخر من تلك الفترة . وتضمنت المخطوطة التي ضمت قصيدة «السير غاوين» قصيدتين جناسيتين للتعليم

الاخلاقي ، وهما «الصبر»(Patience) والنظافة(Purity = Cleanness) ، وتعزيان للشاعر نفسه لتشابه اسلوبهما واسلوب «السير غاوين» . وقس على ذلك قصيدة تأملية ثالثة هي قصيدة «لؤلؤة»(Pearl) وفيها يرى الشاعر شبح ابنته التي ماتت في طفولتها ، تلقنه درساً في التسليم لمشيئة الله ، ويدير نقاشاً لاهوتياً معقد الاسلوب ، يجد كاتبه متعة في الظلال والالوان التي يستعملها للوصف كما هي الحال في قصيدة السير غاوين ، ورغم كل التعقيد في التركيب ، يوحي لنا بشعورٍ حادٍ من الحزن الشخصي .

تقليد تشوسر :

بلغ الاحياء الجناسي قمماً سامقة كانت هي الغاية . ولم يكن المستقبل بشكل رئيسي سوى تقليد لعرف شعر اللغة الانكليزية الوسطى الذي احتذى الشعر الفرنسي في الفترة الاولى للانكليزية الوسطى . وبمجرد ان بدأت فترة الاحياء الجناسي كان التقليد الآخر قد اكتسب حياة جديدة من اعمال تشوسر الاولى التي - رغم كل ما فيها من مهارة - تدين بالكثير لفرنسا . فأثر «قصة الوردة»(Roman de la Rose) - التي يقول تشوسر بانه ترجمها - واضح بين . أما «كتاب الدوقة»(The Book Of The Duchess) «وبيت الشهرة»(The House Of Fame) فيتبنيان تكنيك الابتعاد بالقارىء عن الاندماج بالشخصيات ليكون الضاحك غير متعاطف معها، وسبق لهذا التكنيك ان اتبع في قصدة «البوم والعندليب»(The Owl And The) ، كما يتجلى فيهما الشكل الشعري نفسه . وأثبت تشوسر عبقريته الجديدة بقصيدته «برلمان الطيور»(Parliament Of Fowles) المتصفة بالفكاهة وبعض العمق الفلسفي ، أما الحوار فيبشر بالمشاهد الرائعة التي نراها في «ترويلوس وكرسيد»(Troilus And Crisede) . ولأول مرة ، استعمل تشوسر في قصيدته «برلمان الطيور» وهي قصيدة رئيسية - بيت الشعر المؤلف من ثمانية مقاطع - ومنذئذ غدا هذا الوزن هاماً ، وقد اقتبسه الشاعر عن الفرنسية كما وجده عند الشعراء الايطاليين الذين أخذ بمحاكاتهم والقراءة لهم .

وقوام القصيــدة قطع شعريـة كل منها سبعة أبيـات ، ودعي هذا الترتيـب «بالقافية الملكية» (Rime Royal) التي استعملها لأول مرة في قصيدته «ترويلـوس وكرسيد» (Troilus And Criseyde) .

واستعمل تشوسر البيــت المؤلف من عشر تفعيــلات لأول مرة في مقدمة (Prologue) «اسطورة النساء الصالحات» (Legend Of Good Women) واستمر على استعمالـه في معظم «قصص كنتربري» (The Canterbury Tales) . ويـــظهر تمثل تشوسر للتأثيرات الاوروبيـة على احسن وجه في «ترويلـوس وكرسيـد» اذ استقى حبكته من بوكاشيو، والخلفية الفلسفية من بيذيـوس ودانتي ، ومواقف الـكثير من شخصياته الرئيسية من تقاليد حب البلاط الرفيع ، الا انه حوّر روايـة بوكاتشيـو المباشرة لقصته بأن عمق معالجة الشخصيات . ورغم ان «ترويلوس وكرسيد» تحفة تشوسر فهيهات لها بنهاية المطاف ان تستطيع الـوقوف امام «قصص كانتربري» . ومع ان القصص تختلف بأهميتها فان ابداعها غني بما توسلته من الحوادث وتلوين الشخصية مما تتكشف عنه شخصيات الحجاج الـذين يروون القصص بنصـوص يربط بعضها ببعض ، ثم بتلك المقدمة التي لا تضارع حذقاً وعمقاً .

ومنذ وقت مبكر اعترف بتشوسر كأستاذ كبير في الشعر الانكليزي لكنه بدا أقل عظمة مما هو الآن ، كما امتدح «جون كور» (John Gower) وهو معاصر أكثر قدماً من تشوسر حتى فترة العصر الاليزابيثي . لقد كان شاعر بلاط شأنه في ذلك شأن تشوسر وكتب عمله الـرئيسي بالانكليزيـة ايضاً ، اذ تألف من سلسلـة من القصص هي «اعتراف محب» (Confessio a amantis) ومؤلفين مجازيين تعليميين هما «مرآة الانسانيـــة» (Mirour de L'omme) في الفرنسيـــة «وفوكس كلامنتس» (Vox Clamantis) باللاتينية وبهما استحق مؤلفها لقب «يا داعية الاخلاق يا كاور» الذي خاطبه به تشوسر عندما أهداه كتاب «ترويلـوس وكرسيـد» . وساعدت مؤلفات «كاور» على ترسيخ الاستعمال الادبي للغة لندن المهذبة ، والشعر المقفى الذي يتميز به الجنوب والشرق . وبعد تشوسر سيـــطرت القافيـــة وكل ما يرافقها من لغة وأسلوب .

اعترف خلفاء تشوسر بما اسدى اليهم من فضل فدعاه توماس هو كليف (Thomas Hoccleve) في كتابه «فوج الامراء» (The Regement Of Princes) أول مؤسس للغتنا الجميلة . وجل أعمال هو كليف تعليمية ساذجة ، وأحذ اخطائه الرئيسية ما يبديه من تكلف باستعمال مفردات لاتينية ، خاصة وقد غدا صنيعه هذا عادة شائعة ، فقفّى على آثاره في قصائده القصيرة جون ليدكيت (John Lydgate) الذي شعر بدوره بأعجاب عميق نحو تشوسر ، فقلده ما استطاع ، بقصيدته «سقوط الامراء» (The Fall Of Princes) مستخدماً القافية الملكية التي استعملها تشوسر في «ترويلوس وكرسيد» . كانت قصائد ليدكيت الطويلة بالغة الاطناب والتكلف ، الا ان بعض قصائده الأقصر ، مثل قصيدته الهجائية «شيشيفاش وبيكورن» (Chichevache And Bycorne) اكثر نجاحاً .وكان له أثره على غيره من الكتاب الذين فتنوا به أكثر مما يستحق .

بعد ليدكيت استمر تقليد تشوسر ، أو تقليد البلاط ، وبشكل رئيسي في المؤلفات غير الرئيسية ، فقد وصلنا العديد من أغاني الحب التي عرف مؤلفو بعضها ، أمثال وليام دولابول (William de la pole) ، وتشارل دورليان (Charles d'Oreléan وافضلها بالغ الاتقان ، مع أنها منوعات لمواضيع مألوفة تدل على المهارة . وربما كانت قصيدة «الزهرة والورقة» (The Flower And The Leaf) المجهولة المؤلف اجمل ما نظم من القصائد الطويلة . والقصيدة جدلية رشيقة نظمت حسب بحر القافية الملكية ويبدو أن ناظمتها امرأة . واستمر التقليد حتى اواسط القرن السادس عشر .

الشعر غير البلاطي : لم يكن تقليد وعرف البلاط في الشعر الحقل الوحيد الذي استثمر في القرن الخامس عشر . فهناك مجموعة كبيرة من الشعر الديني . وكانت الصلوات والاغاني رسمية بعض الشيء ، وافضلها أبسطها . وابدع ما اشتهر من هذه القصائد قصيدة « انني اتغنى بعذراء عاطل » (I Syhg Of a mayden that is makeless) قريبة بطابعها من اغاني عيد الميلاد المسماة « كارول » (Carol) . وانتشرت أغاني عيد الميلاد في اللغة الانكليزية باعداد وفيرة للمرة الاولى في القرن

الخامس عشر . ومعظم ما وصلنا منها مجهول اسم الشاعر . هذا وقد نظمت مجموعة هامة تسمى اغاني الهدهدة للاطفال تعود بمنابعها الى ضرب من أغاني القرن الرابع عشر مثل « اهدأ ، اهدأ ايها الطفل الصغير . لم تبكي بحرقة ؟ »(Lullay, Lullay, litel child, whi wepest thon se sore?) .

كان الشعر غير البلاطي محدوداً في اهتماماته اذا ما قورن بغنى شعر العبادة ولكن هناك بعض القصائد البارزة مثل العذراء السمراء كالجوزة The Nut Brown Maid) وقد انجلت بحوار ممتع حول اخلاص المرأة . وهي - بالاضافة الى موضوعها الذي يدور حول الخروج على القانون - ذات صلة بالقصائد الغنائية من نوع «البالاد» التي تتحدث عن روبن هود (Robin Hood) . والتي ازدهرت في القرن الخامس عشر ، وقد تكون اقدم من ذلك . ومن الامور القابلة للجدل تحديد ما إذا كانت اشكال قديمة من القصائد الغنائية البطولية من نوع «البالاد» مثل «تشيفي تشيس»(Chevy Chase) «وسيرباتريك سبنز»(Sir Patric Spens) تعود الى هذه الفترة ام لا ؟ الا انه ثابت ان المدى كان واسعاً لمواضيع «البالاد» ، أمثال المشاهد الدرامية للمعارك ، والهروب الرومانطيقي للفتيات مع الفتيان ، والمطاردات الناجمة عن ذلك وزيارات قوى ما وراء الطبيعة . وأنفاس سائر هذه القصائد تقريباً شمالية أو اسكتلندية في لغتها وخلفيتها . واستحوذ الكثير منها - بتكنيكها وقوة أصرها - على المشاعر . وظهرت المواضيع السياسية باعداد لا بأس بها في شعر القرن الخامس عشر ، وهي تشمل رقعة واسعة : فمن اغنية شكر بمناسبة النصر في معركة «اجنكور» ، الى نصر بسيط على خصم . وأهمها مجهولة الناظم وعنوانها «تشهير بالسياسة الانكليزية»(Libelle Of Englysh Polycye) (حوالي ١٤٣٦ - ٣٧) . ولم يزل هناك جمهور للرومانسيات التي ترجم العديد منها ، اوكُيِّفَ عن الفرنسية لكن هناك غيرها نظمت بشكل مستقل الى حد كبير ، مع انها ترتكز بلغتها وحوادثها على قصائد او مواد سابقة . وبقدر ما يتسم بعضها بحسن الحبكة ، وبعضها الآخر بالقدرة على الوصف الحي ، تظل بشكل عام غير ذات اصالة . واستحق

الكثير من هذا القصص المبكر الهزء والسخرية التي صبها عليها تشوسر في قصيدته سير توباس (Sir Thopas) .

وفي حوالي نهاية القرن ظهرت شخصية جون سكلتون (John Skelton) الفريدة الخارجة على كل تقليد او عرف ، وتتصف بالرجعية اكثر منها شخصية من شخصيات عصر النهضة . واكثر شعره نموذجيةً تلك القصائد المتتابعة المزدوجات المقفاة القصيرة التي ابتكرها بنفسه . وكان بالغ التأثير بمقطوعاته التي تصف العمل العنيف ، او الهجاء المقذع ، ومع ذلك فهو قادر على ان يجعل شعره ناجحاً بشكل غريب في الحالات الرقيقة . فالاغنيات في قصيدته . «اكليل الغار» (Garlande Of Laurell) ١٥٢٣ ذات حيوية ترهص بأغنيات العصر الاليزابيثي ، وباختصار فهو أنبغ شاعر في عصره حدة ذكاء ، وعمق تعاطف انساني ، وسيطرة على نواصي الكلمات .

المسرحية :

تعود بدايات المسرحية الانكليزية الدينية الى القرن الثالث عشر ، لكن لم يصلنا سوى قطعتين من مسرحيتين تعودان الى حوالي ١٣٠٠م . وأهم النصوص التي نعرفها هي حلقات «تشستر» (Chester) «ويورك» (York) «وويكفيلد» (Wakefield) ، وما يدعى «بمجموعة كونفنتري» (Ludas Conventriae) أو «مسرحيات هيك» (Hegge Plays) التي ربما كان أصلها من نورفولك (Norfolk) . وتغطي اعمال تشستر التي تتألف من ٢٥ مسرحية قصصاً من الانجيل عن تاريخ الانسانية من سقوط لوسيفر (Lucifer) او ابليس حتى يوم الدينونة (القيامة) . وقد تميز عمل المؤلف من «ويكفيلد» الذي قدم خمس مسرحيات واجزاء من مسرحيات اخرى اضافها إلى حلقة ويكفيلد بوجود قطع شعرية (Stanza) تجمع بين القافية والجناس ومعالجة مرحة وواقعية للشخوص ، وتمكن أصيل من اللغة الدارجة . ومسرحيات ويكفيلد هي أبدعها لتنوع اهتماماتها ولصفاتها الادبية . وقد قصد منها أن تخرج وتمثل في عيد الجسد او عيد القربان (Corpus Christi) وقام بأداء ادوارها نقابات الصناع في العصور الوسطى . وهناك كذلك عدد من المسرحيات المنفردة

التي تألفت من معالجة قصصية لمواضيعها دون ان تقترن بالحلقات . وكان بعضها عن حياة القديسين وتسمى «مسرحيات المعجزات» (Miracle Plays) لتمييزها عن مسرحيات الطقوس «المستري» التي بنيت حول مواضيع من الكتاب المقدس . والى جانبهما نشأ نوع مختلف من المسرحية كانت الشخصيات فيه صفات معنوية مشخصة أو نماذج لشخصيات . وحبكتها مجازية وقد سميت هذه المسرحيات «بالاخلاقية» (Moralities) . وأهمها لتلك الفترة مسرحيــة «قلعة المثابرة» (The Castell Of Perseverance) ، ومن الفترة الثانية مسرحية كل انسان (Everyman) ، وترتقي هذه المسرحيات الى مستوى الاتزان في معالجتها موضوع الموت ومصير روح الانسان .

النثر :

اتسم النثر الانكليزي في الفترة الوسيطة المتأخرة بأهمية جديدة . فقد سارت مقالات مثل «غمامة عدم المعرفة» (Cloud Of Unknowing) (ربما في اواخر القرن الرابع عشر) وغيرها من المقالات التي أغفل مؤلفوها - على نهج التقليد التعبدي لكتاب امثال ريتشارد رول Richard Rolle) وولتر هيلتون (Walter Hilton) . واتبع نفس النهج كتاب «الستة عشر كشفاً من الحب السماوي» (The Sixteen Revelations Of Divine Love) لمؤلفته السيدة جوليان أوف نوريتش (Dame Julian Of Norwich) ومؤلفات مثل ترجمة نيقولاس لف (Nicholas Love) لكتاب لاتيني عنوانه «تأملات حول حياة المسيح» (Meditations Vitae Christie) تحت عنوان «مرآة حياة يسوع المسيح المباركة» (The Mirror Of The Blessed Life Of Jesus Christ) . والكثير من هذا النثر بسيط ساطع بوضوحه ، وسهل الحركة (مع أن لبعضه جرساً ايقاعياً يبعده عن مجال النثر العادي) . لكن قبل ان ينقضي القرن الرابع عشر بدأ استعمال النثر البسيط لمدى اوسع من المواضيع . وكان جون ويكليف (John Wycliffe) . مؤلف أو ناشر مؤلفات - موضع الجدل - ضاهت فيها نصاعة الاسلوب قوة الفكرة . وفضلاً عن ذلك أوحى بترجمة عظيمة للكتاب المقدس تعرف باسمه . وقد حازت النسخة الاخيرة التي تعزى الى جون بيرفي (John Purvey) على شعبية واسعة ما زالت مستمرة حتى أصدر وليام تندل (William Tyndale) نسخته من العهد الجديد عام ١٥٢٦ . وكان النثر الذي كتبه تشوسر جامداً في «قصة ميلبي» (The Tale Of

Malibee) «وقصة القس» (The Parson's Tale) وترجمته لبيذيـــوس (Boethius) .
ولكن الاهـم من ذلك كله استعماله النثر لهدف علمي في مقالة عن الاسطرلاب A) Treatise Of The Astrolabe) نظراً لكون تشوسر يعكس اتجاه العصر في الكتابة .

واستعمل النثر الانكليزي لجميع انواع الاغراض العلمانية ، وذلك بدءاً من اواخر القرن الرابع عشر فقد ترجم جون أوف ترفيـزا (John Of Trevisa) «كتاب التاريخ الشامل» المسمى «بوليكروينكون» (Polychronicon) لمؤلفه رنولف هيكدن (Ranulph Higden وموسوعة ضخمة من القرن الثالـــث عشر اسمها : «دوبروبريتاتيبوس ريـرم» (De Proprietatibus rerum) . وكـــان هناك عدة نسخ انكليزية من كتاب «رحلات» (Travels) لمندفيل (Mandeville) ، وهو مجموعة من قصص الرحالة عن الشرق كتبت أصلاً بالفرنسيـة ، كما كتب العديـد من أسفار التاريخ في القضايا القومية والمحلية بما فيه ١٢٠ مخطوطاً من بروت (Brut) . وارضاء لاذواق القراء وحبهم للقصص ، ظهرت ثلاث ترجمات لكتاب «جستا رومانوروم» (Gesta Romanorum) وهي مجموعة طرف وقصص قصيرة . واسلـــوب هذه المؤلفات قريب من لغة المحادثة ، وذلك ما اتصفت به الرسائل الخاصة واشهرها مجموعة باستون (Paston) من نورفولك ، وهي اول وثائق من نوعها بالانكليزية ، ورغم انها لا تعتبر أدباً بالمدلول الصحيح للكلمة ، فانها تقدم لنا صورة مفصلـة ودقيقة عن حياة العصر ، كما يعكس أفضل ما كتب من نثر تمكناً راسخاً من اللغة . وبالمقارنة ميزت البساطة والجزالة سيرة مارجري كمب (Margery Kempe) بقلمها . وهي صوفية كانت على ما يبدو امية . ولذا أملت وصفاً عن تجاربها ورحلات حجها الدينية .

كان السير توماس مالوري (Sir Thomas Malory) اكبر كاتب في عصره ، وقام وليـــام كاكستون (William Caxton) بطبع مجموعة قصصية له عن الملك آرثر عام ١٤٨٥ م تحـت عنوان «وفاة آرثر» (Morte Darthur) (انتهت كتابتها ١٤٦٩ - ٧٠) . وبهذا صاغ مالوري - من مصادر شعرية انكليزيـة ونثر فرنسي - تحفة من الرومانس المتزن وتراجيديـا الحنين في اسلـوب معروف بجرسه الـطنان ، مع انه استعمل المفردات البسيطة الدارجة في عصره .

احدث ادخال الطباعة الى انكلترا عام ١٤٧٦م ثورة في نشر الاعمال الادبية ، مما جعل معظم الكتابات الهامة للقرن السابق في متناول جمهور أوسع من ذي قبل ،كما نشر ترجمات قام بها هو نفسه او ترجمها آخرون غيره . وكانت بعض مقدماته اكثر حيوية من الكتب التي قدم لها لانه كان مهتماً بالغ الاهتمام بكتابة انكليزية مقروءة . وبتوزيع ونشر اعداد كبيرة من الكتب بنوع من الانكليزية متناسق . وهكذا ساهم في تركيز لغة لندن كلغة عامة للادب .

المعارف الجديدة :

كان الادب الانكليزي في معظم القرن الخامس عشر وثيق الصلة بما مر سابقاً ، مع تأثره قليلاً بالمذهب الانساني الجديد الذي ظهر في ايطاليا في القرن الرابع عشر . وأدرك المثقفون الانكليز هذه الحركة ، ولكن كرعاة للادب اكثر منهم ممارسين اياه . زد على ذلك ان المد الكامل لانسانية عصر النهضة لم يصلهم حتى مطلع القرن السادس عشر . وعلى ذلك كان تأثيره بطيئاً على الأدب . هذا ولا تزال لغة مؤلفات ذلك العصر من نتح الحركة الانسانية الانكليزية ـ مثل المدينة الفاضلة (اليوطوبيا Utopia) التي كتبها السيد توماس مور في العام ١٥١٦ ـ هي لغة الدارسين حتى الوقت الحاضر .

وهناك كتاب ـ نتج عن حركة الانسانية الانكليزية ـ صانع للفترات ، وهو كتاب «اليوتوبيا» (Utopia) للسير توماس مور (Sir Thomas More) طبع عام ١٥١٦ ، الا انه كتب باللاتينية التي كانت ما تزال تعتبر لغة العلم . كان النثر الانكليزي الذي كتبه «مور» ناصعاً بوضوحه ، الا انه استمرار للنثر السابق ـ الذي لم يتخذ طابعاً رسمياً ـ ولم يكن تقليداً للانماط الكلاسيكية . وكتب النثر الانكليزي الجيد أيضاً رجال اهتموا بالتعليم امثال السير توماس اليوت (Sir Thomas Elyot) والسير جون تشيك (Sir John Cheke) والسير توماس ويلسون (Sir Thomas Wilson) وروجر اشام (Roger Ascham)، ومترجمو الكتاب المقدس امثال تندل (Tyndale) ومايلز كوفرديل (Miles Coverdal) وانغمس رجال التعليم كذلك في النقاش الجدي حول الكلمات التي استعارها بالجملة من اللاتينية علماء وكتاب اسلوب كتبوا بالانكليزية الى حد المبالغة ، وبنتائج مضحكة . ومع ذلك ساعد التمرن على الكلاسيكيات كثيراً على اعطاء النثر الانكليزي شكلاً للجملة الانكليزية وصيغة لها . الا ان اوقع انواع الجرس فيها اشتق من بساطة الحديث

الانكليــزي . وورث ادموند سبنسر(Edmund Spenser) قصصه الخرافيــة من مالوري(Malory) والكثير من لغته من تشوسر. ومع ان التحف الادبية في نهاية الفترة الوسيطية قليلة العدد ، لكن اهميتها لفهم الغنى في الانتاج الادبي الذي خلفهـا كانت عظيمة .

الادب الاسكتلندي باللغتين الاسكتلندية والانكليزية

باستثناء بعض القصائد ذات التأليف المشكوك فيه ظهر أول أدب وصلنا من اسكتلندا في الشطر الثاني من القرن الرابع عشر . ومما لا شك فيه ان يد الضياع طالت ادباً اقدم منه ، لان قصيدة جون باربر (John Barbour) المسماة «بروس» (Bruce) والمنتهية عام ١٣٧٦م ، وقصيدة «سوزانة أو بستل أوف سوزان» (Susannah Ir Pistill Of Susan) حوالي ١٣٦٠ وتعزى الى هوشون اف ذي أول ريال (Huchown Of The Awle Ryale) لا يمكن اعتبارهما بدائيتين في تكنيكهما ، وانما تمثلان تقليدين : اذ نظمت الاولى في مزدوجات مقفاة من البحر ذي الثماني تفعيلات ، بينما نظمت الثانية بتراكيب شعرية جناسية مقفاة . وهذه الصيغة الشعرية وصلت اسكتلندا عبر كتاب الانكليزية المتوسطة في الشمال الذين اعتمدوا بنظمهم الجناس حتى أصبح شكلاً مميزاً للشعر الاسكتلندي . وتعود قصيدة اندرو اوف وينتون (Andrew Of Wyntoun) «التاريخ الاصيل» (Orygnale Cronykil) إلى حوالي ١٤٢٠ ـ وهي تبحث في تاريخ اسكتلندا ـ الى التقليد الاول ويعود اليه كذلك « كتاب الاسكندر » (The Buik Of Alxander) « واساطير القديسين » (Legends Of The Saints) وهما مؤلفان من أيام باربر (Barbour) ومن أقليمه . أما التقليد الثاني فظهور القصص الخيالية ، وتضمن كتاب ريتشارد هولاند (Richard Holland) المسمى « كتاب الهولات » (Buik Of The Howlat) وقصيدة مجهولة الناظم عنوانها « كولاكروس وغاوين » (Golagrus And Gawain) « وروف كوليير » (Rauf Coilyear) ومقطوعات أقصر امثال « ذي كير كارلنغ » (The Gyre Carling) ، وقصيدة وليام دنبار المساة « كيتوك الطيب » (Kynd Kittok) وقصيدة روبرت هنريسون (Robert Henryson) « بعض التطبيقات الطبية » (Sum Practysis Of Medecyne) . وناسب أسلوب باربر الجاف نوعاً ما قصصه الوطنية ، الا انه كان ضحل الاثر على من خلفه من شعراء ، فقصيدته « بروس » (Bruce)

الملحمة القومية معزولة في نوعها إن لم تكن في قيمتها . أما التقليد الثاني الجناسي الأكثر تألقاً وزخرفاً ، فقد استمر أثره الى ما بعد الفترة الوسيطية ، وقيمته بأنه حلقة الوصل بين الشعر الشعبي والشعر المتطور ، تلك الحلقة التي لم تنكسر في اسكوتلندا الى نفس الدرجة كما في انكلترا .

وشملت الفترة الكبرى للشعراء الذين أطلق عليهم اسم «ماكاريس» (Makaris) (وتعني الصانعين أي الشعراء ، أو التشوسريين الاسكتلنديين Scottish Chaucerians) (حوالي ١٤٢٥ - ١٥٥٠) أرباب القريض الأربعة الرئيسيين الذين سبقوا فترة الاتحاد مع انكلترا ، وهم روبرت هنريسون (Robert Henryson) ووليام دبار (William Dunbar) وكافين دوغلاس (Cavin Douglas) والسير ديفيد ليندسي (Sir David Lyndsay) ، ويجب أن يضاف اليهم مؤلف «هم الملك» (The Kingis Quair) (وربما يكون جيمس الأول ملك اسكتلندا) ومؤلف «سير وليم والاس» (Schir William Wallace) وهو بشكل تقليدي الشاعر الشعبي هاري (Hary) (أو هاري الأعمى) ، ولم يكن الشعر الاسكتلندي واثقاً من نفسه وحاذقاً ومتنوعاً ، كما هي الحال في القرن الذي انجب قصيدة هنريسون المسماة «عهد كرسيد» (Testament Of Cresseid) وقصيدة دنبار «امرأتان متزوجتان وأرملة» (Tua Mariit Wemen And The Wedo). وقصيدة دوغلاس «أنيادوز» (Eneados) ومسرحية ليندسي «نقد للمقاطعات الثلاث» (Ane Satyre Of The Thrie Estaits) . وغالباً ما كان للثقافة الخشنة غير المستقرة - التي أرضعت هذا الأدب - نغمة وسيطية أكثر من كونها نهضة مبكرة والناحية التي لم تكن وسيطية هي ادراك لغوي حاد ، ورغبة في توسيع ما هو عامي .

وكان هذا نتيجة لتقرير المصير سياسياً في اسكتلندا في القرن الرابع عشر . ولقد انتقد الاسلوب الفخم للشعراء «المكاريس» على انه متكلف ومغال ، ولكن مثل هذه المغالاة - التي لها ما يوازيها في انكلترا العصر الاليزابيتي - كانت مرحلة ضرورية لتطور وسيلة ادبية للتعبير . وقد تحدث كافين دوغلاس - مبرراً استعاراته من اللغات الاخرى لدى ترجمة فيرجيل - عن حبه للاطناب اللغوي ، كما تفجرت قطعه الوصفية الشعرية بالكلمات ذات البنية الغنية من الاشتقاق والمصطلحات .

واحتذى الشعراء «المكاريس» تشوسر كمثل أعلى في التعبير الشعري المتألف من بيان أو اسلوب وأشكال عروضية مثل المزدوجة ذات العشر تفاعيل ومع ذلك كان هذا أثراً واحداً لا غير من عدة آثار مثل عنصري الهجاء والخيال البعيد (من القصص الى الهزل من نوع « الفارس ») التي كانت دوماً حادة في الشعر الاسكتلندي . وكان تشوسر ودنبر مرتبطين بدوائر البلاط في عصرهما وخاطبا قراء مثقفين ومهذبين . الا انه كان لدنبر وكافن ودوغلاس وليندسي الكثير من التفاعل الاجتماعي ، الأمر الذي ربما لم يكن متوقعاً في بلد صغير، وجعل اقطاعياً بشكل جزئي وعشوائي . ومع هذا ، « فالانسان إنسان مع كل ذلك » وهذا قول تردد في الادب الاسكتلندي .

الفَصْل السَّادس

الأدَب الكلتي الوَسيط

الغيلية الايرلندية (Irish Gaelic) : (١)

ربما وصلت اللغة الكلتية التي تحدث بها الايرلنـديون منـذ أقـدم العصـور التاريخية ـ والتي غالباً ما تسمى بـ الغيلية أو «الغودلية» ـ ايرلندا قبل الفترة المسيحية بقليل . وكان أول دليل على وجودها تلك النقوش على القبور المكتوبة بالابجدية الاوغمية(٢) (Ogham) والتي تشبه الحروف الرونية الاسكندنافية (٣) . وتبـين هذه النقوش التي تعزى عادة الى القرنين الرابع والخامس حالة قديمة للغة . أما الكتابات الأبجدية الرومانية فترجع بتاريخها الى القرن الثامن وهي على شكل شروح مكتوبة بالايرلندية القديمة ، الا أن مؤلفات تعود الى القرنين السابع والسادس قد حفظت في مخطوطات ذات تاريخ أحدث بكثير .

كان الأدب الايرلندي أرستقراطياً من أقدم العصور ، اذ اقتصر على طبقـة محترفة هي طبقة الفيليد(Filid) ولربما كان هؤلاء الشعراء بالاضافة الى رجال علم آخرين أمثال الكهان(Druids) والقضاة والمؤرخين يمتون الى نفس الطبقة الحاكمة صاحبة الامتيازات ، وهي طبقة ملاكي الأراضي الذين حددت القوانـين القديمـة منزلتهم ووضعهـم القانونـي . وتنحصر واجباتهـم في معرفـة ملاحمهـم البطـولية

(١) : (Gaelic) هي اللغة الكلتية لايرلندا وشمال اسكتلندا .

(٢) : (Ogham) هي ابجدية الايرلنديين القدماء .

(٣) : الرونية(Runes) أحرف ابجدية تيوتونية قديمة .

وسلالاتهم ولينظموا فيها أشعار الفخر ، وهذا يعني ان عليهم ان يخدموا ماضيهم التليد وحاضر الطبقة الحاكمة . وكان الفيليد طبقة متكبرة الى حد الصفاقة ، تشتط بطلباتها ، ولا تتورع ان تسلك ـ بغية تأمينها ـ سبل الابتزاز بما تلجأ اليه من الهجاء الساخر الذي يؤدي الى تدمير سمعة المهجو ، واحياناً الى تصفيته الجسدية . ووضعت القوانين ضد اساءة استعمال هذا الهجاء لكن الاعتقاد بفاعليته استمر حتى الأزمنة الحديثة . وحفظت المؤلفات الرسمية للفيليد على شكل قطع في السجلات التاريخية والمقالات .

الشعر القديم :

حفظ الشعر القديم بشكل رئيسي في نصوص أدخلت ضمن وثائق تاريخية وأدبية كتبت فيما بعد . لكن هذه النصوص داخلها التصحيف والتحريف أثناء نقلها ، لذا يصعب فهمها وإيضاحها . وهناك أيضاً مديح (Eulogy) يدور حول القديس كولومبا St-Columba حوالي ٥٢١ ـ ٥٩٧) صيغ بجمل بيانية قصيرة يربطها الجناس، وهو يُعزى إلى دالان فورجيل Dallan Forgaill شاعر ايرلندا الرئيسي . واستخدمت هذه الوسيلة في النثر الايقاعي الجناسي للمرة الثانية ، في الملاحم البطولية من نوع «الساغا»(Saga) . ولربما كان أقدم بحر فعلي ذاك الذي يرتبط فيه شطرا بيت شعري بالجناس ، وهو ما يذكرنا بالشعر الجرماني القديم . كما استعملت القافية بدءاً من القرن السابع . وكل ما يطلب هو أن يكون هناك توافق بين الحروف الصوتية وعدد التفعيلات، وان الحروف الساكنة يجب ان تكون من الطبقة الصوتية . وهذا النظام متبع في لغة ويلز القديمة . وأخذت الرباعية الشعرية ـ التي بلغ عدد تفعيلاتها سبعاً او ثماني لكل بيت ، وقفي البيتان الثاني والرابع فيها ـ من البحور اللاتينية للترانيم الدينية ، أما البحر الذي أصبح فيما بعد أكثر انتشاراً فهو البحر المشطور (debide) (مشطور شطرين) . وتتألف فيه الرباعيات من مزدوجتين قفي كل بيتين من المزدوجة .

كان الكثير من الشعر القديم ذا طابع رسمي ، لكن شعر الكنيسة قلما كان

اكثر حيوية من شعر «الفيليدز» الـذين غالبـاً ما سربـل ـ عن عمـد ـ بحلـة من الغموض . وتعتبر المزامير(Psalter) من القرن العـاشر ذات أهمية اكبـر ، وهـي تاريخ انجيلي يتألف من ١٥٠ قصيدة يضـم الكثـير من الأوابـد . على أن المجـد الحقيقي للشعر الايرلندي لم ينبع من مؤ لفات ضخمة بل من قصائد شخصية نظمها شعراء مجهولون (كقصيدة المناجاة المشهـورة التـي يخاطـب الشاعـر فيهـا «بانـكر» (Pangur) وهي قطة بيضاء) . وفيها تجنب الشعراء الاوزان المعقدة ، مستخدمين لغة حكيت قروناً عديدة ، كاشفين عن بصيرة ثاقبة ، وحيوية دافقة ، وتلك أمـور عجز «الفيليدز» عنها .الا ان «الفيليدز» كانوا قادرين على تكييف تكتيكهم ، وهذا واضح من قصيدة عن البحر ترجع الى القرن الحادي عشر . وتوحي هذه القصيدة ـ بمقدمتهـا واختيار موضوعهـا والاسـتعمال الحـر للتعابـير المجـازية ـ تأثيرات اسكندنافية . وقد عملت هذه القصيدة وغيرها من قصائد الطبيعة على نقل تراث وتقليد أدبيين من القصائد الغنائية المحلية ، ومن الشعر البطولي والاغاني الموسمية وهي جميعاً تتجلى عن احساس رائع بالجمال الطبيعـي . وحثـت حركة الاديرة في الكنيسة الايرلندية على كتابة شعر الطبيعة ، فقد أدى بعدُ الرهبان عن البشر ، الى قربهم الصميمي من الطبيعة ، ولهذا اتسم الشعر الفرنسيسكاني بجـاذبية خاصـة للنساخ في الأديرة مما أدى الى حفظ كمية وافرة منه .

وبما ان الماضي كان جزءاً اساسياً من عمل شعراء «الفيليدز» لذا كانت نشأة الشعر التاريخي تعود جزئياً اليهم بدليل أن بعض القصائد القديمـة مجـرد انسـاب منظومة. وبمرور الزمن نمت الحاجة إلى وجود خلاصات وافية للمعلومات، وهذه بدورها نظمت شعـراً . وكان عددهـا وفـيراً ـ وبشـكل خاص ـ في نهـاية الفتـرة الاولى . ففي قصيدة طويلة عنوانها «المحاربون الذين كانوا في إمين»، (Fianna batar in Emain) لخص سينيد إيوا ارتاسين (Cinâed ua Artacain) مادة القصص البطولية بينما جمع فلاند ماينسترتش(Fland Mainistrech) اعمال أجيال من الشعراء الايرلنديين «الفيليدز» الذين جَهَـدوا في أن يزامنـوا تاريخ ايرلنـدا بتـاريخ العالم الخارجي . وهناك مجموعـة نثـرية وشعـرية لا تقـل أهمية وتسمـى دندشنشـوس (Dindshenchus) ، وقد أوردت اساطير مناسبة تدور حول مواقع وأماكن شهيرة في

ايرلندا . وفي الواقع ان تطور شكل شعري مهلهل مرسل على قافية سهلة قد أنتج شعراً لمساعدة الذاكرة على حفظ جميع المواضيع .

النثر القديم :

كانت الملحمة الايرلندية القديمة قصة نثرية تحتوي عادة على نصوص غير قصصية تسرد بأسلوب رفيع ، غالباً ما يتخذ شكل الحوار . والتشابه بين هذه الملحمة وتلك الموجودة في السنسكريتية القديمة يشير الى ان التقليد يعود الى الايام الهندية الاوروبية . وصيغت أقدم الملاحم النثرية بلغة تشير الى انها نقلت للمرة الاولى في القرنين السابع والثامن من تقليد شفهي . وحفظت هذه الملاحم بشكل غير كامل ، نظراً لانه لم تصلنا مخطوطة ابكر من القرن الثاني عشر ، لان الفتوحات الاسكندنافية قطعت السبيل على الدراسات الادبية ، وكل ما عداها . ولم تستقر الحياة قبل القرن الحادي عشر كي تجمع المؤلفات في الاديرة ، ولكن هذا الاحياء يتصف بعدم الاستقرار والثبات . وأظهرت مجموعة المخطوطات المعروفة باسم «كتاب بقرة دن» (The Book Of The Dun Cow) (الذي كتب في اوائل القرن الثاني عشر) معالجات ـ أقدم لمادة الملاحم مما يوجد في كتاب لينستر (Leinster) الذي كتب بعد عدة سنوات . فالقصص القصيرة وحدها هي التي حفظت بأنماط تقارب الاصل . أما باقي المادة فيعاوره التصحيف في المراجعة غير النقدية ، حتى غدا النثر الموزون المستعمل في النصوص التي فخم اسلوبها في القصص الأقدم غير مفهوم . ومع الميل للأخذ باطرافها جميعاً وافراغها في حلقات ، فقد امتدت لتشمل فترة تاريخية تبدأ من اقدم القصص الخرافية وتنتهي بالقرن الحادي عشر . كما قسمت الفهارس حسب انماطها وليس تاريخها ، تحت عناوين أمثال : اقتحامات ، غزوات للماشية ، مغازلات ، معارك ، رحلات ، الى غير ذلك . وهكذا حفظت لنا تلك القصص صورة عن مجتمع بدائي يقاتل في عربات حربية ويطوح بالرؤوس ليحتفظ بها كغنائم وذكرى انتصاراته ، كما بينت مكانة الكهنة وقوة التحريم ، وتلك امور لا شاهد عليها في المصادر التاريخية الصرفة .

وكانت أهم حلقة من حلقات الملاحم هي حلقة اولياد (Uliad) وهم شعب اعطوا اسمهم لـ الستير (Ulster) . وهكذا برزت اسماء - مثل كونشوبار (Conchobar) ملك الاولياد وكوشولين (Cu Chulainn) وهو صبي محارب ، ومِدْب (Medb) ملكة كونوت (Connaught) ثم نويسي (Noisi) وديردر (Déirdre) المحبين المشؤ ومي الطالع - في الأدب الايرلندي القديم . وكشفت أقرب معالجة للملحمة ايرلندية عن عناصر من ملاحم الاولياد وهي بعنوان غارة كولي للماشية (The Cattle Raid Of Cooley) . ومحتمل ان هذه الملحمة لم تكن عندما جمعت لأول مرة وثيقة الترابط ، وهي بشكل رئيسي - بالغة التأثير لما في قصصها من حيوية ، ولما في حوارها من فكاهة . أما القصص الأطول فليست سوى حوادث مفككة . ولا خلاف في ان أبدع قسم فيها هو ذلك الجزء الذي يسترجع فيه فيرغس (Fergus) - وهو منفي في اولستر - ذكرى أعمال كوتشولين في شبابه . وواضح ان هذه القصة عن طفولة بطل هي من عمل فنان مثقف . ولكن القيمة الأساسية لهذه الملحمة الايرلندية تكمن في انها سجل لانحطاط الاسلوب الايرلندي ، لما كان يعتورها على الدوام من تنقيح وزيادة . وقد ضم لاطرافها عدد من القصص المساعد مثل القصة التي تروي كيف أن الملحمة تنزلت وحيا على الشاعر في القرن السابع على يد شبح فيرغوس ، وقصة مأساة نويسي وديردر ، وتناهت القصة الأخيرة الى الأزمنة المعاصرة - بشكل رئيسي - عن طريق اعمال سينج (J. m. Synge) ووليام بتلر ييتس (William Butler Yeats) .

وبدأت في الظهور - بتلك الفترة - قصص ذات أصل ، لكنها خارج التقليد المتعارف عليه . وأدخل عنصر غريب على «فتح طروادة» و«قصة الاسكندر» التي ظهرت في اقدم قوائم الملاحم . ولكن العلم الكلاسيكي كان بشكل نسبي ضئيل الأثر ، حتى حانت الفترة التالية . وينطبق هذا الاستدلال على قصص «فن» (Finn) ، ويتجلى فيها أن التقاليد المتوارثة قديمة العهد ، الا ان تطورها الفعلي كان بوقت افلت فيه زمام الأمور من ايدي الشعراء «الفيليدز» اذ تعود أصول حلقة «رجل الغابة المتوحش» (Wild man of the Woods) المقترنة «بسيين كلت» (Suibne Gellt) الى «حلقة ستراث» (Strath ˆCycle) بوقت كان الأدبان الايرلندي والبريذومي (Brythomic) على اتصال فيا بينهما منذ زمن مبكر . وكان هذا المزيج من مادة سير القديسين والملاحم والطبيعة ، وراء اكثر القصص جاذبية في الفترة التي تلت .

ومع ان اللغة الايرلندية استعملت منذ أقدم العصور لأهداف تعليمية فقد اغترفت مادتها بشكل رئيسي من اللاتينية التي ترجع لأقدم العصور ناهضة على قواعد رهبانية وقصص قصيرة ، غرضها اعطاء مثل الايضاح ، وطرائف عن القديسين .

وبشكل رئيسي ، كانت سير القديسين من نسج الخيال داخلتها بازدياد عناصر من القصص الشعبي والملاحم . ودائماً كان التأكيد على المعجزات ، غير أنها تضم الكثير من المعلومات عن الحياة اليومية في ايرلندا القديمة ، وهي بالتالي هامة كوثائق اجتماعية . وكانت الرؤ يا شكلاً هاماً من المؤلفات الدينية ، وأبرزها مثال معروف لدينا هي «رؤ يا أدمنان» (The Vision of Adamnan) وتصور روحه وهي تزايل جسمه فترة ما لتعرِج الى السماء ثم تعرِّج بعدها على جهنم باشراف ملاك . وانحطت سير القديسين والرؤ يا لجنوحها نحو المبالغة ، وكانت النتيجة أن ألفت اعمال تقلدها بشكل ساخر ، وابرزها مثال رؤ يا ماك كونغلين(Aislinge Meic Con Glinn) .

كانت النظريات على الدوام هامة في الحياة الثقافية الايرلندية ، فشاد الشعراء «الفيليدز» بنياناً فخماً من التفكير الأكاديمي ، لم يبق منه سوى نزر يسير ، على حين وصلتنا قصص عن طبيعة الوحي وأصل اللغة وتتضمن توجيهات في أمور العروض والاسلوب ، لكن هذه المعلومات اختلطت في وقت مبكر بما هو لاتيني ، وتكونت مفردات فنية لمعالجة قضايا النحو اللاتيني والايرلندي . وبعدة نصوص قديمة اختطلت مناقشة فن الشاعر بقضايا مرتبطة بوضعه القانوني .

وفي القرن الثاني عشر ، كانت أقدم مجموعات المخطوطات قد نسخت في الاديرة ، وكانت قد حفظت بأمانة رائعة ادباً أقدم منها بعدقرون، في حين نشأ نظام أدبي جديد وسع من الاشكال الشعرية وعقدها عن ذي قبل تعقيداً بالغاً،واستعمل فيها لغة قريبة جداً من عامية تلك الايام . وبعد القرن الثاني عشر أصبحت الأسر

التي توارثت الشعر البطولي قيمة على الأدب الايرلندي ، مستمرة بتلك المهمة حتى تداعى نظام الحكم الغيلي(Gaelic) وكانت بادىء ذي بدء بعيدة عن كل أثر اكليركي، لكن سرعان ما شرعت بارسال اولادها الى الانظمة الاكليركية التي تأسست حديثاً وبشكل خاص النظام الفرنسيسكاني الذي أضحى اعظم القيمين على التقاليد الأدبية .

الشعر اللاحق :

كان الاصلاح الشعري للشعراء البطوليين من نوع «البارذز» (Bards) كاسحاً . إذ طورت اللغة وجعلت لغة العصر . وأنقص عدد البحور التي استعملها الشعراء «الفيليدز» كما جرى تحديد للقافية ، وقللت الزخارف فضاق مدى الشعر ، وانصرف الجزء الاكبر منه للمديح يتوجه به الشاعر الى راعيه او الى الله ، وبعد ان انقطعت صلات الشعراء بمؤسسات الاديرة طفقوا يعتمدون على الرعاية الارستقراطية كي يحافظوا على ما هم عليه من مستوى معاشي رفيع ، ادعوه حقاً من حقوقهم ، ولم يكن الشعراء الbarديون الذين تدربوا على نظم القريض ستة أو سبعة اعوام أقل عجرفة من الشعراء «الفيليدز» الذين حلوا محلهم .

ولا يجد الذوق المعاصر سوى القليل النادر يبعث على الاهتمام ، حتى في أفضل الشعر الباردي الرسمي، وما تحلى بأية قيمة فذاك الذي نظم عرضاً ، وفي مواضيع طارئة . ووصلتنا قصيدتان لأحد اوائل الشعراء الbارديين من العائلة الباردية العظيمة ، أوداليغ (Odalaigh) ، واسمه ميراداخ ألبناخ (Muireadhach Albanach) وتعرض اولاهما دفاعاً مثيراً لقتله جابي ضرائب ، أما الثانية فمرثاة بالغة الروعة رثى بها زوجته الراحلة . ودخلت نغمة جديدة على الشعر الايرلندي بعد الفتح النورماندي هي فيض من دفق شعر الحب الرفيع (البلاطي) . وانتهى المزج بين هذا العنصر الغريب وروح النكتة واللباقة في التعبير ، التي اتصف بها اسلوب الشعر الباردي ، الى تدبيج عدد من القصائد الساحرة . وهناك كذلك نوع جديد من الشعر يعتبر خروجاً على شعر المديح المسمى «الكروزانخت» (Crosanacht) ، وغالباً ما كان يداخل قصائده القصيرة نصوص نثرية فكهة أو نقدية .

النثر اللاحق :

كان معظم النثر الوطني لهذه الفترة يدور حول البطل « فين »(Finn) وعصابته فيان(Fian) . ولا بدع فإن قصصاً عن فن(Finn) واويسن (Oisin) وكاوليت(Caolite) وغيرهم قد حفظت غيباً لقرون خلت . والعمل البارز في هذا المجال مؤلف عنوانه « استجواب الرجال المسنين »(Agallamh na Seanorach) وفيه يظهر أويسن وكاوليت قد نجوا من الموت بعد معركة كابرا (Gabhra) ليعيشا حتى عهد باتريك(Patrick) الذي يرافقه كاوليت بتجواله في ايرلندا مفسراً له أصل أسماء الأمكنة التي يزورانها . ولكن بينما نجد ان ظهور البطل في حلقة « ألستير »(Ulster) كوسيلة لاضفاء صبغة الواقعية على القصة ، نراه في القصص الفينينية (Fenian) يمُدُّ الشعور بالحنين الى مجد تليد . ولم تعالج القصص الفينينية معالجة أدبية كافية ، كما هي الحال بالنسبة للقصص الأقدم منها . وسرعان ما تخلى الشكل القديم عن منزلته لتحل محله القصص النثرية والقصائد الشعرية البطولية القصيرة من نوع « البالاد » ، نظراً لأن الأخيرة اسهل قراءة . ويمكن اعتبارها تمهيداً للأدب الشعبي في ايرلندا بالمقارنة بأدب المحترفين . وتظهر البحور تبسيطاً جذرياً للاصطلاح « الباردي » ، كما حدث تغير واضح في الموضوع عندما انتقل هذا النوع من الأدب الى أيدي الشعب .

وفي هذه الفترة ، استمرت إعادة رواية قصص كانت مرغوبة وشعبية لدى شعراء « الفيليدرز لكنها ـ تدريجياً وبشكل ثابت ـ أخذت تفقد شعبيتها . وأحياناً كانت تنضم اليها عناصر من القصص الشعبي ، كما هي الحال بالسبة للحمة فيرغوس ماك ليتي(Fergus mac Léti) المغرقة في القدم ، والتي ربما أعيدت صياغتها في القرن الرابع عشر لتتضمن قصة شعب من الأقزام يسمى ليبريكونز (Leprechauns) . وأهم من ذلك كله أن سيلاً من الترجمات من اللاتينية والانكليزية أخذ بالتدفق ، وذاعت في ايرلندا منتشرة قصص ماركوبولو (Marcopolo) والسير جون مندفيل وبرسترجون(Prester John)وكاي أوف واروِيك (Guy of warwick) ، بالاضافة الى قصص كلاسيكية أو ارثرية (حلقة الملك آرثر) في صيغتها الوسيطية . وكانت الانظمة الدينية الجديدة مسؤولة عن ترجمة العديد من المؤلفات الروحية والمتعلقة بالعبادات ، كما قام رجال الدين بتجربة رائدة رائعة

عهد ذاك ، وهي معالجة الفلسفة باللغة العامية ، والى جانب ذلك ركام من الكتابة الاصطلاحية ، واهمها جميعا التعليم النحوي والعروضي الذي بُسِّط في مقالات موسعة ومزوددة بالامثلة لما هو صحيح الاستعمال او خطأ . ويبدو أن التعليم الأوروبي حلّ محل التقليد الوطني خلال هذه الفترة .

وفي حوالي القرن الخامس عشر مهدت الطباعة لأن تنشر الادب تداولا في أيدي السواد من الناس في معظم البلاد ، الأوروبية ، اما في ايرلندا فالبرغم من حقيقة ان الايرلندية كانت لغة معظم البلاد ، وان الأدب في ازدهار بتلك الفترة الا ان الايرلنديين لم يسيطروا على المدن ، ولم تكن الطباعة في متناول ايديهم ؛ وظل الأدب بالتالي ارستقراطيا ، وفي عهدة اولئك الذين باستطاعتهم ان يعيلوا الكتّاب ويزودوهم بالرق الغالي الثمن . والنتيجة الحتمية لذلك أن ظل الأدب ضئيل الأثر على جماهير الشعب .

الغيلية الاسكتلندية (Scottish Gaelic) :

ان اقدم وثيقة وصلتنا تتضمن مادة غيلية هي كتاب الغزال (The book of Deer) وفيه نجد أجزاء من الأناجيل باللاتينية كتبت بخط ايرلندي مع صور تزينية ، ترافقها هوامش بالغيلية واللاتينية . أما الكتابات الغيلية فتعود الى القرن الثاني عشر ، لكنها خلو من أية قيمة أدبية . وهناك العديد من المخطوطات الاخرى التي تعود الى تاريخ لاحق وتخص التقليد الايرلندي ـ الاسكتلندي المشترك ، وتشتمل على نسخ من قصص وملاحم بطولية وشعر وكتابات إكليريكية ومواد متنوعة . وأهم هذه المخطوطات جميعا كتابات كاهن لزمور (Book of the Dean of Lismore) وهي أضمومة شعرية جمعت بين عامي ١٥١٢ و١٥٢٦ ، قام بتنسيقها السير جيمس ماك كريغر (Sir James Mac gregor) ، كاهن أبرشية لزمور في مقاطعة أرغيل (Argyllshire) وأخوه دنكان (Duncan) . وتقسم القصائد الى ثلاث مجموعات رئيسية : قصائد نظمها شعراء اسكتلنديون ، وغيرها كتبها مؤلفون ايرلنديون ، والثالثة بطولية قصيرة من نوع « البالاد » تدور حول اوسيان (Ossian) المحارب والكاهن الاسطوري . وكانت هذه أقدم مجموعة شعرية واسعة من القصائد البطولية القصيرة (البالاد) المكتوبة بالغيلية في اسكتلندا أو ايرلندا .. وتمتد القصائد

التي نظمها شعراء اسكتلنديون لأمد يبدأ بحوالي عام ١٣١٠ وينتهي بعام ١٥٢٠ . والشاعر البطولي (البارد) الذي مُثّل أفضل تمثيل هو فيونلاغ رود Fionnlagh) Ruadh) ، وهو شاعر « بارد » لجون (John) رئيس عشيرة غريغور (Gregor) (توفي عام ١٥١٩) . وكان هناك ثلاث قصائد نظمها غيولا كولوم ماك أن اولام (Giolla Coluim mac an Ollaimh) وهو شاعر محترف في بلاط سيد الجزر (Lord of the Isles) . ويبدو في حكم المؤكد أنه فرد من الأسرة « الباردية » المسماة ماك مريك (Mac Mhuirich) التي انجبت طائفة من الشعراء « البارديين » توارثوا القريض حوالي ٥٠٠ عام من القرن الثالث عشر الى الثامن عشر . وقد ندب سقوط « عائلة الجزر » في أواخر القرن الخامس عشر . ولربما كان أشهر الشعراء الآخرين اشخاص مثل كيولا كريوست برولنغيش (Giolla Criost Bruilingeach) وامرأتان هما أتبريك انكين كورسيديل (Aithbhreac Inghean Coirceadail) وايزابلا (Isabella) كونتيسة ارغايل (Argyll) .

أدب ويلز :

الشعر :

امتد أدب ويلز بشكل متواصل من حوالي منتصف القرن السادس حتى يومنا هذا . وباستثناء قطعتين أو ثلاث قصيرة حفظ كل الشعر الذي سبق فترة الفتح النورماندي في مخطوطات من القرن الثاني عشر وما بعده حتى القرن الخامس عشر . وواضح ان جملة جمة من القصائد هي اقدم بكثير من المخطوطات التي حفظتها . وتطورت لغة اهالى ويلز عن البريذونية (Brythonic) الأقدم ، في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي . وهناك اشارات الى شعراء ويلز في «تاريخ بريطانيا» (Historia Britonum) (حوالي ٨٠٠) يعزى قرض الشعر فيها او جمعه الى نينوس (Nennius) من ويلز . ووصلتنا مؤلفات الشاعرين هما : تليسين (Taliesin) وأنرين (Aneirin) ، ونظم الأول القصائد الغنائية من نوع الأود (Ode) في تمجيد الاعمال الحربية لسيده أورين أوف ريغيد (Urien Of Rheged) ، وريغيد هذه مملكة كانت تقع في جنوب غربي اسكتلندا الحالية . وتعزى قصيدة طويلة الى أنرين عنوانها : ايغودوين (Ygododdin) في ذكرى حملة مشؤ ومة أنفذت من الاقليم

حيث توجد ادنبرة الحالية لاحتلال كاتريث(Catraeth) (في بوركشير حالياً) واجلاء السكسون الفاتحين عنها . وان خلفية قصائد هذين الشاعرين ووحيها وتقاليدها الاجتماعية بطولية بشكل نموذجي ، ولغتها بسيطة ومباشرة ، وتعبيرها جزل قوي الحبكة . كانت هذه القصائد وغيرها مما لم يصلنا مقاييس للعصور التي تلت ، وطُور الشعر الجناسي والسجع المنثور في ثنايا هذه القصائد في القرن الثالث عشر الى النظام المعقد من الحروف الصماء وما يقابلها من حروف صوتية ، او السجع وما يقابله من حروف ساكنة ، او ما يعرف باسم «كينكانيد» (Cynghanedd) . كان التقليد البطولي للشعر في ويلز موجوداً واستمر الى ما بعد الانفصال عن شمالي بريطانيا في منتصف القرن السابع . واقدم مثال وصلنا قصيدة ربما كتبها تليسين في مدح كينان كاروين اوف باويس(Cynan Garwyn Of Powys) الذي ذبح ابنه سليف (Selyf) في معركة تشستر(Chester) . وكونت هذه القصيدة تقليداً استمر في جميع المدائح الويلزية الى ان تداعى النظام الباردي في ويلز ، وهذا التقليد هو اعتبار البطل كينان اشجع الشجعان في ميدان القتال ، واكرم الخلق ضيافة في منزله ،والبرية طرا عبيده الذين يتغنون بمديحه .

وتتمثل الفترة بين القرنين السابع والعاشر في قصائد قليلة ،بعثرة نظم معظمها حسب التقليد البطولي وتشمل الاصيلة منها ، وهي قلة ، عناوين مثل «مديح كادولن»(The Eulogy Of Cadwallon) (نظمها آفان فيردغ (Afan Ferddig) ومرثاة لكندلان أب كندروين اوف باويس (Cynddylan ap Cyndrwyn of Powys) نظمها في النصف الأول من القرن السابع ، وقصيدة اكثر سلاماً في جوها بعنوان «مديح تنبي»(The Eulogy Of Tenly) نظمها في حوالي نهاية القرن التاسع شاعر مغمور من جنوبي ويلز . ويمثل الشعر النبوئي القديم قصائد مثل نبوءة بريطانيا الكبرى(The Great Prophecy Of Britain) وهي نداء مثير لأهالي ويلز يحثهم على الاتحاد مع بريطانيين آخرين (بريطانيو الشمال ، وكورنول وبريطاني) ، ومع الايرلنديين واسكندنافيي دبلن ليقاوموا السكسون ، وليرفضوا مطالب ملكهم العظيم الظالمة (ربما كان هذا الملك هو اثلستان (Athelstan) من وسيكس (Wessex) . وحفظ الشعر الذي لم يشمله التقليد «الباردي» في قطع شعرية من

ثلاثة أو أربعة أبيات تسمى «انـكيلنيون» (Englynion) ، وفي حوار بـين مـيردين (Myrddin) وتيلياسين (Tuliesin) ، وفي «أغنية الريح» (The Song Of The Wind) وهي قصيدة أحجية تحتوي على بذرة التقليد والعرف الذي شاع فيما بعد والمعروف بالمقارنة (Dyfaliad) .

ان القصائد التي تقترن باسم ليوراش هن (Llywarch Hen) هي بقايا شعرية لملحمتين على أقل تقدير ألِّفتا في منتصف القرن التاسـع على يد قاص مجهـول من باويس (Powys) كانت مادته الأساسية التقاليد الادبية التي تجمعت حول شخصية ليوراش التاريخية وهيليد (Heledd) اخت كيندلان أب كيندروين (Cynddylan ap Cyndrwyn) وفي هذه المؤلفات (المفقودة) استعمل النثر للوصف والقصص والشعر للحوار والمناجاة ، وزين الشكل العروضي بالجنـاس والسجـع وبـدايات النظـام الشعري المعروف باسم كينكانيد الآنف الذكر . وكان موضـوع الملحمتـين ندب المجد التليد ، وخلفيتهما ذلك النزاع البطولي لسكان باويز (Powys) الويلزيين ضد سكسونيي ميرسيا (Mercia) . وفشلت ملاحم أخرى كثيرة في الحفاظ على بقائها مع انه توجد اجزاء شعـرية محفوظـة في «كتـاب كارماتـين الاسـود» (Black Book Of Carmarthen) (القرن الثاني عشر) هي اجزاء من مناجياة او محاورات في هاتـين الملحمتين الضائعتين . ومثال ذلك حديث بين آرثر وحارس الباب «كلو لويد مايتي كراسب» (Glewlwyd Mighty - grasp) ومناجاة «اسكلولان ذيكلـريك» (Ysgolan The Cleric) ، وأشعار في مدح «كرينت ابن اربين» (Gereint Son Of Erbin) ، وقطعة مما يمكن اعتبارها نسخة قديمة محلية من قصة «دريستـان وإسيلـت» [قصـة «تريستان واسولت» (Drystan and Esyllt) . وتشير مجموعات اخرى من الاشعار الى أنه وجدت يوماً ما ـ اسطـورة «لمردين ويلـت» (Myrddin Wylt) وهـو انسـان متوحش سكناه الغابة ، وقد جن عندما وقف على مشهد معـركة . وتقتـرن هذه الاسطـورة باسمـي سوبـن كيلـت (Suibne Geilt) في ايرلنـدا ، «ولا لوكين» (Lailoken) في اسكتلندا . ويتمتع «ميردين» (عـرف فيما بعـد «بمرلـين» (Merlin) بموهبة النبوءة) . وأصبح الشاعر التاريخي تليسين بدوره شخصية رئيسية في قصة شعبية نفحت شكلاً أدبياً في القرن التاسـع أو العـاشر ، لكنهـا لم تصلنـا الا في مونولوجاتها التي حفظت في كتاب تليسين (The Book Of Taliasin) ، وبنص يعود

الى القرن السادس عشر عنوانه قصة تليسين (Hanes Taliesin) . وكان تليسين ـ كما تصوره المونولوجات ـ الشاعر « الباردي » المعجزة الذي فاق كل انسان في معرفته الماضي والحاضر والمستقبل ، وهكذا اعتبر بدوره نبيا ، شأنه في ذلك شأن « ميريدين » (Myrddin) .

كانت الطبيعة ـ وهي مصدر للتشابيه في الشعر البطولي ، وللرمز في البقايا الشعرية للملاحم احيانا ـ موضوعا لأغنية قائمة بذاتها . وبشكل عام كانت معالجة الموضوع رائعة لموضوعيتها الحساسة ، وجودة شكلها الأدبي بألوانه وأصواته . وتعبيره الذي غالبا ما كان موجزاً مكثفاً وحكيماً . وكثيراً ما داخل شعر الطبيعة الشعر الحكمي الذي تألف من مقولات حكمية عن الانسان والطبيعة جواً ومادة وشكلاً . وعلى الأرجح فان معظم الشعر الحكمي وشعر الطبيعة نظما في القرنين العاشر والحادي عشر ، وجادت بهما قرائح شعراء غير « الбارديين » المحترفين . وفي حوالي نهاية الفترة التي سبقت الحكم النورماندي تجلّ الاطلاع في بعض القصائد ذات المواضيع الدينية والانجيلية وغيرها على أساطير غير محلية . لكن الشعر الملحمي انقرض بالتدريج ، لأن النثر أصبح الوسيلة المتعارف عليها لرواية القصص .

وبترسيخ دعائم امارة « كوينيد » (Gwynedd) تحت حكم كرفود أب كينان (Gruffudd ap Cynan) (١٠٥٤ ـ ١١٣٧) ، نشأ في البلاد شعر بلاطي نظمه شعراء الامراء المسمون كوكينفرد (Gogynefeirdd) الذين اكملوا وطوروا تقاليد اسلافهم المسمين كينغورد (Cynfeirdd) . وحسب النظام الباردي قسم الشعراء (البارد) الى مراتب . فهناك سيد الغناء (Pencerdd) ، وكان موظفاً خطيراً في البلاط ، من واجبه ان يتغنى بمديح سيده وعائلته وتمجيد الله والقديسين ، وكان محظوراً عليه التغني بالحب والطبيعة ، ولذا فمجال اختياره للاغنية محدد . ويليه مرتبةً شاعر محاربي الملك (Bardd teulu) ودوره مماثل لدور سيد الغناء ، ولكن للحاشية . وكان هو الآخر مقيداً بمواضيع معينة ، انما سمح له ان يتغنى بالحب والطبيعة وبمواضيع أخرى قد تعجب السيدات ولا يتذوقها المحاربون . أما الطبقة الثالثة فطبقة المغنين الشعبيين المسمَّين « كردوريون » (Cerddorion) الذين حددت

مواضيعهم ، إلا أنه سمح لهم ببسط لسانهم بذاء وهجاء ، كما كانوا رواة « للقصص الشفهية »(Cyfarwddyd) .

وعبر هذا التقسيم يتقاطع تقسيم آخر يستند الى مبدأ مختلف تماما ، وهو تصنيف الشعراء الบارديين حسب مواهبهم . وهو تصنيف تعليمي ، وظلت باقية إحدى ملامحه الرئيسية ـ وهي العلاقة بين الاستاذ وتلميذه ـ حتى الفترة الحديثة ، وانتهت عهدَ الملك هنري الرابع الى اقامة مجمع للشعراء البارديين لمنح شهادات الكفاءة ، ولمنع زمرة الأنظمة الأدنى من التكاثر والانسياق نحو التسول ، واسفرت نتائج نظام باردي عن الميل الجارف نحو أدب محافظ ، اذ استعمل معظم شعراء القرن الثالث عشر ـ بشكل واع ، اسلوبا تقليديا قديما في مفرداته ونحوه واصطلاحاته ، ومغلقاً دون أي انسان غير مثقف ثقافة شعرية .

وغالباً ما كانت « الباردية » وفقاً على أسر بعينها ، وأول الأسماء من الفترة الجديدة اسماء ميلر (Meilyr) وابنه كوالكمي (Gwalchmai) وحفيده ميلر أب كوالكمي . وقد ارتبطوا جميعا ببلاط كونيد (Gwynedd) في ابرفرو (Aberffraw) . وانفرد كوالكمي في « مدح أوين »(Praise of Owain) بخاصة ميزته عن غيره من شعراء الامراء ، وهي وصفه الماء سواء أكان نهراً أم بحراً . واستعمل الشعراء «البارديون» جميعاً لهذه الفترة المادة ذاتها والشكل نفسه ، وكانت الأغنية واشكالها محددة لهم . ولم يكن مستوى الاجادة فيها مرتبطاً بعمق التفكير ، بل بمهارة الأداء ؛ ولم تهدف بالتالي الى تفسير الحياة بل الى تزيينها . وبرز شاعران اميران هما أوين سيفيليسوغ اوف باويس (Owain Cyfeiliog of Powys) وهيول أب أوين أوف كونيد (Hywel ab Owain of Gwynedd) من الشعراء « البارديين » المعاصرين . وأشهر مؤلف لسيفيليوغ : « هيرلاس » أو قرن الشرب الرمادي الطويل »(Hirlas) وفيه يصف محاربيه ، وهم يمرحون بعد غارة ناجحة . وكان خروج هيول أب أوين عن العرف اكثر روعة ، اذ تجلى للمرة الاولى في الأدب الويلزي حب الوطن والجمال في مفهومهما الحديث ، وفيه أيقظت الأرض والبحر والنساء واللغة الويلزية ـ وتنطق بالحديث بها السيدة محبوبته بنبرة مثقفة ـ شعور الروعة والاستغراب . وقد تناوب شعراء الامراء النظم موزعا بين المديح (moliant)

والرثاء(Marwnad) . وانتهت الفترة بأشهر جميع المراثي التي انشدهـا كرفـود أب ايريناد كوش (Gruffudd ab yryand Coch) بعد وفاة لويلن أب كرفودLiywelyn ap) (Gruffud عام ١٢٨٢ وهو آخر أمير وطني لويلز .

وبشكل عام ، كان الشعر الديني لشعراء الامراء أبسط أسلوباً من شعري الرثـاء والمديح . وكان احـد النماذج المقـررة الثابتـة هو « اغنية فراش الموت » (Maruysgafn) ، وفيها يعترف الشاعر بخطاياه ، ويصلي طلبـا للغفـران ، وهـو يشعر بدنو أجله . أما القصائـد الـدينية الأخـرى فكانـت بتمجيد الله والثالـوث المقدس ومدح القديسين ، ووصف عذاب جهنم أو ميلاد السيد المسيح . وتمثـل التوسع التدريجي لأفق الشعراء « الBarديين » .

وبزوال الأمراء وأبهتهم زالت الأشكال والتقاليد الأقدم للشعر الويلـزي اذ عجز المستمعون الذين كانوا يستطيعون فهـم القطعـة الشعـرية الطويلـة المعقـدة والمتشابكة ذات القافية الواحدة(awdl) عن أن يجدوا الوسيلة لأن يثقفوا أنفسهـم لفهمها ، فقد بقيت البحور العروضية القديمة كما كانت ، الا ان اللغة اصبحت أسهل . ويبدو أن الشعراء في السنوات ما بين الفتح الانكليزي (١٢٨٢) وظهور دفيد أب كويليم(Dafydd ap Gwilym) الـذي ازدهـرت اعمالـه حوالي ١٣٤٠ - ١٣٧٠ قد رجعوا الى نمط من الشعر القديم ، أو أنهم تأثروا بأنكار جديدة من بلاد اخرى ، وبينما كان الهدف في الفترة السابقة هو الاتقان باللجوء الى الدقة القديمة ، والتلميح الى أشكال أقدم ، أخذ الشعراء الجدد يستعملون اللون والشكل الى درجة لم يعهدها الشعر الويلزي ولن يصل اليها في المستقبل . ومن الأسماء الشهيرة في القرن الرابع عشر كانت اسماء كرفورد أب مريدد(Gruffud ap Maredudd) وكرفود أب دافيد(Gruffudd ap Dafydd) وكزنودين(Casnodyn) .

نقل فتح ادوار الأول لويلز رعاية شعر البلاط في كوينيد(Gwynedd) وباويس (Powys) من الأمير الى الارستقراطية المالكة للاراضي ، وبهذا خسر الشاعر الرئيسي (Pencerdd) تفوقه على الطبقات « الباردية » الأدنى التي لم يعد شعراؤها مقيدين باختيار الاسلوب والمضمون ، والذين - خصوصا في جنوبي ويلز (حيث استقـر الفتح النورماندي لمدة قرن كامل قبل فتح كونييد)(Gwynedd) - اصبحوا اكثر

صراحة ، وأعلى صوتاً عندما بدأت تتدنى الأغنية « الباردية » . واستقر الشعراء الجدد في الجنوب تماماً عندما أخذت مؤلفاتهم تحفظ . وأشهرهم جميعاً دافيد أب كويليم(Dafydd ap Gwilym) المعاصر لتشوسر ، والذي ألف في عهده الأول شعراً حسب تقليدين متغايرين تماماً . اذ نظم قصائد(awdlau) بشعر جناسي متشدد ذي قافية واحدة حسب التقاليد الأدبية لشعراء الأمراء اللاحقين ، وقرض من ناحية اخرى شعراً أكثر انطلاقا(Cywyddau) بمزدوجات يتألف كل بيت منها من سبع تفعيلات قفيت الأخيرة فيها ، وتناوبت التشديد وعدمه . لكن التقدم الرئيسي الذي انجزه تجلى بالبساطة في لغة شعره، وبذا قاد من خلفه . وهكذا أصبح الاسلوب القديم بائداً، وتأسست المقاييس الحديثة للشعر الويلزي . وكانت مادة شعره بدورها جديدة ، ويبدو أنه استعار بمواضيعه الكثير من الشعراء والمغنين المتجولين الفرنسيين . وكتب بعض الشعر الغزلي ، لكنه اشتهر بشعر الطبيعة الوصفي الذي تضمنته قصائد الحب هذه .

كان أثر دافيد مزدوجا ، اذ استقر الشعر الحر (Cywydd) بصفته الشكل الرائد ، واعتُرِفَ بالمواضيع الجديدة لمناسبتها للشعر ، وذهب أحد معاصريه وهو كرفود أب أدا(Gruffudd ab Adda) أبعد مما ذهب اليه دافيد في اتجاه مفهوم حديث للطبيعة . والمعاصر الثاني هو ايولوكوش(Iolo Goch) الذي تنضح قصيدته عن الفلاح بآثار من الافكار الانكليزية ، كما تتجلى في بيرزبلاومان(Piers Plowman) . ونظم لولين غوش أمهيروغ هن(Lluwelyn Goch Amheurug Hen) بعض قصائده الأولى حسب طريقة شعراء الأمراء ، الا ان « مرثاته للوكولويد » (Elegy to Leucu Llwyd) جمعت بنجاح بين التقليد الويلزي للمرثاة والشكل المستورد للسيرينادة أو شعر النجوى . وهناك شعراء آخرون معاصرون تقريباً لدافيد أمثال كرفود لويد أب دافيد(Gruffudd Liwyd ab Dafydd) الذي قرض قصيدتين رائعتين لأوين كلاندور(Owen Glendower) البطل الثائر ولريس كوش اريري(Rhys Goch Eryri) الذي يذكر اليوم بشكل رئيسي لخلافه مع لويلين أب مول(Llywelyn ab Moel) وصيون سنت(Siôn Cent) حول طبيعة الشعر الصحيح . والشاعر الأخير شخصية محيرة تعزى اليه قصائد شبه سياسية على شكل نبوءات ، وعدد من الأغاني ينعي فيها فساد العالم .

وفي القرن الخامس عشر نُقِّي الشعر المتحرر من الشوائب . ومع ان دافيد نانمور (Dafydd Nanmor) أقل شأناً من معظم معاصري دافيد آن كويليم بطريقة معالجة مواضيعه وفي الخيال ، الا أنه فذ بتمكنه من الشعر المتحرر . وطور لويس كلين كوتي (Lewis Glyn Cothi) وكيتور كلين (Guto'r Glyn) الشعر المتحرر . ونلمح في مؤلفاتهما إدراكاً حقيقياً للقومية لدى أهالي ويلز ، وربما للمرة الأولى .

النثر :

كانت أقدم الأمثلة على النثر الويلزي ذات طبيعة نفعية : ملاحظات وشروح كلمات لنصوص لاتينية تتعلق بالاوزان والمقاييس ، وسجل اتفاقية ، وقائمة بعائدات الكنيسة ، وتعليق حول مشكلة في علم الفلك . وقبل منتصف القرن العاشر بقليل قام هول دا (Howel Dda) ، كما تقول التقاليد الأدبية ، بتصنيف القوانين الويلزية . وأقدم نسخة وصلتنا هي باللاتينية، بيد ان النسخة الويلزية في « كتاب شيرك الاسود » (The Black Of Chirk) حوالي ١٢٠٠ م قد نسخت عن أصل أقدم .

انعكست فضائل اسلوب النصوص القانونية في استعمال أدبي اكثر وعياً للنثر على أيدي القصاصين (Cyfarwyddiaid) الذين استظهروا القصص الشفهية المكونة من مزيج من الأساطير والقصص الشعبي والعناصر البطولية . وسجل بعض هذا كتابة . وأشهر مجموعة هي ما يعرف باسم «مابينوجيون» (Mabinogion) المحفوظة في «كتاب ريدريك الابيض» (The White Book Of Rhydderch) (حوالي ١٣٠٠ الى ١٣٢٥ و«كتاب هرجست الاحمر» (The Red Book Of Hergest) (حوالي ١٣٧٥ - ١٤٢٥) . وتتألف «المابينوجيون» من إحدى عشرة قصة جميعها مجهولة المؤلف ، وهي كتابات أدبية واعية تستند الى مادة شفهية أقدم . واعظمها أربع هي ذات صلة فيما بينها واسمها «الاغصان الاربعة للمابينوجي» (The Four Branches Of The Mabinogi) ألفها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كاتب من ديفيد (Dyfed) . ويبدو ان مؤلف كلويش وألوين (Culhwch And Olwen) (حوالي ١١٠٠م) الذي أعتمد المادة الاساسية نفسها التي تتكون منها «الاغصان الاربعة» ظل أقرب الى الاصل الشفهي ، الا ان اسلوبه الركيك كان اشارة نذير للبيان الذي تدنى مستواه فيما بعد والذي كان تقليداً ساخراً للمابينوجيين . وأظهرت ثلاث من

قصص المابينوجيين ـ وهـي «اون ولـونيد او سيدة النبـع» (Owein And Luned) و «جيرانت وإنيد» (Geraint And Enid) «وبيريدور ، ابن افروغ» (Perdur Son Of Efrawg) ـ الانتقـال من قصص وطنية صرفـة الى تلك التـي ألفـت تحـت التأثـير النورماندي . وكانت المادة الرئيسية وطنية بشكل رئيسي ، لكن كان الى جانب ذلك أثر فرنسي في بعض الاسماء والتقاليد الاجتماعية والبيئـة . وتـوازي هذه القصص قصص « ايفان وارك » و« بريسفـال » لكريتـان دتـروي . ومـا زالـت العلاقـة الصحيحة بين القصص الويلزية والفرنسية موضوع نقاش . وتبدت هذه القصص بسفسطتها البالغة عن الانحدار دون مستوى القصص الوطنية ، بما فيها من اسلوب مباشر وسيطرة واختيار منظم للمادة .

لعبت ترجمات عديدة من اللاتينية والفرنسية دوراً في تطوير نثر يستطيع ان يعبر عن نواح في الفكر والنشاطات الانسـانية لم تتطـرق اليهـا القصص ابـداً . ويرجع تاريخ معظمها الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ولربما كتبها الرهبان ، ومن أشهرها ترجمات من كتاب جفري اوف مونمث اللاتيني تحت عنـوان «تـاريخ ملوك بريطانيا» (Historia Regum Britaniae) ومـن كتـاب «البحـث عن الـكأس المقدسة» (Queste del Saint Graal) المكتوب بالفرنسية . وكان نثرهم بشـكل عام تجريبياً ومتأثراً بدرجات متفاوتة بلغة وأسلوب الاصول التي ترجم عنها ، لكنه في أحسن اشكاله لم يتدن الى الاسوأ من نثر المقالات القانونية والقصص الـوطنية . ونستطيع القول بايجاز بأن تطور النثر الوسيطي اعاقه عن الازدهار ذلك النقص في التحالف بين ورثة التقليد الادبي الويلزي ، وأولئك الذين استثمروا العلم الاوسع لغربي اوروبا . وكان التنبوء بتكوين نثر قادر على التعبير عن سائر اوجـه الفـكر والنشاط في حوالي اواسط القرن السـادس عشر افصاحـاً عن انتفاضـات النهضـة والاصلاح ، كما أرسى أسسه الانسانيون الانجيليون منهم والكاثوليك .

أدب كورنوول (Cornish) :

ان اقدم البقايا من كورنوول هي عبارة عن اسماء أعلام في اناجيل «بودمـن» (Bodmin) وفي كتاب القيامة (Domesday Book) ، وعن شروح كلمات لنصوص

لاتينية تعود الى القرن العاشر ، ومفردات من القرن الثاني عشر تستند الى شروح الفيريك (Alfric) لكلمات لاتينية بالانكلوسكسونية . وكان اول نص أدبي مأساوية (درامية) عبارة عن قطعة كورنوولية وسطى (Middle Cornish) ذات طبيعة (درامية) (حوالي ١٤٠٠ م) وفيها تقدم فتاة لتكون زوجة وتمتدح لفضائلها ويقدم لها النصح لتحسن السلوك والتصرف . أما « آلام السيد المسيح »(Pascon Agan Arluth) فقصيدة طويلة من القرن الخامس عشر وذات قيمة أدبية ضئيلة .

إن أهم الآثار الأدبية الكورنولية هي سلسلة من المؤلفات الدرامية تتعلق بمسرحية المعجزات والمسرحية الاخلاقية ، وتتضمن ثلاثية من القرن الثالث عشر تدعى أوردياليا(Ordinalia) . ويروي الجزء الاول منها واسمه أصل الكون (Oriso Mundi) الحوادث الرئيسية للتاريخ المقدس . ويروي القسم الثاني «آلام المسيح»(Passio Domini) قصة المسيح بدءاً من الاغراء حتى الصلب . وأما القسم الثالث وعنوانه «بعث المسيح»(Ressurectio Domini) فينتهي بالبعث والصعود . والحوار بشكل عام ممل ، وهناك القليل من الخلق الدرامي باستثناء الفصول البذيئة الفكاهة . الا ان حجم المسرحية اكبر من أية آثار أدبية كورنولية . وهناك مسرحية مشابهة في شكلها وفنها ، لكنها اكثر تنوعاً ، ألفها عام ١٥٠٤م دومينوس هادتون (Dominus Hadton) وتروي سيرة مريازك(Meriasek) وهو قديس راع للادب من كامبورن(Camborne) . وهناك كذلك مسرحية كثيرة الاقتباس هي «خلق العالم» (Gwreans an Bys)،وتشمل الآثار الأدبية اللاحقة قصة شعبية وبضع اغان وترجمات لنصوص من الكتاب المقدس ، وعدة نسخ من «عقيدة الرسل»(Apostles Creed) .

الفَصْل السَّابع

الأدَب الألماني الوَسيط

الالمانية العالية القديمة :

رغم ان القوطية كانت أقدم لغة جرمانية مسجلة وهي اللغة الالمانية الشرقية الوحيدة التي لدينا معلومات موثوقة عنها ـ بيد انه لم تصلنا سوى قطع من ترجمة للكتاب المقدس قام بها اسقف قوطي هو اولفيلاس (Ulfilas) (حوالي ٣١١ ـ ٣٨٣م) . وهذه الترجمة ذات أهمية لغوية أكثر منها أدبية .

يرجع تاريخ أول سجلات مكتوبة للقبائل الالمانية الغربية الى النصف الثاني من القرن الثامن . وبكل الاحوال ، هناك دليل على أدب أقدم نقل شفوياً ، يتألف من أغان قصيرة تمجد منجزات أبطال مشهورين (Heldenlieder) وترانيم متعلقة بطقوس دينية وثنية واغاني معارك وندب للموتى . ومع ان هذه جميعاً غير مدونة فقد كونت مادتها القاعدة لملاحم بطولية شعبية لاحقة . وكما هي الحال في المناطق الاخرى فان أول نصوص ذات قيمة كانت من نتاج المحاولات لنشر المسيحية . وكانت الترجمات من اللاتينية كثيرة . ومثالنا تلك النسخة الالمانية (حوالي ٨٠٠م) لكتاب حول العقيدة الكاثوليكية (De Fide Catholica) قام بكتابته ايسودور الاشبيلي (Isodor Of Seville) حوالي (٥٧٠ ـ ٦٣٦م) . وهو رجل كنيسة وعالم اسباني . وهناك أيضاً ترجمة كتاب بيذيوس «مواساة الفلسفة» التي تمت حوالي عام ١٠٠٠م على يد نوتكر لابيو (Notkerlabio) من الدير السويسري في سينت كول (St. Gall) .

أما المؤلفات الشعرية القليلة التي وصلتنا فأكثر أصالة ، رغم انها دينية وتعليمية في موضوعها . وأكبرها طراً كتاب الاناجيل (Evangel'enbuch) حوالي (٨٧٠م) لراهب اسمه **اوتفريد أوف فايسينبورغ** (Otfrid Of Weissenburg) وفيه

يعرض حياة المسيح بصيغة تضارع صيغة الاغاني البطولية . ورغم أن بعض النصوص التعليمية تشل من حركة العقيدة ، فهي هامة لانها اول عمل الماني قصد به ان يحل قافية الشعر اللاتيني الوسيطي محل الجناس في التقاليد الادبية الالمانية .

ورغم معارضة الكنيسة الاهتمام بأي شيء وثني فقد وصلتنا بعض المؤلفات الوثنية مثل «زوبرسبروخ»(Zaubersprüche) وهو عبارة عن تعاويذ سحرية لحماية الحيوانات الاليفة او للاستعمال ضد الزكام الى غير ذلك من الاهتمامات اليومية . أما «أغنية هيلدا براند»(Hildebrand slied) (حوالي ٨٠٠م) التي وصلتنا أجزاء منها ، والتي تصف وصفاً واقعياً مبارزة بين ابن وأبيه فأكثر مدعاة للاهتمام . وهي هامة لانها الاثر الوحيد من الشعر البطولي باللغة الالمانية العالية . وخلال هذه الفترة كان استعمال العامية الدارجة كوسيلة ادبية متقطعاً لان العلماء استمروا في تفضيل اللغة اللاتينية . وثبطت حركة الاصلاح الداعية الى الزهد - والتي انتشرت من دير كلوني (Cluny) بفرنسا في طول أوروبا الغربية وعرضها في النصف الاول من القرن العاشر - ثبطت من عزيمة رجال الدين وصرفتهم عن الكتابة للعلمانيين . وهكذا كان هناك مؤلفات أقل من الادب المسجل باللغة العامية طوال قرن تقريباً . وفي الوقت الذي استعملت العامية ثانية كانت قد حدثت تغيرات هامة في اللغة ، ناهيك عن ان الاتجاه الاكليريكي التعليمي فسح المجال للاقطاعية البلاطية .

الالمانية العالية الوسطى :

أشارت التغيرات المصاحبة لهذه الحوادث الى الانتقال من الالمانية العالية القديمة الى الالمانية العالية الوسطى . والنقطة الهامة هي ان الفارس حل محل رجل الكنيسة كشاعر ، الا ان الاعمال الادبية السابقة كانت ما تزال تعكس التقاليد الكنسية ، ولكننا نجد في قصيدة «هنريخ فون ملك»(Heinrich Von Melk) وعنوانها «تذكر الموت» (حوالي ١١٦٠م)(Von des Todes Gehugede) ان حب الفارس الاقطاعي للمبارزة قد توسل لاعطاء المثل على طبيعة الحياة العابرة . وكان الشكلان الادبيان السائدان في هذا الوقت هما أغنية الحب(Minnesang) والملحمة . وبما ان الشعراء اشخاص نبلاء بشكل رئيسي ، فقد عبروا عن حبهم حسب تقليد البلاط أو أنهم قصوا قصصاً تقليدية عن الحب والقتال .

وكون «الشعراء المتجولون»(Spielmann) ملاحم ذات تقاليد محلية ورفعوا عقائرهم بانشاد أغان بطولية مدارها اساطير شعبية ، وشرعوا يصلون القصص البطولية بعضها برقاب البعض الآخر ليكونوا منها قصصاً ملحمية أطول . ولربما كان أقدم مؤلف من هذا النوع ملحمة «الملك روذر»(King Rother) (حوالي ١١٦٠م وهي قصة يتكرر فيها خطف العرائس العنيف . وغالباً ما مهد الشعراء بتعليقات ممتعة ومسلية احياناً على حياة عصرهم . ولقد عالجت ملحمة «سلمان وموررولف» (Salman und Morolof) مادار من نزاع في المجتمعات المسيحية والوثنية ، كما عكست اهتمامات الحروب الصليبية ، التي تجلت كذلك بوضوح في اورندل(Orendel) وسانكت اوزوالد(Sankt Osuwald) . وبظهور «الكساندرليد» (Alexanderlied) حوالي ١١٣٠م ـ وهي ترجمة بتصرف لمؤلف فرنسي حمل نفس الاسم ـ طفق الشعراء الالمان يقتبسون من الملاحم الفرنسية الناجحة .

وأظهر الشاعر الشعبي النمساوي المتجول والمجهول الذي كتب ملحمة أغنية النبلنغز»(Nibelunqenlied) مهارة درامية عظمى وكفاءة شاعرية في سرد قصة جيدة الحبك عن البطل سيجفريد(Sigfried) وتطوي في تضاعيفها اغان من اساطير بطولية حول حوادث تاريخية ، وملحمة تتحدث عن تدمير البرغنديين او النبلنغز (Nibelungs) عام ٤٣٧ . أما ملحمة «كودرن»(Gudrun) التي الفت حوالي عام ١٢١٠ فتركز على ثبات البطلة ممتنعة عن الخطف ، بينما نجد ان مجموعة عنوانها «كتاب الابطال»(Das Heldenbuch) تشمل على رومانسيات حول تيودورك (Theodoric) العظيم وهو بطل شعبي من جنوبي المانيا .

ملاحم البلاط : (Court Epics)

كانت الملاحم البطولية الوطنية الشائعة بشكل رئيسي في الجنوب ، يوازيها في الغرب تطور لملاحم البلاط ، بالاستناد الى نماذج فرنسية . وعالج اول عمل بارز كتبه ايلهارت فون اوبرغ(Eilhart von Oberg) الموضوع الآرثري «لترستانت وايسولد»(Tristant und Isolde) حوالي ١١٧٠م ـ ومع ان هاينرخ فون فيلدكه الهولندي(Heinrich von Veldeke) (او هنرك فان فلدكه) ادعى لنفسه تأسيس

ملحمة البلاط بملحمته الانيادة(Aeneid) (حوالي ١١٧٥ ـ ٨٦ التي أعتمدت مصدراً فرنسياً الا ان أشهر ثلاثة شعراء لملحمة البلاط هم هارتمان فون او(Hartmann von Aue) وفولفرام فون اسكنباخ (Wolfram von Eschenbach) وكوتفرد فون ستراسبورغ ، (Gottfried von Strassburg) وبشكل عام ترجع مؤلفاتهم بتاريخها الى ما بين ١١٦٠ و١٢١٠ . وتهتم بفضائل الفروسية ، وهي الاعتدال والاخلاص والثبات وواجب خدمة الاسياد والاله وكان هارتمان قصاصاً فناناً سلس الاسلوب عالج في قصيدتيه «ارك»(Erec) «وتواين»(Twein) ـ اللتين بنيتا على الرومانسيات الفرنسية التي كتبها كريتان دوتروي ـ الصراع ما بين الرغبات الفردية والمسؤولية العامة التي كان الفارس يضطلع بها في القرون الوسطى ، وقدم في قصيدتيه «غريغوريوس»(Gregorious) «وهنريخ المسكين»(Der Arme Heinrich) صورة واضحة عن علاقة الانسان بالاله . اما ملحمة «بارزيفال» الشهيرة(Parzival) لمؤلفها فولفرام فون اسكنباخ (Wolfram von Eschenbach) فزاخرة بأخيلة بالغة الاصالة في معالجة طموح ماهرة لموضوع نشدان الانسان الحقيقة بعلاقته مع الله ، وفيها نرى بطل الملحمة برزيفال يتقدم نحو النضج ليصبح في النهاية قيماً على الكأس المقدسة . اما كوتفردفون ستراسبورغ فقد اتخذ مصدره «توماس أوف بريتاني» (Thomas Of Brittany) في كتابة ملحمة «ترستان»(Tristan) ، ولما كان حريصاً على اتقان اشكاله الادبية وصقل فنه ، لهذا كان أقل اهتماماً بالاعتبارات الدنيوية الاخرى ، مولياً الاولوية للحب المثالي في هذه الحياة .

ولم يستطع شعراء الملحمة اللاحقون ان يبلغوا مستوى هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وان اكثر المنافسون . ولقد تبعت ملحمة هنريخ فون ترلن(Heinrich Von Turlin) المسماة ، «التاج»(Din Krone) ملاحم هارتمان ، الا انها كانت بالغة الطول ، سقيمة العبارة . ورغم وفرة ما كتبه رودلف فون امز(Rudolf von Ems) وكونراد فون ورزبرغ (Konrad von Wurzburg) أخذت الملحمة بالذبول التدريجي . ومع ان «مئير هلمبرخت»(Meier Helmbrecht) حوالي ١٢٥٠م التي كتبها فيرنر البستاني(Wernher The Gardener) قد جلت بشكل مؤثر صورة فوضى المجتمع الاقطاعي المتفسخ وعنفه الا ان المستوى الاجتماعي لموضوعها ومعالجتها الواقعية كانا نذيري ايذان بنهاية أدب البلاط . وفي منتصف القرن الخامس عشر

نستروح روحاً جديدة نقدية وتعليمية لواقعية الطبقة الوسطى تتقدم للإمساك بأزمة الامور .

القصيدة الغنائية البلاطية (Courtly Lyric) :

لقد أخذت اغاني الحب البلاطية (Minnesang) ـ وهي الشكل الأدبي الثاني الهام ـ مضمونها وأشكالها الشعرية عن الانماط الفرنسية والبروفنسالية شأنها في ذلك شأن الملحمة البلاطية ، وكان شعراؤها من نبلاء المراتب الدنيا ، وغالباً ما أصبحوا شعراء البلاط للطبقة النبيلة الاعلى او راحوا يضربون في الارض كشعراء متجولين في المانيا والنمسا وسويسرا . وسجل الكثير من القصائد التي تمثل «ربيع اغاني الحب» (Minnesangs Fruhling) في مجموعة مخطوطات تعود الى أوائل القرن الرابع عشر واسمها «كودكس مانيس» (Codex Manesse) . وتعزى الى كاتب سويسري المولد اسمه روديجر مانيس (Rudiger Manesse) (١٢٢٤ ـ ١٣٠٤) . وفي حوالي ١١٩٠م أصبح رينمار فون هاكينو (Reinmar von Hagenau) شاعر البلاط لدوقات النمسا بعد ان علم فولتر فون در فوكلوايد (Walther von der Vogelweide) في فيينا . وكانت قصائد فولتر الغنائية التي مزجت الاسلوب البلاطي الذي أشتهر به ، بشعر الحب الشعبي والطبيعي ابدع مجموعة قصائد غنائية المانية وسيطية . وانعكس أثر هذا الشاعر على الشعراء الآخرين في النمسة والتيرول ، . عالجت قصائده الشهيرة المسماة «سبروخ» (Spruche) ـ وهي قصائد اخلاقية وسياسية ـ علاقته بمختلف رعاة الادب ، والنزاع بين الامبراطورية والبابوية ، والقيمة الروحية للحرب والحج . واستمر الاهتمام بالهجاء والحكمة الدنيوية في كتابات نايد هارت فون رونتال البافاري (Neidhart von Reuenthl) كما انعكس في شعبية كتاب فرايدانك (Freidank) المسمى «الاعتدال» (Bescheidenheit) حوالي ١٢٣٠ ، وكتاب هوغوفون ترمبرغ (Hugo von Trimberg) المسمى «الراكض» (Renner) .

النثر والمسرحية :

كان نثر الادب الالماني الوسيط أقل غزارة من الشعر ، وكانت مواعظ برتولد فون ربجنسبرغ (Brethold von Regensburg) اعمالاً عامية فصيحة ، كما خدمت

كتابات مكثيلد فون مكدبيرغ (Mechthild von Magdeburg) كمثال مبكر للصوفية التي كانت لها أهميتها في القرن الرابع عشر . وأشار كتاب يوهان فون تبل (Johan von Tepl) «حـراث من بوهيميا» (Ackermann aus Bohmen) حوالي ١٤٠٠م الى بداية التقليد الانساني في المانيا وجودة نثر لاتباري حتى انبلاج عصر الاصـلاح . ومن الاعمال غير الدينية البارزة «تاريخ العالم» (Weltchronik) لمؤلف سكسوني ، «ومرآة سكسونيا» (Sachsenspiegel) عام ١٢٢٥ . ويمثل اولهما الكتابـات الخيالية التاريخية وثانيهما الكتابات القانونية .

وأدت الاعمال المبكرة في المسرحية ـ وبخاصة فصول ومشاهد من «مسرحية ميوري لعيد الفصـح» (Easter Play Of Muri) «ومسرحية القـديس كول للآلام» حوالي ١٣٣٠م (St. Gall Passion Play) ـ الى ازدياد عدد المسرحيات الاخـلاقية ومسرحيات المعجزات الشعبية التي تؤلف جزءاً من حملة الكنيسة للتعليم وارشـاد الانظمة الدينية الادنى في السلم الكهنوتي . وفي بداية القرن الخامس عشر ظهرت مسرحيات شعبية لتسلية العلمانيين في أطر كرنفالية . وازدادت شعبية الهزليات من نوع «الفارس» حتى نالت الاحترام على ايدي هانزساخس (Hans Sachs) .

الفَصْل الثّامِن

الأدَب الهولندي الوَسيط

لم يبق من سكان الاراضي المنخفضة الاقدمين سوى الفريزيين (Frisians) ومع ان مقاطعة فريزلاند الحديثة جزء صغير من الاراضي التي وقعت تحت سيطرتهم ، فقد احتفظوا بلغتهم المنفصلة وبأدبهم الخاص بهم منذ أيام بيرنليف (Bernlef) الذي عاش في القرن الثامن ، اما بقية الاراضي المنخفضة فقد اكتسحها السكسون والفرنجة واستعمروها في الفترة الممتدة ما بين القرنين الثالث والتاسع ، وحصيلة ذلك ثقافة فرنجية بشكل كاسح في الجنوب ، وثقافة ولغة سكسونية او مزيج من السكسونية والفرنجية معاً فيما عدا ذلك .

وتحت حكم الفرنجة ازدهر الجنوب الاقل بداوة اكثر مما ازدهر الشمال . وفي الجنوب تطورت ببادىء الامر لغة أدبية ، لكن بالتدريج ، وذلك بسبب الاختلافات البينة بين لهجات سكان الشرق والوسط والغرب ، او ما يدعى فلاندرز ذات السمات التي تربط لهجات الساحل باللغة الانكليزية القديمة . وفي اوائل القرون الوسطى ، عندما كانت اللاتينية والاغاني الشعبية وبعدها الفرنسية لغة المتعلمين ، اقتصرت العامية بشكل رئيسي على الاساطير والاغاني الشعبية الشفوية غير المدونة . وأقدم نص يحتوي على الهولندية القديمة قطع من المزامير العائدة الى وتشندونك (Wachtendonk) .

الشعر والنثر : كانت مؤلفات أقدم شاعر معروف واسمه هنريك فان فلديك (Henric van Veldeke) نموذجاً للحماسة الدينية ، للعصر الذي انبعث من مراكز التعليم الفرنسية ، وبالاضافة الى ترجمة لانيادة فيرجيل عام ١١٨٥ ، صبغت بصبغة فروسية رومانس العصور الوسطى ، والى جانب أغاني الحب التي كانت هامة للشعراء الالمان ، هناك مؤلف هاينرخ (Heinrick) المسمى «سرفاتيوس»

(Servatius) وهو ترجمة لحياة قديس في لهجة ليمبرغ (Limburg) . وقد كتبت النصوص الهولندية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بشكل عام في المراكز الثقافية في فلاندرز وبرابنت(Brabant) حيث كان الاثر السائد فرنسياً بسبب التجارة وفي اوروبا أشاعت الحروب الصليبية ، رومانسيات البلاط فكتبت الرومانسيات الهولندية حسب النماذج الفرنسية حول حوادث من التاريخ الكلاسيكي مثل «برلمان طروادة» (Paerlement van Trayen) للكاتب سيغر ديركونكاف (Segher Diergotgaf) وحول مواضيع شرقية وهذه أكثر شعبية من أي شيء آخر ـ مقتبسة من الملاحم الكلتية بما فيها حلقة الملك آرثر . ولكن بينما كان جيكوب فان مارلنت (Jacob van Marlant) يكتب «كتاب ميرلين»(Merlijns Boeck) «وتاريخ طروادة» (Historie var Troyen) في الستينات من القرن الثالث عشر كانت الفروسية آخذة في الانحطاط ، وتشهد عناوين كتبه اللاحقة على رد فعل في أواخر القرن الثالث عشر ضد الرومانس . وكانت خلاصات مارلنت الوافية من المعرفة . بما فيها كتابه «زهرة الطبيعة»(Der raturen bloeme) «ومرآة التاريخ»(Spieghel Historiael) تلبية للطلب على الادب التعليمي الذي ظل ميزة من ميزات الادب الهولندي . ويظهر التغير في الانماط الاجتماعية في هذا الوقت بوضوح في ملحمتين قصصيتين : اذ تصف «شارل والغاست»(Charles and Elegast) التي ربما كانت أغنية بطولية فلمنكية(Flemish) أصيلة من القرن الثاني عشر او الثالث عشر ـ باحترام اقطاعي مغامرات شارلمان في العالم السحري للقصص الشعبي ، أما «الثعلب رينارد»(Van den Vos Reinaerde) (حوالي ١٢٤٠) فهي نسخة الشاعر الفلمنكي وليم(Willem) لترجمة قام بها فلمنكي آخر اسمه ايرنو(Aernout) عن كتاب فرنسي عنوانه «بساط السفر»(Le Plaid) وفيه ينتقد المجتمع الاقطاعي بأسلوب ملحمي .

واتسمت الكتابات الصوفية بقوة غنائية رفيعة في شعر ونثر امرأة غير اكليريكية تدعى هدويش(Hadewijch) (أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر) . وكان لمؤلفتها أثر عميق على الصوفيين الذين أتوا بعدها ، وأعظمهم جان فان روزبروك(Jan Van Ruysbroeck) وهو تلميذ للصوفي الالماني ميستر اكهارت (Meister Eckehart) وأعظم كاتب نثر في الاراضي المنخفضة . وأهم أعماله : «تزيين العمل الروحي» عام ١٣٥٠م(Die Chierheit der ghesstliker brulocht)

ويدور موضوعـه حول الـروح في بحثهـــا عن الله . وكتابـــه هذا جزء من أهتمام اكليريكي مجـدد لتعليم العلمانيين وكان من صداه وفـرة وافـرة من الادب تجلـت بقصص من الكتاب المقدس ، واساطير وقصص قصيرة تعليمية ، وجميعها دارجة عهد ذاك . وفي عداد هذه المؤلفـات «بوتـريس» (Beatrijs) وهـو ترجمـة شعـرية فلمنكية في أوائل القرن الرابع عشر لاسطورة شعبية قصت بانسانية واعتدال ، ما برحت حتى الآن توحي بطبعات عصرية منها (مثال ذلك نسختا موريس مترلنك (Maurice Maeterlink) وبيتر كورنلس بوتنز (Pieter Cornelis Boutens) .

أغان ، ودراما ، وكتّاب البيان :

تشير أقدم الاغاني المدّونة الى تقليد جرماني اكثر منه روماني لاتيني . ولما كانت اقدم المسرحيات التي وصلتنا ، وهي مسرحية من القرن الرابع عشر وعنوانها «مسرحيات لائقة» (Abele Spelen) علمانية صرفة (قد تكون أول مسرحيات من هذا النوع في أوروبا) تتضمن مواضيع إبداعية من الأغاني السابقة لذا ساد الاعتقاد بأن نشـوء المأســاة في الاراضي المنخفضةيمـكن ان يعــزى الى التقليد الصامـت (مايم) ، والاغنية على حد سواء اضافة الى الطقوس الدينية . والشاهـد الـوحيد للدراما الدينية القديمـة هو مؤلف باللاتينية اسمـه «أوفسيوم ستيلاي» (Officium Stellae) «ويعود الى القرن الرابع عشر . ثم لا نجد بعده أي عمل مسرحي حتى الفترة ١٤٤٨ ـ ١٤٥٥ . عندما أخرجت الحلقة المسرحية التي تدور حول الافراح السبعة لمريم العذراء في بروكسـل . كان هنـاك في غمـرة المسرحيات الاخـلاقية ومسرحيات المعجزات هناك مسرحيتان تستحقان الاهتمام الخاص ، وهما «مـاري نجمجـن» (Mariken van Neimeghen) من القــرن الخــامس عشر و«الـكرلي» (Elckerlye) من نفس الفترة . وتـرهص الأولى بعصر النهضــة في بسيلولوجيتهـا ومعالجتها ، أما الثانية الوسيطية كلياً في مفهومها فهي أصل المسرحية الانـكليزية «كل انسان» (Everyman) . وقـد قام بكتـابتهما اعضـاء هيئـات البيان ، وهـي مؤسســات انتشرت من الحـدود الفـرنسية في القـرن الخـامس عشر ، ونظمــت كالنقابات ، وقامت بأعمال تشبه الجمعيات المسرحية الفرنسية الـوسيطية ، وقـد

كلفتها المدينة التي ترعاها لتقدم التسلية والاحتفالات في الاعياد الدينية والعلمانية فكان بالنتيجة أن أثرت أثراً بالغاً في تعميم الفن والاخلاق . وعهد ذاك كانت المسرحية في أيدي العلمانيين اكثر منها في يد الكنيسة . واقتضى ادخال العلمانية استعمال المسارح او العربات خارج المؤسسات الدينية ، اذا أعتمدت هذه الهيئات على العروض الادبية لتبقى ، كما نظم البيانيون اعياداً قومية ومهرجانات للشعر والمسرح يتنافس فيها المتنافسون .

الفصل التاسع

الأدب الاسكندنافي الوسيط

عكس أدب اسكندنافية ـ بشكل خاص أدب ايسلنده ناحيتين غير عاديتين في التاريخ الاجتماعي والثقافي لأوروبا الوثنية وايسلنده ، وشهدت الطريقة التي برزت فيها اسماء مثل اسم سيجفريد(Siegfried) وبرونلد(Brunhild) وأتيلا(Attila) مرة بعد اخرى ، في الأداب الاوروبية المختلفة انتشار الاساطير والتقاليد الأدبية المشتركة بين القبائل الجرمانية في اوروبا بدءاً من الحركات الكبرى غرباً في القرون الرابع والخامس والسادس . ويزودنا أدب ايسلنده ليس بأكثر الاوصاف تفصيلاً لاسلوب الحياة عند الشعوب الجرمانية القديمة فحسب ، بل هو أكمل وصف لأدبهم وتقاليدهم الأدبية . ومع ان الكتاب المسيحيين كانوا أول من كتب الملاحم والقصائد ، الا أن هذا النتاج يعطينا صورة لثقافة اوروبية سبقت المسيحية وبلغت أوجها في المستوطنات الجديدة في ايسلنده .

أما الناحية الثانية فتتعلق بشكل مباشر بالشعوب الأسكندنافية . فالميزة البارزة للأدب الاسكندنافي هي الدقة بوصف جغرافية شمالي اوروبة ، ويجب أن لا يعزى هذا لكتابات خيالية غير عادية بل للدقة الناجمة عن المعرفة الفعلية . وكان تاريخ الشعوب الاسكندنافية بدءاً من أواخر القرن الثامن حتى وقت متقدم من العصور الوسطى تاريخ حركة مستمرة لا تتوقف نحو أواسط اوروبا وغربها . اذ اكتشف الاسكندنافيون ايسلنده عندما حولت سفنهم عن مسار طريقها بسبب الزوابع عام ٨٦٠م ، كما يدعي المؤرخون الاسكندنافيون الأوائل . وشهد القرن الذي تلا ذلك القراصنة المسمين «فايكنغ»(Vikings) يشقون طريقهم غرباً عبر بريطانيا وايرلندا وفرنسا الى اسبانيا ، وبعدها الى شمالي افريقيا والبلاد العربية عن طريق البحر المتوسط . ووصلوا البحر الأسود عن سبيلين اثنين براً وبحراً معاً ،

وأخيراً وصلوا الى امريكا باتجاههم غرباً للمرة الثانية قبل «كولومبس» بكثير .

وبأقل تقدير يستطيع الأدب المقترن بهذه المرحلة في اسكندنافيا أن يعكس بعض هذه الغزوات الرائعة في النصف الشمالي من القارة الا ان نوعيته الأدبية العالية تجعله يقدم اكثر من هذا بكثير .

الفترة الكلاسيكية في ايسلنده :

يعود أفضل الأدب الايسلندي الذي وصلنا الى الفترة الكلاسيكية التي توافق بشكل تقريبي الفترات القديمة والوسيطة في الأدب الاوروبي الغربي . ومن المخطوطات الايسلندية تعرفنا على جزء كبير من الاساطير الاوروبية التي كانت الى حد ما مشتركة لدى سائر الشعوب الجرمانية . وكونت قصص آلهة الشعوب الاسكندنافية واساطيرها ـ أمثال اودن(Odin) آله الحرب ، وبالدر(Balder) الجميل وثور(Thor) آله الرعد ، وفاهالا (Valhalla) قاعة المذبوحين ، ـ نواة الأدب الايسلندي القديم .

دون جميع الأدب الاسكندنافي القديم الذي وصلنا في مخطوطات ايسلندية مع ان بعضه كما هو جلي واضح قد ألف قبل ان وصلت الشعوب الاسكندنافية ايسلنده في أواخر القرن التاسع . وسجل الشعر القديم في مجموعة المخطوطات الملكية (Codex Regius) التي شملت على الادا الشعرية (Poetic Edda) (حوالي ١٢٧٠م) ، ويسمى الشعر احيانا بالشعر الايدي(Eddaic) وينقسم الى قسمين : الاناشيد البطولية التي غالباً ما عالجت عالم الناس ، والاناشيد الاسطورية التي عالجت عالم الآلهة .

الأناشيد البطولية :

تأتي الاناشيد البطولية في المرتبة الثانية في المجموعة الملكية للمخطوطات ولا يستبعد ان تكون أقدم القسمين ، ونشأ الكثير من الاساطير التي بنيت عليها الاناشيد في المانيا او بين القوطيين . ولربما كانت انشودة «هامدسمل» (Hamdismal) التي عبرت بقوة عن المثل البطولية للحياة العشائرية الالمانية ـ اقدمها جمعياً ـ كما شابهت قصتها الى حد كبير قصة اخرى رواها جوردين (Jordane)

عن هامدر . واشارت «انشودة اتلي» (Atlakvida) ـ وهي انشودة اخرى في الادا الشعرية ـ الى حوادث جرت في القرن الخامس في غربي المانيا . وقد كان اتلي (Atli) أو اتيلا (Attila) ملك الهون (Huns) حتى عام ٤٣٤ ـ ٤٥٣ . واقترنت جميع الاناشيد البطولية بقصة «سيكرد» (Sigurd) أو سيجفريد (Siegfried) البطل المقدام وحبه المشؤوم لبرونهلد (Brunhild) الذي تجلى هو الآخر بصور متنوعة في أناشيد مختلفة . ويعتقد الكثير من النقاد أن الاناشيد التي تتعلق بالنزاع الروحي للبطلتين برونهلد وكودرن (Gudrun) ز والتي تميل لأن تكون رومانطيقية وعاطفية كانت مؤلفات لاحقة للاناشيد المتزمتة . وضمت «الادا الشاعرية» جزءاً بسيطاً من الشعر المعروف في ايسلندا العصور الوسطى ، والذي فقد الآن . كما ظهرت قطع من الاناشيد القديمة في ملاحم القرنين الثالث عشر والرابع عشر أمثال «انشودة هلود» (Hlodskvida) في ملحمة هايدرك (Heidreks) وهناك ذكر لابطال دانماركيين وسويديين في بعض القطع التي كانت مسروقة ـ ولاخلاف ـ لمؤلف «بيوولف» (Beowulf) الملحمة المكتوبة بالانكليزية القديمة .

الاناشيد الاسطورية :

كانت الاناشيد الاسطورية عن آلهة الاسكندنافيين تكون النصف الاول «للايدا الشعرية» (Poetic Edda) . ومن غير المحتمل أن أياً من هذه نشأ خارج النرويج وايسلنده والمستعمرات الاسكندنافية في الجزر البريطانية . وكانت «نبوءة السبيل» (The Volus Pa) قصيدة مؤثرة حول تاريخ عالم الآلهة والناس والوحوش منذ البداية حتى فجر الآلهة . وفي القصيدة العديد من النصوص الغامضة ولكن يتفق معظم العلماء المعاصرين بأنها ألفت في ايسلندة حوالي عام ١٠٠٠ عندما كان الناس يتحولون من الدين القديم الى الدين الحديث . ولقد رويت قصة ممتعة عن الآلهة في قصيدة عنوانها «كلمات سكرنير» (Skirnismal) فبينما كان الاله فرير (Freyr) آله العالم جالساً في «برج كيت» (Gate Tower) على عرش أودن (Odin) يحدق في عالم العمالقة اذ شغف حباً بفتاة عملاقة ويتوسل للحصول عليها برسوله سكرنير (Skirnir) الذي يقدم اليها الهدايا ثم يمطرها تهديداً حتى توافق على موعد للقاء

فرير . ورأى العلماء في هذه القصة اسطورة من أساطير الخصب ، وهي بالتأكيد احدى القصائد الاسطورية في «الادا» . وربما كان منشؤها في النرويج قبل أن يستقر النروجيون في ايسلنده .

كانت جميع القصائد الاسطورية التي ذكرناها حتى الآن قصصية ، ولكن الكثير من القصائد في «الادا» كانت تعليمية اذ تألفت «كلمات الاعلى» (أي كلمات الاله اودن)(Havamal Odin) من قطع هي ست قصائد على الأقل . وفي القسم الأول يتكلم الاله عن علاقات الناس ببعضهم بعضاً ، ويسن قواعد للسلوك الاجتماعي . وفي الاقسام الاخرى يتحدث عن الوشائج التي تربط النساء بالرجال ، ويذكر كيف ان حب المرأة يمكن ان يكون مجزياً او خاسراً . اما القسمان الاخيران فهما عن العلامات السحرية الشبيهة بالحروف الرونية ، وما فيها من قدرة . ولربما ألفت معظم القصائد في النرويج في القرنين التاسع والعاشر . اما القصيدة التعليمية «كلمات فافبرودنير»(Vafbrudnir) فتروى مشهد مباراة بين اودين واحد العمالقة .

ظهرت بعض الاناشيد الاسطورية في مخطوطات اخرى . فهناك «احلام بولدر»(Baldrs Draumaer) وتصف كيف أن الاله بولدر حلم بأن حياته مهددة ، وكيف ان والده اودن قصد قبر نبية ليحملها على كشف القدر المخبأ لبولدر .

الاشكال الشعرية في الأدا :

يمكن تمييز ثلاثة بحور شعرية في شعر الأدا : وزن الملحمة او القصة القديمة ، ووزن المحادثة ، ووزن الاغنية . وكانت القصائد القصصية في الوزن الأول الذي تألف من ابيات قصيرة ذات ابقاعين تربطهما ازواج من الجناس . ويمكن ان يتغير ويتنوع عدد المقاطع الضعيفة النبرة ، الا أن العدد الكامل للمقاطع في البيت قلما قل عن اربعة . وهكذا شابه في هذه النواحي الوزن الذي استعمله

الشعراء الانكلوسكسون والجرمانيون القدامى . واختلف وزن المحادثة المستعمل في «كلمات أتلي»(Atlamal) قليلاً عن وزن الملحمة ، مع أن أبياته كانت عادة ذات عدد اكبر من المقاطع الضعيفة النبرة . وكان وزن الأغنية اقل الاشكال الشعرية في الادا انتظاماً ، واصولها اكثر غموضاً . واستعمل هذا الوزن بشكل رئيسي في القصائد التعليمية ، وعادة ما تألف من مقطوعات (ستروفي)(Strophe) ذات ستة ابيات مقسمة الى أنصاف مقطوعات من ثلاثة ابيات .

شعر الشعراء : (Skaldic Verse) .

ألف الشعراء النرويجيون والايسلنديون من القرن الثالث عشر شعراً يسمى سكالدياً . (Skaldic) (من الكلمة الايسلندية سكالدSkald ومعناها شاعر) . ولم ينظم هذا الشعر في البحور الحرة المتغيرة لشعر الادا ، بل كان يعتمد كلية على التفاعيل . وكان على كل مقطع ان يعد ، وعلى كل بيت أن ينتهي حسب شكل معلوم . وربطت الابيات ، «الاسكلدية» ، شأنها شأن الابيات «الادية» ، بالجناس الذي غالباً ما رافقه السجع أو تناغم الاصوات . ولكن اختلف هذا الشعر في نحوه واختيار تعابيره . فهناك حرية أكبر في ترتيب الكلمات ، بالمقارنة بالشعر «الادي» كما استعملت المفردات الشعرية الدقيقة في تخصصها والاطناب بشكل معقد ، لدرجة شابه معها الشعر الاحاجي . ولا نعرف الا القليل عن الاشكال الشعرية السكالدية ، لكن يعتقد أنها طورت في النرويج خلال القرن التاسع ، ويمكن أن تكون تأثرت باشكال الشعراء الايرلنديين وأساليبهم التي تعود الى نفس الفترة . وكان «براغي العجوز»(Bragi The Old) أقدم شاعر معروف . ويعتقد بأنه نظم في النرويج في القسم الثاني من القرن التاسع . وامتدح هرالد الأول(Harald I) (المتوفي حوالي عام ١٩٤٠) عدد من الشعراء من بينهم ثوربجورن هورنكلوفي (Thorbjorn Hornklofi) الذي كانت قصيدته «انشودة هرالد»(Haraldsk vaedi) «سكلدية» و«ادية» في اسلوبها .

ومن الصعوبة بمكان التميز بين الادبين الايسلندي والنرويجي في هذه الفترة ، ويبدو أن الشعر السكالدي نشأ في النرويج وطور على ايدي الشعراء

الايسلنديين الذين قضوا ردحاً طويلاً في النرويج كما هي الحال بالنسبة لايجيل سكالا غرمون (٩١٠ ـ ٩٩٠) (Egill Skallagrimsson) أو نظموا أماديح في ملوك النرويج كما فعل سكفاتر (حوالي ٩٩٥ ـ ١٠٤٥) (Sigvatr) . ومع أن تعقيد الشعر السكالدي هو دون مستوى استحساننا إياه الآن وأقل مما يستحق ، الا ان القصائد التي انتقلت شفهياً في القرنين العاشر والحادي عشر كانت مصادر هامة للمؤرخين الايسلنديين في القرون التي تلت .

النثر : مهد تحول ايسلندا للمسيحية عام ١٠٠٠ السبيل لتأثيرات قوية من اوروبا الغربية ، فقد علم المبشرون الايسلنديين الابجدية اللاتينية ، وسرعان ما شرعوا يتجهون للدراسة في المدارس العظمى باوروبا . وكان اسليفر (Isleifr) (حوالي ١٠٠٥ ـ ١٠٨٠) واحداً من اوائلهم فقد ارتقى الى مرتبة اسقف بعد ان تعلم ودخل سلك الكهنوت . وكانت مدرسته في مكاهولت في جنوبي ايسلنده مقراً للاسقفية ومركزاً رئيساً للعلم . وكان سامندر العاقل (Sammundr The Wise) (١٠٣٣ ـ ١٠٥٦) أقدم مؤرخ معروف ، الا ان آري ثوركيلسون (حوالي ١٠٦٧ ـ ١١٤٨) (Ari Thorgilsson) يعتبر أباً للتاريخ المكتوب بالعامية ، ويقترن باسمه كتاب تاريخ مختصر وعنوانه «الكتاب الايسلنديون» (Libellus Islandorum) والكتاب الاكثر تفصيلاً «كتاب المستوطنات» (Landnamabok) . والمؤلفات التي وصلتنا من هذه الفترة نادرة ومجهولة المؤلفين . ويرجع تاريخ السجلات التاريخية للحوادث المعاصر الى القرن الثالث عشر ، كما ترجع أقدم المخطوطات الدينية التي تتألفت من مواعظ وسير القديسين الى حوالي ١١٥٠م . وظهرت مجموعات اكبر من الادب الديني في مخطوطات تعود الى اواخر القرن الثاني عشر ، وأوائل القرن الثالث عشر . وكما هي الحال في أماكن اخرى فغالباً ما كانت الكتب الاكثر شعبية وانتشاراً هي سير الرسل والقديسين .

الملاحم (The Sagas)

تستعمل كلمة «ساغا» في الايسلندية للدلالة على أية قصة أو تاريخ سواء أكان مكتوباً أو شفهياً . اما في انكلترا فتستعمل للدلالة على سيرة بطل او مجموعة

من الابطال كتبت بالايسلندية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر . وغالباً ما كان هؤلاء الابطال ملوكاً للنرويج ومؤسسي ايسلنده الاوائل او شخصيات جرمانية اسطورية من القرن الرابع الى الثامن . وأقدم ملحمة هي «التاريخ الأول للقديس اولاف» (Oldest olafs Saga Helga) وكتبت حوالي عام ١١٨٠م وتتبع في شكلها قصص سير القديسين ، مؤكدة على المعجزات التي يجترحها القديس . ولربما كتبت في دير تنكيرار(Thingeyrar) الذي لعب دوراً هاماً في الحياة الثقافية في أواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر .

وكتبت عدة ملاحم عن الملك اولاف تركفاسون(Olaf Tryggvason) ـ الذي تنصر الايسلنديون بترغيب منه ـ في تنكيرار حيث كانت مؤلفات الرهبان خيالية أكثر منها واقعية . وفي الجنوب تأسس اسلوب تاريخي اكثر تحرياً ونقداً على يدي سمندر (Saemundr) وآري(Ari) ، كما كتبت عدة مؤلفات قيمة في سكالهولت(Skalholt) او بجوارها في القرن الثالث عشر مثل «المشوق»(Hungrvaga) ، وهو تاريخ مختصر لاساقفة سكالهولت بدءاً من اسليفر(Isleifr) حتى كلونجر(Kloengr) . وفي أواخر القرن الثاني عشر جلبت عدة مؤلفات تاريخية قصيرة عن الملوك النرويجية من النرويج الى ايسلنده حيث أثرت على المؤرخين الايسلنديين . . وكان كتاب «أغريب»(Agrip) ـ وهو ملخص لتواريخ الملوك النرويجين مكتوباً بالعامية ـ مؤثراً بشكل خاص . أما كتاب «الجلد البديع»(Fagrskinna) فقد غطى نفس الفترة بتفاصيل أكثر ، بينما غطى كتاب «الجلد العفن»(Morkinskinna) ـ الذي ربما كتبت في وقت ابكر ـ نفس الفترة من عهد ماكنوس الطيب(Magnus The Good) (١٠٣٥ ـ ١٠٤٧) الى أواخر القرن الثاني عشر .

كتب سنوري ستيرلوسن (١١٧٩ ـ ١٢٤١)(Snorri Sturluson) افانين عديدة من المؤلفات ، ولعب دوراً هاماً في المهاترات السياسية لعصره . ومن بين الاعمال المعزوة إليه «الادا النثرية»(Prose Edda) وهو دليل في العروض والاسلوب الشعري . وقد زار النرويج مرتين . وتؤلف سير ملوكها الاوائل جزءاً كبيراً من اعماله . كما جمع «تاريخ اولاف»(Olafs Saga) ، مع سيرملوك نرويجين آخرين ليكّون مؤلفاً عنوانه «كرة العالم»(Heimskringla) . وطال النقاش حول قيمة هذه

المؤلفات كمراجع تاريخية . ومما لا شك فيه أن سنوري كان مطّلعاً على التاريخ المكتوب باللغة العامية ، وحاول أن يكتب وصفاً اميناً لما قرأ في سجلات اقدم ، الا انه لم يقصد ان يكتب تاريخاً علمياً ، فكان عمله بذلك خلافاً ، اذ رسم ابطاله بشكل خيالي . واليه يعزى عادة كتاب تاريخ «اكيل»(Egils Saga) المثير .

ملاحم الايسلنديين أو الملاحم العائلية :

كانت هذه الملاحم ذات الأصول المجهولة تتحدث عن ابطال يفترض أنهم عاشوا في القرنين العاشر او الحادي عشر . ومن المشكوك فيه انها كانت سجلات تاريخية صادقة . وتقول احدى النظريات انها ألفت في القرن الحادي عشر وانتقلت شفهياً حتى كتبت في القرن الثالث عشر . ورغم أن الباحثين الآن يرفضون وجهة النظر هذه ، فقد ظل صحيحاً أنها مدينة بالكثير الى القصص الشفوية وتقاليد الشعر الشفوي يظل صحيحاً . ومن الصعب التحقق من تاريخيتها لأن مضمونها وشكلها قررتهما المصادر التي استعملت واهداف المؤلفين . وفيما قصد الكتاب السابقون ان يكتبوا تاريخاً يستند على الوقائع ، اعتمد آخرون على خيالهم مستبقين الرواية التاريخية بان اسندوا احاديث للشخصيات المختلفة .

من الصعب تحديد تاريخ الكثير من الملاحم لأن المؤلفات الأولى ـ كما تبدو بوضوح ـ بدائية التركيب وتعبر عن مثل اسكندنافية في الاخلاص والبطولة . اما ملاحم جسلا(Gisla Saga) التي نظمت قبل منتصف القرن الثالث عشر فقد اظهرت تطوراً في المهارة الفنية وانطوت ثناياها على أوصاف غنية للطبقية ، وهي قصائد ذات جمال أخاذ ، وشعور مأساوي . وكانت «ملحمة رجال لاكساردال» (Laxdaela Saga) التي كتبت بعد ذلك بسنوات قليلية مأساة متقنة الاخراج ، أبدى فيها المؤلف تذوقاً غير عادي للجمال المرئي . ومن الواضح ان «ملحمة هرافنكل تمسيس فرير» (Hrafnkels Saga Freysgoda) كانت من خلق كاتبها . وبالرغم من التفاصيل الواقعية فلا تحتوي الملحمة الا القليل من الحقائق التاريخية . وبمرور القرن نشأ ميل للعناصر الغريبة والرومانطيقية اذ اشتملت ملحمة «كريتر القوي»(Grettis Saga)

على عدة عناصر قصصية من القصص الشعبي ، وصورت بطلاً يحارب ضد الاقزام الخرافيين والاشباح .

وفي الواقع ، كان لاعظم الملاحم الاسكندنافية ، وهي «ملحمة انجال» (Njal Saga) بطلان وهما انجال وكونار(Gunnar) . فبينما كان كونار شاباً غراً ، كان انجال عاقلاً وحكيماً يتمتع بموهبة النبوءة ، ويشخص المثل الاسكندنافية التقليدية للاخلاص والشجاعة ، ومع ذلك يواجه الموت حرقاً مستسلماً لقدره كالشهيد المسيحي .

الملاحم البطولية :

طور عنصر الخيال الجامح أبعد من ذلك في «ملاحم الماضي» أوما يسمى بالايسلندية(Fornalder Sogur) التي يفترض ان ابطالها عاشوا في اسكندنافيا والمانيا قبل أن استقرت ايسلنده . وأفضل مثال معروف على هذا النوع من الملاحم «ملحمة فولسنجا»(Volsunga Saga) (حوالي ١٢٧٠م) التي اعادت نثراً رواية قصص من ملاحم سيكارد(Sigurd) البطولية والبورغنديين والجور منركر (Jormunrekr) ، «وملحمة هرلوف»(Hrôlfs Saga Kraka) التي دمجت التقاليد القديمة ببعضها بعضاً عن الابطال الداغركيين والسويديين الذين ظهروا أيضاً في القصائد الانكليزية القديمة «ودسيث»(Widsith) «وبيوولف»(Beowulf) ومع أن هذه الملاحم البطولية لا توازي في قيمتها الادبية ملاحم الايسلنديين الا انها تمدنا بمعلومات قيمة عن الاساطير القديمة والشعر البطولي المفقود .

وجمعت الكثير من المؤلفات في التاريخ المعاصر حوالي عام ١٣٠٠ في «ملحمة ستيرلونغا»(Sturlunga Saga) متضمنة ملحمة «ايسلندنجا»(Islendinga Saga) من تأليف ستيرلا توردارسون(Sturla Thordarson) .

الترجمات من اللاتينية :

ترجم قدر من الادب العلماني من اللاتينية بين القرنيين الثاني عشر والرابع عشر . وجمعت «تنبوءات ميرلين» التي ترجمت شعراً على يد راهب ـ مع ترجمة كاملة

لتاريخ جفري اوف مونمت وسميت المجموعة «قصص البريطانيين» (Brita Sogur) . وفي مخطوطة من القرن الرابع عشر نجد نفس المؤلف ، وقد سبقته ملحمة اخرى اسمها «قصة الطرواديين» (Tro jumanna saga) مترجمة عن دارس فريجيوس (Dares Phrygius) . وبأت ترجمة نرويجية للانجيل في عهد هاكون الخامس مكنوسون ١٢٩٩ ـ ١٣١٩ (Haakon V Magnusson) .

الرومانسيات :

ترجمت الرومانسيات أوكيفت عن رومانسيات اوروبية . وقد بدأ الاهتمام بالرومانس في النرويج ، وسرعان ما نما في ايسلنده . ولربما كانت رومانسية ، «ترسترام ساغا» (Tristrams Saga) (١٢٢٦) ـ التي كتبت للملك هاكون الرابع وأتخذت الشاعر الانكلونورماندي توماس أصلاً لها ـ اقدم الرومانسيات ، بينما نجد أن «تاريخ شارلمان» (Karlamagnus Saga) هو عبارة عن مجموعة من ترجمات نثرية من الاناشيد البطولية الفرنسية تضم نسخة اسكندنافية لانشودة رولاند . وكانت الرومانسيات بالايسلندية عديدة ، وأثرها على اسلوب كتاب لاحقين واضحاً في ملاحم مثل «لاكسدالا ساغا» (Laxdaela Saga) «وغريتس ساغا» (Grettis Saga) .

أدب ما بعد الفترة الكلاسيكية في ايسلنده :

كتب القليل مما يثير الاهتمام خارج ايسلنده في الفترة التي تلت العصر الكلاسيكي اذ تدهورت الواقعية والموضوعية ، وسيطرت العاطفية ومعها الخيال المبالغ فيه . ويعزي الانحطاط في المستويات الادبية احياناً الى فقدان ايسلنده استقلالها عام ١٢٦٢م ، والى التغييرات التي تلتها . وأستمر الاهتمام بالمخطوطات السابقة ، كما جمعت مجموعات عديدة من المخطوطات التي تعود الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وتضم مادة تعود الى القرن الثالث عشر . وقد أحتوت مخطوطة «فلا تيجار بوك» (Flateyjarbok) ، وهي اجمل المخطوطات جميعاً ، نسخاً

من ملاحم اولف تركفـازون (Olf Trygvason) والقـديس اولاف ، بالاضافـة الى نصوص من ملاحم اخرى او حول ابطال يقرنون بايسلنده .

النثر : تضمن أدب نثر القرن الرابـع عشر عدة ملاحـم ، وكان من بينهـا «ملحمة فينبوغي القوي» (Finnboga Saga Roma) التي تروي قصة بطل من القرن العاشر ، وأخـرى تروي قصـة حب بطلهـا فكلنـدر (Viglunder) . وازداد عدد الملاحم التي تروي قصص الاساقفة ، وكان هذا قد أصبـح موضوعـاً في القـرن الثالث عشر ، كما أصبحت سير القديسـين الاجانـب . وبالاضافـة الى ذلك تم تصنيف مجموعة كبيرة من القصص التي تضرب مثلاً على ناحية اخلاقية .

الشعر : كتب الكثير من الشعر حتى فترة الاصلاح ، واستنبطـت اشـكال شعرية عديدة . وكانت أفضل القصائد مقطوعات دينية تكريماً للعذراء والرسل أو القديسين الآخرين . ووصفت قصيدة مشهورة اسمها «الزنبقـة» (Lilia) ـ كتبهـا ايشتاين ازغرمسون (Eysteinn Asgrimson) وهو راهب من ثيكفابر (Thykkvabaer) في الجنوب ـ سقوط الشيطان والخلق والخطيئة الاولى ومولـد وحياة وآلام المسيح . واستعمل اصطلاح القافية (Rimur) للدلالة على الشعر القصصي الذي تطور بعد عام ١٥٠٠ ، والذي تألف من قطع شعرية غنائية من نوع الـ «ستروفي» مكونة ـ بشكل رئيسي ـ من أربعة أبيات . وكانت الابيات مقفاة . اما الاشكال العروضية التي استعملت ، فقد ورثت النظام الجناسي للشعر السابق ، ورغم ما يخيل ظاهرياً انها مشتقة من الترانيم اللاتينية . ولم تتمتع القصائد البطـولية القصـيرة من نوع «البالاد» التي كتبت بالايسلندية بالشعبية التي تمتعت بها مثيلاتها في الدنمارك بل لم تبلـغ المستـوى الـرفيع للقصائـد المسماة «قصائـد الاحـلام» (Draumkvaede) من نوع «البـالاد». ويعود تاريخ معظم القصائد التي حفظت الى القرون الرابـع عشر والخامس عشر والسـادس عشر ، وكانـت ترجمـات حرة لاصـول دانمـاركية ونرويجية .

الأدب السويدي :

بدأ الادب السويدي الصحيح في أواخر القرون الوسطى عندما برزت اللغة السويدية كلغة مستقلة بعد ردح طويل من التغير اللغوي . وأرسيت أسس أدب قومي في القرن الثالث عشر . وكانت أقدم مخطوطة كتبت باللغة السويدية القديمة «قانون غربي غوتلاند» (Vastgotalagan) وهي جزء من دستور قانوني جمع عام ١٢٢٠ . وغالباً ما استعملت هذه الوثائق القانونية اخيلة محسوسة ، كما استعملت الجناس وجرساً نثرياً وقوراً يتناسب وطبيعتها الاعلانية . وقد وصلنا عدد منها .

ومثل الشعر الفروسي للمرة الاولى في «اغاني يوفيميا» (Eufemia Nisorna) مكتوبة على بحر محطم الوزن يسمى التافه (Doggerel) ما بين عامي ١٣٠٣ و١٣١٢ . وهذه تضمنت ترجمة لرومانسية كريتان دوتروي المساة ايفان (Yvain) وبدورها فان القصائد البطولية القصيرة من نوع «البالاد» ـ التي لم يعرف مؤلفها ، والتي قد تعود الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ـ عكست اهتماماً جديداً في الرومانس ، وجمعت المواضيع البلاطية بالمحلي منها . وروت واحدة من أفضلها وعنوانها «أب سكملسون» (Ebbskammelsson) ذات الاصل الدانمركي قصة كئيبة عن الحب والانتقام ، تعدلها آثار من المثل المسيحية والفروسية . ومع ان هذه القصص البطولية القصيرة مستقاة بشكل رئيسي من مصادر اجنبية ، وتجمع ـ في اطارها ـ مثلاً مستوردة من الحب البلاطي مع الحب المحلي والمواضيع الوثنية والحوادث التاريخية ، الا انها شكلت النوع الادبي الايسر فيما يمكن ان يسمى الادب السويدي الوسيط .

الأدب الدانمركي :

ظهر الادب الدانمركي للمرة الاولى في النقوش الرونية (الحروف الاسكندنافية القديمة) على الحجر أو المعدن ، وهي بصورة رئيسية كتابات على شواهد قبور المحاربين والملوك والقساوسة ، وتتكون من أشعار جناسية قصيرة غير

مقفاة تتصف بالروح التي تميز بها القراصنة الاسكندنافيون . واستعملت النقوش الرونية في الدنمارك من حوالي عام ٢٥٠م ، لكن معظم التي وصلتنا تعود بتاريخها الى الفترة ما بين ٨٠٠ و١١٠٠ . وبدخول المسيحية أصبحت اللاتينية اللغة الادبية المسيطرة . كتب سكسوغراما تيكوس(Saxo Grammaticus) أول مساهمة دانمركية هامة للأدب العالمي باللاتينية ، عندما ألف كتاب «أعمال الدانمركين» (Gesta Danorum) بين عامين ١١٨٥ و١٢٢٢ . وهو على سبيل المثال يتضمن قصة «هاملت» . وتعتبر القصص البطولية القصيرة من نوع «البالاد» الوسيطة في الدنمارك من بين أهم ما كتب في اوروبا . وهناك ٥٣٩ قصيدة لها ٣٠٠٠ نسخة ، لكن جلها تقريباً كانت مكتوبة بعد نهاية العصور الوسطى . وقد ظهرت أول طبعة عام ١٥٩١ .

الفَصْل العَاشِر

الأدب الايطالي الوسيط

الكتابة العامية القديمة :

حتى القرن الثالث عشر كانت جميع المؤلفات التي كتبت باللاتينية ذات طبيعة عملية بشكل كاسح ، وانتجها كتاب تدربوا في المدارس الاكليريكية ، وهي ادنى مستوى من تلك التي قدمتها فرنسا سواء من ناحية القيمة الادبية ام التنوع . ولم يعثر الا على اجزاء صغيرة من الشعر الايطالي المنظوم بالعامية قبل القرن الثاني عشر ، مع ان عدداً من الوثائق القانونية كان قد كتب بالعامية . وعكس الشعر الذي وصلنا من القرنين الثاني والثالث عشر الأثر الادبي الفرنسي الذي يتبين مداه من تماذج المواضيع واللهجات الفرنسية والايطالية في مؤلفات الشاعر البروفنسالي رامبوتز دوفاكيرا (Raimbautz de Vaqueiras) الذي كانت احدى قصائده حواراً بين محب بروفنسالي وسيدة من جنوا باشعار نظمت بالبروفنسالية واللهجة الجنوبية على التتابع .

الايطالية ـ الفرنسية :

شاعت الرومانسيات الفرنسية النثرية منها والشعرية في ايطاليا بدءاً من القرن الثاني عشر حتى القرن الرابع عشر ، فقد اكب على قراءة القصص ـ من الحلقات «الكارولنجية» «والآرثرية» مع ترجمات حرة من الادب الكلاسيكي ـ كل القادرين على القراءة ، بينما انشد الشعراء الشعبيون المتجولون الشعر في الاماكن العامة في شمالي ايطاليا . وفي حوالي القرن الثالث عشر تطور أدب فرنسي ايطالي مشترك .

وغالباً ما نسخ الايطاليون القصص الفرنسية كيفين الحوادث المختلفة وموسعين اياها ، موجدين بذلك رومانسيات جديدة بالفرنسية حول شخصيات من مؤلفات فرنسية . وتشمل الأمثلة على هذه المؤلفات الجديدة كتباً مثل «دخول اسبانيا» (Entrée d'Espagne) وفتح «بامبلون» (Prise de Bampelune) والرومانسية النثرية «ريح بافاريا الشمالية» (Aquiton de Baviere) لمؤلفها رفائيل مارمورا (Raffael Marmora) وقصائد حول مواضيع كلاسيكية أمثال هكتور (Hector) وفارسال (Pharsale) وأتيلا (Attila) . ومع ان اللغة المستخدمة كانت الفرنسية الا أنه في جميع هذا الأدب أدخل الكتاب دونما اد راك منهم عناصر من لهجاتهم كل بقدر المامه باللغة الفرنسية . وألم كتاب مؤلفات نثرية هامة ـ أمثال مارتينو كانال (Martino Canale) وبرونيتولاتيني (Brunetto Latini) اللذين كتبا «تاريخ اهالي البندقية» (La Cronique des Venisiens) «وكتب الكنز» (Li Livres dou Trésor) على التوالي ـ الماما أفضل بالفرنسية ، بينما كتب شعراء امثال سوردلو أوف مانتوا (Sordello Of Mantua) قصائد غنائية بالبروغنسالية مظهرين بذلك رسوخ قدمهم باللغة والعروض البروفنساليين . وكانت القصائد الغنائية البروفنسالية شائعة شيوع الرومانسيات الفرنسية ، كما درس الكتاب الايطاليون بعناية مجموعات من هذا الشعر .

المدرسة الصقلية :

كتبت القصائد الغنائية التي نظمت حسب الأشكال والمواضيع البروفنسالية باللغة العامية الدارجة وذلك في البيئة المثقفة للبلاط الصقلي للأمبراطور الروماني المقدس فردريك الثاني (Frederick II) الذي حكم المملكة الصلية ما بين عامي ١٢٠٨ و١٢٥٠ . وحرص الشعراء على إزالة العناصر المحلية الى أبعد الحدود من لغتهم ، واستعملوا كلمات يتميز بها التقليد الأدبي لشعراء التروبادور ، كما اعتبر الشعر هروباً من قضايا جدية في الحياة . ومما له دلالته أن شعر الحب البروفنسالي وليس الشعر السياسي هو الذي قلدته المدرسة الصقلية . ويبدو أن الأمبراطور نفسه ، وهو مؤلفُ لقصيدتينِ على أقل تقدير ، قد استعمله بهذا الشكل ، كما كتب وزيره بيرو دلا فينا (Piero della Vigna) عن النظرية السياسية بالنثر

اللاتيني ، وعن الحب بالشعر الصقلي . ولم يعالج الشعراء موضوع الحب بشكل جدي ، ولذا كان الكثير من القصائد تقليدياً مع أن جياكومو دا لانتينو(Giacomo da Lentino) الذي نسب اليه مع غيره فضل اختراع القصيدة الغنائية المعروفة باسم « السونت » (Sonnet) وجياكومو بوكلييز (Giacomo Pugliese) كتبا بحيوية تبعث على الانتعاش النفسي .

الشعراء التوسكانيون :

مع أن الشعر الصقلي ظل يكتب بعد وفاة فردريك الثاني إلا أن مركز النشاط الأدبي انتقل الى توسكانيا حيث أدى الاهتمام بالقصيدة الصقلية الغنائية الى عدة حالات من التقليد قام بها كيتون دارزو (Guitone d'Arezzo) وأتباعه . ومع أنه قام بعدة تجارب في الأشكال الشعرية المعقدة فقد مازجت لغته عناصر من اللهجة المحلية بلاتينيات وبروفنساليات ، هي خلو من روعة جمال المدرسة الجنوبية . ونظم الشعراء التوسكانيون قصائد غزلية بشكل تقليدي ممل ، لكنهم أظهروا أنهم آصل نفساً من الشعراء التروبادور ، عندما أخذوا بمعالجة المواضيع السياسية ، عاكسين بذلك الوضع في أواسط إيطاليا حيث مزقت التحزبات المناطق(Communes) الحرة . وفضلاً عن الشعر الغنائي جادت توسكانيا بقصائد مجازية أطول مثل قصيدة « تسورتو » (Tesoretto) لناظمها برونتو لاتيني (Brunetto Latini) .

الأسلوب الجديد (The NOVO » Style) :

بينما كان كيتون (Guittone) وأتباعه يكتبون وينظمون طرأ تطور جديد على شعر الغزل يتميز بالاهتمام في التعبير الدقيق والصميمي وبمعالجة جدية جديدة للحب . وأصبح من المعتاد التحدث عن مدرسة جديدة من الشعراء ذوي الأسلوب « الطلي الجديد » (Dulce Stilnovo) وهذا تعبير استعمله دانتي في « الكوميديا الإلهية » بنص شدد فيه على أناقة التعبير المناسب لموضوع الحب . وضمت هذه المدرسة الجديدة فيمن ضمته شعراء مبرزين أمثال كيدو كينزلي من بولونيا(Guido

(Guinizelli of Bologna وكيدو كفلكنتـي (Guido Cavalcanti) ، ودانتـي في قصائـده « الحياة الجـديدة » (La Vita nuovo) و « سينـودا بستـويا » (Cino da Pistoia) فضلاً عن شعراء دونهم مستـوى أمثـال لابـو جيانـي (Lapo Gianni) وجياني الفاني (Gianni Alfani) ودينو فرسكوبالدي (Dino Frescobaldi) .

ويبدو أن هؤلاء أثروا ببعضهم بعضاً إذ اشتهر كيدو كوينزلي بقصيدته التـي مطلعها « بمشاعر القلب الرقيق يرى الهوى أبـداً ملاذه . . . » وهـذا ما أدى الى منعطف جديد هو إثارة مسألة العلاقـة بـين حب المرأة وحـب الله . وسرعـان ما استحسن كفلكنتي شعره . والأخير شاعر غنائي جدي ذو موهبة رفيعة ، وكانـت معظم قصائده مأساوية ، وأنكر أثر الحب الذي يتسامى بالنفوس نبلاً حسبما أشار كوينزلي . وأعجب دانتي بكفلكنتي الاعجاب كله ، إلا أن مفهومـه عن الحـب الذي أوحى به هوى بياتريس (Beatrice) التي زايلت الحياة بميعة صباها عام ١٢٩٠ تساوي أكثـر من مفهومـه له إزاء كوينـزلي . أمـا مجموعـة دانتـي المسماة « الحياة الجديدة » ١٢٩٣ فوصف لقصة حبه في قصائد يربطها قالب من النثر البليغ :

«الله هو أصل بياتريس لذا فهي قادرة على تحقيق الحب والحقيقة والايحاء بحب الله . إلا أن موتها ضروري لمحبها كي يصل الى درجة الصفاء والطهر». واستعمل سينودا بستويا(Cino da Pistoia) مفـردات «الشعـراء الجـدد»(Stinovisti) ، كما استحق هؤلاء لقبهم عن جدارة لما اتصفوا به من أصالة وجزالة . وتكشف المقارنة بـين لغتهـم ولغـة الشعـراء التوسـكانيين السابقـين التهـذيب الواسـع للهجـات التوسكانية ، إذ أزيلت الصفات المحلية المميزة ، وهـكذا تكونـت اللغـة الأدبية الايطالية الفصحى .

الشعر الهزلي :

كان الشعر الهزلي على طرفي نقيض وشعر الحب الجدي . وغالباً ما كانـت اللغة مصقولة وعامية ، وأحياناً بذيئـة عن قصـد تمشياً ومضمـون المواضيع التـي

يعالجها الشعر . ويرجع هذا الضرب من الشعر الى تقليد أوروبي مدين الى حد ما للشعراء « الكوليارد » (Goliard) الهجائيين الذين عاشوا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر والذين نظموا أشعاراً لاتينية بمديح المتعة أو بهجاء النساء ، أو الأعداء الشخصيين أو الكنيسة . وكان الشعراء الهزليون ـ الذين عكفوا على نظم المغناة المسماة « سونِتْ » صيغة لشعرهم ـ رجالاً مثقفين بلا استثناء . وأقدمهم جميعاً رستيكو دي فيليبو (Rustico di Filippo) الذي قرض شعر حب بلاطي ، وشعراً خشناً وأحياناً بذيئاً من النوع الواقعي . وكان سيكو انجيوليري Cecco) Angiolieri) من أشهرهم وأكثرهم تنوعاً . وبمهارة وسخر بقصائد حبه من كتاب الأسلوب الحديث بطريقة التقليد الهزلي . وكان موضوعه المفضل هو خسَّة أبيه . أما فولكور دي سان جيمينانو (Folgore di san Ginignano) فاشتهر بقصائده الغنائية من نوع « السونت » (التي احتذت الأنماط اللاتينية) حول المتع الدنيوية التي اعتبرها مناسبة لأشهر السنة وأيام الأسبوع المختلفة وهناك ناحية أكثر جدية بالنسبة للشعراء الهزليين وتتمثل بذلك الاهتمام المتحمس للسياسية الذي هبرت عنه بأسلوب مباشر وقوة نقدية مؤلفات بيترو دي فاتينللي (Pietro dei Faitinelli) وأتبع دانتي الأسلوب الهزلي في « مراسلات » (Tenzone) تبادلها مع فورس دوناتي (Forse Donati) .

الشعر الديني :

كانت « انشودة الشمس » (Cantico di Frate Sole) أو ما يسمى « مدائح الخلق » (Laudes Creaturarum) (حوالي عام ١٢٢٥) للقديس فرانسيس أوف اسيسي (St. Francis of Assisi) إحدى أوائل القصائد الايطالية . واتخذت صورة نثر إيقاعي ، وأدخلت السجع بدلاً من القافية ، واستعملت اللهجة « الأُمبرية » (Umbrian) . وفيها يمتدح الاله لكل ما خلق. ومن المحتمل أن القديس فرانسيس ألف كذلك موسيقا مصاحبة. وأصبحت المدائح بعد وفاته شكلاً عاماً من أشكال الغناء الديني الذي ركبت موجتَه الجمعياتُ الدينية من العلمانيين الذين تجمعوا ليتغنوا بتمجيد الإله والقديسين ، وليستذكروا حياة وآلام المسيح . وكان الشاعر

الـوحيد الموهـوب حقـاً هو جاكوبــون د تــودي (Jacopine da Todi) الناســك الفرنسيسكانـي ، وكان ينصرف بمدائحـه بشـكل خاص لمعالجـة موضـوع الفقـر الروحي . ومع أن جاكوبـون لم يكتـب حسـب فن واعٍ ، كان بعض مدائحـه بديعاً .

كان الشعر الديني في شمالي ايطاليا اخلاقياً بشكل رئيسي ، تداخله نظـرة تشاؤمية عن الكون ذات جذور تمتـد الى أفـكار هرطقية مأخـوذة عن المانـوية[1] (Manichaeism) التي رأت أن هذا العالم والجسد شر تحت سيطرة الشيطان وكان ناظم قصيدتي : دي جـيروزاليم سلستـي (De Jerusalem Celesti) «ودي بابلونيا انفرنالي» (De Babilonia Ingernali) وهو الشاعر الفرنسيسكاني جياكومينودا فيرونا (Giacomino da Verona) أكثرهـم حيوية وأبعدهـم خيالاً . ويتكون مؤلفـان من مؤلفـات بونفيسـان دالاريفــا (Bonvesin da la Riva) من حوار بــين العــذراء والشيطان ، وأحدهما من حوار بين الجسد والروح . ونُظِّم هذا الشعر من شمالي ايطاليا بلغة متميزة عن اللهجات الايطالية الوسطى ، إلا أنها تجنبت الى حد كبير العناصر المحلية أو العامية .

بدأ النثر الأدبي باللهجات العامية الدارجـة في القـرن الثالـث عشر مع أن اللاتينية ظلت لغة الكتابات اللاهوتية والفلسفية والقانـونية والسياسية والعلمية . وتألف الكثير من النثر الايطالي القديم من ترجمات عن الفرنسية واللاتينية . وأثرت اللاتينية على تركيب الجملة في النثر المتطور وكذلك على الوعي الفني للمترجمين . ويتألف أقدم النثر الأدبي الأصيل من الرسائل التي تتبع القواعد البيانية الوسيطـة للنثر اللاتيني ، وتتخذ أنماطاً إيقاعية لنهاية الجمـل وأشباههـا ، وتستعمـل النثـر المسجوع المشفوع بالمحسنات البديعية والتلاعب بالألفاظ . وقدّم كيدوفابا (Guido Faba) ـ أستاذ البيان ومؤسس الأسلوب النثري الايطالي المنمق ـ أمثلة على دروسه البيانية من الأساليب النثرية البولونية (Bolognese) . كما جنـح كيتونـي دارزو (Guittoni d'Arezzo) أبرز تابع له في كتابة الرسائل نحو أسلوب المبالغة . أما نـثر

(١) المانوي : أحد اتباع ماني الفارسي ٢١٦ ـ ٢٧٦ الذي دعا الى عقيدة وثنية، قوامها الصراع بين النور والظلام .

رستورو دارزو (Ristoro d'Arezzo) الواضح والعلمي في مؤلف « إنشاء العالم » (Composizione del Mondo) ، وفي القصص البسيط لمجموعة القصص الفلورنسية «ال نوفيلينا » (Il Novellina) فعلى طرفي نقيض من أسلوب كيتوني . والتحفة النثرية للقرن الثالث عشر هي كتاب « الحياة الجديدة »(La Vita Nuova) (حوالي ١٢٩٣) لدانتي ، الذي،ولو لم يكن النثر العامي عهد ذاك من سليقته، فكان أحياناً كثير التكرار والتعقيد ، لكنه جمع الى جانب ذلك البساطة والرشاقة والطاقة الشاعرية التي تنشأ من العمق الغامض الذي يكمن تحت بعض الكلمات الرئيسة في الجملة .

القرن الرابع عشر :

سيطر أدب إيطاليا في القرن الرابع عشر على أوروبا لقرون تلت . ويمكن اعتباره نقطة بدء عصر النهضة . وهنا تبرز ثلاثة أسماء هي : دانتي وبترارك وبوكاتشيو .

دانتي ، ـ ان دانتي الجيري (Dante Alighieri) أحد أهم الأسماء وأكثرها تأثيراً في جميع الأدب الأوروبي ، الا أنه لم يشرع بكتابة أعماله الكبرى إلا بعد نفيه عام ١٣٠٢ . وكان مقاله « الوليمة » (Il Convivio) (حوالي ١٣٠٤ ـ ١٣٠٧) ـ الذي يكشف عن إحاطته الكاملة بالفلسفة « السكولاستية » المدرسية ـ أول مثال رائع لمقال باللغة العامية الدارجة ، إذ تجنب فيه مهارة الكتاب الشعبيين المتكلفة في استعمال اللغة ، وسطحية المترجمين من اللاتينية . وقد ضم كتابه « فصاحة اللغة العامية » (De Vulgari Eloquentia) ـ ويعود لنفس الوقت ـ أول نقاش وتعريف نظري للغة الايطالية الأدبية . ولكن ظل هذان المؤلفان ناقصين . وفي كتاب مذهبي لاحق عنوانه « حول الملكية » (Monorchia) حوالي ١٣١٣ شرح نظرياته الفلسفية التي دعت الى دمج القوتين الوسيطيتين البابا والامبراطورية . وتجلت عبقرية دانتي بتطورها الكامل في الكوميديا الإلهية (حوالي ١٣١٠ ـ ١٣١٤) وهي قصيدة مجازية نظمت حسب الوزن العروضي « الثلاثي القافية »

(Terza Rima) (وتتألف القصيدة فيه من « مقاطع شعرية » (Stanzas) ، كل من ثلاثة أبيات وتبلغ بمجموعها ١١ مقطعاً مقفى كالتالي : ا ب ا ، ب ت ب ، ت د ت . الخ) . وهذا السفر هو التحفة الأدبية الوسيطة ، وأعظم إنتاج عقلي لأي إنسان . أما المجاز الأساسي للكتاب فمرده القرون الوسطى ويتخذ شكل رحلة لعالم ما وراء القبر يعمل فيها الشاعر الروماني فيرجيل وبياتريس كمرشدين يمثلان العقل والثقة بالتتابع . وتقسم الكوميديا الى ثلاث « قصائد قصصية » (Cantiche) وهي « الجحيم » (Inferno) ، و « المطهر » (Purgatorio) « والفردوس » (Paradiso) وكل منها مقسم الى مناطق مجازية في مدلولاتها وتحوي ٣٣ جزءاً ، ويسمى كل منها « كانتو » (Canto) يسبقها جزء واحد كتمهيد لها جميعاً ، ومن خلال تجربته وخبرته التي يكتسبها اثناء الرحلة تتبدّى لدانتي واضحة بيّنة درجات اللعنة والتكفير والسعادة القصوى . أما أوج القصيدة فرؤياه الموقنة لله ، وعماد عظمتها تلك القدرة التخيلية المعقدة للتركيب والثروة الشعرية التي لا نفاد لها والمضامين المستمرة للمعاني الروحية .

بترارك (Petrarch):كانت إهتمامات فرانسيسكو بتراركا Francesco) (Petrarca) (توفي عام ١٣٧٤) أدبية أكثر منها فلسفية . فآراؤه السياسية أرسخ واقعيةمن دانتي، وتكتيكه الشعري أكثر تعقيداً، مع أنه أقل قوة. وكان أثر بترارك على الأدب بليغاً ودائماً ، ممتداً من الانسانيين الايطاليين للقرن الذي تلا الى شعراء أوروبا الغربيةوعلمائها في سائر اصقاعها. رفض المدرسية «السكولاستية» الوسيطة ، واتخذ من الكتاب اللاتين الكلاسيكيين وقادة الكنيسة نماذج احتذاها . وهذا التداخل من الاهتمامات ظاهر في أعماله الفلسفية والدينية معاً . لقد أوحت اليه المثل الانسانية أن ينظم قصيدته « أفريقيا » (Africia) ويكتب مؤلفاته التاريخية . الا أن مؤلَّف « أسراري » (Secretum Meum) غاية في الأهمية إذا ما أردنا أن نستكنه بعمق مثله المتصارعة ، التي وجدت لها كذلك تعبيرها في كتابه « القافية » (Canzoniere) وهو مجموعة من القصائد من نوع « السونت » ومن أغانٍ وأشعار من ستة أبيات ، ومن قصائد « البالاد » والقصائد القصيرة من نوع « المدرغال » (Madrigal) . ومع انها بمجموعها منظومة بالعامية الدارجة وقصد

بها أن تروي قصة حبه لورا (Laura) ، تظل في واقعها تحليلاً وإثارة ليس لحب آني ، ولكن افصاحاً عن العاطفة التي تغلّب عليها ؛ ولذا يمكن القول بأن العنصر الرئيسي في هذا الشعر يكمن في غناه الفني وتعقيده ، وان عكس دوماً النزاع الروحي الأصيل الذي كشف عنه بترارك في « أسراري » . وبالاضافة الى كتابه « القافية » نظم بترارك ـ حسب التقليد الوسيطي ـ قصيدة رمزية بالعامية الدارجة سماها النصر (Il Triomfi) إلا أنه كان ينقصها الإلهام الأخلاقي والشاعري لقصائد دانتي العظيمة .

وبسرعة تطورت الظاهرة الأدبية المعروفة بالبتراركية خلال حياة الكاتب وظلت تنمو عبر القرون الثلاثة التي تلت ، مؤثرة بعمق على آداب ايطاليا ، واسبانيا ، وفرنسا ، وانكلترا . ولم يكتفِ خلفاؤه بأن قلّدوه بل تبنوا ممارسته للنظام الأدبي الصارم وأشكاله بما في ذلك القصيدة المسماة « السونت »(Sonnet) التي هيهات أن نتصور النهضة الأوروبية الأدبية بدونها .

بوكاتشيو : (Boccaccio) : كانت مؤلفات بوكاتشيو أدبية صرفة ، خلواً من أية مضامين ايديولوجية . واقتبس الكثير في روايته الأولى « الفيلوكولو »(Il Filocolo) من الرومانسية الفرنسية « فلوار وبلانش فلور »(Floire et Blanche Fleur) ولذا لم تكن أكثر من تجربة أدبية . وظهر عجزه عن أن يكتب على مستوى ملحمي في قصيدتيه « الفيلوستراتو » (Il Filostrato) « وتسيده » (Teseida) ، بينما تجلى في روايته نينفالي داميتو»(Ninfale d'Amito) (١٣٤١ ـ ٤٢) المكتوبة نثراً أثر الأدب الكلاسيكي على تكوين أسلوبه . أما « الديكامرون »(Decameron) (١٣٤٨ ـ ١٣٥٣) ، وهي مجموعة من مائة قصيدة مقسمة الى عشرة أيام فأكثر مؤلفاته نضوجاً وأهمية ، إذا متدّ مدى معالجتها ، آخذاً بأطراف المجتمع المدني المعاصر من الهزلي الى المأساوي . ولمّا كانت أكمل مثل على النثر الايطالي الكلاسيكي أسلوباً ، ذا كان واسعاً تأثيرها على أدب عصر النهضة .

وشارك بوكاتشيو عصره في اهتماماته الانسانية ، متجلية في مقالاته ورسائله اللاتينية . ولاعجابه بدانتي ألف كتاباً سماه « تراتاتلوان لودي دي دانتي » (Trattatello in Laudi di Dante) وتعليقاً على السبعة عشر كانتو من حجيم دانتي ،

كما أسهم في الشعر المجازي في قصيدتـه « لا موروسـا فيزيونـي » L'amorosa (Visione) ١٣٤٢ ـ ٤٣ .

الأدب الشعبي والرومانسيات :

ظلت فلورنسا خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر مركزاً للحضارة لكن أدبهـا طور لنفسـه شخصية أكثـر شعبية . وكان انطـونيو بوتشي Antonio (Bucci (توفي عام ١٣٨٨) خير ممثل معروف لهذا التطور وشمل انتاجه الواسع « سنتيلوكويو » (Centiloquio) وهو نظم شعري لكتاب « كرونيكا » (Cronica) لجيوفاني فيلاني (Giovanni Villani) .

ومثّل الأدب القصصي الفلورنسي « بسروني أو المغفـل » (Pecorone) ، وهو مجموعـة قصص كتبهـا سيرجيوفانـي فيورنتينـو (Ser Giovanni Fiorentino) حسب نمط أرسى قواعده بوكاتشيو وكتاب « ثـلاثمـاية قصـة قصـيرة » Trecento (Novelle) لمؤلفه فرانكو ساشيتي (Franco Sacchetti) وهي تمدنا بوصف حيوي زاهٍ للناس وللأماكن .

استمرت اعادة صياغة الحلقات الآرثرية والكارولنجية حسب المناحي التي استقرت عليها خلال القرن الثالث عشر . وزادت المجموعات النثرية والشعـرية كماً ، وبزيادتها زادت القيمة الأدبية للأدب الفرنسي ـ البندقي (نسبة الى البندقية) كيفاً . وحولت الأساطير الملحمية الى قصص عاطفية تماشت واستجابة جماهير المستمعين في ساحات المدينة وغيرها من الأماكن العامة بشكل أفضل . كما كتب أندريا داباربرينـو (Andrea da Babrino) حوالي (١٣٧٠ ـ ١٤٣١) روايات ، وكتب أنطونيو بوتشي (Antonio Bucci) « كانتاري » (Cantari) متطرقاً لمواضيع اسطورية حسب الأسلـوب الشائـع الـذي يتوافـق وهدفهـا العلمـي . ووصلتنـا مجموعات مجهولة المؤلفين أمثال « بلزيلاكايا » (Pulzella gaia) و « بل غرار دينو » (Bel Gherardino) ودونـادل فـيرجيو » (Donna del Vergiù) و « ليومبرونـو » (Liombruno) مكتوبة حسب الأسلوب الآنف الذكر . وقد تشابهت في الأسلوب

والشخصية مجموعـات نثـرية وشعـرية لمواضيع كلاسيكية أمثـال « أعمال قيصر » (Fatti di Cesare) ونسخ من « رومانسية طروادة » (Roman de Troie) . وربما كان أكثرها اتقاناً « زهرة ايطاليا » (Floir d'Italia) من تأليف غيدو دابيزا (Guido da Pisa) .

الأدب الديني والتعليمي والتاريخي :

كان الأدب الديني لتلك الفترة شديد الصلة بالأدب الشعبي ، وتألف من المواعـظ والمقـالات والرسائـل الأخـلاقية وسـير القديسـين والمدائـح ومسرحيات المعجزات . ولم يرقَ أي من مؤلفي المدائح إلى مستوى جاكوبي داتودي (Jacope da Todi) الأسبق . وكانت المنظومات الشعرية لقصص من الانجيل مثل «الآلام» وتعـزى الى نيقولـو شيشرشيا (Niccolo Cicerchia) أكثـر شعبية في أسلوبهـا وجوهرها ، إلا أن النثر الديني للقرن الرابع عشر هو الأكثر أهمية . وأجلُّ مؤلفٍ في هذا الصدد هو جاكوبو باسافانتي (Jacopo Passavanti) الذي يشكل كتابه «مرآة الندم الصحيح» (Specchio di Vera Penitenza) مجموعة من المواعظ لعام ١٣٥٤ . وكانت ترجمات من الأساطير التي جمعـت في «زهـور صغـيرة للقـديس فرنسيس» (Fioretti di San Francesco) المجهولة المؤلف أقل صقلاً ، إلا أنها أهم في القيمة الأدبية .

ويمكننا أن نقوِّم التأليف التاريخي في هذه الفترة بأنه أدب شعبي مركزه الرئيسي فلورنسل ممثلـةً بوجهَـيْ مؤرخيهـا الـرئيسيين دينوكومبانـي (Dino Compagni) وجيوفاني فيلاني (Giovanni Villani) . كتب كومباني تصانيفه بين عامي ١٣١٠ و١٣١٢ بعد أن انغمس في النزاعات السياسية لمدينته . وارتقى وصفـه الدرامـي للحوادث وحيوية نثره منزلة جعلت من كتبه أكثـر المؤلفـات التـاريخية الـوسيطية أصالة . أما « تاريخ » (Cronica) فيلاني ويتـألف من ١٢ مجلـداً فأقـل تعرضـاً للنواحي الشخصية ؛ وقد احتذى التقليد الوسيطي بأن ابتدأ ببناء برج بابل وتضمن الكثير من الأساطير . أما الكتب الستة الأخيرة التي تغطي الفترة من حملـة شارل

أوف انجو (Charles of Anjou) الايطالية عام ١٢٦٥ حتى عصر المؤلف فذات أهمية بالنسبة للمؤرخين . وليس لنثره القوة الدرامية التي تمتع بها كومباني ، ولكن يمكن وصف عمله بأنه أعظم انجاز لعلم التاريخ المكتوب بالايطالية العامية الدارجة ، خلال العصور الوسطى . وبعد موت فيلاني قام من بعده أخوه ماتيو (Matteo) وابنه فيليبو (Filippo) بإتمام « الكرونيكا » .

وقاسى الشعر الايطالي من وطأة الانحطاط منذ وفاة بوكاتشيو حتى منتصف القرن الخامس عشر . وتميزت الفترة التي تلت بنشاط في النقد وتاريخ اللغة أكثر من تميزها بالاعمال الاصيلة الخلاقة .

الفَصْل الحَادي عَشَر

الأدَب الوَسيط لشبه جَزيرة ايبريَة

الادب القشتالي : بدء الكتابة باللغة العامية الدارجة :

كانت اللاتينية اللغة المستعملة في شبه جزيرة ايبريا في طريقها للتحول الى لغة رومانسية[1] عند بدء الفتح الاسلامي (الذي بدأ عام ٧١١م) . وتظهر قوائم شروح المفردات والملاحظات الهامشية على نصوص لاتينية ـ في المخطوطات التي تعود الى القرن العاشر وتخص ديري سان ميلان دوكوكولا (San Millan de la Cogolla) وسيلوس (Silos) في لاريوجا (La Rioja) ـ آثار لغة عامية متطورة الى حد كبير . كما استعيدت اقدم النصوص بلغة المستعربين (اللهجة الرومانسية للاسبان الذين عاشوا في ظل الحكم الاسلامي) من الموشحات العربية التي كان آخر قطعة منها تسمى القفلة أو «المركز» (قطعة الموضوع) والتي تقوم دليلاً على شعر شعبي ربما بدأ في وقت مبكر يعود الى القرن العاشر ، وتفسر الكثير مما هو تقاليد اسبانية غنائية (مثال ذلك الفيلا نسيكو Villancico او الاناشيد) للعصور الوسطى الاخيرة ، وعصر النهضة . وعادة ما تكون القفلة اغنية حب امرأة ، وموضوعها ـ حسب اللغات الرومانسية ـ صرخة عاطفية يرتكز عليها الموشح بأكمله .

نشأة الشعر البطولي :

كانت «أغنية السيد اوسيدي» (Poema de mio Cid) أقدم عمل خالد وصلنا من الادب الإسباني واحدى روائعه . وهي قصيدة ملحمية تعود لاواسط القرن

---

(١) اللغات الرومانسية هي اللغات التي انحدرت من اللاتينية كالفرنسية والايطالية والاسبانية .

الثاني عشر (المخطوطة الموجودة نسخة فيها عيوب تعود الى عام ١٣٠٧(وتروى قصة نبيل من قشتالة (Castile) يدعى بالعربية «سيدي» وبالاسبانية رودريفو دياز فيفار (Rodrigo Diaz de Vivar) (١٠٤٣ ـ ١٠٩٩) يخسر عطف مليكه ثم يسترجع ذلك العطف . وقد أدت خلفية القصة وشخصياتها وتفاصيلها الطوبوغرافية وروحها ومعالجتها الواقعية وقربها الزمني من شخصية البطل الى الاعتقاد بصحتها تاريخياً . وهي ميزة اتصفت وتميزت بها الملحمة القشتالية (Castillian) بشكل عام . وبكل الاحوال ، كان الجزءان الاخيران من أجزائها الثلاثة خياليين كلية،لأن تكريس ستة ابيات فقط لانتزاع السيد بلنسية من المسلمين يتبدى به واضحاً ان ميزان القيم ذاتي ، وان المؤلف شاعري في مفهومه بشكل رئيسي ، ومع ذلك واكبت القصيدة الشهرة باعتبارها تجسيداً شعبياً للشخصية القشتالية . وكتب للقصة الديمومة في أشكال مختلفة من الملحمة والتاريخ والشعر البطولي من نوع «البالاد» . اما الملحمة الثانية الاخرى التي وصلتنا وهي من النوع الخيالي الذي انحطت قيمته وعنوانها «أغنية رودريغو» (Cantar de Rodrigo) ـ فتروي حياة «السيد» في شبابه . ومن هذا القسم تشكلت اسطورة «السيد اللاحقة» . هذا وان الاشارات المتكررة في المجموعات التاريخية المكتوبة بالعامية والتي تعود الى القصص البطولي للشعراء الشعبيين المتجولين تبين بوضوح بأن الكثير من القصائد القصصية قد ضاع ولا خلاف . واعتبر المؤرخون هذا القصص صحيحاً موثوقاً ، ولذا اعادوا صياغته نثراً حتى غدا بالمستطاع اعادة بناء المواضيع ، وحتى الاجزاء من النص . ومن القصص البطولية التي انتهى الينا بعض المعلومات عنها يمكننا ذكر «امراء لارا السبعة» (Los Sieta infantes de lara) «وحصار زامورا» (Fernain Gonzàlez El Cero de Zamora) وبرنادو دل كاربيو (Bernardo Del Carpio) وغيرها من قصص تعالج مواضيع اساسية بالنسبة لتاريخ قشتالة الاقطاعي . وهي أقرب الى الماضي القوطي منها الى أية ملحمة فرنسية .

بدايات النثر :

أثر العرب تأثيراً اساسياً على النثر ، اذ تدفق العلم الشرقي على اسبانيا بعد انتزاع طليطلة عام ١٠٨٥ من المسلمين ، فأصبحت المدينة مركز ترجمة من اللغات

الشرقية . وكانت اول ترجمة مجهولة من العربية عام ١٢٥١ لقصص خرافية عن الحيوانات ـ وهي ترجمة كليلة ودمنة ـ اول مثل لرواية القصة بالاسبانية . كما ترجمت من العربية رومانسية شرقية للحكماء السبعة تعرف باسم «سندبار» (Sendebar) وسرعان ما تتابعت الترجمات للقصص الشرقية .

الفونسو العاقل :

شهدت اواسط القرن الثاني عشر استرجاع المسيحيين لقرطبة وبلنسية واشبيلية . وبتأسيس الجامعات تكوّن جوّ فكري مواتٍ . وحاز الادب تحت حكم الفونسو العاشر ملك قشتالة وليون (Leon) (١٢٥٢ ـ ٨٤) سمعة رسمية . ويمكن وصف الفونسو الذي حلت القشتالية محل اللاتينية في محاكمه ، بأنه ابو النثر القشتالي . وقصد من حملته الواسعة للترجمة والجمع دمج جميع المعرفة الكلاسيكي منها والمسيحي وكتابتها باللغة العامية الدارجة . وتضمنت المؤلفات ـ التي كثيراً ما كانت بمراجعته الشخصية ـ الدستور المسمى «التقسيمات السبعة للقانون» (Las Sieta Partidas) وهي منجم من المعلومات حول حياة العصر ، ومجموعات من مصادر عربية مثل المقالات الفلكية والصفات السحرية للاحجار الثمينة والالعاب ، وخاصة الشطرنج . أسس الفونسو علم التاريخ الاسباني بمؤلفات مثل «سجل التاريخ العام» (Cronica General) وهو تاريخ واسع لاسبانيا «والتاريخ العام» (General Estoria) وهو محاولة لكتابة تاريخ عالمي منذ بدء الخليقة . اما الكتاب الأول الذي انتهى به الفونسو حتى عام ٧١١م ، واتمه ابنه سانكو الرابع (Sancho IV) فذو أكبر أثر لكتاب واحد في اسبانيا العصور الوسطى . وصنف الفونسو الذي كان شاعراً ، واحدة من أعظم المجموعات الشعرية والموسيقية الوسيطية ، وهي «أغان للسيدة العذراء» بالغاليكية (Gailician) وهي لغة القصيدة الغنائية المقبولة آنئذ .

الشعر القصصي العلمي :

تحت التأثير الفرنسي شاعت مدرسة جديدة من الشعر ذات صلة بالاديرة وجمهور المتعلمين ، عرفت باسم «حركة الكتبة» (Mester de Clerecia) التي كيّفت البحر

العروضي الفرنسي المعروف باسم الاسكندري(Alexandrine) على صورة رباعية ، أي كونت قطعاً شعرية ذات أربعة أبيات بقافية واحدة مع بيت واحد من ١٤ مقطعاً ، ثم استعملته لتعالج مواضيع دينية وتعليمية وشبه تاريخية . وخير من يمثل هذه المدرسة هو غونزالو دوبرتشيو(Gonzalo de Breceo) حوالي (١١٩٥ ـ ١٢٦٨) وهو أقدم شاعر اسباني عرف اسمه . وقد نظم بالعامية الاسبانية سير القديسين ومعجزات السيدة العذراء ومواضيع اخرى تعبدية بحماسة رائعة ، وتفاصيل ذات صور زاهية وملاحظة ودود . وتعود الى القرن الثالث عشر أيضاً مؤلفات أمثال «كتاب الاسكندر»(Libro de Alexandre) وهو أكثر التصاقاً بالعلم من سابقه ، ونسخة من الرومانسيات اللاتينية عن ابولونيوس الصوري(Apollonius Of Tyre) ، وقصيدة فرناند غونزالس (Poema de Fernan Gonzales) وهي اعادة صياغة لملحمة ضاعت قام بكتابتها رجال الدين .

القرن الرابع عشر :

تبع فترة الترجمة والجمع فترة من الخلق الرائع الاصيل ، يمثلها خير تمثيل نثر خوان مانيول(Juan Manuel) ابن اخي الفونسو ، وشعر خوان رويز(Juan Ruiz) وهو أكبر قسيس في هيتا(Hita) . وقد أخذ كتاب خوان مانيول بعنوان «كتاب القصص المضروبة مثلاً للكونت لوكانور وبترونيو»(Libro de los exemplos del Conde Lucanor et de Patronio) وهو مجموعة من ٥٠ قصة اخلاقية من المصادر العربية ولكن شخصيته بوأته منزلة رفيعة في أدب القصة الاسبانية .

وتحت تأثير الحلقة الآرثرية أو البريطانية التي كانت شائعة في ترجماتها ، ظهرت حوالي عام ١٣٠٥ اول رومانسية اسبانية فروسية ، وأول رواية اسبانية ، «الفارس سيفار»(El Caballero Cifar) ، في موضوع القديس يوستاس(St. Eustace) القائد الروماني الذي تنصر بأعجوبة . وكان ريبالدو(Ribaldo) ، تابع سيفار مبشراً بعيداً بسانكو بانزا(Sancho Panza) تابع دون كيشوت واشارة مبكرة

لتصادم الواقعي مع المثالي وهو أمر يتميز به الادب الاسباني . وفي حوالي نفس الوقت انتشرت القصة الفروسية «امادس دوغولا» (Amadis de Gaula) المقترنة «بالحلقة الأرثرية» ـ والتي ربما كان مؤلفها شاعر تروبادور غاليكانيا او برتغالياً ، منفي في البلاط القشتالي ـ وقدر لها ان تسيطر على الخيال خلال القرن السادس عشر بما فيها من مثالية عاطفية وجو غنائي ومغامرات خارقة للطبيعة .

وكان خوان رويز (Juan Ruiz) أكثر الشعراء الاوائل رشاقة وذاتية ، ويتجلى في مؤلفه «كتاب الحب الجيد» (Libro de Buen Amor) ـ (١٣٣٠ وسِّع عام ١٣٤٣) وهو مجموعة من عناصر متغايرة أمثال اوفيد وايسوب والكتيب اللاتيني «كتاب الحب» (Pamphilus de amore) من القرن الثاني عشر والطقوس الدينية ـ النهج الاسلامي للتفكير ، وذلك في مزجه الحب بالعبادة . وكانت تروتا كونفنتوس (Trotaconventos) سلف لاسلستينا (La Celestina) أول شخصية عظيمة في الأدب الاسباني . وقد نظم على البحر العروضي المسمى «الاسكندري» بجزالة ومرونة جديدة . وتبعثرت في النص قصائد غنائية دينية ورعوية وهزلية وغرامية او جاية ذات تنوع مفرط في البحر الشعري .

وفي شعر «الامثال الاخلاقية» (Proverbios Morales) لسانتوب دوكاريون دولوس كوند (Santob de Carrion de los Condes) حوالي ١٣٥٥م دخلت عناصر غريبة اكثر مما سبق . وينطبق هذا القول على نسخة ارغونية (نسبة الى اراغون Aragon) من قصة يوسف عليه السلام المقتبسة من القرآن الكريم والمكتوبة بالاحرف العربية ، مما يقدم اكبر شاهد على الاعجمية في الادب الاسباني . اما «امثال» (Proverbios) سانتوب (Santob) فتكشف عن آثار عبرية وعربية في آن واحد .

سيطر بيدرو لوبيز دو أيالا (Pedro López de Ayala) رئيس وزراء قشتالة على شعر القسم الاخير من القرن ونثره بقصيدته «قصيدة عن حياة القصر» (Rimado

(de Palacio وهي آخر أثر من الطريقة الرباعية ، وبكتبه التاريخية حول بطرس الاول وهنري الثاني من تراستامارا(Trastamara) ، وجون الاول وهنري الثالث من قشتالة التي شجعت كتابة التاريخ الشخصي المعاصر . ولما كان انسانياً عريقاً فقد ترجم وقلّد ليفي وبوكاتشيو وبيذيوس وسنت غريغوري وسينت ايسيدور .

القرن الخامس عشر :

شهدت اوائل القرن الخامس عشر تجدداً في الشعر تحت التأثير الايطالي . وكانت المقارنة بالغة خلال حكم الملك جون الثاني بين فوضى الاقطاعية ، وهي تلفظ انفاسها الاخيرة ، وتشجيع الادب المهذب الذي أصبح علامة نبل المحتد . وقد أظهرت مجموعات من القصائد مثل «كانسيو نيرو دوبانا» (Cancionero de Baena) التي قام بجمعها للملك خوان الفونسو دوبانا(Juan Alfonso de Baena) وتضم ٥٨٣ قصيدة لخمسة وخمسين شاعراً من انبل الطبقات الى ادناها ـ ليس فقط انحطاط شاعر التروبادور الغاليسي والبرتغالي بل قيام الشعراء الاكثر عقلانية بما استعمل من الرمز والمجاز والتلميحات الكلاسيكية في معالجة مواضيع اخلاقية وفلسفية وسياسية . وعن دانتي اقتبس فرانسيسكو امبريال(Francisco Imperial) وهو احد قادة الشعر الجديد ، من أصل جنوي ، وقد أقام في اشبيلية . بينما جمع الماركيز دوسانتيلانا(Marqaés de Santillana) وهو الشاعر والعالم والجندي والسياسي روائع الادب الاجنبي وشجع على الترجمة . ويبدو في كتابه «مقدمة ورسالة الى حاكم البرتغال»(Proemio e carta al condestable de portugal) عام ١٤٤٩ ـ وهو أقدم مؤلف في تاريخ الأدب ونقده كتب بالاسبانية ـ انه تأثر بقراءاته الأدبية في اللغات الاجنبية المعاصرة والكلاسيكيات المترجمة . ولا يزال يعترف بدوره كرائد ، مع ان قصائده من نوع «السونت» ، وقصائده الطويلة التي عكست تدريبه المتأثر بالايطالية قد أهملت لصالح اغانيه الساحرة الريفية ذات الالهام المحلي القومي .

أما قصيدة خوان دومينا المجازية البالغة الطول ، التي تتحدث عن دراما التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل وعنوانها «متاهة الحظ» ١٤٤٤ (El Laberinto de

(Fortuna, 1444 ـ وهي محاولة واعية لمنافسة دانتي ـ فقد أثقلتها الحذلقة الأدبية وتعجيم الاسلوب بالاتينيات من ناحيتي التركيب والمفردات .

الأدب الكاتالي :

كانت اللغة الكاتالية القديمة لشمالي شرقي اسبانيا فرعاً من لغات شبه جزيرة ايبريا اكثر منها لغة رومانسية غالية جنوبية . ومع ذلك نجد فيها آثاراً بروفنسالية ، كما أستعمل الأدب لهجات لانجدوك(Languedoc) (وهي لهجات الفرنسية القديمة التي درجت جنوبي نهر اللوار) ، والاشكال الأدبية للشعراء التروبادور شمالي جبال البيرنيه .

الشعر : كان الشعراء التروبادور الكاتاليون ، امثال غيلام دوبرغادا (Guillem de Bergada) ، وهيغ داماتابلانا (Hug de Mataplana) وغيلام دي سيرفيرا(Guillem de Cervera) وغيرهم ، بروفنسالين أصيلين . وبعد حوالي ١٠٠ عام في أواخر القرن الرابع عشر خف الاثر البروفنسالي كما يبدو ، واتجه الشعراء الى شمالي فرنسا طلباً للالهام ، فقد أخذوا القصائد الفرنسية الطويلة حول المواضيع الرومانسية ، امثال الحلقة الآرثرية والبحر المسمى نوف ريماد»(Noves Rimades) وهو تتابع لمزدوجات مقفاة ابياتها ثمانية المقاطع والتفعيلة . كما ذهب عدة شعراء عملوا حسب هذا التقليد الأدبي الى حد ادخال نصوص من الشعر الفرنسي في قصائدهم .

كان القرن الخامس عشر الفترة العظمى للشعر الكاتالاني بعد ان أسس جون الاول من أرغون عام **١٣٩٣** أكاديمية شعرية في برشلونة على نمط اكاديمية طولوز اقامت مهرجانات للشعر تجري فيها مبارياته . واستمر هذا التشجيع الملكي تحت حكم مارتن الاول(Martin I) وفيردناند الاول مما ساعد على تحرير الاسلوب الأدبي من التأثيرات الاجنبية . وبمرور سنوات ذلك القرن برزت بلنسيا كبؤرة التقاء جديد للنشاط الأدبي . وفيها نجمت مدرسة شعرية متطورة لاستعمالها المميز

لاشعار ثمانية الابيات وعشارية المقاطع بقواف متقاطعة ومسلسلة ولازمة نهائية من أربعة ابيات ، ما يقوم دليلاً على الابتعاد عن الانماط الفرنسية وقدوم وحي جديد من ايطاليا . واحتوت «اغاني الحب» من نظم الشاعر الموهوب والعميق أوسياس مارش (Ausias March) على أبدع الابيات التي كتبت بالكاتالية ، وكانت ذات أثر بالغ في قريض قشتالة القرن السادس عشر ، وما زالت تؤثر على الشعر الكاتالاني الحديث . اما قصيدة جوم رويغ (Jaume Roig) «مرآة او كتاب النساء» (Lo Spill o Libre de les dones) (حوالي ١٤٦٠) فمغايرة تماماً اذ هي نقد لاذع للنساء مؤلفة من ١٦٠٠ بيتاً رباعية المقاطع ، وتصور بوضوح الحياة البلنسية المعاصرة . ولربما كان يوهان رويك دوكورلا (Johan Roic de Corella) وهو شاعر غنائي بلنسي عظيم - أفضل ممثل لعصر النهضة .

وبعد أن تم الاتحاد بين أراغون وقشتالة سادت اللغة القشتالية في أسبانيا وكان ذلك ايذاناً بانحدار مديد للادب الكاتلاني ، ومع ذلك دشن كاتالاني اسمه خوان بوسكان الموكافر (Juan Boscan Almogaver) مدرسة شفهية قشتالية جديدة ، ويعتبره القشتاليون شخصية بارزة في تاريخ نهضتهم . وفي الوقت الذي نشرت فيه مؤلفات بوسكان عام ١٥٤٣ كان الشعر الكاتالاني قد لفظ آخر أنفاسه قبل ذلك بخمسين عاماً .

النثر : لم يبدأ النثر الأدبي الا في نهاية القرن الثالث عشر ، مع ان تاريخ أقدم وثيقة (وهي نص قسم لاسقف ارغل) (Urgel) يعود الى حوالي ١١٠٠م . وكتبت الوثيقة بلغة الحديث اليومي الموجودة في البراءات ، والتي تعود الى زمن تسلم جيمس الاول العرش الاراغوني عام ١٢١٣ . وتمثل أربعة كتب تاريخ وصلتنا قمة النثر الوسيطي الكاتالاني . وتميز بالمهارة في السرد الروائي ، ونوعية اللغة مؤلفان احدهما مجهول المؤلف وعنوانه «كتاب عن أعمال الملك جيمس» (Libre Dels Feyts del reyen Jacme) جمع بعد وفاة هذا العاهل عام ١٢٧٦ وثانيهما كتاب رامون مونتانر (Ramon Muntaner) في وصف الحملة الكاتالانية الكبرى على شبه جزيرة مورة في جنوب اليونان ، وفتح جيمس الثاني سردينيا . ويرتبط تاريخ برنات دسكلوت

(Bernat Desclot) بحكم بطرس الاكبر الأول . ومع ان وصف بطرس الرابع يعزى الى هذا المؤرخ الا ان الملك نفسه هو الذي خططه وراجعه .

ومن جهة فان رامون لل(Ramon Llull) لا يضاهيه مضارع في انتاجه الموسوعي بالكاتالانية والعربية واللاتينية ، معطياً كل فرع من فروع المعرفة والفكر الوسيطين حقه .

وقد افتتحت مقالته الشاملة في اللاهوت المسماة «كتاب تأمل الله» (Llibre de Contemplaciô en Déu) عصر كاتالونيا الذهبي للادب مزودة ايانا ـ بشكل عرضي ـ بمنجم من المعلومات عن المجتمع المعاصر . كما أسس كتاب «ليبر دافاست اوبلانكرنا» (Libre d'Evast et Blanquerna) الرواية الكاتالانية . وتضمن مؤلفه هذا «كتاب العاشق والمعشوق» (Llibre d'amic et amat) الذي يعتبر تحفة من تحف التصوف . على حين ان مؤلفيه «فلكس» (Felix) «ونظام الفروسية» (Llibre de l'orde de cauayleria) تعليمات صيغت في قالب قصصي . وبعد قرن صمم فرانسيس اكزمنيس (Frances Eximenis) برجاحة عقلية مماثلة ، لكن دون تلك الاصالة والقوة الدافعة لـ لل (Llull) مؤلفاً سماه «المسيحي» (Lo Christian) وهو مقال شامل في اللاهوت والاخلاقيات والسياسة للعلمانيين . وقد زخر بصور حية عن العصور الوسطى ، بينما نفحنا «كتاب النساء» (Libre de les dones) ـ المرشد للعبادة والاقتصاد المنزلي ـ معلومات عن حياة النساء ايضاً .

بدأ برنا متج (Bernat Metge) العصر الكلاسيكي بترجمته قصة بوكاتشيو عن غرزيلدا (Griselda) ، وذلك في نسخة بترارك اللاتينية ، وبإضفائه الخيال الشاعري على علمه المدرسي «السكولاستي» حصل على التحفة الاسلوبية في النثر الكاتالاني .

تمثلت بدايات الدراما بمسرحية صعود مريم العذراء الى السماء ، واسمها «ميستري دي الك» (Misteri d'Elch) وما زالت هذه المسرحية تمثل كل عام في عيد الصعود الآنف الذكر .

الأدب الغاليسي : (Galician) .

الغاليسية لغة وثيقة الصلة بالبرتغالية ، ولا يوجد ما يفصل ما بين اللغتين في مستودعات الشعر الوسيطي الثلاث وهي «كتب الاغاني» (Cancioneiros de Ajuda) و «دافاتيكانا» (Da Vaticana) وكولتشي برانكوتي (Colocci-Brancuti) . ويتجلى الاثر البروفنسالي واضحاً في الاصول الغنائية الوطنية . ثم ان هيمنة العاطفة على الفكر سربلت الشعر الغاليسي بالغنائية الذاتية . وجعل الشعراء الغاليسيون هذا النوع من القريض وسطاً لشعرهم الغنائي لمدة قرن أو يزيد وغدا شهيد الهوى ماسياس الـ «انامورادو» (Macias El Enamorad) الذي ازدهرت اعماله في اواسط القرن الرابع عشر ، اسطورة آخر تروبادور غاليسي . وبعد هذه الفترة استعمل الغاليسيون القشتالية . ومع انه ما انفكت أصداء من تقاليدهم الادبية مترددة الصدى الا ان عصر النهضة والسيطرة السياسية القشتالية وضعا في النهاية الخاتمة للادب الغاليسي . وظل الامر كذلك حتى بعث من جديد في القرن التاسع عشر .

الأدب البرتغالي :

الشعر : مع انه لم تصلنا أية وثائق أدبية تخص القرن الاول من تاريخ البرتغال ، الا ان هناك دليلاً على وجود شعر شعبي أهلي . فقد وصلتنا بعض المؤلفات قبل عام ١٢٠٠ ، وعزي واحد منها الى سانكو الاول (Sancho I) . ويعتبر هذا المؤلف اقدم قصيدة من نوع «الكوسانت» (Cossante) أو القصيدة الغنائية القصيرة الكثيرة التكرار ، والتي تتسم بحزن كئيب ملازم أبداً الادب البرتغالي . ودشن صعود الفونسو الثالث على العرش عام ١٢٤٨ ـ والذي كان قد قضى ١٣ عاماً في فرنسا ـ فترة نشاط شعري تمثلها قصيدة «كانسيونيرو دا اجودا» (Cancioneiro da Ajuda) وهي أقدم مجموعة من شعر شبه جزيرة ايبريا . لكن

سرعان ما درجت الانماط الادبية السائدة في بروفنس وشمالي فرنسا ، وبذلك أصبح لاناقة الشكل والترصيعات اللفظية السبق على الفكر او العاطفة .

وتسنم شعر القصور القمة في اوائل حكم دنيس (Diniz) ابن الفونسو الذي تعلم وتثقف على يد الفرنسي امريك اوف كاهور (Aymeric Of Cahors) وأسس هذا العاهل جامعة بلاده الاولى في كويمبرا (Coimbra) عام ١٢٩٠ ، وشجع الترجمات الى البرتغالية ، واعتبر كذلك أفضل شاعر في عصره في شبه الجزيرة ، والى بلاطه وفد الشعراء التروبادور من ليون وقشتالة واراغون ليستمتعوا بتقاليد الرعاية الادبية التي ماتت في اماكن اخرى . وقد وصلتنا مجموعة هائلة من الشعر تبلغ ألف قصيدة لمائتي شاعر حفظت في كتب الاغاني الثلاثة التي مر ذكرها . ورغم ما اتسم به هذا الشعر من ضحالة الافكار والتقليدية شكلاً وتعبيراً ، تظل للغته صفات موسيقية ذات تطور رفيع .

وبالمقارنة بالآفاق المحدودة للشعر البلاطي ، نجد انه في مجموعة من الشعر البطولي القصير من نوع «البالاد» عرف باسم «رومانسيرو» (Romanceiro) امتزجت مواضيع المغامرة والحرب والفروسية بالحب والدين والبحر . ويمكن ارجاع القليل من هذه القصائد الى ما قبل القرن الخامس عشر ، اذ كانت تمت بصلة الى شعر مجهول التأليف ظل حياً بالتناقل الشفهي ، وان ازدهرت بصورة مصطنعة في وقت متأخر على أيدي شعراء معروفين في القرنين السادس عشر ، والسابع عشر .

النثر : احتاج أدب النثر البرتغالي الى وقت أطول من الشعر ليصبح متقناً ، وتتعلق أقدم النصوص النثرية بكتابات دينية وسجلات مختصرة للملوك الاوائل ، وكتب عن السلالات . وشكل «كتاب لينهاجن» (Libre de Linhagens) لـ بيدرو (Pedro) كونت برشلونة معلماً بارزاً بان تجاوز السلالات الى التاريخ والاسطورة . ان شعبية المادة التي استندت على التقاليد والاعراف الكلتية ظاهرة في الاغنيات الخمس التي اعتمدت بدورها على قصائد غنائية بريطانية . وبها تفتتح المجموعة الغنائية الشعرية «كولوتشي برانكوتي» . وكان لمثل الفروسية وروح المغامرة العاطفية التي اقترنت بفرسان الطاولة المستديرة جاذبية طاغية لدى الطبيعة

البرتغالية ، وأهم أثر وصلنا في هذا المجال هو «تاريخ فرسان الطاولة المستديرة والبحث عن الكأس المقدسة» ، (Histôtria dos Cavaleiros da Mesa Redonda et da Demanda do Santo Graal) وهو كتاب نقل عن الفرنسية ، ومنه اشتق امادس دوغولا (Amadis de Gaula) الذي كان سلفاً سلسلة طويلة من قصص الفروسية في اسبانيا والبرتغال ، والذي ربما متَّ بأصله - أو على الاقل بأجزائه الثلاثة الاولى - الى البرتغالية ، ويحتمل ان مؤلفه هو فاسكو دو لوبيرا (Vasco de Lobeira) .

الفَصْل الثّاني عَشَر

الأدَب الوَسيط لمنطقة شرقي البَحر المتوَسّط

الأدب البيزنطي الاغريقي :

يأتي الأدب البيزنطي وهو الذي كتب بالاغريقية خلال الفترة البيزنطية (٣٣٠ - ١٤٥٣) ، بعد الفن البيزنطي بقوة تعبيره عن الثقافة الوسيطية المسيحية المستقلة ، والتي كانت استمراراً للحضارة الرومانية الاغريقية . وكان العامل الذي قرر شخصية هذا الادب هو ذلك التركيب المركزي للامبراطورية البيزنطية ، وبخاصة حياة البلاط في القسطنطينية . أصبحت الكنيسة المسيحية بعد قسطنطين الكبير راعية التقاليد الثقافية الاغريقية الرومانية ، وتبعاً لذلك تأثر الأدب المكتوب بالاغريقية بطبيعة اللغة التي تتصف بالمحافظة المتزمتة . اذ كان الشعور السائد هو ان على اللغة الادبية ان تحفظ الانماط الكلامية كما وردت في العهد الجديد المكتوب بالاغريقية ، وكما نطق بها اباء الكنيسة الاوائل ،ومن ناحية اخرى كان عليها ان تنهج نهج الانماط والنماذج الاتيكية (Attic) التي تعود الى الماضي الادبي العظيم . وهكذا لم يسمح للغة الأدبية ان تبدي التأثيرات المبسطة التي مرّت بها في الاستعمال اليومي على افواه الناس . وبينما تطورت لغة الحياة اليومية الى اليونانية الحديثة تمسكت بيزنطة بأشكال لغوية جمدت بشكل مصطنع في المرحلة الاغريقية الهيلينية . وأصبح تقليد القدماء المبدأ الكامن خلف جميع الاشكال الادبية . وهذا خنق كل اصالة في المضمون او الابداع . ورغم ان تقليدية البيزنطيين انقذت للاجيال التي تلت أفضل ما في الادب الاغريقي القديم ، الا ان شعورهم بأنهم وحدهم يحوزون الكنوز الفكرية الموروثة عن القدماء ، ادى الى مبالغة في تقدير قيمة العلم

المكنوز . ومن هنا نشأ لدى الكتاب البيزنطيين حذلقة وتعليمية فرضت نفسها فرضاً .

ورغم الاعجاب الذي أبداه الغرب بالثقافة البيزنطية ، فضئيل هو تأثير أي منهما على الآخر خلال العصور الوسطى . وضاعت المعرفة بالاغريقية في الغرب خلال معظم الفترة الوسيطة ، كما ان الاحتكاك الادبي قد عانى بدوره من عدم الثقة التي زاد فيها الانقسام الديني ، والمنافسات التي سببتها الحروب الصليبية . أما في مصر وآسيا الصغرى فحلت الكتابة المحلية باللغات (القبطية والسريانية) محل الأدب اليوناني ، ومع كل ذلك ظل الأدب البيزنطي بالغ الاثر على سكان شرقي اوروبا وخاصة الشعوب السلافية .

ولم يكن الكثير من الكتابات البيزنطية ذا أهمية أدبية ، اذ انتج ركام هائل من المؤلفات النثرية في مجالات اللاهوت وسير القديسين والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والعلوم الحربية والقانون . وفي اللاهوت كان سائر الكتاب ذو الأهمية من القرنين الرابع والخامس أمثال اثناسيوس(Athanasius) ، مبدع النمط المحتذى لكتابة سير القديسين في الفترة البيزنطية ، ويوسيبيوس (Eusebius) كاتب اول تاريخ اكليريكي ، وباسيل القيصري(Basif od Caesarea) (القديس باسيل العظيم) الذي نظم الرهبنة الشرقية ، وأخوه غريغوري النيثي(Gregory of Nyssa) أقدم مؤلف صوفي اغريقي ، وغريغوري اوف نازيانزوس(Gregory Of Nazianzus) ، وهو لاهوتي وشاعر . أما بالنسبة لسير القديسين فلا مناص من ذكر عدد من السير الشعبية التي تطورت عنها الرواية الدينية . وأفضل مثال معروف على ذلك قصة «برلام وجوزافات»(Barlaam̃ And Josaphat) .

الشعر الديني : نظم اول شعر ديني في بحور اغريقية قديمة للاستعمال في العبادات الخاصة . وقد تضمن ما يعرف باسم أغنية العذراء الموجودة في «سيمبوزيوم»(Symposium) مثوديوس أوف فيليبي(Methodius of Philippi) ، والقصائد الدينية لغريغوري أوف نازيانزوس (كتبت بين عامي ٣٨١ و٣٨٩) .

وكانت الترانيم البيزنطية الشعائرية أهم من هذا الشعر الديني الخاص . ودعت الحاجة الى تطور ترانيم جماعية لعامة المصلين ، صدّاً لموجة النجاح الذي حازته الحركة الدينية السرية للغنوصيين(Gnostics) ـ (الذين قالوا بأن المادة شر وأن الخلاص بالروح) ، والتي انشأها المهرطق أريوس(Arius) (المتوفي عام ٣٣٦م)ـ بشعرها الديني الملحن حسب الموسيقى الشعبية . وربما كان أفضل نموذج للتطور الشعري تلك الترانيم الكنسية السورية التي نبغ فيها أنجح وأغزر كاتب لها ، وهو السوري رومانوس ملودوس(Romanos Melodos) (في القرن السادس) . وفي القرن السابع ، دخل شعر الكنيسة حالة جديدة تميزت بازدياد الصقل الشكلي ، ونقص في الجزالة الشعرية وذلك بتأليف «القانون»(Kanon) ، وهي قصيدة تتألف من ثماني أو عشر قصائد غنائية جميعها مختلف التركيب ، لناظمها اندريه الكريتي (Andrew Of Crete) . وكان اشهر من كتب في هذا المجال هو يوحنا الدمشقي (John Of Damascus) ، وكوزماس القدسي(Cosmas Of Jerusalem) وكلاهما من النصف الأول من القرن الثامن .

الشعر العلماني : بدأ الشعر الملحمي مع بدء الأدب العامي ، الا انه كانت هناك عدة مؤلفات أدبية يمكن مقارنتها بملحمات العصر «الاسكندري» . فقد كتب نونوس(Nonnus) عندما كان يدين بالوثنية ملحمة عن الاله ديونيسوس ، وعندما تنصّر نظم شعرا انجيل القديس يوحنا . وحفظ البيزنطيون الملحمة التاريخية بعناية . وفي القرن السابع وصف جورج بسيديان(George Pisidian) حروب الامبراطور هرقل ، فكان بذلك مداحة أكثر منه شاعر ملحمة . وخلد الشماس ثيودوسيوس(Theodosius) (القرن العاشر) احتلال كريت على يد الامبراطور نسيفوروس فوكاس(Niccphorus Phocas) . وفي احياء الثقافة الذي تم في القرن الثاني عشر نظم بعض القصائد الطويلة على نمط القصص الاغريقية القديمة أمثال قصة «رودانتي ودوسيكليس» (Rodanthe And Dosicles) لثيودور برودروموس (Theodore Prodromus) ، وقصة حب «ارستاندر وكلشيا» (Aristander And Callithea) لقسطنطين مناسيس(Constantine Manasses) ، والرومانسية النثرية الوحيدة هي قصة «هسمنية وهسمنياس» (Hysmine And Hysminias) ليوستاثيوس مكرنبوليتيس(Eustathius Macrembolites) .

وكانت وجهة النظر الصوفية ، وما استلزمها من عملية فصم الذات ، التي هيمنت على امتداد الفترة البيزنطية مميتة لتطور الشعر الغنائي العلماني . وتشمل هذه الزمرة قصائد قليلة لجون جيومتريس(John Geometres) وكرستوفر اوف ميتلين (Christopher Of Mytilene) وغيرهما (القرن الحادي عشر) . وكان الشكل الادبي المسيطر على الشعر الذاتي هو الشعر الحكمي ، اذ عالج جورج البسيدي(George The Pisidian) معظم المواضيع المختلفة بشكل حكمي موجز . وفي القرن التاسع كتبت كاسيا(Casia) شاعرة بيزنطة الوحيدة عدة أعمال حكمية وترانيم كنسية . وبلغ الشعر الحكمي ذروة تطوره في القرنين العاشر والحادي عشر بمؤلفات جون جيومتريس وكرستوفر اوف ميتلين وجون موروبوس(John Mauropus) وأمدّنا القرن العاشر بأهم مجموعة للقصائد الحكمية القديمة ، وهي «مجموعة بلاتينيا» (Anthologia Palatina) .

وشغف البيزنطيون بالقصيدة التعليمية حباً ، وتوافق هذا الشكل الادبي مع ميلهم لتعليم زملائهم من البشر . كما كتب جون تزتزيس(John Tzetzes) تعليقات منظومة شعراً عن هوميروس وهسيود وبندار واسخيلوس ويوروبيدس وارستوفنيس .

أما الشعر الدرامي فلا ظل له لدى اليونانيين البيزنطيين . وباستثناء بعض المحاورات المجازية الاخلاقية (لثيود وربرود روموس ومانيول فيلبس وغيرهم) ، فان المؤلف البيزنطي الوحيد الذي يشبه المسرحية ـ بإطاره الخارجي على أقل تقدير ـ هو «كرستوس باشون»(Christos Paschon) الذي لا يعدو ان يكون مجموعة من الاستشهادات الكلاسيكية .

الكتابات بالعامية الدارجة :

وقف الأدب العامي وحيداً في شكله ومضمونه . وأظهر اصالة بمفهومه ، وبمادته الوسيطية الجديدة كلياً . وفيه احتل الشعر المكان الأسمى ، ورغم ما وصلنا من بعض المحاولات الأولية ، فلم تكتب مؤلفات يونانية عامية الا بدءاً من القرن

الثاني عشر فصاعداً . وفي حوالي نهاية القرن الخامس عشر شاعت التقفية ، وفي القسطنطينية استعمل مزيج من اللغتين الشعبية والفصحى للمرة الأولى في قصائد للنصح والمديح والتضرع . ويدرج كتاب سبانياس (Spaneas) النصحـي في هذا النوع القديم (الذي يعود الى القرن الثاني عشر) من الشعر باللغة الدارجة كما تعود قصيدة أو بضع قصيدة تضرعية نظمها في سجنه مؤرخ يدعى ميخـائيل غليكاس (Michael Glycas) . وفي الفترة التي تلت بدىء بنظم قصائد في الحب الشهواني أمثال اغاني الحب الرودية(Rhodian) . وشكلت الملاحم الطويلة التي عولجت فيها مواضيع مثل اساطير طروادة واخيل والاسكندر مجموعة منفصلة . والى هذه يمكننا ان نضيف رومانسيات شعرية باللغـة الـكلاسيكية المصطنعـة امثـال «كليماخـوس وكروســورو» (Callimachus And Chrysorrhoe) «وبلتانــدروس وكريستانــزا» (Belthandrus And Chrystanza) والرومانسيات التي كتبت حسب النمط الغربـي امثال «فلوريوس وبلاتزيا فلورا»(Phlorius And Platziaphlora) (القصة الفرنسية القديمة فلور اوبلانشغلور)«وابوبولـونيوس اوف تاير» «وامبـرايوس ومـار كارونـا» (Imberius And Margarona) . كما صيغت في هذه الفترة شعراً قصص معروفة من كتاب «العالم الطبيعي»(Physiologus) عن الحيوان والنبات والحجارة ، وشاعـت كذلك خرافات حيوانات اخرى نظمت شعراً . وكانت هناك قصائد بتمجيد ابطال مشهورين وحوادث تاريخية لامثال «اعمال بلزاريوس»(Belisarius) قائد جوستنيان أمثال (Justinian I) ، وسقـوط القسطنـطينية عام ١٤٥٣ ، واحتــلال أثينــا عام ١٤٥٨ . وأهم هذه المؤلفات جميعاً الملحمة البطولية العظيمـة دجنيس اكريتـاس (Digenis Akritas) المحفوظة في عدة نسخ يرجع تاريخ اقدمها الى القـرن الثالـث عشر . ويمثل دجنيس اكريتاس المحارب الجريء على حدود الفرات في الفترة ما بين القرنين الثامن والعاشر . وكان شعوره نحو الطبيعة وحبـه البالـغ لأسرتـه تباشـير باعطاء الكثير من أحسن ما في الشعر اليوناني الشعبي الحديث .

الأدب الأرمني :

هناك أدلة بأن أدباً وثنياً وجد في ارمينيا قبل اختراع الابجدية في القرن الخامس الميلادي ، لكن لم يصلنا منه الا القليل بسبب حماسة رجال الدين الأوائل . وكان

على الأرمن بعد أن تنصروا بحوالي قرن (حوالي ٣٠٠) أن يعتمدوا على النسخ الاغريقية والسريانية للكتاب المقدس ، وغيره من الكتب الدينية . وكانت هذه اللغات غير مفهومة لدى عامة الناس . ولعلاج هذا الوضع اخترع القديس مسروب (Mesrop) الحروف الابجدية الأرمنية (حوالي ٤١٠م) وقد ألف الكاثوليكوس (بطريرك الكنيسة الأرمنية) ساهاك الأكبر(Sahak The Great) والقديس مسروب مدرسة للمترجمين الذين أوفدوا الى اوديسا(Edessa) والقسطنطينية ليجلبوا النسخ السريانية واليونانية للمؤلفات الهامة وبالتالي ليترجموها .

كرس الكثير من النشاط الأدبي للقرن الخامس ، وهو فترة العصر الذهبي للادب الأرمني الى مثل هذه الترجمات . وبكل الاحوال لم تفتقر الفترة للاعمال الاصيلة ، مثال تاريخي اكليش(Eglishe) وغازار(Ghazar) من فارب(Pharp) . ويعتبر كتاب ازنيك كوغباتزي(Eznik Koghbatzi) «دحض الملل» (Refutation Of The Sects) تحفة الأدب الأرمني الكلاسيكي ، وهو مؤلف جدلي أخذ جزئياً عن مصادر يونانية دفاعاً عن العقيدة المسيحية الارثوذكسية ضد الخرافات الوثنية الأرمنية ، والثنائية الايرانية ، والفلسفة اليونانية والهرطقة المارسيونية (Marcionite) ، وبكلمة فان هذا الكتاب زودنا بمعلومات قيمة عن جميع هذه العقائد فضلاً عن أنه لا يجاريه بأسلوبه أي أديب أرمني لما فيه من صفاء كلاسيكي . وفي الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس والثامن استمرت ترجمات مؤلفين امثال القديسين يوحنا المعمدان (S.S. John Chrysostom) وسيريل الاسكندري (Cyril) ، فانتجت المدرسة الهلينية المسماة يونابان(Yunaban) ترجمة متناهية الحرفية لمؤلفات نحوية ولاهوتية وفلسفية بما فيها كتب افلاطون وارسطو وفيلو الاسكندري .

آداب دول البلقان :

وكما تغيرَّ تاريخ الشعوب المختلفة ليوغوسلافيا الحديثة في الألف سنة الأخيرة ، إذ تطورت آداب الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين والمكدونيين كل على انفراد .

وكون الكرواتيون والسلوفينيون جزءاً من تراث أواسط أوروبا الثقافي ، بينما كان الصربيون والمكدونيون جزءاً من الثقافة البيزنطية الشرقية ، ثم أصبحوا جزءاً من الدولة العثمانية . وعندما اتحد اليوغوسلافيون عام ١٩١٨ كان لديهم ثلاث لغات أدبية هي الصربية الكرواتية ، والسلوفينية ، والمكدونية ، كما كان لديهم نوعان من الحروف الأبجدية هما السيريلية واللاتينية . ويتكلم الصربيون والكرواتيون لغة مشتركة إلا أنهم يستعملون الأبجدية السيريلية واللاتينية تتابعياً . أما السلوفينيون الذين تشابه لغتهم الصربية الكرواتية فيستخدمون الأبجدية اللاتينية ، بينما يستعمل المكدونيون السيريلية .

وتستمر الشعوب اليوغوسلافية في تطوير فرديتها القومية والثقافية ضمن إطار فيدرالية مشتركة .

الأدب الصربي :

نشأ الأدب الصربي من استعمال الكنيسة اللغة السلوفينية في ترجمة المؤلفات الدينية من الإغريقية الى الأبجدية الكلاكوليتية (Galagolitic) (وهو نظام ابتكره القديس سيريل كما تقول التقاليد) على يد الرسل الى السلافيين أمثال القديس سيريل (المتوفى عام ٨٦٩) والقديس مثوديوس (المتوفى عام ٨٨٥) . أما الأدب الصربي الذي كوّن في الأصل جزءاً من الأدب السلافي الجنوبي ، فحاز ميزاته الخاصة بدءاً من القرن الثاني عشر كما هي الحال بالنسبة لإنجيل ميروسلاف (Miroslav Gospel) والقصص المقتبسة من الكتاب المقدس وسير القديسين وخاصة القديس سافا (St. Sava) راعي صربيا ، وقصص «مثل «برلام وجوزفات» (Barlaam and Josaphat) .

الأدب الكرواتي :

تنصرَّ الكرواتيون عند نهاية القرن التاسع على يد تلاميذ القديسين سيريل

ومثوديوس وكتبت المؤلفات الاكليريكية الأولى بالأبجدية « الكلاكوليستية » ، إذ وصلتنا أجزاء منها في « مقطوعات كييف ميسال » (Kiev Missal - Pieces) وتعود الى القرن الحادي عشر . ومنذ القرن الثاني عشر استعملت اللغة الوطنية بشكل واسع للنقوش والوثائق القانونية ، لكن اللاتينية ظلت على ازديادها المضطرد بدءاً من القرن الرابع عشر . وقبل عصر « الانسانية » مباشرة (النصف الثاني من القرن الخامس عشر) تألف الأدب بشكل رئيسي من قصص الكتاب المقدس والأساطير ، ومن القصص الشعبي والقصص الشائعة (قصص طروادة والاسكندر الكبير وغيرها) . ومن أبرز المؤلفات التي كتبت عهد ذاك كتاب تاريخ للقس دكلجانين(Dukljanin) . وجرى تطور المسرحية الدينية (آلام المسيح ـ القرن الخامس عشر) والشعر الديني جنباً الى جنب مع توسع المواضيع الدينية .

الأدب السلوفيني :

أخَّر انحلال الدولة المستقلة في كارانتانيا (Carantania) (كانتيا حالياً) عام ٨٢١ واندماج الطبقات العليا في المجتمع الألماني الاقطاعي ـ إيَّ تطور للأدب السلوفيني . ومن بين المخطوطات الوسيطية التي حفظت تعتبر مخطوطات « برزنسكي سبومنسكي » (Brizinski Spomeniski) ، وهي مخطوطات « فريزنغ » (Freising) (حوالي ١٠٠٠ م) ـ وتضم شكلين من أشكال الاعتراف العام ، وموعظة حول الخطيئة والكفارة ـ أول أمثلة سلوفينية مكتوبة (ربما بأية لغة سلافية أخرى) . وتعد مخطوطة « ستسكي ركوبس » (Stiski Rokopis) (حوالي ١٤٢٨ م ، ١٤٤٠ م) ومخطوطة « ستينا » (Steina) ـ التي تتضمن شكلاً جديداً من الاعتراف العام ، وأول سجل معروف لأغنية من أغاني عيد الفصح في ترجمة سلوفينية ـ من بين أهم المخطوطات . وبالاضافة الى هذه الأدلة القليلة المحفوظة على استعمال اللغة السلوفينية في التعليم الديني ، وليس في الطقوس الدينية ، ازدهر الشعر الشعبي ، الغنائي منه والملحمي ، بوفرة في صفوف الفلاحين السلوفينيين، وشاعت في الملحمة مواضيع القصيدة البطولية من نوع

«البالاد» . كما حفظ الشعر الملحمي بجميع مفرداته وتعابيره القديمة في وديان الألب الألب البعيدة لسلوفينيا التي كانت تتبع البندقية .

الأدب المكدوني :

بدأ الأدب في مكدونيا في القرن التاسع ـ مثله مثل الآداب السلافية الأخرى ـ بترجمات للمؤلفات الدينية على أيدي القديسين سيريل ومثوديوس ، وبتأسيس أول جامعة سلافية أنشئت في أوهريد (Ohrid) ، وكانت آنئذٍ جزءاً من بلغاريا تحت رعاية القديس كلمنت (المتوفى عام ٩١٦ م) ، وهو أحد تلاميذ سيريل ومثوديوس . والى جانب هذا الأدب الديني الأرثوذكسي تطور أدب بوكوميلي (Bogomil) أبو كريفي هرطقي . وفي القرن السادس عشر تطور أدب شعبي دمسقي (Damascene) بمزج السلافية باللغات العامية الدارجة . وكانت الدمسقية (Damaskini) ترجمات من مؤلفات دمسقينوس (Damascenus) الراهب الأرثوذكسي ، ودام الأمر كذلك حتى مطلع القرن التاسع عشر عندما طبعت مؤلفات كتبت في مكدونيا الحديثة .

الفَصْل الثّالِث عَشَر

الأدَب الوَسيطي لأوربّا الشرقيّة

الأدب البلغاري :

ينبع الأدب السلافي البلغاري من تنصير السلاف بدءاً من اعتناق القيصر بورس الأول (Boris I) العقيدة الأرثوذكسية الشرقية ، وفرضها على بلاطه وشعبه . وأدى هذا القرار السياسي ـ مصحوباً بقرب بلغاريا جغرافياً من بيزنطية ـ الى اضطلاع بلغاريا بدور أساسي في التطوير البلقاني لأول لغة سلافية مكتوبة ذات أدب اكليريكي عرف باسم الأدب البلغاري القديم .

وبعد هذا التحول الديني سرعان ما أسس « سيريل » و « مثوديوس » أول مدرسة أدبية سلافية (٨٩٣ ـ ٩٧١) تحت رعاية بلاط بريسلاف الملكي (Preslav) . وكانت بريسلاف عاصمة القيصر سيميون (Simeon) (توفي عام ٩٢٧) والقيصر بطرس (المتوفى عام ٩٦٩) . ونتيجة لزيارة أعضاء المدرسة الأدبية لمدينتي ديفول (Devol) واهريد (Ohrid) المكدونيتين تأسست أول مدرسة سلافية شهيرة على يد القديس كلمنت راعي جامعة بلغاريا الحديثة صوفسكي (Sofiski) المسماة كلمنت اوهردسكي (Kliment Ohridsky) . وكانت مؤسسات « بنتلمون » (Panteleimon) من بين مراكز الرهبنة في بريسلاف وأوهريد . وفي هذه الحقبة الذهبية أو الفترة البلغارية القديمة بلغ الطموح بالثقافة البلغارية الوسيطية أن تُنافس حتى العاصمة الملكية : القسطنطينية نفسها التي سماها السلافيون تزاريغراد(Tsarigrad) ، كما اقترح جون اكزارش (John Exarch) في

كتابه « شستودنييف » (Shestodnevœ) (ستة أيام من الخلق) . ويرتبط اسم القيصر سيميون ارتباطاً وثيقاً بالمؤلَّف المسمَّى باسمه « مجموعة سيميون من التعليقات الانجيلية » (Simeonov Sbornik) وبكتاب « الجدول الذهبي » (Zaltostruy) ، وهو أول نسخة سلافية من اليونانية لكتاب القديس يوحنا المعمدان (St John Chrysostom) . ويعكس الدور المسيطر الذي لعبه هذا الادب السلافي المبكر والمترجم عن اليونانية والذي أعطى الطابع السلافي ، نعم يعكس هذا الدور تصميم هؤلاء الكتاب البلغاريين لينهضوا باللهجة السلافية ويطوروها ، لتعكس تركيباً وتهجئة جميع تعقيدات وسفسطة الفكر البيزنطي .

تفوق العصر البلغاري الأوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أو ما يسمى بالعصر الفضي لسلالتي آسن (Asen) وشيشمان (Shishman) بالمهارة الفنية الفائقة في الفن التخطيطي (الخط والنموذج والرسم التزييني التجليد) ، لمخطوطاتها ، امثال مخطوطة الفاتيكان المسماة « تاريخ ماناسيس » Manasses) Chronicle) لعام ١٣٤٥ ، ومخطوطة لندن المسماة « انجيل القيصر ايفان الاسكندر » (Tsar Ivan Aleksandur Gospel) لعام ١٣٥٦ . وفي المضمون ما فتئت التأثيرات البيزنطية والترجمات عن اليونانية تعطي موارد أدبية وافرة كما هي الحال بالنسبة للفترة البلغارية القديمة . وقد تبع التذوق الاستيدي (نسبة الى سلالة استيد) للمواضيع التاريخية والدنيوية العقائد الصوفية لِـ هسيشازم (Hesychasm) ببحثها عن « النور الذاتي » في أواخر القرن الرابع عشر . وكان هذا مبدأ ثيودوسيوس أوف تورنوفو (Theodosius of Turnovo) المشهور بالمدرسة التي أسسها لتتبع دير كيلوفاريفو (Kilofarevo) ، وبتلميذه الشهير البطريك افتيمي (Patriarch Evtimy) (المتوفى عام ١٤٠٤) . وكان لكليهما شخصية قيادية في مدرسة تيرنوفو الأدبية المشهورة بمحاولاتها أن تضع مقياساً لتقاليد الكنيسة السلافية القديمة ، وتنقيها أقصى ما يستطاع حفظاً لنقائها الأصلي ، وشكلها الذي كانت عليه في فترة ما بين القرنين التاسع والعاشر . ويُبرز تراجع الأدب البلغاري الوسيط ـ إن لم يكن انتهاؤه ـ بشكل مميز نوعاً غريباً من أدب الرحلة المصور ، وهو يدور حول نقل رفات القديسين من تيرونوفو الى فيدين (Vidin) بلدة القيصر إيفان ستراتسمير (Tzar Ivan Stratsmir) أو حتى أبعد من ذلك غرباً . وهاجر الى الغرب

كذلك علماء بلغـاريون أمثـال غريغـوري تسامبـلاك (Grigory Tsamblac) وكونستانتين أوف كوسـتنتس (Konstantin of Kostenets) الفيلسـوف ، حاملـين معهم مهارات وتقاليد أدبية . وبذهـاب سليلـو أوائـل وأواخـر الأدب البلغـاري الوسيطي انقضى التراث الفعلي لسلافية الكنيسة القديمة .

ورغم ما لهذا التقليد الأدبي الاكلـيريكي المصقول - في خلفيتـه البلغـارية والبلقانية والسلافية الأوسع - من أهمية ، لم يحل محل الجداول الأدبية الوسيطية غير الدينية والأقل رفعة ، هذه الجداول التي انسابت بشكل أوسع فوق أرض إنجيلية وتاريخية بل وثنية كذلك ، لتملأ الأساطير البلقانية بمـواضيع كلاسيكية ومسيحية وأبوكريفية . ويشمـل هذا الأدب القصصي بأهدافـه الأخـلاقية والتعليمية قصـة بلغارية قصيرة تعود الى أوائل القرن العاشر ، (ربما كانت أقدم مثال سلافي على هذا النوع الأدبي الخصب) تتحدث عن المبارزة الفروسية المعجـزة التـي واجـه فيهـا سيميون (Simeon) المجـريين ، و « قصـة ميخائـل المحـارب » (Mikail the Warrior) و« قصـة تيوفانـا صاحـب الفنـدق » (Teofana the Inkeeper) و « اصطفانيت واهنيلات » (Stefanit and Ihnilat) و « قصـة الملـكة البلغـارية بيرسيكا » (Bulgarian Queen Persika) التي ربما بنيت على حياة براكسي(Praksi) ابنة بورس الأول (Boris I) . والى هذا النوع من الأدب الخارج عن النطاقـين الاكليريكي والملكي ، تعود مجموعة الكتابات العقائدية الأبوكريفية لهرطقة بوكوميل (Bogomil) التي استثارت الأوساط الرسمية ، وأدت إلى ردود فعل حيوية واعلامية من برزبيتركوزما (Presbyter Kozma) ، والى دعوة القيصر بوريل(Tzar Boril) لاجتماع كنسي ، ١٢٠١١ م . وأخيراً تعتبر تقارير القديس يوحنا ريلا(St. John the Rila) - وهو القديس التقليدي الراعي لبلغاريا ، ومؤسس أول دير - الأرضية المشتركة التي يلتقـي فيهـا الأدب البلغـاري الاكلـيريكي القـديم والآداب الأكثـر شعبية . ومن الأعمال البارزة هنا جنباً الى جنب مع النسخ الشعبية « سيرة الأب المبـارك يوحنـا ريلا » (Yoan of Rila) للبطـرك افتيمـي ، وكتـاب فلادسـلاف كراماتيك (Vladislav Gramatik) وعنـوانه « قصة ريلا : نقل رفات القـديس يوحنا الى دير ريلا الذي أعيد تأسيسه » .

الأدب الروسي

الأدب الروسي القديم :

ظهرت أقدم المؤلفات الأدبية الروسية في القرن الحادي عشر ، وبما كان تطور الأدب مرتبطاً منذ البداية بقبول المسيحية على يد القديس فلادمير عام ٩٨٨ ، وبتنصير البلاد ، لذا كان الأدب الروسي القديم دينياً وتعليمياً بصورة رئيسية ؛ كما تأثرت المؤلفات التعليمية بالأدب البيزنطي المترجم عن الأغريقية . وتأثر الأدب العلماني بالشعر الشعبي الشفوي الذي تناقله السلافيون الشرقيون قبل أن كان لروسيا أدب مكتوب بمدة طويلة . وأهم تراث للفولكلور الروسي ملحمة أو أغنية شعبية بطولية اسمها « بايلينا » (Bylina) ، نظمت في القرن العاشر وما بعده وذات موضوع رحب . وانتشرت هذه الأغاني الشعبية في كييف (Kiev) ونوفغورد (Novgorod) وغاليسيا (Galicia) .

فترة كييف :

تسمى أول مرحلة من الأدب الروسي القديم من القرن الحادي عشر الى أوائل القرن الثالث عشر فترة كييف أو فترة ما قبل الفتح المغولي . وكان التركيز الرئيسي للنشاط الأدبي في جنوبي روسيا ، وبشكل رئيسي في كييف ، رغم انه كتبت مؤلفات منعزلة في مدن أخرى في الجنوب والشمال . وبشكل عام ، اشترك الكتاب الشماليون والجنوبيون بلغة بعينها هي اللغة الادبية القديمة للسلافيين الشرقيين التي أمتصت الى حد ما عناصر من اللغة السلافية،الكنسية .

احتوى أدب فترة كييف منذ البداية الكثير من الترجمات عن الاغريقية بصورة رئيسية وكان بعضها مترجماً عن اللاتينية أيضاً . ومن بينها كتب صلاة معظمها بالبلغارية القديمة تضم الصلوات والاناشيد . وظهرت عدة أنواع من الكتب

الانجيلية ومن بينها أناجيل ابراكوس(Aprakos) وفيها نظمت قراءات من الاناجيل حسب أيام الاسبوع ، على انها جزء من صلاة الكنيسة . وأقدم مخطوطة وصلتنا من هذه الأناجيل هي «انجيل اوسترومير»(Ostromir's Evangelium) الذي نسخ في الفترة بين عامي ١٠٥٦ و١٠٥٧م ، كما كانت أقدم مخطوطة معروفة للاناجيل الأربعة هي «الانجيل الغاليسي»(Galician Gospel) عام ١١٤٤ . وتضمنت مؤلفات مترجمة أخرى رومانسية عن الاسكندر ونسخاً من اسطورة طروادة وعدة رومانسيات بيزنطية .

كانت كتب التاريخ أحد الانواع الادبية القديمة الواسعة التطور بالروسية القديمة . وقد صُنفت المجموعات التاريخية بدءاً من منتصف القرن الحادي عشر . وفي أوائل القرن الثاني عشر كانت تتشكل مجموعة تاريخية وأدبية كبرى دعيت باسم «التاريخ الروسي الاولي»(Povest Vremennykh let) ، جمعت أول نسخة منها على الارجح حوالي عام ١١١٢ على يد نسطور (Nestor) وكان راهباً في دير كييف ـ بتشرسك(Kiev Pechersk) .

شغلت المواعظ مركزاً مرموقاً في أدب الفترة الكييفية «وأفضل مثال لها ذلك» «الحديث عن القانون والعفو»(Slovo o Zakone i Blagodati) لهاريون (Harion) كتبه قبل أن يعين مطراناً اول لروسيا عام ١٠٥١ . وفي القرن الثاني عشر كان المطران الروسي الثاني كلمنت سمولياتش(Kliment Smolyatich) وبشكل خاص كيريل(Kirill) اسقف طوروف(Turov) داعيتين بارزين لفن الخطابة الاكليريكي بالروسية الكييفية . ومن سير القديسين القديمة تستحق «الاسطورة» المسماة (Skazaniya) ـ التي تتحدث عن بور(Boris) وغليب(Gleb) ـ وَلَدَيْ القديس فلادمير ـ الذكر الخاص . وهي تماثل الاسطورة التاريخية اكثر مما تشبه سير القديسين البيزنطية التقليدية ، اذ شحنت بالندب الغنائي والمونولوجات والصلوات والتأملات .

وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر كتب مؤلف سمي فيما بعد «بتريكون دير كييف بشريسك»(Kievo - Pechersky Paterik) يعتمد على مراسلات بين

سيميون اسقف فلادمير الراهب السابق في دير كييف بتشريسك ، وبوليكارب (Polikarp) الراهب في ذلك الدير . أما مصدر أدب الحج الى الارض المقدسة فنشأ أصلاً في روسيا «الكييفية» ، وأبرز مؤلف يمثله هو «حج» (Khozhdeniya) الى فلسطين عام ١١٠٦ ـ ١١٠٨م لمؤلفه دانييل (Daniil) رئيس دير في جنوب روسيا .

وأبرز مؤلف لروسيا «الكييفية» «انشودة مضيف ايغور» . Slovo o Polku) (Igoreve الذي يصف حملة غير ناجحة عام ١١٨٥ قام بها الامير ايغور اوف نوفغور ـ شفرسكي (Prince Igor Of Novgorod - Seversky) والامراء المتحالفون معه ضد البولوفسيانيين (Polovtsians) . وقد كتب بين عامي ١١٨٥ ـ ١١٨٧م وحفظ في مخطوطة اكتشفت عام ١٧٩٥ ، وفقدت عندما حرقت موسكو خلال اكتساح نابليون لروسيا عام ١٨١٢ . وقد وثقت النسخ التي أخذت عن هذه المخطوطة قبل فقدانها ، وربما كتبت الحوادث التي رويت في الانشودة بعد ان حدثت بوقت قصير . وتعتبر الانشودة ملحمة وسيطية بارزة ، وتتصف بروحها الوطنية ، كما تتميز بسموها الادبي .

تطور الادب الاقليمي :

كونت روسيا «الكييفية» خلال وجودها القصير ادباً تميز برفعة الفن والافكار ، ومع ذلك بدأ الانحدار التدريجي في المستوى منذ أواسط القرن الثاني عشر الذي اكده الفتح المغولي في القرن الثالث عشر ، وآل ذلك الى هبوط ملحوظ في النشاط الادبي .

انعكس الفتح المغولي كمصيبة داهمة في عدة مؤلفات أدبية من القرن الثالث عشر ، من أبرزها كتاب عنوانه «قصة تدمير ريزان على يد باتوخان» (Povest o razoreni Ryazani Batyem) وهي مشحونة بمواعظ سيرابيون (Serapion) رئيس دير كييف ـ بيتشريسك (Kiev-Pechersk) مسربلة بالحزن الناجم عن الاكتساح التتري .

وفي نهاية القرن الثالث عشر أو في بداية القرن الرابع عشر كتبت سيرة حياة الامير اسكندر نفسكي (Prince Alexander Nevsky) حسب التقليد المعروف عن سير القديسين ، لكنها بالغة القرب من قصص الحروب ، وتسيطر عليها شخصية الاسكندر الملحمية . ومن الاعمال الأدبية البارزة في القرن الثالث عشر في جنوبي روسيا كتاب تاريخ اسمه «تاريخ كاليش فولينسك» (The Galich - Volynsk Chronicle) ويصف حوادث وقعت بين عامي ١٢٠١ و١٢٩٢م ، مكوناً جزءاً من نسخة في مجموعة كتب تاريخية دعيت المجموعة «الهايباتية» (Hypatian) ، وقد كتبت في العشرينات من القرن الخامس عشر .

نجمت الطبيعة الاقليمية للادب الروسي من النقص المتزايد في الاتصال بين أصقاع روسيا ، الأمر الذي ما زال ظاهراً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولكن منذ أوائل القرن الخامس عشر طفق أدب موسكو يأخذ بأزمة الأمور ، لأن موسكو لعبت منذ أواسط القرن الرابع عشر دور المركز الموحد للقومية الروسية الكبرى .

وتتجلى هذه الوحدة بارزة بشكل خاص في قصص «تشتيت مامي» (Mamayevo Popoishche) التي ألفت في نهاية القرن الرابع عشر حول معركة كوليكوفو (Kulikovo) (١٣٨٠) . وأوحى فتح الاتراك للقسطنطينية بكتاب نسطور اسكندر (Nestor - Iskander) المسمى «قصة احتلال تزارغراد» (Povest o Vzyati Tsargrada) أي القسطنطينية . وكتبت هذه القصة بشكل رئيسي حسب اسلوب القصص الحربي . وفي أواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر كتبت قصص أخرى في موسكو حول موضوع خلافة روسيا السياسية لبيزنطة .

والى القرن الخامس عشر ايضاً ، يعود كتاب «رحلة عبر ثلاثة بحار» (Khozhdeniye za tri morya) لمؤلفه الفانسي نيكيتين (Alfansy Nikitin) وهو تاجر من تفير ، (Tver) جاب الهند وفارس بين عامي ١٤٦٦ و١٤٧٢ وكتبت وقائع

الرحلة بلغة روسية حيوية عامية ، بمزيج من الكلمات الفارسية والعربية والتركية . ولا تظهر أية صفات اقليمية مميزة في «قصة بطرس وفيفرونيا» (Provest o Petre i Fevroni) التي يمكن أن نردها بدورها الى القرن الخامس عشر .

ومن الادب الاقليمي الذي يعود الى هذا القرن كان أدب نوفغورد (Novgorod) متطوراً جداً ، مؤلفاً بذلك تواتراً من المؤلفات الادبية التي كتبت دفاعاً عن استقلال نوفغورد السياسي والاكليريكي . أما بالنسبة لأدب تفير(Tver) الذي ضاهى أدب موسكو فأبرز مؤلف فيه مقالة مديح للامير العظيم بوريس الكساندروفيتش(Boris Aleksandrovitch) الارثوذكسي كتبت حوالي عام ١٤٥٣ .

أما أبرز وأعمق المؤلفات دلالة على أدب بسكوف(Pskov) فهو او بسكوفسكام فزياتي(O Pskovskom Vzyati) الذي يصف اخضاع موسكو لبسكوف عام ١٥١٠م .

وارتبط نشاط المد الأدبي الذي بدأ في نهاية القرن الرابع عشر بسيل من هجرة رجال الدين من بلغاريا والغرب الى روسيا بعد فتح الاتراك هذه البلاد ، وكانت مادة واسلوب الأدب السلافي الجنوبي التي حملت الى روسيا أكثر ما حملت على شكل سير للقدّيسين ، كما كانت اعادة لترجمات من الاغريقية .

أدب روسيا الموحدة :

يعود تاريخ تأسيس دولة روسيا موحدة الى حكم ايفان الثالث(Ivan III) الكبير . وفي عام ١٤٨٠م تم تحرير روسيا بعد سيطرة تترية دامت سحابة قرنين ونصف ، وتركزت بذلك السلطة الاوتوقراطية (المطلقة) في مقاطعة موسكو . وفي حوالي منتصف القرن السادس عشر شرع ايفان الرهيب (Ivan The Terrible) المتوفى عام (١٥٨٤) بشن حملة نشطة ضد الامارات الاقطاعية القوية . وانعكس هذا النزاع على الوضع فكرياً . وكان أبرز ناطق باسم النبلاء الجدد الذين أوجدهم ايفان ضد الامراء الاقطاعيين ايفان برسفيتوف(Ivan Peresvetov) الذي شملت أعماله عدة قصص دعائية وملْتَمَسَيْنْ مرفوعين لايفان الرهيب. ومثل الامراء الاقطاعيين

داعية اعلامي ذو مواهب أدبية غير عادية هو الامير اندريه ميخائيلوفتش كيربسكي (Prènce Andrey Mikhylouich Kurbsky) في كتاب «تاريخ ايفان الرابع» (Istoriya o velikom knyaze Moskovskom) الذي ألفه في الستينات والسبعينات من القرن السادس عشر ، وقد هاجم فيه كيربسكي ايفان اعنف هجوم لتنكيله بأعدائه من أمراء اقطاعيين بريئين .

أدب جورجينا :

بدأ التاريخ الأدبي لجورجيا ـ شأنه شأن الأدب في أرمينيا المجاورة ـ بالتنصر في القرن الرابع والحاجة لاختراع ابجدية لنشر الانجيل باللغة العامية . وفي القرن الخامس ترجمت الاناجيل من الارمينية الى الجورجية ، وتبع ذلك ترجمة أعمال الرسل والمزامير ومؤلفات الآباء الاغريق القدامى . وأصلاً بدأ الأدب الجيورجي بسير القديسين ، وأولها سيرة القديس شوشانيك (St. Shushanik) (حوالي ٤٨٠) . وتشمل الأعمال الأولى الأخرى وصفاً لتنصر جورجيا على يد القديس نينو (St. Nino) ، وقصصاً عن بطل من القرن الخامس هو الملك فاختانغ الأول جورجاسال (King Vakhtang I Gorgasal) وكان الجيورجيون اول من أضفى طابعاً مسيحياً على قصة بوذية عن «بارلام وجوزافات» (Barlaam And Josaphat) ، وصلتهم في القرن التاسع بنص عربي .

كان الأدب الاكليريكي عميق الجذور في الثقافة الاغريقية البيزنطية ، كما مزجت الرومانسيات والملحمات حضارة فارس بعناصر أصيلة للفولكلور القوقازي . ومن الرومانسيات الهامة يمكننا ذكر «قصة حب فيزوراميانى» (Visramiani) ، التي حورت عن الرومانس الايراني ، وتعود الى أيام البارثيين ، وأميران ـ داريجانياني (Amiran - Darejaniani) وهي حلقة من القصص الغريبة الخيال . كما بدأ الشعر العلماني بالشاعر (يوهان شافتلي) (Ioann Shavteli) وشخرو

خادز (Chakhrukhadze) الذي نظم قصائد غنائية على شرف الملك داود الثاني (King David II) المتوفى عام ١١٢٥ ، والملكة (تامارا) (Tamara) المتوفاة عام ١٢١٣ . أما ملحمة «شوتا روستافيلي» (Shota Rustaveli) المسماة «الرجل في جلد النمر» (Vep'khis - iquosani) فتبحث في مواضيع الزمالة المثالية والحب البلاطي والمحاولات البطولية . وقد قطع الاحتلال تقليد «شوتا» الشعري ، الا أنه تجدد في القرن السابع عشر على أيدي الشعراء الملكيين أمثال تاموراز الأول (Teimuraz I) وأرخيل الثاني (Archil II) .

الأدب التشيكي :

كتبت أقدم النصوص المحفوظة باللغة التشيكية في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر . وشجع بلاط ملوك (بريمسليدز) (Premyslids) أمثال (ونسسلاس الأول) (Wenceslas I) المتوفى عام ١٢٥٣ ، أوتاكار الثاني (Otakar II) المتوفى عام ١٢٧٨ أدب البلاط بالألمانية ، وما من دليل على وجود أدب تشيكي قيم باللغة التشيكية قبل نهاية القرن .

شهد القرن الرابع عشر جدولاً مستمر التدفق من الانتاج الأدبي التشيكي ، وقد كشفت مجموعة من الاساطير الشعرية كتبت في الربع الأول من القرن عن نضج بينّ في التكنيك . وأقدم مؤلف علماني ملحمة «الكساندريس» (Alexandris) وتبحث في حياة الاسكندر الأكبر ، وتظهر أنها على احتكاك بملحمة المانية بنفس الموضوع كتبها الريخ فون ايشنباخ (Ulrich von Eschenbach) ، والقصيدة التشيكية تحفة ثانوية من نوع الأدب البلاطي . وصورت ملحمة بارزة أخرى عنوانها «تاريخ داليميل» (Dalimil Chronicle) تاريخ التشيكيين بأسلوب حي مباشر . وبرعاية الامبراطور شارل الرابع ، ازدهر العلم والأدب في بوهيميا بالتشيكية والالمانية واعظم انجاز أدبي في هذه الفترة هو «اسطورة شعرية عن القديسة كاترين» (Legend of St. Catherine) .

وبدءاً من عام ١٣٥٠ شرع باستعمال الأنواع الأدبية النثرية بكتابة سير القديسين وكتب التاريخ ثم وجهّت هذه الكتابات الى الطبقة المتوسطة . وتعود الى أواخر القرن مجموعة من الهجاء الشعري والقصائد التعليمية وفيها تتبدى الاصالة والذاتية المتميزة ولا سيما القصائد الهجائية المجهولة المؤلفين والموجودة في مخطوطة «هرادك» (Hradec) وقصيدة مجازية سياسية بعنوان «المجلس الجديد» (Nova rada) كتبها سميل فلاسكا اوف باردوبيك (Smil Flaska Of Pardubice) دفاعاً عن حقوق النبلاء البوهيميين ضد سلطة العرش . وفي أخريات القرن الرابع عشر لون الاهتمام بالقضايا الاخلاقية والاجتماعية الكثير من الكتابات التشيكية ، وكتب توماس أوف ستيتني (Thomas Of Stitny) مقالات باللغة العامية سبقت أحد الميول الرئيسية للحركة الهسّية (Hussite) ، وسيطرت هذه الحركة الاصلاحية التي نادى بها جان هوس (Jan Hus) على حياة بوهيميا الفكرية خلال الشطر الاول من القرن الخامس عشر . وفي خضم الجدل الديني والنزاع المدني لهذه الفترة كان من الطبيعي للكتابة العامية أن توجه بشكل رئيسي لاغراض عملية وجدلية . ولا تكمن أهمية هس بمواعظة بالعامية وبرسائله فحسب بل كذلك في اصلاح الكتابة التشيكية الذي دافع عنه في مقالة «اورتوغرافية بوهيميا» (De Orthographia Bohemica) . وكانت احدى النتائج المباشرة لحركة الاصلاح كتابة ترانيم دينية بسيطة ومؤثرة ألفها الهسيّون ، بينما انعكست أحداث الحروب الهسية بقصائد في مخطوطة «بوتزن» (Bautzen) وبعدد من كتب التاريخ وغيرها من المؤلفات النثرية .

وفي عداد من خلف هس (Hus) بيتر تشلكيكي (Peter Chelcicky) وهو أكثرهم أصالة وقد طور افكاره الاجتماعية الاصلاحية ودعوته للاعنف في عدد من المقالات والمواعظ البارزة ، واستقى الاخوة البوهيميون آراءهم مستوحين اياها من أفكار تشلكيكي . واعتبر هذا المذهب نموذجاً مبكراً للكنيسة المورافية (Moravian Church) وواحداً من أهم مصادر الادب التشيكي الشعبي في القرنين التاليين .

الأدب البولندي :

كانت اللاتينية اللغة الأدبية الوحيدة في بولندا شأنها في ذلك شأن البلاد

الأوروبية الأخرى وشملت الكتابات الأولى سير القديسين والسجلات التاريخية وأسفار التاريخ التي كتبها الرهبان ورجال الدين . وأهمها جميعاً سير القديسين وكتب التاريخ . وفي حوالي ١١١٥م جمع «الكرونيكون» (Chronicon) راهب بندكتي من أصل فرنسي عرف باسم كالوس(Gallus) . وألف الاسقف جان دلوكوز (Jan Dlugosz) كتاباً حوالي عام ١٤٨٠ سماه «السجلات التاريخية لملوك بولندا» (Annales Sen Cronicae inclyti Regni Poloniae) وعبر هذين الكتابين ، دخل الأدب والتاريخ البولنديان ثقافة اوروبا . وسمحت الكنيسة باستعمال اللغة العامية لأن اللاتينية لم تقو على سد الحاجات الخاصة مثل الصلاة والمواعظ والأناشيد.

والاعتقاد الخاطىء والتقليدي هو أن أقدم نص شعري وصلنا بالبولندية هو لأغنية على شرف السيدة العذراء بعنوان «بوغوردزيكا» (Bogurodzica) وفيها استعملت اللغة والجرس بمهارة وفنية فائقة . وفي حوالي نهاية القرن الثالث عشر أصبح الوعظ بالبولندية راسخ الجذور وأقدم مثال معروف للنثر البولندي هو «مواعظ للصليب المقدس» (Kazania Swietokrzyskie) ، ويعود الى اواخر القرن الثالث عشر أو بداية القرن الرابع عشر وقد أكتشف عام ١٨٩٠ . كما وصلنا أيضاً جزء من ترجمة للكتاب المقدس أنجزها جورج أوف جزويك (Jdrzej Of Jaszowice) عام ١٤٥٥ للملكة (صوفيا) أرملة فلاديسلو الثاني جاكيلو (Wladyslaw II Jagiello) .

وفي حوالي نهاية القرن الخامس عشر ، بدأت المؤلفات العلمانية بالظهور فهناك قصيدة هجائية ضد البابا (حوالي عام ١٤٤٩م) نظمها جورج كالكا (Jedrzej Galka) وهو أحد اتباع المصلحين جون ويكليف (John Wycliffe) وجان هس (Hus) . ووصلنا كذلك حوار شعري أخلاقي بعنوان «حوار بين المعلم بوليكارب والموت» (Rozmowa mistrza Polikarpa) يتميز بمستواه الأدبي الرفيع . ودام أسلوب الفترة الوسيطية الى وقت متأخر في بولندا . ومثّل مارسين بيلسكي (Marcin Bielski) روح العصر الوسيطي المتأخر في كتابه «تاريخ العالم» (Kronika Wszystkiego Swiata) ١٥٥١ ، وهو أول مؤلف تاريخي عام بالبولندية .

وتتضمن أفضل الأمثلة على الأدب البولندي تقليداً أدبياً مستمراً ، ومع أنها من مواضيع التراث الأوروبي المشترك ،الا ان الكتابات البولندية بلغت مستوى رفيعاً

من التعبير الشخصي في اطار من التأليف مجهولة هوية مبدعيه، كما أرسيت الأسس التي سمق عليها الأدب البولندي مرتفعاً الى مستوى الآداب الرئيسية خلال حكم كازيمير الثالث(Casimir III) العظيم ، مؤسس جامعة كراكو(Cracow) عام ١٣٦٤ .

الأدب الهنغاري :

تألفت أول آثار مكتوبة للغة الهنغارية من كلمات هنغارية متوضعة في نصوص لاتينية قانونية أو إكليريكية . وشهد القرن الثالث عشر ترجمات عديدة من اللاتينية لم يصلنا منها سوى مؤلف واحد هو ترجمة حرة لقصيدة نظمها جودفري دوبريتويل (Godefroy de Breteuil) كما أنتج القرن الرابع عشر بدوره ترجمات لاساطير القديسة مارغريت(St. Margaret) والقديس فرانسيس اوف آسيسي(St. Francis Of Assisi) . وشهد القرن الخامس عشر ترجمات من الكتاب المقدس . ولا يزال عدد وفير من المفردات التي أوجدت لهذا الغرض قيد الاستعمال حتى الآن . وشملت ترجمات أخرى أول مسرحية هنغارية «حول ثلاث عذارى مسيحيات» (On Three Christian Virgins) وترجمة لنشيد الانشاد لسليمان .

لم يكن الأدب الهنغاري برمته دينيا ، ويمكن استنتاج وجود تاريخ لحروب طروادة ونسخة هنغارية لرومانسية الاسكندر من ترجمات سلافية جنوبية . وشهد القرن الرابع عشر متنفساً لتطور أدب علماني لأن عدداً اكبر من العلمانيين غادروا هنغاريا لتلقي العلم ، ولدى عودتهم حاولوا ادخال الأشكال الأدبية التي تعلموها .

الأدب الفنلندي :

تبعت فنلندا السويد بدءاً من أواسط القرن الثاني عشر حتى عام ١٨٠٩ وظلت السويدية لغة الطبقات العليا حتى نهاية القرن التاسع عشر عندما ازداد

استعمال الفنلندية كأداة ثقافية . وبكل الأحوال فقد تمثل أقدم أدب فنلندي بشعر شعبي تداولته الالسن شفهياً وسجل لأول مرة في أواخر القرن الثامن عشر . وكان هذا الشعر غنياً ذا أشكال متنوعة . وناسب البحر العروضي (المكون من أربع تفعيلات نبرتها على المقطع الاول) المسمى (تروكي) اللغةَ الفنلدية ، كما ناسب المقطوعات الطويلة . وكانت معظم القصائد تتابعات ملحمية أو أغاني قصيرة . ركزت الملاحم على الحوادث الاسطورية أو أعمال الأبطال . والى هذه الزمرة يمكن أن تنسب قصيدة قديمة حول خلق العالم ، وقصائد حول التفتيش عن سامبو (Sampo) ومغامرات لمنكانين (Lemminkainen) وأسطورة كوليرفو (Kullervo) المأساوية . وفي أغلبها نجد أن الشخصية الرئيسية هي شخصية فينامونين (Vainamoinen) الذي رده البعض لأصول اسطورية، بينما اعتبره البعض الآخر شخصية تاريخية . وشكلت هذه القصص كذلك جزءاً من الملحمة القومية «كاليفالا» (Kalevala) . وعالجت القصائد الغنائية ـ التي نظمت النساء جزءاً كبيراً منها ـ مواضيع الترح والفرح اليوميين . والعديد منها أغاني حب أو وصف لاطوار الروح في حالة الوحدة ، ذات خلفية ريفية تتناثر فيها مناظر طبيعية للغابات والبحيرات ، بلمحات من مجتمع القرية .

وتغير كثير من القصائد أو أختلطت ببعضها بعضاً اثناء الانتقال الشفوي . وكان أقدمها أسطورياً يرجع الى أيام الوثنية (بقيت في الأماكن النائية حتى القرن الثاني عشر) ، ويعود الى آلاف السنين . وتحدر أغلبها عن العصور الوسطى اذ احتوت على حوادث واشخاص يمكن تأريخهم . وبدأ تصنيف الشعر الشعبي بشكل منتظم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وتوصل أشهر جامع لها وهو الياس لونروت (Elias Lonnrot) الى استنتاج مفاده أن من الممكن اعادة ترتيب أجزاء القصائد الملحمية لتكون ملحمة شعبية مستمرة ، وعلى ذلك فقد وصل عدداً منها بمادة من تأليفه ناسجاً اياها بحبكة موحدة . وكانت النتيجة هي « الكاليفالا » التي أتخذت شكلها النهائي في عام ١٨٤٩ ، والتي بنيت على مادة شعبية ، الا أنها كانت في بنيتها من عمل لونروت الذي نشر مختارات من القصائد الغنائية سماها «كانتيلاتار» (Kantelatar) . وكان أثرها وأثر «الكاليفالا» على الوعي القومي الفنلندي ، والفن والثقافة الفنلنديين ـ بشكل عام ـ ضخماً جداً .

الباب الثالث

عصر النهضة

عصر النهضة (The Renaissance)

(الاحياء)

ميزات العصر

يطلق اسم «النهضة» ـ ومعناها الحرفي اعادة الحياة ـ على الفترة التاريخية الاوروبية التي خلفت العصور الوسطى . وكان ايقاظ روح جديدة استجابة للنداء العقلاني والفني السمة البارزة لهذه الظاهرة السياسية والدينية والفلسفية التي تجلت كمجرد احياء لروح اليونان وروما بشكل رئيسي . وفي الأدب ، أوليَ اهتمام جديد بالكتاب الكلاسيكيين العظام تحليلاً لأعمالهم . وقام العلماء بالتنقيب عن النصوص الضائعة وترجموها ، وساعد على نشر هذه النصوص ما آلت اليه الطباعة من تطور في اوروبا منذ حوالي ١٤٥٠م .

ويتفق الجميع على أن السمات المميزة للعصر التي تجمعت تحت اسم النهضة ، هي تلك التي تبدو على أوضح ما تكون في أعظم الأعمال الفنية والأدبية التي بلغت مستوى لم تبلغه في أية فترة سابقة . وتحديد ماهية هذه المميزات في أعمال المؤلفين المنفردين أصعب منها في حالة تحديد مصادر هذه المواضيع والاهتمامات التي تنعكس عنها . ومن هذه المميزات انفردت ثلاث بأهميتها البالغة وهي بلا شك :

أولاً ـ الاهتمام الجديد بالعلوم التي يعكسها العلماء الكلاسيكيون المعروفون باسم «الانسانيين» والذين كانوا بدورهم النماذج الكلاسيكية المناسبة للكتاب الجدد .

ثانياً ـ النوع الجديد من المسيحية الذي بدأته حركة الاصلاح البروتستنتي التي قادها «مارتن لوثر» (Martin Luther) والتي لفتت اهتمام الناس الى الفرد وتجربته

الداخلية ، وحركت استجابة في البلدان الكاثوليكية تلخص عادة تحت اسم الاصلاح المعاكس .

ثالثاً ـ رحلات المستكشفين الكبار التي انتهت الى الأوج في اكتشاف كريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus) لأمريكا عام ١٤٩٢ ، وكانت ذات نتائج بعيدة المدى على البلاد التي طورت امبراطوريات ما وراء البحار ، وعلى اخيلة أكثر الكتاب موهبة في ذلك العصر وضمائرهم .

ويمكن اضافة عوامل أخرى الى هذه المميزات كالتطور في العلوم وعلم الفلك والحالة السياسية لايطاليا في أواخر القرن الخامس عشر ، اذ كانت الحرية الجديدة والروح الجديدة للبحث العلمي في دويلات المدن الايطالية حافزاً لتشجيع المبشرين الأوائل بالنهضة في أيطاليا أمثال دانتي وبيترارك وبوكاتشيو . وتبدت أزهار النهضة بفرنسا متجلية بنتاج الشعراء المعروفين باسم «بلياد» (Pleiade) ، وفي المقالات التأملية لميشيل دو مونتين (Michel de Montaigne) ، بينما انجبت اسبانيا في هذا الوقت أعظم روائييها ، وهو ميكيل دي سيرفانتس (Miguel de Cervantes) . وهناك شخصية اخرى حلقت فوق معاصريها ، وهي شخصية الشاعر البرتغالي لوي كاموويس (Luis Camôes) وفي الوقت نفسه ازدهرت المسرحية في اسبانيا والبرتغال ، ومثلها في أفضل حالاتها لوب دي فيجا (Lope de Viga) ، وجيل فيسانتي (Gil Visante) . وفي انكلترا كذلك سيطرت المسرحية على العصر ، وكانت مزيجاً من علم عصر النهضة والتقليد الوطني ، ذلك المزيج الذي أضفى حيوية فائقة على أعمال كريستوفر مارلو (Christopher Marlawe) وبن جونسون (Ben Jonson) وجون وبستر (John Webster) وغيرهم ، بينما برز شكسبير كأعظم موهبة شعرية ومسرحية بريطانية في نهاية القرن السادس عشر وبدء القرن السابع عشر . وأستمر الحافز خلف النهضة حتى القرن السابع عشر عندما عكس جون ملتون روحاً انسانية مسيحية يمكننا ان نربطها بالانساني ديسيديريوس ايرازموس (Desiderius Irasmus) وربما كان اسم ايرازموس الوشيجة الأقوى المرتبطة بالانسانية ، وهي روح التساؤل النقدي ، واحترام العلم الكلاسيكي وعدم قبول الخرافة ، والاحترام البالغ للانسان على أنه مخلوق من صنع الله . وكان أحد مظاهر

أثر الاصلاح البروتستنتي في الادب اعداد الترجمات العظيمة للكتاب المقدس الى اللغات العامية الدارجة خلال هذه الفترة، وبذلك وضعت مقاييس جديدة للكتابات النثرية . وفي شرقي اوروبا كان القرن السادس عشر رائعاً كعصر ذهبي للادب الهنغاري (يمثله شاعر عاطفي ينتمي الى شعراء الفروسية هو بلينت بالاسي Bàlint Balassi) وللأدب البولندي اذ انضم الى مؤسس الأدب البولندي ميكولاج ريج (Mikolaj Rej) منافسون ومقلدون كثيرون وخاصة الشاعر الهجائي والغنائي المأساوي جان كوشانوفسكي (Jan Kochanowski) .

يأخذ البحث التالي بعين الاعتبار أهمية التقسيمات القومية والسياسية واللغوية ، بينما يتتبع الانتشار العام للنهضة من ايطاليا الى خارجها ويجري المقارنات والموزانات التي يتطلبها التقارب السياسي واللغوي ، كما هي الحال بين اسبانيا والبرتغال على سبيل المثال .

ويبدأ البحث بوصف للغة اللاتينية العالمية التي ورثها عصر النهضة من العصور الوسطى ، والتي كانت أساسية لنشر افكار الناس مثل ايرازموس ، ثم يعالج البحث ازدهار الآداب باللغات المحلية مبتدئاً باللغات الرومانية مثل الايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية ، ثم يتبع ذلك المجموعات الجرمانية (مبتدئاً بالانكليزية) والاسكندنافية . وأخيراً تأتي آداب اوروبا الشرقية .

الفصل الأول

الأدب اللاتيني في عصر النهضة

يقترن تعبير أدب النهضة اللاتيني لايطاليا في القرن الرابع عشر بشكل رئيسي بدانتي وبيترارك بوكاتشيو مع انه يجب ان نذكر أيضاً المؤ رخ الفلورنسي ليوناردو بروني (Leonardo Bruni) والعلماء الانسانيين أمثال البرتينو موساتو (Albertino Mussato) وكولوتشيو سالوتاتي (Coluccio Salutati) وأينياس سيلفيوس بيكولوميني (Aeneas Silvius Piccolomini) وهو (البابا بيوس الثاني) . أما في الشعر فكانت هناك عودة عامة الى النماذج والاناقة الكلاسيكية ، بينما ظلت اللاتينية في النثر واسطة ضرورية للادب الانساني علمياً وفلسفياً ودينياً ، ذلك الادب الوافر الذي كان علامة من علامات العصر الجديد .

كان في إيطاليا ثلاثة مراكز للتعليم والأدب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وهي فلورنسة وروما ونابولي . وكان لكل من هذه المراكز الثلاثة حلقتها من الكتاب والعلماء ، وكانت المجموعة الفلورنسية خاصة مشهورة بالفلاسفة الأفلاطونيين أمثال بوجيو براسيوليني (Poggio Braciolini) ومارسيليو فيشينو (Marcilio Ficino) وجيوفاني بيكو ديلا ميراندولا (Giovanni Pico della Mirandola) والشاعر العالم انجيلو بوليزيانو (Angelo Poliziano) . كما كانت روما مركزاً للنحوي بيترو بيمبو (Pietro Bembo) وماركو فيدا (Marco Vida) ، وهو مؤلف لملحمة لاتينية عن الافتداء والخلاص من الخطيئة . بينما كانت نابولي موئل العديد من الشعراء والعلماء . ولاسيما جيوفاني بونتانو (Giovanni Pontano) وجاكوبو سانازارو (Jacopo Sannozzaro) ولورنزو فالا (Lorenzo Vala) وجيرولامو فراكاستورو (Girolamo Fracstoro) .

وقدمت كل من المانيا والأراضي المنخفضة مساهمة نثرية وشعرية عظمى للأدب اللاتيني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكان الكثير من الانسانيين مدينين بتعليمهم الأول الى « أخوية الحياة المشتركة » (Brethren of the Common Life) وهي مجموعة هولندية مسيحية أكدت التأكيد كله على الأدب الكلاسيكي . وكان في عداد هذه الأخوية ، ايرازموس (Erasmus) أكبر شخصية لعصر النهضة الشمالي ، ولكونه ترعرع حسب التقليد البياني للانسانية الأدبية ، كان قليل الاهتمام بالارهاصات العلمية للعصر . ولم يبزه أي إنساني في شمالي أوروبا كمراجع ومعلق على النصوص الأدبية الكلاسيكية وكتابات آباء الكنيسة . وكمعلق على النزاعات الاكليريكية في عصره ، وكعالم وفكه وناقد وهجاء . وكان يوهان تريذيميوس (Johannes Trithemius) الراهب الألماني مؤرخاً وعالماً واسع الاهتمامات والمعرفة . أما كونرادوس كيلتس (Conradus Celtis) فكان إنسانياً وشاعراً بارزاً ، بينما نظم بيتروس لوتيخيوس (Petrus Lotichius) شعراً أنيقاً .

وتتجلى « الانسانية » الاسبانية على أحسن صورها بشخصية العالم خوان فيفس (Juan Vives) وهو صديق ايرازموس ، بينما كان السير توماس مور (Sir Thomas More) الشخصية البارزة . وأدخل الايطالي بوليدور فيرجيل (Polydore Virgil) الأساليب الجديدة للكتابات التاريخية الى انكلترا ، وبدوره ، كان تيتو ليفيو فرولوفيسي (Tilo Livio Frulovisi) شاعراً ومؤرخاً . فكتب سيرة حياة الملك هنري الخامس ، التي أثرت في كتّاب انكليز لاحقين . ومن بين الشعراء اللاتين العديدين لا بد من ذكر جورج بوكانان (George Buchanan) وجون باركلي (John Barchay) وكلاهما اسكتلنديان . وتبدى التقليد الانكليزي للشعر الكلاسيكي وطيداً في المدارس وفي تلك القصائد اللاتينية لشعراء القرن السابع عشر أمثال جون ملتون(John Molton) وهنري فون(Henry Vaughan) وريتشارد كراشو(Richard Crashaw) وابراهام كولي(Abraham Cowley) .

وفي فرنسا حيث كانت النهضة متأخرة ـ كما هي الحال في انكلترا ـ فنظم بعض أعضاء مجموعة الكتاب المعروفين باسم « بلياد » (Pleiade) شعراً لاتينياً . ورغم نجاح شعر العامية الدارجة لم تتوقف القصائد اللاتينية ، وأدخلت عدة ترانيم

صيغت على أشكال كلاسيكية في صلوات الكنيسة في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وحتى مطلع القرن الثامن عشر اعتبرت اللاتينية أفضل وسيلة للتعبير عن الأعمال التاريخية والعلمية ، لأنه كان عليها أن تصل الى مستمعين أو قراء أوروبيين . ولهذا السبب وكلغة ما انفكت تعتبر عالميةً كتب بها كل من مارسيليو فيسينو (Marsilio Ficino) وبيكو دلأميراندولا (Pico Della Mirandola) وايرازموس ومور ، ومن بعدهم العلماء والفلاسفة أمثال فرانسيس بيكون(Francis Bacon) وهيجو كروتيوس (Hygo Grotius) ورينيه ديكارت (René Descartes) وبنديكت دي سبينوزا (Benedict de Spinoza) والسير آيزاك نيوتن (Sir Isaac Newton) .

وكان «الانسانيون أول من رأى ضرورة وجود أدب أمة ممثلاً في إنجاز ثقافي . وعلى ذلك لم يكونوا راضين ان يكونوا مجرد ناظمين لشعر لاتيني ، بل حاولوا الكتابة بكل أفانين الأدب الكلاسيكي . وبهذا أعطوا التقليد مدى لم يبلغه من قبل . ومن هذا المنطلق كان العصر كذلك يتمخض عن الآداب الأوروبية القومية الآخذة سبيلها الى التفتح ، ولذا لم يقتصر التقليد على اللاتينية بل مورس باللغات القومية بنجاح أخاذ .

وفي حوالي عام ١٥٥٠ كان التقليد الإنساني الذي احتوته مؤلفات ايرازموس البيانية قد تمكن تماماً من التعليم ، ولكن اللاتينية التي استند اليها ذلك التعليم لم تعد وسيلته الوحيدة ، لأن اللغات المحلية امتصت كل ما تستطيع عبر محاكاة النماذج الكلاسيكية . ودعت الحاجة الى مسلك جديد لأنه منذ وقت مبكر يعود الى أواخر القرن الخامس عشر ، أوصى رودولفوس أغريكولا (Rudolhus Agricola) « الانساني » الهولندي بأن على الكتاب أن يطوروا مواضيعهم حسب الأنماط والأساليب والنتائج والمؤلفات والمختلفات ، واقترح ثلاثين عنواناً مشابهاً لمواضيع البيان الكلاسيكي . وفي القرن السادس عشر نشر ـ في فرنسا ـ بيتروس ريموس (Petrus Remus) أفكار أغريكولا ، وكان له أثر ضخم ، إذ فصل ريموس الإبداع

والمزاج عن البيان تاركاً إياه مجرد أسلوب والقاء . وهكذا ـ وبشكل جلي ـ تحددت أبعاد البيان بأن فقد كل اهتمام بالمضمون .

الفَصْل الثّاني

الأدب الايطالي في عَصر النهضَة

عصر الانسانية :

بدأت النهضة الأوروبية في ايطاليا في القرن الرابع عشر متجسدة بأعلام أدبية أمثال بيترارك وبوكاتشيو . ومع ذلك كان القرن الخامس عشر ذا أهمية قصوى بالرغم من خلوه من المؤلفات الشعرية الرئيسية ، لأن رؤيا جديدة للحياة الانسانية شملت فهماً مغايراً للانسان والحياة، بله المبادىء الأكثر عصرية للأخلاق والسياسة، وتمكنت ان تجد في ثناياه متنفسها التعبيري كحصيلة لاعادة اكتشاف الماضي الكلاسيكي ، وكنتيجة لاختلاف الأوضاع السياسية عن القرون السابقة . وبالنسبة للنقطة الثانية ، نافس سائر الأمراء الايطاليون تقريباً بعضهم بعضاً في القرن الخامس عشر ، لتطوير الثقافة ، متوسلين رعاية البحث العلمي ، ومقدمين الضيافة والمساعدة المالية لأدباء العصر ، بله تأسيس المكتبات . وأصبح بلاطهم بالنتيجة مركزاً للبحث والنقاش العلميين ، وهكذا مهدوا للاحياء الثقافي الكبير .

وبمثل هذه الرعاية والتشجيع اشتهر بلاط فلورنسة تحت حكم لورنزو دي ميديتشي (Lorenzo de Medici) الكبير ، وبلاط نابولي تحت حكم ملوك آرغون (Argon) ، وبلاط ميلانو تحت حكم أسرة فيسكونتي (Visconti) وبعد ذلك تحت حكم أسرة سفورزا (Sforza) . ويأتي أخيراً البلاط البابوي الذي شمل بالحماية والمساعدة عدداً غفيراً من العلماء الايطاليين والبيزنطيين . اما بالنسبة للنقطة الأولى فقد بدأ التفتيش عن المخطوطات الضائعة للمؤلفين القدامى في النصف الثاني للقرن الذي سبق ، مما أدى الى انعاش غير عادي للاهتمام بالماضي الكلاسيكي .

وكُرِس بشكل خاص الكثير من البحث لأفلاطون والفلسفة الاغريقية بشكل عام ، وتلك حقيقة كان لها أثر عميق على تفكير عصر النهضة بشكل عام .

وعامة ما كانت الثقافة الجديدة للقرن الخامس عشر اعادة تقويم للانسان ، فقد عارضت الانسانية وجهة النظر الوسيطية عن الانسان بأنه قليل الأهمية نسبياً ، وامتدحته على أنه مركز العالم ، اذ تربط قوة روحه ما هو دنيوي وعلوي معاً ، والحياة الدنيا ليست سوى عالم تطبق فيها الروح قدراتها . وبشكل رئيسي ، كانت هذه المفاهيم التي نتجت عن الاهتمام الجديد بأفلاطون مواضيع مقالات عديدة يأتي في مقدمتها مقال لجيانوزو مانيتي (Giannozzo Manetti) وعنوانه «عظمة الانسان وروعته» (De dignitate et excellentia hominis) ، ومقال لبيكوديلا ميراندولا ، عنوانه «حديث عن عظمة الانسان» (Oratio de hominis dignitate) . وهكذا سفهت الرؤيا الانسانية ـ التي نشأت خلال هذه الفترة ـ الكثير من العقائد الدينية للعصور الوسطى التي كانت لا تزال واسعة الانتشار ، مثال الرهبنة التي هاجمها ليوناردو بروني (Leonardo Bruni) ولورنزو فالا (Lorenzo Valla) وبوجيو برا تشيوليني (Poggio Bracciolini) . ومع أن هذه الهجمات كانت مباشرة وصريحة ، لم تكن الحركة الانسانية في جوهرها ضد المسيحية ، لأنها ظلت بشكل عام مخلصة للمعتقدات المسيحية ، واعتبرها البلاط البابوي نفسه قوة «يجب أن تهضم لا أن تقهر» .

وفي النصف الأول من القرن نَظَر الانسانيون ـ بسبب حماستهم للأدبين الاغريقي واللاتيني ـ باحتقار للأدب الايطالي باللغة العامية الدارجة وكان نتاجهم الأدبي ـ الذي أوحت به النماذج الكلاسيكية ، والمدبَّج معظمه باللاتينية وأحياناً بالاغريقية ـ وافراً ، لكنّه تافه ، وقلما أظهروا فيه أية أصالة شعرية لاستعمالهم لغة ميتة من جهة ، ولسيرهم من جهة ثانية في ركاب ثقافة ارتضوا لأنفسهم العبودية لها . لكن هناك قلائل شذوا عن تلك القاعدة نذكر منهم جيوفاني بونتانو (Giovanni Pontano) وميشيل مارولو تاركانيوتا (Michele Marullo

(Tarcaniota ، وجاكوبو سانازارو (Jacopo Sannazzaro) إذ نجح هؤلاء أحياناً في ابتكار شعر صميمي عبّروا فيه عن الموضوعات التقليدية لشعر القرن الخامس عشر الغنائي بحماسة وأصالة وعمق ذاتي .

نشوء الأدب باللغة المحلية :

في حوالي منتصف القرن الخامس عشر اخذت الايطالية تحل محل اللاتينية كلغة أدبية . وفي عام ١٤٤١ عبرت المساجلة الشعرية العامة « كرتامة كورو ناريو » (Certame Coronario) التي كانت تقام في فلورنسة عن الانتصار لهذا المنحى من التغيير برفع شعار : إن لغة التخاطب لم تكن بأي شكل من الأشكال بأقل من اللاتينية . وفي النصف الثاني من القرن كان في أيدي القراء عدد من المؤلفات ذات قيمة أدبية ، أوحت بها الأساطير الكارولنجية أو الثقافة « الانسانية » الجديدة .

ونفخ في الملحمة الفروسية للأساطير الكارولنجية ـ التي كانت قد انحطت الى مستوى الكليشيهات المكررة ـ حياة جديدة على يد شاعرين اختلفت طباعهما وثقافتهما ، وهما (ماتيو ماريا بوياردو (الذي عكست ملحمته « حب اورلاندو » (Orlando Innamorato) عام ١٤٨٣ مُثُلاً فروسيةً قديمة ، كما عكست مقاييس معاصرة للسلوك والعواطف الشائعة ، ولويجي بولتشي (Luigi Pulci)الذي تتخلل قصيدته المسماة « مورغانتي » (Morgante) المطبوعة قبل عام ١٤٨٠ أخلاقيات شعبية وبرجوازية جديدة .

وتجلت مثل الانسانيين الجديدة على أكمل وجه في مؤلفات آنجيلو آمبروجيني بوليزيانو (Angelo Ambrogini Poliziano) وجاكوبوسانازارو(Jacopo Sanazaro) وليون باتيستا آلبرتي (Leon Battista Alberti) ، وهم ثلاث شخصيات بارزة جمعوا بين الاحاطة الواسعة بالماضي الكلاسيكي والوحي الذاتي العميق . وأهم عمل أدبي لبوليزيانو قطع شعرية لمقارعة الانسان » (Stanze Per la Giostra) عام

١٤٧٥ ـ ١٤٧٨ ، كونت عالماً أسطورياً عاشت فيه مفاهيم ذات أصل كلاسيكي بطريقة جديدة . ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة لمؤلّف « آركاديا » سانازارو (Sannazaro) (١٥٠٤) وهو عمل يعكس حياة الكاتب الى حد بعيد وفيه يمتزج الشعر بالنثر . وقد ظل ذا تأثير واسع حتى القرن الثامن عشر . أما مؤلفات آلبرتي (Alberti) الأدبية فتمدنا بصورة أكثر اتزاناً عن الواقع المعاصر ، إذ عرضت صورة كئيبة للحياة الانسانية التي يسيطر عليها خبث الانسان ونزوات الحظ . أما بالنسبة للورنزو دي ميديتشي(Lorenzo de Medici) الذي كان راعياً للعديد من الأدباء ، فهو غزير الانتاج ، وإن كان ذا قيمة وثائقية أكثر منها أدبية .

وفي عام ١٥٢٥ م نشر بيترو بيمبو (Pietro Bembo) في البندقية واحداً من أوائل كتب نحو اللغة الايطالية وعنوانه « نثر اللغة العامية » (Prose della Volgar Lingua) وفيه دعا الى لغة أدبية ايطالية تستند الى نماذج توسكانية تعود الى القرن الرابع عشر وبخاصة بترارك وبوكاتشيو ، لكن عارضه الرأي أولئك الذين اعتقدوا بأن على اللغة الأدبية أن تستند الى تطورات لغوية راهنة ولاسيما تلك التي أوجدها جيان جورجيو تريسينو (Gian Giorgio Trissino) الذي طور نظريات دانتي عن الايطالية كلغة أدبية . ومن ناحية عملية كانت المشكلة مشكلة اللغة والأسلوب معاً . وحفل النصف الأول من القرن السادس عشر بعدد غفير من المساهمين في محاولة حل هذه المشكلة ، إلا أن نظريات بيمبو كان لها الغلبة في النهاية ، وذلك في الشطر الثاني من القرن . ومرد ذلك الى حد بعيد عائد لنشاطات أكاديمية ديلا كروسكا (Accademia della Crusca)،وكانت الحصيلة الأكثر علمية تجاه قضية اللغة نشر الأكاديمية أول معجم ايطالي عام ١٦١٢ .

وخلال العقود الأولى من القرن السادس عشر ألفت مقالات عدة عن الشعر حسب الأفكار الانسانية وتعليمات الشاعر الروماني الأوغوسطي (هوراس) (Horace) . ولم يظهر أي تطور تدريجي في النظرية الجمالية الشعرية إلا بعد عام ١٥٣٦ ، عندما نشر النص الاغريقي الأصلي « لكتاب الشعر »(Poetics) لأرسطو،وهكذا حُلِّل المبدأ التقليدي والمتعارف عليه تحليلاً أفضل لأن التأكيد كان

يركز على تقليد المؤلفين الكلاسيكيين أكثر من الطبيعة ، وكانت الوحدات الدارجة الثلاث (وحدة الزمان والمكان والعمل) من بين القواعد البيانية التي أعيد تأسيسها آنئذٍ ، وكانت فكرة أن الشعر هو نتاج الخيال يدعمه العقل إحدى أسس بيان القرن السادس عشر ، هذا المفهوم الذي أحياه الأدب الايطالي ،والـذي انتصر في فرنسـا واسبانيا وانلكترا خلال القرن التالي .

الأدب السياسي والأخلاقي :

عكست مؤلفات نيقولا مكيـافلي (Niccolo Machiavelli) فكر عصر النهضة في أكثر نواحيه أصالة ،ولاسيا في التحليل الموضوعي للطبيعة الانسـانية . ووُصِف مكيافلي بأنه مؤسس علم سياسي جديد قوامه فصل السياسة عن الأخلاق . وكانت تجربته السياسية أساساً لأفكاره ، والتي طورها حسب مبادىء عامـة مثـل مفهـوم «القــوة» (Virtu) و «الحــظ» (Fortuna) . وقــد اعتبــر «القــوة» ذات هدف عملي هو النضال ضد « الحظ » الذي يمثل قوى العنف وعدم المسؤولية . وتظهر مقالته الشهيرة المسماة « الأمير » (Il Prince) التي ألفت عام ١٥١٣ موقف الكاتب النبوئي الذي استند الى ملاحظة القضايا السياسية المعاصرة . وقد أصبح وصفهـا للحاكم المثالي دستوراً للسلطة المطلقة في جميع ربوع أوروبا مدة قرنين . وتظهـر « الأبحاث التي كتبت حول العقد الأول من حياة تيتـوس ليفيوس .... Discorsi) Sopra la prima deca di Tilo Livio) حوالي ١٥١٣ - ١٥٢١ الموقف الواقعي

نفسه ، اذ رفعــت المصلحة العامة فوق جميع الاعتبارات ، وميزت بين الفضيلة السياسية والفضيلة الأخلاقية . أما مؤلفاته السبع حول « فن الحـرب » L'arte) della guerra) ١٥٦٠ التي تتحدث عن خلق جيش حديث فهي اكثر تقنية ، بينما قدمت مؤلفاته التاريخية بما فيها « تاريخ فلورنسة » (Istorie Florentine) ١٥٢٠ - ٢٥ ، أمثلة على نظريات كان عرضهـا في مقالاتـه . ولمكيافلي كذلك مكانتـه في «تـاريخ الأدب» وبشـكل خاص لهزليتـه «لاماندارغـولا» (La Mandragola) عام ١٥١٨ ، وهي احدى الكوميديات البارزة في ذلك القرن .

ومع ان (فرانسسكو كويتشيارديني) (Francesso Guicciardini) كان فردياً وداعية للمذهب العملي اكثر من مكيافيلي يظل المؤرخ الوحيد في القرن السادس عشر الذي يمكن أن نضعه ضمن اطار النظريات السياسية التي بناها . وقد استرعى الاهتمام الى المصالح الشخصية للمشتغلين بالسياسة ، وجلا نظريات مكيافيلي بصورة بدت معها مثالية بالمقارنة . وكتابه « ملاحظات » (Ricordi) ١٥٢٨ ـ ١٥٣٠ أحد أكثر كتب التاريخ وضوحاً وأصالة في ذلك القرن . ومن بين كتب التاريخ الأخرى للفترة كتاب « حياة » (Vita) للصائغ والنحات بنفينوتو تشليني (Benvenuto Cellini) وفيه يتحدث عن نفسه ، وهو ممتع وهام لأسلوبه العفوي ولاستعماله لغة فلورنسة الدارجة .

وعُبِّر عن أسمى المطامح الأخلاقية لعصر النهضة في مؤلف الكاتب (بلدسّاري كاستي جليوني) (Baldassare Castiglione) وعنوانه «رجل البلاط» (El Cortegiano) نشر عام ١٥٢٨ وفيه يعالج موضوع رجل البلاط المثالي والسيدة النبيلة والعلاقة بين رجل البلاط والأمير . وأصبح أكثر الكتب تأثيراً في ذلك القرن . وكتب جيوفاني دلاّكاسا (Giovanni della Casa) حوالي ١٥٥٠ ـ ٥٤ موضوعاً شهيراً بعنوان «جالاتيو» (Galateo) (ترجم الى الانكليزية عام ١٥٧٦) ، ويبحث في السلوك ويعبر تعبيراً كاملاً عن فكر مؤلفه الفكه وتهذيب المجتمع الايطالي المعاصر . وانعكست حياة الفترة ايضاً مصورة تصويراً حياً في عمل (بيترو آرتينو) (Pietro Artino) الذي سماه آريوستو «سوط الأمراء» . إذ أن كتابه «مناقشات» (Ragionamenti) ١٥٣٤ ـ ٣٦ صيغ بأسلوب عفوي كاشفاً عن طبيعة شهوانية دون أية روادع .

الشعر : سيطر نموذج بترارك على الشعر الغنائي ، في القرن السادس عشر ، وذلك لسبب رئيسي هو تقبل نظرية عصر النهضة حول التقليد ، وتمشياً مع تعاليم بمبو (Bembo) . وإجمالاً ، نظم جميع شعراء القرن الرئيسيين قصائد غنائية حسب أسلوب بترارك . واتسمت قصائد دلاّ كاسا (Della Casa) بشيء من الأصالة . أما كاليازو دي تارسيا (Galeazzo di Tarcia) ففاق معاصريه من الشعراء بفضل أسلوبه المحكم .

وخلال القرن السادس عشر ، ظل حياً تقليد الشعر الذي يصور مشاعر مؤلفه ، وكذلك الشعر الفكاهي والهجائي حتى بلغ مركزاً مرموقاً على يد فرانسيسكو برني (Francesco Berni) بقصائده الهزلية التي تطرقت ـ عهد ذاك ـ الى مواضيع جدّية ، ومدارها بشكل رئيسي موضوعات بذيئة أو تافهة وفيها تتجلى مهارة أدائه . كما استمر خلال هذه الفترة أيضاً تقليد الشعر التعليمي الذي استثمره الكتاب الانسانيون على يد (جيوفاني روسيلاّي (Giovanni Rucellai) الذي أعاد صياغة الكتاب الرابع عشر للمؤلّف فيرجيل المسمى « جيورجيكس »(Georgics) في كتابه المسمى « النحل (Le api) وعلى يد لويجي آلمانّي (Luigi Alamanni) الذي ألّف كتاباً بستة مجلدات عنوانه «دلاّ كولتيفازيوني»(Della Coltivazione) .

ولعل أرقى تعبير للذوق الكلاسيكي لعصر النهضة نجده في كتاب لودفيكو آريستو (Ludvigo Ariosto) وعنوانه « أورلندو الغاضب »(Orlando Furioso) نشرت أول طبعة منه عام ١٥١٦ وترجم الى الانكليزية عام ١٥٩١ ، وقد تضمن حوادث مختلفة أخذت من ملحمات شعبية وسيطية ، ومن أوائل عصر النهضة ، إلا أن الصفات الفريدة للكتاب مردها وحي وتقنية آريوستو نفسه ، بله موقفه الموضوعي والنقدي لشخصياته . وكان كتاب « أورلندو الغاضب » أكمل تعبير للاتجاهات الأدبية لعصر النهضة الايطالي آنئذٍ ، وأثر كثيراً على أدب عصر النهضة الأوروبي في مراحله الأخيرة . ألّف آريستو كوميديات أشارت الى بداية الكوميديا عصر النهضة في الأدب المحلي ، بأن أدخلت تقليداً للكوميديا اللاتينية .

وهناك كذلك محاولات لاعادة تجديد الملحمة وذلك بإخضاع تقاليد الفروسية لقوانين أرسطو في الكتابة . كتب المنظِّر اللغوي جيان جورجيو تريسينو Gian) Giorgio Trissino) حسب أشد قوانين أرسطو صرامة ، بينما حاول (لويجي آلمانّي (Luigi Alamanni) أن يركز القصص حول شخصية واحدة وذلك في كتابيه « جيورني المهذب » (Giorne Il Cortese) و « آفارتشيده » (Avarchide) (وهو تقليد لالياذة هوميروس) . أما جيامباتستا جيرالدي (Giambattista Giraldi) ويعتبر أكثر شهرة ككاتب ملحمة (تراجيديا) ، فكان صاحب نظريات أدبية حاول أن يطبقها على قصيدته «أركوله»(Ercole) .

وفي خلال القرن ، اخترع شكلان من المزيج الشعري عرف أولهما باسم الشعر « الفيدنزياني » (Fidenziano) واشتق اسمه من كتاب ألفه كاميللو سكروفا (Camillo Scroffa) وهو شاعر كتب بمزيج من الكلمات اللاتينية والنحو الايطالي ، وثانيهما « الماكاروني » (Macaronic) وأطلق إسماً على شعر يتألف من مفردات ايطالية أخضعت للقواعد اللاتينية . وأفضل ممثل لهذا النوع من القريض الراهب البندكتي تيوفيلوفولنجو (Teofilo Folengo) في رائعته المؤلفة من عشرين فصلاً وتسمى « بالدوس » (Baldus) (النسخة الأولى منها عام ١٥١٧) . ونظراً لاشتطاط الأدب الانساني في هذين الضربين من الشعر : « الماكاروني » و « الفيدنزياني » ، اتجه الميل للتقليد الساخر .

وكان توركواتو تاسو (Torquato Tasso) آخر شاعر في عصر النهضة الايطالية ، وأحد عظماء أدباء ايطاليا . ففي قصيدته « القدس المحررة » (Jerusalemme Liberata) (أكملت عام ١٥٧٥ ونشرت للمرة الأولى عام ١٥٨١) لخَّص التقليد الأدبي المميّز لعصر النهضة ، إذ أعاد تجديد الملحمة الكلاسيكية حسب الاهتمامات الروحية لعصره . ويكشف عمله عن النزاع الداخلي ، بين رغبته في التعبير عن نفسه حسب الأصول الكلاسيكية ، ورغبته في أن يعطي درساً في الأخلاق . وبكل الأحوال ، تعكس بعض مؤلفاته الهامة العفوية الصادقة ، وتعتبر مسرحيته المرحة « لامينتا » (L'Aminta) ١٥٧٣ أفضل مثال على شعره أيام الشباب ، وهي من نوع الشعر الرعوي الجديد . وكانت « القدس المحررة » حصيلة التوازن في مطامح الشاعر المتنازعة : فهي موضوع مسيحي عولج بشكل كلاسيكي . أما قصيدته « القدس المقهورة » (Jerusalemme Conquistata) ١٥٩٣ فقد أعاد صياغتها حسب قواعد أرسطو الدقيقة ، ومثل الكنيسة الكاثوليكية في ردة فعلها ضد الاصلاح البروتستانتي المعروفة باسم الاصلاح المضاد .

وانتهى به النزاع الداخلي بغلبة المبدأ الأخلاقي ، وشعرياً فالقصيدة فاشلة . وعبر حياته الفكرية نظم تاسو قصائد دينية أقصر . وتنبسط كتاباته النثرية بأسلوب لم تعد تسيطر عليه النماذج الكلاسيكية .

المسرحية : كانت مسرحية «سوفونيزبا»(Sofonisba) ـ لمؤلفها ترسينو ١٥١٤ ـ ١٥ وأخرجت للمرة الاولى عام ١٥٦٢ ـ أول مأساة نظامية باللغة الايطالية الدارجة . وقد تبنى تركيبها الكثير من النماذج الكلاسيكية ، بيد ان سماتها الشعرية عادية ، وفي حوالي منتصف القرن السادس عشر قام جيامباتستا جيرالدي بردة فعل ضد تقليد المسرحية الاغريقية ، واقترح ان يكون الكاتب المأساوي الروماني (سنيكا) نموذجاً يحتذى . وفي تسع من المسرحيات التراجيدية والتراجي ـ كوميدية كتبت بين عامي ١٥٤١ ـ ١٥٤٩ أظهر بعض الاستقلال عن قواعد أرسطو . وأثر تأثيراً وطيداً في الدراما الاوروبية ، وبشكل خاص في المسرحية الانكليزية في العصر الاليزابيثي .

وفي القرن نفسه كان للكوميديا الايطالية التي اوحت بها النماذج اللاتينية قيمة فنية أكبر من التراجيديات ، اذ عكست الحياة المعاصرة بشكل أكمل ، ويمكن اعتبارها نقطة البدء للدراما الاوروبية الحديثة . فبالاضافة الى كوميديات (آريوستو) و (ميكافلي) علينا ان نضيف مسرحية ذات حيوية هي مسرحية «كالاندريا»(Calandria) (أخرجت للمرة الاولى عام ١٥١٣) للكاردينال برناردو دوفيزي دابيينا(Cardinal Bernarodo Davisi da Bibbiena) وخمس مسرحيات ممتعة كتبها بترو آريتينو(Pietro Aretino) . اما الفيلسوف الايطالي الكبير جيواردوانو برونو(Giordano Bruno) فقد كتب حواراً بالايطالية حول نظريته الجديدة عن الكون وحول افكاره المعادية «للانسانيين» وألف بدوره ملهاة «عنوانها صانع الشموع»(Il Candelaio) عام ١٥٨٢م .

القصص :

أثر الاتجاه الكلاسيكي الذي أسسه بيترو بمبو(Pietro Bembo) أيضاً على الأدب القصصي الذي تجسد نموذجه الواضح في كتاب بوكاتشيو «ديكاميرون» (Decameron) ويمكن ان نجد الاصالة وحيوية التعبير في الاثنتين والعشرين قصة المسماة «العشاءات»(Le Cene) لمؤلفها الصيدلي الفلورنسي انطون فرانسيسكو كرازيني(Anton Francesco Grazzini) وكتب الراهب الدنيوي اكنولو فيرنزولا

(Agnolo Firenzuolo) عدة قصص بما فيها خرافة «الحمار الذهبي»(Asino D'oro) وهي ترجمة حرة لكتاب آبوليوس بالعنوان نفسه ، كما بدأ أحد رجال الدين وكاتب قصص قصيرة يدعى (ماتيو باندللو)(Matteo Bandello) اتجاهاً جديداً في قصص القرن السادس عشر بأن كتب **٢١٤** قصة كانت غنية بالعناصر الدرامية والرومانطيقية دون ان يقصد بها الرفعة الكلاسيكية . وسار (جيرالدي شينزيو) (Giraldi Cinzio) بالاتجاه نفسه في مجموعته القصصية المؤلفة من ١١٢ قصة ، والتي أسماها «ايكاتوميتي»(Ecatommiti) عام **١٥٦٥** .

الفَصْل الثّالث

الأدَب الفرنسي في عَصر النهضَة

كان القرن السادس عشر احد أغنى الفترات الادبية في فرنسا وأكثرها تنوعاً . وبرز في المقدمة ثلاثة كتاب وهم فرانسوا رابليه (Francois Rabelais) وبيير دو رونسار (Piere de Ronsard) وميشيل دو مونتين (Michel de Montaigne) ، فكان القرن الذي شهد انتهاء العصور الوسطى وولادة النهضة في فرنسا ، بله تلك الفترة التي نازعت فيها حركة الاصلاح الديني حركة احياء العلوم رغم انها ارتبطت بها بادىء ذي بدء .

المسرحية : يتجلى الانسلاخ عن العصور الوسطى اكثر ما يتجلى في المسرحية ، اذ أخذت مسرحيات خلق الكون والمعجزات (التي كانت عروضاً بسيطة لموضوعات دينية معروفة بالاضمحلال) ـ منذ منتصف القرن السادس عشر ـ وذلك بسبب معارضة رجال الدين إياها بشكل عام . ومع ذلك ظلت بعض الاشكال الوسيطية للمسرحية ، تمثل حتى نهاية القرن ، ولكن النهضة اكتسحت ـ في باريس على الاقل ـ سائر آثار مسرحية العصور الوسطى ، تمشياً مع روح التغيير الوافدة من ايطاليا وبسبب من استيراد ترجمات ايطالية للكلاسيكيات ، فضلاً عن ترجمات جديدة لمؤلفات أخرى منها الكترا (Electra) لسوفوكليس من الاغريقية الكلاسيكية . وسارع الانسانيون الفرنسيون الى كتابة تراجيديات أصيلة حسب النموذج الكلاسيكي . فكتب اتيان جوديل (Etinne Jodelle) أول مأساة حديثة وعنوانها «كليوباترا الاسيرة» (Cleopatre Captive) أخرجت عام ١٥٥٢ ، وأول

كوميديا حديثة بعنوان «يوجين»(Eugène) عام ١٥٥٢ . واختار كاتب التـراجيديا الرئيسي في هذه الفترة روبـرت غارنيية(Robert Garnier) موضوعاتـه من الادب الكلاسيكي والادب المقدس والادب الوسيط . وأشهر مآسيه «اليهود»(Les Juives) عام ١٥٨٣ المستوحاة من الكتاب المقدس . وكتب برادامانت(Bradamante) اول تراجي ـ كوميديا فرنسية أستندت جزئياً في بنيتها المسرحية على «اورلندو الغاضب» لاريوستو . وكانت أفضل مسرحيات جارنييه غنائية فصيحة مؤ ثـرة . أمـا كاتـب الكوميديا الرئيسي لهذا القرن فهو بيير دي لاريفي(Pierre de Larivey) الذي ربما كانت أفضل مسرحياته «الاشباح»(Les Esprits) ١٥٧٩ .

الشعر : حفلت هذه الفترة بتنوع ضخم وثروة هائلة من الشعر ، وكان اول شاعر هام كليمنت مارو(Clement Marot) الذي عالج اشكالاً وموضوعـات مميزة لكلا العصرين الوسيطي وعصر النهضـة ، كما قرض بعض الشعـر المجـازي والاسطوري ، واتسمت قصائده بروعـة اسلوبهـا السهـل المصقـول ، وبنكتتهـا الحقيقية الرشيقة ، وبأناقتها الجديدة في الشعر الفرنسي . أما راعيته مارغريت اوف انجوليم(Margaret Of Angouléme) فكانت هي الاخرى شاعرة تمازج قصـائـدها مسحـة دينية وغـرامية . وكان ديوانها الـرئيسي «جواهـر لؤلـؤة الأمـيرات»(Les Marguerites de la marguerite des princesses) .

وازدهرت في مدينة ليون(Lyons) مجموعة من الشعراء الاكفاء ، في طليعتهم موريس سكيف(Maurice Scève) الذي اشتهر بسلسلته الطويلة من أشعار الحب المهداة الى «ديللي»(Délie) ١٥٤٤ . ثم تلك الشاعرة الموهوبة لويس لابيه(Louise Labé) التـي تحـكي في مراثيتهـا الثـلاث ، مع/ ٢٤/ قصيدة من نوع «سـونيت» (Sonnet) قصة حب عاطفي ينبض بأرقى نبرات الشاعرية .

والشاعر الرئيسي للنهضة الفرنسية هو بيير دو رونسار(Pierre de Ronsard) الذي قام بدراساته الرئيسية تحت اشراف الشاعر الانساني جان دورا(Jean Dorat) وألفا معاً باسهام خمسـة آخـرين هم يواكيم دوبليه (Joachim du Bel'ay) وجـان انطوان دوبيف(Jean Antoine de Baif) وريمي بيلّو (Rémy Belleau) وبونتوس دو تيار(Pontus de Tyard) وايتيان جوديل(Etienne Jodelle) المجموعـة الشهـيرة

المعروفة باسم «الثريا» (La Pléiade) ، هادفين من ورائها خلق أدب فرنسي ينافس أدب ايطاليا النهضة ، ووسيلتهم بذلك النهوض بالفرنسية الى مستوى اللغات الكلاسيكية ، جاهزة لانتاج مأساة نظامية تتضمن أشكالاً شعرية غنائية من طراز «الأود» (Ode) التي كتبها بندار وهوراس ، ومن نوع «السونيت» (Sonnet) . وكتب دوبيليه بيانهم الرسمي المتضمن أهدافهم بعنوان «الدفاع عن الفرنسية والاستشهاد بها» (Defense et illustration de la langue française) (١٥٤٩ وترجم الى الانكليزية عام ١٩٣٩) . وبلغ رجال «الثريا» الكثير من أهدافهم ، وغالباً ما توصلوا الى نتائج هامة . ولكنهم اشتطوا احياناً ، وهكذا كانوا مسؤولين الى حد ما عن ردة الفعل التي قادها فرانسوا دو ماليرب (François de Malherbe) في مطلع القرن السابع عشر . وكتب رونسار طائفة شعرية كبيرة من نوع «السونيت» و«الاود» ومراثي وقصائد فلسفية وتأملية ، كما كتب شطراً من ملحمة . وكانت قصائده الغنائية من نوع «الاود» و «السونيت» جميلة بشكل خاص . وجادت قريحته بشعر ممتاز في اربعينات وخمسينات القرن السادس عشر . ويليه في المرتبة دو بيلّيه الذي نظم قصائده الغنائية من نوع «السونيت» بمهارة فائقة ، وخاصة مجموعة «الاسف» (Les Regrets) عام ـدذط . وكان بيلو مجوِّد الشعر خفيف النبرة رشيقها . ونظم الكثير ، وبشكل بارز «مجموعة رعوية» (Bergerie) ضخمة .

وقفّى أثر شعراء «الثريا» وخاصة رونسار الكثير من المقلدين ، ونافح جاك بيلوتية دو مان (Jacques Peletier du Mans) مدافعاً عن نظريات هذه المجموعة ، ونظم بالذات قصائد غنائية قيِّمة على طريقة رونسار . وفي عداد الكثيرين ممن تأثروا به ، الشاعر جاك تاهورو (Jacques Tahureau) الذي نظم قصائد غنائية من نوع الـ «سونيتات» رافعاً اياها للمعجب بهن (Sonnets de L'admiree) عام ١٥٥٤ . واوليفيه دو مانيي (Olivier de Magny) ناظم «تنهدات» (Les Soupirs) ١٥٥٧ . وجان فوكولان دو لا فرزني (Jean Vauquelin de la Fresnaye) الذي جادت قريحته بعدة قصائد رشيقة منها «الاناشيد الريفية» عام ١٦٠٥ (Idillies) ، وبشعر بديع سماه «فن الشعر» (Art Poëtique) وفيليب ديبورت (Philippe Deportes) وهو شاعر

بلاط مفضل اعتبر في عصره خليفة رونسار. وحقاً فقد نظم قصيدة جيدة عن ايكاروس (Icarus) .

كان النصف الثاني من القرن السادس عشر فترة نزاع مدني مرير ، اذ اطلق العديد من الشعراء العنان لمشاعرهم السياسية والدينية العنيفة. وربما كان أبرزهم تيودور آجريبا دوبيينه (Théodore Agrippa d'Aubigné) الذي كان مؤلفه الرئيسي بعنوان «التراجيدي» (Les Tragiques) وكان دوبيينه (D'Aubigné) شاعراً دينياً على مذهب كالفن (Calvin) وهجّاء مّر اللسان . وحاز غيوم دي بارتا (Guillaume du Bartas) البروتستنتي كذلك على شهرة واسعة لقصيدته الملحمية «الاسبوع» (La semaine) ١٥٧٨ ، وفيها يصف عملية الخلق كاملة . أما جان دو سبوند (Jean de Sponde) الذي اعيد اكتشافه على ايدي علماء القرن العشرين فكان بروتستانتياً تحول الى الكاثوليكية ، وكتب عام ١٥٨٨ «مقالة في نماذج لبعض القصائد المسيحية» (Essay de Quelques poèmes christiens) بأسلوب عاطفي مزركش . وكان جان بابتيست شاسينييه (Jean-Baptiste Chassignet) الذي نظم مجموعة من القصائد الغنائية من نوع «السونيت» تضمنت تشابيه ومجازات رائعة هو الآخر قد أعيد اكتشافه مؤخراً . ومن بين المواهب الثانوية (جاك دوبيرون) (Jacques du Perron) وغبريل دوكوينار (Gabrielle de Coignand) كشعراء دينيين ، ولكل منهما عدة قصائد جيدة .

النثر : لم يكن الأدب القصصي النثري في القرن السادس عشر غزير الكمية الا ان نوعيته ارتقت على يد أحد أبرز الكتاب الفرنسيين في جميع العصور ، وهو فرانسوا رابليه (Francois Rabelais) وقد استلزم عمله العظيم عدة أجزاء: «بنتاغرويل» (Pantagruel) ١٥٣٢ «وكاركانتوا» (Gargantua) ١٥٣٥ ، و«الكتاب الثالث» (Tiers Livre) ١٥٤٦ ، و «الكتاب الرابع» (Quart Livre) ١٥٥٢ ، ثم هناك سفر خامس لم تثبت نسبته اليه نشر بعد وفاته عام ١٥٦٤ . وتقريباً طرق رابليه بما تحلى من علم غزير كل ابواب المعرفة من العلم المعاصر بابداع محلق . وفوق كل هذا كان دقيق الملاحظة صادق النظرة النقدية ، عميق البصيرة ، وثاب الخيال الشعري ، وأتى عمله توضيحاً وتعليقاً على أفكار ومشاعر ومطامح ومعرفة

عصر معين ، وأمة بذاتها ، جذاب الاسلوب ،غني اللغة ، خيالي التعبير ، وباختصار ، فهو رجل غير عادي ألم بأطراف المعرفة العملية بالعالم بقوة آسرة من التعبير الأدبي .

ومن القاصِّين المرموقين مارغريت اوف انكوليم(Margaret Of Angoulême) التي أشتهرت أكثر ما اشتهرت كشاعرة . وكانت مجموعتها من القصص القصيرة بعنوان «هيبتاميرون»(Heptaméron) تقليداً لكتاب بوكاتشيو «ديكاميرون» . وبالمقارنة بمن سبق كانت قصص بونافتير دي بريه(Bonaventure des Périers) أقصر وأبسط ، الا انها الذع نكتة وأقل صقلاً . أما نويل دوفيل(Noel du Fail) فهو قاص أصيل اتسم عمله بملاحظة مباشرة للفلاحين وطريقة حياتهم .

في حقل التاريخ والمذكرات لا يمكن مقارنة كتاب القرن السادس عشر بكتاب العصور الوسطى . وكانت مذكرات بيير دو برانتوم(Pierre de Brantomme) احد جنود رجال البلاط ، تحوي سير ضباط وجنود وقصص فضائح البلاط الفرنسي . وكان جان بودان (Jean Bodin) الكاتب السياسي الرئيسي للفترة ، وقد انحاز الى الجانب الملكي في النقاش الطويل بين الملكيين والمصلحين في كتابه «الجمهورية» (Republique) ١٥٧٦ وأيد فيه الملكية المطلقة. وعارضهفي وجهة النظر هذه ايتين دو لا بوتي(Etienne de la Boetie) أبرع من أحتج ضد الملكية في مقاله الرائع «ضد واحد»(Contreun) ١٥٧٦ .

وكان الدين وثيق الصلة بالسياسة عهد ذاك ، وهذا ظاهر بشكل خاص في القصيدة الهجائية المساة «مينيبه»(Ménippée) ١٥٩٤ التي داخلها النثر ، وكتبها عدة مؤلفين ضد «العصبة المقدسة»(Holy League) وهي الحزب السياسي الكاثوليكي .

ومن بين الكثير من مؤلفات اللاهوت ذلك السفر المقرر للاصلاح الديني الفرنسي وكتاب كالفن «مبادىء الديانة المسيحية» الذي ظهر باللاتينية عام ١٥٣٦ والفرنسية عام ١٥٤١ . وهو أول مؤلف عظيم يكتب بنثر فرنسي جدلي ، ولم يؤثر على الفكر في فرنسا فقط ، وانما امتد الى غيرها من البلدان . وحتى قبل كتابته كان

الانساني جاك لوفيفر دو ايتابل (Jacques Lefèvre d'Etaples) ـ أول مترجم للكتاب المقدس كاملا الى الفرنسية ـ قد أدرك وتلميذه غيوم فاريل (Guillaume Farel) أهمية استعمال الفرنسية للاعمال الدينية وغيرها من المؤلفات النثرية. وأسهم في هذا المضمار أحد اتباع لوفيفر، ويدعى بيير فيريه (Pierre Viret) فكتب العديد من مقالات الحوار اللاهوتية والاخلاقية. واستمر نموذج الكتابة الجدلية الدينية من الجانبين البروتستنتي والكاثوليكي خلال القرن، مع ان بعض الكتاب الدينيين امثال البروتستنتي فيليب دوبلسي مورني (Philippe Duplessis - Mornay) توصلوا الى نظرة أشمل. والى جانب الكنيسة الكاثوليكية وقف القديس فرانسيس دوسال (St. Francis de Sales) اسقف جنوا الذي يظل مؤلفه «مقدمة لحياة التقى» (Introduction à la vie devote) ١٦٠٨ كتاباً كلاسيكياً شعبياً. وأخيراً يجب ان نذكر بيير شارون (Pierre Charron) لكتابه «الحقائق الثلاث» (Les Trois Verités) ١٥٩٣، وكتابه «ثلاثة كتب من الحكمة» (Trois Livres de La Sagesse) ١٦٠١ وفيه بحث الدليل على وجود الله وطبيعته.

وكان هناك ثلاثة كتاب بارزين لمؤلفاتهم العلمية، وهم جاك آميو (Jacques Amyot) وهنري استيين (Henri Estienne) واتيان باسكييه (Etienne Pasquier) وأشتهر آميو، اسقف اوكسير (Auxerre) بترجماته من الكلاسيكيات اللاتينية، وصرح كاتب المقالات ميشيل دو مونتين (Michel de Montaigne) بأن معاصريه مدينون لآميو اذ علمهم كيف يكتبون الفرنسية ويتكلمونها. وخير نتاجه ترجمته عن الاغريقية القديمة كتاب بلوتارك «سير» (Lives) الذي ربما لوّن اكثر من أي مؤلف كلاسيكي آخر افكار القرن السادس عشر وكتاباته. وكتب استيين (Estienne) وهو طباع ومصنف معاجم ـ عدة مقالات فصيحة ومؤثرة باللغة الفرنسية، بينما كان باسكييه (Pasquier) أحد أوائل عظماء النقاد الادبيين يكتب بالفرنسية. ويعتبر كتابه «دراسات فرنسية» (Recherches de La France) أحد روائع النقد المتزن والفرنسية الجيدة. ومن بين الكتاب الثانويين في هذا المجال، نذكر الجراح آمبرواز باريه (Ambroise Paré) لما كتبه بالفرنسية من مقالات جراحية، وبسط سيرته الذاتية بقلمه، ولتلك أهمية أدبية خاصة.

ويقف كاتب المقالات ميشيل دو مونتين(Michel de Montaigne) متميزاً إذ حاز الأدب كنزاً من أعظم كنوزه «بمقالاته» الشهيرة(Essais) ١٥٨٠ . ولم يكن الشك المبدأ الكامن خلف هذا العمل بل الانسانية . وبكون الكاتب مشككاً بطبعه ، فقد تجلت ـ بشكل طبيعي ـ هذه الناحية في مقالاته ، وكانت في الشطر الأخير من القرن ، معبرة عن المواقف العقلية بنفس المستوى من التمام التي عبّر عنها رابليه(Rabelais) في الشطر الاول منه . وساد الاعتقاد بأنه لم يبق سوى القليل مما يستحق الاكتشاف محل البحث والتساؤل والاحتجاج والحماس البالغ والخيال الجامح . ومع ان الكاتب لم ينح باللائمة على العمل او المتعة ، الا انه اعتبرهما معاً تسلية عرضية مفيدة بالنسبة لحياة الانسان ، دون أن يشغف بهما ، الأمر الذي ميّز عصر النهضة . وأسلوب مونتين رائع لخلوه من الحذلقة ولغناه بالمفردات ، ولتألقه المتنوع . وهذا الكتاب أحد أكثر الكتب شعبية باللغة الفرنسية ، ومصدر متناهي المتعة يقرأ في أوقات الفراغ ، ويوضع جانباً ثم يتناول حسب الرغبة .

أدب البروفنسال : (Provençal)

خلال أواخر القرن الخامس عشر خبا أدب البروفنسال ، لكن دون أن يذوي كلية ، ولم تكف مدينة (تولوز) عن رصد المبالغ «لكلية البيان» التابعة لها ، تمشياً ونظام الجوائز الشعرية ، وفي عام ١٥١٣ أدخلت قصائد بالفرنسية الى المباريات ، لكن بعد عام ١٦٧٩ ، وخلال حكم لويس الرابع عشر ، كانت هذه المباريات هي الوحيدة المسموح بها . وفي القرنين اللذين تليا بعد فترة وسيطية مجيدة ، كان هناك تتابع في المؤلفات باللغة البروفنسالية ذات طبيعة تعليمية بشكل رئيسي ، عملت مع ذلك على الابقاء على نوع من التقاليد الأدبية .

وفي القرن السادس عشر برزت دلائل على حركة قوية في اتجاه نهضة بروفنسالية ، فقد ارتفع كاسكون بيه دو كاروس(Gascon Pey de Garros) مؤلف كتاب «قصائد رعوية» (Eglogues) بلهجته المحلية الى مستوى اللغة الادبية بترجماته «مزامير داوود» و«قصائد غاسقونية»(Poesias Gasconas) ١٥٦٧ . وفي النهاية الاخرى من جنوبي فرنسا حيث كانت تنطق لغة «الاوك»(Oc) في بروفنسال نفسها

بدأت الحـــركة ممثلـــة بالكاتـــب لوي بيلـــو دو لا بيلوديير (Louis Bellaud de la Bellaudière) في اتجاه النظم باللغة المحلية .

الفَصْل الرَّابع

الأدَب الاسْباني في عَصر النهضَة

بدء العصر الذهبي :

يمكن اعتبار توحيد اسبانيا عام ١٤٧٩ ، واكتشاف كولومبوس أمريكا والعالم الجديد ١٤٩٢ الذي تم بعد ادخال الطباعة ١٤٧٤ ، والمتوافق والاتصال الثقافي مع ايطاليا (كانت نابولي منذ عام ١٤٤٣ تابعة لآراغون) يمكن اعتبار حصيلة ذلك بدء فترة عصر النهضة في اسبانيا التي تعرف باسم **العصر الذهبي**(Siglo de Oro) .

عكس الأدب الاسباني غزارة التجربة الجديدة التي ولدت من المغامرات فيما وراء البحار ، والموقف الموضوعي المتسائل عن مدى الثقة بالأشكال الكلاسيكية التي أعيد اكتشافها . فقد ضم الانسانيون الاسبان رواد النحويين ومؤلفي المعاجم لأية لغة رومانية . وكان خوان لويس فيفس (Juan Luis Vives) الشخصية الاوروبية البارزة ، والاخوان خوان والفونسو دوفالديس (Juan, Alfonso de Valdes) وغيرهم أتباعاً لايرازموس الذي عمّت مؤلفاته مترجمة منذ عام ١٥٣٦ ، وبرز في إثره القديس اغناطيوس أوف لويولا (St. Ignatius Of Loyola) ، مؤسس جمعية يسوع ، كشخصية مناهضة للاصلاح الديني ، ليجيء بعده الشاعر والكاتب الديني فريه لويس دو ليون (Fray Luis de Léon) .

من أروع ما كتب في أوائل عصر النهضة رواية «كوميديا دو كاليكستواي ميليبيا» (Comedia de Calixtoy Melibea) ١٤٤٩ المكتوبة على شكل حوار ، والمنشورة غفلاً من اسم مؤلفها . وان عزيت لكاتب يهودي متنصر هو فيرناندو دو روخاس (Fernando de Rojas) . وتتمثل الشخصية المسيطرة فيها «بالقوادة» سلستينا (Celestina) التي صورت بواقعية لايدانيها بالروعة أي عمل أدبي آخر ،

حتى نفحت تلك الرائعة عنوانها وغالباً ما عرفت به ، وهو «لاسلستينا» (La Celestina) . وبقوة ، وتحليل بسكولوجي عرض تحليل العاطفة والصراع الدرامي الناجم عنها ، مما بّوأ الرواية منزلة أول رائعة من روائع النثر الاسباني ، وأول رواية واقعية .

الشعر : تربط القصائد البطولية الغنائية من نوع «البالاد» الملحمة البطولية الوسيطية ودراما القرن العشرين . وهي تقع في قلب الوعي القومي ، وتدل قدرتها على البقاء وانتشارها من سالونيكا الى تشيلي ، ومن الأراضي المنخفضة إلى شمالي أفريقيا على مدى اتساع حدود شهرة اسبانيا في عصر عظمتها .

عالجت القصائد البطولية الاولى (أواسط القرن الخامس عشر) حوادث الحدود أو موضوعات غنائية ، ولتلك التي تعالج مواضيع وسيطية بطولية أهميتها ، لأنها شكلت مصدر كل انسان عن التاريخ القومي وشخصياته . وفي حوالي ١٥٥٠ جمعت القصائد البطولية الغنائية في «كتاب أغاني البالاد» (Cancionero de Romances) المحفوظ في آنتفرب (Antwerp) وكذلك في «مجموعة متنوعة من قصائد البالاد» (Silva de Varios romances) . وسرعان ما استغل الشكل الشعري (وزن ثماني التفعيلات ، في أبيات مترادفة مسجوعة) لأغراض غنائية على أيدي أشهر شعراء العصر ، وظل حتى الآن الوسط المختار للشعر القصصي الشعبي .

فشلت المحاولة السابقة في صبغ الشعر الاسباني بالصبغة الايطالية ، وذلك لعجز الاسبانية وفنها اللغوي الشعري عن حمل العبء . ومهّد الشاعر الكاتالاني (خوان بوسكان آلموجارير (Juan Boscan Almogarer) ـ الذي أعاد ادخال البحور الشعرية الايطالية ـ لشاعر أكبر منه بكثير هو كارسيلازو دو لا فيكا (Garcilaso de la Vega) الذي ولدت على سبحات بيانه القصيدة الغنائية من جديد ، وبله مهارته في التقنية الشعرية التي أخذها عن الشعراء الوسيطيين الكلاسيكيين ـ أضفى على نتاجه طابعاً شخصياً بارزاً وذلك لمعالجته موضوعات عصر النهضة المميزة . وبشكل عام حددت قصائده القصيرة ومراثيه وقصائده الغنائية من نوع «السونيت» الطريق للشعر الغنائي خلال فترة العصر الذهبي الاسباني .

ومنح فريه لويس (Fray Luis) بتبنيه بعض الأساليب الفنية الشعرية لكارسيلازو ـ مدرسة سلمنكا(Salamanca) ـ والتي تركز على المضمون أكثر من الشكل ـ نمطها الخاص بها . وتزعم الشاعر والناقد فرناندو دي هريرا(Fernando de Herrera) الخط المضاد المتمثل بمدرسة اشبيلية التي أخذت الكثير عن كارسيلازو وأولت النواحي الدقيقة للشعر الرفيع اهتمامها ، وعالج بعمق مؤثر في رباعيته من القصائد الغنائية من نوع «الأود» موضوعات بطولية دارجة . وتمثل الدفاع عن بحور الشعر الوطنية القصيرة المرتبطة ـ بشكل رئيسي ـ بالشاعر الهجائي كرستوبال دو كاستيليجو(Cristobal de Castillejo) تدعمه مجموعات القصائد البطولية من نوع «البالاد» الآنفة الذكر والدراما الناشئة .

وبالنسبة للشعر الملحمي كان آريوستو وتاسو النموذجين اللذين احتذيا ، وان تغيرت الصورة فبتلك الموضوعات والابطال المتعلقين بالفتح والتوسع ، أو الدفاع عن الامبراطورية والعقيدة فيما وراء البحار . وقارب آلونزو دو آرسيلا أي زونيكا (Alonso de Ercilla y Zuniga) الوصول الى انجاز حقيقي بقصيدته «آروكانا» (Araucana) ١٥٦٩ ـ ٩٠ . ويروي فيها قصة المقاومة الوطنية للفتح الاسباني في تشيلي . ومن الأمثلة الملحمية الأخرى النموذجية نأتي على ذكر دارغونتيا (Dargontia) ١٥٩٨ ، وهو تاريخ شعري لرحلة السير فرانسيس دريك(Sir Francis Drake) الأخيرة ووفاته ، وقصيدة «التاج المأساوي»(Corona Tràgica) ١٦٢٧ التي تتحدث عن مأساة ماري ملكة الاسكتلنديين .

المسرحية القديمة : وشأنها شأن البلاد الأوروبية الأخرى علينا ان نفتش عن أصول المسرحية الاسبانية في الكنيسة ، فمسرحية «الملوك الحكماء الثلاثة»(Auto de Los Reyes magos) غير الكاملة من حلقة عيد الغطاس هي الوحيدة التي وصلتنا من الدراما الاسبانية الوسيطة ، وجاء فيها تشخيص المجوسي وهيرود ومستشاريه واقعياً ، كما أشار المزيج من البحور الى ناحية من تطور لاحق للمسرحية في اسبانيا .

ويشير تلميح في دستور الملك الفونسو العاشر الى وجود شكل ما للمسرحية العلمانية في القرن الثالث عشر الا أنه لم تصلنا أية نصوص . وسبقت هذه العروض النقدية المسلية التي قدمها ممثلون جوالون والتي سميت «جويكوز» (Juegos) المسرحيات القصيرة والفصول الهزلية التي كثيراً ما حشرت في المسرحيات والتي اطلق عليها في أسبانيا اسماء مثل (Pasos) و(Entremeses) و(Sainetes) والتي شكلت احدى مساهمات اسبانيا الرئيسية في الفن المسرحي .

وأشار خوان دل أنسينا (Juan del Encina) الى تحرر المسرحية من القيود الاكليركلية ، وذلك باقامته عروضاً لرعاة الأدب النبلاء ويضم مؤلفه «كتاب الاغاني» (Cancionero) ، ١٤٩٦ محاورات رعوية ودينية ودرامية بلهجة ريفية الا أنه سرعان ما اتجه نحو موضوعات علمانية أو هزلية حيوية من نوع «الفارس» (Farce) . وعبرت بعض مسرحياته عن مفهوم للمسرحية عبر اقامته الطويلة في ايطاليا ، وتحولت فيه الوسيطية الوطنية الى تجريبية جريئة من تجارب عصر النهضة .

ومن جهة ، فان تلميذ أنسينا البرتغالي جيل فيسنتي (Gil Vicente) ـ وهو شاعر بلاط في لشبونة كتب كذلك بالقشتالية ـ نفح طبيعة الحوار ، ودقة الملاحظة ، وادراك الموقف تقدماً رائعاً ، وبخاصة ما تميز به من غنائية عبر في بعض منها عن أروع الشعر الاسباني لتلك الفترة ، وان اعتورتها احياناً هلهلة الحبكة التي تمثل نقطة ضعف الشاعر .

وبالدرجة الأولى كان خروج الدراما من البلاط الى الساحة العامة ، وخلق جمهور لها من عمل لوبه دي رويدا (Lope de Rueda) الذي طاف مع فرقته المتواضعة ارجاء اسبانيا عارضاً فيها مجموعة من المسرحيات من تأليفه . وكانت هزلياته النثرية الأربع سخيفة ، وتجلت فضائله كمسرحي في مشاهده الهزلية بين الفصول العشرة . وتميز بكونه مؤسس المسرحية ذات الفصل الواحد ، ويمكن اعتبارها ارفع شكل مسرحي حيوية وشعبية في اسبانيا .

ويعتبر خوان دو لا كيفا (Juan de la Cueva) أول مسرحي حقق أمكانيات القصائد البطولية القصيرة من نوع «البالاد» في المسرح . واستمد هزلياته ومآسيه

بشكل رئيسي من الماضي الكلاسيكي ، الا انه التفت في مسرحياته «أمراء لارا السبعة» (Los Siete infantes de Lara) «وتحدي زامورا» (El Reto de Zamora) «وتحرير اسبانيا على يد برناردو دل كاربيو» (La Libertad de Espana Por Bernardo del Carpio) وجميعها نشرت عام ١٥٨٨ - الى القصص البطولية السابقة المألوفة في الشعر البطولي القصير «البالاد» ، وهكذا - وان لم يكن كاتباً مسرحياً مرموقاً - ساعد على تأسيس مسرحية قومية .

النثر - الكتابة التاريخية : قبل وفود الحركة المعاكسة لحركة الاصلاح الديني ، انتج النثر بعض المحاورات البارزة ، وخاصة على يدي الفونسو دي فالديس (Algonso de Valdes) في كتابه «حوار بين ميركوري وتشارون» (Dialogo de Mercurio y Carón) ١٥٢٨ . كما كتب أخوه خوان «حواراً حول اللغة» (Dialogo de la lengua) ذا قيمة نقدية رفيعة . واستمر استثمار التاريخ مماشياً ارتفاع الروح الوطنية ، عندما ألقت عظمة اسبانيا بظلالها فوق اوروبا . وتجلى آخر إزهار لها في الترجمة من اللاتينية الى الاسبانية التي قام بها خوان دو ماريانا (Juan de Mariana) بنفسه عام ١٦٠١ لمؤلفه حول تاريخ اسبانيا مما قام دليلاً على انتصار اللغة المحلية الدارجة للأغراض الأدبية .

إلا أن الأعمال التاريخية البارزة أتت من العالم الجديد وأظهرت انتقال التجربة الى الأدب بحيوية لم تشهدها اسبانيا من قبل ، فقد جاءت رسائل كولومبوس وما في تضاعيفها من وصف لرحلاته ، وكذلك رسائل الرحالة الشهير (هرمان كورتيس) (Herman Cortes) وتقاريره ، وغيرها من قصص كثيرة كتبها فاتحون أكثر تواضعاً ، جاءت فتحاً جديداً لآفاق جديدة ، تتبسط دون ناظري القارىء . وفي محاولة الكتّاب وصف مناظر طبيعية غريبة ، توسعت موارد اللغة بالكلمات الجديدة . ومن الكتب الأخاذة كتاب «التاريخ الحقيقي لفتح اسبانيا الجديدة» (Historia Verdadera de la Conquista de la Nueva Espana) ١٦٣٢ الذي كتبه السائح والمؤرخ برنال دياز ديل كاستيلو (Bernal Diaz del Castillo) الذي تمتع بذاكرة عجيبة وعين لا تخطىء في التفاصيل . وجادت ريشة بارتولومي دو لاس

كاساس (Bartolome de las Casas) رسول الهند الغربية ـ الذي نشر عام ١٥٥٢ ـ بـ «وصف مختصر لتحطيم الهند الغربية» : (Brevisima relación de la destruccion de las Indias) وفيه ينتقد سياسية اسبانيا الاستعمارية ، وسوء معاملة السكان الوطنيين مما أدى الى تفشي الخرافة السوداء (Leyenda negra) بين أعداء اسبانيا .

الرواية : سيطر على الذوق الشعبي للرواية لمدة قرن سلائل الروايات البلاطية (أمادي دو جولا) (Amadis de Gaula) . وحفظت هذه الروايات اللامتناهية مثل الفروسية الوسيطية ، لكنها مثلت التهرب الكامل لفقدانها اتصالها مع الحياة في كل نقطة ، ومع الزمن أثارت ردود فعل أدبية كالرواية الرعوية . ولما كانت مقتبسة عن ايطاليا ومشحونة بالحنين لعصر ذهبي «آركادي» ، كان رعاتها من رجال البلاط وكذلك الشعراء الذين أولوا الواقع ظهورهم ، شأنهم في ذلك شأن الفرسان المتجولين للروايات الفروسية .

وتركز رد الفعل الأكثر ايجابية في «رواية الكدية» (Picaresque) [١] التي تأسست عام ١٥٥٤ في باكورتها «لازاريللو دي تورميس» (Lazarillo de Tormes) القصيرة والمجهولة المؤلف . ويتبدى البطل متشرداً في هذا النوع الأدبي المتوطن في اسبانيا ، والمؤثر في آداب كثيرة أخرى . ويتجلى بشكل رئيسي بصفات تعارض السجايا التي يتحلى بها البطل فهو يعيش بعقلية من لا هم له سوى أن يظل حياً والذي يصور دنياه بحله وترحاله متنقلاً من سيد الى سيد . وتكمن أهمية معادلة «رواية الكدية» في انها قادت أدب القصة ثانية الى مراقبة مباشرة للحياة ، الا انها لم تسهم الا قليلاً بتطور الرواية كشكل أدبي .

وفي رواية «دون كيشوت» (Don Quixote) (الجزء الاول عام ١٦٠٥ والثاني عام ١٦١٥) رسم ميغيل دو سرفانتس (Miguel de Cervantes) ، وهو المتربع على ذروة الأدب الاسباني ، نموذجاً احتذى به كتاب الرواية الحديثة . ومع أن الرواية تبدو ـ في ظاهرها ـ نقداً ساخراً للكتابة القصصية عن «الفروسية» المغرقة في

---

(١) Picaresque : قصة بطلها لص أو أفاق.

عاطفيتها ، الا ان وضوح ادراكه لها مكنه من طرح الواقع على مستويين اثنين هما : الحقيقة الادبية لشخصية دون كيشوت والحقيقة التاريخية لتابعه سانشو بانزا (Sancho Panza) المتلمذ على يديه . وقد كشف سرفانتس في التفاعل المستمر لهذين الواقعين اللذين قلما يتماشيان عن دور الرواية ، وأرسى في العلاقة القائمة بين هاتين الشخصيتين أسس الواقعية النفسية على عكس التشخيص الجامد الذي كان سائداً في الادب القصصي السابق .

وفي كتابه «قصص نموذجية» (Novelas Ejemplares) ١٦١٣ ، حدد سيرفانتس دعواه بأنه السبّاق في كتابة قصص قصيرة فكهة بالاسبانية حسب الطريقة الايطالية من نوع «النوفيلا»(Novelas) ، وذلك بالتمييز بين تلك التي تمتعنا بما فيها من عمل ، وتلك التي يكمن فضلها في طريقة عرضها .

الكتابات الصوفية :

توافقت الفترة العظيمة للكتابات الصوفية الاسبانية مع حركة المعارضة للاصلاح الديني . على أن لتلك الحركة سوابق ، وبخاصة في كتابات اليهودي الاسباني المغترب ليون هيبريو(León Hebreo) وكتابه «محاورات الحب»(Dialoghi di amore) عام ١٥٣٥ الذي ترك أثره العميق على القرن السادس عشر ، وعلى الفكر الاسباني فيما بعد . وتستند الأهمية الأدبية للصوفيين على واقع أنهم بمحاولتهم تخطي قصور اللغة ، كانوا يحررون موارد تعبير لم يسبق لغيرهم ان طرقها . وقد دلت كتابات القديسة تريزا أوف آفيلا (St. Teresa of Avila) وبشكل خاص رسائلها وسيرتها الذاتية ، على مواهب روائية عظيمة ما زالت في المهد . وتكشّف فريه لوي دو ليون(Fray Luis de León) في نثره وشعره عن تقى عاطفي واخلاص وشعور عميق للطبيعة ، بأسلوب ذي نقاء فريد . كما ارتقى القديس جون اوف ذي كروس(St. John Of The Cross) درجات الشهرة بثلاث قصائد تعبر باسلوب رفيع عن تجربة اتحاد صوفي .

المسرحية اللاحقة : بلغت المسرحية مجدها الحقيقي بعبقرية لوب دوفيغا (Lope de Vega) وكان دستورها الذي نهجته مقالة لـ «لوب دي فيغا» وعنوانها «الفن الجديد في كتابة المسرحيات في هذا العصر» (Arte neuvo de hacer comedias en este tiempo) عام ١٦٠٩ ، وفيها رفض الكاتب القواعد الكلاسيكية ، وكذلك الكلاسيكية الحديثة ، وسعى الى مزيج من الهزلية والمأساة ، والى تنوع عروضي ، وجعل الرأي العام حكماً للذوق الجيد .

ولهذا كانت الدراما الجديدة اجتماعية تنضح بالتغيرات في القاعدة الثلاثية للمجتمع وهي امتداح العرش والكنيسة والشخصية الانسانية ، ورمز للأخيرة بمبدأ الشرف الذي امتدحه «لوب» باعتباره أفضل المواضيع جميعاً . وكانت هذه مسألة تقليد ، اذ عودل الشرف تقريباً بالسمعة . وكانت دراما عمل مقالب اكثر منها دراما شخصيات ، ونادراً ما وصلت الى أعماق المأساوي . والشيء الذي تفوق فيه المسرحيون الاسبان هو فهمهم وادراكهم للفن المسرحي والقدرة على ابتكار أكثر الحبك تعقيداً والتي تمسك بالانفاس .

ولوب الذي أدعى أنه ألَّف/ ١٨٠٠/ مسرحية ، عملاق بين معاصريه ولا شك ، واتصف باحساس لا يخطىء بما يمكن أن يحرك النظارة ، ويجعلهم يستجيبون لما يعرض على المسرح من أمور تتعلق بعظمة بلادهم ، وأصبحت الدراما على يديه قومية بمفهومها الحقيقي . ويمكن ادراج أعماله تحت قائمتين رئيسيتين هما : التاريخ الوطني . ومسرحيات «العباءة والسيف» (Capa y Espada) وموضوع الأخيرة السلوك المعاصر . ولقد نقب في الماضي الأدبي تفتيشاً عن المواضيع البطولية التي اختارها لتمثل نواحي من الشخصية القومية ، أو من التضامن الاجتماعي الذي استندت اليه اسبانيا .

أما مسرحية «العباءة والسيف» التي كان لها هيمنتها ، فتسلية صافية ، فيها الكثير من تخفي الشخصيات والوقوع في شباك الحب والتخلص منه في خوف على الشرف كاذب ، ومضاعفة للحبكة بالضحك الذي يثيره الخادم الفكه وخادم

السيدة . وقد أفشت في النظارة روح المسرة بسرعـة حركتهـا ، وحوارهـا المتألـق وتشابك العلاقات بين الجنسين ، وجلت بالتالي متع الحاضر في عالم لا مسؤ ول .

وكان أعظم خلفاء لوب اللاحقين ترسو دو مولينا (Triso de Molina) الذي عرضت مسرحيته «محتال اشبيلية» (Burlador de Sevilla) ١٦٣٠ ، اسطـورة دون جوان على المسرح لأول مرة ؛ كما تميزت مسرحية «التعقــل عنــد النســاء» (La Prudencia en la mujer) ١٦٣٤ بكونها من أعظم المسرحيات الاسبانية التاريخية . أما مسرحية «الشاك ملعون» (El Condenado Por Desconfiado) ١٦٣٥ فتعتبر من أروع المسرحيات اللاهوتية ،بينما نجد ان كوميديا ترسو من نوع «العباءة والسيف» من اكثر المسرحيات حيوية في بابها . أما خوان رويز دو آلاركون اي ميندوزا (Juan Ruiz de Alarcón y Mendoza) المولود في المكسيك فتميز عن غيره ، اذ كانت مسرحياته العشرون متزنة ومدروسـة يتخللهـا هدف أخلاقـي جدي . ومسرحية «الشـك في الحقيقة» (Verdad Sospechosa) ١٦٣٤ ، ألهمـت الشاعـر الفـرنسي العـظيم بيير كورني في مسرحية «الكذاب» (Menteur) كما ان مسرحيته «السيد» (Le Cid) كان لها مصدرها في النزاع بين الحب والشرف الذي تعالجه مسرحية «منجزات السيد» (Las mocedades del cid) للكاتب جويلين دي كاسترو و اي بلفيس (Guillén de Castro y Bellvis) وعملت هذه المسرحيات وكثير غيرها مما هو أصيل أو ضئيل الاصالة كجسر بين لوب وكالديرون (Calderón) .

الفَصْل الخامِس

الأدَب البرتغالي في عَصر النهضَة

القرن الخامس عشر :

ومرة ثانية أصبح البلاط البرتغالي مركزاً أدبياً تحت حكم الملك جون الأول (١٣٨٥ ـ ١٤٣٣) ، مؤسس سلالة افيز(Aviz) الجديدة . وقد كتب الملك نفسه مقالاً عن الصيد ، كما جمع ابنه ادوارد مكتبة غنية زاخرة بكتب القدماء والشعر ، وكتب التاريخ الوسيطية ، وألف مقالاً أخلاقياً عنوانه «المستشار المخلص» (Leal Conselheiro) عام ١٤٣٠، وتجلت فيه شخصيته ككاتب بياني متمكن الاسلوب . وكان كتاب أخيه بيدرو(Pedro) المسمى (تراتادو دا فيرتيوسا بنفتوريا (Tratado da Virtuoso Benfeitoria) نسخة عن كتاب سنيكا(Seneca) «دي بنفسيس» (De beneficiis) الا ان كتب التاريخ ميزت العصر . ومرد الفضل فيها للملك ادوارد الذي استحدث عام ١٤٣٤ مكتب «المؤرخ الرئيسي للمملكة» (Cronista mor do reino) وعين فيه فرناو لوبيز(Fernào Lopes) مؤسس علم التاريخ البرتغالي ومؤلف تواريخ أول عشرة ملوك للبرتغال التي لم يصلنا منها سوى تاريخ بيدره الاول(Pedre I) وفرديناند الأول ، وجون الأول ، وتعاون الاسلوب الحيوي مع التوثيق الجدي لينتج في لوبيز أفضل انجاز لنثر برتغالي وسيطي .

أكمل خلفه في المكتب جوميز ايانس دي زورارا(Gomes Eanes de Zurara) كتاب التاريخ لكن دونه مستوى فنياً . وكان مؤلفه الرئيسي «تاريخ اكتشاف غينيا وفتحها» (Crónica do Descobrimento e Conquista da Guinea) اما روي دي بينا (Rui de Pina) فكان خالياً من العيوب البيانية التي اتصف بها زورارا ، وان لم يبلغ مستوى لوبيس . وتميزت كتب تاريخه بصراحة واضحة .

وبعد كسوف طال أمده ، أعيد استثمار الشعر في أواسط القرن الخامس عشر الا أن الكثير كان قد تغير . فقد جاء التأثير المسيطر من اسبانيا ، وافتتح الشعراء البرتغاليون الفصل الطويل من الولاء لاسبانيا . وباستثناء القصائد الغنائية من نوع « البالاد » اختفى الشعر الشعبي مع الشعراء التروبادور . وافتتح أمين القصر دوم بيدرو دو بورتوغال (Dom Pedro de Portugal) أسلوب الكتابة بالقشتالية . وكان أثره على بني جلدته عظيماً لكونه من رواد فن تبني الاتجاه الاسباني الجديد نحو المجاز ، وعبادة الماضي الكلاسيكي الذي أخذ عن ايطاليا . وأوحى له الشعور العميق والتأمل المستديم بالحياة وبقصائده ، وكان واحداً من مائتي شاعر تقريباً مُثلوا في مجموعة شعرية هي « كانسيونيرو جيرال » (Cancioneiro Geral) ١٥١٦ للمؤرخ جارسيا دي ريزنده (Garcia de Resende) التي غطت ثلاثة أرباع القرن السابق . وكانت الموضوعات الرئيسية لهذه القصائد الألف المنظومة بالبرتغالية والقشتالية هي الحب والهجاء والحكم . وكان (ريزنده) من أفضل الشعراء المساهمين بمجموعته .

جيل فسنت والمسرحية الأولى (Gil Vicente) :

يمكن تتبع ظهور الدراما الحديثة في أعمال جيل فسنت مسرحي البلاط وأعظم اسم في المسرح البرتغالي . وقد كتب احدى عشرة مسرحية من مسرحياته الأربع والأربعين بالاسبانية كلية ، و/ ١٧/ منها بالاسبانية جزئياً . وأظهرت ثلاثية « باركاس » (Barcas) ١٥١٧ ـ ١٥١٩ قدرته المسرحية وحبه الهزل الحيوي ضمن ـ المآسي. وفي هذا تركزت قوته وكمن ضعفه في البنية المسرحية . وبكل الأحوال ماتت امكانية ظاهرة مسرح قومي مع مؤسسها لكن شُعر بأثره الحقيقي في اسبانيا .

أعلنت محاكم التفتيش التي أدخلت الى البرتغال عام ١٥٣٦ حرباً مبكرة على المسارح الشعبية متهمة إياها بالبذاءة، وهكذا انقصت مسرحيات فسنت التي ظهرت في الفهرس الاسباني عام ١٥٥٩ الى /٣٥/ ، وحذف منها الكثير في الطبعة الثانية عام ١٥٨٦ ولم تظهر له أية طبعة جديدة قبل انقضاء / ٢٥٠/ عاماً .

النهضة في البرتغال :

وصلت النهضة الى البرتغال بشكل غير مباشر من اسبانيا ، وبشكل مباشر من ايطاليا التي ارتبطت بها البرتغال بعلاقات ثقافية وثيقة خلال القرن الخامس عشر . وخلال القرن الذي تلا قطن عدد غفير من الانسانيين في البرتغال، وفي عام ١٥٤٧ أصلح جون الثالث جامعة كويمبرا (Coimbra) وعاد أساتذة برتغاليون بارزون من مهاجرهم ليساعدوا الملك في عمله، ونبغ في الداخل علماء ذوو شأن منهم اندره دي رسند (André de Resende) مؤلف « من آثار البرتغال » (De antiquitatibus Lusitaniae) ١٥٩٣ ، وفرنسيسكو دو هولندا (Francisco de Holanda) الرسام والمهندس المعماري ومؤلف كتاب « أربع محاورات في الرسم القديم » (Quatreo D'álogos da Pintura Antiga) .

المدرسة الايطالية في الشعر والمسرحية :

أدت عودة الشاعر فرانسيسكو دو سا دو ميراندا (Francisco de sa de Miranda) عام ١٥٢٦ بعد إقامته ست سنوات في ايطاليا الى النهوض باصلاح أدبي ذي تأثير بعيد المدى. فأدخل الأشكال الشعرية الجديدة «للسونيت» و « الكانزون » و « الأود » و « الرسالة » مثله في ذلك مثل معاصرة كارسيلاسو دو لا فيغا (Garcilaso de la Vega) في اسبانيا ، وأعطى دفقاً جديداً لأشكال الشعر القومي بقصائده الهجائية بشكل رئيسي . كما كتب تلميذه انطونيو فريرا (Antonio Ferreira) وهو كلاسيكي عتيد قصائد غنائية من نوع « السونت » متفوقة شكلاً وأسلوباً ، وأتم شعراء آخرون مدرسة المعرفة الواسعة التي كان لها بالتأكيد الغلبة ممثلة بشخص لويس دو كاموس (Luis de Camoes) . ومع أن الأخير اشتهر كملحمي ، لكنه ـ كما يعتقد البعض ـ كان أعظم كشاعر غنائي ، فقد اجتمعت فيه الثقافة الكلاسيكية العميقة، والاتقان التام لوسائطه الشعرية، وأمدته حياة طويلة من الخبرة المتنوعة ، مما جعل قصائده الغنائية من نوع « لسونت » وقصائده الرعوية والغنائية من نوع « الأود » ومراثيه أروع شعر باللغة البرتغالية . أما قصيدته الملحمة القصصية « اللوسياد » (Os Lusiadas) (عام ١٥٧٢ ، ترجمت

الى الانكليزية عام ١٩٥٢) التي تصف منجزات البرتغال في الشرق فهي القصيدة الوطنية الأولى ، والحافز الأعظم لعصر النهضة ، وقد نهج فيها سبيل الشاعر الروماني فيرجيل . ولم يبلغ مستواه في الإلهام أو المواهب الشعرية أيٌّ من منافسيه العديدين الذين حاولوا منازعته الشهرة بسبب نجاح هذه الملحمة .

وفي حقل الدراما استبدل سا دو ميراندا (Sá de Miranda) وأتباعه الشعر بالنثر . وكانت الشخوص التي رسموها أنماطاً رومانية ايطالية ، وليست شخصيات برتغالية لأنهم جعلوا نصب أعينهم الشاعر الروماني ترنس (Terence) ، المثل المحتذى . ولم يكتب لهذه الكوميديا الكلاسيكية البقاء طويلاً . وألّف سا دو ميرندا « الأغراب » (Os Estrangeiros) ، وهي أول هزلية نثرية ، وفيلهل باندوس (Vilhal pandos) ليواجه - حسب اعترافه - مدرسة فيسنت ، وجعل العمل المسرحي في كلتيها يجري في ايطاليا . وبالمثل حاول انطونيو فيريرا Antonio) (Ferreira الكاتب المسرحي الأعظم كلا النوعين . وكانت مسرحية « أوسيو سو » (O Cioso) إيطالية حتى في أسماء شخصياتها ، وأقرب الى كوميديا الشخوص ، إلا أن شهرته ارتكزت - بشكل رئيسي - على مسرحية « كاسترو » (Castro) حوالي ١٥٥٧ م التي عالجت واحداً من أكثر الموضوعات المأساوية تأثيراً في تاريخ الأمة ، وهو موضوع قتل أنيس دو كاسترو (Ines de Castro) بأن أشارت الى المسرحيين الاغريقيين سوفكليس ويوربيدس . وكان اختراع من نوع جديد على يد المسرحي الهزلي جورج فريرا دو فاسكونسيلوس (Jorgȩ Ferreira de Vasconcelos) بمسرحية « يوفروسينا » (Eufrosina) التي كتبت تحت تأثير الرواية الاسبانية « لا سلستينا » . وقد شابهت هي ومسرحيتاه الأخريان « يو لسبو »(Ulissipo) وأولغرافيا (Aulegraphia) الرواية من حيث الحوار ، واحتوت على كنوز من العلم الشعبي والأقوال الحكيمة الفكهة التي أدخلت بهدف أخلاقي .

النثر : التاريخ في القرن السادس عشر :

كانت الاكتشافات والفتوحات في افريقيا وآسيا وأمريكا وفي المحيطات مصدر إلهام للمؤرخين والشعراء . وكسبت سجلاتهم في حيويتها ما يمكن أن تكون قد

خسرته في الموضوعية العلمية . وفي العقود الثلاثة من آسيا (Asia) روى جوا دو باروس (Joao de Barros) بلغـة جزلة أعمال مواطنيه فيما وراء البحـار حتـى عام ١٥٢٦ ، ومما لا مرية فيه أن عقده الأول ترك طابعه على كاموس (Camöes) . وأثبت هذان الشخصان أصالة لغة الكتابة ، أولهما بنثره وثانيهما بشعره . ويتبوأ هذا المؤلَّف الذي استمر فيه ديوغو دو كوتو (Diogo do Couto) مرتبة أنبل عملٍ تاريخي بارز في هذا القرن . وأضاف ديوغو دو كوتو في كتابه سولدادو براتيكو(Soldado Prático) ملاحظات دقيقة عن أسبـاب الانحطـاط البرتغـالي في الشرق . وهنـاك انقضاء عشرة أعوامٍ من التحقيق في الهند خلف كتاب « تاريخ فتح الهند على يد البرتغـاليين » (História do Descobrimento e Conquista da India Pelos Portugueses) (١١٥٢ ـ ٥٤ وعامٍ ١٥٦١) للمؤ رخ والوراق فرنـاو لوبيس دو كاستنهيدا (Fernao Lopes de Castanheda) ، وهو سفر يضارع كتـب باروس (Barros) ودوكوتو (De Couto) .

ومن هذا الفيض من الكتابة عن التوسع فيما وراء البحار عاد الاهتمام الى تاريخ البرتغال نفسها ، بما سطِّر من كتب التاريخ الزمنية (الحوليات) عن الملوك الذين أشرفوا على هذا التوسع . وتحلى الديبلوماسي السائح والانساني والصديق الصدوق لـ أرازموس ، ونعني به داميا دو كورس (Damiao de G'ois) ، بعقل موسوعي ، وكان بالتالي واحداً من أكثر شخصيات العصر انتقاداً . فتاريخه الحوليات المسمى « كرونيكا دو د. مانيول » (Crônica de D. Manuel) (١٥٦٦ ـ ٦٧) ذو قيمـة كبرى ، إذ تجلت فيه أحاسيس تجربته الخاصة . وخطيئته الرئيسية أنه سمح لقضايا الشرق أن تلقي بظلالها على الأحداث الداخلية ، مثله في ذلك مثل كتب التاريخ الأخرى في ذلك العصر .

وكثرت مؤلفات أدب الرحلة ، وغالباً ما كان مؤلفوها الـرواد الأوروبيين الذين يزورون البلاد التي تدور حولهـا مؤلفاتهـم ، ومـن بـين أشهرهـا كتـاب كلاسيكي كثرت ترجماتـه وعنوانـه «هستـوريا دافيد دا بادر فرانسيسـكو كزافـير» (História da Vida da Padre Francisco Xavir) عام ١٦٠٠ لمؤلفـه بادر جوا دو لوسينا(Padre Joao de Lucena) وكانت الرسائل(Cartas) التي يبعث بها الى الوطن

(اليسوعيون) في الصين واليابان هامة كتاريخ وكوثائق انسانية بآن معاً . وكان كتابا (اكتشاف فلوريدا) وكتراتادو وسكرثبيق دوبرازيل . م(Tratado Descritivo do Brasil em) لِـ كابرايل سوريس دي سوسا(Gabriel Soares de Sousa) عام ١٥٨٧ وسيلَتَيْ تذكر بأن البرتغال كانت بدورها حاضرة ونشطة في العالم الجديد الى الغرب . وفي كل أدب الرحلة ما زال في المقام الأول كتاب «رحلة»(Peregrinaçao) الذي كتبه على الشيخوخة أمير المغامرين في الشرق فرناو منديس بنتو(Fernao Mends Pinto) وذلك لما يثيره من اهتمام غريب . ولا يضاهيه سوى كتاب «هستوريا تراجيكو ـ مارتيما»(Historia Tragico-Maritima) وهو مجموعة من القصص المعاصرة رواها مغامرون ناجون أو استندت الى وصفهم وهو زاخر بالعاطفة المأساوية ، وصفاً للمصائب الخطيرة التي حلت بالسفن البرتغالية بين عامي ١٥٥٢ و١٦٠٤ م.

الرواية وغيرها من أشكال النثر :

كان الشاعر برنارديم ربيرو(Bernardim Ribeiro) الذي أدخلت قصائده الرعوية الخمس الشعر الرعوي الى البرتغال مجدداً في المستوى نفسه للرواية الرعوية بكتابه «أشواق»(Livro das Saudades) (نشر ١٥٥٤ ـ ٥٧) المعروف بشكل أفضل بكلماته الأولى «طفل وسيدة» . والى وسط فني جديد ، نقلت هذه القصة ـ بما فيها من الحب الريفي والكآبة ممزوجين بعناصر فروسية ـ مواضيع وعواطف اقتصرت في السابق على الشعر . وقد استقى منها الشاعر والموسيقي جورج دو منتمور(Jorge de Montemor) جزءاً من إلهامه لـ «ديانا»(Diana) ١٥٥٩ . وبكتابتها بالأسبانية دُشِّنَ طرازٌ جديدٌ من الأدب ساهم فيه كل من سرفانتيس ولوب دوفيغا وغيرهم كثير ، إذ مثَّلت إحدى المساهمات البارزة للبرتغال في الأدب المقارن . وشارك البلدان (اسبانيا والبرتغال) معاً في الحماس الجديد لقصص القرن السادس عشر الفروسية بعصر بلغت فيهِ المغامرة الاستعمارية شرقاً وغرباً حداً مُحيَ معه الخط الفاصل بين الحقيقة وشطحات الخيال غير المعقولة . وأول مؤلف هو للكاتب (جوا

دو باروس (Joao de Barros) مؤرخ الأمبراطورية وعنوانه «تاريخ كلا ريمندو» (Crónica de Inperador Clarimundo) ١٥٢٠ الذي يروي مغامرات أحد أسلاف ملوك البرتغال الخرافيين . وقد استبقى المسرحي جورج فرارا دو فاسكونسيلوس (Ferreira de Vasconcelos) ذكريات من الحلقة الآرثرية في مؤلفه «ذكريات عن الطاولة المستديرة الثانية» (Sagramor ... de Segunda Tavola Redonda) ١٥٦٧ .

ومن بين الأخلاقيين ورجال اللاهوت يبرز ثلاثة كتاب برعوا في الأسلوب النثري ، هم فري هيتور بينتو (Frei Heitor Pinto) في كتابه « ايماجيم دافيدا كريستا » (Imagem da Vida Crista) ١٥٦٣ ، والأسقف آمادور آريس (Bishop Amador Arrais) محاوراته العشر حول الدين ومواضيع أخرى ، وفري تومي دي جيسوس (Frei Tomé de Jesus) بمقال صوفي تعبدي عنوانه « ترابالهوس دي جيسوس » (Trabalhos de Jesus) (١٦٠٢ - ١٦٠٩) . وشملت مؤلفات العلماء كتاباً لعالم الكون والرياضيات بيدرو نونيس (Pedro Nunes) ، وآخر لعالم النبات كراسيا دو أورتا (Gracia de Orta) الذي كان كتابه (كولوكيدس دوس سمبلس اي دروغاس) (Colóquios dos Simples e Drogas) ١٥٦٣ أول كتاب يطبع في الشرق (في غوا في الهند) .

الفصل السادس
الأدب الانكليزي في عصر النهضة

أثر ثقافة عصر النهضة :

انتشرت « الانسانية » في انكلترا منذ عام ١٥٠٠ على أيدي اتباع الانساني الهولندي ديسيديريوس إيرازموس أمثال جون كوليه (John Colet) والسير جون تشيك (Sir John Cheke) والسير توماس اليوت (Sir Thomas Elyot) وتوماس ويلسون (Thomas Wilson) في كتابه « فن البيان » (Arte of Rhetorique) ١٥٥٣ وروجر آشام (Roger Ascham) وخاصة في كتابه « الأستاذ » (The Schole master) ١٥٧٠ . وقد اعتمدوا الكلاسيكيات الأساس الحق لتعليم ليبرالي واعتبروها النموذج الذي يجب أن يحتذيه النثر باللغات الدارجة . وساعدت سلسلة من الترجمات الكلاسيكية والنمو السريع لجامعتي اكسفورد وكيمبردج على تأكيد هذا المثل الأعلى . وكانت « يوتوبيا » (Utopia) السير توماس مور باللاتينية عام ١٥١٦ المترجمة الى الانكليزية عام ١٥٥١ ، مثالاً حياً على النظام ، وضبط النفس الذي اتسم بهما الأدب الكلاسيكي كمصدر لتفكير جديد ومستقل .

من جهة أخرى تعقدت النهضة في انكلترا ، وذلك بنقل المؤلفين الكلاسيكيين عن طريق الانسانيين الفرنسيين والايطاليين ، حتى ان معرفة الرجل الانكليزي لسنيكا (Seneca) والنظرية الأدبية الكلاسيكية كمثل تمت عن سبيل مآس أوروبية على طريقة سنيكا . وخلال حكم الملكة اليزابيث الأولى عملت بالتقاليد القومية الراسخة للفكر والتعبير جنباً الى جنب مع هذه الأفكار الجديدة الوافدة من اوروبا وعدّلتها (مثال ذلك المثل الأعلى للرجل الكامل، كما انعكس في شخص ليوناردو دافنشي، والأمل بأن عقل الانسان قد جبل على مطمح انجاز لا حد

له ، وأمل استقرار) وانتجت ثقافة مثمرة وطيدة . وعلى كل ، لم ينجم عن هذا المزيج حتى عام ١٥٨٠ سوى القليل من النثر أو الشعر ذي القيمة الدائمة . وتعتبر المؤلفات اللاهوتية امثال «الكتاب المقدس العظيم»(Great Bible) ١٥٣٩ لوليم تندل(William Tyndale) ومايلز كوفرديل(Miles Coverdale) وكتاب «الصلوات العامة» ١٥٤٩ لرئيس الأساقفة كرانمر(Granmer) ١٥٦٣ أهم تركة في الشطر الأول من القرن السادس عشر .

النثر والشعر :

الشعر قبل عام ١٥٨٠ :كان الازدهار المفاجىء للشعر الغنائي في بلاط هنري الثامن الانجاز الوحيد الحق لعصر النهضة في النصف الأول من القرن السادس عشر ، وتمثّل قادة الحركة بشخصيات سير توماس ويات(Sir Thomas Wyat) وهنري هوارد ايرل اوف سري(Henry Howard Earl of Surrey) وأظهرت قصائد ويات الغنائية القصيرة من نوع «السونيت» التي يدور معظمها حول موضوعات تقليدية ـ أصالة حقيقية في المعالجة . ويكشف بيت واحد من قصائده العديدة عن عبقريته الشعرية وامكاناته اللغوية . وأظهر سري بالمقارنة ثقة فنية اكبر ، الا ان صفحاته قلما تألقت بروعة ويات المفاجئة . وكان استعماله الوزن الشعري المسمى «بلانك»(Blank) في ترجمته الكتابين الثاني والرابع من «الانيادة» انجازه الشعري العظيم . وباستيراده هذا الوزن من ايطاليا ادخل الوزن الرئيسي في الشعر الانكليزي .

لم تطبع قصائد ويات وسري حتى عام ١٥٥٧ في « متنوعات » (Miscellany) لريتشارد توتل (Richard Tottel) أو لحلقة من سلسلة من مجموعات الشعر الغنائي. وشملت المجموعات التي تلتها « حفنة من المتع السارة »A (Handeful of Pleasant delites) و « فردوس الأساليب اللذيذة » The Paradyse (of daynty devises) و « مجموعة رائعة من الابتكارات الجريئة » A gorgious (Gallery of gallant Inventions) واستمر نشر المتنوعات الشعرية خلال القرن ، ومن أروعها « مناجاة شعرية » (Poetical Rhapsody) ظهرت عام ١٦٠٢ . أما المشروع الأدبي الكبير للعصر وهو « مرآة للحكام »(A myrrour for Magistrates)

فلم يكن ناجحاً . واحتوى في الأصل ١٩ أسطورة من التاريخ الانكليزي بحيث يمكن أن يرى بالأمثلة كيف « تُعاقب الرذائل بعقاب رادع »، وحتى عام ١٦٢١ نشرت هذه المجموعة في عدة طبعات تميزت بالاضافات . ففي عام ١٥٦٣ صدرت بمقدمة شعرية شهيرة نظمها توماس ساكفيل (Thomas Sackville) وهي قصيدة أنيقة في ذاتها . وفيما عدا ذلك تمخضت السنوات ما بين سري والسير فيليب سيدني (Sir Philip Sidney) عن القليل مما يذكرنا بنتاج وايات أو يبشر بإدموند سبنسر (Edmund Spenser) باستثناء قصائد فردية قصيرة وممتعة نظمها - بشكل عام - كتاب غير متميزين أمثال ريتشارد ادواردز (Richard Edwards) وجورج تيربرفيل (Georges Turberville) وجورج غاسقوين (George Gascoigne) وجورج وتستون (George Whetstone) .

النثر قبل عام ١٥٨٠ :

تغيرت اللغة الانكليزية المنطوقة بالتدريج في القرن السادس عشر . ومن الممكن أن نعرف كيف نطقت اللغة بعد أن تمثلت بالتدريج التأثيرات الكلاسيكية من المسرحيات القديمة والوثائق الحكومية ومواعظ هيغ لاتمر (Hugh Latimer) ومن الرسائل والمذكرات والمؤلفات امثال « حوار ضد حمى الطاعون » ... (Dialogue against the fever Pestitence) للكاتب وليام بولين (William Bullein) . أما في أشكال النثر الأكثر رسمية فقد تبنت المثل اللاتينية بشكل أسرع ، ولكن دوماً بقصد تعزيز اللغة الانكليزية بادىء الأمر . وكان الانسانيون أمثال توماس ولسون (Thomas Wilson) وتشيك (Cheke) وأشام (Ascham) دائماً ضد إدخال الكلمات والتعابير اللاتينية بقصد الحذلقة ، وضد التكلف الايطالي . ويوجد بعض أفضل نثر هذه الفترة في مؤلفات كتاب كتبوا في البيان ، ومؤلفات رجال الكنيسة وأعمال مترجمين مثل السير توماس هوبي (Sir Thomas Hoby) الذي ترجم كتاب كاستكليوني « رجل البلاط » (The Courtyer) عام ١٥٦١ . وأبدع مثال في النثر الفني بالجرس الشيشروني ، ومع ذلك ظل إنكليزياً صمياً ، هو « كتاب الصلاة العامة » (Book of Common Prayer) (١٥٤٩ - ١٥٥٢ - ١٥٥٩) ؛ بينما نجد

أن النسخ المتتابعة (١٥٢٥ ـ ١٥٣٥ ـ ١٥٣٧ ـ ١٥٣٩ ـ ١٥٦٠ ـ ١٥٦٨) من الانجيل زودتنا بنموذج نبيل ودائم لقصص واسع بطولي ، ونثر غنائي رفيع . كما كوّن كتّاب التاريخ والباحثون في الآثار والرحالة مجموعة كبرى . واستعمل تاريخ ادوارد هول (Edward Hall) و « تـاريخ انكلتـرا واسكتلنـدا وايرلنـدا » (Chronicles of England, Scotlande, and Irlande) لرفـائيل هولنشـد Rafael (Holinshed) أسلوباً إنكليزياً بسيطاً .

وعلى كل حال لم يزدهر النثر الخيالي ، إذ كانت المجموعات القصصية التي ألفها وليام بينتر (William Painter) والسير جفري فنتون (Sir Geoffrey Fenton) وجورج بيتي (George Pettie) مستقاة من مؤلفين كلاسيكيين وأوروبيين ، وهي أكثر قيمة كمصادر للحبكة المسرحية منها كنماذج للروائيين الانكليز .

الرواية ١٥٨٠ ـ ١٦٠٠ : كانت الروايات الانكليزية الأولى أمثال «يوفيويز» (Eyphues) ١٥٧٨ وتتمتها «يوفيويز وبلده انكلترا» (Euphues and His England) لِـ جون ليلي (John Lyly) أكثر حيوية من القصص القصيرة المسماة «نوفلا» (Novella) التي ترجمت عن الايطالية ، وقد لاقت نجاحاً مباشراً ، اذ عرضت صورة مثـالية للمجتمع المهذب وتضمنت قطعاً من الفلسفة والتاريخ الطبيعي أو علم الاجتماع . وكانت ذات روح اخلاقية لا عيب فيها ، وكتبت بأسلوب غير مباشر متكشّفة عن أكثر الحذلقات البيانية التي أطلق عليها اسم «يوفيوزم» نسبة الى الكتاب .

أمـا كتـاب اركاديا (Arcadia) المنشـور عام ١٥٩٠ للسـير فيليب سيدنـي فروايـة رعـوية « بيكارية » (نسبـة لرواية الـكدية) كتبـت بنثـر مزركش ، وبتعابير فخمة استعملت لتضفي الوقار على عمل بسيط ، قصد منه إعطاء درس في السلوك تحت اسم الرواية . وكانـت « يوفيويز » و « اركاديا » بالغتـي الأثـر في أسلوبها ومادتها ، إلاّ أن الكتب التي تلتها امثـال « باندوستـو » (P[illegible]) لروبـرت غرين (Robert Greene) و «روزالنـد» (Rosalgnde) لتومـاس لودج (Thomas Lodge) كانت دونها في المستوى .

ومن الروايات الأكثر واقعية رواية « الرحالة العاثر الحظ » (The Unfortunate Traveller) ١٥٩٤ لتوماس ناش (Thomas Nashe) (وهي قصة مغامرات عنيفة بالغة القسوة وواقعية رويت بسرعة وايجاز ؛ ورواية جاك أوف نيوبري (Jacke Of Newberie) (ربما حوالي ١٥٩٧) لتوماس دلوني (Thomas Deloney) وبعد هذا التفجر القصير الأمد من عام ١٥٧٨ الى ١٦٠٠ كان على الرواية الانكليزية أن تنتظر قرناً قبل أن تستعيد أهميتها مرة أخرى ولو بدرجة ثانوية .

مؤلفات نثرية اخرى ١٥٨٠ - ١٦٠٠ :

استُعمل النثر الانكليزي بشكل طبيعي لكتابة مؤلفات في النظرية الأدبية ، ووصف للرحلات وكان كتّاب « دفاع عن الشعر » (Defence of Poesie) لسدني عام ١٥٩٥ أول مؤلف يدخل في الانكليزية افكار النظريين الأفلاطونيين الجدد لعصر النهضة . وقد كتب بأسلوب رفيع ، ناصع ، معلقاً بشكل ذكي على حالة الشعر الانكليزي المعاصر ، ومعبراً بأفكار نبيلة عن موهبة الشاعر في خلق عالم ذهبي مثالي يحمل في جماله « شكل الطيبة التي لا نستطيع إلا أن نحبها بعد أن نراها .

ومثلت الاكتشافات خير تمثيل في كتاب ريتشارد هكليوت (Richard Haklyut) « السفريات البحرية الرئيسية » (Pricipall Navigations) وهي مجموعة واسعة من تقارير الرحالة كتبها مؤلفون مختلفون بمن فيهم السير ولتر رالي (Sir Walter Raleigh) . إلا أن إمكانات النثر الانكليزي ظهرت بشكل أفضل في الجدل اللاهوتي العظيم . وكان فرعا الكنيسة البروتستانتية الجديدة في انكلترا وهما «البيورتيون» (Puritans) و « الابسكوباليون » (Episcopalians) الأكثر اعتدالاً في نزاع عنيف، وخاصة حول العلاقة بين القوى المدنية والاكليريكية . وجرى نقاشهم في سلسلة من المؤلفات الطويلة والعلمية بلغت أوجها في عمل أسقف « ابسكوبالي » هو ريتشارد هوكر (Richard Hooker) الذي عبر كتابه « من قوانين حكومة اكليركية » (Of the Laws of ecclesiatical Politic) (١٥٩٣ - ١٦٦٢)

بوجهة نظر ليبرالية عن طبيعة الكنيسة في انكلترا بأسلـوب شبيه بالـلاتينية ولكنـه واضح .

أما كتاب الكتيبات والنشرات الدينية فيظهر أنهم قلدوا بشكل هازل النقاش ذا العلم الغزير الذي كتبه رجال الكنيسة الكبار، بأن أجروا النقاش نفسه في سلسلة من النشرات البذيئة. وفي الجانب البيورتاني كانت اكثر النشرات السبع المجهولـة المؤلف المسماة «كراسات ماربريليت» (Marprelate Tracts) التي هاجمت الاساقفة بنثر جارح وعامي. وكانت الاجابات على هذه الكراسات مجهولة التأليف ايضا، وان ذهب الفكر الى الظن بأن في عدادهم ليلي (Lyly) وناش (Nashe) . وتبـادل ناش (حتى وفاته عام ١٥٩٢) كراسات مهينة على فترات امتدت من عام ١٥٩٠ ـ حتى عام ١٥٩٦ مع الاخويين كبريل (Gabriel) وريتشارد هارفي (Richard Harvey) ، كما شارك العديد من المناقشين الاقل قيمة بشكل مماثل ، وانتـج كتـاب آخـرون كراسات حول موضوعات متنوعة بصورة غير اعتيادية ، كان اكثرهـا حيوية تلك الكراسات التي وصفت باسلوب ملائم غير رسمي الحياة الدنيا في لنـدن . وكان بعض ما كتب قدحا وبعضها الآخر مدحا . واشهرها مؤلفات غرين .

ويمكن تتبع تطور عام حتى في مؤلفات كتاب متنوعين امثال هؤلاء الكتاب ـ من اسلوب مزركش منمق، لاتيني في مفرداته وتراكيبه، وفصيح غالبا، الى نثر ابسط اكثر مرونة وأدنى قربا من لغة التخاطب الانكليزية، وقادر على التعبير عن العادي والرفيع من الموضوعات بيسر مماثل،وتشهد على ذلك النصوص النثرية في مسرحيات شكسبير التي تعتبر نموذجا جيدا للاسلوب الذي استعمل فيما بعد.

شعر سبنسر وسدني (Spenser and Sidney)

كان ادموند سبنسر والسير فيليب سيدني اول شاعرين كبيرين زمن الملكة اليزابيت. وكان الاخير اعظم جميع الاليزابثيين الذين اعتبروا الشعر وحـده أحـد الصفات الضرورية الواجب أن يتحلى بها رجل البلاط الكامل. ومع ذلك نراه في قصائده الغنائية من نوع «السونيت» وفي مجموعة قصائده المسماة «استروفيل وستيلا» ١٥٩١ (Astrophel and Stella) ـ وهي من النوع ذاته ـ حاول وانجز أكثر مما أنجزه

أي شاعر سابق . وكانت هذه القصائد ، التي يعلق الكثير منها على الانماط الشعرية المعاصرة ، مكتفة متداخلة الظلال ، ولكن نادراً ما تشوه شكلها .

وبالتحديد، اشتهرت قصيدة سبنسر الشعبية المسماة «تقويم الرعاة» (Shepheardes Calender) ١٥٧٩ لاستعمالها المقصود للغة القديمة البائدة واللهجة المحلية. وكان فيها انجح ما يكون عندما تفرض صيغ قصائده أو مادتها من القيود ما يمنع انسياب عبقريته كما هي الحال بالنسبة لأقسام «نيسان» و «تشرين الثاني» من «تقويم الرعاة»، وبالنسبة «لابتالاميون» (Epithalamion) «وبروتلاميون» (Prothalamion) وهما ذواتا لحن موسيقي متعاظل مستمر التعقيد .

اختار سبنسر شكلا فضفاضا لتحفته «ملكة الجنيات» (The Faerie Queene) (١٥٩٠ - ١٦٠٩) وهو شكل الرومانسية الشعرية الطويلة التي عممها كتاب من امثال الشاعر الايطالي لودفيكوا اريوستو(Ludovico Ariosto) والتي مدّ بأفقها لتتسع المجاز الموسع حسب الطريقة الوسيطية. اعلن سبنسر في رسالة الى رالي (Raleigh) بأنه صمم ١٢ كتابا يصف فيها الفضائل الاخلاقية الاثنتي عشرة الخاصة كما قررها ارسطو. اما عناوين الكتب التي وصلتنا فهي : التقى، الاعتدال، العفة، الصداقة، العدل والمجاملة. وكانت المغامرات البطولية من نوع مألوف لدى القارىء الانكليزي آنئذ، وذلك من قراءة رومانسيات مثل رومانسية الملك آرثر. وتشمل هذه المغامرات حوادث مثل انقاذ العذراوات من السحرة، واحتلال حصون الاشرار، ومبارزاتهم ونزالهم ندا للند، واستعمال الاسلحة السحرية. وخالط هذه المادة الوسيطية مادة اخرى تعود الى فترة عصر النهضة ، وتخدم اهدافها والتي اعتبرت اساسية لتكوين الرجل المهذب او النبيل حسب نظام فاضل . والى كل ما سبق اضيف مستوى ثالث من المعنى مستخدما فيه حوادث معاصرة مثل اخضاع ايرلندا ، وشخصيات مثل الملكة اليزابيت نفسها التي مثلت شخصية كلوريانا (Gloriana) ملكة الجنيات .

لم يستطع اي شاعر انكليزي أن يتفوق على سبنسر في استعماله الشعر

المقفى، لكن هذا الشعر كان بطيء الحركة والاثارة شأنه شأن قصته،وقد أمدت تقسياته ذات التسعة ابيات قصيدته بمتسع يستطيع من خلاله ان يضخم كل حادثة، ووجد في هذا اغراء حتى أن مجرى قصته الذي لم يكن يوما ما سريعا توقف لا حراك به. ولنضرب مثلا:

ان الطرق التي اقود خطاي المتعبة عليها
في ارض الجنيات الممتعة هذه،

عريضة وواسعة جدا، وقد نثرت فيها متنوعات حلوة وبديعة،
من كل ما هو سار للأذن والعين

حتى انني أؤخذ بالافكار الممتعة النادرة
فانسى بذلك رحلتي المتعبة.
وعندما اشعر بوهن قواي،

فانها تزودني بالقوة، وتنعش روحي التي اصابها الملل
(ملكة الجنيات ـ الكتاب السادس ـ الاسطر ١ ـ ٩)

خلفاء سبنسر:

كان الاخوان كايلز فلتشر (Giles Fletcher) وفينياس فلتشر (Phineas Fletcher) أكثر خلفاء سبنسر اصالة. وقد ابقى الاول في قصيدته «نصر المسيح» (Christs Victoirie, and Triumph) ١٦١٠ على سيطرة سبنسر على القطعة الشعرية الطويلة، الا انه سبق ملتون (Milton) في وقار رؤياه الملتهبة للسماء. كما كانت قصيدة فينياس فلتشر «الجزيرة الارجوانية» (Purple Island) ١٦٣٣ مجازية طويلة

ومفصلة عن الجسم والروح الانسـانيين . ادى حدس فلتشر الميتافيزيقـي البـديع وسيطرتـه على الصـورة المكثفـة التـي استنبطهـا من التقسيمات الشعريسـة «لملـكة الجنيات» الى جعل «الجزيرة الارجوانية» أنجح القصائد التي اوحى بهـا سبنسر . وكتب هؤلاء الشعراء بحماس اشد من معلم الاخلاق» سبنسر الرزين ، «ليستميلوا القارىء ليس للفضائل الكلاسيكية بل لعقيدة مسيحية نشطة ، وبهذا استبقوا على القصائد الدينية العظيمة التي كتبت في القرن السابع عشر .

يمكننـــا ان نعتبـــر مايكل دريتـــون (Michael Drayton) نموذجـــا للشاعـــر الاليزابيثي. فقد اقتفى خطا سبنسر في شعره الرعوي، ونهج النمط الأدبي السائد في عصره وهـو «السونـت»، وتبـع صامـوئيل دانيال (Samuel Daniel) في تاريخه وأسطورته، ونسج على منوال كرستوفر مارلو في استعماله القصة الاسطورية، ومع ذلك ظلت له ذاتيته المميزة. اما مؤلف دريتون الذي غالبا ما يذكر ويقرأ اقل من غيره فهو «بولي ألبيون» (Polyalbion) (١٦١٢ ـ ٢٢) ويعتبر محاولة مخلصة لرصد مناظر واساطير وعادات ومميزات كل مقاطعة انكليزية ونظمها شعراً. وفي «رسالة الى هنري رينولدز» (Epistle to Henry Reynolds) مدنا بلمحة موجزة وبشعر متزن عن حالة الشعر الانكليزي حتى عصره ، فقد وصف صاموئيل دانيال بقوله : انه ناعم القوافي متناغم الاوزان ، ومع ذلك فأسلوبه اكثر صلاحية للنثر ، وهذا تقويم عادل لقصائد دانيال التـاريخية الطويلـة مثـل «الحـروب الاهلية» (Civile Wares) (١٥٩٥ ـ ١٦٠٩) الا انه في قصائده الغنائية القصيرة من نوع «السونت» مصقول الفن رصينه .

« السونيت » و« الشعــر الاسطــوري » : (Sonnets and Mythological Poetry)

حظيت قصيدة الحب الغنائية الانكليزية القصيرة من نوع « السونت » التي ادخلها ويات (Wyat) وأحياها سيدني (Sydney) بأوسع شعبية لها بين عامي ١٥٩١ و١٥٩٨ . فهناك الكثير من الابيات البديعة والقطع والقصائد الكاملة في مجموعات مترابطة القصائد مثل مجموعة « ديليا » (Delia) لصاموئيل دانيال « ودموع الخيال »

(Tears of Fancie) لتوماس وطسون (Thomas Waston) و« بارتينوفيل وبارتينوفي » (Parthenophil and Parthenophe) لبارنابـل بارنيز (Barnable Barnes) « وديانـا » (Diana) لهنري كونستابل (Henry Constable) و« أمورتـي » (Amoretti) لسبنسر و« فديسـا » (Fidessa) لبارتولـوميو غريفـن (Bartholomew Griffin) . والصيغـة الغالبة على الحلقات من قصائد « السونت » هي صيغة الاجزاء الثلاثة المنفصلة ، يتكون كل منها من أربعة ابيات ، تنتهي بمزدوجة ، وغرضها ان تبلـغ بالقصيدة الأوج دراميا وعاطفياً . وكان مغزى الايحاء الشخصي في هذه الحلقات من القصائد عنيفاً وان كان مضللاً . فبينما كانت قصائد شكسبير من نوع « السونت » موجهة الى اشخاص معينين مثلا ، ومشحونة بصادق العاطفة الشعرية نجد،بآن معاً أن اياً من الخيوط الثلاثة وهي التقليد والابتكار والذكرى كان مجدولا لا انفصام لملحمتـه . ومن الخطورة بمكان ان نعتبر هذه القصائد سجلات تعكس حياة مؤلفيها .

اخذت القصة الشعرية الاسطورية في الحب عن اوفيد الـذي زخـر مؤلفـاه « تحولات » (Metamorphoses) و« هـيرودوس » (Herodes) بأوصـاف وزخـارف وقصص عديدة ، حتى انه خلال عشرة اعوام بين عامي ١٥٨٩ و١٥٩٨ ظهـرت مؤلفـات امثـال « تحـول سكيلاس » (Scillas Metamorphoses) لتومـاس لودج وفينـوس وادونيس (Venus and Adonis) و« اغتصـاب لوكريس »(The Rape of Lucrece) لشكسبـير « وسفالـوس بروكريس » (Cephalus and Procris) لدريتـون (Drayton) و« هيرو وليانـدر » (Hero and Leander) لمارلـو . وقـد بشرت قصيدة مارلو غير المكتملة بأن تكون إنجازاً رئيسياً . والعيب المشترك في القصائد الاخرى أنها استخدمت مواقف الحب كمناسبات ملائمة لاظهار البراعة الفنية الفائقة .

الشعر الغنائي(Lyric poetry) كان السير توماس ويات(Sir Thomas Wyat) اول شاعر إنكليزي غنائي في القرن السادس عشر . وتضمنت ترجماته ومقتبساته المحورة عن الايطالية ناحيةً ما لبثت ان غدت تقريباً عرفاً وتقليداً في جميع القصائد الغنائية التي تلت . ورغم أن الموضوع المفضل كان اظهار حزن الشاعـر ـ كألـم الفراق او موت حبيب ـ إلاّ ان القصائد كانت خفيفة مرحة . ولم يكن ذلك يعني

نقصاً في الاخلاص ، اذ تركزت قوة العديد من القصائد الغنائية في التوتر ما بين الموضوع والاسلوب . ومن الميزات الأخرى التي ورثت عن ويات بداهة الموضوع ومباشرته ووضوح الاخيلة في القصائد الغنائية ، وعكسها كل جانب من جوانب الحياة الاليزابيثية . ولم تداخل نفوس الشعراء الخشية من ان يظهروا بمظهر مَنْ تنقصه الشاعرية بسبب ما استمدوه من مادة الحياة اليومية في قصائدهم الغنائية .

لوّن ادخال الموسيقا الايطالية ببحورها وأوزانها الشعرية المفضلة القصيدة الغنائية وهذّبها ، وغالباً ما ترجمت القصائد الايطالية دون تغيير أوزانها بيتاً بعد بيت ، كما أُبقي اللحن الموسيقي على حاله ، ثم تقرن هذه الالحان بقصائد جديدة وأصيلة . وقد ظهر النوعان من القصائد الغنائية مجتمعين في كتب الاغاني العائدة لعازفي الغيتار أمثال جون دولاند (John Dowland) ووليام بيرد(William Byrd) وتوماس مورلي (Thomas Morley) وتوماس كامبيون (Thomas Campion) بشكل خاص . ظهر الكثير من أجود الشعر الغنائي لهذه الفترة في كتب الأغاني او المتنوعات التي نشرت بانتظام بعد توتل (Tottel) اذ تضمنت مجموعات « عش العنقاء » (The Phoenix Nest) ١٥٩٣ » وهيلكون انكلترا »(England's Helicon) ١٦٠٠ » ومناجاة شعرية » (Poetical Rhapsody) ١٦٠٢ للشاعر فرانسيس ديفسون (Francis Davison) قصائد ذات صنعة رفيعة تدعو الى الدهشة .

اما المصدر الثالث للقصيدة الغنائية فنجده في مسرحيات الفترة ، اذ جرت العادة منذ ايام ليلي (Lyly) ان يطعم المسرحيون مسرحياتهم بأغنية ، ومع ان سياق الاغنية يتطلب حسن اختيار موضعها لتكون أبلغ واتم اثراً ، ومع ذلك كانت ذات جمال وطاقة فريدين حتى عندما تفصل عن هذه القرينة . وكان شكسبير مجلياً في هذا النوع من الشعر الغنائي الا ان قرائح ليلي وجورج بيل (George Peel) وغرين وتوماس دكر (Thomas Dekker) جادت بفن بديع ورائع ، وان تدنى عن منزلة شكسبير . ومن عام ١٥٨٠ الى ١٦٠٠ وبعد هذا التاريخ على فترات متقطعة وجدت الأمَّةُ كلمات لألحانها البديعة ولأغانيها الكورالية . هذا وان قصائد شعراء مثل لودج ورالي ونيكولاس بريتون (Nicholas Breton) وواطسون (Watson) وناش

ودون (Donne) (في قصائده الاولى) وكونستابل (Constable) لتعد من بين أروع واجمل وابقى آثار عصر النهضة في انكلترا . وبعد عام ١٦٠٠ أثرت على الشعراء بعمق خيبة الأمل بالرخاء المادي الانكليزي ، وبارتخاء الضوابط على الكنيسة التي اصابها الاصلاح ، وببعض مُثُل الانسانيين . ولكن كان هناك القليل من النقـاد الذين اهتموا بشؤون المجتمع ، خاصة وأن ويات وضّح معالم الطريق ، وأسس الشكل الذي تتم بمقتضاه الأمور ، إلا ان خلفاءه في القرن السادس عشر كانوا غير مرنين ، وتنقصهم المهارة .

ورغم العدد الغفير للكتاب الذين دبجوا القصائد الغنـائية ، ووفـرة فرص الخلود ، كان الانطباع العام عن الشعر الاليزابيثي لهذه الفترة العظيمة انه رفيع ، يتسربل شكلا منسـجماً موحـداً ، لكن ـ ولامـرية ـ فإن القصيدة الغنـائية غدت بالتدريج تقليدية اكثر مما يجب ، وخسر أسلوبها القوة المباشرة ، لكن روائعها التي لا تجارى عبّرت بشكل مناسب عن روح انكلترا في عصر الملكة اليزابيت ، الذي اتصف بكونه نصف ربيع ونصف عصر ذهبي .

المسرحية الاليزابيثية والجاكوبية :

الانتقال من الدراما الوسيطية : ومن قلـب المسرحية الاخـلاقية الـوسيطية بتشخيصهـا التعليمـي للرذائـل والفضائـل نمـت المسرحية الاقصر المسماة انترلــود (Interlude) . وعادة ما كانت نقاشاً ذا خلفية واقعية بين شخصيات مختلفة الأنماط او المهــن ، تخففــه حركات هزلية او مرح هزلي حول رذيلــة ، أو تجسيد لنذالــة مضحكة . وتجلت قيمة «الانترلـود» بوضـوح عندمـا تفـككت عناصرهـا لتـكوّن مركبات درامية جديدة . فمثلا عندما بحثت «الانترلود» في قضايا مثل واجبات المرء تجاه مليكه ، كان واضحاً انها اشتملت على قضايا للدولة ، وأشارت الى طريقـة ممكنة لكتابة مسرحية تاريخية . فعندما تتوصل الى درس أخلاقي من سقوط ملك او رجل عظيم بسبب سوء طالعه ، أو جزاء سوء عمله ، تكون ـ وبوضوح ـ اقتربت من أنواع مختلفة للنموذج التراجيدي ، وبالعكس فانهـا تقـارب الـكوميديا اذا ما أظهرت الطيبين وقد كوفئوا والشريرين عوقبوا . اما الرذيلة نفسها فكانـت سلفـاً

للامير المكيافيلي (مثل الملك ريتشارد الثالث) ، وللنذل المماثل للغول (مثل يهودي مالطا لمارلو) ، والخادم المتآمر الذي تحيك مؤامراته حبكة كثير من الهزليات اللاحقة .

تعقدت الفكرة الوسيطية البسيطة عن المأساة بأنها قيام وسقوط رجل عظيم بمسرحيات سنيكا (Seneca) وبالمسرحيات الايطالية التي نهجت نهجه . وهي جميعها ملودراما اخلاقية لعواطف عنيفة ، وعادة ما تتميز بالانتقام الدموي ، وبالأشباح والفلسفة الرواقية القدرية . وكانت تافهةً تلك المسرحيات الانكليزية ، التي قلدت هذا النوع من الدراما تقليداً مباشراً ، مثل « كوربودك » (Gorboduc) (اخرجت عام ١٥٦١) لمؤلفيها سكفيل (Sackville) وتوماس نورتون (Thomas Norton) ؛ الا ان الشكل السنيكي (نسبة الى سنيكا) للمسرحية لم يكن عقياً ، الا في انكلترا. وشاهدنا، فيما ذهبت اليه مسرحيات راسين (Racine) وكورني (Corneille) البطولية في فرنسا ، والتي تأثرت بدورها بسنيكا . وعلى كل حال كان التقليد « السنيكي » هاماً بالنسبة للمسرحيين اللاحقين، اذ أورثهم نموذج العمل التراجيدي الرفيع الذي تسيطر عليه افكار ضخمة عن القدر والعقاب ، ويرافقه الفن المسرحي الذي تتطلبه الاشباح والكورس ، والمسرحية ضمن المسرحية . وفي نفس الوقت اصبح استعمال الوزن الشعري المسمى « بلانك » (blank) (وهو البيت غير المقفى ذو الخمس تفعيلات ، تتألف كل تفعيلة بشكل رئيسي من مقطع غير مشدَّد يتبعه مقطع مشدد) ، بعدئذ الوزن الموحد لشعر المأساة والملحمة الانكليزية .

ومنذ عام ١٥٥٠ أنتج العديد من الكتاب الجامعيين هزليات بالانكليزية بعد أن قبلوا النظام والقواعد التي تدعو اليها مسرحيات بلوتوس (Plautus) الكلاسيكية عامة ، مثل تركيب المسرحية من خمسة فصول ووحدة العمل ، لكنهم اختاروا مواضيع محلية قومية ، وعالجوها بواقعية . وأشهر مسرحيات اخرجت في منتصف القرن هي « زالف رويسرت دويستر » (Ralf Roister Doister) لنكولاس اودال (Nicholas Udall) والكوميديا الهزلية من نوع « الفارس » المسماة ابرة غامر غيرتون » (Gammer Gurtons Needle) .

وفي عام ١٥٨٠ ظهـر عدد من المسرحيات التـاريخية مثـل مسرحية « الملك جون » (Kynge Johan) لجون بيل (John Bale) . وهـكذا تكون جميع الاشـكال الرئيسية للمسرحية قد بُشرِّ بها . وعلى كل لم تكن هذه الاشكال واضحة تماماً ، كما قال سيدني في كتابه « دفاع عن الشعر » بل كانت متشابكة احياناً لدرجة قاتلة . وبشكل عام ، قدر للمسرحية البريطانية ان تتميز بتفضيلها الاشكال المختلطة على النقاء الكلاسيكي .

العقول الجامعية (University Wits) **وكيد** (Kyde) .

كانت العقول الجامعية (التي تمثلت بأدباء مثل ليلي وجورج بيل وكرين وناش ومارلـو) اشهـر كتـاب للمسرحية من بـين اولئـك الـذين ازدهـروا بـين عامـي ١٥٨٠ ـ ١٥٩٥ . وكتـب ليلي ، وهـو أصقلهـم أسلوبـاً ، ترجمـات لاساطـير كلاسيكية أو خرافـات خيالية أمثـال « كامبـا سبـي » (Campaspe) وانـديميون (Endimion) آخذاً بعين الاعتبار وحدة العمل ، واستعمل بثقة فائقـة العديد من الحيل المسرحية التي ما لبثت ان غدت تقليدية مثل إدخال القصيدة الغنائية الخفيفة ضمن الفصول وادراج الحبـكة الثانـوية الهـزلية بـين المشاهـد لإبـراز الرومـانس بالمقارنة ، وفوق كل هذا استعمال النثـر المنمـق في الهـزليات الرفيعـة . أمـا بيل « وغرين » فنظما شعـراً نابضـاً بالحيوية غـير مقفـى ، وسـاهما في إضفـاء طابـع الرومانس الرعوي الذي ميز الكوميديا اللاحقة مثل ذلك مسرحيتا مسرحية « بيل » « اتهام باريس » (Arraygnment of Paris) ، وحكايات العجائز (The Old wives Tales) ومسرحية غرين « التاريخ المشرف للراهب بيكون والراهب بنـكي » (The honorable history of Frier bacon and frier bongay) .

لاقـت مسرحية تومـاس كيد (Thomas Kyde) « المأســاة الاسبــانية » (The Spanish Tragedy» التي كتبها حوالي عام ١٥٩٠ قبولا شعبياً كما كان لها تأثير بالغ على تطـور المسرحية الانـكليزية . اقتبس كيد بتصرف من سينكا ومــاكيافيلي ، ووضع أسس فكرة الانتقام التي أصبحت شائعة في الكثير من المسرحيات المأساوية بعدئذٍ . تتألف المسرحية من سلسلة من الصدمات الدراماتيكية المروعة حتى تبلغ الى ذروتها في عملية انتقام هيرونيمو (Hironimo) الرائعة وموته في لحظة انتصاره .

وفي مسرحيات كرستوفر مارلو امثال تامبرلين (Tamburlaine) والدكتور فاوستوس (Doctor Faustus) ويهودي مالطا (The Jew of Malta) وادوارد الثاني (Edward II) وجميعها كتبت ما بين ١٥٨٧ و١٥٩٢ والتي تتبع أسلوب المسرحيات التي كانت تعرف « بالأخلاقيات » بمعناها الواسع .

إن ابطال هذه المسرحيات طمحوا الى سيطرة غير محدودة أو الوصول الى المعرفة المحرمة أو الجمال المثالي او الثروة اللامتناهية،وبذلك تطاولوا الى ما هو فوق حدود مقدرتهم وانتهوا الى الدمار المحتم .

شكسبير :

ربما كان شكسبير أول شاعر يجمع بين ادراك للانعتاق الذي جاء به عصر النهضة وحدس لحاجات الانسان الروحية وامكاناته . ولكن ، باستثناء مسرحية تيتوس اندرونيكوس (Titus Andronicus) ، وهي مأساة دموية تأثرت كثيراً بأسلوب كيد (Kyde) ، لا تختلف مسرحياته الأولى كثيراً عن تلك التي مثلت على المسرح اللندني ، فمسرحية « هنري السادس » لم تأت بجديد ، وتنقصها القوة التي تميزت بها مسرحية ريتشارد الثالث (Richard III) التي تلتها . وشكلت هذه المسرحيات الحلقة الأولى من مسرحياته التاريخية . اما مسرحيات ريتشارد الثاني (Richard II) وهنري الرابع (Henry IV) (جزآن) وهنري الخامس (Henry V) فقد أبرزت مهارته المتزايدة التي مكنته من تخطي حدود موضوعه نحو نظرة شمولية واسعة . ففي المسرحيات الثمانية استعمل شكسبير تاريخ ملوك أسرة بلانتاجنيت (Plantagenet) المأساوي كطريقة يبين بها توارث الشر من جيل الى جيل . وتختلف المسرحيات بصورة واضحة في أسلوبها الدرامي، فبينما تشبه « هنري الخامس » مسرحية العرض الوطني ، ومسرحية « ريتشارد الثاني » تشابه الأخلاقيات ، فان مسرحية هنري الرابع تتطلع الى أكثر من ذلك فخلق شخصية فولستاف (Falstaff) ، وطريقة مقارنة حياته في ايست تشيب (East cheap) بحياة الملك أوجدا تعقيداً جديداً في المسرحية،واظهر كيف استطاع ان يعالج تاريخ بريطانيا القديم بمهارة الشاعر المبدع . كتب شكسبير ـ بالاضافة الى ما ذكر ـ مسرحيتين تاريخيتين أخريين هما « الملك جون » (King John) وهنري الثامن (Henry VIII) والأخيرة هي ملحق يتسم بالمديح الوقور لعلاقة أسرة بلانتاجنيت بعهد الملكة اليزابيت .

وفي مسرحيات كرستوفر مارلو امثال تامبرلين (Tamburlaine) والدكتور فاوستوس (Doctor Faustus) ويهودي مالطا (The Jew of Malta) وادوارد الثاني (Edward II) وجميعها كتبت ما بين ١٥٨٧ و١٥٩٢ والتي تتبع أسلوب المسرحيات التي كانت تعرف « بالأخلاقيات » بمعناها الواسع .

إن ابطال هذه المسرحيات طمحوا الى سيطرة غير محدودة أو الوصول الى المعرفة المحرمة أو الجمال المثالي او الثروة اللامتناهية ،وبذلك تطاولوا الى ما هو فوق حدود مقدرتهم وانتهوا الى الدمار المحتم .

شكسبير :

ربما كان شكسبير أول شاعر يجمع بين ادراك للانعتاق الذي جاء به عصر النهضة وحدس لحاجات الانسان الروحية وامكاناته . ولكن ، باستثناء مسرحية تيتوس اندرونيكوس (Titus Andronicus) ، وهي مأساة دموية تأثرت كثيراً بأسلوب كيد (Kyde) ، لا تختلف مسرحياته الأولى كثيراً عن تلك التي مثلت على المسرح اللندني ، فمسرحية « هنري السادس » لم تأت بجديد ، وتنقصها القوة التي تميزت بها مسرحية ريتشارد الثالث (Richard III) التي تلتها . وشكلت هذه المسرحيات الحلقة الأولى من مسرحياته التاريخية . اما مسرحيات ريتشارد الثاني (Richard II) وهنري الرابع (Henry IV) (جزآن) وهنري الخامس (Henry V) فقد أبرزت مهارته المتزايدة التي مكنته من تخطي حدود موضوعه نحو نظرة شمولية واسعة . ففي المسرحيات الثمانية استعمل شكسبير تاريخ ملوك أسرة بلانتاجنيت (Plantagenet) المأساوي كطريقة يبين بها توارث الشر من جيل الى جيل . وتختلف المسرحيات بصورة واضحة في أسلوبها الدرامي ، فبينما تشبه « هنري الخامس » مسرحية العرض الوطني ، ومسرحية « ريتشارد الثاني » تشابه الأخلاقيات ، فان مسرحية هنري الرابع تتطلع الى أكثر من ذلك فخلق شخصية فولستاف (Falstaff) ، وطريقة مقارنة حياته في ايست تشيب (East cheap) بحياة الملك أوجدا تعقيداً جديداً في المسرحية ،واظهر كيف استطاع ان يعالج تاريخ بريطانيا القديم بمهارة الشاعر المبدع . كتب شكسبير ـ بالاضافة الى ما ذكر ـ مسرحيتين تاريخيتين أخريين هما « الملك جون » (King John) وهنري الثامن (Henry VIII) والأخيرة هي ملحق يتسم بالمديح الوقور لعلاقة أسرة بلانتاجنيت بعهد الملكة اليزابيت .

الملهاة : تظهر ملاهي شكسبير الأولى رغبته في أن يتبع أي نمط كان يبدو مربحاً ، فقد أظهر في مسرحية « ضياع تعب الحب »(Lave's Labour's lost) إعجابه بالملهاة البلاطية التي كتبها ليلي ، لكن تخطاه في اهتماماته الانسانية وفاقه بأسلوبه المتنوع .

وبما أن غرين في مسرحية الراهب بيكون والراهب نبكي قد نجح في مزج العاطفة بالهزل ، والاثارة والغموض ، فقد سار شكسبير على نهجه في مسرحية « السيدان من فيرونا » (The two Gentlmen of Verona) وكانت ملهاة الاخطاء (The Comedy of Errors) من نفس نمط « رالف رويستر دويستر » إلا أنها ـ بالتأكيد ـ كانت من عمل شاعر . اما المسرحية التي اتخذت نمطاً جديداً بالنسبة للمسرح الانكليزي فهي مسرحية « حلم ليلة صيف »(Midsummer Night's Dream) ، اذ طورت نموذجاً من الرقة والكبرياء في الحبكة الرئيسية بمقابل الفضائل الأكثر تواضعاً مثل الأمانة والمرح في الحبكة الثانوية ، ذلك النمط الذي كرره شكسبير في تاجر البندقية (The Merchant of Venice) وملاهيه الثلاث المكتملة النضوج ، وهي « جعجعة بلا طحن » (Much Ado About Nothing) و« الليلة الثانية عشرة » (Twelfth Night) و« كما تشتهيها » (As you like it) وكان لكل من هذه المسرحيات طابع موحد : فخطر المأساة ، أو عدم ثبات القدر يؤديان الى توقع سرعة زوال السعادة ، بينما تحول الحبكات الثانوية القوية دون المبالغة في العاطفة . وفوق كل هذا نجد أن الشيء الذي يميز هذه المسرحيات عن الملاهي الانكليزية السابقة واللاحقة أنها ـ بشكل رئيسي ـ سبكت في شعر غير مقفى لونه شكسبير ، مطعماً إياه بنثر رائع سواء أكان رفيعاً ام مبتذلاً حسب متطلبات العمل المسرحي ، ولكن الأساس الذي اعتمده كان شعراً مرناً كان هو رائده .

وفي حوالي عام ١٦٠٠ اتخذ الأدب طابعاً مأساوياً بشكل تدريجي فنجد هزليات شكسبير الأخيرة ، مثل «كل شيء على ما يرام ـ اذا انتهى كذلك(All's Well That Ends Well) «وواحدة بواحد»(Measure For Measure) ، تسير بتردد نحو النهاية التقليدية السعيدة لحبكاتها ، وقد شاطرت بالاضافة الى مسرحية ترويلوس

وكرسيدا(Troilus And Cressida) ـ مسرحية «تايمون الأثيني»(Timon of Athens) المريرة والقوية في آن واحد ـ وجهة نظرهما غير المتفائلة عن القدر والطبيعة الانسانية .

وشاركت مأساة شكسبير الثانية « روميو وجولييت » التي كتبت في حوالي الفترة نفسها التي كتبت فيها هزلية « حلم ليلة صيف » المسرحية الأخيرة في طابعها المفعم شباباً وأملا ، لكن مفهوم شكسبير لغرض وهدف المأساة تعمق قبل « هاملت » (Hamlet) وعطَيل (Othello) ومكبث (Macbeth) والملك لير(King Lear) وانطوني وكليوباترا (Antony And Cleopatra) وكوريولانوس(Coriolanus) ولم تكن هذه المآسي مجرد دراسات لمواطن الضعف في فضائل أبطالها بل كانت رؤى كاملة للحالة الانسانية درست بحماسة وشوق عصر النهضة .

وأضفى تمكن شكسبير من الوزن المسمى « بلانك » على هذا الشعر وحدة فكر ، كما أمده بتعبير شاعري دون أية خسارة في الأثر الدرامي .

ومنذ عام ١٦٠٨ عكف شكسبير بأهتمام متزايد على انتاج مسرحيات شمل فيها العمل المسرحي جميع امكانات المأساة ، ولكن المأساوي نفسه أبعد بفعل تدخل قوى ما وراء الطبيعة فقد زخرت بركليس (Pericles) وسيمبلين(Cymbeline) « وقصة الشتاء »(The Winter's Tale) « والعاصفة » (The Tempest) بالعواطف العنيفة والجرائم والمصائب ، ولكن في كل من هذه المسرحيات كانت الشخصيات التي اعتقد بأنها ماتت يُعثر عليها حية ، ويلتئم فيها شمل الأباء بالأبناء .

ومع أن مسرحيات شكسبير عالجت بعمق المواضيع العالمية ، الا انه لم يغفل البتة حاجات المسرح الدرامية وعلاقته بالأمور المعاصرة ، بل كانت مسرحياته تعكس حوادث عصره ، فمثلاً عندما ارتقى عرش انكلترا ملك اسكتلندي مثل جيمس الأول (وقد كان حتى ذلك الوقت جيمس السادس في اسكتلندا) بادر الى كتابة مسرحية عن ملك اسكتلندي آخر هو ماكبث . وقد بوأته مقدرته على الجمع بمهارة بين القوة الدرامية والطاقة الشعرية مكانته الأدبية العظيمة التي لا ينازعه فيها منازع .

جونسون :

كان منافس شكسبير الوحيد بين معاصريه صديقه بن جونسون(Ben Jonson) الذي كان لهزلياته الساخرة اثر دائم على المسرح الانكليزي . وقد ذم جونسون الهزلية الاليزابيثية الرومانطيقية لحبكاتها التي اعتمدت على قصص الجنيات، ولتجردها من الحس والمسؤولية الاخلاقية ولمزجها الرقص والموسيقا والعمل المسرحي نظراً لتدربه دراميا على مؤلفات الكاتب المسرحي الروماني بلوتوس واتباعه تعاليم ارسطو في كتابه « فن الشعر » . وقد بنيت هزليتاه القديمتان « كل امرىء على مزاجه »(Everyman in His Humour) اخرجت عام ١٥٩٨ « وكل امرىء خارج عن طوره (Everyman out of his humour) على نظرية مفادها ان الامزجة سوائل في الجسم تقرر صفات الانسان . إلا ان جونسون عدل نظريته هذه في مسرحيتي «الثعلب»(Volpone) ١٦٠٦ «والكيميائي»(The Alchemist) ١٦١٠ مفسحاً مجالا أوسع لتطوير الشخصية ، ولاظهار عيوب عصره واصلاحها . وضع بن جونسون بعناية سلسلة من الحبكات مهارة فائقة ، على عكس ما كان يفعله العديد من المسرحيين الاليزابثيين . كما قسم الناس الى خادعين ومخدوعين ، وقدمت حبكاته أمثلة على نذالة الخادعين ، ثم عرت بمهارة قاتلة ما جبلت عليه طبيعة المنافقين والبخلاء والمدعين والمتبجحين الذين وقعوا في الشرك . وبدت غير طبيعية مسرحياته الرومانية مثل «سقوط سيجانوس»(Sejanus his Fall) ١٦٠٣ «ومؤامرات كاتالين»(Cataline his Conspiracy) عام ١٦١١ ، ولكن هزلياته اللاحقة مثل « الشيطان حمار » (The devil is An Ass) ومعرض بارتولوميو (Bartolomew Fair) ١٦١٤ كانت مفعمة بالحيوية ، وكان جونسون اليزابيتياً بما وجد من متعة في استعمال اللغة من متعه ، وقد حاز روعة تستدعي الاعجاب بذلك الرنين المميز الذي يتناسب وهزليته الصلبة الزاخرة بالحياة .

المأساة الجاكوبية

كانت المسرحية الجاكوبية ـ باستثناء جونسون ـ أميل الى النوع التراجيدي بصورة عامة . وقد ظهر الطابع الحزين في هزليات بن جونسون الهجائية ، وفي مآسي شكسبير القاتمة وهزلياته ، ولكنه كان أوضح من كل هذا في مؤلفات

المسرحيين الجاكوبيين الآخرين الذين سحرتهم مبادىء ميكيافلي . وجاءت مثل هذه النظرة الى الانسانية بمشاكلها الخاصة بها . وفقط عندما كان أبطال المسرحيات على وشك الموت لجأ المسرحيون الى مجابهة المعضلة التي يتضمنها جميع أدب عصر النهضة . فقد فتشوا عن حل وسط بين الانسانية والرغبة في الخلود ، لكنهم فشلوا في العثور عليه ، وهكذا مات أبطالهم في حالة تحد مأساوي أو شك مذهل ، أو بأحسن الاحوال في التخلي عن الفلسفة الرواقية (Stoic) . وقد أطلق بحق اسم تراجيديات الانتقام على هذه المسرحيات ، اذ تتابعت الجرائم الواحدة تلو الأخرى ، وشهد آخر فصل من المسرحية الموت الاستعراضي لجميع من تلوثوا بالخطيئة . وأكدت المسرحيات على خطيئة الانسان او على عجزه وضعفه .

وفي مسرحية «الشيطان الابيض» (White Devil) (حوالي ١٦١٢) ودوقة ملفي (The Duchess Of Malfi) ١٦١٣ كان جون وبستر (John Webster) الوحيد الذي قدم مادة تضمنت اكثر من مجرد القتل والجنون والتعذيب والخيانة ، ومع ذلك فقد انتهت كل مسرحياته الى اليأس ، واشتملت على أكثر التلميحات غموضاً بأن الناس ليسوا أكثر من مجرد كرات تنس يتقاذفها القدر كما يشاء . وأكثر الأمور ايجابية في مسرحياته هو شعره المتألق - حتى عندما يكون موضوعه بالغ القنوط - المتألق بنور قزحي يبث النور في زوايا العقل المظلمة ، ويبقي على بعض الأمل بأن الجمال يمكن ان يوجد حتى في المقابر . ومع ان مسرحية سيريل تيرنر (Cyril Tourneur) مأساة المنتقمين (Revengers Tragedie) التي نشرت عام ١٦٠٧ أهتمت بنفس موضوع مسرحية كيد «المأساة الاسبانية» ، وهو موضوع الرجل الذي أسيء اليه الا اننا نجد ان تيرنر - منذ المشهد الأول يناجي فيه فنديتشي (Vendice) جمجمة محبوبته الميتة - اعطى الانتقام تفسيراً أكثر شراً . فكل ما في المسرحية فاسد ، وحتى فنديتشي نفسه الذي صمم أن يطهر العالم يقع في خطيئة نية الانتقام القاتل . وبالمقارنة كانت تتخلل «مأساة الملحد» (Tragedy The Atheist's) (المنشورة عام ١٦١١) فكرة مفادها أن الانتقام الفردي يرتد على نفسه . ويتميز شعر تيرنر في هاتين المسرحيتين بكثرة التخيلات المرعبة ، لكنه لم يقدم لنا في أي منهما فكرة عن الانسان اكثر رفعة من تلك التي تمتاز بها شخصياته الشريرة الفاسدة .

وفي مسرحية «الخائن»(The Changeling) (أخرجت عام ١٦٢٢) رأى توماس مدلتـــون (Ghomas Middleton) الـــذي شاركه وليام رولي (William Rowley) في كتابتهـا ، الامكانـات الـدرامية لسلسلـة من الاغتيالات والرعـب الـذي تهتز له النفس ، بما يوحيه من جرائم اكثر ، وانحطاط أشد . ولقد صورت بطلته وخادمها المحب بسائر حالات علاقتهما المعقدة بنظرة سيكولوجية عميقة وفريدة بأدب هذه الفترة .

من الواضح أن نتاج جون مارستون (John Marston) كان عمل شاعر أقل موهبة . وتعتبر أشهر مسرحياته وهي (المتبرم)(The Malcontent) (١٦٠٤) عمـلاً فريداً نظراً لأن الرجل الذي لحقه الأذى لا يقتل من ضحاياه احداً ، بل يبقي عليهم كعنصر من عناصر التشويق المسرحي حتى النهاية ، عندما يصلح امر الشخصيات الشريرة الثانوية ، ويطرد الشرير الاكبر تطارده السخـرية . امـا مسرحيات جورج تشابمان (George Chapman) فقد شحنت بالشعر الرفيع الذي نتوقعـه من مترجم هوميروس . وكانت مسرحياته التاريخية ذات المواضيع الفرنسية أصـدق تعبـير في المسرحية الانكليزية عن الفلسفة الـرواقية (Stoic) ومـن ناحية اخـرى كان فيليب ماسينجـر (Philip Massinger) معلماً في أمـور المسرح . وتمثـل مسرحية «الممثـل الروماني»(The Roman Actor) (١٦٢٥) ما يمكن ان يحصل عندما يتوصل الرجل الميكيافلي الى السيطرة التامة . أما جون فورد (John Ford) فأبقى على تقليد المأساة التي تعتصر من العاطفة الانسانية والانحطاط الانساني حتى اغلق المرسوم البيورتاني المسارح عام ١٦٤٢ . فقد صورت مسرحيتا «القلب الكسير»(The Broken Heart) و «من المؤسف انها مومس»(Tis Pitty Shees A Whore) (نشرت عام ١٦٢٣) حتمية القدر وضآلة تحدي الانسان حتـى حـين يقتـرب فورد فيهما من قدرة وبستـر على استخلاص الجمال من اليأس .

الملهاة الجاكوبية :

يمكننا أت نتتبع تفسيراً مماثلاً في طابع الملهاة . ولربما كانت «عطلـة صانـع الاحذية»(Shoemaker's Holiday) (مثلت للمرة الاولى عام ١٥٩٩) للكاتب ديكر (Dekker) باستثنـاء الرومـانسيات ، آخـر مسرحية خلـت من النقـد الاجتماعـي

الظاهر . وعند ذكر ديكر وتوماس هيوود(Thomas Heywood) لا يسعنا الا ان نذكر الكتاب المسرحيين المحترفين من الدرجة الثانية الذين لم تنقصهم الموهبة لكنهم ألفوا عادة بالتعاون مع غيرهم امثال هنري تشتل(Henry Chettle) ومايكل دريتون (Michael Drayton) ووليام رولي(William Rowley) الذين قدموا حبكات ثانوية من الهزليات أو المآسي الخشنة المليئة بالحيوية. وكان مدلتون(Middleton) كاتباً هزلياً أهم شأناً في مسرحيته «عذراء شريفة في منطقة تشيب سايد»(Chast Mayd In Cheap Side) (١٦١٣) التي قدمت نظرة فاحصة عميقة للزواج . وكان مثل هذا الموضوع غير صالح للمهذبين من الناس ، شأنه شأن القسم الأكبر من الملهاة الاليزابثية والجاكوبية لأن معظم الفكاهة بذيء حسب ذوق العصر . ولكن الكثير من الدعابات كان من نوع التورية التي أضحى أحد معانيها غير مألوف الآن . اما مسرحية ماسينجر(Massanger) الشهيرة المسماة «طريقة جديدة لدفع ديون قديمة» (A New Way To Pay Old Depts) (١٦٣٣) فلم يتأثر فيها بالادوار التي اعتمدت الكلام غير المهذب ، الا أن حبكتها جيدة الصنع كأية حبكة من حبكات جونسون . وقد أظهر ماسينجر هنا وفي مسرحية سيدة المدينة(City Madam) (١٦٣٢) مقدرته على تضمين مسرحياته قيماً أخلاقية .

أما المؤلفات التي كتبها فرانسيس بومونت(Frncis Beaumont) بالتعاون مع جون فلتشر(John Flecher) فقد شملت جميع الاشكال الدرامية من التقليد الهازل كما هي الحال بالنسبة «لفارس المدقة المشتعلة»(The Knight Of The Burning Pestle) (١٦٠٧) ، الى الميلودرام (المشجاة) العاطفية ، كما هي الحال بالنسبة «لمأساة العذراء»(Maydes Traged) . واستمر تقليد المأساة - الملهاة في مؤلفات جيمس شيرلي(James Shirely) التي تتصف بالأسلوب الرفيع . وكان المجال الذي برع فيه هو حقل الملهاة الخفيفة حيث تطلعت أفضل مؤلفاته مثل «المقامر»(The Gamester) و «سيدة المتعة»(The Lady Of Pleasure) (١٦٣٥) الى هزليات فترة عودة الملكية .

مسرحيات الأقنعة(Masks) ومسرحيات ثانوية :

أظهر الكثير من المسرحيات الثانوية والمآسي القومية التي تناقش الأمور العائلية ، والمسرحيات التاريخية والملودرامية ، وهزليات الخيانة الزوجية ،

ومسرحيات الترفيه الاكاديمي ، والمسرحيات الرعوية حسب النمط الايطالي ، والمسرحيات على طريقة سنيكا التي قصد بها القراءة لا الاخراج ، أظهرت هذه الأنواع جميعاً ان حيوية المسرحية الكبيرة وتقديرها ، لم يقتصرا على الكتاب المسرحيين الرئيسيين . اذ استدعت المسرحية المقنعة المسماة «ماسك» وهي تسلية رمزية تضمنت المناظر الفخمة والموسيقا والرقص ، كما استدعت ارقى وأرفع جمع بين القصيدة الغنائية واللحن الموسيقي والمناظر . وقد كتب هذا النوع من العرض المسرحي ، وأخرج كتسلية خاصة للطبقة النبيلة . ومنذ أيام جونسون نعمت البلاد بسلسلة من المسرحيات التنكرية هذه ، فكانت بذلك أثراً رشيقاً خالداً من عصر النهضة .

الفَصْل السَّابع

الأدَب الألماني في عَصر النهضَة

من الالمانية الوسطى العالية الى العصر البار وكي :

أدى سقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ الى خلق خوف من الاتراك في غربي اوروبة انعكس غالباً في أدب القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بينما ازداد استقلال الحكام الاقليميين في ألمانيا على حساب الامبراطورية .

وأحدث اختراع الطباعة ذات اللوحات المتحركة حوالي عام ١٤٤٠ ثورة في الطباعة والأدب .وعلى كل حال استمرت الاشكال الفنية القديمة الى ما بعد عام ١٤٤٠ ، فكانت هناك المؤلفات المجازية الوسيطية والاغاني الشعبية ، وأغاني الحب والطبيعة والمرح والشراب ، والقصائد الغنائية الشعبية القصيرة من نوع «البالاد» (Ballad) . وقد أدخل هانس فولز (Hans Folz) أحكاماً أقل تشدداً ليعيد انعاش فن المغني والشاعر المحترف المسمى «مايستر سنكر» (Meister Singer) (عضو النقابات لتطوير الغناء والشعر).أما في الجنوب فقد أصبحت «مسرحيات أيام المرافع» (Fastnach Tspiele) أداة نقد وفكاهة بذيئة ، بينما بقي كتاب الشمال أكثر ضبطا للنفس . وتطورت مجموعات من الطرائف الهزلية (Schwanke) وتجمعت غالباً حول بطل واحد ، وقد حازت القصص الطريفة المتعلقة بـ تل يولنسبيغل (Till Eulenspieygel) على شهرة أوروبية .

ومنذ حوالي عام ١٤٥٠ نشأت وتطورت واقعية برجوازية جديدة رفضت القصة الوسيطية عن الفروسية لمصلحة الانسانية والكلاسيكية الجديدة .

الانتعاش البلاطي :

ساعدت النهضة البرغندية على انعاش الاهتمام بالفروسية الوسيطية في بعض بلاط الأمراء . ففي انزبروك (Innsbruk) كتبت الدوقة اليانور النمساوية (Duchess Eleonore Of Austria) نسخة نثرية عن روما نسبة فرنسية فروسية وهي « بونتوس وسيدونيا» (Pontus And Sidonia) . وفي روتنبرغ (Rottenburg) أدت مؤلفات جيكوب بيوترخ فون ريتشارد هوزن (Jacobe Puterich Von Reicherts Hausen) الى إنعاش الاهتمام بالشاعر الوسيطي ولفرام فون اشنباخ (Wolfron Von Eshenbach) . وتم طبع القصائد الوسيطية اما بشكلها الأصلي أو على شكل نثر ليست له قيمة أدبية كبيرة . أما المؤلفات المجازية للامبراطور الروماني المقدس مكسميليان الأول مثل «الملك الأبيض» (Weiss Kunig) «والفكر النبيل» (Thewrdanle) فلربما تكون مثلت آخر محاولة للعيش حسب المثل الفروسية والوسيطية .

الانسانية : إن العناصر الجديدة في الأدب الألماني الذي كتب بعد عام ١٤٥٠ يختلف تماماً عن هذا الأدب البلاطي ، وقد سميت العناصر الجديدة بالحركة الانسانية . استقى الانسانيون ما بين عامي ١٤٥٠ و١٤٨٠ وحيهم من ايطاليا . اذ كان البرخت فون أيب (Albrecht Von Eyb) وهاينرخ ستانيهول (Heintich Steinhowel) ونكلاس فون ويل) (Nikas Von Wyle) (وأريقو (Arigo) (من المحتمل انه الاسم الأدبي لهاينرخ شلوزلفلدر (Heinrich Schlusselfeder) وانطونيوس فون بفور (Antonius Von Pfor) كانوا جميعاً مترجمين بصورة رئيسية ، وانتخبوا الكثير من الروائع الوثنية ، وبعض الآثار الكلاسيكية اليونانية والهندية ومؤلفات ايطالية ، بما فيها كتاب ديكامرون للكاتب بوكاتشيو .

وبعد عام ١٤٨٠ أعطت الانسانية الالمانية صورة مغايرة تماماً . وكان كونرادوس كلتس (Conradus Celtis) وأيوبانوس هسوس (Eubannus Hessus) وغيرهما مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالدوائر الجامعية ، وكتبوا باللاتينية بشكل كلي

تقريباً . وقد تجلت روح وطنية وسياسية عارمة في كتاب جرمانيا (Germania) لجيكوب ويمبفلنغ (Jakob Wimpfeling) ، والنشاطات الدبلوماسية لكونراد بيوتنجر (Konrad Peutinger) . كما ظهر اهتمام نشيط بالتاريخ الالماني في مؤلف بياتوس رينانوس (Beatus Rhenanus) «تاريخ رهبان القديس كول» (Chronik Der Abbebte Von St Gallen) عام ١٥٣٣ لمؤلفه جو شايم فاديانوس (Jochim Vadianus) الاسم الأدبي لجوشايم فون واط ، وتاريخ بفاريا (Bayerische Chronik) لـ أفنتينوس (Aventinus) ولكن الجماهير لم تتأثر بها كما تأثرت فيما بعد بالاصلاح اللوثري .

كان الاثر الانساني في المسرحية أكثر مباشرة . فقد نشأ تقليد درامي حيوي كجزء من البرامج الجامعية . وأخرجت هزليات رومانية ومسرحيات لاتينية وضعها كتاب حديثون للتهذيب الأخلاقي ولتعليم الفصاحة . وكانت هذه المسرحيات مختلفة اختلافاً بيناً عن الأنواع المسرحية الوسيطية ، ومنها تطورت مسرحية القرن السادس عشر في المانيا . وقد تحولت هذه المسرحية اللاتينية فيما بعد لخدمة الاصلاح الديني .

ويفسر تركيز أكثر كتاب العصر موهبة على اللاتينية لِمَ كان الأدب باللغة الدارجة بين عامي ١٤٩٠ و١٥٢٠ نادراً . فلقد سيطرت الاعمال الساخرة او التعليمية . ويستعرض أشهر مؤلف من القرن الخامس عشر واسمه مركب الحمقى (Das Narrenschiff) (١٤٩٤) لمؤلفه سباستيان برانت (Sebastian Brant) جميع عيوب العصر الرئيسية والثانوية . ونجد في كتاب «الثعلب رينارد» (Reyke De Vos) ١٤٩٨ الذي كتب بالالمانية المنخفضة أن الشعر كان يرافقه تعليق نثري واسع طبقت فيه الحوادث الساخرة على الشرور المعاصرة .

عصر الاصلاح الديني :

أثر الاصلاح الديني واحتجاج مارتن لوثر ضد الانتهاكات الاكليركية على الحياة في المانيا ، ولم يفسح سوى مجال ضيق للاعتبارات الجمالية الصرفة. ووقف

الانسانيون الذين فضلوا الاصلاح دون تغييرات عقائدية على الحياد بصورة عامة .

لكن باستثناءات نادرة بارزة، إذ أيد قضية لوثر في مجموعة من النشرات أورلخ فون هتن (Urlich Von Hutten) ـ الذي أمل أن يحصل كذلك اصلاح سياسي، وأدخل عالِم اليونانيات فيليب ميلانكثون (Philipp Melanchthon) التقليد الانساني الى المدارس البروتستانتية . ولكن باستثناء الانسانيين كان كل كاتب مرموق تقريباً مشغولاً بالاصلاح الديني .

ومن الفيض الغزير من الكتب التي طبعت في المانيا كان عدد ضئيل جداً ذا قيمة أدبية . فهناك كتابات لوثر نفسه العديدة والمتنوعة وكراساته الفصيحة عن الاصلاح العام ١٥٢٠ مثلاً او ذمّه الفظ ثورة الفلاحين . وكذلك كتاب خمسة عشر رفيقاً (Die is bundsgenossen) (١٥٢١ ـ ٢٣) الذي هاجم فيه يوهان ابرلين فون كونزبرغ (Johan Eberlin Von Gunsburg) المساوىء الدينية ، فضلاً عن نقد توماس مورنر (Thomas Murner) المرير دفاعاً عن الدين القويم . وهناك الهجاء العنيف للكاثوليكية في « فسنحتسبيل » (Fastnachtsspiele) لنيكولاس مانيول (Niklas Manuel) من بيرن ، وكتابات سبستيان فرانك (Sbastian Franck) وهو مفكر راديكالي مستقل .

كان للاصلاح الديني اثر دائم على الأدب الألماني في ثلاث مجالات: فهناك اولاً ترجمة لوثر للكتاب المقدس (العهد الجديد عام ١٥٢٢ والعهد القديم ١٥٣٤) التي لم تكن تستند وللمرة الأولى على النصوص العبرية والاغريقية فحسب ، بل تجلت في أسلوب الماني رصين وشعبي ، وكان أثرها بالغاً على أسلوب الكتّاب الألمان اللاحقين وأفكارهم . كما أسس لوثر الانشاد الجماعي للترانيم الدينية كجزء أساسي من الصلاة البروتستنتية ، وكتب بنفسه عدة ترانيم ، مما أدى إلى وضع أسس تقليد من كتابة الترانيم كان مساهمة المانية كبرى للعالم المسيحي .

وأخيراً امتدح لوثر بعض المواضيع الانجيلية لصلاحياتها للأداء المسرحي مشجعاً بذلك العديد من كتّاب المسرحية ليكتبوا مسرحياتهم بالألمانية كوسيلة للتعليم

اللوثري، ويأتي في طليعتهم كل من سكستوس بيرك (Sixtus Birck) وبول ربهن (Paul Rebhuhn) وجوشيم كريف (Joachim Greff) وبيركهارد فالديس (Burkhard Waldis) وجورج وكرام (Jorg Wickram) كانت هذه المسرحيات التي بنيت على نماذج من المدرسة اللاتينية للمسرحية نقطة انطلاق في الانفصال عن الأنماط الوسيطية للمسرحية.

ورغم أهمية حركة الاصلاح الديني ، لم تكن مسؤولة عن كل الأدب الذي كتب باللغة المحلية بعد عام ١٥٢٠. وشرعت الألمانية تحل بالتدريج محل اللاتينية في الأعمال العلمية، مثلاً كمقالات الطبيب والكيميائي والعالم السويسري باراسيلسوس (Paracelsus) (ثيوفراستوس فون هو هنهايم). الا ان الأعمال الساخرة او التعليمية ظلت مسيطرة، كمجموعة الأقوال المأثورة ليوهان اكريكولا (Johan Agricola) . كما ان القصة الخرافية بعثت بدورها أيضاً. ومع ان ترجمات لوثر نفسه من كتاب ايسوب (Aesop) خلو من أي ميزة أدبية ، فقد حوّل كل من إرازموس البيروس (Erasmus Alberus) في كتابه «قصص خرافية» (Fablem) ١٥٣٤ وبيركهارد فالديس (Burkhard Waldis) في كتابه «ايسوب» (Esopus) (١٥٤٨) الخرافة الى شكل أدبي حيوي ثانوي، وترجم كسبار شدت (Kaspar Scheidt) الى الألمانية كتاب «كروبيانوس» (Grobianus) لمؤلفه فرديريك داديكانيد (Freidrich Dedekind) وهو دليل لاتيني نقدي حول آداب المائدة.

كان هانس ساخس من نورمبرغ (Hans Sachs of Nurnberg) أكثر مؤلفي القرن انتاجاً باستثناء لوثر نفسه. وعلى العكس من عمله الأدبي الذي كان تعليمياً في هدفه الا أنه غير جدلي ، مثل الاتقياء المستقيمين والعاملين المجدين من أهل المدن والحرفيين واللوثريين. ولأنه باتفاق الآراء اعظم المغنيين والشعراء المحترفين فقد ارتقى بالصيغة الأدبية حد الكمال والى نهايته الفعلية، رغم ما بذله شعراء متأخرون من محاولات لانعاشها، وأجاد ساخس أكثر ما أجاد بالفكاهة الشعرية وفي مسرحيات أيام المرافع (Fastnachsspiel) .

الأدب الخفيف :

مع انحسار خصومات الاصلاح الديني اتخذت اعمال التسلية الصرفة أهمية أكبر. وكانت كتب القصص الشعبية الواسعة الانتشار في الأغلب نسخاً نثرية لرومانسيات شعرية وسيطية او ترجمات حرة من مصادر أجنبية. كما كانت قصص فورتوناتوس (Fortunatus) وماجيلون (Magelone) ومليوسين (Melusine) وغيرها وغيرها ذات شعبية واسعة حتى الى ما بعد القرن السادس عشر. كما وجد الناس ترويحاً في مجموعات من القصص الفكاهية القصيرة، وهو نوع من العمل يعود الى «يولنشبيغل» (Eulenspiegel) على أقل تقدير. وكان لكتاب « الهزل والجد» (Schimpf Und Ernst) ١٥٢٢ ليوهان بولي (Johannes Pauli) أهداف تعليمية، إلا أن التسلية كانت الهدف الوحيد من مؤلف جورج وكرام « كتاب العربة » (Rollwgenbuchlein) ومجموعات اخرى مماثلة. وفي نفس الوقت بدأت الرواية الحديثة بالظهور في القصة النثرية الأكبر حجماً للكاتب ويكرام والمسماة الخيط الذهبي (Der Goldfuden) (١٥٥٧) وفي الترجمة الألمانية للرومانسية الاسبانية الفروسية «امادس دوغولا».

نهاية القرن السادس عشر : أدى مجلس ترنت (Trent) (١٥٤٥ - ٦٣) الذي حاول أن يصلح الكنيسة الرومانية، ومجيء جمعية يسوع الكاثوليكية الى توجيه الجدل الديني وجهة جديدة. فكيف اليسوعيون المسرحية المدرسية المكتوبة باللاتينية لأغراضهم التعليمية الخاصة بهم. ومع ذلك لم يظهر أي كاتب مسرحي بارز حتى القرن السابع عشر. وفي هذه الفترة، طورت الأكاديمية البروتستانتية في ستراسبورغ تقليداً تعليمياً ودرامياً غنياً. وبخاصة تحت اشراف كاتب انساني مسيحي هو يوهان ستوريوم (Johannes Sturm) .

وفي الربع الأخير من القرن ، كان أبرز مؤلف هو يوهان فيشارت (Johann Fischart) الذي وجه الكثير من اعماله ضد اليسوعيين والاصلاح المعاكس وضد واعظ لامع اسمه يوهان ناس (Johannes Nas) . وفي جميع كتابات فيشارت كانت

الاهداف التعليمية للعصر تقترن بالاهتمام بالصيغة الادبية. وكانت قصيدة «مراكب الحظ السعيد» (Das Gluckhafft Schiff) شكلاً وأسلوباً إحدى القصائد المتميزة في القرن . اما معاصر فشارت (Fischart) فيليب نيكوديموس فرشلين (Philipp Nikodemus Frischlin) فكان آخر مسرحي لاتيني شهير في هذا القرن . ومن ناحية ثانية أضافت نسخ المزامير لـ (بول ستيد مليسوس) (Paul Schede Melissus) ، وامبروسيوس لوهواصر (Ambrsius Lohwasser) ـ حسب نموذج كلمنت مارو الكلفيني ـ عنصراً جديداً الى تقليد كتابة الترانيم الدينية البروتستنتية الغزيرة، بينما ادى كتاب قصص شعبي مجهول المؤلف عنوانه «تاريخ دكتور فاوستوس» (Historia Von Dr. Johann Fausten) عام ١٥٨٧ الى قيام تقليد أوربي فاوستي . والناحية البارزة الجديرة بالاهتمام في السنوات الأخيرة للقرن هي وصول فرقة تمثيل إنكليزية الى المانيا ، شملت تمثيلياتها التي قدمتها نسخاً من مسرحيات انكليزية معاصرة ، تاركة أثرها على جاكوب ايرر (Jakob Ayrer) والدوق هنريخ جوليوس اوف بروترويك ، فألف هذا الأخير ١١ مسرحية ، وبهذا الأثر الجديد انتقل الأدب الالماني الى العصر الباروكي .

أدب الاصلاح الديني السويسري ـ الألماني

لم يكن لنشاطات المصلح الديني هولدريخ زوينغلي (Huldrych Zwingli) سوى أثر غير مباشر على الأدب ، فزوينغلي نفسه كتب باللاتينية بصورة رئيسية. كما ان ما يسمى بكتاب زيورخ المقدس لعام ١٥٢٩ كيّف بالتدريج ليتناسب مع كتاب لوثر المقدس مما وثّق الرابطة ما بين الكتابات السويسرية والالمانية.

والنتيجة الهامة لعمل زوينغلي ان الأغلبية البروتستانتية لسويسرا الناطقة بالألمانية أقامت علاقة دائمة مع الأجزاء البروتستنتية لغربي سويسرا ، ومع غيرها من البلاد البروتستنتية .

وكانت المسرحية المجهولة المؤلف عن وليام تل من مقاطعة اوري (Uri) تعبيراً صريحاً وشعبياً للوطنية السويسرية . أما تاريخ كيلغ تشودي (Gilg Tschudi) المسمى

كرونيكون هيلفاتيكوم(Chronicon Helvaticum) الذي غطّى السنوات ما بين ١٠٠٠ ـ ١٤٧٠ من التاريخ السويسري فقد بقي لأنه اعتبر عملاً أدبياً .

الأدب النمساوي في عصر النهضة :

وفي النمسا ادى التوسع الكبير لأمبراطورية هابسبرغ الى نقل المقر الامبراطوري من براغ حيث حكمت سلالة لوكسمبورغ الى فينا حيث عائلة هابسبرغ ، حاملاً معه تراثاً مزدوجاً : اللغة الأدبية الألمانية وميلاً انسانياً ، واهتماماً بالاسلوب . وقد جعل الامبراطور مكسيميليان الأول الذي كان هو نفسه كاتباً من فيينا ـ عن طريق جامعتها ومقرها الامبراطوري ـ المدينة الانسانية الأولى في المانيا ، وساعده في ذلك كونرادوس كلتس (Conrandus Celtis) ويوهان سبيسهايمر (Johannes Spiessheimer) (كسبنيان)، وجوشيم فاديانوس(Johachim Vadianus) (فون واط (Von Watt) .

أصبح لفينا مسرح في عصر النهضة حيث قدمت مسرحيات كونرادوس سلتس (Conradus Celtis) البلاطية ، ومسرحيات الدير لراهب الدير الايرلندي بندكتوس شليدونيكوس (Benedictus Chelidonicus) كما اخرجت للمرة الأولى المسرحيات الالمانية للمعلم وولفغانغ شملتزل (Wolfgang Schmeltzl) في الدير الايرلندي ، ومنذ عام ١٥٥٤ كوّن اليسوعيون من التحالف السلالي بين النمسا واسبانيا طائفة من الناس تربطما بينها العقيدة الدينية والميول العقلية . وبدأوا في اخراج الكثيرمن المسرحيات ، وفي نفس الوقت تطورت الاوبرا الايطالية ورعاها الامبراطور بنفسه بشكل خاص ، فاصبح المسرح الباروكي النمساوي احد الانتصارات الفنية في أوروبا. وازدهرت كذلك الأقاليم فكان لتيرول (Tirole) محاكمها الخاصة من وقت لآخر.

ومنذ عام ١٤٣٠ كتب عدد وفير من المسرحيات الدينية والعلمانية . وفي سترزنغ (Sterzing) ـ وبعد قرن ـ كان فيجيل رابر (Vigil Raber) يجمع مسرحيات الشعب ويعيد كتابتها، وفي حوالي ١٥٧٠ ترأس الارشيدوق فيرناندز(Archdike

(Ferdinand زُمن التيرول بلاطاً من الشعراء كان واعظه يوهـان ناس، بينما اصبـح الراهـــب لورنتيوس فون شنفس (Laurentius Von Schnüffis) شاعـــراً غنـــائياً متصوفاً . وكانت لمدينة سالزبورغ (Salzbourg) حياتها الخاصة التي ازدهرت بوجود (انساني) فيها هو بول فون هوفهايمر (Paul Von Hofhaimer) الذي أضفـى عليها صبغتها عبـر مسرح بلاط رئيس الأساقفـة والجامعـة البنـدكتية التـي أسسـت عام ١٦٢٠ . وكان لستيريا (Styria) مدى واسع من الاهتمام الفني في الاديرة العظيمة مثل دير كرمــز منستــر (Kermsmünster) حيث كتـــب سايمـــون روتنجر (Simon Rettenbacher) مسرحيات دينية. وكان كريستوف فان شلنبــرغ (Christoph Van Schallenberg) وولفغانـــغ هلمهـــارد فون هوهبـــرغ (Wolfgang Helmhard Von Hohberg) وكاترينا فون كرفنبرغ (Katharina Von Greiffenberg) شعراء يرعاهـم نبلاء . وكان الامبراطور فيرناند الثاني حاكم ستيريا السابق هو الـذي اتخـذ قرار المعركة ضد الاصلاح الديني في ستيريا بادىء الأمر، ومن ثم في مناطقه الأخرى. وارتفع صوت الكنيسة عالياً في فيينا على يد ابراهـام اسانكتـا كلارا (Abraham A Sancta Clara) وهو مبشر في بلاط آل هابسبرغ ومبرز في النثر الألماني الباروكي.

الفَصْل الثّامِن

الأدَب الهولَندي في عَصر النهضَة

يجب اعتبار فلاندرز وهولندا وحدة حتى عام ١٥٨٢ عندما أدى سقوط أنتورب الى صدع نهائي بين الشمال البروتستنتي والجنوب الكاثوليكي. وتميّز القرن السادس عشر بتنوع في الصيغ الأدبية يعكس عصراً يسير نحوالانحطاط،يواجهه اول تعبير عن الفن الجديد الذي وفد الى الأراضي المنخفضة من ايطاليا عبر فرنسا. بدأ عصر النهضة في الأراضي المنخفضة بعدد من الكتّاب مثل لوكاس دوهير الذي كان قد هرب من الأقاليم الجنوبية الكاثوليكية لأسباب دينية . وأظهرت كتب القصص الشعبية التي ضمت نسخاً نثرية من الرومانس الوسيطية ، والأغاني الشعبية ، وشعر البيانيين (Rederjekers) ودعاية الاصلاح الديني ، وأناشيد الثورة الكالفينية ضد اسبانيا ، والقصائد الغنائية الأولى من نوع السونيت (Sonnet) ، والاطروحات الأولى التي كتب باللغة المحلية الدارجة، وكتب النحو الأولى للغة الهولندية ـ أظهرت هذه كلها صفة عدم الاستقرار وعصراً يتسم بالتغيير . وهكذا بينما كانت الكاثوليكية آنا بيجنز (Anna Bijns) تشجب اللوثريين بعنف في شعرها النقدي المتألق الذي تصدى له فيما بعد الكلفيني مارنكس فان سنت الدغوند في حملته الجدلية على الكنيسة الكاثوليكية ، كانت اصداء الماضي الكلاسيكي تصل الأراضي المنخفضة، في القصائد الغنائية من نوع «الأود» (Ode) و «السونت» والترجمات التي قام بها جان فان درنوت (Jan Van Der Noot) وجان فان هوت. أمّا كارل فان ماندر الشاعر والرسّام فأدخل الكتابات النثرية العلمية باللغة المحلية مع أن نثر إرازموس اللاتيني كان شهيراً في أوروبا لمدة تقارب القرن .

الشاعر الفرنسي بيير دو رونسار (Pierre De Ronsard) في لندن، حيث كان آنئذ في المنفى لاشتراكه في ثورة عام ١٥٦٧.

والرجلان المعتدلان العظيمان في العصر هماج. هـ. شبيغل (J.H. Spiegel) ودرك فولكرتزون كورنهرت (Dirk Volkertzoon Cornhert) اللذان كانا انسانيين ليبراليين يناديان بعقيدة أخلاقية مسيحية غير متزمتة. وبشكل عام، كان شعر شبيغل أكثر عقلانية من نثركورنهرت الذي تأثر بالكاتب الفرنسي مونتين (Montaigne) والكتاب المقدس، وطور أسلوباً مرناً وواضحاً يداني - الى حد كبير - درجة المتعة. وكان كورنهارت وخلفاؤه - بصورة خاصة - مترجمو طبعة الكتاب المقدس الهولندية الرسمية هم الذين أرسوا اسس اللغة الفصحى الهولندية.

الفَصْل التّاسِع

الادب الاسكندنافي في القرن السادس عَشر

الادب السويدي

يحدد تاريخان بداية التاريخ السويدي ، وهما عام ١٥٢٣ حين تم الانفصال عن الدانمارك ، وارتقاء غوستاف الأول فاسا (Gustave I Vasa) العرش ، وعام ١٥٢٧ سنة الانفصال عن روما ، وتأسيس كنيسة لوثرية قومية . أما الثورة السياسية التي جعلت من السويد قوة أوروبية فلم تكن ذات تأثير بالغ على الأدب ، حتى حلول القرن الذي تلا ذلك . إلا ان الاصلاح الديني سيطر سيطرة تامة على الأدب السويدي خلال القرن السادس عشر.

وأهم حادثة تاريخية في القرن هي ترجمة الكتاب المقدس عام ١٥٤١ التي دشنت السويدية الحديثة ،وزودت الشعراء بمصدر من الوحي لا ينضب له معين . كان دعاة حركة الاصلاح الديني السويدي من الأشخاص الوثيقي الارتباط بترجمة الكتاب المقدس السويدي ومنهم اولوس بتري (Olaus Petri) واخوه لورنتيوس (Laurentius) وتجلت معالجة اولوس العنيفة بمواعظه المنشورة ، وبسفر تاريخي هو اول تاريخ سويدي يستند على البحث النقدي . ولا يبعد ان يكون اولوس بتري هو كاتب المسرحية الانجيلية توبل كوميديا (Toble Comedia) (نشرت عام ١٥٥٠) وهي اول مسرحية سويدية وصلتنا كاملة.

ونتيجة للاصلاح الديني ، نفي اثنان من علماء السويد البارزين . وفي تاريخه عن جميع ملوك القوط والسويد زوّد يوهان ماغنوس (Johannes Magnus) السويد بعدد من الملوك الأبطال لم يعرفهم التاريخ الحقيقي .

وكتب أخو يوهان ـ أولوس ماغنوس (Olaus Magnus) اول وصف جغرافي واثنوغرافي لاسكندنافيا بعنوان «تاريخ الشعوب الشمالية» عام ١٥٥٥ .

وفي هذه الأثناء كان التعليم الأكاديمي في انحطاط . اذ أغلقت جامعة ابسالا (التي اسست سنة ١٤٧٧) في عام ١٥١٥ بسبب عدم الاستقرار السياسي، ولم تبعث من جديد حتى وقت متأخر من القرن . ويقترن اسم يوهان مسنيوس (Johannes Messenius) الذي كتب عدة مسرحيات اسطورية تاريخية بهذه الجامعة .

الادب الدانمركي :

نفذ الاصلاح الديني اللوثري في الدانمرك عام ١٥٣٦، وتميزت بداية القرن السادس عشر بمنشورات كثيرة ضد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية او تأييداً لها . وظهر كذلك أثر «الانسانية» الأوربية وعصر النهضة في الدانمارك حيث اضطلع كرستيرين بيدرسين (Christiern Pederseen) أبرز انساني ونصير الاصلاح الديني بتحقيق كتاب جستا دانوروم (Gesta Danorum) لمؤرخ من القرن الثالث عشر هو ساكسو غراماتيكوس (Saxo Grammaticus) وبترجمة العهد الجديد، كما ترجم بتصرف كراسات مارتن لوثر الى الدانماركية، وفوق كل هذا أسهم بترجمة للكتاب المقدس عام ١٥٥٠ م، وكان بول هيلغيس (Paul Helgesen) أكثر خصوم الاصلاح اللوثري موهبة ، كما كان هانس توسن (Hans Tausen) اكثر الناطقين باسمها موهبة .

ويعتبر كتاب «العقاب الالهي» (Visitation book) للأسقف اللوثري بيدر بلاديوس (Peder Palladius) وثيقة أدبية هامة . وكان أهم مؤرخين ـ وكلاهما يعود الى فترة الانتقال بين القرنين السادس عشر والسابع عشر ـ هما اندرز سورنسن فيدل (Anders Sorensen Videl) وأريلد هتيفيلت (Arild Huitfeldt) .

كان الشعر الدانمركي في القرن السادس عشر إما دينياً او جدلياً يمازجه شعر حب بديع وترانيم دينية . ويعود تاريخ أقدم المسرحيات الى بدء القرن . أما اهم

مسرحي في هذه الفترة فهو هيرونيموس جوستيسن رانش (Hieronymus Justesen Ranch) الذي كانت هزليته من نوع الفارس (المهزلة Farce) وعنوانها «الوغد البخيل» أفضل مسرحياته. ولم تشعر الدانمارك بعنفوان عصر النهضة كاملة في الأدب حتى القرن التالي.

الأدب الايسلندي

كان جون أراسون (Jon Arason) الشخصية السياسية الرئيسية والشاعر الأول للاصلاح الديني ، الذي كان آخر اسقف كاثوليكي لِـ هولار (Holar) إذ أعدم عام ١٥٥٠ م . وأظهر جون هذا بالطريقة التي عاشها بأنه أحد الفايكنغ (Viking) ، كما كان شهيداً ، مع أن معظم شعره الذي وصلنا هو شعر ديني .

وكان أثر الاصلاح الديني على العلم والأدب في إيسلندا أن أهمل الشعر الكاثوليكي، كما جرت محاولات على أيدي الأساقفة اللوثريين الأوائل لأن تعوض النقص وتسد الفراغ بما ترجموه عن الدانياركية والألمانية من ترانيم، لكنها ترجمات هزيلة .

علم الأساتذة اللوثريون الناس العقيدة اللوثرية ، فطبعت عدة ترجمات لمواعظ وكتب إرشاد كتبها لوثريون المان في صيغة إيسلندية بدءاً من عام ١٥٤٠ .

ويأتي في طليعتهم نشاطاً وحكمة كودبراندر شورلاكسون (Gudbrander Thorlakson) إذ استعمل في ترجمته الكتاب المقدس نسخاً ايسلندية أقدم لبعض كتب العهد القديم ، كما استعمل ترجمة اودركو تسكالسن (Oddur Gottskalkson) للعهد الجديد ، وأظهر استحسانه للتقليد الشعري الايسلندي في كتاب ترانيمه الدينية ، وراعى فيه الجناس والشكل الايسلندي .

الفَصْل العَاشِر

أدَب أوربا الشرقية في عَصر النهضَة

الأدب الهنغاري :

ظلت اللاتينية لغة الأدب الجدّي في هنغاريا حتى القرن السادس عشر وكان ذلك نتيجة التأثيرات « الانسانية » ، وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر أصبح الأثر الايطالي مسيطراً في هنغاريا . وفي عام ١٣٦٧ أسست أول جامعة هنغارية ، ثم في منتصف القرن الخامس عشر ، وباعتلاء الملك ماثياس الأول كورفينوس (Mathias I Corvinus) العرش اصبح البلاط مركزاً «للانسانية»، فقد أسس الملك جامعة وأول مطبعة هنغارية ، كما اشتهر بمكتبته . وبلغ الأدب اللاتيني أوجه في كتاب أعظم «انساني» في هنغاريا، وهو جانوس بانونيوس(Jannus Panounius) ، الذي سبق أن تلقى العلم في ايطاليا، وكتب العديد من المراثي بوحي من المشاكل التي ألمت بسياسي مسؤول، كما وصف الصعوبات التي واجهتها هنغاريا في مقارعة الأتراك، فأحب بلاده وعبر عن آلامه الشخصية .

جاء القرن السادس عشر بتغييرات تحت ظل الحروب التركية . وبعد معركة موهاكس (Mohacs) ١٥٢٦ انشطرت البلاد ثلاثة أقسام ، ودمّرت مراكز الفكر « الانساني » والأدبي ، لكن نجم عن ذلك فجر عصر جديد هو عصر الإصلاح الديني، وبه دشن الأدب الهنغاري القومي فعلياً. ويجدر هنا أن نسمي ثلاثة من الرواد ، وهم بندك كومجاتي (Bendek Komjati) وكابور بستي(Cabor Pesti) وجانوس سلفستر (Janos Sylvester) الذين كانوا تلاميذ إرازموس . وقد ترجموا

أجزاء من الكتاب المقدس متبعين أساليب هي أفضل بكثير من تلك التي استعملها الأساتذة الهسيون (الهوصار) قبل مئة عام. اذ ترجموا جزءاً من الكتاب المقدس بدقة لغوية. كما ترجم «بستي» ترجمة مقروءة جداً قصص ايسوب الخرافية (Fables) ونشر قاموساً لاتينياً ـ هنغارياً. ونشر سلفستر أول كتاب نحو هنغاري، ونظم أول قصيدة هنغارية استخدم فيها شكل الدوبيت (السطران المقفيان) كي يبين إمكانية تكييف الهنغارية الدارجة الى الأشكال الشعرية الكلاسيكية، وفي عام ١٥٤١ نشر ترجمة للعهد الجديد.

وبانتشار المذهب الجديد ترجمت المزامير والترانيم الدينية ونظم اندراس سخاوسي هورفات (Andras Szkarosi Horvat) قصائد تعليمية ومواعظ شعرية ، وصاغ قصصاً من الكتاب المقدس شعراً ، وربما كان بالاضافة الى كل هذا أعظم هجّاء ساخر هنغاري.

وشهد النصف الثاني من القرن السادس عشر بدايات المسرحية الهنغارية . وربما كانت « هزلية عن خيانة مني هارت بلاسي » (Meny Hart Balassi) وهي ملهاة (كوميديا) نقدية لمؤلف مجهول أهم المنجزات الأدبية لفترة الاصلاح الديني. وتألف نشاط بيتر بورنزا (Peter Bornemiszd) الأدبي بشكل رئيسي من المواعظ الدينية.

ولكنه أدلى بوجهة نظر ساخرة عن الحياة الهنغارية ، مليئة بالملاحظات الجديدة والأوصاف الحيوية ، والتعليقات الأصيلة . اما كتابه « حول إغراءات الشيطان » (Ordögi Kisertetek) (فقد أولى فيه اعتباراً ممتعاً للمشاكل الاخلاقية والجنسية في القرن السادس عشر . وقصيدته « الوداع » التي نظمها عندما غادر بلده هي إحدى خرائد الشعر الهنغاري القديم .

ولربما كان اعظم إنجاز أدبي مفرد للاصلاح الديني الهنغاري هو ترجمة للكتاب المقدس قام بها كاسبار كارولي (Gaspar Karoli) عام ١٥٩٠ . فقد لعبت

هذه الترجمة دوراً في تطوير اللغة الهنغارية يماثل الدور الذي لعبته الترجمة الرسمية الانكليزية للكتاب المقدس .

وحتى القرن السادس عشر ، يبدو أن الأدب الديني تطور بشكل أفضل من الأدب العلماني. ومرد ذلك هو أن الأدب العلماني لم يكتب . وكان الشعراء الشعبيون في أواخر القرن السادس عشر أكثر علماً وأغزر ثقافة من أسلافهم. وقد دفعتهم الأحوال الاقتصادية الصعبة الى امتهان الشعر.

ولربما كان سبستين تينودي (Sebstyen Tinodi) أهمهم جميعاً . وكان بطبعه مؤرخاً اكثر منه شاعراً كرس يراعه لوصف الحروب ضد الأتراك بدقة رائعة ، لكنه رتيب الشعر ، وكان بيتر ايولوسفاري سليمس (Peter I losvai Selymes) مؤلف رواية عنوانها ميكلوس تولدي (Miklos Tolchi) (١٥٧٤) وقد حظيت بشعبية واسعة واستعملت كقاعدة لرائعة أدبية كتبها جانوس أراني (Janos Arany) في القرن التاسع عشر . وكان نموذج بطل القرن الرابع عشر، وهو رجل ذو سلطان بالغ وشخصية شعبية في الأدب الهنغاري. وكانت هذه الرواية القطعة الأصيلة الوحيدة في فيض أدب التسلية المجرد الذي يتميز به القرن السادس عشر والذي كان شكله الأدبي الرئيسي هو القصة الجميلة (Széphistoria) المقتبسة من أصول أوروبية غربية، ولربما كان أفضلها «هيستوريجة ارجيروس» (Argirus Historiaja) لألبرت جيرجي التي اقتبسها من أصل ايطالي، وحاك منها أدباً شعبياً (فولكلوراً) هنغارياً.

كان بالينت بالاسي (Balint Balassi) (١٥٥٤ - ١٥٩٤) شاعراً كبيراً ذا أصالة رفيعة ، وشبيهاً بالشعراء الفرسان (شعراء البلاط) في الأدب الانكليزي في حيويته وعبثه ، إلاَّ انه فاقهم عمقاً . وقد نعم استمتاعاً بالقتال والحب ولذائذ من الحياة. لكنَّ وراء شعره دافعاً دينياً عميقاً مفاجئاً. وكان شعره من الناحية الفنية لا يبارى بالنسبة للأدب الهنغاري القديم، وسار على نهجه الكثير من الأتباع والمقلدين.

الأدب البولندي :

مع أن النهضة وصلت الى بولندا متأخرة نسبياً ، إلا أنها كانت العصر الذهبي للأدب البولندي. وساهم في هذا الازدهار مجموعة من العوامل هي: الاستقرار الخارجي، والتوحيد الدستوري، والاصلاح الديني. وأسست أول مطبعة دائمة عند نهاية القرن الخامس عشر، وصدر أول كتاب طبع بكامله بالبولندية في حوالي **١٥١٣** . ويعود تاريخ اللغة الأدبية الحديثة الى هذا الوقت.

ألّف الرعيل الأول من الكتاب ، الذين تأثروا بالانسانيين الايطاليين ، باللاتينية . وكان من بينهم جان فلاشبندر (Jan Flachsbonder) ويوهان دانتسكوس (Joannes Dantiscus) وهو شاعر مناسبات وغراميات ومدائح ، واندريه كرزكي (Andrzej Krzycki) أو كريسيوس (Cricius) وهو رئيس أساقفة دبج أو أقوالاً فكاهية وشعراً سياسياً وقصائد دينية ، وكلمينس أوف جانوسكو (Klemens of Jamuszkowo) أو جانيكي (Janicki, Jamicius) ، وهو فلاح درس في ايطاليا وأصبح شاعر البلاط، وأول شاعر بولندي أصيل .

وجمع ميكولاج رج أوف ناكلوويس (Mikolaj Rej of Naglowice) نواحي وسيطية مع أخرى من عصر النهضة . واكتسب ميكولاج العلم بنفسه ، وكان أول موهبة بولندية استعمل اللغة الشائعة ، وانتشرت مؤلفاته بصورة واسعة ، إذ يعرف باسم « مؤسس الأدب البولندي » كما صاغ الحكم النقدية ، إلا أن أعماله الهجائية النقدية هي الأهم وخاصة بوستيلا (Postilla) وهي مجموعة من المواعظ الكلفينية ، و « حياة رجل شريف » (١٥٥٨) ، وهو وصف للرجل النبيل المثالي .

سيطر جان كوتشانوسكي (Jan Kochanowski) (على الجيل الثاني من الشعراء « الانسانيين » إن لم يكن على امتداد فترة عصر النهضة . وكان ابن ملاك ريفي كتب باللغة الدارجة ، وهو أول كاتب بولندي يحاول الشعر الهجائي الساخر والمأساة الكلاسيكية ، ولكن مؤلفاته الغنائية فاقت هذه التجارب . كانت قصيدته « تريني » (Treny) قمة محاولاته الشعرية وهي أول عمل بولندي أدبي يجاري

روائع القصائد لغربي أوربا . وأما قصيدته لامينتس (Laments) أي المرثاة الباكية فقد أوحى بها اليأس ووفاة طفلته عام ١٥٧٩ ، إلا أنه استعاد نهائياً توازنه الروحي . . . وقد اختفت من شعره الكلمات البائدة المتناثرة في مؤلفات « رج » ، وأصبحت المصطلحات عصرية . ودلت مرونة عبقريته الشاعرية وثقته بها على أن اللغة الأدبية بلغت مرحلة النضج .

كان سيمون سيزمونوويك (Symon Syzmonowic) سيمونيديس (Simonides) أبرز أتباع كوتشا نوسكي . وقد أدخل في قصائده الرعوية (١٦١٤) نوعاً ادبياً قدر له أن يحتفظ بحيويته حتى نهاية القرن التاسع عشر . ومثلت هذه القصائد الرعوية طرائق التقليد والتكييف والتمثيل التي استعملها كتاب عصر النهضة ، ليدخلوا الانماط الأدبية الأجنبية الى التقاليد الأدبية الوطنية .

كانت القصائد العديدة باللاتينية والبولندية للشاعر سبستيان كلونويك (Sebastian Klonowic) هامة لأنها تعطي وصفاً للحياة المعاصرة . أما « جوداس ساك » (Juda's Sack) (عام ١٦٠٠) فهي قصيدة هجائية لحياة مدينة لوبلين (Lublin) المبتذلة ، تلك المدينة التي شغل هو منصب رئيس بلديتها .

ووازى نثر القرن السادس عشر شعره في حيويته ومداه . وكان أشهر كاتب باللاتينية هو اندرج فريز ـ مدرويسكي (Andrazej Frycz - Modrzewski) . وفي كتابه كومنتا ريوم دو ربليكا امينندا ليبري كونكلو (Commentariorum Republica Emandanda) (١٥٥١ ، ١٥٥٥) طور نظاماً سياسياً واجتماعياً جريئاً يستند الى مبدأ التساوي أمام الله والقانون . والكاتب الآخر البارز الذي كتب باللاتينية هو مارسين كرومر (Marcin Kromer) الانساني والمؤرخ والمدافع عن الكاثوليكية . ومن مؤلفاته الجدلية كتاب « حوار بين رجل البلاط والراهب » (١٥٥١ ـ ١٥٥٤) وهو دفاع عن الكاثوليكية ، ونشر خلال هذه الفترة العديد من الكتابات التاريخية والجدلية وترجمات الكتاب المقدس . وتعتبر الترجمة الكاثوليكية التي قام بها جاكوب وجك (Jakub Wujek) عملاً أدبياً بارزاً .

أصبح الأدب البولندي أدباً قومياً يعكس وضع بولندا كقوة عظمى ذات حدود واسعة ، كما يعكس وضع الطبقة النبيلة كطبقة حاكمة ، والرخاء الاقتصادي للبلاد

وانتشر اثر هذا الأدب شرقاً ، وبشكل خاص الى موسكو ، والى الغرب ، كما مثلها خير تمثيل الفلكي نيكولاس كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) .

الأدب الروسي :

في حوالي منتصف القرن السادس عشر بدأت موسكو تشعر بمركزها الحيوي في مجالات العلم والأرثوذكسية والسلطة السياسية . وقد حدثت عدة محاولات أدبية متلاحقة غرضها النهوض بمستوى التقاليد الاكليريكية والسياسية ودعمها ، وإظهار انها انحدرت من بداية تكوين الدولة الروسية . ففي عام **١٥٥٢** ظهرت المجموعة الكبيرة المعروفة باسم مينشستي **العظيم** (Velikiye Minei - Cheti) لمطران موسكو ماكاري (Makary) وضمت مؤلفات عديدة من الأدب الاكليريكي الأصيل أو المترجم ، وتلتها مجموعة اخرى باسم « كتاب الأجيال » (Stepennaya Kniga) واشتملت على سِير الأمراء الروس وشخصيات اكليريكية، **وأكملت عام ١٥٦٣** على يدِ خلفه مكاريوس (Makarios) . وفي هذه الفترة أيضاً صيغت المجموعات التاريخية المسكوفية الهامة وألِّفت كذلك مجموعة ضخمة بعنوان المجموعة المصورة التي تبدأ بخلق الكون وتنتهي في الستينات من القرن السادس عشر. وهناك مؤلفات غيرها مثل «الادارة المنزلية» و«مجلس المائة فصل» التي هدفت الى تدعيم مستويات السلوك الأخلاقية والسياسية والاجتماعية. وساعد إدخال الطباعة الى موسكو على توحيد روسيا، وطبع أول كتاب عنوانه أبوستول (Apostol) **١٥٦٤** .

الأدب التشيكي :

تكونت في القرن السادس عشر مجموعة كبرى من الأدب النثري هي في أغلبها تعليمية ومدرسية . وكان أثر « الانسانية » واضحاً في أسلوب المؤرخ القانوني فيكتورين كورنل (Viktorin Kornal) الأنيق . اما كتب الرحلات العائدة لهذه الفترة فتمتاز بأهمية كبرى . وبلغ تطور النثر التشيكي الأوج في ترجمة للكتاب

المقدس قام بها لفيف من علماء مجموعة الـ يونيتاس فراتـروم(Unitas Fratrum) وعرفت الترجمة باسـم انجيل كراليس (Kralice Bible) (١٥٧٩ - ٩٣) . وقـد غدت لغتها نموذجاً للتشيكية الفصحى .

الادب الكرواتي :

في القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر كان أبرز كاتب كرواتي هو ماركو ماروليك (Marko Marolic) مؤلف ملحمة جوديتا (Judita) (١٥٠١) التي حث فيها مواطنيه على النضال ضد الأتراك . وتطورت القصيدة الغنائية البتراركية بتأثير الأدبين الايطالي والكلاسيكي ، والقصص الشعبي الكرواتي في دلماشيا (Dalmatia) ودوبروفنيك (Dubrovnik) . وكان هنيبال لوسيك(Hanibal Lucic') مؤلف «العبدة» (Robinja) احد أشهر الشعراء . وهذه اول مسرحية علمانية يوغوسلافية . وكان مارين درزك (Marin Drzic') من بين افضل كتاب الأدب الكرواتي القديم المعروفين ، اذ كتب مسرحيات رعوية وهزليات تصور دوبروفنيك في عصر النهضة . وقد اخرجت هزلية «دندوماروج» (Dundo Maroje) (كتب حوالي ١٥٥١) في جميع انحاء اوروبا الغربية .

الادب السلوفيني :

بدأ النشاط البروتستنتي في سلوفينا في نهاية العقد الثاني من القرن السابع عشر، وأدى طلب استبدال اللاتينية بلغة طقسية يستطيع الجميع ان يفهموها الى خلق حافز للنشاط الأدبي ، فقد نشر المصلح البروتستنتي بريموز تروبار (Primoz Trubar) - الذي اضطر الى اللجوء الى سكسونيا لكونه من انصار اللوثرية - اول كتاب سلوفيني مطبوع بعنوان ابيسيداريوم (Abecedarium) عام ١٥٥٠ وكتاباً عن العقيدة اللوثرية في قالب حواري ، وكتابات جدلية . كما أسس ادباً دينياً غنياً

بالتعاون مع اتباعه . وبلغ هذا النشاط اوجه عام ١٥٨٤ عندما نشرت ترجمة رائعة للكتاب المقدس قام بنشرها جورج دلماتين . ونشر اول كتاب في النحو السلوفيني «ارتـكياي هورلاي سكسيفـاي دولاتينـو كارنيولانـا لتراتـورا (Articae Horulae Successivae De Latinocarniolana Literatura) قام بتأليفه المربـي ادام بوهـريك (Adam Bhoric) . كما ان الكتاب البروتستنـت نشروا سبعـة كتـب من الأنـاشيد (١٥٥١، ١٥٦٣، ١٥٦٧، ١٥٧٤، ١٥٧٩، ١٥٨٤، ١٥٩٥) بغية سد الحاجات الطقسية ، بالاضافة الى قاموس المانـي - لاتينـي - سلوفينـي - ايطـالي (١٥٩٢ - ١٦٠٨) جمعه هيرونيم ماجسير، وهكذا بعد ان كونت قاعـدة السلـوفينية الأدبية ، وبعد ثورات الفلاحين المعاصرة تشكلت نقطة الانطلاق للوعي القومي السلوفيني .

الأدب الروماني :

كان اول كتـاب طبـع في ولاشيا (Walachia) عام ١٥٠٨ سفـراً سلافياً في الطقوس الدينية ، اذ طبع احد الشمامسة واسمه كورسي (Coresi) ترجمات لأعمال الرسل (١٥٦٣). ومن مؤلفاته الأخرى التي وصلتنا يمـكن ذكر «مواعـظ وكتـاب الصلاة» « وتعليقاً على الأناجيل » (١٥٨١). وقد ساعدت جميعهـا على استـعمال اللغة الرومانية .

وفي هذه الفترة تم انتاج بعض الأدب العلماني ، الا انه كان يتكوّن بشكل رئيسي من ترجمات عن الاغريقية والسلافية والبيزنطية والكتب الشرقية (مثال ذلك تاريخ الاسكندر الثالث الكبير وقصص ايوب الخرافية وكتاب الف ليلة وليلة).

الفصل الحادي عشر

الأدب الكلتي في عصر النهضة

ادب ويلز :

بعد تفوق دافيد أب كويليم (Dafydd Ap Gwilym) واتباعه من ارباب الشعر الحر نشأت لفترة قصيرة مدرسة من دعاة المدرسة الشكلية الأدبية . وكان أمام هذه المدرسة دافيد أب ادموند (Dafydd Ab Edmwnd) وتتجلى الميزة الرئيسية لشعره ببراعته وابداعه. وخلفه في هذا المضمار ثيودور الد(Tudur Aled) (المتوفى عام ١٥٢٦) وهو شاعر متمكن، وكوثن اوين (الذي ازدهر حوالي ١٤٦٠ ـ ١٥٠٠) .

كسر الاصلاح الديني طوق النظام التعليمي الكاثوليكي في ويلز، وهذا ما ادى الى انحسار في الذوق الأدبي وفي المستويات اللغوية . وانتهت سياسة عائلة تيودور لتشجيع انتشار الانكليزية على حساب لغة ويلز، ولإقناع الارستقراطيين الويلزيين بالهجرة الى انجلترا بغية تدمير الثقافة الويلزية المرتبطة وثيق الارتباط باللغة . ومع ذلك كتب الناقدان الهجّاءان سيون تيودور Sion Tudur وادموند بريس (Edmwnd Prys) مؤلفات بديعة . ونذكر في عدّاد المجلّين في الشعر الحر وليام لين (William Llŷn) وسيون فيليب(Siôn Phylip) .

نشوء النثر الحديث :

عندما ظهرت الطباعة في ويلز في القرن السادس عشر هجر انسانيو عصر النهضة النثر التقليدي ، وبني النثر الجديد الذي صاغوه على لغة الشعراء الكلتيين المتجولين (باردBard) والمؤلفين الكلاسيكيين بعد ان اغنتها التشكيلات والاقتباسات الحديثة. وكان عنوان أول كتاب ويلزي مطبوع هو: «في هذا الكتاب» (Yn Y Lhyvr Hwnn) (١٥٤٧)، وسمي كذلك بسبب الكلمات التي يفتتح بها

الكتاب ـ من نصوص من الانجيل وكتاب الصلاة. ومنذئذ بدأ النثر الويلزي يأخذ شكلاً محدداً .

الاصلاح الديني: كان اهم شخصية من شخصيات الاصلاح الديني هو وليام سيلزبري (William Salesbury) الذي ترجم العهد القديم حوالي ١٥٦٧ . ورغم ما في هذه الترجمة من عيوب لغوية، ووسائل آلية استخدمت لجعل اللغة مفهومة في جميع انحاء ويلز كانت بديعة . وفي العام نفسه نشر كتاب الصلاة الويلزي الذي ترجمه سالزبوري (Salesbury) بصورة رئيسية بالتعاون مع ريتشارد ديفيز (Richard Davies) اسقف كنيسة القديس ديفيد . اما الكتاب المقدس الويلزي ، الذي ترجمه وليام مورغان اسقف كنيسة « القديس آسف » بمساعدة ادموند بريس فقد نشر عام ١٥٨٨ وما زالت قيد الاستعمال النسخة المنمقة التي نشرت عام ١٦٢٠ . ومن الصعب المبالغة في أهمية هذه الترجمات الثلاث على تطور النثر الويلزي. ومنذ عام ١٥٨٨ تواصل انتاج كتب النثر الويلزي، وأولها ترجمات من الانكليزية واللاتينية هدفت الى ترسيخ الأمة الويلزية على مبادىء الاصلاح الديني.

الاصلاح الديني المضاد :

خلال السنوات التي جرى فيها ترسيخ الدين الجديد في ويلز، كان المجتمع واللغة الويلزية قد بلغا انحداراً أدنى درجة من الانحسار. وقد اعتبر كتاب الاصلاح الديني المضاد للكاثوليك الدين الجديد مستورداً من انكلترا، واعتقدوا بأن وسيلة حفظ الدين تتمثل بالاصرار على الثقافة الكاثوليكية القديمة . ونتيجة لذلك ظهر كتاب دوسبارت بير (Dosparch Byrr) وهو أقدم كتاب اولي في نحو اللغة الويلزية وقواعدها، من تأليف كرفود روبرت (Gruffudd Robert) (حوالي ١٥٢٢ ـ حوالي ١٦١٠) فضلاً عن عدة مؤلفات دينية نشر الكثير منها في اوروبا .

عصر النهضة في ويلز :

كما ولّت ايطاليا والبلاد الأوروبية الأخرى وجهها ـ أبان عصر النهضة ـ نحو الكلاسيكيات اللاتينية والاغريقية التفتت ويلز الى تقليدها الخاص من الشعر

«الباردي» . وبالاضافة الى كتاب كوفورد روبرت الآنف الذكر ظهرت مجموعة من القواعد للشعر الباردي ، ومبادىء اللغة الويلـزية قام بجمعـه سيون دافيد ريس (Siôn Dafydd Rhys) كما ظهر قاموس وكتاب قواعد ألفهما جون ديفز من مولويد (John Davies of Mallwyd)

الادب البريتاني :

ينقسم الادب البريتاني ، شأنه شأن اللغة البريتانية ، الى ثلاث فترات ، قديمة ووسطى وحديثة . ولا نجد اللغة البريتانية القديمة (من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر) الا في قوائم الاسماء والكلمات المشروحة في السجلات او مجرد اسماء في الكتب اللاتينية والبيانات . ومنذ الفترة الوسطى (القرن الحادي عشر حتى القرن السابع عشر) كانت المؤلفات من القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر شفهية بشكل رئيسي ولم يصلنا منها الا القليل باستثناء نُتف من الشعر . ولكن ظهر في القرن الخامس عشر معجم بريتاني - لاتيني فرنسي طبع عام ١٤٩٩ وعنوانه كثوليكون (Cotholicon) لجان لاكادوك (Jean Lagadeuc) ومعجم آخر فرنسي - بريتاني واحاديث (طبعت عام ١٦١٦) قام بكتابتها كويكر دوروزكوف (Quiquer De Roscoff)

الغيلية الاسكتلندية :

ظل بعض الشعر الغيلي من القرن السادس عشر حياً في التقاليد الشفهية حتى اواسط القرن الثامن عشر عندما تم تدوينه ، امثال قصيدة « آن دولاك اولام» (An Dulak Ulahm) التي نظمت على شرف ارتشيبو لو كامبل (Archibald Campbell) رابع ايرل لارغايل (Argull) والمرثية الجميلة كريو غال كريد (Griogal Cridhe) التي نظمت حوالي عام ١٥٧٠ . ومن المؤكد ان الشعر الذي سجل في «كتاب عميد ليزمور» لم يكن تفجراً معزولاً . وما من شك في ان الكثير ضاع سواء من عمل الشعراء الباردين المحترفين او الأغاني الشعبية . وقد وصلتنا شفهياً اغان نظمت حسب اوزان النبرات لاعداد المقاطع وتعود الى السنوات الأولى من القرن السابع عشر.

وكان هذا هو التقليد الذي انتج اناشيد العمل، كتلك التي كانت تنشد اثناء الحياكة . وتعود الى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وفي عام **١٥٦٧** ظهر اول كتاب طبع بالغيلية في اسكتلندا من تأليف الاسقف جون كارسيول وعنوانه «فـويرم نانورنـويد» هو (Foirm Na Nurrnuidhead) وهـو ترجمة لطقوس جون نوكس باللغة الغيلية الكلاسيكية الدارجة .

الباب الرابع

القرن السابع عشر

ميزات العَصر

كان القرن السابع عشر عصر قلاقل وزوابع هوجاء متواصلة ليس في الادب فحسب ، بل في السياسة والمجتمع كذلك . وكانت القضية الكبرى للقرن التي واجهت الكتاب الجديّين من «دون» (Donne) الى درايدن (Dryden) تتلخص في تساؤ ل مونتين «ماذا أعلم»؟ او بتعبير موسع تثبيت أسس وعلاقات المعرفة والعقيدة والعقل ، وأسس الدين والميتافيزيقيات والأخلاق السياسية والاقتصاد والعلم الطبيعي .

ويظهر موقف التساؤ ل الذي ميز الفترة في مؤ لفات علمائها وفلاسفتها العظام ، مثل بحث ديكارت « في المنهج » (Discourse on Method) عام ١٦٣٧ ومؤ لف باسكال المسمى «الافكار» (Pensees) (كتب عام ١٦٥٧ ـ ١٦٥٨) في فرنسا ومؤ لف بيكون (Bacon) «تقدم العلم» (١٦٠٥) وكتاب «ليفايثان» (Lviathan) ١٦٥١ لهوبز (Hobbes) في انكلترا . وتتركز أهمية هذه المؤلفات في تطبيقها لأسلوب التفكير المشكك والعقلانية ، (وهي لهذا تعتبر علمية) ليس فقط على المسائل العلمية بل على الجدل سياسياً ولاهوتياً بله المشاكل العامة للفهم والادراك . وكان لهذا التحدي الأساسي للفكر واللغة آثار عميقة على صورة الانسان عن نفسه ، انعكست فيما وصفه ت . س . اليوت (T.S.Eliot) بـ «انفصام او تفكك الحساسية » (The Dissociation of Sensibility) الذي ادعى اليوت انه حدث في انكلترا بعد الحرب الأهلية . ولهذا السبب ـ وبالمقارنة بالكتاب الاليزابيتيين والجاكوبيين ـ الذين كان بامكانهم تمثل اي نوع من التجربة ـ لم يستطع الشعراء الذين أتوا بعدهم أن يفكروا وأن يشعروا بشكل موحد .

وكما هي الحال بالنسبة لأي تقسيم اعتباطي كالتقسيم الذي يبدأ ببدء قرن وينتهي بانتهائه ، لا بد من قبول مبدأ تداخل الحركات والتأثيرات . وهذا صحيح خاصة بالنسبة للعقود الأولى من القرن السابع عشر الذي ما زال تحت تأثير عصر

النهضة في بلاد كثيرة ، ولا سيما في انكلترا . وهكذا ـ ولكونه يلائم التقسيم العام ادخل هنا اولئك الكتاب الذين ينتمون الى القرن السابع عشر ، من ناحية الترتيب الزمني (مثل دون وملتون ومارفل (Marvell) ، والذين كانوا في الواقع ازدهاراً متأخراً «لانسانية» عصر النهضة .

ومن ناحية التأثير فقط وجدنا ضرورياً ان نناقش مسرحيات جونسون في القسم المتعلق بالكتّاب المسرحيين تحت عنوان «الأدب الانكليزي في عصر النهضة» الوارد آنفاً، ومع ذلك يجب أن نحلل والى حد ما أثر جونسون على شعراء أوائل القرن السابع عشر مثل روبرت هريك (Robert Herrick) .

واذا كان القرن السابع عشر قد افتتحه عصر النهضة في معظم الآداب ، إلاّ أن الفهم الحقيقي للقوى التي عملت في الفترة يتطلب أن نأخذ بعين الاعتبار الطريقة التي هيأ بها إحياء الاهتمام في القرن السادس عشر بالكلاسيكيات والفلسفة والتحدي العنيف الذي وجهته الى القصائد الشائعة آنئذ حركة الاصلاح البر وتستنتي في الدين لإيجاد جو مقبول بالنسبة لنشر افكار العلم الجديد ، والفلسفة الجديدة التي ظهرت في مؤلفات بيكون وديكارت وهوبز .

وتتطلب الصورة الحقيقية للعصر ايضاً أن نأخذ بعين الاعتبار الأثر الضخم للانتفاضات الاجتماعية والسياسيه التي تعكس النزاع بين المقاطعات التي كونت كل منها وحدة قائمة بذاتها في معظم الدول ، التي تبرز على أساس قومي من جهة ، وبين القوة النامية لادارة مركزية خلال الجزئين الأول والأوسط من القرن اللذين يمكن اعتبارهما نقطة انفصال مناسبة في اتجاه عصر جديد . وفي انكلترا حيث ينقسم التاريخ الأدبي للفترة عادة الى جزئين يبدو ان الفاصل يقع طبيعياً عند اندلاع الحرب الأهلية (١٦٤٢ ـ ٥١) التي كان من احد ملامحها اغلاق المسارح عام ٢٦٤٢ ، ثم تأسيس عصر جديد بدأ بإعادة الملكية عام ١٦٦٠ . وفي فرنسا ادى نزاع «الفروند» (Fronde) (١٦٤٨ ـ ١٦٥٣) الداخلي المرير المماثل الى تقسيم القرن الى جزئين، وسبق ما يعتبر انه اعظم فترة في الأدب الفرنسي ، وهي عصر موليير وراسين وبوالو (Boileau) ولافونتين (La Fontaine) . وفي المانيا سيطرت على الشطر الأول من القرن النزاعات الدينية والسياسية لحروب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ـ ٤٨)، وبعد تلك

الفترة سيطرت محاولات الامراء الالمان تقليد القوة المركزية وعظمة وبذخ بلاط الملك الفرنسي لويس الرابع عشر في فرساي . اما الأراضي المنخفضة فكانت هي الاخرى مشغولة في الشطر الأول من القرن في اشتباكها بنزاع للاستقلال عن اسبانيا (حرب الثمانين عاماً) (١٥٦٨ ـ ١٦٤٨) الذي انتهى ليس بنيل هذا الاستقلال فحسب بل بالعصر الذهبي للشعر الهولندي كذلك ، وهو عصر هاينريخ شبيغل (Heinric Spieghel) ودانيال هينسيوس (Daniël Heinsius) وجربران بريديرو (Gerbrand Bredero) .

كان النزاع السياسي والديني الذي سيطر على أوائل القرن من نواح عدة الاستجابةَ المميزة لرد الفعل الكاثوليكي كذلك ضد الاصلاح البروتستنتي المعروف باسم الاصلاح الديني المضاد . وأنعكس نمط النزاع الديني في الأشكال الأدبية ، وكان أحد ردود الفعل ـ الذي بدأ بشكل خاص في ايطاليا والمانيا والبانيا ، وفي فرنسا وانكلترا ـ تطوراً في أسلوب الفن والأدب يعرف بالأسلوب الباروكي (Barouque) ؛ وتبدى بشكل مميز في مؤلفات جيام باتستا مارينو (Giambattista Marino) في المانيا . ولويس دوكونكورا (Luis de Gongra) في اسبانيا ومارتن اوبتز (Martin Opitz) في المانيا . وعبر مدة طويلة نظر الى الباروك في الأدب على أنه انحطاط، لكن النظرة المعاصرة اليه هي اقل ذماً،ويفهم من دلالته أنه اسلوب من ميزاته الرئيسية الزخرف والتعقيد واستعمال المجاز والبلاغة والصناعة الجريئة .

واذا كان الأدب الباروكي المميز لايطاليا والمانيا في هذه الفترة فان الادب الميتافيزيقي كان الصفة المميزة للشعر الانكليزي في النصف الأول من القرن . ويستعمل هذا الاصطلاح ـ الذي كان درايدن أول من اطلقه على شعر «دون» ثم وسعه الدكتور جونسون ـ الآن كدلالة على مدى أوسع من الشعراء الذين تباينت أساليبهم الفردية ، الا انهم شاركوا الأدب الباروكي في نواح اخرى ، وخاصة منهم ريتشارد كراشو (Richard Crashaw) .

ولربما كان النزاع الأكثر تميزا في القرن السابع عشر ذلك الذي حدث بين الميل نحو اتمام وتطوير تقليد الكتب الكلاسيكية الذي بدأ في عصر النهضة مع مطامح المفكرين الجدد واكتشافاتهم في العلم والفلسفة ، والذين قاموا بالتجارب

على الاشكال الأدبية . وفي فرنسا ظهر هذا الميل في النزاع بين القديم والحديث « Anciens And « Moderne » ، وبين أولئك الذين اعتقدوا بأن الشكل والمحتوى يجب أن يقوما حسب الانماط الكلاسيكية اليونانية واللاتينية ، وبين مؤيدي التقاليد الوطنية . وفي اسبانيا عُبِّر عن نزاع مماثل ، بين الميل نحو الزخرف وادخال التعابير والمصطلحات اللاتينية والكتب الكلاسيكية أو اسلوب اكثر ايجازاً وعمقاً وتكثيفاً . وبشر هذا النزاع الذي تمثل بالحديثين (Modernes) في فرنسا ، وبفكرة كونسيبتسمو (Conceptismo) في اسبانيا بأسلوب نثري يماشي العصر الجديد ، عصر العلم والاكتشافات ، واذا كان الشعراء الحديثون بصورة عامة اتباعاً لديكارت . نجد في انكلترا اتجاهاً مماثلاً في اعمال الجمعية الملكية (Royal Society) وتشجيعها اللغة البسيطة ، وطريقة في الكلام أقرب الى الحياة اليومية عارية من الزخرف ، طبيعية ، تصلح للكتابة العقلانية ، وتوازيها المنجزات النثرية العظيمة لجون ملتون وجون درايدن .

الفَصل الأول

الأدَب الانكليزي في القرن السّابع عَشر

نشأ المناخ القلق والمضطرب في القرن السابع عشر في انكلترا من الافكار المتداخلة والمتعارضة، وغالبا ما كانت نزاعاً بين التقليد والتجديد كما في العدوة الانجليكانية (Anglican Appeal) لتوطيد النظام والتلاؤم ضد بساطة البيوريتانيين (Puritans) ومشايعتهم الترجمة الحرفية للانجيل، وكما في تصور الملك جيمس (King James) للحق الالهي للملوك المخالف لنظريات الديمقراطية الجديدة العديدة. وتشاهد أيضا في تضحية توماس هوبز بالحريات الديمقراطية لقاء ضرورات النظام. ولكن الطابع المسيطر لكل هذا هو طابع الفحص والتحليل

النثر القديم : كانت معظم الكتب مؤلفات للتعليم الأخلاقي والارشاد. وهذا ما أدى الى انتقال نظرية الأسلوب النثري - وممارسة المرونة البيانية المنظمة - التي توصل اليها كتاب من القرن السادس عشر مثل ريتشارد هوكر (Richard Hooker) - الى الأسلوب العلمي الواقعي الذي دشنه فرنسيس بيكون في القرن السابع عشر. وبينما كان الأسلوب الطنان الذي يعتمد التوازن تقليدا لشيشرون هو الأداة الطبيعية للحقائق المقبولة، وجد عصر الشك الجديد في الأسلوب غير المتناسق الذي مارسه سنيكا وتاسيتوس أكثر ملاءمة له. وبينما فكر أحسن الكتاب الأليزابيثيون بالأخلية نثراً وشعراً، نرى ان العصر الجديد وجد متنفسه بتشجيع العلم، وكصر قاعدة الوحدة القديمة للفكر والاحساس، وعزف العقل العلمي عن الأخيلة الا اذا استعملت كشواهد فقط، وبحث عن لغة دلالية مباشرة. أما النثر البسيط فكان متنفس الرحالة، وأصحاب القضايا، وكتاب النشرات الذين كتبوا باللغة التي تكلموها بالذات.

الترجمات وكتب الرحلات:

كان هذا العصر عصر الترجمة العظيم. وقد ظهر فيلمون هولاند (Philemon Holland) بترجمة عن الكلاسيكيات مزج فيها العلم باللون وتميزت ترجمة جون فلوريو (John Florio) عام ١٦٠٣ لمقالات ميشيل دومنتين (De Montaigne Michel) وترجمة توماس شلتون (Thomas Shelton) لـ دون كيشوت (Don Quixote) ، وترجمة «أعمال» رابيليه (Rabelais) التي قام بها السير توماس اركوهارت (Sir Thomas Urqukart) بالحماس البالغ والأسلوب النابض، مما جعلها روائع أدبية انكليزية. أما أعظم الترجمات جميعاً ـ وهي ترجمة الملك جيمس الرسمية ـ للكتاب المقدس فكانت بصورة رئيسية من عمل متواتر لمترجمي القرن السادس عشر. ولهذا كانت قديمة الأسلوب نوعاً ما حين ظهرت في عام ١٦١١. الا أنه يحق للمترجمين الجاكوبيين أن يشاركوا في مجد اختيار التعابير والجرس، ولا يبعد أن تتسم النسخ الحديثة بتقدم علمي ودقة أبلغ، الا انها بالمقارنة أقل قيمة أدبية. ومن الصعب تقدير التأثيرات الثقافية الناجمة عن تشبع القرن بالكتاب المقدس الانكليزي.

كانت مشاهدة البلاد الاجنبية واجبا على «انساني» عصر النهضة الذي كان عليه ان يقوم بالرحلة الكبرى في اوربا كجزء اجباري من تعليم الشباب الارستقراطي. اما الذين لبثوا في وطنهم لا يغادرونه فوجدوا التسلية بقراءة كتب الرحلات التي خطها رجال مثل توماس كوريات (Thomas Coryate) ووليام ليثغو (William Lithgow) وفينس موريسون (Fynes Moryson) ، وبيتر مندى (Peter Munday) ومـا مسرحية «العاصفة» (Tempest) لشكسبير الا مثل من كثير على قيمة هذا القصص للكتاب الخياليين، ولكتاب «حكاية رحلة» لجورج صاندي (George Synday) آثاره على «الفردوس المفقود» لملتون. وكان من بين الصور الأخاذة للمستوطنات الأمريكية كتاب الكابتن جون سميث (Capt. John Smith) . وقد أظهر كتاب «هاكليتس بوستهيوموس» (Hakluytas Posthumas) أو رحلات برتشاش (Puschas His Pilgrimes) (١٦٢٥) ان مؤلفه صموئيل برتشاش (Samuel Purchas) هو خلف صالح لرحالة القرن السادس عشر ريتشارد هاكليت (Richard Hakluyt)

المقال والشخصية :

انعكس الميل المتزايد نحو تحليل الذات والمجتمع في تطور «المقال» و«الشخصية» كنوعين أدبيين (حسب نموذج الوصف المختصر للانماط الاخلاقية الذي قام به المؤلف اليوناني القديم ثيوفراستوس (Theopharstus) وقد سار كتاب المقال القدامى امثال السير وليام كورنوليس (Sir William Cornwallis) وبن جونسون (Ben Jonson) في مؤلفه «الخشب أو الاكتشافات» وأوين فلتام(Owen Felltham) في مؤلفه «قرارات» على نهج «الانسانيين» في عصر النهضة في اهتمامهم بالأمور الأخلاقية. وكانت مقالات (Essays) السير فرانسيس بيكون «(١٥٩٧ - وسعت كثيرا عام ١٦١٢ وعام ١٦٢٥) جزءاً لا يتجزأ من خطة ترمي لتقدم المعرفة. وكان ميزان قيمه الدنيوي نفسيا بسيكولوجياً يتفحص الدوافع والسلوك. اما كتاب جيمس هول (James Hawell) المسمى «رسائل هو الينای» (Epistolae Ho Eliane) (١٦٤٥ - ١٦٥٥) فمليء بالحيوية بدراسة العلاقة بين الرحالة والمقالة المألوفة. وكان كتاب روبرت بيرتون (Robert Burton) تشريح السوداوية (Anatomy of Melancholy) (١٦٢١) بحثا غزير العلم عن امراض الجسم والعقل المرتبطة ببعضها البعض. ومع ذلك لا يوجد مقال نفسي (بسيكولوجي) أكثر منه شعبية؛ فكان هذا العالم الناسك متقنا للاسلوب العامي وملاحظا ناقدا للمهزلة الانسانية، وفوق كل هذا ناصحاً عاقلاً متعاطفاً.

أما اشهر مؤلفات «الشخصية» فكتاب جوزف هول(Joseph Hall) «شخصيات فاضلة ومرذولة» عام ١٦٠٨، ومجموعة السير توماس اوفر بيوري(Sir Thomas Overbury) الأخف ظلا والأكثر فكاهة، وكتاب صورة العالم الأصغر (العالم الانساني)(Micro cosmo Graphic) (١٦٢٨ - ١٦٣٣) للكاتب جون ايرل (John Earle) الذي جمع بين الفكاهة اللاذعة، والنقد الساخر الواخز، والانسانية، وكتاب توماس فولر (Thomas Fuller) المسلي والمرشد في السلوك «الدولة المقدسة» (Tha Holy State) عام ١٦٤٢ م .

التاريخ والسيرة:

حرر المؤرخون الكلاسيكيون والحديثون المؤ رخين الانكليز من الأساليب التبسيطية والبدائية لكتابة التواريخ الزمنية الأقدم. وكان وليام كامدن William) (Cam den أول مؤ رخ ناقد. وقد ترجم فيلمون هولاند(Philimon Holland) كتابه «بريتانيا»(Britannia) (١٥٨٦) من اللاتينية عام ١٦١٠. اما مؤلف سير والتر رالي (Sir Walter Raleigh) «تاريخ العالم» ١٦١٤، فكتاب نبوئي يفسر التاريخ على انه تحقيق لارادة الله. وأظهر رالي رؤيا شاعرية بتأملاته في اخلاقية الناس والأمبراطوريات والحكمة الحربية عند مناقشته السوقيات (نقل الجنود وتموينهم). اما تقليد مكيافلي (Machiavelli)وتاسيتيوس(Tcitus) غير النبوئي فيكمن خلف دراسة بيكون لعلم الدولة في كتابه «تاريخ حكم الملك هنري السابع» (١٦٢٢) بينما نجد ان كتاب توماس فولر «تاريخ كنيسة بريطانيا» (١٦٥٥) يروي قصة مؤثرة لتجارب الكنيسة ومحنها.

واشهر كتاب السيرة هم الكنسي فولر، ورجل الاعمال ايزاك وولتون (Walton) وهو صديق لرجال الكنيسة ومداحهم وجون اوبري. وقد أظهر فولر كاتب المقال المرح والباحث في الآثار حبه القصة القصيرة الفكهة، وما هو شاذ وغريب بكتابة «الدولة المقدسة» و«تاريخ عظماء انكلترا» (١٦٦٢)، وهو أول معجم للسيرة القومية. وتحول ايزاك وولتون (Izaak Walton) الى كاتب سيرة شبه محترف إذ طبع كتب السيرة التي وضعها عن حياة دون (Donne) والسير هنري وتن (Sir Henry Wotton) وهوكر (Hooker) وجورج هربرت وروبرت ساندرسون خلال الفترة بين (١٦٤٠ - ٧٨) وظلت ممتعة وقيمة بسبب رقة شمائل مؤلفها، واهتمامه بالحقيقة وبالأسلوب الجيد. أما مؤلف فولك كرافيل (Fulke Greville) عن السير فيليب سيدني فيعتبر مقالاً سياسياً أكثر منه كتاب سيرة. وزخرت الفترة بثروة من المذكرات والرسائل كانت جميعها تقريباً ممتعة. ولربما كان أشهرها تقرير اللورد هربرت أوف تشيربري (Lord Herbert Of Cherbury) عن نفسه في دور المغامر المتبجح، وكتاب ايكون باسيليش (Eikon Basilike) (١٦٤٩(وهو صورة مزخرفة

للشهيد الملكي شارل الأول، شارك في رسمها الملك شارل الثاني، وجون كودن، وأصبح فيما بعد سلاحاً ماضياً للدعاية؛ والصورة الرعوية التي صور بها وولتون نفسه في كتابه «الصياد الكامل» (١٦٥٣) . ومن بين مجموعات الرسائل تبرز رسائل دوروتي أوزبورن (Dorothy Osborne) لما فيها من فكاهة وعاطفة وسحر.

أثر الدين : كانت القضايا الدينية في الساحة الوطنية قوة مركزية تشابكت مع السياسة والاقتصاد، وقد شارك الكتاب في الجدل الذي رافق الحرب والثورة.

كانت الموعظة في هذا القرن الشكل الادبي الوحيد المألوف لدى طبقات الناس طراً. ومع ان البيورتان (Puritan) (وهم البروتستانت المتطرفون) أكدوا على الوعظ اكثر من الانجليكانيين، الا ان اسماء من وصلتنا كتاباتهم هم من الانجليكانيين بصورة رئيسية. ومن بين افضل ما كتب في هذا المجال كتابات لانسلوت اندروز (Lancelot Andrewes) التي تتضمن تحليلاً نقدياً ودقيقاً، ومواعظ جون دون الوفيرة ويشتهر جرمي تيلور (Jeremy Taylor) بالأخيلة الغنية ذات الصور المنقولة عن الطبيعة كما يشتهر بمشورته الاخلاقية. وقد سار حسب التقليد الكلاسيكي دون ان تكون لديه ذاتية دون (Donne) المتألمة أو حرارة استعمال بيانه. الا ان المواعظ الاوسع انتشارا تتألف من كتيبات تعليمية في الورع لآرثر دنت (Arther Dent) ولويس بيلي (Lewis Bayly) ومن كتب تأمل وارشاد تضمنت كتاب أندروز «العبادات الخاصة» (١٦٤٧) وكتاب دون الشخصي جدا المسمى «عبادات في مناسبات طارئة» (١٦٢٤) ، وكتاب تيلور «قواعد وتمارين للحياة المقدسة» و «قواعد وتمارين في الموت المقدس» (١٦٥٠ - ٥١) وكتاب ريتشارد باكستر البيورتاني «الراحة الابدية «للقديس» (١٦٥٠) ، وواجب الرجل لكامل ١٦٥٨ لريتشارد ارلزتري (Richard Allestree) ، ورؤى توماس تراهيرن (Thomas Traherne) المتألقة التي عممت بشكل مخطوطات، ثم طبعت بعد فترة مديدة تحت عنوان «قرون من التأملات عام (١٩٠٨) .»

الدين والعلم والفلسفة:

أخذ النزاع بين الدين والعلم طابعه لأول مرة في القرن السابع عشر. وكان كشف العقل والقانون الانساني والسماوي الاليزابيثي العظيم موضوع أول كتاب لريتشارد هوكر (Richard Hooker) وعنوانه «من قوانين الدولة الاكلـيركية» حاول مؤلفه ان يكيف الدراسات التقليدية لارسطو واوغسطين أكوايناس (توماس الأكويني) لينطبق مع موقف الكنيسة الانجليكانية. وقد واجهت هذه الفلسفة المسيحية الكلاسيكية التي تستند الى النظام والانسجام عوامل تفكك ثلاثة هي: الكلفينية (Calvinism) بتأكيدها على قدرة الله الشاملة والمتسلطة، وضعف الانسان المذنب، ومبادىء بيكون حول التقدم العلمي التي أعطت اهمية كبيرة للأشياء المادية وأضفت القوة على الانسان، والشك التقليدي والدعوة الى الطبيعة تساندها الاكتشافات العلمية، ويدعمها الفكر في فلسفة ديكارت الآلية في فرنسا، وهوبز في انكلترا.

وكان للمحامي اللامع، والقاضي، والسياسي المتنبىء، والفيلسوف فرانسيس بيكون مفهوم جديد عن التقدم. وفي كتابه «تقدم العلم» (١٦٠٥) ـ وهو أوسع بيان لمشروعه الضخم، وأثر خالد من النثر الكثيف الظلال ـ هاجم الأشكال التقليدية في التعليم والبحث واقترح خطاً جديداً من الاستكشاف، وركز اهتمامه الأول على العلم باعتبار انه انجاز للسيطرة على الطبيعة واستعمالها لمصلحة الانسان. وقد توسعت رؤياه الملهمة وأسلوبه الاستنتاجي في كتابه «نوفوم أورغانوم» (Novum Organum) (١٦٢٠). كما لعب حلمه عن البحث العلمي (التعاوني) دوراً في تكوين الجمعية الملكية.

استمر تمزق الفكر الديني التقليدي في انحداره السريع. وادت ازدواجية ديكارت اما الى فلسفة من المثالية بتركيزها على الله والعقل، او الى المادية (او وحدة الوجود) التي اكدت ان المادة هي الواقع المحسوس الوحيد.

كان العقل بالنسبة لهوبز (وهو مادي صرف) ـ مثل كل شيء آخر ـ نظاما من الاجسام يتحرك في المكان والزمان. وقد لاءم فكره اسلوبه العاري من كل زخرف، والواضح كما هي الحال في كتابه «ليفايثان» (Leviathan) (١٦٥١) وهكذا اطبق الهجوم من كل ناحية على الفيلسوف الحتمي. وأعاد افلاطونيو كمبردج توطيد دعائم الانسانية المسيحية التقليدية بتعابير جديدة جزئياً امام كلفينية لاعقلانية. وكان هنري مور (Henry More) ورالف كدورث (Ralph Cudworth) مهمين فلسفياً في محاولتهما التوفيق بين العلم والمسيحية الليبرالية، والدفاع عن المثالية الميتافيزيقية والأخلاقية، وأثر مور (More) على السير اسحق نيوتن Sir Isaac Newton) وعلى و. ب. ييتس (W.B. Yeats) في القرن العشرين.

ظهر السير توماس براون في كتابه «أي ديب الطبيب» (Religio Medici) (١٦٤٢) عالما شابا وافلاطونيا مسيحياً مدركاً للمناخ العقلاني. وفي هذا الكتاب المركز يوحي لنا بأسلوبه السنيكي (نسبة الى سنيكا) المنمق بتباشير روائعه القادمة. وكان كتابه «بسودودوكسيا ابيديميكا (Pseudodoxia Epidemica) (١٦٤٦) محاولة علمية متزنة ليحقق رغبة بيكون بغربلة الأخطاء الشعبية، وخاصة في مجال العلم الطبيعي. والمؤلفات الرئيسية لبيكون اللاحقة هي «رسالة الى صديق» التي تتسم بطابع الكآبة، «وحديقة سايروس (The Garden Of Cyrus) و«هايدريوتافيا» (Hydriotaphia) و«ايرن بوريال» (Urne — Buriail) (١٦٥٨). وفي الكتابين الاخيرين ذوي الدافع الأثري والمشحونين بتأملات في الحياة والموت، والزمن والخلود غنية بالخيال، مزج براون افكارا مسيحية ووثنية مستعملاً مفردات سكسونية بسيطة وكلمات لاتينية مركبة، فكان بذلك اعظم شاعر ميتافيزيقي كتب نثرا.

الشعر المبكر: كان الشعراء الذين ألّفوا في أواخر القرن السادس عشر مثل أتباع سبنسر، وبشكل خاص، غايلز (Giles) وفينياس فلتشر (Phineas Fletcher) ومايكل دريتون (Michael Dryton) في وسط تيار الفكر الاليزابيثي. ولذا قمنا ببحثهم تحت عنوان «الأدب الانكليزي في عصر النهضة» المذكور أعلاه. وساند صاموئيل دانيال في كتاب «ميزوفيلوس» (Musophilus) (١٥٩٩) وبعض الرسائل القيمة، وجورج تشابمان في كتابه «دموع السلام» الثقافة والاستقامة الخاصة

بالفلسفة الرواقية (Stoic) والحكمة ضد التشتت الفكري والحسي. ولكن بينما كتب دانيال بوضوح سلس شبه نثري، كانت بنية تعابير تشابمان (Chapman) ميتافيزيقية في تعقيدها وتركيبها. وكانت مقالات فوك كرافيل الشعرية ومجموعة قصائده من نوع «السونت» الفلسفية ذات زخم أقرب الى تشابمان منها الى دانيال. الا ان وجهة نظره الدينية المتشائمة عن فساد الانسان لم يكن بإمكانها أن تشارك تفاؤل عقيدتها الانسانية أو التفاؤل العلمي الذي تحلى به زميله السياسي بيكون.

الترجمات الشعرية: بدأ القرن السابع عشر ببعض الترجمات الشهيرة بما فيها ترجمة جورج تشابمان لهوميروس (١٥٩٨ ـ ١٧١٥) وترجمة داوارد فيرفاكس (Edward Faiefax) لِـ كودفري أوف بولون (Godfrey of Bulloigne)(١٦٠٠) وترجمة جورج ساندي لكتاب اوفيد «مسخيات» (١٦٢٦). وكانت صور تشابمان المجازية وإضافاته الأخلاقية في غير مكانها، إلاّ أن ترجمته كانت قصائد بطولية حقاً حسب تقاليد عصر النهضة.

وقد ظلت ترجمات فيرفاكس لِـ تاسو الشاعر الايطالي من القرن السادس عشر حسب أسلوب سبنسر الترجمات الانكليزية المعتمدة. أما ترجمة جوشوه سيلفستر (Joshuah Sylvester) « الأسابيع والأعمال السماوية » (١٦٠٥) لكتاب « خلق الكون » لِـ دوبارتاس (Du Bartas) فقد بقيت الملحمة البروتستانتية عن الخلق الى أن حلت محلها قصيدة ملتون: «الفردوس المفقود». وساهمت بعض هذه الترجمات وبالأخص ترجمات ساندي (Sandy) في تطوير المزدوجة الشعرية المغلقة المتوازنة التي بلغت الأوج بترجمة درايدن (Dryden) لانيادة فيرجيل « وبقصص خرافية حديثة وقديمة » (١٧٠٠) وفي المفردات التي طورها سيلفستر وساندي لترجمة القصائد الفلسفية ضرب الشاعران امثلة على بدء المفردات والتعابير الشعرية للعصر الأوغسطي وعصر الملكة آن .

وقدّر لتعليق ساندي المجازي على اوفيد ـ وهذا التعليق آخر ازهارات تقليد قوي لم يستطع أن يستسيغه العقل الأوغسطي ـ ان يحيا من جديد في خيال جون كيتس المشبع بالأساطير.

« دون » والشعــراء الميتــافيزيقيون : غيَّـر انتعـاش الاهتمـام العام بشعــر جون دون والشعــراء الميتــافيزيقيين في القــرن العشرين، وآثــار هذا على الشعـر الحـديث والنقـد ووجهـة النظـر الحديثــة . وتشمــل بعض عناصر الشعر الميتافيزيقي على الفكاهـة العقـلانية النقـدية (Wit) ، وهـي ربـط قسري لأفكار أو أشياء غير مترابطة ظاهرياً ، كما تشمل على أخيلة عضـوية وليس فقـط استشهادية ، وعلى تفـاصيل مادية ومـزج للفـكر والشعـور ، أو جعـل العاطفـة عقلانية ، وعلى توتر بين الأفـكار والعـواطف المتضـادة ، وهـذا يعنـي التـركيب والغمـوض والتنـاقض الظاهـري والتلميح الساخـر واسـتعمال اللغــة الدارجــة وإيقاعاتها ، وعلى شرح معبّر للتجربة الانسانية . وبدءاً من شكسبير كان الكثير من الشعراء ميتافيزيقيين الى حد ما ، ولكن دون (Donne) أدخل على شعـر الحـب والدين والتكنيك الذي خصصه الذوق المتعارف عليه للشعر الهجائـي . وكان في شعره أحياناً ناقداً قليل الثقة بالانسان أو شهوانياً أو متفوقاً على بتـرارك في مبالغته المحلقة في عالم المثل .

وكان جون دون مهتماً بعلاقات الروح والجسد . وفي بعض افضل قصائده وجد في الحب الواقع الوحيد . وعرضت استكشافاته بقوة متفجـرة ، وأصالـة ، فكانت فكهة وجدية وديالكتيكية وعاطفية . وقد كتب قصائده الدينية بما فيها الفنائية المقدسة من نوع «السونت» في الأعوام ١٦٠٧ ـ ١٢ ومع أن دون لم يُسَمْ كاهناً الا في عام (١٦١٥) كان على الدوام مسيحياً مثَّل في روحه مرة ثانية مأساة الخطيئة البشرية والحب السماوي.

عممت قصائد « دون » على شكل مخطوطات ، وأثرت أثراً بالغاً على الشعر العلماني والديني . ومن بين الشعراء الدينيين الرئيسيين وهم هربرت(Herbert) وكراشو (Crashaw) وهنري فون (Henry Vaughan) وتراهيرن (Traherne) كان هربرت الوحيد الذي كتب شعراً ميتافيزيقياً بالمعنـى الصـحيح للكلمـة . تمثلـت فكاهته الفنية بالرمزية في تمجيد شاعر كاهن للمسيح والكنيسة في قصائد شخصية حاول فيها أن يكبح جماح إرادته أو يقوي من حماسـه الدينـي . ولا يسـع قارىء قصائده إلا أن يتأثر بالتوترات التي تظهر عبر مهارته الشعرية الحذقة ، وبنية قصائده

العضوية ، وأخيلته الموحدة ، وتعابيره التي تصف المضمون بأحكم إيجاز ، واللغة الدارجة ، وتنوع الجرس.

وعمل كراشو عمل رجل مكين تحول الى الكاثوليكية ، فكان تجسيداً للشعر الباروكي،كما وأن الأسلوب الاسباني الايطالي لنشواته التعبدية لا يداخلها سوى القليل من الميتافيزيقية الانكليزية . كما كان فون ـ وهو أحد الأفلاطونيين المسيحيين الجدد الذي لولا صور الله في الطبيعة لوجد نفسه منفياً على سطح الأرض ، ولتاق الى الخلود ـ شاعراً ذا رؤيا تأملية .

وفي عداد الشعراء العلمانيين نذكر اللورد هربرت ، وهنري كنغ (Henry King ناظم القصيدة الرائعة « طقوس جنائزية » التي يرثي فيها زوجه المتوفاة) ، وجون كليفلاند (John Cleveland) الناقد الغريب الأطوار ، وابراهام كاولي (Abraham Cowley) ناظم الشعر الحذق الهاوي،وشاعر ملحمة لم تكتمل هي « دافيديز » (Davides) والقصائد البندارية [1] من نوع « الأنشودة »(Ode) (١٦٥٦) في المواضيع العامة . وأروعهم جميعاً اندرو مارفيل(Andraw Marvell) الذي جمع بين الذكاء والاحساس الميتافيزيقي المركب ، وبين رشاقة الشاعر الفارس والانسجام ، والتوازن التركيبي والأسلوبي ، والاقتصادي في الكلمة والوضوح ما يمكن أن يطلق عليه صفة الكلاسيكية . وتمثل كل ذلك في قصائده « الى معشوقته الخفرة » و « الحديقة » و« صورة ت . س . الصغير » و « حوار بين الروح والجسد » و « التويج » وأنشودة هوراسية عن عودة كرمويل من ايرلندا (١٦٥٠ ـ ١٦٥٣) .

بن جونسون وأثره : وضع عدد لا يحصى من الموسيقيين ثروة كبرى من الأغاني في العصر الذهبي للموسيقا الانكليزية قبل وبعد عام (١٦٠٠). وكان توماس كامبيون أشهر مثال على الشاعر املحن. وسار الشعر الشعبي الأبسط جنباً مع الشعر الغنائي المتقن. ومثلت أغاني جونسون التقليدين معاً، إذ امتدت

---

(١) البنداري Pindaric = نسبة الى بنداروس اليوناني .

كلاسيكيته من المثل العليا الأخلاقية والرواقية[1] «لانسانية» عصر النهضة (التي تتحد في القصائد التأملية)، الى المثل الغنية التي صاغت أغانيه وحكمه، إذ أحسن استثمار الموضوعية الانضباطية والتناسق والوضوح، فكان أسلوبه عقلانياً ومتمدناً دون صدامات أو اسراف. من بين الكتاب العديدين الذين تأثروا بـ جونسون، قد يكون روبرت هريك (Robert Herrick) أصفاهم وأكثرهم أصالة، إذ أخفت، أناقته الكلاسيكية - إحساساً مرهقاً بالكلمة والجرس، بصورة جزئية - فكاهته الميتافيزيقية وغريزته بالنسبة للتفاصيل المادية، وللغموض والتناقض الظاهري، والمفاجأة. كما استطاع أن يعيش في عالم خياله الوثني، أو في عالم معتقداته المسيحي. وكان الشعراء الفرسان أمثال توماس كارو (Thomas Carrew) والسير جون سكلينغ (John Suckling) وريتشارد لفليس خلفاء لجونسون. وقد امتدح كاريو - أكثر الفنانين درساً وبحثاً - أصالة «دون» الا أنه أظهر القليل من عقلانيته وعاطفته، كما فضل النموذج الكلاسيكي الذي يسيطر على الفكرة والصورة. واذا رفع كارو لعبة الحب الشهوانية الى مصاف الطقوس البلاطية فقد تحدث سكلينغ (Suckling) ببرود رجل البلاط أو رجل المجتمع. وقد خُلّد لفليس (Lav!ace) في عدد قليل من أغانيه عن الفارس المثالي، ولكن حتى في هذه القصائد لا تخلو بساطته من تعقيد.

جون ملتون (John Milton) ؛

تنقسم حياة ملتون الأدبية ذات التطور المستمر الى ثلاث فترات وهي : القصائد الأولى باللاتينية والانكليزية ، والأعوام ما بين ١٦٤١ ، ١٦٦٠ التي أمضاها في الحياة العامة (بالاضافة الى بعض القصائد الغنائية من نوع « السونت ») ، والفترة الثالثة والأخيرة التي كتب خلالها قصائده الثلاث الرئيسية . واشتمل مجلده المنشور عام ١٦٤٥ ، على القصيدة الغنائية من نوع «الأود» ذات الجمال الباروكي وعنوانها «صباح ميلاد المسيح» وعلى القصيدتين

(١) نسبة الى الفلسفة الرواقية (Stoic)

المرافقتين « لاليغـرو » (L'Allegro) و « إلبنسرِوزو » (Il Penseroso) اللتـين تطوران طريقة جونسون في نظم الشعر . ومسرحيته التنكرية من نوع «القناع» التي تعرف باسم « كوموس » (Comos) المتنوعة في بنيتها الأسلوبية والمتحـدة في افلاطونيتهـاالمسيحية ،وليسيداس (Lycidas) وهـي إحـدى أكثـر القصائـد تعقيداً لغوياً ، وفيها يحاول للمرة الأولى أن يبرر تصرفات الخالق وإمكان نجاة الانسان ، وفيها كذلك تضمين عنيف للتوتر الشخصي والسياسي (الذي مرّ به ملتون)، عبَّر عنه بالتشبيه المجازي الخاص بالقصيدة الرعوية التقليدية . ومرّ التيار الميتافيزيقي مرور الكرام بالكاتب الكلاسيكي الشاب ، إذ ضرع بالنظم على وزن بيت الشعر الذي ابتدعه سبنسر، لكنه كان منذ بواكيره استاذاً في القريض ذا شاعرية أصيلة .

حلم ملتون بكتابـة القصيدة البطـولية العظيمـة الحديثـة ، الا ان شعـوره بالمسؤولية اضطره ان يضحي بعشرين عاماً من حياته في سبيل النضال البيوريتاني من أجل الحرية ، اذ كتب خمس كراسات ضد دولة الأساقفة في الكنيسة ، الرابع منها عن الطـلاق، والخـامس عن التعليم، واتبعهـا بسـادس سماه «أريوباغتياكا» (Areopagitaca) (١٦٤٤) وهـو دعـوة لحـرية الصحافـة وذلك عشية اعـادة الملكية ، ويمثـل دعـوة تحـرر في سبيل الجمهـورية ، وهـي جميعـاً تسجـل فكرة الراديكالي المتطور ، وطموحه في الاصلاح ، وخيبات امله المتلاحقة .

وعندما شرع بكتابة « الفردوس المفقود » (Paradise Lost) (١٦٦٧) لم يعد ملتون ذاك الثوري الداعي الى النضـال، إذ تعالـج أعمالـه الـرئيسية الثـلاث اغراءات وانكسارات وانتصارات الانسان كفـرد ، كما نرى أن حماسـه الأول قد فسح المجال لاعادة تأكيد وجهة النظر المسيحية عن الله والانسان والطبيعة ، وذلك باستخدامه الملهم للأسطورة الانجيلية لسقوط الانسان في مواجهته معارضة العلم والقوة الغاشمة . وتعيد حواء ـ برغبتها في الحصول على المعرفة الإلهية التي يعدها بها الشيطان ـ وآدم ، في حسب استطلاعه ، وفي انقياده لحواء ، تمثيل خطيئة الشيطان والكبرياء والثورة .

كما أن شخصية الرجل الشرير في قصائده، والتي تتجسد بشكل بطولي في الشيطان هي شخصية تتصف بالعظمة ، الا ان ملتون يستطيع الاعتماد على رد فعل

قارئي قصائده بالنسبة للشر ، عندما وازن بين هذا الأمر وبين عظمة الشيطان وفساده .

خط ملتون أعماله بشعور عميق بأنه وريث القدماء ، باعثاً تقاليد وتفاصيل الملحمات الكلاسيكية . وتمزج الأخيلة في ملحمته بين ما هو عام بما هو خاص ، ويرتفع اداؤه الجريء المتميز فوق مستوى المخاطبة اليومية ،ويتسم أسلوبه المنمق بالبساطة والكثافة والزخم الناجم عن التلميح والاشارة ، كما ان النظم على البحر العروضي المسمى « بلانك » - (أبيات غير مقفاة يتألف الواحد منها من عشرة مقاطع مشددة وغير مشددة) في قصائد طويلة - كان تجديداً راديكالياً وتوسيعاً للعروض الانكليزي .

ويظهر مؤلفاه « الفردوس المستعاد » (Paradise Regained) و « آلام شمشون » (Samson Agonites) (كلاهما في عام (١٦٧١) تطورات فنية أبعد . فقد كتبت القصيدة الأولى بأسلوب ذي بساطة انجيلية تقريباً . اما الثانية فهي المسرحية الانكليزية الوحيدة المكتوبة حسب النمط الأغريقي ، والتي تستطيع الوقوف جنباً الى جنب مع مسرحيات القدماء ، لكن قريضها خشن وغير منتظم ، وقريب جداً من الحديث العادي . ويظهر المسيح بكل قصيدة « الفردوس المستعاد » في نزاع ذي توتر عال من الطاعة والاستقامة مما ينتقص من آدم وحواء . وفي مسرحية شمشون يحقق بطل انساني خاطىء (وهو موجود حتى من العاطفة الانسانية ، شأنه في ذلك شأن المسيح ، الذي هو نصف بشر) ، يحقق انبعاثاً روحياً جديداً . وقصائد الايمان والصبر الثلاث هذه تتميز عن كل ما كتب من أعمال أدبية أخرى خلال فترة عودة الملكية .

فترة عودة الملكية :

بشرت إعادة الملكية عام ١٦٦٠ بانقطاع سياسي وثقافي ، مع ظهور تطورات جديدة من التفاعل والفوضى الناجمة عن تضارب القديم والحديث . فلم يشهد عام ١٦٦٧ ظهور أول طبعة من «الفردوس المفقود» لملتون العجوز فحسب، بل كذلك

قصيدة تبشر بالنمط الحديث من الشعر ، وهي قصيدة درايدن « السنة العجيبة » (Annus Mirabilis). ودعمت هذا التحول الآخذ سمته نحو التغيير الجذري في صورة العالم الطبيعية اكتشافات كل من اسحق نيوتن في الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وروبرت بويل (Robert Boyle) في الكيمياء، بله التطورات في علم الحياة. وساعد على نشر وتعميم ذلك الجمعية الملكية البريطانية ، مما كان له تأثير عميق على الجو الفكري للعصر . ونتج عن ذلك ظهور شعور سياسي جديد ، هو الى حد ما شعور نقدي غير متفائل وفاسد ونفعي ، الا انه تميز بالتسامح وبالانسانية ، كما ساعد على الإدراك للنفس وهو ما نجده بَدءاً من فرانسيس بيكون ومن خَلَفه ، مما انتج شخصية مثل تلك التي تظهر في « مذكرات » صاموئيل بيسي (Samuel Peys) وجون ايفلين (John Evelyn) .

عاد البلاط من المنفى ، ومعه الكثير من الأذواق والأزياء الفرنسية ، وأصبحت لندن عاصمة أوروبية ذات حضارة رفيعة ، وأعيد فتح المسرح تحت رعاية ملكية ، فازدهر منقلباً رهناً على الطبقة العليا . وآنذاك بدأت تتكون البدايات الأولى للأنماط الأدبية للعالم الحديث ، مثل الرواية والسيرة والتاريخ وكتابة الرحلات والصحافة. كما تميز الأدب الانكليزي ـ في هذه الفترة ـ بإعادة صياغة نفسه في وجه أوضاع اقتصادية جديدة أدت الى زوال الرعاية الأدبية ، وتشكل جماهير القراء ونشوء سوق أدبية .

النثر : شهد عام ١٦٦٠ تطوراً في النثر الانكليزي ، إذ تزايد اهتمام الناس بالأشياء أكثر من الكلمات ، نظراً لأن العلم يلعب دوراً هاماً في القضايا الانسانية ، مما أدى الى اختفاء عادة كتابة النثر العاطفي . ولعبت الجمعية الملكية بعض الدور في كل هذا ، وكانت أصولها أقدم بكثير من عام ١٦٦٢ عندما نالت براءتها الأولى ، وانصرفت الى الاهتمام بالأسلوب النثري . وبعد تأسيسها مباشرة أُلفت لجنة «لتحسين اللغة الانكليزية» كما وضع توماس سبرات (Thomas Spart) في كتابه «تاريخ الجمعية الملكية في لندن» (١٦٦٧) ـ الذي يعتبر في الواقع كتاب دعاية ـ قواعد لأسلوب نثري بسيط، مع ان الكثير من المؤلفات العلمية مثل تلك التي كتبها جون ري (John Ray) العالم الطبيعي الكبير صيغت باللاتينية . وكُتب سفر روبرت

بلوت (Robert Plot) « التاريخ الطبيعي لمحافظة اكسفورد » عام ١٦٦٧ بأسلوب بسيط. ومع ذلك، رأى من الضروري أن يقول موضحاً : « إنني بقدر ما استطيع أهدف الى الكتابة الموجزة بأسلوب سهل غير متكلف ، متجنباً عن قصد كل الزخارف اللغوية، لأن هدفي أن أتعامل مع الأشياء، فعلى قارئي إذاً، ألا يتوقع سوى الكلمات».

كان هوبز (Hobbes) في كتابه لفياثان (Leviathan) (١٦٥١) قد احتقر وسخر من « التعابير الغامضة والمضطربة ، ومن جميع الكلام المجازي الذي يهدف الى اثارة العواطف ». ولكن ربما كان نشوء الصحافة ذا تأثير مماثل لبقية العوامل الأخرى . وخلال الحروب الأهلية وفترة الكومنولث توفرت النشرات بأعداد متزايدة، وكانت بسيطة واضحة كما يجب أن تكون النشرة السياسية، إذ قصد منها أن تكون مؤثرة.

وأصبحت الموعظة بدورها أبسط بعد عام ١٦٦٠ . فقد دعا جون ولكنز (John Wilkins) أسقف تشستر (Chester) إلى أسلوب بسيط في كتابه عن الوعظ المسمى « إكليسيا ستيز » (Ecclesiastes) عام (١٦٤٦) ، وفي « مقالة حول لغة فلسفية ولغة شخصية حقة » (١٦٦٨) قام بمحاولة جريئة لاستبدال الكلمات بالاشارات حتى تضيع هذه الكلمات. وقد يكون محتملاً أن آثار عدد قليل من الكتاب الفرديين ـ وليس الميول الغامضة للعصر ـ هي التي جعلت النثر الأبسط الوسيلة العادية للتعبير . وكان جون تليوتسون (John Tillotson) واعظاً منطقياً سهل الأسلوب ، وهو في هذا يمت الى القرن الثامن عشر تقريباً ، وكان أثره عظيماً لفترة من الوقت .

كان درايدن (Dryden) أكثر كتّاب النثر أثراً منذ عام ١٦٦٠ حتى نهاية القرن . وأول قطعة نثرية طويلة له هي « رسالة الى السير روبرت هوارد (Letter to Sir Robert Howard) قدّم بها كتابه « السنة العجيبة » واتبع هذه الرسالة بـ « مقالة حول الشعر الدرامي » (Poesie, an Essay of dramatic) ١٦٦٨ ، وبعض الاهداءات والمقدمات . وفي عام (١٧٠٠) جاءت تحفته من مقدمة

لكتاب « قصص خرافية قديمة وحديثة » (Fables Ancient and modern).يتسم أسلوب درايدن بالجزالة والسلاسة في وقت واحد . لكن رغم ما يبدو عليه من سهولة فقد بذل بكتاباته صناعة لا تصنعا عناية فائقة ، إذ أعاد مراجعة التراكيب اللغوية بصورة فعلية في مقاله « حول الشعر الدرامي » في طبعتها الثانية . وما من خلاف في ان المادة التي عالجها هو ومعاصروه أدت الى تغيير في اسلوب الكتابة .

لقد اختفت المواضيع التي تتطلب اللغة المنمقة بمثل سرعة زوال الحياة أو الموت نفسه ، وتركز الاهتمام على قضايا الساعة مثل النقد والسياسة . وأُلفت كتب لا حصر لها تبين عدم الرضا عن الحذلقة . ومن أهمها وأمتعها كتاب جون ايتشارد (Jhon Eachard) « أسباب ومناسبات احتقار رجال الدين »(Grounds And Occasions of the Contempt of the Clergy) . وفي عام ١٦٧٢ أدخل مارفل مسحة جديدة على النثر سميت الهزء، ففي كتابه « البروفة المسرحية حولت الى نثر » (The Rehearal Transposed) و « البروفة المسرحية حولت الى نثر : الجزء الثاني » هزء من صاموئيل باركر (Samuel Parker) أسقف اكسفورد فيما بعد لتعصبه ، وفي عام ١٦٧٥ ناقش هربرت كروفت (Herbert Croft) أسقف هرفورد (Hereford) فإن البروتستانت لم يختلفوا على أي شيء رئيسي . وهوجمت وجهة النظر هذه هجوماً عنيفاً ،إذ وقف مارفل الى جانب كروفت في كتابه « السيد سميرك أو رجل الدين حسب الزي السائد »(MR. Smirke, on the Divine in mode) فأنتج بذلك هجاء ممتعاً وساعد مارفل على جعل النثر أخف وأكثر ألفة . وفي الفترة بين عامي ١٦٧٨ و١٦٧٩ ظهر فيض من المنشورات حول المؤامرة البابوية(Popish Plot) التي اعتقد انها حبكت لاستعادة انكلترا لحظيرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولكنها في الواقع من صنع تيتوس أوتس (Titus Oates) وبرز كاتب واحد هو جورج سافيل (George Savile)ماركيزهاليفاكس الذي كتب « رسالة الى منشق » (A Letter to a Dissenter) محاولاً فيها رأب صدع الخلافات في الدولة ، و « شخصية متقلب » (The Charcter of Trimmer) دافع فيها عن موقفه . ورائعته هي كتاب « أقوال وشخصية الملك شارل الثاني »(Maxims and Character of King Charles the Second).نشأ جون بانيان (John Bunyan) في طبقة

الحرفيين العاملين والفلاحين البائسين الصغار الـذين تأسست ثقافتهم على قراءة الكتاب المقدس والمواعظ البيورتانية والأغاني البطولية من نوع « البالاد » والأغاني والجرائد والرومانسيات ، ولما كان سمكرياً في مهنته كان ـ بتلك الفترة ـ واحداً من كثير من الواعظين الميكانيكيين الذين طبعوا المواعظ والمحاضرات الدينية ، وكان أول كتاب بارز له سيرته الخاصة بقلمه ، التي كتبها تحت عنوان « الرحمة الوافرة » (Grace Abounding) (١٦٦٦) وقد نشأت تحفته « رحلة الحاج » (Pilgrim's Progress) (الجزء الأول عام ١٦٧٨) مباشرة من « الرحمة الوافرة » . انها ترجمة الى مصطلحات مجازية لرحلة الروح الى الخلاص تمدنا بصورة حية لحياة المدن على الطرقات الرئيسية والمدن الريفية الصغيرة زمن الحكم الملك شارل الثاني ، وفي الجزء الثاني (١٦٨٤) تظهر العناصر الواقعية والباهتة بشكل واضح . ومن بين أهم مؤلفات بنيان الأخرى يمكننا ذكر « حياة وموت السيد بادمان » (The Life And Death of MR. Badman) ١٦٨٠ و « الحرب المقدسة » (The Holy War) (١٦٨٢) ، والأخير كتاب مجازي على مستوى رفيع ، ويمكن اعتبار بنيان (Bunyan) آخر كاتب وسيطي في المجاز ، وأول استاذ عظيم في الرواية الواقعية والنفسية .

كانت كتابات الافلاطونيين من كمبردج (وهم مجموعة من المفكرين الدينيين والفلسفيين الذين أملوا أن يوفقوا بين الأخلاقيات المسيحية والإنسانية عصر النهضة) من بين التأثيرات التي آلت الى تبسيط النثر وأساليبه . وكان أشهر نتاج لهؤلاء المفكرين مؤلفات مثل «محاضرات مختارة» (Select Discourses) و«مواعظ مختارة» (Select Sermons) ١٦٩٨ لجون سميث (John Smith) و«حكم أخلاقية ودينية » (Moral and Religious Aphorisms) ١٧٥٣ لأستاذ سميث وهو بنيامين ويتشكوت (Benjamin Whichcote) و « محاضرة في حرية الارادة » (Adiscourse of the Freedoom of the Will) (١٦٧٥) لبيتر ستري (Peter Sterry) وهو أوسع أفراد المجموعة خيالاً وأكثرهم شاعرية . وكان القائد البيورتاني العظيم ريتشارد باكستر (Richard Baxter) أحد أهم الكتاب الدينيين ، ويذكر على الدوام بكتبه « راحة القديس الأبدية » (The Saint's Everlasting) عام

١٦٥٧ ، و « موجز لحياة مارغريت تشارلتون A Breviat of the life of Margaret (Charlton) و « تهذئة باكستر » (Reliquial Baxterianae) ١٦٩٦ . والكتاب الأخير ـ سيرة حياة الكاتب بقلمه ـ وصف ساحر لمحاولات باكستر لرأب الصدع بين المسيحيين ذوي الميول المختلفة .

إن الاهتمام بكتابة السيرة هو أحد أهم التطورات في نثر عصر عودة الملكية ، ويبدو أن تعبير السيرة استعملت للمرة الأولى في الانكليزية حوالي عام ١٦٦٠ م. وكان الميل في السير السابقة اما المديح حسب تقليد خطب التكريم بعد الوفاة أو سير القديسين تعتمد على حياتهم. وكانت «كتب السير» الشهيرة لاسحق وولتون(Lives (Izaak Walton) علامات بارزة في تطور « السيرة » الانكليزية ، مع انها لم تخل من سير القديسين . وقد اعتمدت الملاحظة والبحث العلمي ، وحفلت بسجلات قيّمة للميزات الشخصية والأحاديث والأمثلة عن المراسلات . ويعادله في الأهمية كتاب روجر نورث (Roger North) المسمى « سير عائلة نورث » (Lives of the North) . وتعتبر سيرة جون نورث ذات أهمية خاصة ، لأنها تصف بنجاح رجلاً عصبياً جداً . وقد نشر « تاريخ الثورة » (History of the Rebllion) لمؤلفه ايرل أوف كلاريندن (Earl of Clarendon) لأول مرة في الفترة ما بين عامي ١٧٠٢ و١٧٠٤ كما ظهرت سيرته الذاتية عام ١٧٥٩ . أما كتاب الأسقف جلبرت بيرنت (Bishop Gilbert Burnet) « تاريخ عصره » (History of His Own Times) فقد نشر ما بين عامي ١٧٢٤ و١٧٣٤ ، مع أن سير ايرل أوف رو تشستر (Earl of Rochester) والسير ماثيو هيل (Sir Mathew Hale) والأسقف وليام بدل (Bishop William Bedell) بالإضافة الى مقال في ذكرى الملكة ماري الثانية كانت قد نشرت قبل ذلك بكثير؛ ولكن بغض النظر عن تاريخ نشرهما فإن هذين الكتابين التاريخيين وُضعا خلال فترة عصر عودة الملكية ، وكان مؤلف «أثينا الاكسفوردية» (Athenae Oxonienses) (١٦٩١ ـ ٩٢) وهو عالم الآثار الأكسفوردي أنتوني أوود (Anthony á Wood) صاحب أول محاولة جادة لكتابة معجم سير انكليزي ، وأسهم في تأليفه جون اوبري (John Aubrey) الذي اتصف كتابه « سير قصيرة » (Brief Lives) بالحيوية والتسلية . وليس ضرورياً ذكر مذكرات جون ايفلين

(John Evelyn) وصاموئيل بيبس (Samuel Pepys) الا لتذكير القارىء بأنه بينما امتدت « مذكرات » ايفلين بين عامي ١٦٣١ و١٧٠٦ انتهت مذكرات بيبس عام ١٦٦٩ . وبما ان ايفلين كان في الغالب يكتب مذكراته بعد بضعة أيام من وقوع حوادثها ، لذا لا يمكن الاعتماد دوماً على تواريخه . ولم تنشر أي من المذكرتين قبل بدء القرن التاسع عشر .

وخلال عصر عودة الملكية اقلقت مشكلة الترجمة الكثيرين . ولا ريب أن السعي خلف علمية أدق من علمية الاليزابيثيين اثارت بشكل حاد قضية كيف يجب أن تكون الترجمة ، والى أي حد تطابق الأصل . ولم تحل المشكلة ولا يحتمل أن تحل . وقد انتج درايدن ترجمات رائعة لأجزاء من لوكريتيوس (Lucretius) بينما كانت ترجمته لفيرجيل (١٦٩٧) ذات روعة خاصة بها ، وإن لم تتقيد بالأصل . وساعد عمله هذا على تشكيل المفردات الشاعرية للشعر الأوغسطي . قدم هوبر (Hobber) ترجمات كاملة للإلياذة والأوديسة وصفها درايدن بالجرأة . وأضاف أن هوبز بدأ بدراسة الشعر كما درس الرياضيات في وقت متأخر وبعد فوات الوقت . ولا شك بأن تذوق الترجمات كان حاداً ، كما يتضح من المتنوعات الشعرية للعصر .

شملت المقالات النقدية الشعرية والنثرية الأدب بشكله العام. وأبرز عمل في هذا المجال مقدمة ولزلي (Wolseley) لنسخة الايرل أوف روتشستر (Earl of Rochester) (١٦٨٥) لمأساة جون فلتشر المسماة « فلنتينيان » (Valentinian) وحاول فيها أن يُحل مشكلة علاقة الفن بالأخلاق ، وهي ولا مشاحة ـ باستثناء مقدمات درايدن ـ أهم قطعة نقد من عصر عودة الملكية . أما مقال جرمي كولير (Jermy Collier) « وجهة نظر موجزة عن دنس ولا أخلاقية المسرح الانكليزي » (Short View of the Profaneness and Immorality of the English Stage) ١٦٩٨ فقد حقق غرضه الى حد ما في جعله المسرحيات اكثر احتشاما، وفضلا عن ذلك فإن عنفه أمده بتفوق على وليام كونغريف (William Congreve) والسير جون فانبروغ (Sir John Vanbrugh) وآخرين غيرهما ممن حاولوا الرد عليه .

الشعر : أدت إعادة الملك شارل الثاني الى العرش الى اعطاء حافز لكتابة شعر الاحتفال بالمناسبات . حيّت قصيدة روبرت وايلد (Robert Wild) « رحلة شمالية » (Iter Boreale) عودة الملك . وسرعان ما نزل درايدن الى الساحة بقصيدته «استرايا ديدوكس» (Astraea Redux) . وفي عام ١٦٦١ دبّج مديحاً بمناسبة التتويج ، وفي العام الذي تلا وجّه قصيدة الى كلاريندون (Clarendon)،وساعدت هذه القصائد على تأسيس استعمال المزدوجة البطولية (Heroic Couplet) (وهي عبارة عن بيتين من الشعر يتألف كل منهما من عشرة مقاطع ، وينتهيان بالقافية نفسها)كما كانت تطوراً الى الأحسن بالنسبة للقصائد التي نظمت حسب المزدوجات التي سبقتها . إلاّ أن جميع هذه المجلّدات لا تقارن في شعبيتها بقصيدة صاموئيل بتلر(Samuel Butler) الهجائية الساخرة مما هو بطولي وفخم ، وعنوانها «هوديبراس» (Hudibras) (أول جزء منها ١٦٦٣) . ولقد انجز الجزء الكبير من هذا العمل الرائع قبل عصر الاعادة بمدة طويلة . كما جلب المسرة الى جميع الملكيين ، بيد انه كان هجوماً على سخف وحذلقة البشرية بشكل عام أكثر منه حملة ضد البيورتان . ومع انه لم يكتمل فهو - ولا ريب - عمل عظيم ، وظل شائعاً حتى القرن التاسع عشر وقلده الكثيرون وبخاصة سوفت(Swift) .

تبوأ درايدن عرش العصر ، فقد كتب حوالي ٤٠ مسرحية تقريباً ، ومجموعة كبرى من الشعر ، بالاضافة الى النثر . اما قصيدته الهجائية «ماك فلكنو»(Mac Flacknoe) - التي هاجم بها توماس شادويل (Thomas Shadwell) . - فقد نشرت خفية عام ١٦٨٢ م مع انه نظمها قبل ذلك التاريخ ، وبشكل عام ، تتميز قصيدته «ابسالوم واكيتوفيل »(Absalom and Achitophel) (١٦٨١) بالفضيلة الكبرى للنقد ، وهي اعطاء كل ذي حق حقه،ولذا ظفرت بشعبية واسعة .وتبعتها قصيدة « الوسام » (The Medall) عام ١٦٨٢ وهي بدورها سياسية ،ومن ثم جاءت قصيدة «رليجيو لايسي» (Religio Laici) التي اشارت الى تطور ونشوء افكار درايدن الدينية . ومع ان الجزء الثاني من « أبسالوم واكيتوفل» قد كتبه ناحوم تيت (Nahum Tate)،الا ان حوالي ٢٠٠ بيت من القصيدة هي بلا شك من نظم درايدن . وفي عام ١٦٨٧ نشر «الغزال والنمر»(The Hind and the Panther) وهي نقاش بارع

لصالح الكاثوليكية . ومن بين أروع منجزات درايدن قصائده الغنائية من نوع «الأود» على طريقة بندار ، وقد نظمها بشعر مقفى غير منتظم . واقتبس هذا النوع عن ابراهام كاولي (Abraham Cowley)، الا انه أضفى عليه طاقة جديدة بمرثاته الغنائية الرائعة «في الذكرى الخامسة للسيدة الشابة الكاملة الصفات السيدة آن كيليغرو»، وفي قصيدتيه اللتين نظمهما للجمعية الموسيقية وهما اغنية بمناسبة «يوم القديسة سيسليا» (Saint Cicilia's Day) «١٦٨٧» ووليمة الاسكندر (Alexander's Feast) ١٦٩٧ . وفيهما يجتمع الجرس الزاهي وروعة الأخيلة مع لمسات من الفكاهة العقلية لتنتج تأثيرات فريدة في الشعر الانكليزي .

وعند حدوث ثورة عام ١٦٨٨ خسر درايدن وظائفه كشاعر للبلاط ومؤرخ ملكي . وبقوة لم يداخلها الوهن،وفي وقت متأخر من حياته،صاغ سلسلة من المؤلفات ضمت بعض المسرحيات البديعة وترجماته للشاعر الروماني فيرجيل «وقصص خرافية قديمة وحديثة» (Fables Ancient and Modern) وشملت هذه الأعمال بعض أنضج مؤلفاته بما فيها ثلاث قصص شعرية اقتبسها عن الكاتب الايطالي بوكاتشيو من القرن الرابع عشر ، وكانت مثار اعجاب اللورد بايرون (Lord Byron) وجون كيتس (John Keats) . وجاء تحالفه مع الناشر وجامع المؤلفات الشعرية جيكوب تونسون (Jacob Tonson) حادثة أدبية ذات أهمية . وكانت ترجمته لفرجيل التي نشرها تونسون عام ١٦٩٧ اول مغامرة نشر على مقياس واسع في انكلترا، وربما كانت اول عملية تجلب الربح الوفير للمؤلف .

واستمر شعراء مخضرمون (من حكم الملك شارل الأول) امثال ابراهام كاولي والسير جون دنام (Sir John Denham) وادموند والر (Edmund Waller) في انتاج شعر حسن . وكان الأكثر تمثيلاً لعصر عودة الملكية ما جادت به قرائح مجموعة شعراء البلاط الفكهين امثال روتشستر والسير تشارلز سدلي (Sir Charles Sidley) وتشارلز سكفيل (Charles Sackville) والسير جورج إثرج (Sir George Etherge) وقد نظم الثلاثة الأخيرون شعراً خفيفاً رائعاً ، وبهذا كانوا استمراراً للتقليد البلاطي الذي ضم كارو (Carew) وسكلينغ (Suckling) كما تراقص في قوافيهم نغم القصيدة

الشعبية من نوع «البالاد» التي كانت تغنى في الشوارع . وكان روتشستر كبير هذه المجموعة، اذ تميزت افضل اناشيده بشعورها الجارف وبنقاء شكلها الموسيقي . اما قصائده الهجائية فمن أفضل ما كتب في عصره ، اذ امتدت من التعليقات السياسية المدمرة لقصيدته «تاريخ المُمِلون » (The history of Insipids) (١٦٧٦) الى هجومه العنيف على التفاؤل السطحي في تحفته الشعرية « هجاء ضد الانسانية »(A Satyr Againt Mankind) ١٦٧٥ . والذي لا مرية فيه، أن هذه المؤلفات كتبت قبل أن ينشر درايدن قصائده الهجائية، وعلى ذلك فانه ولا خلاف مدين بالكثير لروتشستر.

المسرحية :

تذكر فترة عصر عودة الملكية بمسرحياتها الكثيرة بشكل رئيسي، فقد شملهـا الملك ودوق يورك بحمايتهما وتشجيعهما المسرحية؛ وأعادا تأسيس المسرح اللندني الذي أغلق عام ١٦٤٢ . إذ أسس مسرح «دروري لين» (Drury Lane) المعـروف باسم مسرح الملك ومسرح دورست جاردن (Dorset Garden) المعروف باسم مسرح الدوق مباشرة بعد عودة الملك.

وكان هناك قليل من المسرحيات التراجيدية الحقة ، اذ حلّت محلها مسرحيات بطولية يعالج معظمها النزاع بين الحياة الخاصة (الحب)، والواجب (القوة السياسية) وبذا كانت سلسلة الرومانسية البطولية والمأساة الفرنسية . فهي مزيج من الكلام الطنان تخالطه نصوص بديعة احياناً . واشهرها مسرحية «فتـح غرناطـة لدرايدن» (Dryden's Conquest of Granada) اخرجت عام ١٦٧٠ ـ ٧١.

ويمكن قراءة « كل شيء من اجل الحب » (All for Love) ١٦٧٧ بمتعة ، اذا تذكرنا انه لم يقصد بها أن تكون تقليداً لمسرحية شكسبير «انطـونيوس وكليوباترا» (Antony and Cleopatre) بل إعادة تنظيم لمواضيع شكسبير . وترتفع لدرجة الاجادة مسرحيتـا «زواج على الموضــة» (Mariage A La Mode) (نشرت عام ١٦٧٣) «وامفتريـون» (Amphitryon) (نشرت وأخرجــت عام ١٦٩٠). ومــن المسرحيين الآخـرين نجـد ان تومـاس اوتـوي (Thomas Otway) قد كتـب مسرحيات جيدة الحبكة ، ومن اروعها «انقاذ مدينة البندقية» (Venice Preserved) ـ (اخرجت عام

١٦٨٢) التي اتصفت لغتهـا بالعـاطفية وشخصياتهـا بالجـرأةفي التصـوير، فهي، والحالة هذه، ميلودراما سياسية تعالج مواضيع الساعة. أما الملهـاة الحقيقية فبدأت بالسير جورج إثريج (Sie George Ethererge) الذي صوّر في مسرحيته رجل حسب الطراز (The Man Of Mode) مرح العالم الذي عرفه ووقاحته. وكان ويليام ويتشرلي (William Wycherley) كاتب هزليات ذا هدف جدي اذ تتصف مسرحيته «الزوجة الريفية» (Country-Wife) (نشرت عام ١٦٧٥) بالعنف الجارف بينما نجد ان مسرحية «المتعامل البسيط» (The Plain-Dealer) ١٦٧٧ ليست سوى نقل ماهر لمسرحية موليير (Molière) كاره البشر (Misanthrope). اما ويتشرلي فيكتسح كل شيء أمامه بروح من اللامبالاة والمرح، وبنظرة نقدية تعكس بكل عناية الشك في الانسان. وقد كتب مسرحياتـه بنثـر ممتـاز ولـم يصـل القمـة الا وليام كونغـريف (William Congreve)، ولو كانت حبكاته مترابطة لكان احد اعظم كتاب المسرحية في العالم، فحواره في مسرحية «الحب من اجل الحب» (Love For Love) (اخرجت عام ١٦٩٥) «وهذه هي الدنيا» (The Way of the World) (١٧٠٠م) غاية في الروعة لما تخللهما من فكاهة عقلية لم يبزه فيهما أي كاتب آخر. ومسرحيتا السير جون فانبروغ (Sir John Vanbrugh) «الزوجـة المستفـزة» (The Provoked Wife) والنكسـة (The Relapse) (نشرت كلتاهما عام ١٦٩٧). ومع انه أقل أناقة وعصرية من كونغريف فقد زخرت مسرحياتـه بالحيوية وروح النكتـة. وكانـت هزليات تومـاس شادول (Thomas Shadwell) الخشنة العنيفة حلقة بين فن بن جونسون والرواية الواقعية لعصر هنري فيلدنج (Henry Fielding).

الادب الاسكتلندي :

تطبعت الكتابة الاسكتلندية بالانكليزية بازدياد متدرج بعد اتحاد العرشـين وانتقال البلاط الى لندن. ومع أن جيمس السادس أظهر مقدرته على نظم قصيدة غنائية بالاسكتلندية الا ان الشعراء الجدد نظموا، بشكل مطلق تقريباً ـ بالانكليزية، وكان أفضلهم لغةً وليام دراموند (William Drummond) لكن تنقص قصائده الغنائية الجزالة والزخم. اما الشعر باللغة الدارجة فظل حياً في الأغاني الشعبية والقصائد

الغنائية البطولية القصيرة من نوع «البالاد» كما هي الحال بالنسبة لقصيدة روبرت سمبل (Robert Sempill) «حياة وموت شمشون السعيد».

وكان هذا التقليد ـ سواء أكان مظلماً ومأساويا كما هي الحال بالنسبة للقصيدة الغنائية القديمة من نوع «البالاد» ام مسلياً كما هي الحال في قصيدة «شمشون السعيد» نابعاً من القلب أكثر منه من العقل ، وفقدان الصفة العقلية والنقدية كان ولا يزال نقطة الضعف التي انتابت الشعر الاسكتلندي اللاحق .

وفي الكتابات اللاهوتية لجون ايرلاند (Johon Ireland) (حوالي ١٣٤٥ ـ ١٥٠٠) ظهر اول نثر ادبي اصيل ، وإن لم يكن قد تطور بعد الى التنوع او المرونة في التركيب . وفي اوائل القرن السادس عشر قامت محاولة لكتابة نثر اقل لاتينية في نسخة ميردوك نزيت (Murdock Nisbet) من «العهد الجديد» لوكليف (Wycliffe) ولكن تلك اللغة، جنوبية اكثر مما يجب لتكون ناجحة من ناحية المصطلحات . ويظهر كذلك بعض الأثر الانكليزي في الكتابات التاريخية لجون بلندن (John Bellenden) وجون لسلي (John Leslie) وروبرت ليندسي (Robert Lindesay) من بتسكوتي (Pitscothie) من القرن السادس عشر. ويتجلى هذا الأثر واضحاً في كتابات اشخاص مثل قائد الاصلاح الديني الاسكتلندي جون نوكس (John Knox) في مؤلفه « تاريخ الاصلاح الديني ضمن مملكة اسكتلندا» ١٥٨٦ . وبكل الأحوال ، كان هؤلاء الكتاب متمكنين من القصة ، كما كان لبتسكوتي ونوكس موهبة الاسلوب . واتصف كتاب «تاريخ حياة جيمس ملفيل (James Melvill) بقلمه» بالوضوح نفسه الذي اتسم به كتاب نوكس، وغطى هذا الكتاب الشطر الثاني من القرن السادس عشر. اما كتاب «تذمر اسكتلندا» (Complaynt Of Scotlande) ١٥٤٨ ـ ٤٩ الرائع والمجهول المؤلف فممتع ومهم لكونه من تأليف وطني اسكتلندي واسع الاطلاع ،ولأنه اول عمل لمجرب اسكتلندي كتب نثراً. وتظهر الحاجة لوصول المؤلفات الى القارىء الانكليزي في كتابات جيمس السادس ، فقد كتبت مخطوطته «باسيليكون دورون» (Basilikon Doron) بالاسكتلندية، لكنها نشرت عام ١٥٩٩ مترجمة الى الانكليزية . اما مؤلف وليام دراموند (William Drummond) «أيكة السرو» (Cypresse Grove) ١٦٢٣ فقد كتب بانكليزية متزنة مصقولة . ولم يكتب الكثير من النثر الاسكتلندي بعد هذا التاريخ.

ويمكن رؤ ية التفسير العام لهذا الاتجاه نحو الانكليزية في قول السير توماس اركوهارت (Sir Thomas Urquhart) . «لقد تكلم اكثر الناس حرية الاسكتلندية ـ هذا اذا تكلموا غيرها»، وقد تبدت ترجمته لفرانسوا رابليه ومؤلفاته الاخرى ذات الاصالة غير العادية عن تنميق في الصياغة كان يمكنه ان يشقق قوالب الاسكتلندية، كما شقق قوالب الانكليزية.

الادب الانكلو ـ ايرلندي :

كانت الايرلندية حتى القرن السابع عشر لغة ايرلندا . اما الانكليز ـ الايرلنديون فكانوا مستعمرة صغيرة ، وبالتحديد حامية في موقع متقدم خطير ، وكانوا مضطرين دوماً للتخلي عن مواقعهم اللغوية والاقليمية شيئاً فشيئاً للثائرين الغيليين (Gael) . وحتى بين هؤلاء المستعمرين كان على الانكليزية ان تناضل من اجل التفوق ضد الفرنسية واللاتينية . وقد وصلتنا مخطوطات قليلة تكشف عن وجود الشعر باللغة الدارجة الذي خلا من كل اصالة أو تمييز. وأبرز مثل على ذلك قصيدة هجائية من القرن الثالث عشر عنوانها «ارض كوكين» (Land of Cockaygne) .

وكان ريتشارد ستانيهرست (Richard Stanyhurst) اول كاتب ايرلندي بارز كتب بالانكليزية، وقد ساهم بفصول عن ايرلندا في كتاب هولنشد (Holinshed) «سجلات تاريخية» (Chronicles) ١٥٧٧ .

كما حاول أن ينظم شعراً إنكليزياً حسب الأنماط اللاتينية . وعندما نمت المستعمرة وحاول الانكليز فتح جميع البلاد ، ازدادت الكتابة الانكلو ـ ايرلندية ، وبدأت تظهر أسماء غيلية بالاضافة الى الأسماء الانكليزية . وفي القرن الذي تلا برزت أسماء مثل السير جون دنهام (Sir Jhon Denham) مؤلف كتاب « تل كوبر » (Cooper's Hill) المدعاة للاعجاب (١٦٤٢) واللورد روزكومون (Lord Rosecommon) وناحوم تيت (Nahom Tate) ونيقولاس برادي (Nicholas Brady)

أحد الشعراء الثانويين . ومن بين المؤ رخين الثانويين يبرز السير جون تمبل (Sir
John Temple) (١٦٠٠ ـ ٧٧) لكن لم يلمع حتى ذلك الوقت أي اسم رئيسي .

الفَصل الثّاني

الأدب الكلتي في القرن السّابع عَشر

الأدب في ويلز :

النثر : لقد اكتفى كتاب النثر الويلزيون بالترجمة حتى أنتج مورغان لويد كتبه (Morgan Liwyd) الدينية ، فقدم للفكر الديني الويلزي مساهمة أصيلة ككاتب بيزريتاني ، وبخاصة في « كتاب الطيور الثلاثة » (Llyfr Triaderyn) وهو بحث في نظرية الحكومة والحرية الدينية ، وكتاب « رسالة الى الويلزيين الأعزاء » (Llythur Ir Cymru Cariadus) (حوالي ١٦٥٣) وفيه فسرّ غموض الانجيل .

وخلال هذه الفترة وحتى القرن التاسع عشر تتابعت ترجمات عديدة لأعمال جلها لاهوتية أوحت بها جمعية ترقية المعرفة المسيحية . وكان ادوارد صاموئيل (Edward Samuel) في عداد رجال الدين الذين أنتجوا هذه المؤلفات بالاضافة الى بحاثين في المخطوطات هم موزس وليامز(Moses Williams) وجرفيت جونز(Griffith Jones) مؤسس التعليم الويلزي الشعبي ، وثيوفيلوس ايفانز(Theophilus Evans) مؤلف كتاب « درك ي بريف أوزود » (Drych y Prif Oesoedd) الذي يصنف ككتاب كلاسيكي في سجلات الأدب الويلزي ، شأنه شأن « كتاب الطيور الثلاثة » . أما أليس وين أو لاينز (Ellis Wynns O Lasynys) فغالباً ما يعتبر أعظم كتاب النثر الويلزيين ، وأهم مؤلفين له هما « رول بكد سانكتاد » (Rheol Buchedd Santaidd) ، وهو ترجمة لكتاب جرمي تيلور « قواعد وتمارين الحياة المقدسة » وكتاب « كولديكاثو اي بارد كويس » (Gweledigaetheu Y Bardd Cwsc) وهو تكييف لترجمة سوينوس (Suenos) للشاعر الاسباني كوفيدو (Quevudo) .

الشعر : عندما اعتلى هنري السابع العرش استدا النبلاء الويلزيون نحو انكلترا بغية الاعتراف بهم وسعياً للرعاية، وهكذا ضعف اهتمامهم ببلدهم . وسرعان ما فقد شعراء المدرسة القديمة مستعمعيهم، إذ لم يبقَ هناك من محافظ على التقليد القديم سوى المزارعين الأغنياء. ولكن مدرسة جديدة كانت في طور النشوء، استطاعت أن تحرز رصيداً كبيراً من الأغاني الشعبية التي احتقرت سابقاً ولم تسجل، وضمتها الى تقليد للشعر الانكليزي الشعبي المعاصر ، وللقصائد الغنائية الأكثر تطوراً . وأول علامة بارزة لهذا التطور الجديد تجلت بنشر نسخة ادموند بريس (Edmund Prys) الشعرية للمزامير ومؤلف ريز برتشارد (Rys Prichard) « مصباح الرجل الويزيلي » (Canwyll y Cymry) (١٦٥٩ - ٧٢) . وكتبت هذه القصائد حسب البحور الحرة . مثل تلك التي كتبت بالشعر الانكليزي وليس حسب البحور المتشددة التي يتصف بها شعر ويلز . وتعتبر المزامير الشعرية ذات أهمية خاصة ، نظراً لأنها أول ترانيم شعرية . أما مؤلف برتشارد فيتألف من أشعار اخلاقية نظمت حسب بحور الأغاني الشعبية القديمة . ونظم شعراء كثيرون آخرون حسب هذه الأوزان ، إلا أن شعرهم إجمالاً كان خشناً بدائياً ، حتى استعمل هذه الأوزان أعظم شاعر في هذه الفترة وهو هيو موروس (Huw Morus) الذي اشتهر خاصة بسبب قصائده الغزلية . وبعد ذلك جاء لوريس موريس (Leuris Morris) ملهم وراعي كورونوي اوين (Coronwy Owen) وحلقة الوصل الوثيقة بالفترة التالية التي أسسها كورونوي أوين ، وقُدِّر لها أن تكون إحدى أكثر الفترات انتاجاً للشعر الويلزي .

الأدب البريتاني :

تشير مجموعة شعرية من القرن السابع عشر وعنوانها « كانتيك بروتيونز (Cantiques Bretons) (١٦٤٢) الى عدد من ألحان بريتانية . أما جميع المؤلفات المتبقية التي تعود الى العهد الوسيط (من القرن الحادي عشر الى القرن السابع عشر) فهي غالباً دينية في قالب شعري ولربما كانت أهم انتاج الفترة ثلاث من المسرحيات الطقوسية (ميستري) ، وهي حياة « القديس نون » (Nonn)

« ومسرحية يسوع الكبرى » و « حياة القديسة باربرا » . ولربما كانت ثلاث قصائد طويلة عنوانها « مرور السيدة العذراء » و « حياة الانسان » و « أفراح ماري الخمسة عشر » ذات أصول فرنسية . وترجع الى هذه الفترة مؤلفات مثل نص نثري من كتاب قداس ليون (Leon) وتعليم عقائدي بطريقة السؤال والجواب حول المسيحية في صيغة نثرية ، وكتاب توزيع ساعات النهار شعراً . كما ترجع اليها « حياة القديسة كاترين : عذراء وشهيرة » المكتوبة نثراً . أما « مرآة الاعتراف» و«عقيدة مسيحي» فقد ترجمت من الفرنسية . كما ظهرت مجموعة من اغاني عيد الميلاد عام ١٦٥٠ وكتاب « تأملات » شعري عام ١٦٥١ . وبشكل عام كانت الأصالة تنقص الأدب البريتاني الوسيط ، ويبدو أن ثقافة بريتاني الفطرية والطبيعية قد أهملتها تماماً الطبقات المثقفة التي أدخلت كثيراً من الكلمات الفرنسية الى المؤلفات الدينية العديدة التي نشرت .

الغيلية الاسكتلندية : (Scottish Gaelic)

كان القرن السابع عشر فترة اهتمام بالغ باسكتلندا الغيلية ، إذ كانت البنى السياسية والاكليريكية والاجتماعية في اسكتلندا آخذة بالتغير تدريجياً ، كما تبدلت العلاقة بين الحكومة المركزية والمنطقة الغيلية . وقد وصلنا من الشعر الغيلي ما يكفي للدلالة على جمع غفير من الشعراء الموهوبين كما يبدو أن المواهب كانت منتشرة بصورة لا تضارعها أية فترة أخرى في التاريخ الغيلي الاسكتلندي . كان هذا عصراً عظيماً لأغاني العمل ولموسيقى القُرب الكلاسيكية . إن بعض الشعر والنثر جاء في ثلاث مخطوطات من القرن السابع عشر ، الاثنتان الأوليان منها هما « الكتب السوداء » و « الكتب الحمراء لكلانرانالد »(Black and Redbooksof Clanranald) كتبهما أفراد من أسرة ماكمرتيش (Macmhuirich) الذين كانوا الى عهد قريب الشعراء الشعبيين بالوراثة لعائلة ماكدونالد أوف كلانرونالد (Macdonalds of Clanranald) ولربما كتبت هاتان المخطوطتان بمعظمها في القرن السابع عشر ، لكنها احتوتا على قصائد نظمها شعراء يتحدرون من العائلة ذاتها في وقت أبكر . أما الوثيقة الثالثة الهامة فمخطوطة « فيرنيج » (Fernaig) التي جمعت بين عامي ١٦٨٨ - ١٦٩٣ وضمت حوالي ٤٢٠٠ بيت من الشعر معظمها سياسي وديني . وقد عاش

الشعراء الذين ضمت هذه المخطوطة قصائدهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مع أن القليل من مؤلفات الشعراء الرئيسيين في القرن السابع عشر قد ذكر.

وأشهر شاعرين من القرن السابع عشر هما ماري ماكلويد (Marry Macleod) وإيان لوم (Iain Lom). وعرفت الأولى باسم ماري نيكيان السدير رواض (Mairi Nighean Alasdair Ruaidh) وترتبط ارتباطاً وثيقاً بعائلتي ماكلويد أوف هارس ودنفيكيان، وتتسم قصائدها بعمق العاطفة الذاتية وحيوية الأسلوب، فقد ورثت أخيلة الشعراء الباردين لكنها وضعتها في خلفية جديدة، اعتمدت بحورها الأوزان «الستروفيه» (Strophic) الحديثة نسبياً (ذات الأنماط المكررة من الأبيات) أكثر من أوزان الشعراء الكلاسيكيين الشعبيين ذات العدد الدقيق من المقاطع. وانغمر جون ماكدونالد (Jhon Macdonald) الذي عرف باسم إيان لوم بنشاط في حوادث عصره، إذ وقعت في حياته أحداث عظام في تاريخ المرتفعات الاسكتلندية، فانعكست في شعره. فقد نظم قصائد حول معارك انفرلوخي (Inverlochy) وكيليكرانكي (Killiecrankie)، وندباً للماركيز اوف مونتروز، وقصيدة حول إعادة الملك شارل الثاني الى عرشه عام ١٦٦٠ م، وعدة قصائد تتعلق باغتيال كيبيوك لعام ١٦٦٣، وأغنية تعارض معارضة مريرة وحدة البرلمان عام ١٧٠٧. وكان مجال اهتماماته بالقضايا القومية واسعاً وبارزاً. أما شعره فأقل عذوبة من شعر ماري ماكلويد، إلا أنه تميز بكثافة تعابيره وتركيزها، وهي ناحية افتقر اليها الكثير من الشعر الغيلي اللاحق. وقد وصلتنا مجموعة بارزة من الشعر البردي نظمها كاثال ماكميرك (Cathal MacMhuirich).

ومن شعراء القرن السابع عشر الذين وصلتنا أضاميم ممتعة من شعرهم نذكر دونكاد مكرورد (Donnchadh MacRoi Ridh) الذي اشتهر برباعياته الهادئة الراضية بالقدر والتي قرضها يوم وفاته. أما مؤلفات الاسدير ماكنزي (Alsadair Mackenzie) وميردوك ماكنزي (Murdock Mackenzie) فقد مثلت في مخطوطة «فيرناغ». كما أصبح رودريك موريسون (Roderick Morisor) المعروف بعازف القيثارة الأعمى، موسيقياً لايان بريك ماكلويد أوف ونفيغان. ولم يصلنا من مؤلفاته سوى القليل، لكنه رائع بما اتسم به من قوة النسخ والزخم الشعري.

وبخاصة بقصيدتيه: أوران مور ويكلويد (Oran Mor Micleoid) وكرتييش ناسيدان (Creach Nachidain)

أمـا دورثـي براون (Dorothy Brown) وسيليس ناسياباـخ (Silis Na Ceapaich) فكانتا شاعرتين موهوبتين . فقصيدة الأولى عن الاسدير ماك كولا ، ومرثية سيليس للاكلان ماك كينون ولألسدير اوف كلنغري، مؤثرة النبرة، صيغت بقالب فني بديع .

وثمة أربعة من الشعراء يشغلون مرحلة الانتقال من شعر القرن السابع عشر الى شعر الثامن عشر هم لاكلان ماك كينون (Lachlan Mackinnon) ، وجون ماكي (John Mackay) ، وجـون ماكدونالـد (John Macdonald) ، وجـون ماكلـين (John Maclean) وجميعهم ولدوا في حوالي الفترة ١٦٥٥ - ٦٥ . يفتقر الكثير من شعرهم الى التركيز الذي اتصف به قريض القرن السابع عشر وغنـاه بالأخيلة . فقصيدة جون ماكدونالد المسماة « أورام نام فنيكان (Oran Nam Fineachan) على ضعفها ليست أسوأ القصائد المملة التي كانت تقال في مدح العشائر الاسكتلندية التي شاعت في القرن الثامن عشر . وبالغ جون مكلين بالاهتمام بالأسطورة الغيلية القديمة ، كما نظم شعراً ممتعاً ومسلياً بأسلوب متهكم أكثر مما هو بطولي . كما كانت قصيدة جون ماكي « كوار أن إيسا » (Coire An Easa) بارزة في تطور شعر الطبيعة الغيلي . وأخيراً يمكن القول بأن الشعر البردي ظل ينظم حتى القرن الثامن عشر على يدي فرد ين من أسرة ماك ميريك (Mac Mhuirich) هما نيال (Niall) ودمنـول (Domhnall) .

الأدب الايرلندي :

نجحت السياسة البريطانية خلال حكم الملكة أليزابيث الأولى في كسر شوكة النبلاء الايرلندينن والانكلو ايرلنـديين ، وتمـت العملية نهـائياً في حوالي منتصف القرن السابع عشر . وقد آل طرد هؤلاء النبلاء إلى اختفاء كثير من الشعراء الذين

اعتمدوا عليهم وكانوا دعاة لهم . ولما كانت أعين هؤلاء الشعراء مركزة على الماضي لذا لم يهتموا بالنهضة العلمية ، وبزوالهم زالت التقاليد القديمة . ومن هذه الفترة بدأت اللغة الايرلندية تنحسر من مركزها كلغة البلاد العامة.

الشعر : قلما كتب أي شعر « باردي » صحيح في إيرلندا بعد عام ١٦٥٠ ، ولكن طبقة جديدة من الشعراء الجدد استلمت اكليل الشعر من الشعراء الشعبيين من نوع « البارد » استلمه هؤلاء من « الفيليد »وهم أول شعراء محترفين قبل٥٠٠ عام. وكما أن الأوزان التي نظم عليها الشعراء البارديون كانت في طور الاعداد لقرون عديدة قبل أن أصبحت أوزاناً رسمية ، كذلك كانت البحور الغنائية التي حلت محلها موجودة لقرون عدة بين الناس . وهجر الشعراء الجدد الأوزان التي اعتمدت عدد المقاطع والنبرات الثابتة واستبدلوها بحروف صوتية منبرة ذات سجع يعتمد على الحروف الصوتية حسب أنماط معينة يمكن أن تكون بسيطة جداً أو معقدة جداً . كما أن لغة الشعر اقتربت من لغة الشعب . ورغم أن مؤلفاتهم لم تطبع فإن وفرة الورق جعلت بالامكان تعميمها مع دعم بسيط من رعاة الأدب. واتسم هذا الشعر في القرن السابع عشر بطابع تحدٍّ عاطفي للعهد الجديد ، ويظهر فيه أول تعبير مترابط للوطنية التي فهمت كتكريس لمثل عليا معنوية أكثر منها ولاء لفرد من الأفراد ، ولكن الكثير من هذا الشعر لا يعدو أن يكون مجرد حنين الى الماضي .

وتلقى دابهيد أو برودير (Daibhidh O Bruadair) ـ أعظم شاعر لأوزان الأغنية ـ بعض دعم رعاة الأدب . ذلك الشاعر الذي تجسمت طاقته الحقيقية بفَنَّيْ الشعر الهجائي والرعوي ، والذي ظل بارزاً بنظم القريض ، وبموته حفظ التقليد الشعري بين العامة فقط ، ونافح عنه الشعراء الريفيون حتى نهاية القرن الثامن عشر .

النثر : اتصف القرن السابع عشر بغزارة الانتاج النثري ، وكان بشكل رئيسي ذا طابع اثري لا يقدر اليوم بقيمة ، لأن الكتاب اعتمدوا مصادر عفى عليها الضياع . وأهم هذه المؤلفات « المسجلات التاريخية للأسياد الأربعة » (The Annals of thr Four Masters) وهي تجميع لكل ما توفر عن تاريخ ايرلندا حتى عام ١٦١٦ . وأشرف على هذا العمل مايكل أو كليري (Michael O'clery) . كما

كتب جفري كتينغ (Geoffrey Keating) أول مؤلَفٍ تاريخي بلغة سهلة فخمة تعتمد اللغة الباردية سماه « أسس المعرفة الايرلندية » (Foras Feasarar Eirinn) ونظم كذلك بعض الشعر البديع بأوزان قديمة وجديدة بالاضافة الى مقالين روحيين .

ويعتبر الكتاب النقدي « برلمان عشيرة توماس » (Paieliment Chloinne Tomas) تطوراً ممتعاً في الأسلوب النثري. ويبدو ان مؤلفه هو أحد الشعراء البارديين، لأنه هاجم الطبقة الجديدة الحاكمة، والفلاحين المحليين بنفس الوحشية، وهو يشبه بأسلوبه الى حد بعيد أسلوب الكروزنخت (Crosanacht) القديم ، ولكن بغلبة النثر على الشعر. وقد حاك على منواله عدة مقلدين لكن التقليد القديم كان أوهن من أن يدعم مثل هذا الموقف الارستقراطي. وتمتع النثر الخيالي بشعبية أوسع واستمد معينه من تطورات للموضوعات الفينية (Fenian) أو من رومانسيات امتزجت فيها مواضيع الأدب الايرلندي والأجنبي الوسيط بالفولكلور وعناصر من القصة الشعرية القصيرة. وكان لهذه الرومانسيات ، شأنها شأن الأوزان الغنائية ، تقاليد راسخة قبل أن تظهر مكتوبة. ومع ذلك شرع الجمهور يفقد اهتمامه بها، لأن فهمه للايرلندية كان دون المستوى، وهكذا لم يبقَ سوى أمل حقيقي ضئيل للانتاج النثري.

الفَصْل الثّالث

الأدَب الأمريكي في القرن السّابع عَشَر

طبيعي أن يكون الأدب الأمريكي بادىء ذي بدء أدباً استعمارياً كتبه مؤلفون انكليز كان تفكيرهم وكتابتهم انكليزية الطابع . ويعزى الى جون سميث (John Smith) فضل تأسيس الأدب الأمريكي . وقد شملت مؤلفاته الرئيسية الكتب التالية : «أنباء صادقة عن فرجينيا» والتاريخ العام لفرجينيا ونيوانكلند وجزر الصيف (The General historie of Virgenia and the Summer Isles New England) ١٦٢٤ ، ومع أن هذه المؤلفات غالباً ما مجدت مؤلفها إلا أنها كتبت لتشرح فرص الاستعمار ـ للانكليز ، وذلك باعتراف المؤلف نفسه . ومع الزمن وصفت كل مستعمرة من المستعمرات بنفس الأسلوب والطريقة . ولم يكن مؤلف دانيال دانتون (Daniel Denton) «وصف مختصر لنيويورك» ١٦٧٠ وكتاب وليم بن (William Peen) «وصف موجز لمقاطعة بنسلفانيا» ١٦٨٢ ، وكتاب توماس آش (Thomas Ashe) «كارولينا» ١٦٨٢ سوى نماذج من كثير من المؤلفات التي امتدحت أمريكا على انها ارض الميعاد اقتصادياً للمستعمرين البريطانيين .

واعترف أمثال هؤلاء الكتاب بالولاء لبريطانيا ، الا أن آخرين غيرهم اكدوا على الخلاف في الرأي الذي حدا بالمستعمرين الى أن يتركوا بلادهم ووطنهم . والأهم من هذا انهم ناقشوا قضايا حكومية بما فيها العلاقة بين الدولة والكنيسة. وقد عرض ناثانيال وورد أوف ماساشوستس (Nathaniel Ward of Massachusetts) بمرح الموقف الذي هاجمه معظم المؤلفين في كتابه «الاسكافي البسيط من أوغاوام في امريكا» (١٦٤٧). ودافع وورد في هذا الكتاب بشكل ممتع عن الوضع الراهن

وسخر من المستعمرين الذين تبنوا أفكاراً جديدة . إلاّ انه نُشر جدلٌ متنوع مضاد لمثل وجهة النظر هذه، وتحدث مؤلف جون ونثورب (John Winthrop) في كتابه «يوميات» (Journal) (كتب ١٦٣٠ ـ ٤٩) بكل تعاطف عن محاولة مستعمرة خليج ماساتشوستس لتشكيل حكومة دينية (ثيوقراطية) رأسها الله وقانونها الانجيل . ومن المدافعين عن المثل الثيوقراطية اللاحقين يمكننا ذكر إنكريس ماذر (Increase Mather) وابنه كوتون (Cotton) . كما يظهر كتاب وليام برادفور (William Bradford) «تاريخ مستوطنة بليموث» عام ١٦٤٦ كيف انفصل الحجاج تماماً عن الكنيسة الانجليكانية . وكان روجر وليامز (Roper Williams) أكثر راديكالية اذ دافع في سلسلة المنشورات الجدلية ليس فقط عن فصل الكنيسة عن الدولة، بل عن وضع السلطة في أيدي الشعب، وعن التسامح مع العقائد الدينية الأخرى.

تضمنت الكتابات النفعية في القرن السابع عشر انواعاً عديدة مثل السير والمقالات ووصف للرحلات والمواعظ . ونادرة هي المنجزات في المسرحية أو الرواية نظراً لوجود تعصب شامل ضدهما ، على عكس المنجزات في مجال الشعر فهي أكبر . لقد نظم شعر سيء ، وإن كان شعبياً ونشر في كتاب « مزامير الخليج » (Bay Psalm Book) لعام ١٦٤٠ ، وفي موجز مايكل ويغلز وورث (Michael Wiggles Worth) في العقيدة الكلفينية المسمى «يوم القدر» (١٦٦٢) (The Day of Doom) (والمنظوم شعراً من نوع «الدوغريل». إلا أنه كان هناك بعض الشعر من نوع أفضل إذ كتبت آن برادستريت (Anne Bradstreet) من ماساتشوستس بعض القصائد الغنائية التي نشرتها في « عروسة الشعر العاشرة » (The Tenth Muse) (١٦٥٠) والتي عبرت بشكل مؤثر عن شعورها بشأن الدين وعائلتها . وهناك شاعر آخر ـ يعده النقاد الحديثون أرفع منزلة من آن ، ولكن شعره لم يكتشف وينشر قبل عام ١٩٣٩ ـ هو أدوارد تيلور (Edward Taylor) رجل الدين والطبيب المولود في انكلترا ، والذي عاش في بوستون ووستفيلد ، ماساتشوستس . ولما كان تيلور أقل تشاؤماً من البيورتاني العادي فقد نظم قصائد غنائية أظهرت سروره بالعقيدة والتجربة المسيحيتين .

كانت جميع الكتابات الأمريكية في القرن السابع عشر حسب الطريقة البريطانية لنفس الفترة . اذ كتب جون سميث حسب تقاليد الأدب الجغرافي ، كما ردد برادفورد صدى جرس الكتاب المقدس للملك جيمس ، بينما كتب ماذر وروجر وليامز نثراً مرصعاً حسب الطراز السائد آنئذٍ . أما أسلوب آن براد سترتيت الشعري فيأخذ من عدد كبير من الشعراء الانكليز بمن فيهم سبنسر وسيدني ، بينما كتب تيلور حسب تقاليد الشعراء الميتافيزيقين أمثال جورج هربرت وجون دون . وهكذا كان أدب هذا القرن الأول من الأدب الأمريكي انكليزياً شكلاً ومضموناً .

الفَصْل الرّابع

الأدَب الفرنسي في القرن السّابع عَشر

لا يزال الكثير من القراء يعتبرون القرن السابع عشر الفترة المركزية والقمة في الأدب الفرنسي . الا أن محاولة اعطائها صفاتها المميزة أو تمييز حركاتها الرئيسية وحدودها مسألة معقدة ومركبة . ومن الممكن اعتبار موت ملك عظيم هو هنري الرابع عام ١٦١٠ وموت ملك عظيم آخر هو لويس الرابع عشر عام ١٧١٥ نقطتين ملائمتين لبداية ونهاية الفترة (مع أن الفترة بعد عام ١٦٨٥ ، وهي تاريخ الغاء مرسوم نانت (Edict of Nantes) يمكن اعتبارها فترة انتقال الى القرن الثامن عشر) رغم انه لم يكن للملوك أية تأثيرات حاسمة في الأدب الخلاق ، أو حتى في نوع المجتمع الذي عاش فيه الكتاب ، فالتشجيع الملكي ليس سوى تأثير واحد من بين تأثيرات أخرى عديدة . والأهم من هذا التشجيع كان انتشار الرخاء الاقتصادي والفراغ لدى الطبقة المتوسطة الصاعدة ، وتفشّي عادة القراءة ، وفوق كل هذا عدم وجود حرب أهلية أو أجنبية طويلة الأمد .

النصف الأول من القرن :

الشعر والنثر : لم يكن المجتمع الفرنسي في القرن السابع عشر توصل حقاً الى الاستقرار، فقد كان مفعماً بالحيوية وعدم الانتظام، كما كان يتميز بكثرة الوفيات والعنف . وما الصقل والأناقة اللذان اتصف بهما الشعر والرواية سوى هروب من الفوضى ، وانعكاس للرغبة في الاستقرار في عالم متغير . وينطبق هذا القول خاصة على السنوات الأولى من القرن ، إذ انعكس انتهاء الحروب الأهلية فعلياً عام ١٥٩٨ ، كما انعكست العودة الى الأوضاع السلمية بظهور مجموعات شعرية

كانت القصائد فيها محددة بعناية ورصينة . وتجسد هذا الاتجاه في فرد هو فرنسوا دو ماليرب (François De Malherbe) الذي عمل في باريس منذ العام ١٦٠٥، وتمتع بالدعم الملكي، واستحسن شعره باستمرار. واغتبط نيكولا بوالو (Nicolas Boileau) بأنه ظهر في النهاية شاعر فرنسي أرضى الذوق الحديث للشعر المنتظم المنساب الناعم . وهذه صورة عادلة لما اعتقده الفرنسيون في القرن السابع عشر أن ماليرب (Malherbe) قد أنجزه . وبالاضافة الى مقلدي هذا الشاعر وتلاميذه أنجب الجيل الذي ولد حوالي عام ١٥٩٠ عدداً من الشعراء المتميزين الذين مالوا نحو الفكر الحر . فهناك شاعر الطبيعة تيوفيل دوفيو (Theophile Deviau) . وهناك المسرحي والوكيل الأدبي لِـ رشيليو(Richelieu) واسمه فرانسوا دوبرا سروبر (François De Boisrobert) ، وجيرارد سانت أمان (Girrard De Saint - Amant) الذي اشتهر في عصره بملحمته التوراتية Moïse) Sauve) «انقاذ موسى» . واستمر هذا الأخير في الكتابة خلال الثلاثينات من القرن السابع عشر عندما كان اكثر الكتّاب شهرة هو فانسان فواتير Vincent) Voiture) الشاعر الاجتماعي وكوكب صالون قصر رامبوييه الشهيرHôtel De) Rambouillet) .

كانت الدائرة التي تذوقت الشعر الجديد أضيق من تلك التي تذوقت الرواية الجديدة وخاصة عندما ظهر كاتب لامع مثل اونوريه دوأورفيه(Honoré De Uefé) الذي كانت روايته « استريه » (Astrée) أكثر من نجاح مؤقت لأن العديد من شخصياتها ظلت الشغل الشاغل لأجيال عديدة ، كما كانت شخصيات « ديكنز » أو « سكوت » للقراء من عصر الملكة فيكتوريا في انكلترا . وقد أثر مؤلفه هذا بأعداد غفيرة من المقليدين داخل فرنسا وخارجها .

الأكاديميات والصالونات : لم يقتصر النشاط الأدبي للعصر على قرض الشعر وكتابة الروايات . ففي عهد الملك لويس الثالث عشر طورت جماعات صغيرة من الناس ـ عرفت باسم الصالونات أو الجمعيات ـ تذوقاً للنقاش الأدبي ، وتنقسم هذه الجمعيات الى نوعين ، كما بيّن البحث العلمي مؤخراً . فالنمط الأول

ما هو إلاّ تطور في القرن السادس عشر لمراكز النقاش العلمي للرجال. أما النمط الثاني فجمعيات اهتمت بالمعرفة الحديثة والتجارب الجديدة. وشمل ريشليو (Richelieu) بعطفه إحدى هذه الجمعيات لتصبح الأكاديمية الفرنسية(Académie Française) .

اما الصالونات فكانت تجمعات اجتماعية وأدبية ذات طابع أعم، وهي من اختراع عصر النهضة التي لعبت دورا متذبذباً في الحياة الفرنسية حتى القرن التاسع عشر. وفي حالات كثيرة وبخاصة في حالة قصر رامبوييه(Hôtel De Rambouillet) الذي اشرفت عليه كاترين دي فيفون (Catherine De ViVonne) مركيزة رامبوييه - كان عمل الصالونات مجرد تأمين الاجتماع الودي لاشخاص من علية القوم اهتموا بالحديث والعادات.

وبالاضافة الى الشخصية المترأسة للصالون وعادة ما كانت امرأة عصرية، مثل مدام دو لوج(Mme De Loges) كانت هناك شخصية ادبية رئيسيةمثل غويز دو بلزاك بالنسبة لصالون مدام دولوج وكان بلزاك ناقداً حاذقاً واستاذا في التعبير اشتهر برسائله وبخصوماتهالادبية. والشخصية الثانية البارزة هي شخصية ناقد آخر اسمه كلود فور دو فوجلا (Claude Faure De Vaugelas) كان خبيراً في مسائل اللغة وحاز كتابه «ملاحظات حول اللغة الفرنسية» شهرة واسعة كدفاع عن الاستعمال الذكي للغة. وكان معظم هؤلاء النقاد أكثر نجاحاً مما كانوا يظنون وذلك بخلقهم مقياسا للذوق الادبي، ولجعلهم الفرنسية أداة تعبير طيعة .

كانت جميع الاكاديميات التي قامت بالبحث العلمي متأثرة أو مرتبطة بشكل ما بالفيلسوف والرياضي رونيه ديكارت (Rene Descartes) (١٩٥٦ - ١٦٥٠) الذي تغلغل أثره في القرن كله. ويبدو أن آراءه حول الدوامات والشك والأفكار الفطرية وما ادلى من براهين على وجود الله لم يتقبلها الناس بشكل واسع او لمدة طويلة، ويظهر أن نوعية عقله ومزاجه هي التي ادت الى هجوم جديد على مشاكل وقضايا قديمة، وبذا ابتدع طريقة جديدة في التفكير والنقاش. فقد وجد تصوره العلمَ كمسيطر على الطبيعة تعبيراً له في الجزء الاخير من كتابه «محاضرة في المنهج» (Discours De la Methode) ١٦٣٧ (وترجم الى الانكليزية عام ١٩٥٠) . اما أثره

في الطريقة التي فكر بها المفكرون ، فلخصها أحد اتباعه بقوله : كان النقاش قبل ديكارت أسهل بكثير ، ومن حسن حظ الأجيال السابقة انها لم تعرفه (برنارد دو فونتيل)(Bernard De Fontenelle) .

المسرح : تجلت الظاهرة الأخرى البارزة في القسم الأول من القرن في المسرح الباريسي الشهير ، ومن الصعب القول من أين أتت القوة والمهارة الجديدة . ففي عام ١٦٢٥ لم يكن هناك سوى مسرح مرخص واحد في باريس . وقد حبر كاتب مسرحي واحد موهوب واسمه الكساندر هاردي (Alexandre Hardy) حوالي ٦٠٠ مسرحية ، قدمت للنظارة والقراء خليطاً من عاطفة عصر النهضة والتشويق الدرامي . وبالتدريج تغير موقف الجمهور من المسرح، فقد غدا اداة ترفيهية للطبقات العليا، وقد نتج هذا كما نتج كغيره من العادات الاجتماعية الكثيرة بشكل جزئي عن التشجيع النشط للكاردينال روشيليو كبير وزراء لويس الثالث عشر، فظهر بذلك جيل جديد من المؤلفين كان جان ماريه(Jean Mariet) الذي ظهر في لحظة حاسمة اكثرهم انجازا. وكانت سيلفانير(Sylvanire) أخرجت عام ١٦٣٠ اول مسرحية جديدة ناجحة تستعمل العرف الايطالي المسمى الوحدات الثلاث (وحدة الزمان والمكان والحدث، وبهذا ركز العمل المسرحي ضمن حدود صارمة. واظهر كتاب مسرحيون آخرون شباب ـ وبشكل بارز بواسروبر (Boisrobert) في مسرحية «بيرلند وزيسميين» (Pyrande Et Zisimène) ١٦٣٣ ، وبيير كورني (Pierre Corneille) في مسرحية «كليتاندر» (Clitandre) ١٦٣٠ ـ ٣١ كيف يمكن للأسلوب الجديد أن يضمن المغامرات التي يريدها الجمهور. ولقي الاسلوب الجديد بعض المقاومة، لكن تجلت في النتيجة مواهب جديدة بظهور مسرحية جان دو روترو(Jean De Rotrou) «احتضار هرقل»(Gercule Mourant) ومسرحية جان مريه (Jean Mairet) «سوفونيسب»(Sophonisbe) اخرجت إما عام ١٦٣٤ أو ١٦٣٥) لذا كانت مسرحية كورني(Corneille) «السيد»(Le Cid) ١٦٣٧ جزءاً من حركة صعب تمييزها عنها بادىء الأمر.

ادى النجاح العظيم لمسرحية «السيد» والجدل الشهير المتعلق بها (عزي هذا الجدل الى حسد روشيليو، ولكن يبدو أن سببه هو غرور كورنـي) الى رؤ ية المسرحية في غير خلفيتها. فالمسرحية ليست عملاً منفرداً للكلاسيكية الفرنسية، انما هي مجرد مسرحية لامعة. والى حد ما كانت خلفيتها هي سبب عظمتها.

أمضى كورني ثلاثة أعوام في كتابة مسرحيته التـالية «هـوراس» (Horace) (١٦٤٠) وهي عمل أدبي ذو طاقة درامية كبرى. استعمل الشاعـر بكتابتهـا قصـة المؤرخ الروماني ليفي الشهيرة عن الهوراتيين(Horatii) والـكيورياتيين(Curiatii) ليعطي القوة لانشقاق مأساوي في الاسرة الواحدة بين ما هو وطني ومسالم. كما انتج ثلاث مسرحيات بديعة اخرى، وذات روعة مماثلة لهوراس، وذلك خلال سنوات قليلـة وهـي «سينـا» (Cinna) (١٦٤٠ ـ ١٦٤١) وتبحـث في التآمـر السياسي. و«بـوليوكت» (Polyeucte) (١٦٤١ ـ أو ١٦٤٢)، وهـي مأسـاة اجتماعية لشـهيد مسيحي، و«رودوكين» (Rodogune) (١٦٤٤ أو ١٦٤٥)، وهي دراسـة رصينـة للمرأة المشاكسة. وهكذا بتقديمه مجموعة المسرحيات اعتبرت خلال جيل واحد من روائع الادب، أوجد كورني بمفرده تقريباً المسرح الفرنسي الكلاسيكي. زد على ذلك ان روتروني(Rotrou) في مسرحيته «القديس جنست الحقيقي» (Saint Genest Veritable) (١٦٤٥، ١٦٤٦) قام بكتابـة مسرحية لا تقـل امتاعـاً عن بوليوكت وكيف حوَّر بلوتوس(Plautus) في مسرحية «الشهيدان» (Les Sosies)، كما حوَّر وكيَّف لوب دوفيكا(Lope De Vega) في «لور المضطهدة» (Laure Persecutee). اما «فنسسـلاس» (Venceslas) ١٦٤٧ فمأسـاة سياسية كتبهـا روتـرو عام ١٦٤٧. وهكذا نرى انه لدى وفاة روشيليو عام ١٦٤٢، بدت فرنسا ماثلة في ظل بعث ادبي كامل، فقد توفرت المواهب، وبرز جمهور جديد، وتقليد أدبي تام.

الفترة الكلاسيكية:

تشطر الحرب الاهلية المعروفة باسم «فروند» (Fronde) (١٦٤٨ ـ ٥٣) القرن شطرين اثنين زمنياً واجتماعياً، وليس هناك أي تطور واضح من الأدب الجيد لعام ١٦٤٠ الى كلاسيكية الستينات من القرن السابع عشر. فمع بقاء بعض الملامح كان

هناك تغير في الموقف. لقد تركت الحرب آثارها على الطبقات المتوسطة التي أمدت البلاد بالمؤلفين ومعظم القراء، كما انها تركت الكتاب بله قراءهم أكثر سفسطة وشكاً في الدوافع الانسانية، وأقل ميلاً للبطوليات. وعلينا أن نتذكر انه لم تكن عهد ذاك مهنة ادب معترف بها، اذ عاش الكتّاب بسبل الرعاية والدعم الادبي، كما وأن حرب «الفروند» خلقت نوعا جديدا من رعاة الادب. فقد بدأ بوالو(Boileau) وموليير(Molière) حياتهما الادبية ككاتبين مستأجرين يعملان لحساب كبير وزراء لويس الرابع عشر نيكولا فوكيه(Nicolas Fouquet) الذي أقنع كورني بأن يعود الى المسرح، وأن يحاول كتابة نسخة من قصة أوديب التي تمثل الموضوع المأساوي الرئيسي للعالم القديم،وبالنتيجة إن مسرحية كورني التي اطلق عليها اسم «اوديب» (Oedipe) مثلت عام ١٦٥٩، فكانت بذلك أول مسرحية له بعد مسرحية «برتاريت» (Pertharite) (١٦٥٢).

وكتب بليس باسكال(Plaise Pascal) أكبر مفكر في العصر ضمن مدار الحركة الدينية «الجنسية»(Janseniste)، وهي حركة لم تنجح في تبديد اعتقاد الملك بأنها حركة هدامة. تتجلى هذه الروح الجديدة بوضوح في سلسلة الكراسات التي كتبها باسكال تحت عنوان «الريفيات»(Les Provenciales) (١٦٥٦ - ١٦٥٧). وفي هذا المجال أيضا استعملت ابتكارات كيز دوبلزاك(Guez De Balzac) بتأثير رائع، وبتركيز على الموضوع، وبقوة وموهبة جدلية لم يستطع السيطرة عليها. وكرس باسكال آخر طاقاته للاعتذار والدفاع عن الدين المسيحي،ولكن عمله لم يذهب أبعد من التخطيط، ومن أضمومات مرتبة جزئياً. عرفت باسم «افكار»(Pensées). ومع ذلك فهي تشكل اعمق مؤلف من الحركة الكلاسيكية الفرنسية، فأثرت على المفكرين اللاحقين اكثر مما اثرت على قرائها الاوائل عام ١٦٧٠ وكانت بالتالي المؤلف الكلاسيكي الفرنسي الوحيد الذي وصلنا في حالته البدائية، مع انه ترك بشكل ملاحظات كتبت بتعابير نابضة وعنيفة، بدت طبيعية بالنسبة لباسكال. وكتابه هذا رائع في جزالته وشروحه.

وظهرت الواقعية الجديدة في مسرحيات الشاعر الفكه بول سكارون (Paul Scarron) والمجلدات الأخيرة من روايات مادلين دوسكوديري (Madelaine De

وأدى وجود جمهور مدرك للمهارات الفكرية الى عودة موليير بفرقته (Scuderi) المسرحية الى باريس، وتقديمه أمام جمهور ملكي - بعد عرض لمأساة كورني «نيكوميد» (Nicomede) - ملهاة من تأليفه كانت تمهيداً لنشاط درامي مكثف دام ١٥ عاماً، يطلق عليه الآن اسم الكوميديا الكلاسيكية.

وبعثت هذه الروح الحياة في مؤلف عظيم من القرن السابع عشر لم ينشر في ذلك القرن وهو كتاب «مذكرات» (Mémoires) نشر عام (١٧١٧) لجان فرانسوابول دوكوندي (Jean François Paul De Gondi) كاردينال ريتز. ولكونه أحد المشتركين الرئيسيين في حرب الفروند، لذا جسد أحداثها على صفحات مذكراته المشرقة الساخرة. واستطاع أن ينقل الى قرائه إدراكه للاشياء، وموقفه الطليق الحر من السلوك الانساني. وبرزت هذه الصفة واضحة كذلك في مجموعة من الاقوال المأثورة والحكم تعرف باسم «الامثال السائرة» (Maximes)، والتي نشرها عام ١٦٦٥ الداعية للاخلاق لاروشفوكود (La Rochefoucauld) وتعطي هذه الامثال اللاذعة والرائعة في قالب كلاسيكي منشود تحليلا لا شفقة فيه لميزات العصر مثل الاخلاقية النفعية والتشاؤم المتصف بالنقد، او اكتشاف اللاشعور، فقد هاجمت الفردية والمثالية الرواقية والعقلانية، وكان هجومها مقترناً بالعنف والفكاهة.

المؤلفات الكلاسيكية للستينات والسبعينات من القرن السابع عشر:

يحق لهذه الفترة الادعاء بأنها اعظم فترة خلاقة في تاريخ الادب الفرنسي. فقد أثارت محاولة موليير الأولى لكتابة ملهاة من خمسة فصول عنوانها « مدرسة النساء » (L'école Des Femmes) ١٦٦٢ جدلا عنيفا يضارع ذلك الذي اثارته مسرحية «السيد» . وفي الوقت نفسه شاعت مؤلفات بوالو الهجائية، كما شاعت «الامثال السائرة». وفي عام ١٦٦٧ ظهرت «اندروماك» (Andromaque) لراسين، وتلتها اول مجموعة من القصص الخرافية (Fables) لـ: جان دو لافونتين (Jean De La Fontaine) عام ١٦٦٨ . فتميزت جميع هذه المؤلفات بمفهوم جديد عن وقار اللغة، وبالخيال البعيد الذي يبتدع أشكالاً جديدة للاتصال الأدبي والمقدرة العقلية لتجديد ما هو شائع وعادي.

وواضح أن الكتاب لم يقصدوا خلق مؤلفات كلاسيكية ونادرا ما وقع التصادم بين المبدعين. كما أن ظهور هذا العدد الهائل من الكتابات الرائعة بعد عام ١٦٦٠ لم يفسر تفسيرا كاملا. ومن الممكن تتبع الطريق البطيئة التي سلكها الكتاب، وهم يتدربون على الكتابة، الا أنه لا يمكن ارجاعهم الى جيل واحد فقط. فربما كانت موهبة موليير امتع المواهب مراقبة، وهي تعمل في الستينات والسبعينات من القرن السابع عشر. وكشف البحثالعلمي الحديث أن موليير كان يناضل من أجل ابقاء فرقته المسرحية واقفة على قدميها عندما طفق بالكتابة هدف أول ما هدف الى ملء الفراغ في المسرحيات التي تخرجها هذه الفرقة؛ وانه لم يمارس كل قواه المبدعة الا عندما استحسن الجمهور القطع المسرحية التي كتبها. ويبدو أنه كان انجح في
(The Doctor) In Spitof)
حجق(و«التخيل»(L'avare) فقد أمضى الكثيرمن الوقت في كتابتهما، ومع ذلك كان نجاحهما قصير الأمد، كما قضى خمسة اعوام في كتابة «طرطوف»(Tartuffe?) ولكن استعراض مسرحياته وهي ترتقي وترتفع في مداها وزخمها تعطي المرء فكرة عما تعنيه ادارة مسرح باريسي عهد ذاك، وما يبغيه تزويده بالمسرحيات اللازمة. وفي موسم عام ١٦٦٦ كتب موليير خمس مسرحيات جديدة لفرقته، وبعد ستة اعوام، أي في عام ١٦٧١، أخرجت ١٥ مسرحية من مسرحياته كانت ثلاث منها جديدة. لقد واتته الشهرة بسرعة، ولكن يبدو أنه لم يكن لديه الفراغ الكافي ليكتب، أو حتى راحة البال من القلق المالي؛ ولم تنجح فرقته عام ١٦٦٩ من التداعي الا بنجاح «طرطوف». كتب موليير مسرحياته على عجل بغية تلبية جمهور ناقد، ومع ذلك استطاع خلق شخصيات ذات قوة هزلية مذهلة، تبدو بجانبها الكوميديا الفرنسية السابقة ضعيفة قلقة: «لقد خلق موليير الكوميديا من الفوضى» على حد قول فولتير.

كان الشعر أحد الجوانب المهملة للأدب الكلاسيكي الفرنسي. وقد عالج نيكولا بوالو في كتابه «في الشعر»(Art Poetique) ١٦٧٤، وفي رسائله وفي هجائه بعض الأساليب بقدرة تامة، اذ عبر بقوة ويسر عن التلاعب بالألفاظ والقوافي والتناقض الظاهري والتلميحات الموضوعية. وكان كل مؤلف من مؤلفاته تجربة قائمة بذاتها، مما جعل عدد الشعراء الذين أثروا بنفس الدرجة، وفي اتجاهات مختلفة كما فعل بوالو نادرين.

كانت قدرة الشاعر والعالم جان دو لافونتين على التلميح الساخر والخيال اوسع من قدرة بوالو. فقد كان عميق الاطلاع على الشعر القديم ، لذا اضاف تعبيره المميّز والخيالي الى مؤلفاته . ولا يمكن تفسير المتعة التي تمد قصصه الخرافية (Fables) الا بتجديدها تفاصيل الحياة العادية بشكل شاعري ، وبعلاقة الكاتب بهذه المادة .

وباستثناء هذين الشاعرين كانت المنجزات الحقة للشعر الفرنسي في هذه الأعوام مقصورة على المأساة . وما توصل اليه راسين كان بلا شك ناجماً عن منافسة مؤلفين عديدين اصبحوا الآن نسياً منسياً ، وليس فقط كما يدعي البعض - عن منافسة كورنيل . لقد حاولوا شأنه أن يستعيدوا المواضيع اليونانية القديمة بما عرضوه من باليه واوبرا ومأساة ، لكن فاتهم ما نجح به ، وهو عنصر التشويق الدرامي القديم بله عاطفته الجياشة ، وخاصة باستعمالها المتواصل . ويعتقد عدة محكمين ممتازين بأن نجاحه الأول في مسرحية «اندروماك» لم يتجاوزه أحد. ويبدو ان «بيرنيس» (Bérénice) بلغت نفس الدرجة من التركيز ، وذلك بتحديدها الموضوع المأساوي بوداع ملكة لعشيقين ، وبالتعارض المتناهي بين المصالح العامة والمصالح الخاصة . ومع ذلك انتج راسين عام ١٦٧٢ دراسة عميقة للعنف البدائي في «بجازيت» (Bajazet) واتبعها بعد عام بمسرحية «متريديت» (Mithridate) وفيها نجد شخصية عنيفة تعارضها شخصية مفرطة الاستقامة. اما «افيجينسي» (Iphigénie) ١٦٧٤ و«فيدر» (Phèdre) (١٦٧٧) فهما دعوة مقصودة لمواضيع يكون فيها الآلهة والبشر رمزية أكثر تركيباً وتعقيداً . لقد شهد الكثيرون في منجزات « فيدر » تجسيداً للفكرة التي عمت في القرن السابع عشر ومؤداها تلك الهوة المأساوية بين العاطفة والنقاء . وأقصى ما في هذه الحياة الأدبية الفريدة سخرية ان كتب راسين بعد صمت دام عشرين عاماً مسرحيتين انجيليتين لمدرسة بنات ، كانتا مثار الاعجاب شأنهما في ذلك شأن مسرحياته الاخرى وهما «استير» (Esther) عام ١٦٨٩ و«أتالي» (Athalie) ١٦٩١ .

كتابات رجال الدين :

على الرغم من عظمة الدور الذي لعبته الكنيسة في حياة القرن السابع عشر

كانت مساهمتها الادبية جد محدودة ، لكن لا بد من ذكر شخصيتين اكليريكتين عظيمتين زاهيتين ومختلفتين وهما جاك بوسيه (Jacque Boussuet) وفرانسواز دولا موذ فنلون (François De La Mother Fénélon) . كان بوسيه الذي يكبر فنلون بأربعة وعشرين عاماً خطيباً وأسقفاً ذا قالب تقليدي ورجلاً مستقيماً وذكياً ونشيطاً بشكل لا يصدق. ورغم أن معظم الأفكار التي نافح عنها سرعان ما دحضدت الا انه أبداً ممتع بما قدم ، فقد كان مباشراً ، قوياً، وقادراً في كل وقت على تحميل لغته الجمال الدائم . وقد سميت خطبه الجنائزية مثل تلك التي القاها بمناسبة وفاة الملكة هنرتا ماريا (Henrietta Maria) عام ١٦٦٩ - بغير حق - تحفاً مزيفة. كما استعاد للكنيسة ما كان يتميز به سابقاً السياسيون والمحامون، وهو القدرة على التعبير بلغة نبيلة عن تأبين الموتى . اما محاولاته انجاز خطة تاريخ عالمي في كتابه، «محاضرات في التاريخ العالمي» (Discours sur l'histoire Universelle) او لدحض البروتستانت والمهادنين فتكشف عن أضعف جزء من مؤلفاته ، فقد كان شديد الالتصاق بوجهة النظر الارثوذكسية المستقيمة لدرجة ذم فيها كل فكر مستقل، بل عرف الهرطقي بانه كل من يحمل رأياً. الا ان توضيحه للدين لم يبزه فيها أحد.

وبالمقارنة استطاع فنلون (Fénélon) نقيض بوسيه (Boussuet) مزاجياً، أن يرى طرفي النقاش، وأن يقنع كلاً منهما بأنه من رأيه (وقد ضمنا عمله وعمل غيره من رجال الكنيسة في نهاية القرن السابع عشر تحت بحث «الادب الفرنسي في القرن الثامن عشر» كممثل لفترة من الانتقال.

النساء في عالم الأدب :

كان نجاح النساء في عالم الأدب كمشجعات على نقاشه وككاتبات مع انهن استعملن اسماء مستعارة احدى علائم هذه الفترة . ولم تنشر اكبر كاتبة في هذا العصر وهي المركيزة دوسفينيه (Marquise De Sévigné) اياً من مؤلفاتها الا ان رسائلها « لابنتها » (Lettres) في بروفنس جعلت منها احد الأسماء الكبرى في الثقافة الفرنسية، وقد تكشفت عن ذكاء وفكاهة وخيال ومزاج خاص وحسن نقاش ، شأنها في ذلك شأن ملاحظات باسكال - بانطلاق وحرية كان من الممكن ان

تختفي لو كان نشرها مقصوداً ، كما صورت لنا جوانب عن عصرها لا يستطيع أي دليل وثائقي دقيق أن يلقي عليها ضوءاً مشابهاً .

وكانت صديقتها مدام لافاييت (Mme De La Fayette) ـ وهي فنانة اكثر عناية وتحديداً ـ مؤلفة لتحفة واحدة هي رواية «اميرة كليف» (La Princesse de Clèves) (١٦٧٨) التي تعادل بتأثيرها أية مأساة كتبها راسين في سيكولوجيتها وعاطفتها المكبوحة الجماح.

هجاء لابرويير :

يعبر جان دو لا برويير (Jean De La Bruyère) شخصية فريدة في تاريخ الأدب . ومع ذلك فقد كتب حسب التقليد الشعبي للأدب الاخلاقي النقدي ، وكان مسؤ ولا بشكل رئيسي عن ان معاصريه طواهم النسيان لأن صوره عنهم هي اكثر حيوية من أصولها. وقد ستر تأملاته باديء الأمر خلف ترجمة لشخصيات ثيوفراستوس (The Ophrastus) (١٦٨٨)، الا ان ما رصد قلمه لتصويره بلغ درجة من النجاح وسع معها كتابه كثيراً في الطبعات اللاحقة وقد عممت كتيبات استخدمت مفاتيح لشخصياته تدعي انها تحدد الأشخاص الذين عنتهم القطع الهجائية.

لم يحز كتاب «الطبائع» (Les Caractères) اعجاب جوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) والكونكوريين (Concourts) بسبب تصويره الساخر بل كان مديحهما مقصوراً على اسلوب لابرويير. واتخذت صورة اللاذعة ـ عن لا أخلاقية الطبقة الفرنسية العليا ، واثر المال والطراز والغرور الانساني، والتسلق على السلم الاجتماعي اشكالاً عديدة بدءاً من الحكمة وانتهاءً بالقصة القصيرة البدائية.

كان لابرويير أصغر الأعضاء سناً في مجموعة من الكتّاب يصعب وصفهم على الرغم من الأبحاث الحديثة التي اجريت عليهم. وقد تُركت جانباً الفكرة القديمة عنهم بانهم يمثلون بقيادة بوالو (Boileau) الأفكار الديكارتية (نسبة الى ديكارت)، فيمايتعلق بالأدب، كما تخلى النقّاد ايضاً عما كان يسمى «بانحطاط عصر لويس الرابع عشر». وعندما كبر الملك اصبحت الأوقات اكثر عسراً، وهكذا اعطى المجتمع

وبالتالي الأدب انطباعاً بالانحطاط. الا ان هذا الوضع لا ينطبق على مجالات مماثلة مثل الدراسة العلمية والأفكار والعلم والجدل. فقد كان قراء فونتنيل(Fontenelle) وبيير بيل (Pierre Bayle) على درجة من العلم والذكاء تماثل قرّاء كورنيل وباسكال. وقد يبدو ان النشاط الفني الذي يتصف به منتصف القرن قد تراجع، لكن هذا لا يعني اكثر من غياب واحد او اثنين من الفنانين العظام . الا أن دوق سينت سيمون (Duc De Saint Simon) استمر في الكتابة . وبفضل السرية التي ألّف فيها مذكراته نستطيع الآن ان نقرأ صفحات لا تجارى من القوة والحيوية.

دعاة القديم ودعاة الحديث :

احتدم النقاش بين اولئك الذين قالوا بأن الكتب الكلاسيكية وحدها التي يجب ان تكون مثالاً يحتذى، وبين الذين تحدوا تفوق الكتّاب الكلاسيكيين ، واولوا مواضيع مستقاة من الرومانس والاساطير والكتاب المقدس جانباً رئيسياً من نواحي الأدب الفرنسي خلال القرن السابع عشر بدءاً من حوالي عام ١٦٥٩ .

ومن الكتّاب الرئيسيين للعصر نرى ان لافونتين ولابروير دعما بوالو ، وبالمقابل نجد ان فونتينل ساند شارل بيرولت (Charle Perault) وكانت النتيجة الحتمية ان خفّ الجدل وضعف ، مع ان ذلك لم يحدث قبل اعتذار بوالو لبيرولت عام ١٧٠٠ ، واعترافه أن فضائل القرن السابع عشر ليست دون فضائل الأقدمين. وأحست انكلترا بهذا النزاع وتأثرت به ، ولا سيما في مؤلف لجوناثان سويفت (Jonathan Swift) عنوانه «معركة الكتب» عام ١٧٠٤ .

الادب البر وفنسالي :

تطورت في كاسكونيا (Gaskony) مدرسة كاملة تتبع اسلوب بيه دو كاروس (Pey de Garros) أبرز ممثليها غليوم ادر (Guillaume Ader) الذي نظم قصيدة رائعة يمدح بها هنري الرابع عنوانها: «سيد كاسكون» (Lou Gentilome Gasscoun) عام (١٦١٠)، لكن اشهر شعراء الجنوب آنئذ كان بلا شك بيير جودلين اوف طولوز (Pierre Goudelin of Toulouse) ويطلق عليه اسم «ملهارب اوك»(Malherb of Oc)

، وهو لو قدر له ان يكتب بالفرنسية لأحتل مكانة مع افضل شعراء الفترة. اما نيكولا سابول ي(Nicolas Saboly) فبرزت في كتابه الصيغة الأدبية المعروفة باسم نول (Noël) .

ومن كتّاب القرن السابع عشر البروفنساليين الجديرين بالذكر الكاتب المسرحي كلود بروي (Claude Bruyes) المشهور بهزلياته، وكاسبر زربين (Gaspar Zerbin) . اما المحامي بونيه (Bonnet) ـ مؤلف افضل المسرحيات التي كانت تمثل سنوياً في الهواء الطلق في بيزيير (Beziers) يوم عيد الصعود بعنوان محاكمة «باريز» (Jugement de Paris) . ونيكولا فيز (Nicolas Fizes) من فرونتكنان (Frontignan) ـ مؤلف المسرحية الهزلية من نوع «فودفيل»)للهصهيقرخمق(المسماة اوبرا فرنتكنان (Opera de Frontignan) (١٦٧٩) ـ فيكشف كلاهما عن مواهب ادبية حقيقية.

وهناك عدد من الشعراء الطولوزيين الذين يمكن ان يطلق عليهم اسم اتباع كودلين (Goudelin) ، كما تُعزى النهضة الكلاسيكية التي تشاهد في هذه الفترة الى تأثير كودلين بشكل عام. وأبرز ممثل لهذه الحركة هو جان دوفالين اوف مونتك (Jean de Vales of Montech) الذي ترجم وكتب هزلية نقدية رائعة من نوع «البرلسك» (Burlesque) حول شخصية للشاعر الروماني فيرجيل. اما افضل الشعراء الرعويين فكان فرانسوا دوكورتيت اوف براد (Frrançois de Cortete of Parade) الذي كتب هزليته رامونيه (Ramounet) وميرامونـدو (Miramoundo) (نشرت عام ١٦٨٤)، بشعور صادق وبأسلوب صاف يجعل قراءتها مفعمة بالمتعة والسرور.

الادب الوالوني (Wallon)

في بدء القرن السابع عشر ادركت، والونيا وبخاصة اقليم لييج (Liège) للامكانات الأدبية للهجتها. ومنذئذ ازداد عدد الكتابات ، وظهرت القصيدة الغنائية من نوع «الأود» بلهجة لييج عام ١٦٢٠ ، كما شاعت قصائد سميت «باسكي» (Pasqueyes) تصف الحياة والتاريخ المحليين.

الفَصْل الخَامِس

الأدَب الألماني في القرن السّابع عَشر

كان الأدب الألماني في القرن السابع عشر المشهور باسم الأدب الباروكي نتاج العصر والوضع الاجتماعي في ألمانيا . اتصفت خلفية هذا الأدب في أوائل القرن السابع عشر بالنزاع الديني المتعصب الذي تخلّله حرقٌ للساحرات، وبعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي ، كما هيمنت عليه حروب الثلاثين عاماً بظلالها التي رانت على حياة المجتمع . وتميز الوضع السياسي داخلياً بالديكتاتورية والحكم المطلق ، وحاول كل حاكم أن يقلد بلاط لويس الرابع عشر في فرساي وينافسه . بينما كان ابطال حركة الاصلاح الديني يكافحون ضد المنافحين عن الحركة المضادة للاصلاح . وتوضعت الاكتشافات العلمية الجديدة في تجمع خيّم عليه اثر لوثر وميكافلي وبترارك وشخصيات عصر النهضة من القرن السابق .

وهناك جملة من الأسباب تجعلنا نستحسن الأدب الباروكي ، منها ذلك التشابه في الوضع بين القرن العشرين والقرن السابع عشر ، ورفض العصر الحديث لمفهوم أهمية العناصر الاعترافية الذاتية في الأدب (هذه العناصر التي خلّفها الكاتب الألماني العظيم غوتيه من القرن الثامن عشر) . وسيطر على الأدب الباروكي كتاب وجّهتهم أحاسيس المناسبة اكثر مما حركتهم قيمة التجربة ، فلم يعبّروا عن انفسهم ذاتياً ، بل استخدموا وسطاً تقليدياً في اخيلته وأشكاله الرسمية . وعملت على رفع التوتر العاطفي للمواضيع . وهذه المواضيع استقت من الأدب الأوروبي لتلك الفترة سواء التي ظهرت في القصيدة الغنائية والملحمة والمسرحية ، مثل القدر المتقلب الذي يحكم عالماً تسيره الصدف ، والمتع الدنيوية ما هي إلا أوهام ، وواجب الانسان هو أن يلعب دوره على مسرح الحياة . وقد عرض الأدب الباروكي هذه المواضيع كأمثلة يتوسلها الانسان كي يهرب من متاعب القدر ، ويخادع

الزمن : فالهشيد يحتقر العالم ، ويطمح الى الخلود ، والسياسي يستعمل الخاصر لمآربه الشخصية ، والرواقي يتحمل بثبات ، والراهب يلوذ بالهرب ، بينا تهرب الشخصيات الرعوية الى عالم زائف ، ويسعى الناسك الى الاتحاد مع الله . أما الكتاب أنفسهم فقد ضمنوا خلوداً نسبياً عن طريق مؤلفاتهم .

الشعر الغنائي :

بلغ الشعراء الغنائيون بسرعة مستوى رفيعاً ، وبشكل خاص في المناطق التي تجمعوا فيها مثل هايدلبرغ (Heidelberg) ونورنبرغ (Nürnberg) وكونكسبرغ (Königsberg) وفي سيليسيا (Silesia) وفي المؤلفات النقدية مثل « كتاب عن الشعر الألماني » (Buch Von Der Deutschen Poetrey) أظهر مارتن أوبتز (Martin Opitz) أصالة في الأسلوب ووضع القوانين ، مثل التقيد بالنبرة في الأبيات ، وقدم ارشادات واقتراحات اخرى طبقها هو في شعره . وسرعان ما تبنى معاصروه افكاره ، وهكذا كان ذا تأثير تكويني هام على شعراء أتوا بعده ، وفاقوه مثل جورج وكرلين (George Wekherlin ، وبول فلمنغ (Paul Flemig) .

وتنوع الشعر الباروكي أمر يبعث على الدهشة ، خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار التشابه الأساسي لكثير من مواضيعه . فقصائد بول فلمنغ الغنائية من نوع « السونت » تكشف عن عمق عاطفي ، وطاقته غنائية . وكان اندرياس كريفيوس (Andreas Gryphius) متديناً متشائماً في نفس الوقت ، بينا اتصفت بالمهارة الشكلية مؤلفات الشاعر والروائي الوطني فيليب فون زيسن (Philip Von Zesen) . وغزارة المفردات في شعر الطبيعة ليوهان كلاج (Johann Klaj) كانت الحافز للتجارب المقرونة عادة بعفوية خلاّقة . والشعراء الباروكيون ألبسوا شعرهم أقنعة ؛ فقد عبّر كريفيوس (Cryphius) بفخامة عن المشاكل الوجودية لعصره ، وكان كرستيان فون هافمان سوالدو (Christian Von Hoffman Swaldau) ذوّاقة شكلاً ، نارياً في عقلانيته ، أو مخلصاً باتزان ، وذلك حسب موضوعه . وفي عصر اهتم بالقيم الجوهرية نظم الشعراء قصائد علمانية وأخرى دينية اتصف كل منها بالتنويع . أما الشاعر الكبير بول جرهارت (Paul Gerhardt) اللوثري فقد نظم

ترانيم دينية ذات بساطة هادئة ودفء . كما كتب الشاعر اليسوعي فردريخ فون سبي (Fridrich Von Spee) قصائد غنائية رعوية دينية ، وكان كورنيوس كوعلمان (Quirinus Kuhlmann) شاعراً صوفياً غنياً بالرؤ ى والصتروات .

ووجد المزاج العقلاني للعصر تعبيره الرائع في الشعر الحكمي الذي طوره دانيال شبكو (Daniel Czepko) وانجيلوس سيليسيوس (Angelus Silesus) وفرادريخ فون لوغو (Fridrick Von Logou) ليصبح فناً بديعاً. وقد ضاهى تنوع الشعر الباروكي الغنائي وفرته . والغريب في الأمر هو انه استطاع الحفاظ على مستواه الرفيع .

المسرحية :

كانت المسرحية التي كتبت بالعافية الدارجة في النصف الأول من القرن غير خلاّقة . وقدم هنريج جوليوس (Heinrich Julius) دوق برنزويك مسرحيات تعكس أثر الممثلين الانكليز ، وهكذا يتكشف لنا مدى ضعف وتأخر اللغة الدارجة عن العطاء المسرحي . وبعد ذلك وبقدوم دانيال كاسبر فون لوهنشتاين (Daniel Caspar Von Lohenstein) ضم التعبير عن انقسام بين الشعور الفياض وحدّة الادراك العقلاني بأسلوب منمق ، كما كان هناك كاتبان مسرحيان بارزين هما جيكوب بيدرمان (Jakob Bidderman) وكريفيوس . وكان أولهما يسوعياً ناجحاً عالج مواضيع إستقرارية الحياة والغرور الدنيوي وضرورة الخلاص بتأثير درامي عظيم . اما آسي وهزليات كريفيوس فعالجت المذهب الرواقي (Stoicism) والاستقامة الشخصية . وكان عمله أدبياً أكثر منه شعبياً ، لذا لم يكن له سوى أثر ضئيل دائم بالرغم من مزاياه الفنية . كما أرست فيما بعد مسرحيات التنكر (ماسك) والباليه والأوبرا ـ التي كانت في ازدياد مستمر أسس المسرحية الألمانية المتأخرة والمختلفة تماماً .

الرواية :

تأثر تطور الرواية الألمانية الى حد كبير بالمصادر الاسبانية والفرنسية واللاتينية الجديدة . وقد تبع ترجمة ماتيو ايلمان (Mateo Aleman) لرواية كوزمان دو الفراش

(Guaman De Alfarache) عام ١٦١٥ حشد من الترجمات الأجنبية . وكانت بأغلبها ضخمة موسعة تتصف بالأطناب ، وتتألف من مزيج من العناصر التعليمية والأخلاقية والخيال الواسع والتسلية ، كل ذلك ارضاءً لحب المعرفة الذي اتصف به العصر . الا انه برز كاتبان هما جوهان بير (Johann Beer) (١٦٥٥ - ١٧٠٠ الذي بشر بواقعية القرن الثامن عشر وهـ - ج - س . فون كرملزهاوزن (H. J. Von Grimmelshauzen) الذي كانت روايته سمبلسمون المغامر (Abenthverliche Simplicissimus) (١٦٦٨ - ٦٩) والتي ترجمت الى الانكليزية عام (١٩١٢) احدى شوامخ الأدب الالماني اذ مزجت المواضيع الرئيسية للعصر ، بالعمق الميتافيزيقي ، والبصيرة الدينية .

الفلسفة والنقد :

برز المتصوف السيليسي جاكوب بوم (Jacob Bohme) كفيلسوف أصيل ومؤثر ، ألهمت مبادؤه عدة حركات دينية انفصالية . ولخصت منجزات ج. و. ليبنز (G. W. Leibniz) الفلسفية العصر ، وأشارت في اتجاه القرن الثامن عشر عندما رفضت الباروكية الى أن أعيد اكتشافها في القرن العشرين .

الفَصْل السَّادس

الأدَب الهولندي في القرن السابع عَشر

أدت سيطرة الاسبان على الجنوب الكاثوليكي في الأراضي المنخفضة خلال حرب الثمانين عاماً وبعدها (١٥٦٨ - ١٦٤٨) الى انحطاطٍ في برابانت والفلاندرز (Brabant and Flanders) . وبالمقارنة حدث توسع كبير في هولندا التي لجأ إليها الفنانون والمفكرون والممولون خوفاً من الجيوش الاسبانية . يدل بروز امستردام ولاهاي (The Hague) كعاصمتين ناشئتين للأمبراطورية ، ونشوء كبرياء مديني لدى كتّاب العصر الذهبي على انتهاء العصر الوسيط الذي أعطى الأهمية لمدن غنت (Ghent) وبروغ (Bruges) ولييج (Liege) وانتورب (Antwerp) .

كان هنريك لورنزون شبيغل (Henric Laurenszoon Spiegel) اعظم كاتب في جيل جمع بين الماضي والحاضر . توجه بنتاجه القلمي للمواطن والعالم ، كما كانت مجموعتاه « أغاني العالم الجديد » (Nieu Jaar Liedekens) و « أغاني حول صلاة الإله » (Songs on the Lord's Prayer) استمراراً لتقليد وسيطي في أسلوب عصر النهضة ، لا بل كانت صدى الاعتدال الذي نادى به إرازموس (Erasmus) . وقصد - بنفس الوقت - من كتابه الزاخر بالمعرفة « حوار حول الأدب الهولندي » (Twe - Spraak Vande Nederduitsche) ١٥٨٤ الى تعميم استعمال اللغة القومية . اما اكثر كتبه علماً « مرآة العقل » (Hert - Spighel) ١٦١٤ الذي لم يكمله فهو مغرور في الغموض لأنه كان محاولة أولى لكتابه الفلسفة شعراً وباللغة الدارجة .

كان الانقسام الكامن في طبيعة عصر النهضة بين الأحياء الديني الشعبي ، وبين الانسانية واضحاً بشكل خاص في هولندا لعدم توافق المبادىء الكلفينية والمثل العليا للماضي الوثني . ادى هذا الوضع الى وجود غموض ناجم عن تعادل

الضدين ، الدين والفن ، بشكل جدي في قرارة نفوس عدد كبير من كتاب القرن السابع عشر .

ففيما كتب دانيال هينسيوس (Daniel Heinsius) وهو إنساني مشهور في جامعة ليدن مسرحيات باللاتينية ، أضاف اليها مسرحيات بالعامية مثل « ترنيمة في مدح باخوس » (Hummus Oft Lof - Sanck Van Bacchus) ١٦١٤ وترنيمة اخرى ورعة « في مدح المسيح » ١٦١٥ . (Lof - Sanck Van Jesus Christus) وأخذ الشاعر والكاتب المسرحي والرسام جربراند ادريانزون بريديرو(Gerbrand Adriaenszo - Predero) مادته ، من حياة المواطن العادي ، لكن وسط ، كان في الأغنية الشعبية أو الملهاة المهزلية أو الملهاة العادية . وتكشف أغانيه العلمانية ـ التي دبجها بأسلوب وسيطي ـ وأغانيه الدينية ـ التي أرسلها حسب تقاليد شعر عصر النهضة ـ عن ولاء عاطفي نحو النساء ، ورغبة متناهية في الاعتدال الديني . إلاّ ان مسرحياته المأساوية ـ الهزلية الثلاث لم تكن ناجحة ، كما كتب ثلاث هزليات تمثل اوج ما وصل اليه هذا النوع من الأدب الوسيطي . الا ان الحياة المعاصرة في امستردام هي التي زودته بمادة ملهاتية الاثنين ، بما فيهما رائعته المسماة دوسبانكن برابندر (De Spaanshen Brabander) قدمت على المسرح ١٦١٧ .

كانت امستردام موطن الشاعر والكاتب المسرحي جوست فان دن فوندل (Joost F Van Den Vondel) أيضاً . وهو رجل ثقّف نفسه بنفسه شأنه في ذلك شأن بريديرو (Bredero) ولم يتوصل الى حل للنزاع بين الاتجاهات الدينية والفنية في قرارته الا عندما دخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سن تناهز ٥٤ عاماً . تطلب عمله هذا جرأة عقائدية بوقت كان فيه الكاثوليك اقلية لا شعبية لها . ومما له دلالته بالنسبة لشخصية فوندل (Vondel) الجريئة ان موقفه تجاه معاصريه والحوادث المعاصرة التي أرّخ لها بجرأة ما زالت سائدة حتى عندما سجّل التاريخ وجهة نظر مختلفة . لكن مسرحياته متزمتة اكثر مما يقبله الذوق الحديث ، رغم كونه فناناً عظيماً من فناني الاصلاح الديني المعاكس شأنه شأن معاصره الفلمنكي الرسام روبنز (Rubens) كما توضح مسرحية جبتا (Jeptha) ١٦٥٩ التي سار فيها على نهج سوفوكليس ، وروائعه الباروكية لوسيفر (Lucifer) عام ١٦٥٤ ، وآدم في بلنغز

تشاب (١٦٦٤) وآدم في المنفى(Adam In Exile) - (Adam In Balling Schap)
(ترجمت الى الانكليزية عام ١٩٥٢ .

إذا كان بيدرو هو العامي النبيل ، وفوندل هو المواطن النبيل ، فمن المؤكد ان بيتر كورنيلزون هوفت (Pieter Corneliszoon Hooft) هو الارستقراطي النبيل . لقد كان واحداً من القلة المحظوظة في هولندا ، نقل رقة تهذيب الفن الجديد وسموه مباشرة من ايطاليا . وقد وشّى قصائده الغنائية من نوع « السونت » (Sonnet) بالزخرف والبهرجة الايطالية ، كما فعل ذلك في مسرحياته ونثره المتكلف في رسالة ، وفي كتاب عتيد عن تاريخ الحرب ضد اسبانيا لم يكمله .

كانت قلعته في مويدن (Muyden) مركزاً لتسلية الفنانين والعلماء الذين جذبهم اهتمام متبادل بالشعر والموسيقى والمعرفة، كما جذبهم سحر نساء شابات موهوبات امثال بنات رومر فيشر(Roemer Visscher) .

عممت آنّا فيتشر (Anna Visscher) الاخلاقيات في شعرها، كما فعل والدها في نثره، وذلك حسب الطريقة التي كان لها ان تكسب جيكوب كاتس(Jacob Cuts) شهرة لا يستحقها. فرضت دروس كاتس الاخلاقية وشعره من نوع «الدوغرل» (Doggerel) المبتذل وطابعه المتعالي ـ نفسها على أدب بلاده بسبب الأثر السيء الذي خلفه في ذوق الطبقات المتوسطة.

تحلى كونستنتين هيوجينز (Constantijn Hugens) وهو اكثر انسجاماً من سابقه بكل السجايا التي كان الهولندي انئذ يود ان يتحلى بها. كان ذا مبادىء كلفينية متزمتة ، كما كان سياسياً كفوءا. نظم شعراً لاذعاً وذكياً وفكهاً، كما ترجم شعر جون دون بشكل ممتاز.

كان هناك كذلك خمسة شعراء ، ثلاثة منهم اكليريكيون ساهموا بشعر ديني ذي فضائل جمة. اذ احتوت مجموعة جون ستالبرت فان درويل(Jaannes Staelpart van Der Wiele) «كنز المديح التعبدي» ١٦٣٤ على اغان تتصف بالتقوى والبساطة الوسيطية.

وكان جاكوبوس ريفيوس (Jacobus Revius) الشاعر المتزمت ذو العقيدة

الكلفينية استاذاً في الأشكال الادبية لعصر انلهضة، وبخاصة القصيدة الفنائية من نوع «السونت» متوسلاً اياها للتعبير عن القوة والاخلاص، تمشياً وعقائده الثابتة. ومن سخرية القدر ان جاكوبوس ريفيوس الذي كان يعلم العقيدة للكثيرين بلغة يفهمونها، لم تقرأ مؤلفاته تقريباً، بينما لبّى ديرك رافالز (Dirk Rafaelsz) الذي عزل من ابرشيته بسبب عدم اتباعه التعاليم الصحيحة - الرغبة الشعبية في الشعر الشخصي التعبدي في مجموعته (قصائد تعليمية) (Stichtelycke Ymen) ١٦٢٤.

وكانت المجموعات الشعرية للشعر الصوفي التأملي التي نظم عقدها المتصوف جان لويكن (Jan Lyken) ذات شعبية مماثلة، ولو يكن هذا كان علمانياً افتتح حياته الأدبية بكتابة اغان عن اللذة في مجموعته «القيثارة الهولندية» التي ضمت قصائد غنائية بديعة في الحب. اما آخر شاعر ومسرحي هام من الفترة الباروكية فهو شخص فلمنكي اسمه ميشيل دو سوان (Michiel De Swen) تفوق بشعره ذي الالهام الديني على الكثيرين من شعراء عصره. وعلى كلٍ وبشكل عام أصبح الانحطاط الذي بدأ في الجنوب السمة البارزة لسائر أنواع الادب الهولندي في القرن السابع عشر.

الفَصْل السَّابع

الأدب الايطالي في القرن السابع عشر

يوصف القرن السابع عشر في الأدب الايطالي عادة بأنه فترة انحطاط لجأ فيها الكتّاب الذين خلوا من كل عاطفة الى المبالغة، وحاولوا ان يلبسوا كتاباتهم التي تفتقر كلياً الى المادة شكلاً مفرطاً من البهرجة. ويقال بأن حرية الفكر قيدتها اكاديمية دلّا كروسكا في فلورنسة (Accademia Della Crusca of Florence) (التي كان هدفها الحفاظ على نقاء اللغة التوسكانية)، كما قيدها الاصلاح الديني المعاكس، وسيطرة اسبانيا السياسية. ولم تكن هذه الأوضاع سوى مجرد ظاهرة ايطالية. اذ ازدهرت آنذاك الحركة المسماة الكلونكورية (Glongorism) (نسبة الى اسلوب لويس دو كلونكورا) (Luis de Glondora) المليء بالصور الخيالية الحذقة) في اسبانيا، كما ازدهرت الحركة الميتافيزيقية للشعر في انكلترا التي تميزت بالشعر المجازي ذي الفكاهة النقدية.

كانت هذه الفترة حيوية جداً، وابعد ما تكون عن الانحطاط لدرجة قادت الى فهم جديد اكثر شمولاً للأدب الباروكي الايطالي صاغه العلماء المطلعون على الموقف المتغير بالنسبة لهذه الحقبة الحضارية في المانيا وفرنسا وانكلترا.

الشعر والنثر :

تمتع النقد والهجاء بشعبية نتيجة رد فعل ضد الأوضاع السائدة. ومن ابرز من كتب في هذا المجال سلفاتور روزا (Salvator Rosa) الذي هاجم عيوب عصره ورذائله. كما اشتهر اليساندرو تاسوني (Alessandro Tasoni) بقصيدته «اغتصاب السطل» (La Secchia Rapita) (١٦٢٢)، وهي من النوع الساخر، لما هو بطولي،

وتتميز بكونها ملحمة وهجاء شخصي في آن واحد . أما اعظم شاعر في هذه الفترة فهو توماسو كابانيلا (Tommaso Campanella) الراهب الدومينيكاني الذي لم تشتهر قصائده الفلسفية الخشنة بقدر شهرة القصيدة المسماة «مدينة الشمس» (١٦١٢) (Citta Del Sole) وهي صورة خيالية لمدينة مثالية سياسية ، دافع فيها عن اتحاد الانسانية في ظل حكومة دينية تستند الى الدين الطبيعي. كان جيامباتيستا مارينو (Giambattista Marino) ـ مؤلف مجموعة كبيرة من الشعر الغنائي عنوانها «القيثارة» (La Lira) (١٦٠٨ ـ ١٤) و«المصغار» (La Sampogna) ١٦٢٠ وقصيدة اسطورية طويلة عنوانها «ادون» ١٦٢٣ (Adone) مثال الكتابة الايطالية خلال الفترة.

استقى مارينو الالهام من شعر اواخر القرن السادس عشر لكن هدفه ـ وهو هدف تميز به العصر ـ كان اثارة الدهشة عن طريق التجديد. يتميز عمله بالصور الخيالية المفاجئة ذات المهارة الغريبة ، والمجاز البعيد ، والشهوانية ، والسهولة القصوى والمهارة الفنية الرفيعة . كان عدد مقلديه كبيراً ، كما تأثر به معظم الشعراء الايطاليين في القرن السابع عشر .

نجح جابيريللو شيابريرا (Gabriello Chiabrera) ـ الأكثر اتزاناً في اسلوبه من مارينو ـ في تقليد بحور الشعر الكلاسيكي (وخاصة الشاعر اليوناني بندار) كما تفوق في نظم القصائد الغنائية القصيرة المسماة كانزونيتا (Canzonetta) وفي حوالي نهاية القرن رحب الناس بشاعرين اعتبروهما رئيسيين ، وهما ناظم القصائد الغنائية من نوع «السونت» فنسينزو دا فيليسايا (Vincenzo Da Filicaia) أاليساندرو غيدي (Alessadro Guidi) الذي كتب قصائد غنائية رفيعة من نوع «الأود» مع ان شعر غيدي لا يعتبر الآن اكثر من كلمات رنانة.

برز من كتّاب النثر الكاتب الهجائي ترايانوا بوكاليني (Traiano Boccalini) بكتابه «اعلانات من راناسوس» (Ragguagli di Parnaso) عام ١٦٦٥ في النضال ضد السيطرة الاسبانية . كما كتب باولو سربي (Paolo Sarpi) تأريخاً لمجلس ترنت (الذي حدد المبادىء الكاثوليكية في ردة فعلها ضد الاصلاح الديني) ودافع عن حرية دولة البندقية ضد التدخل البابوي. اما معاصره كيدو بنتفوغليو (Guido Bentivoglio)

فقد كَتب تاريخاً دافع فيه عن ثورة الأراضي المنخفضة ضد اسبانيا. وما زالت روايات جيرو لاموبر زوني (Girolamo Brusoni) عن البندقية ذات أهمية، شأنها شأن رحلات بيترو ديلاّ فال (Pietro Della Valle) وقصص جيامباتيستا باسيل (Giambattista Basile) . وبلغت الطاقة المضطربة لهذا العصر ذروتها في مؤلفات غاليلو (Galiieo) هو عالم ارسى دعائم الفلسفة الرياضية وحصل على مركز بارز في تاريخ الأدب الايطالي بقوة نثره ووضوحه.

المسرحية الموسيقية الأكاديميادل اركاديا

The Music Drama; Accademia Dell, Arcadia)

عمل المؤلفون الايطاليون بشكل متزايد في الكتابة للمسرح الغنائي بعد نشوء المسرحية الموسيقية والأوبرا. وقد خططت نصوص الأوبرا التي كتبها شعراء مثل اوتافيو رينوشيني (Ottavio Rinuccini) بمهارة درامية وموسيقية. وخلال القرن السابع عشر تحلت مسارح الأوبرا بروح شعبية، اذ رغب الناس في قطع موسيقية او درامية خفيفة بقصد التسلية (اسمها الايطالي انرمزّي) (Intermezzi) تعرض بين فصول المسرحية الرئيسية مما ادى الى اضعاف الوحدة الدرامية للعرض ككل. وفي حوالي نهاية القرن لم يبق أي اثر للتقاليد المسرحية المعمول بها. شعر الكثير من الناس بان انتشار تأثير مارينو كان ضاراً. ولذا أسست، الاكاديميا دل اركاديا (Accademia Dell Arcadia) في روما عام ١٦٩٠ بقصد التخلص من آثار الذوق السيء». وكان هدف الاركاديا هذا متلائماً مع حاجة أساسية شعر بها الجميع. اذ كان الكثيرون من اعضائها اتباعاً عقلانيين لديكارت وذوي ميول كلاسيكية، الا ان رد الفعل عندهم تكوّن بشكل رئيسي من تقليد بساطة عرائس الطبيعة والرعيان الذين يفترض انهم عاشوا في العصر الذهبي. وهكذا حل اسلوب مصطنع جديد محل آخر قديم: لقد حلّت السفسطة القصوى والهروب من الواقع محل القعقعة الشعرية الفارغة. من انصار القصيدة الغنائية الأركادية الذين يمثلونها خير تمثيل جيوفان ماريو كرسمبيني (Giovan Mario Crescimbeini) وهو عضو مؤسس للاركاديا، وفوستينا (Faustina) وجيان باتيستا زابي (Giambattista Zappi) وباولو رولي (Paolo Rolli) وبيترو ميتاستاسيو (Pietro Metastasio) الذي ساهم في اصلاح الاوبرا من نوع ليبريتو في القرن الثامن عشر.

الفَصْل الثّامِن

الأدَب الاسباني في القرن السابع عَشر

كانت احدى ميزات النثر والشعر في اوائل القرن السابع عشر ظهور وانتشار حركتين اسلوبيتين مترابطتين. اذ أعادت الحركة المعروفة باسم كلترانسسمو (Culteranismo) الداعية الى اسلوب طنان - والتي اسسها لويس دو كونكورا اي ارغوت (Luis de Congora Y Argote) محاولاتها للرفع من شأن اللغة باعادة إحياء الصفة اللاتينية فيها. ولم يقتصر التطرف في هذه العملية على المفردات، وتركيب الجملة والكلمات، بل تعداها الى الباس التعبير حلة من الاسطورة الكلاسيكية، والتلميح الكلاسيكي، والى التعقيد الناجم عن كل ما امكن من الصور المجازية. كانت المحاولة ترمي الى كتابة شعر لو اكتشف بعد مئات السنين لظل جديداً وحيوياً عبر خلود صفاته اللاتينية. فضرب على ذلك مثلاً بمؤلفه «ساعات الوحدة» (Solitudes) ١٦١٣ الذي أدّى الى عدد من المؤلفات المقلدة غير الموهوبة. اما الحركة الاسلوبية الاخرى المسماة «كونسبتسمو» (Culteranismo) باللغة. كان الأسلوب هنا يهدف دوماً الى ما يبدو وكأنه فكر عميق؛ لذا كان مختصراً ومركزاً، وبالتالي ذا صلة بالنثر، وخاصة الهجاء منه، نظراً لاهتمامه البالغ بتعرية الحقيقة عن المظاهر. وكان افضل منطلق له هو المقال. ويعتبر فرانسسكو كوميز دي كويفيدو اي فيليغاس (Francisco Gomez de Quevedo Y villegas) اعظم هجاء في عصره، وأحد اساتذة الاسلوب اللغوي الاسبان، ومن ابرز دعاة هذا الاسلوب، خاصة في مؤلفه «احلام» (Suenos) ١٦٢٧. وقد وجد بلتاصر غراسيان اي موراليس (Baltasar Gracian Y Morales) خصائصها الرقيقة وأوجزها ليجعل منها دستوراً واضحاً في مؤلفه «مقال في الأسلوب» (Agudeza Y arte de Ingenio) كما حاول ايضاً ان يضع دستوراً لفن الحياة في سلسلة من المقالات. لا شك في ان غراسيان كان مفكراً،

وكانت روايته المجازية «المنتقد» (El Criticon) تفسيراً متشائماً للحياة على انها «موت يومـي»، وقـد اثـرت على لاروشفوكولـد (La Rochefoucauld) ، وشوبنهـاور (Schopenhauer) ونيتشه (Nietzsche) .

عـايش بيدرو كالـديرون دو لا بركا (Pedro Calderon De La Barca) قرن انحطاط اسبانيا كما عرضت مسرحياته أنماطاً من السلوك او العقيدة. كتب ثمانين مسرحية مجازية من فصل واحد حول القربان المقدس (Autos. Sacramantales) . وقد جعلت منه هذه المسرحيات أفضل متحدث ادبي باسم الاصلاح الديني المضاد ـ بالاضافة الى مؤلفاته «الحياة حلم» (La Vida Es Sueno) ١٦٣٥ «والولاء للصليب» (La Devocion de La Cruz) حوالي ١٦٢٥ و«الساحـر العجيب» (El Magico Prodioso) ١٦٣٧ التي اعطت كل توتر درامي ممكن لعرض فكر راق جداً للعقيدة الكاثوليكية. أما في مسرحياته التي يعالج بها موضوع الشرق مثل «طبيب عظمته» (El Medico de Su Honra) ١٦٣٥ ، والانتقـام السري لاهانـة سرية» (A Secreto Agravio, Secreta Venganza) ١٦٣٥ ، رسـام خزيه بنفسـه (El Pintor de Su Deshonra) حوالي ١٦٤٥ ، واعظم وحش الغيرة (El Mayor Monstruo Los Celos) فيصبح المنطق الجامد الذي يتابع به نقاش دستور من السلوك هو ابعد ما يكون عن الواقع مدعاة للنفور. ولربما كانـت انجـح مسرحياتـه «رئيس بلـدية زلاميا» (El Alcalde Zalamea) حوالي ١٦٤٠ وهي اعادة صياغة لاحدى المسرحيات لوب دوفيغا (Lope de Vega) . اما مسرحية «الحياة حلم» فقد أثارت قضايا فلسفية عميقة، كما اضفت عليه شهرة كبيرة خارج اسبـانيا. وبعـد وفـاة كالـديرون توارت المسرحية الاسبـانية لمدة مائـة عام . وقـد لعبـت الحركتـان في الاسلـوب «كلترانسيمـو» و«كونستبسمو» ـ رغم كونهما ادلة على اسباب الانحطاط ـ دورهما في خنق الادب الخيالي الذي لم يبق من عظمته السابقة ـ في نهاية القرن ـ سوى النزر اليسير.

الفصل التاسع

الأدب البرتغالي في القرن السابع عشر

وجد القرن السابع عشر البرتغال في حالة من الانحطاط الادبي والسياسي. كان التأثير الاسباني قد ادخل محاكم التفتيش الى البلاد، قبل ان تسلب اسبانيا من البرتغال استقلالها عام ١٨٥٠، ومع محاكم التفتيش دخلت الرقابة على الكتب، كما تم تحضير فهرس للكتب الممنوعة. وبين عامي ١٥٥٢ و ١٥٥٥ سيطر اليسوعيون على التعليم العالي. وكان الاعجاب باللاتينية الكلاسيكية الذي بلغ حد العبادة موجوداً بالفعل في اعمال كاميوس وغيره، وذلك قبل حدوث تأثير الشاعر الاسباني لويس دو كونكورا اي ارغوت. ولكن بعد ان تداعت الروح القومية عقب الانحطاط السياسي تغلغل اثر كونكورا - الى الأعماق.

يمكننا ان نرى مدى هذا التغلغل في المجلدات الخمسة الشعرية «العنقاء تولد من جديد» (Fenix Renasceda) (١٧١٦ - ١٧٢٨) التي تتضمن شعر القرن الماضي وتكشف عن التفاهات التي يمكن ان تكرس المواهب نفسها لها. وقد ظل هذا الاتجاه حيّاً الى ما بعد الاستقلال والتخلص من النير الاسباني عام ١٦٤٠، كما استمرت بالتواتر والظهور طبعات من اعمال كونكورا.

كانت الشخصية الأدبية الأولى لهذا العصر هي الموسوعي فرانسيسكو مانويل دوميلو (Francisco Manuel de Melo) الذي يعتبر مؤلفاً كلاسيكياً في الأدب الاسباني والبرتغالي وذلك في سلسلة من الحوادث التاريخية (Epanaforas De Varia Historia Portoguesa) yhl 0661ù ,rd o,hvhj fl,hœdy hfdn ,hpjlhydn (Apologos dialogais) . حاول مانويل ان يحرر نفسه من الخضوع للأسلوب الاسباني وشكله فاصاب بعض النجاح في اكثر من نجاحه في الشعر. ظل معظم الشعراء الغنائيين منغمسين في الكونكورية. كما استمر الشعراء الملحميون في نشاطهم، الا ان القليل

من انتاجهم يصلح لأن يسمى اكثر من عرض تاريخي مقفى. لم يصل فري برناردو دوبريتو (Frei Bernardo de Brito) الذي بدأ مؤلفه الضخم «مملكة لوزيتانيا» (Monarquia Lusitania) (جزءان ١٥٩٧، ١٦٠٩) بالخليقة وحتى تأسيس الملكية. ضم عمله مجموعة ضخمة من الأساطير بدون اساس او نقد ولكنه اثبت في مؤلفه كرونيكادي سيستر (Cronica de Cister) ١٦٠٢ ان له أسلوباً عظيماً. ثم قام فري انتونيو براندا و (Frei Antonio Brandao) وكان رجلاً ذكياً وعالماً ومؤرخاً وجدانياً باتمام «مملكة لوزيتانيا» من الفونصو هنريك (Alfonso Henriques) الى جون الثاني، فكان ـ بعمله هذا ـ افضل الأربعة الذين اكملوا هذا المؤلف. واشتهر فري لويس دوسوسا (Frei Luis De Sousa) ـ وهو مؤرخ رهباني آخر بأسلوبه المنمق في كتبه التاريخية . وهناك سيرة شهيرة تعتبر افضل ما كتب في الصعر من تأليف جاسنيتو فرير دو اندرادي (Jecinto Freire de Andrade) عنوانها « فيدا دودوم جوادو كاستر» ١٦٥١.

كما ان اليسوعي انطونيو فيرا ـ (Antonio Vieira) الدبلوماسي والمبشر والذي يعتبر لرسائله (Cartas) ومواعظه (Sermoes) واحداً من اعظم كتاب البرتغالية ـ وقد كرر النجاحات التي حققها في باهيا ولشبونة، في روما التي لقبته بأمير الخطباء الكاثوليك. وقد أثّر بادرمانيول برنارديس (Padre Manuel Bernardes) القس والراهب الذي أضفت اعماله الخطابية ومواعظه ـ مثل «الضوء والدفء» (Luz e Calor) و«الغابة الجديدة» (Nova Floresta) (١٧٠٦ ـ ٢٨) و«الرياضة الروحية» (Exercicios Espirituais) ١٦٨٦ ـ جواً من الهدوء والسكينة والطبيعة غريباً عن فيرا، فكان له تأثير قوي في تحرير اللغة من الصور البالية. وكان لترجمة بادر فريرا دوالميدا (Padre Ferreira de Almeida) للكتاب المقدس اهمية لغوية كبيرة.

اما المسرح الشعبي فاستمر في حياته المتواضعة بمسرحيات مجهولة المؤلفين لم تطبع بل وصلتنا بصيغة دينية بشكل رئيسي، وفيها ظهرت اساءات الاسلوب الكونغورستي من مجازوتشبيه. وقد كتب معظم المسرحيين الذين ارادوا ان تقرأ مؤلفاتهم بالاسبانية ـ كما فضل البلاط بعد عام ١٦٤٠ الاوبرا الايطالية والمسرحيات الفرنسية والاوبرتا الاسبانية. وكل هذا ادى الى انهيار المسرحية الوطنية والتمثيل المحلي.

الفصل العاشر

أدب امريكة اللاتينية في القرن السابع عشر

في حوالي عام ١٦٠٠ كان عهد الفتوحات قد انقضى، وبدأ العالم الجديد تطور اقل إثارة لمدة قرنين تحت الحكم الاسباني ـ البرتغالي. وقد أسست اول مطبعة في الامريكيتين في مدينة مكسيكو حوالي عام ١٥٣٩، ثم اسست اخرى في ليما عام ١٥٨٤، ومنحت المدينتان رخص بتأسيس جامعات عام ١٥٥١. اما في البرازيل فلم تؤسس اية جامعة او دار للطباعة حتى نهاية الحكم الاستعماري. ولكن كرّست طبقة كانت تتمتع بوقت فراغ في كل مكان في الامريكيتين اكثر فأكثر من وقتها لمتابعة هواياتها الفكرية والفنية، كما شجعت الروابط الوثيقة مع البلاد المستعمرة تطور انماط ادبية مماثلة ، واصبحت الحياة في المستعمرات انعكاساً لاتجاهات شرقي الاطلسي، لذا لم يكتب اي شيء ذو اصالة لمدة قرنين.

استعمل المسرح الذي نشأ من الأشكال الوسيطية في وقت عهد الفتوحات خلال القرن السادس عشر كوسيلة تبشيرية في اللغات الهندية لتنصير السكان الأصليين. اما المسرحيات التي قدمت للمواليد البيض والهجين، فكانت بشكل رئيسي اسبانية او برتغالية، وحتى المسرحيات التي الفت في امريكا كانت تقليداً لتلك التي كتبت في العصر الذهبي في اسبانيا والبرتغال، وبشكل خاص في اسبانيا، اذ كانت مسرحيات اعظم كتاب المسرحية المحليين، وهو المكسيكي خوان رويز دو الركون (Juan Ruiz de Alarcon) تنتمي الى اسبانيا اكثر من غيرها.

لم يظهر أدب الرواية الذي منعه وحرمه العرش الاسباني إلا بعد الاستقلال، لذا فقد خلت الساحة في النشر للمؤلفات التاريخية وكتب السيرة. ومن افضل ما كتب في هذا المجال المحاضرات المصورة المساة «دليل السائح عديم الخبرة» (El

Lazarillo de Ciegos Caminantes) حوالي عام ١٧٧٣ كتبه احد موظفي البريد الاسبان، واسمه الونزوكاريو دو لا فندير (Alonso Carrio De La Vandera) الشهير باسم كونكولور كورفو (Concolor Corvo) الذي كتب بناء على رحلة بين بيونس ايرس وليما.

كان الشعر أكثر الأشكال الأدبية شعبية، وقد جذبت مباراة اقيمت في المكسيك عام ١٥٨٥ اكثر من ٣٠٠ ناظم للشعر كانوا تلاميذ غير مكترثين لمذهب لويس دو كوكورا اي ارغوت، ويمكن الاطلاع على شعرهم في المجموعة الشعرية الفريدة «طاقة من الازهار الشعرية» (Ramillete de Varias Flores Poeticas) ١٦٧٥ التي جمعها جاسنتتو دو ايفيا (Jacinto De Evia) من الاكوادور. تتفوق على الجميع شاعرة اتت فيما بعد، هي الراهبة المكسيكية سورجوانا انيس دو لا كروز (Sor Juana Ines De La Cruz). أبقاها المعجبون بها في العالم الغربي كله تحت الاضواء، واضافت الى شهرتها حين اصبحت المدافعة الأولى عن حقوق المرأة ومجادلة من الطراز الأول مستعدة دوماً لدخول الحلبة حتى ضد افصح مبشر جزويتي في عصره وهو انطونيو فيرا (Antonio Vieira). ولا تزال مسرحيات سورجوانا ومقالاتها الدينية وسيرتها الذاتية التي تكشف عن الكثير، وفوق كل هذا قصائدها الدينية وغير الدينية ذات الجمال البسيط والعاطفة المحببة الخالية من الافراط في الاسلوب الكونكوري تعتبر من اروع المنجزات الأدبية في امريكا اللاتينية.

وبينما كانت الفترة الاستعمارية في طريقها الى الزوال كان يسمع بين الحين والآخر صوت احتجاج ضد انحطاط حياة نواب الملك وأدبهم. وقد تأثر البيروفيان خوان دل فان اي كافيديس (Juan Del Valley Caviedes) وغريغوريو دوماتوس غويرا صاحب الأقوال المأثورة الذي اطلق عليه الناقد الاسباني فرانسيسكو كوفير دو كوفيد اي فيليكاس لقبه «الناطق باسم الشيطان» في البرازيل، تأثر بالكات الهجائي الاسباني فرانشيسكو غوميز دي كويفيدو اي فيليجاز. انتشر شعرهما على نطاق واسع وخطي بشعبية فائقة.

الفَصل الحَادي عَشَر

الأدَب الاسكندنافي في القـرن السّـابع عَشـر

الأدب السويدي:

بقي الأدب السويدي محدوداً كماً وكيفاً في النصف الأول من القرن السابع عشر. وعلى كل حال ساهم لارس ويفاليوس (Lars Wivalius) مساهمة فريدة من نوعها ، اذ تكشف قصائده الغنائية، التي كتب العديد منهـا وهـو سجـين ، عن احساس بالطبيعة جديد على الشعر السويدي . وبتدخلها بحروب الثلاثين عاماً ، برزت السويد كقوة اوروبية وقد آل هذا الى تطور كبرياء قومي وثقافة قومية ، كما يظهر ادب هذه الحقبة . كان العمل البارز هو الملحمة المجازية «هرقل»(Hercules) التي الفها جورج ستيرنهيلم (Georg Stiernhielm) والتي عكست الكثير من مشاكل العصر السياسية والاجتماعية. كان ستهرنهيلم ابرز شخصية ادبية في القرن السابع عشر، قضى الكثير من وقته في بلاط راعية الفنون الشهيرة: الملكة كرستينا، ومـن اتباعه الأخوان كولومبوس (Columbus) اللـذان كتـب احـدهما واسمـه صامـوئيل قصائد غنائية سويدية من نوع «الأود» (Odaoe Sueticae) ١٦٧٤، ومؤلفـاً نثـرياً بعنوان «مال رو إلر رومال» (Mal-Roo Eller Roo Mal) وهي مجموعة من الفكاهات القصصية التي تلقي ضوءاً على شخصية تسـير نهيلـم (Georg Stiernhjelm) وكان ستوجيكا باركبو (Stogekar Bargbo) الذي لم تصلنا اية معلومات عن شخصيته، منافس ستير نهيلم اول كاتب لطائفة من القصائد الغنائية من نوع «السونت» باللغة السويدية بعنوان «وينرد» (Wenerid) ١٦٨٠. شكل عدد من المعجبين بستير نهيلم بمن فيهم اربان هيارن (Urban Hiarne) مجموعة في ابسالا (Uppsala) في الستينات من القرن السابع عشر. كما قاد هيارن فرقة من الممثلين التلاميذ الذين مثلوا عام ١٦٦٥ مسرحيته «روزيماندا» (Rosimunda) ، امـام الملك الشـاب شارل الحـادي

عشر. وبالاضافة الى ذلك نظم قصائد غنائية، والرعوية النثرية «ستراتونيك»)غُفصغحةخلأق((١٦٦٦ ـ ٦٨) وهي اول القصص السيكولوجية في السويد.

هدف ستيرنهيلم الى دمج تراث السويد الثقافي بالكلاسيكية الأوروبية ومثلها المقبولة. كما تمتلىء ملحمته «هرقل» بالكلمات السويدية التي كان تواقاً لاحيائها. وطالب كولومبوس بدوره بلغة اقوى، واكثر مرونة كما فعل سكوكيكار باركبو في «ندب اللغة السويدية» (Thet Swenska Sprakets Klagemal) ١٦٥٨. ويمتزج الكبرياء القومي والشعور الديني في مؤلفات الاسقفين هاكوين سبيكل (Haquin Spegel) وجاسبر سويدنبرغ (Jesper Swedenberg) والد المتصوف السويدي عمانيول سويدنبرغ (Emanuel Swidenberg). كما ساهم سبيكل في كتاب «الترانيم» الذي ألفه سويدنبرغ عام ١٦٩٥ والذي اصبح كتاب شعر الشعب السويدي ومارس تأثيراً دائماً. وحتى لوسيدور (Lucidor) كان من بين من مُثِّلوا فيه، وبهذا اعطى تعبيراً بليغاً للأمزجة المتغايرة في تلك الفترة: لقد كان وثنياً في اغانيه عن الحب، وبخاصة اغانيه في الشراب بقدر ما كان ورعاً في ترانيمه وقصائده الجنائزية.

في هذه الأثناء حاول بيتروس لاكرولوف (Petrus Lagerlof) في ابسالا ان يفرض مقاييس كلاسيكية اكثر نقاءً على الأدب الوطني، كما قام اولوف فريليوس (Olof Verelius) بمراجعة ملاحم ايسلندية وترجمتها وعلى كلٍ كان اولوف رودبك (Olof Rudbeck) هو الذي اهتم بمؤلفات فريليوس وطور بحماس نظرية تقول ان السويد هي قارة اكلانطس المفقودة وكانت مهد الحضارة الغربية وعرض هذه النظريات في عمل ضخم عنوانه «اتلاند الرمانهايم» (Atland Eller Manheim) (١٦٧٩ ـ ١٠٧٢) الذي فاز بشهرة اوروبية عندما ترجم الى اللاتينية تحت عنوان «اطلنطيقا» (Atlantica).

سارت الميول الباروكية والكلاسيكية جنباً الى جنب في الأدب السويدي في اواخر القرن السابع عشر، فكتب كونويوريليوس (Gunno Eurelius) (كونودا هلستيرنا) ملحمة موسعة عنوانها «ترنيمة للملك» (Kungaskald) بمناسبة وفاة الملك شارل الحادي عشر عام ١٦٩٧. وكان يوهان رونيوس (Johan Runius) ابسط منه اسلوباً وعبّر عن رواقية مسيحية من النوع الذي نجده لدى السويديين اثناء العقود

المشؤ ومة الأولى من القرن الثامن عشر. كان جاكوب فريز (Jacob Frese) شاعراً اكثر رقة وتقرباً وصراحة، وقد شملت قصائده الغنائية وترانيمه بعض الورع العاطفي الذي اصبح سمة للفكر في القرن الثامن عشر.

الادب الدانماركي:

في القرن السابع عشر وصلت حركة النهضة الأدبية الى الدانمارك، وأدت الى تقيد الدانماريكيين الشديد بالنماذج الكلاسيكية، والاعتقاد الأعمى بالسلطة العليا سياسياً ودينياً وادبياً. وفي الأدب الديني سيطر الحتميون اللاتين والكراسات اللاتينية التي تعكس خرافات العصر.

وعلى كل كانت الفترة فترة مجلية في العلوم والبحث العلمي، اذ يشتهر اول ورم (Ole Worm) بكتابة عن النقوش الرونية «المسمى مونيومينتا دانيكا» (Monumenta Danica) ١٦٤٣. كما ادخل تورمود تورفيوس(Thormad Torfaeus) وآرني ماجنوسون (Arni Magnusson) دراسة أدب اللغة الاسكندنافية القديمة، وقام بيدر هانسن رزن (Peder Hansen Resen) بمراجعة بعض الشعر النورسي الملحمي في كتاب «ايدا» (Edda) وترجمتها كما ادخل اريك بونتوبيدان(Erik Pontoppidan) وبيدرسيف (Peder Sev) دراسة لغوية للدانماركية.

مال الشعر الدانماركي في القرن السابع عشر الى تقليد الأدب الكلاسيكي تقليداً اعمى. كانت الاشكال والأوزان الشعرية المفضلة هي الوزن السداسي والاسكندري والقصيدة الغنائية من نوع «السونت». كما تجنب الكتاب البساطة عن عمد فالاسلوب اسلوب منمق مشحون بالمجاز والتشابيه والتعبير غير المباشر. وقام اندرز اريبو (Anders Arrebo) بترجمة «ترانيم سفر المزامير» وكتب مؤلف «هيكساميرون» (Hexaemeron) (١٦٦١) وهو نسخة دانماركية لمؤلف فرنسي عنوانه «لا سيمان»(La Semaine) للشاعر الفرنسي غويوم دوبارتاس(Guillaume de Bartas) من القرن السادس عشر. وكان القرن غنياً بشعر المناسبات، مثل الأعراس والولادات او رثاء لميت يعده الشاعر المثل الأعلى في الفضيلة. كما كانت القصائد التعليمية

والرعوية شائعة بدورها. وكان اندرز بوردنغ (Anders Bording) ـ وهو احد دعاة الشعر الباروكي الدانمركي ـ مؤسساً لأول جريدة دانمركية اسمها «دن دسكا مركوريوس» (Den Danska Mercurius) (١٦٦٦) وفيها ظهرت الأخبار في شعر اسكندري مقفى. كان ثوماس كنغو (Thomas Kingo) استاذاً متفوقاً بكل افانين الشعر تقريباً. تعكس ترانيمه الدينية شخصية عنيفة عاطفية دنيوية، لكنها متدينة متزمتة. ومن المسرحيين القلائل كان موغنز سكيلي (Mogens Skeel) جديراً بالذكر.
تعتبر مذكرات ليونورا كرستينا (Leonora Christina) ابنة كرستيان الرابع متميزة الاهمية بين المؤلفات الدانمركية النثرية من القرن السابع عشر، وهي وثيقة رائعة اكتشفت عام ١٨٦٩ ، وفيها تقص ليونورا قصة سجنها عشرين عاماً في البرج الأزرق في كوبنهاجن .

الأدب النرويجي :

بدأ الاتحاد السياسي بين الدانمارك والنرويج عام ١٣٨٠ ، فأصبحت الدانمركية نتيجه لذلك اللغة الرسمية والادبية ، وغدت كوبنهاجن بجامعتها العاصمة الثقافية للبلدين . لم تظهر أية بوادر على نشاط أدبي مجدد في النرويج حتى بعد الاصلاح الديني . مثال ذلك كتاب بقلم ابشالوم بيدرسون بير Absalon? (Pedersson Beyer وضعه عام ١٥٦٧ وعنوانه «أوم نورجس ريج» (Rige Om Norgis) وفيه يدافع عن النرويج . أما أكثر الكتاب النرويجيين اصالة وتمثيلاً لهذه الفترة فهو بيترداس (Petter Dass) ، اذ يمدنا كتابه «بوق نوردلاند» (Trompet Nordlands) بصورة حيوية كتبت شعراً عن حياة رجال الدين في أقصى شمال النرويج . ومع أن هذا المؤلف اكمل قبل نهاية القرن على الاغلب فهو لم ينشر حتى عام ١٧٣٩ .

الأدب الايسلندي :

يأت هاليغر بيترسون (Hallgrimur Pettrsson) في مقدمة الشعراء الايسلنديين في القرن السابع عشر . وهو راعي ابرشية لوثري ، ناضل ضد الفقر والمرض .

وتعتبر «ترانيمه حول آلام المسيح» (Passiusalmar) ١٦٦٦ من اكثر الكتب شعبية في ايسلنده . وهناك شاعر آخر مهم ، هو ستيفان اولافسون (Stefan Olaffson) لانزال نذكره لمؤلفاته الدينية والدنيوية ، وتميزت الاخيرة بتصويره الفكاهي لمعاصريه ، وملاحظاته النقدية للسلوك والعادات .

وكما هي الحال بالنسبة للبلدان الاخرى بدأ الاهتمام بالماضي أثناء القرن السابع عشر ، ويمكن ان يقال بان العلم الحديث تعود بدايته الى هذه الفترة . وقد لفت ارنغرمر جونسون (Arngrimur Jonsson) أهتمام العلماء الدانمركيين والسويديين الى التقاليد الايسلندية والأدب الايسلندي في سلسلة من المؤلفات باللاتينية ، أحتوى بعضها على مختصرات لملاحم طواها النسيان . وفي أواخر القرن جمعت آرني مكنوسون (Arni Magnusson) المخطوطات الايسلندية الأولى . ومع أن القرن السابع عشر كان عصر علم ؛ الا أنه كان كذلك عصر خرافات ، كما يظهر في قصة «الآلام» (Pislarsaga) التي كتبها راعي الابرشية جون كانوسون (Jon Magnusson) واصفاً فيها اضطهاد السحرة اياه . وأدت تذمراته الى حرق ضحيتين بريئتين عام ١٦٥٦ . ويعتبر نشر هذه القصة الكئيب مثالاً مثيراً للاهتمام على نشر الفترة ..

الفَصْل الثّاني عَشَر

أدَب أوروبّا الشرقية في القـرن السابع عَشر

الأدب الر وسي :

شهدت نهاية القرن السـادس عشر وبـداية القـرن السابـع عشر في روسيا حوادث سياسية عاصفة تميزت بنضال مكثف ضد الاقطاعية دفع اليها الفلاحـون الـذين اجهدتهـم عبـودية الأرض فقـراً ، والبـويار(Boyar) الـذين كان النبـلاء الاقطاعيون قد الحقوا بهم الهزيمة . وزاد الوضع تأزماً تدخل السويديين والبولنديين الذين صدتهم الجهود المتحدة للشعـب الـروسي . وصفـت أيام القلاقـل هذه في سلسلة من القصص التي عكسـت لانتفاضـات السياسية والاجتماعية كما خلـدت ذكرى الموجة العارمة من الوطنية ضد التدخل الاجنبي . لهذا تحطمت اناقة التقليد المسكوفي للأدب ومهارته ، وأدخل كتاب جدد وقراء جدد من المراتـب الاجتماعية الادنى المواضيع العلمانية والواقعية والفلكور الى الأدب . وتتوفر الامثلة على ذلك في القصص التي تروى احتـلال مدينـة آزوف(Azov) عام ١٦٣٧ على ايدي قوزاق الدون(Don Cossacks) وحصار الاتراك اياها عام ١٦٤١ ، التي تعتبر اعمالا أدبية بارزة . ساعدت العلاقات الدولية لدولة مسـكوفي (Muscovy) على تدفـق الأدب العلماني من الغرب . وهكذا حلّت القصة العلمانية المترجمة ، وقصة الفروسية ، والقصة الفكهة ، محل الأدب التعليمي الديني البيزنطي ، او سارت جنباً الى جنب معه ، كما شرع الفولكلور يفرض نفسه بشكل ملحوظ .

في النصف الثاني للقرن السابـع عشر بدأت القصـة الـروسية العلمانية في الظهـور . والى جانـب القصص التـي لا زالـت تسيطـر عليهـا تقـاليد الكنيسـة

المحافظة ، ظهرت قصص هزلية مثـل «قصـة فرول سكوبييف» (Povesto Frole Skobeyeve) «وقصة كارب سطولق» (Sutulove Povesto Karpe) وكلتاهما خاليتان من المبادىء الاخلاقية والدينية المتعارف عليها . كما بدىء كتابة هجـائية وهازئـة للبلاط والكنيسة والاجـراءات القانـونية . وقـد تم تحـويل السـيرة الـذاتية لزعيم المؤمنين القدامى الحبر الاعظم افاكوم(Avvakum) التي كتبت بـين عامـي ١٦٧٢ و١٦٧٥ والمسماة «سيرة حياة الحبر الاعظم افاكوم بقلمه» من الشكل الاكلـيريكي للسيرة الدينية التقليدية الى قصة جدلية حادة ، كتبت بلغة المحادثـة التـي تتدفـق بالحيوية والحياة .

في بداية القرن السابع عشر ، وتحت تأثير الانماط البولندية بشكل رئيسي بدأ الشعر يتطور ، وكان في أول امره بدائياً خلوا من التنظيم الايقاعي ، لكن أدخل بعد ذلك الشعر الذي يعتمد على عدد المقاطع وجـرى تطـويره . في عام ١٦٧٢ وبمساعدة قس لوثري ألماني في موسكو يدعى ايوغان كوتغـرد كريكوري (Iogann Gotfrid Gregori) أنشيء مسرح علماني بلاطي استعمل مسرحيات غربية بشـكل اساسي . وظهرت في نفس الوقت تقريباً ، وفي موسكو بالذات ، أولى محاولات سيميون أوف بولتسك(Simeon Of Poltosk) للكتابـة للمسرح المدرسي . تتمتـع بأهمية خاصة هزلية «كوميديا قصة الابن المبذر» (نشرت عام ١٦٨٥) ، وفيها كيِّفت القصة الانجيلية لتعالج موضوع الآباء والابناء في روسيا . وهكذا نستطيع ان نرى ان الادب الروسي كان في النصف الثاني من القرن السابع عشر انتقالياً ما بين الأدب القديم والأدب الحديث الذي يبدأ بمطلع القرن الثامن عشر .

الأدب البولندي :

بدأت الفترة الباروكية مبكرة جداً في بولندا . ففي عام ١٥٦٤ دعا البولنديون اليسوعيين للاقامة في البلاد ، وهكذا منـذ عام ١٥٧١ بدأ الاثـر البروتستنتـي في التضاؤ ل . كان الاسلوب والنظرة الباروكيان للأمور ملائمين للروح البولندية . اتصفت تلك الفترة بانتاج أدبي وفير بالرغم من الحرب المستمرة تقريباً . بل ربما اعكس الأدب باسلوبه المتوتر النزاع الخارجي الذي تميز به القرن السابع عشر .

لقد نظم ميكولاج سب زارزنسكي (Mikolaj Sep Szarzynski) الذي كتب بشكل رئيسي شعراً دينياً يشبه كتابات الشعراء الميتافيزيقيين الانكليز - مبشراً بالشعر الباروكي . وفي هذه الفترة شاعت بالدرجة الأولى الأنواع الشعرية الهجائية والرعوية - وكان في مقدمة الشعراء النقاد كرزتوف اوبالنسكي (Krzysztof Opalinski) ، وكانت مجموعته الهجائية «ساتيري» (Satyry) ١٦٥٠ مريرة متشائمة وواسعة المدى . مثل الاتجاه الرعوي في الأدب صاموئيل تواردوسكي (Samuel Twardowski) مؤلف «دافنيس» (Daphnis) ١٦٣٨ والرومانسية «بسكالينا الساحرة» (Nadobna Pasqualina) ١٦٥٥ ، وهي قصة حب مقدس دنيوي تمثل أوج وروعة منجزات الباروكية البولندية . كما أدخلت مجموعة شعر في الحب عنوانها «روكسولانكي» (Roxolanki) ١٦٥٤ للشاعر زيمون زيمورويك (Szymon Zimorowic) ومجموعة اخرى لأخيه بارتولومي (Bartlomie) عنوانها «رعويات» (Sielanki) عناصر درامية موضوعية الى القصيدة الرعوية التقليدية ، فقد طبقت صور الحرب والموت على الخلفية الرعوية بتأثير رهيب وتنافر باروكي نموذجي . كما كان هنالك شكل أدبي شبيه لكنه أقل شكلية وأكثر خشونة جاء بالكثير من الشعر الذي يصور الحياة الريفية ، كان أكثره نجاحاً مؤلف عنوانه «فوتوم» (Votum) للشاعر زيكينو مورزيتن (Zbigniew Morsztyn) الذي يعد أروع ما كتب في مجال الشعر الديني . وفي المقابل نجد مؤلفات ابن عمه جان اندرزيج مورستين (Jan Andrzej Morsztyn) الذي تميزت لغته بالمبالغة الاسلوبية الايطالية من القرن السادس عشر . كما أن تعقيده الشكلي ومهارته هما أمران لم يجاريه فيهما أحد . وقد ظلت ترجمته لمسرحية «السيد» للشاعر المسرحي الفرنسي كورنيل الترجمة البولندية النموذجية .

تميز العصر بطموحه الذي يرمي الى وضع ملاحم بطولية . ربما كان الباعث على ذلك ما جرى من حوادث تاريخية كالحروب مع السويد وروسيا وتركيا ، وكالثورات الداخلية ومحاولات ادخال اصلاحات دستورية . الهمت ملحمة تاسو «القدس المحررة» التي ترجمها بيوتر كوشانوسكي (Piotr Kochanowski) ترجمة رائعة محاولات وطنية لكتابة ملحمات في المواضيع القومية ولا سيما ملحمة «حرب تشوسيم»

(Wojna Chocimska) (١٦٧٠) العنيفة التي ألفها وكلو بوتوك(Waclaw Potock) .
وهناك ملحمة ثانية عنوانها «بسالومودیا بولسكا» (Psalmodia Polska) (١٦٩٥)
للشاعر وسباجان كوشوسكي (Wespazjan Kochowski) الذي ألفها نتيجة لتأثير
انتصار جوان الثالث على الأتراك بالقرب من فيينا عام ١٦٨٣ ، وهي معركة شهدها
المؤلف . كان هذا العمل أول مثال لموضوع طوره شعراء الحركة الرومانتيكية وهو
النظرة التنبؤية لمصير بولندا .

لم يرق نثر الفترة الى مستوى شعرها ، مع أنه كانت هناك وفرة من المذكرات
في طليعتها مذكرات جان كريزوستوم باسك (Jan Chryzostom Pasek) وهو مزارع
ملاك وجندي . تشتهر الفترة كذلك بظهور الرسالة كشكل أدبي . ومن روائعها
رسائل جون الثالث سوبيسكي (III Sobieski John) الى زوجته ، لما تزخر به من
عاطفة ورقة ، ولتجاربه اليومية في القتال والدبلوماسية . ثمة تطور هام آخر هو قيام
أدب شعبي لا يعرف مؤلفوه مثل «الهزليات البذيئة» (Komedia Rybaltowska) ،
وهي بشكل عام نقدية وشعبية من نوع الهزليات الشائعة كتبها بشكل رئيسي كتاب
من عامة الناس . كان بيوتر باريكا (Poitr Baryka) أحد المؤلفين المسرحيين القلائل
الذين عرفت اسماؤهم ، وكاتب مسرحية احتفالية عنوانها «الملك الفلاح» (Z
Chlopa Krol) (اخرجت عام ١٦٣٣) ، حيث يطور الكاتب مقدمة «ترويض
النمرة» لشكسبير (Taming Of The Chrew) . وصلتنا من هذا النوع حوالي ٣٠
مسرحية مجهولة المؤلف ، وهي تتضمن وصفاً واقعياً للعادات الشعبية ، وتتخللها
مواقف هزلية غريبة تنتقد (عن طريق التقليد) المواضيع الرفيعة للأدب الرسمي ،
وهي تقدم بذلك احتجاجاً غير مباشر ضد التمييز الاجتماعي .

أمتدت آخر مرحلة للأدب الباروكي (حوالي ١٦٧٥ - حوالي ١٧٥٠) عبر
حقبة مديدة من الانحطاط ، لم يميزها سوى ظهور أول كاتبة والشخصية الكبرى
لستانسلا وكونارسكي (Stanislaw Konarski) الذي نظم شعراً باللاتينية وكتب مأساة
بالبولندية عنوانها «تراجيديا ابامنيونندي» (Tragedia Epaminondy) ، ومقالات
سياسية ، وكان مصلحاً في حقول التعليم والأدب والنظام السياسي .

لم يلق الأدب الباروكي تقديراً كاملاً حتى اواسط القرن العشرين . ويمكن اعتباره اكثر الاساليب البولندية بقاء لتكرر الكثير من ملامحه وميزاته في الفترة الرومانتيكية ، وفي الكتابات الحديثة .

الأدب الأرمني :

ظهرت في القرن السابع عشر علامات تشير الى أن الأرمن بدأوا يشقون طريقهم من الانحطاط الثقافي الذي امتد عدة قرون . وظهرت اعمال الاسياد الاتراك والفرس بشكل بارز في كتب تاريخية الفها اراكيل التبريزي . Araqel Of) Tabriz) وزكريا القسيس (Zaqaria) **وأرميا شلبي كومورجيان** (Eramia Chelebi Kömürjian) ، الا انه كان هناك بعض الاحتكاك بالعلماء الغربيين والمؤلفات اللاتينية . اشترك اوسكان اوف اريفان (Oskan Of Erevan) المولود عام ١٦١٤ في المستعمرة التجارية التي أسست حديثاً في نيوجولفا (New Julfa) التابعة لأصفهان مع الدوميناكني بيرانديلي (Pirandelli) ، بطبع اول كتاب مقدس بالارمنية في أمستردام عام ١٦٦٦ .

وبدءاً من القرن الثالث عشر مارس الكتابة الخيالية عدد من الشعراء التروبادرو الشعبيين ، أشهرهم نهابت كوتشاك (Nahabet Kuchak) (القرن السادس عشر) ، وهو أحد الشعراء الأرمن الأفذاذ الذين تغنوا بالحب الجسدي ، ثم يليه . هوفناتان نقاش (Hovnatan Naghash) (١٦٦١ - ١٧٢٢) . وفي القرن التالي برز أشهر هؤلاء الشعراء اروثين صياديان (Aruthin Sayadian) الذي يدعى احياناً صيات نوفا (Sayat- Nova) .

الأدب الهنغاري :

كانت هنغاريا في القرن السابع عشر لا تزال مجزأة الى ثلاثة اجزاء اولها ذلك الجزء الذي حكمه الاتراك والذي لم يلعب أي دور في تطور الادب الهنغاري . وثانيها الجزء الخاضع لأسرة هابسبرغ الذي كان منفتحاً على الأثر الايطالي ،

والألماني ، والكاثوليكي . والجزء الثالث وهـو ترانسلفـانيا كان على اتصـال وثيق بالفكر البروتستنتي ، الهولندي منه والانكليزي . كان جانوس أبازاي سير(Janos Apaczai Csere) أهم عالم وكاتب بروتستانتي في القرن السابع عشر ، وقد حاول في مؤلفه الرئيسي ، وهو موسوعة هنغـارية ان يلخص العلـم في زمانـه ، الا ان الكتاب يشير الى تطور المفردات التقنية البلغارية .

في نهاية القرن السادس عشر كانت حركة الاصلاح الديني المضاد تتسارع في غربي هنغاريا ، وقد برز كاردينال يسوعـي هو بيتـر ارزمانـي (Peter Pazmany) كخطيب وأستاذ للنثر الهنغاري ، وككاتب مقالات من الطـراز الأول . امتـازت كتاباته بصفة رئيسية بقوة اسلوبه ـ فهو واضح وإن لم يكن بسيطاً ويستعمل تعابير متداولة ـ وبترابط الافكار ، وكانت مؤلفاته مثاراً للجدل . ويعتبر كتابه «الدليل الى الحقيقة الالهية »(Isteni Igazsagra Vezerlo Kalauz) ١٦١٣ وفيه يدحض المبادىء غير الكاثوليكية ـ تحفة من النثر الباروكي .

تحت تأثير اليسوعيين أفاء الكثير من الارستقراطيين الهنغـاريين الى العقيدة الكاثوليكية ، وبعثوا بأبنائهم الى الجامعات الكاثوليكية النمساوية والى روما إذ تعرفوا على الاسلوب الباروكي الذي لا يمكن ان نراه في مؤلفات ميكلوس زريني (Miklos Zriny) وهـو سياسي وجنـرال هنغـاري عظيم في عصره . وكان معظـم مؤلفاته النثرية عرضاً لافكار سياسية واستراتيجية ، وأعظم انجاز له ملحمة عنوانها «مخاطرة زيجيت»(Szigeti VeszeDelem) في خمسة عشر «كانتو» ، وقطعـة شعـرية حول حصار زجنتفار(Szigetvar) ١٥٦٦ ، التي دافع عنها جد «زريني» الأكبر ضد الاتراك . ومع أن أثر الملحمـة الكلاسيكية واضح الا أن المؤلف هنغـارياً عميق الاصالة . وقد نجح زريني في تطعيم الحقائق التـاريخية بقيم رمـزية عبـرت عن افكاره السياسية . كما ألف شاعر ملحمـي آخـر في هذه الفتـرة اسمـه اصطفـان كيونكيوسي(Istvan Gyongyosi) العديد من قصائد الميلاد ، وامتاز بقوة الابتكار ، وسهولة استخدام الاوزان . لذا كانت مؤلفاته جد منتشرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويبدو أن قرض الشعر كان ـ خلال هذه الفترة ـ النمط السائد بين جميع الطبقـات . فقـد نظـم الـوطنيون الهنغـاريون الـذين حاربـوا الألمان وأسرة

هابسبرغ (ويدعون بالهنغارية) «كوروث» قصائد آخاذة الروعة وصفاً لحالة فقرهم وبؤسهم وافراحهم ، والاعمال العظيمة لشخصيات القدرة البارزين ، وليس هذا فحسب ، وانما كانت تلك القصائد - الاغاني مصدر الالهام للعديد من الشعراء الهنغاريين ، وبالتالي امتازت بصفات فنية رفيعة .

الأدب التشيكي :

أدى اندحار القوات البوهمية البروتستنية على ايدي أسرة هابسبرغ عام ١٦٢٠م في معركة الجبل الأبيض الى الحاق الاقاليم التشيكية بامبراطورية أسرة هابسبرغ والى محو البرتستنتية من البلاد . حل القادمون الجدد محل النبلاء ، وكانوا قليلي الاطلاع على اللغة التشيكية . وأستمرت التقاليد الادبية التشيكية بين اللاجئين فقط الذين من أبرزهم جان آموس كومنسكي(Jan Amos Komensky) . وأظهرت مؤلفاته التي بحثت المشاكل التعليمية واللاهوتية باللاتينية والتشيكية معاً أنه كاتب ومفكر على المستوى الأوروبي . وكان مؤلفه «متاهة العالم وفردوس القلب» احد أعظم المنجزات التشيكية في النثر الأدبي . كان بعض الادب اليسوعي الجديد ذي نوعية رفيعة، ولاسيما شعر بدرتيش برايدل(Bedrich Bridel) والمؤلفات اللاتينية لبوهوسلاف بالبين(Bohuslav Balbin) الذي تجلت وطنيته التشيكية في دراساته ماضي بلاده ، وفي دفاعه الرائع عن اللغة التشيكية .

في بداية القرن الثامن عشر لم تعد التشيكية لغة الاغراض الادبية العليا واقتصرت المؤلفات الأدبية على مسرحيات بدائية غير مصقولة كتبت بالعامية الدارجة وعلى الكتيبات الشعبية ، وشعر الاغاني الشعبية الذي عكس بقوة التململ وعدم الرضاء بين الفلاحين .

الأدب الكرواتي :

شغل ايفان جوندوليك(Ivan Gundulic) - مؤلف الملحمة المثيرة «عثمان» (Osman) وفيها يصف انتصار البولنديين على الاتراك عام ١٦٢١ - أهم مركز في

الأدب الكرواتي في القرنين السابع عشر والثامن عشر . كما نظم ايفان بونيك ـ فوسيسفيك (Ivan Bunic - Vucievic) عدداً من القصائد الغنائية البديعة ، وكتب الشاعران اغنات ديردفيك (Ignjat Durd - Evic) وانطون كانزليك (Antun Kanizlic) شعراً على النمط الباروكي . وعالج اندريجه كاتشيك ميوسيك (Andrija Kacic Miosic) المواضيع التاريخية حسب الصيغ الشعرية الشعبية للشاعر الجوال في حلقة تعالج التاريخ السلافي الجنوبي من الاسكندر الأكبر (الذي اعتبر بطلاً سلافياً) الى عصره (١٧٥٦) . كما كتب تيتو برزوفاكي (Tito Brezovacki) كوميديات ومثل في شعره النقدي روح العصر .

الأدب السلوفيني :

دمرت حركة الاصلاح الديني المضاد جميع الانتاج الادبي البروتستنتي لخمسين عاماً بدءاً من منتصف القرن السادس عشر باستثناء «الكتاب المقدس» ، ولم ينتعش الأدب الديني الا حوالي عام ١٧٠٠ بكتابة مواعظ باروكية ألفها جاينز زفيتوكرسكي (Janez Svetokriski) وروجريج (Rogerij) ومسرحيات كتبت بمناسبة اسبوع الآلام من تأليف رومولد (Romuald) في اسلوب نقي نسبياً . وكان أهم عمل علماني ذلك الوصف الألمعي الوطني بالالمانية لـ كارنيولا (Carniola) الذي وضعه البارون جانيز فاجكارد فلفاسور (Janez Vajkard Valvasor) .

الأدب الروماني :

أستمرت طباعة الكتب الرومانية الدينية في القرن السابع عشر ، وأعطيت زخماً جديداً في ترانسلفانيا وولاشيا ومولدافيا وذلك بالجدل الناجم عن الاصلاح الديني .

وفي مولدافيا حيث كانت الاديرة مراكز للدراسات اللاهوتية وجد رد الفعل ضد الاصلاح الديني تعبيره في مؤلف عنوانه «الجواب» (Raspuns) ١٦٤٥ لمطران يدعى «فارلام» (Varlam) . «والجواب» موجه ضد تعليمات عقائدية كالفينية طبعت

عام ١٦٤٢ . هرب مطران مولداً في عالم لاهوتي كبير اسمه دوسوفتي (Dosoftei) الى بولندا ، اثناء القتال بين بولندا وتركيا ، وفي عام ١٦٧٣ نشر هناك أول ترانيم رومانية شعرية هي أول شعر يكتب بالرومانية ، وعاد الى مولدافيا عام ١٦٧٥ . وفي عام ١٦٧٩ ترجم طقس القربان المقدس من الاغريقية . اما مساهمته الاخرى البارزة في الادب الروماني فتتمثل بـ «سير القديسين» (Vieata Si Petrecere Sfintilor) (١٦٨٢ - ١٦٨٦) التي ادخل فيها مصطلحات شعبية وشجع بواسطتها تطور اسلوب نثري اكثر مرونة .

في حوالي نهاية القرن السابع عشر أصبح دير سناغوف (Snagov) بالقرب من بوخارست مركز نشاط أدبي ، وطبعت الكتب بالرومانية والاغريقية والسلافية والعربية . كما أدخل طباع روماني اسمه ميهاي صطفيان (Mihai Stefan) الطباعة الى القوقاز حيث طبعت اولى الكتب الجورجية . وبلغ الأدب الديني أوجه بترجمة للكتاب المقدس عام ١٦٨٨ ، أصبحت الاساس لكل الترجمات التي تمت فيما بعد. وصل التأريخ أوجه بالمؤرخين الانسانيين لمولدافيا القرن السابع عشر الذين قادهم ميرون كوستين . (Miron Costin) . كتب كوستين تاريخاً لمولدافيا ونظم قصيدة حول تاريخ البلاد مستعملاً اللغة البولندية ، وأتم هذا العمل ابنه نيقولاي (Niculae) الذي كان رائداً في جمعه الفولكلور والاساطير . اما ديمتري كانتيمير (Dimitrie Kantemir) امير مولدافيا والمؤرخ واللغوي الكبير فقد كتب باللاتينية عن تاريخ رومانيا ومولدافيا والامبراطورية العثمانية . ويشغل نيقولاي ميلسكو (Nicolae Milescu) مركزاً خاصاً بين المؤرخين المولدافيين ، اذ ألف كتباً لاهوتية وتاريخية وسياحية . وكان المؤرخون الولاشيون (Walachian) على العموم أقل اصالة وأكثر تعبيراً عن ذاتهم .

الباب الخامس

القرن الثامن عشر

ميزات العصر

ان تسمية القرن الثامن عشر بعصر العقل هي تسمية مفيدة ، لكنها لا تعطينا الا نصف الحقيقة وتسبب بالاضافة الى ذلك ـ الالتباس والفوضى في الصورة العامة للعصر ، لأن اولوية العقل كانت من علائم بعض فترات العصر السابق . والقول بان القرن الثامن عشر تميز بدافعين رئيسيين هما العقل والعاطفة اكثر صحة . فقد انعكس احترام العقل في السعي خلف النظام والتناسق واتباع الاصول والمعرفة العلمية . اما العواطف فانعكست في الاحسان وتمجيد العلاقات الشخصية ، والحماس الديني ، والاحساس والعاطفة المفرطة . في مجال الأدب شجع الحافز العقلاني على الهجاء والنقد والنقاش ، والفكاهة الفكرية ، والنثر البسيط ، اما العاطفة فأوحت بالرواية النفسانية وبشعر الرفعة .

يتمثل انتشار روح الفكاهة الفكرية والنقد والجدل بشكل واضح في انكلترا في مؤلفات الكسندر بوب(Alexander Pope) وجوناتان سويفت(Jonathan Swuft) وصاموئيل جونسون(Samuel Johnson) ، وبهذا كانت استمرار التقليد جون درايدن من القرن السابع عشر . وتأسست الرواية كشكل رئيسي من الاشكال الفنية ، وذلك بواقعيتها العقلانية التي انعكست في مؤلفات هنري فيلدنغ(Henry Fielding) ودانيال دوفو(Daniel Defoe) وطوبياس سمولت(Thobias Smollet) ومن ناحية اخرى بالكشف النفسي لروايات صاموئيل ريتشاردسون (Samuel Richardson) ولورنس ستيرن (Laurence Sterne) في رواية «ترسترام شاندي» (Tristram Shandy) . اما قصائد الطبيعة التأملية مثل كتاب جيمس تومسون (James Tomson) «الفصول» (Seasons) فهي علمية جزئياً فضلاً عن أنها تجسيد للاحساس . في حين نجد أن الرواية القوطية(Gothic Novel) تجمع الثمرات التجريبية الناجمة عن دراسة الماضي التي غدت الطراز المتبع ، مع العاطفة المبالغ فيها ، والدارجة التي تستغل عناصر ما فوق الطبيعة وما هو مرعب . اما في فرنسا

فتتركز الصفة المميزة الرئيسية للفترة في الكتابات الفلسفية والسياسية لحركة التنوير ذات الأثر العميق في جميع أنحاء اوروبا والتي أرهصت بالثورة الفرنسية . كرس فولتير وجان جاك روسو وشارل منتسكيو والموسوعيون مثل دانيس ديدرو وجان دالمبرت (Jean Dalembert) الكثير من كتاباتهم للجدل حول المسائل الاجتماعية والدينية التي غالباً ما أحدثت تصادماً مباشراً مع السلطات .

في مستهل القرن اتجه الادب الالماني نحو النماذج الانكليزية والفرنسية ، مع ان الكاتب المسرحي والناقد الادبي كوتولد افرايم لسينغ (Gotthold Ephraim Lessing) قدم ابتكارات تمهيدية ، لأن الفترة الكبرى للأدب الالماني جاءت في خاتمة القرن ، عندما وجد استثمار العواطف وتفخيمها أقوى تعبير له فيما سمي بحركة العاصفة والتأكيد (Sturm And Drang) ، ويقترن بها اسمان من ألمع اسماء الادب الالماني هما يوهان ولفغانغ فون غوته (Johann Wolfgang Von Goethe) وفردريك شيلر (Friedric Schiller) اللذان تخطيا في المسرحية والشعر هيجان «العاصفة والتأكيد» .

الفَصْـل الأول

الأدَب الانكليزي في القـرن الثامِن عَشر

بعـد الحـروب الاهلية في القـرن السابـع عشر ، انصبـت الرغبـة الاولى والاساسية في انكلترا على توفير جو من الهدوء والتضامن ، وكان هناك اهتمام عملي بالقواعد السلوكية ادى الى قيام معايير نقدية والكثير من الكتابات التاريخية والسياحية التي استجاب لها كل الناس العقلانيين الذين يعتبر حكمهم على الأمور ذوقاً رائداً ، واعطى كل هذا دعماً اجتماعياً قوياً للانجاز الفني في مجـالي الادب والفـكر ، وفي الفنين العامين والشعبيين الرسم والهندسة المعمارية . كان المجمع الكبير من الافكار الذي اطلق عليه اسم الطبيعة الجسر بين النظام وحياة القلب كما وجد تذوق لحدائق يتخذ شكل المناظر الطبيعية او ما يسمى تنظيم الطبيعة حسب اسلوب معين جنباً الى جنب مع تذوق المناظر الموحشة والخرائب والفن المعماري القوطي ، والفن التزييني الصيني . وفي الأدب كان رعب الرواية القوطية ، ومبالغة القصة الشرقية نظريتين لأثر العقل المسيطر . في مجال الفلسفة تم التأمل الاجتماعي لتوماس هوبز وجون لوك المستند على الملكية المثالية الفلسفية لجورج بيركلي(George Berkely) ومؤلفات ديفيد هيوم(David Hume) وهو مفكر كبير ، من أواخر القرن الثامن عشر انتهى بالتأمل الذاتي العقلاني غاية ما يمـكن حتـى صادف العـواطف الثابتـة في دخيلـة الانسان .

شعر العصر الاغسطي :

أعطيت فضائل النظام والانساق واحترام المؤلفين الكلاسيكيين الاغريق منهـم واللاتين اعلى قيمة لها في نهاية القرن السابع عشر عندما كتب جون درايدن اعماله حسب مؤلفات فيرجل وغيره من الشعراء اللاتين من عصر الامبراطور اغسطوس ،

وقلدها أحياناً تقليداً مباشراً . وينطبق هذا أيضاً على الكسندر بوب (Alexander Pope) اعظم شاعر هجاء ومبدع في القرن الثامن عشر . أطلق اسم العصر الاوغسطي على حكم الملكة آن (١٧٠٢ ـ ١٤) الكاتب الانكليزي اوليفر جولدسميث (Oliver Goldzmith) (توفي عام ١٧٧٤) وكان قد أطلق في فرنسا على عصر راسين وكورنيل وموليير .

ان البواكير الشعرية لالكسندر بوب هي ـ بشكل رئيسي ـ أدبية في وحيها ، وقد عالج في القصائد التي جمعها في مجلده الاول (١٧١٧) اشكال «الشعر المحلي» (غابة وندسور) والشعر التعليمي «مقالة في النقد» والرسالة البطولية «الويزا الى ابلارد» (Eloisa To Abelard) والبطولي الساخر «اغتصاب الضفيرة» كل ذلك بمهارة بالغة واحساس شعري مرهف . ومع ان مزدوجته البطولية المقفاة ذات العشرة مقاطع أقل روعة من مزدوجة درايدن ، الا انها ادفأ نفساً ، وأغزر تنوعاً ، ولا تقل عنها روعة وفكاهة ساخرة . ومن الممكن تتبع أثر الكتاب الكلاسيكيين في أعماله طيلة حياته ، وبخاصة في ترجمات «الياذة» ١٧٢٠ «واوديسة» هوميروس ١٧٢٥ ـ ٢٦ أو في تقليده لهوراس ١٧٣٣ ـ ٣٨ وتتميز «تقليدات هوراس» (Imitations Of Horace) بهجومها المتحمس ضد شخصيات من العصر ، كما تعرض آراءه في الموقف الأدبي والعام . وقد جعل النقد الساخر بالتلميح والهجاء المقذع اكثر وزناً بأن عرض وجهة نظره بعناية كناقد في نصوص واستشهادات من حياة الكاتب نفسه ، وغالباً ما تمجد فضائل الصداقة المخلصة . وتتجلى روعة بوب أفضل ما تتجلى في قصيدته المسماة «دانسياد» (Dunciad) ١٧٢٨ ، وهي نقد لاذع للبلادة في ثلاثة كتب أضيف اليها كتاب رابع فيما بعد ، ويعمق أثر النقد فيها بما استعمل من اشارات وتلميحات مقتبسة من ملاحم كلاسيكية وقصائد دانتي وملتون عن الكون .

وتتبدى بوضوح صفات الذكاء العقلي والاحساس المرهف والمهارة الشعرية في شعر بوب اللاحق بالمواضيع الاخلاقية والاجتماعية ، اذ عرض في مقالاته الاخلاقية (Moral Essays) و «مقال عن الانسان» (An Essay On Man) ١٧٣٣ ـ ٣٤ استجابته الواضحة والخيالية للمواقف الفكرية لعصره . وتمثل الناحيتان الرئيسيتان في شخصه

ككاتب ، وهما الهجاء والدعوة والاخلاقية ، ذلك التوازن الاغسطي بين العقل والشعور .

كان بوب عضواً في حلقة أدبية «تورية»[1] هي «نادي سكربليروس» (Scribleriusclub) الذي كان تجمعاً غير رسمي ضم جوناثان سويفت وجون اربثنوت (John Arbuthnot) وجون جاي (John Gay) وتوماس بارنل (Thomas Parnell) الذين كرسوا انفسهم لكتابة مذكرات شخصية مثالية متحذلقة سموها مارتينوس سكربليروس (Martinus Scriblerus) . وكانت بعض المؤلفات الهجائية التي انتجها النادي تعاونية مشاركة الا أن هؤلاء الشعراء كانوا جد متنوعين . يتميز الكثير من قصائد سويفت بخيال مرح وتعابير شيقة . وترتكز شهرة جون جاي وسمعته على تحفته البارعة «اوبرا الشحاذين» (Beggar's Opera) ١٧٢٨ الا ان مؤلفه «الترفيا اوفن المشي في شوارع لندن» (Trivia,or, The Art of Walking ofin The Street Of London) وقصصه الخرافية (Fables) المنظومة شعراً جديرة التقدير . اما قصيدة توماس بارنيل «قطعة ليلية عن الموت» (Piece Of Death Night) (التي نشرت بعد وفاته) فذات أهمية لتأثيرها المبكر على شعر الاحساس الذي عبر عنه خير تعبير الشاعر ادوارد يونغ (Edward Young) في «افكار ليلية» (Night - Thoughts) ١٧٤٢ ـ ٤٥ وعلى «شعراء المقابر» . وقد قلد الكثيرون شعر بوب لكن لم يجاريه الا القلائل .

ويرى اوليفر غولد سميث (Oliver Gold Smith) في قصيدته «القرية المهجورة» (The DesertedVillage) ١٧٧٠ كيف يمكن التخلص من جدل بوب القوي بتوسل استدرار العاطفة .

بعد وفاة بوب كان كبير الناقدين صاموئيل جونسون الذي تتصف قصيدتاه «لندن» (London) ١٧٣٨ «وغرور الرغبات الانسانية» (Vanity Of Human Wishes) بكآبة اصلها اللاتيني (الشاعر جوفينال) وحسمية التعبير التي تعد مساهمة لا تضاهى في الشعر الانكليزي .

(١) التوري : Tory : عضو في حزب بريطاني مؤيد للسلطة الملكية ومقاوم للتغيير والاصلاح .

كتاب المقالات والكراسات :

يدين التطور الرائع للنثر الانكليزي في القرن الثامن عشر بالكثير لانتشار الصحافة الشعبية . فقد أثار انقضاء فترة قانون الرقابة ١٦٩٥ (Licensing Act) الميل الشعبي للجدل ، ولكنه زاد من خطر المقاضاة بتهمة الخيانة العامة او إثارة الاضطرابات ، وهكذا اتجه المؤلفون الى كتابة الرواية ، والى المجاز والتلميح كذرائع يفلتون بها من العقاب ، وبلغ عدد الصحف التي كانت تصدر خلال العقد الاول من القرن الثامن عشر حوالي ٢٠ صحيفة يرفدها عدد لا حصر له من الكراسات الجدلية ، رغم ان غيض هذا الفيض جدير بأن يسمى ادباً ، فالكثير مما كتب في دورية «الحرفي» (The Craftsman) ١٧٢٦ ـ ٤٧ التي يديرها بولينغبروك (Bolingbroke) وتشيسترفيلد (Chesterfield) كان يستهدف بالهجوم رئيس الوزراء السير روبرت وولبول (Sir Robert Walpole) وجديرة باسم (الادب) «مراجعة قضايا فرنسا» (Review Of The Affairs Of France) لدانيال دفو ، وذلك لما اتسمت به من وضوح وشعور بالصلة بالقارىء ، وهما امران يتطلبهما الجدل المطبوع والقاسم المشترك بين الكتابات النثرية للعصر . كما يبدو تداخل الصحافة بالأدب على احسن وجه في مؤلفات دوفو الذي كان نثره المرسل وان شابته الصنعة ـ والواضح يفوق الاهتمامات السياسية او التجارية الآنية ، وقد أظهر مقدرة مذهلة على تصور موقف ما بمجرد ان قرأ او سمع عنه في كتابه «يوميات سنة الطاعون» ١٧٢٢ . وعندما تحول الى كتابة الروايات ، وهو في حدود الستين أظهر نفس الدهاء ، وأستغل مقدرته على التشخيص بغية تأثير خيالي قوي .

ويعتبر الاعضاء الخياليون «لنادي السبيكتيتور» (المتفرج)(Spectator Club) الناطقين باسم مؤلفيهم في قضايا المجتمع . وهكذا يمكننا ان نعتبر دوريتي «التاتلر» (Tatler) (١٧٠٩ ـ ١١) و«السبيكتيتور» (١٧١١ ـ ١٢) بأنهما على صلة بأدب الرواية، وأنهما تفرغان بقالب روائي ما تعرضانه للتحليل من شخصيات خيالية، ووسع عنصر الرواية في هذه الدوريات عالماً اجتماعياً مصغراً، يمكن اضفاؤه بصيغة واتجاه اتسما بالوقار، والنكهة الفكهة الحرفة، وبخاصة في الدورتين الآنفتي الذكر.

اطلقت للمؤلفين الحرية في معالجة اي موضوع شاؤ وا يأخذون بحبكته

مداورة ومن خلف قناع، كما هي الحال بالنسبة لوصف السير ريتشارد ستيل(Sir Richard Steele) لآراء السير روجر دوكوفرلي (Sir Roger De Coverly) في الزواج، او يطرقونه مباشرة كما هي الحال بالنسبة لمقالات جوزيف اديسون (Joseph Addison) حول قصيدة «الفردوس المفقود» للشاعر جون ميلتون. وأدارت «التاتلر» (Tatler) و«السبيكتيتور» (The Spectator) حواراً جاداً خلواً من الانحياز او التعصب الديني او السياسي. ودفعا به لتسلية الطبقات الوسطى المرفهة. فضلاً عن ذلك فإن الدوريات الجديدة اوجدت الجمهور الذي كتب له الروائيون، وضمنت ان يكون النثر الجديد مسلياً جدياً ومهذباً، شأن مقالات فيلدنج التي ضمنها رواياته، ناهيك عن أن أديسون ادار على موائد الشاي والمقاهي ليس الأدب وحده، انما الفلسفة والعلم كذلك. وكان ستيل في دوريته «التاتلر» الحافز الاخلاقي، لما اتصفت كتابته من ود وصداقة، وهو ما مدّ اسلوب اديسون الأكثر هدوءاً بالدعم العاطفي اللازم. وكانت حصيلة عملهما المشترك ـ في اطار مجموعة ـ اكثر من مجرد جمع موهبتيهما معاً، لأنهما عندما انفصلا لم يبلغ أي منهما أوجه.

استمر التقليد الأصيل «للسبيكتيتور» في دورية جونسون «الرامبلر» (Rambler) ١٧٥٠ ـ ١٧٥٢ وفي دورية جولد سميث «مواطن العالم» (Citizen of the World) (١٧٦٢). من الناحية الفكرية فاقت مقالات جونسون كتابات اديسون، لكنها افتقرت السحر الناجم عن ملاقاة «السبيكتيتور» للقارىء في مستواه دون تنازل مصطنع من جانبها. وبحرية اشمل وصف جولد سميث النواحي الغريبة والمؤثرة للانسانية، فكان داعية للحس الشخصي اكثر من اديسون لكن اقل من تشارلز لامب (Charles Lamb) الذي اتى فيما بعد.

وخلال النصف الثاني من القرن، امتصت الصحيفة اليومية مقالات الدوريات اذ ظهرت مقالات جونسون التي كانت تنشرها «الآيدلر» في «اليونيفرسال كرونكل» (The Universal Chronicle) و«مواطن» جولد سميث (رسائل صينية) في «ذي ببليك ليدجر» (The Public Ledger).

هجاء سويفت :

اصبح جوناثان سويفت (Jonathan Swift) المولود في ايرلندا من أبوين انكليزيين، والذي تلقى تعليمه في ايرلندا ـ شخصية ادبية مسيطرة في انكلترا، وبطل ايرلندا المفضل لدفاعه عن مظالمها. . كان رجلاً واسع الاطلاع وذا فكاهة عقلانية حذقة كرّس الكثير من وقته للسخرية من العقول الدعيّة، ونال بلسانه تشريحاً وتجريحاً كل من آنس فيه الادعاء ديناً وفلسفة وعلماً، فكان يمكر به متظاهراً بوقار ـ بأنه يشاطره الرأي بقضية ما، ثم يفترض ان خصمه يجاريه موافقة في عملية الانتقاص من تلك القضية، ليظهر منطقياً شخصها في النهاية، وبالتالي يسخف هذا الخصم. ويظهر اسلوبه عنوان كرّاسته الرائعة «نقاش يثبت بأن إلغاء المسيحية في انكلترا ربما يسبّب ازعاجاً، وربما لا يؤدي الى النتائج الكثيرة الطيبة المتوخاة وذلك بسبب الأوضاع الحاضرة».

يتضح التلميح الساخر هنا بكل مهارة. ويبينّ الكراس التالي الى اي حد يستطيع سويفت ان يكون لاذعاً «اقتراح حديث لمنع اطفال الفقراء من أن يكونوا عبئاً على والديهم أو على البلاد» (١٧٢٩) وذلك بتسمينهم ليكونوا طعاماً على موائد الأغنياء. ويهدف المقال الى إخجال الجمهور ليدرك مدى الفقر في ايرلندا. وقد رفعت مقالة «رسائل البزار» (The Drapiers Letters) (١٧٢٤ ـ ٢٥) من فن كتابة الكرّاسات الى مرتبة الأدب. اما «رحلات جوليفر» (Gulliver's Travels) ١٧٢٦ فهي «قصص حق» شأنها شأن روبنسون كروزو (Robinson's Crusoe) للكاتب دوفو. وفي «معركة الكتب» ١٧٠٤ يلجأ سويفت الى المجاز الهزلي يسخر به مما هو بطولي. وهذه الصيغة شائعة في كتابة الكرّاسات السياسية بغية تحريك المهادنين من النقاد والمفكرين الحديثين الذين يهتمون بشكل أناني بالتقدم على حساب الإدراك الصحيح للضعف الانساني والخطيئة الانسانية. وفي اكثر مؤلفاته تنوعاً وبراعة «قصة حوض» (A Tale of A Tub) (١٧٠٤) يلم سويفت بأطراف سائر هذه الأشكال الأدبية. ولا يتردد في استعمال اعمال المرء الجسدية التي لا تذكر صراحة، ليرمز الى النقائص الاخلاقية، وهو امر سمحت به جميع العصور. ولربما نقى وطهر الطموح الخائب تألق تلميح سويفت الساخر الناقد والجازم لكنه لم يدع في أي من

مؤلفاته بأنه على حق، وان بقية الناس دنيئون، ويتضح ذلك في الكتاب الرابع «رحلات جوليفر» اذ يجد جوليفر نفسه في خضم من مخلوقات مفسدة وأخرى فاضلة (صورها سويفت بأشخاص «الياهو» (Yahoos) الذين يشبهون القردة «الهوينميز» (Houyhnhnms) (الذين يشبهون الخيول) وهذا نفس وضع سويفت بالذات. وكان اختراعه وابتداعه، متواصلين غير منتهين، بحيث يستطيع ان يجلي في كل موضوع يعالجه. وبشكل رئيسي يذكر صديق سويفت جورج بيركلي (George Berkely) اسقف كلوين (Cloyne) في ايرلندا كفيلسوف مع ان كتيباته ومحاوراته الافلاطونية ذات قيمة ادبية. وهو على ذلك شأنه شأن سويفت محباً لبلده، يعبر عن آرائه بقوة دفاعاً عن مصالحها في «الكويريست»(Querist) .

ركز النقد الأدبي ـ الذي ظهر للمرة الأولى على شكل نشاط دائم وواسع الانتشار ـ على قواعد ثابتة شهرة الشعراء الانكليز الرئيسيين وسمعتهم أمثال شكسبير وملتون، وبدرجة ادنى تشويسر وسبنسر، اذ ارسى جونسون قواعد نصوص حديثة لشكسبير عام ١٧٦٥، كما ارساها لويس ثيوبولد(Lewis Theolbold) بشكل أبرز في مؤلفه «استعادة شكسبير» (Shak Espeare Restoreo) (١٧٢٦) وفي طبعة للمسرحيات عام ١٧٣٣ كانت اول عمل رائد في نقد النصوص.

عمل بعض النقاد الأفراد مثل جون دنيس (John Dennis) واديسون (Addison) وبوب (Pope) وجونسون (Johnson) ضمن اطار القواعد الكلاسيكية الحديثة التي وضحها وشرحها نقاد فرنسيون مثل نيقولا بوالو ولكنهم كيفوها لتناسب مشاعرهم ورؤآهم الشخصية. وبشكل رئيسي عالجت النظرية النقدية الالهام الشعري ، والتذوق الجمالي، وهو وصف نفسي متزايد للعملية الأدبية.

هاجم كتّاب اللورد شافتسبري (Lord Shaftesbury) المسمى «ميزات الرجال والعادت والآراء والأزمنة»(Characterícts of Men, Manners Opinions, Times) ١٧١١ (نقح ووسع ١٧١٤ ـ ١٧٢٣) الحماس او الخيال في الدين وأصر على اهميته في الأدب ليسموا بالعقل الى حالة من التأمل الهادىء. وشغل العصر بما يسمى «السمو» وهي عقيدة فهمت بشكل غامض ولكن تجلت بقوتها ليس في النقد الأدبي للقرن فحسب ـ بل في الشعر ايضاً اذ افترض شافتسبري «شعوراً اخلاقياً» يجذب

الانسان طبيعياً الى ما هو حسن وجميل. وسعى لرفع النقد فوق مستوى الشاحنات السياسية او الدينية. اما اديسون الذي اتصف بتبسيط النظريات الصعبة وجعلها في متناول الجميع ـ اكثر من كونه مفكراً اصيلاً ـ فكانت له معالجة متزنة للأدب مهدت السبيل للنقاد الذين اتوا بعده، والذين طوروا مثل هذا النوع من الآراء.

وتناول جونسون بالنقد اولئك الذين يحكمون على الأمور الأدبية بالعقيدة، وليس بالادراك العقلي، وأصر على ان الرأي الأدبي يجب ان يرتبط بالخبرة. واعتقد بأن الأدب يكون ذا قيمة فقط عندما يوضح التجربة الانسانية. وتكمن عظمته كناقد في اطلاعه الانساني الواسع، وفي ان أسسه النقدية واضحة على الدوام، وانها بمنأى عن سلطان النزوات وهي بمفهومها العام اخلاقية. وعندما يخطىء في امر ما فسبب ذلك عدم كفاية الخبرة، وليس النقص في الادراك النقدي. كانت الفردية بالنسبة له ولمعظم نقاد عصره تعني التشويه، اذ كانت الطبيعة ـ تلك التجربة التي يشترك فيها الناس طراً ـ الشغل الشاغل للأدب. ويمكن استنتاج مركز جونسون في النقد الانكليزي، من مقدمته التي صدر بها طبعته لأعمال شكسبير.

لنعرض الحقائق اولاً ثم نفحصها:

إن الذي جعل من جونسون ناقداً عظيماً، هو الذي جعله بالمثل محدثاً عظيماً ـ كما يصفه جيمس بوزويل (James Boswell) في كتابه «حياة جونسون» (Life of Johnson) وصاحب الأسلوب النثري العظيم في كتابه «راسيلاس» (Rasselas) ١٧٥٩ وفي دورية «رامبلر» (Rambler). ومع ان «معجم اللغة الانكليزيّة» (Dictionary of the English Language) (١٧٥٥) الذي وضعه لم يكن اول قاموس باللغة الانكليزية الا انه ادخل اساليب في الاستشهاد، على استعمال الكلمات التي لم تتغير إلا قليلاً، منذ ان نشر القاموس. وجونسون كمعجمي كان أبداً مهتماً بالدقة، وقد وجد في المفردات المشتقة من اللاتينية ادق أشكال الدلالة شأنه ـ في هذا الصدد ـ شأن السير توماس براون (Sir Thomas Brown) الذي بنى اسلوبه حسب اسلوب جونسون.

الثورة في الذوق :

خلال النصف الثاني من القرن، اشتد الميل نحو تعبير نفسي للرأي الأدبي الذي يستند الى الشعور الشخصي الفريد من نوعه. فبينما نجد ان السير جوشوا رينولدز (Sir Joshua Reynolds) يساند في كتابه «محاضرات» (Discours) (١٧٦٩ - ٩١) الأعراف الكلاسيكية الجديدة التي تدعو الى التقليد، نرى ادوارد يونغ (Edward Young) ، في كتابه «حدس في الانشاء الأصيل» (Conjectures On Original Composition) ١٧٥٩ وضع العبقرية الأصيلة فوق العلم. فكان بالغ الأثر عظيمه في اوروبا، كما هو شأن شافتسبري في دعوته الى مبدأ الأفلاطونية الحديثة. كما اهتم توماس وورتون اهتماماً متزايداً بالأدب الوسيطي وادب عصر النهضة في مؤلفاته «تاريخ الشعر الانكليزي» (١٧٧٤ - ١٧٨١) و«ملاحظات حول ملكة الجنيات» (Observations on the Faerie Queene) ١٧٥٤، وكذلك فعل الاسقف ريتشارد هيرد (Richard Hurd) في كتابه «رسائل في الفروسية والرومانس» (Letters on Chivalry And Romance) ١٧٦٢.

ويتضح هذا الميل كذلك في كتاب «اوسيّان» لجيمس ماكفرسون (James Macpherson) ١٦٧٢، وفي القصائد الوسيطية «لتوماس تشاترتون» (Thomas Chatterton) ومجموعات الشعر السابق، وبخاصة مجموعة الاسقف توماس بيرسي (Thomas Percy) المسماة «بقايا الشعر الانكليزي القديم» (Reliques of Ancient English Poetry) ١٧٦٥.

وكان المؤشر الآخر الهام للرأي النقدي المتغير هو القسم الأول من مقالة جوزيف وورتون (Joseph Warton) المسماة «مقالة حول كتابات وعبقرية بوب» وذلك بتأكيده على «السمو» على انه علامة الشعر الصادق وحرية التعبير. ويشير مديحه «للتوهج الشاعري» والخيال الخلّاق «للشاعر الى تلك القاعدة التي بنى عليها الشعراء والنقّاد الرومانطيقيون. وتؤكد جميع هذه المؤلفات اهمية الخيال في الشعر، لكن اصالتها تكمن في هذا التجديد وليس في اية معالجة ثورية.

ولربما كانت اكثر المؤلفات ثورية مقالة توماس تايرويت (Thomas Tyrwhitt) «مقالة في لغة تشوسر وشعره» ١٧٧٥ - التي حطمت وهماً سابقاً حول تشوسر بأنه

كان عديم المهارة في النظم الشعري ـ اما ملاحظات وليام بليك(William Blake) الهامشية على كتاب رينولدز المسمى «محاضرات» (Discourses) فقد كانت صيحات غاضبة ضد العقيدة الأكاديمية، اكثر منها نقداً ثورياً، مع انها تمثل نظرية ادبية مضطردة الثبات، اذا ما اخذت مع مؤلفات بليك الأخرى.

الرواية :

كان تطور الرواية الانكليزية شأنه في ذلك شأن الروايات الأخرى طبيعياً ووطنياً محلياً ، إذ كان لأبطال « دوفو البيكاريين » أصول في أدب الرواية الاليزابيثي الذي شارك فيه توماس ناش (Thomas Nashe) وروبرت غرين وتوماس دلوني (Thomas Delone) . إلاّ أن « مول فلاندرز » (Moll Flanders ١٧٢٢ و « الكولونيل جاك » (Colonel Jack) و « الكابتن سينجلتون » (Captain Singleton) كانوا بدورهم تضخيماً خيالياً لحياة متشردين فعليين من الزمن نفسه ، كما أن أشهر رواية لدوفو (Deffoe) وهي « روبنسون كروزو » (١٧١٩) بنيت على حقائق معاصرة . أما روايا صاموئيل ريتشاردسون فاعتمدت على مصادر أصلية ، فرواية « باميلا » (Pamela) (١٧٤٠) كانت مبنية على رسائله لتي اصدرها بعنوان « رسائل كتبت الى أصدقاء معينين » A Letters Written to and For Particular Friends) وهي مجموعة من الرسائل النموذجية غرضها تمكين « القراء الريفيين من أن يكتبوا رسائلهم بأنفسهم » وذلك بتحديد « الأسلوب المنشود والأشكال المطلوبة ، وكيف يفكرون ويتصرفون بشكل صحيح ، وبحكمه في قضايا الحياة الانسانية العامة » . وفي رواية « كلاريسا » (١٧٤٧ ـ ١٧٤٨) أنتج ريتشاردسون (Richardson) مؤلفاً في نثر الرواية والتحليل النفسي للقوة الغاشمة فأرسى بذلك أسساً للتطور الأبعد مدى ، مما كان له اثر عميق على تطور الرواية في أوروبا الغربية كلها .

إن النجاح الذي لاقته رواية « باميلا » (Pamela) بتركيزها على دواعي الاحترام الأخلاقي ، وإهمالها الأشكال الأدبية المتعارف عليها أثار حفيظة هنري فيلدينغ (Henry Fielding) ، ذلك الرجل المثقف الرفيع التهذيب ، الأنيق الذوق ، وذو الخبرة الاجتماعية الواسعة ، والذي لم يلبث أن بسط فيها لسان

سخريته ، بروايته « شاملا » (Shamela) ولكن اثناء عمله الروائي وبعد أن التفت الى روايته الكبرى الأكثر استقلالاً ، وهي « جوزيف اندروز » Joseph (Andrews) ١٧٤٢ ، وجد فيليدنيج في شكل الرواية ، وخاصة في شخصية القس أدمز (Parson Adams) أكثر مما توقع . أما وصفه اللاحق لرواية « جوزيف اندروز » ـ التي تعتمد على تتابع الأحداث ـ بأنها « قصيدة ملحمية هزلية نثرية » فهو أكثر ملاءمة لرواية « توم جونز » (Tom Jones) ١٧٤٩ المحكمة الحبكة التي أظهرته بوضوح أكبر في صورة الفنان المدرك لفنه . ثم إن الفصول التي يمهد بها لكل كتاب من كتب الرواية تمدها بعرض نقدي للأسباب والمبادىء التي اعتمدتها ، وتظهر تقدماً فنياً هاماً ، لأنها تبين المؤلف على انه الروح المكونة للقصة . وحتى في ذلك الوقت ، كان مؤلفو الروايات الواقعية (وحتى ريتشاردسون نفسه) ، يمتدحون قصصهم بادعائهم الدقة التاريخية . وأكد فيليدينج على حق المؤلف في أن يعالج ويكيّف قصته صراحة لمصلحة الحقيقة الفنية . ثم أن القول بأن انجازه فني بشكل رئيسي معناه إهمال وحدة نظرته الفنية والفلسفية .

كان طوبياس سمولت (Tobias Smollett) هو الصحفي الآخر الذي اشتهر كروائي وكان شبيه دوفو حياةً وانتاجاً ، وفي كثرة تنوع أعماله في الأعمال ، فمن جراح بحري ، أصبح طبيباً فاشلاً ، الى كاتب رخيص فمترجم ومؤرخ ، وعرف السجن كما عرفه دوفو ، فكانت حياته الشائعة والمتعددة الجوانب مصدر روايته « رودريك راندوم » (Roderick Random) ١٧٤٨ ، فهو يحرك أبطاله ال«يبي القلب ، المتدني المرتبة الاجتماعية ، ليقوموا بمغامرات فضفاضة الترابط ، تماماً كما يفعل أبطال دوفو . لكن فيما نرى أن مصدر فردية أبطال دوفو هو محيطهم ، فإن أبطال سمولت مخلوقات ذات شخصيات قائمة بذاتها وفرديتها ، عبر عنها بأسلوب الكاريكاتير اللامع ثم أن كتابات سمولت تنقصها روح التنبؤ المأساوي المتسمة بها كتابات ريتشاردسون ، كما ينقصها إدراك فيليدنج للكوميديا الانسانية ، وصورته عن الحياة خشنة غير مصقولة ، لكنها تعبير مؤثر للشعور بوحشية الخط العنيد . اما قدرته على الاستفادة من الصفات المميزة للسلوك الانساني وجعلها صوراً تطارد مخيلتنا في كتابه « همفري كلينكر » (Humphry Clinker) (١٧٧١) فلم يضارعه فيها إلا تشارلز ديكنز في القرن التاسع عشر .

كان تطور الرواية سريعاً ومتنوعاً ، وفي الأربعين عاماً التي تلت صدور « روبنسون كروزو » احتفظت بقالب التتابع الزمني للأحداث التي تؤدي الى نتيجة تنبأها لها مؤلفها الذي يفرض وجوده على الرواية بأكملها . إلاّ أن لورنس ستيرن (Laurence Stene) غيرّ بشكل جذري هذا القالب ذا التتابع الزمني ، بأن وضع أول رواية انطباعية ، واحدى أعظم المؤلفات باللغة الانكليزية ، وهي رواية « تريسترام شاندي » (Tristram Shandy) ۱۷٦۰ التي تعرض الحياة بصورة فكهة ، على انها تدفق من الحوادث بدون ترابط الا في وعي مجربها . وعلينا أن ننتظر حتى القرن العشرين لنجد خلفاءه الحقيقيين الذين طوروا امكانيات مثل هذه الرواية .

تكمن أهمي‍ ... ترانتو » (Castle of Otranto) ۱۷٦٥ لمؤلفها هوراس ولبول (Horace Walpole) في كونها أول حلقة في سلسلة طويلة من الروايات القوطية التي تدغدغ مشاعر القارىء بإثارة الخوف والرعب من قصص عناصر ما وراء الطبيعة غريبة الخلفية ، تعود الى عهد غابر . وفي هذا النوع من التقليد الأدبي كتبت كلاراريف (Clara Reeve) روايتها « بطل الفضيلة » (The Chanpion Of Virtue) ۱۷۷۷ ، وآن رادكليف (Ann Radcliffe) روايتها « ألغاز أدولفو » (The Mysteries of Udolpho) ۱۷۹٤م، كما خط ماثيو لويس (Mathew Lewis) قصته « الراهب » (The Monk) ۱۷۹٦ . وكانت الرومانسية العاطفية ناحية أخرى من عبادة الاحساس (التي درجت في القرن الثامن عشر) والتي يمكننا ان نراها في « قس ويكفيلد » (Vicar of Wakefield) ۱۷٦٦ للكاتب توماس هاردي وفي « رجل الشعور » (Man of Feeling) لهنري مكنزي (Henry Mackenzie) ۱۷۷۱) وفي « أحمق راق » (Fod of Quality) ۱۷٦٤ ٦۰ ، وفي « رحلة عاطفية » (Sentimental Journey) ۱۷٦۸ لِـ ستيرن (Sterne) ۱۷٦۸ . في جميع هذه الروايات نرى أن وصف شعور الكاتب ، وليس ما يراه كان بالغ الأثر على مفاهيم العاطفة و « عبادة القلب الفياض بالشعور » . وطورت الامكانيات التي تعتمد على الخلفية الغريبة عما هو انجليزي الى مدى أوسع في رواية « الواثق » (Vathek) (۱۷۸٦) الشرقية لوليام بكفورد (William Bekford) كما كان كتابه

« أحلام وأفكار اليقظة » وحوادث ۱۷۸۳ يتكشف عن إحساس متطور في وصف تجاربه الشخصية خلال رحلاته ، وكان ذا أثر في احداث تغير جذري في الذوق .

وتبرز « افيلينا » (Evelina) وهي انجح رواية ۱۸۸۹ لفاني بيرني Fanny) (Burney الصفات التي جعلتها كاتبة يوميات عظيمة ، وهي الاهتام العفوي بالحياة ، والتقييم الهادىء للعرف الاجتماعي . وقد تعلمت الى حد ما من تصوير سمولت (Smollett) للشذوذ الانساني ، الاّ أن إدراكها لبنية مسرحياتها كان واضحاً وراسخاً .

الشعر اللاحق : الشعر التأملي :

ظهر الميل الجارف الى الوحدة وتأمل مظاهر الوفاء والعظمة في الطبيعة في كتابات شافتسبري ، وفي حوالي عام ۱۷۲٦ كانت قصيدة « شتاء »(Winter) للشاعر تومسون مقدمة لنيل القبول العام . اما « الفصول »(The Seasons) ۱۷۳۰ وهي القصيدة المتطورة عن سابقتها ، والأطول منها نفساً ، فلا يربط بين اجزائها سوى احساس الشاعر فهي ليست حية في تفاصيلها فحسب ، بل درامية في وصفها للطبيعة من مناظر وظواهر . وقصيدة هولد سميث « القرية المهجورة » (Deserted Village) ۱۷۷۰ تدافع عن النظرية الأوغسطية الداعية الى الوصف العام في تصوير الطبيعة الانسانية وغير الانسانية . كما كانت قصيدة وليام كوبر William) (Cowper « مهمة »(Task) ۱۷۸٥ آخر قصيدة في هذه السلسلة .

التفت كوبر بناظريه نحو التلال والغابات التي تكللها الثلوج في وطنه وستون (Weston) في بكنغهام شاير (Buckingham Shire) نشداناً للراحة من الرعب الديني ، اذ كان لقصيدته « مهمة » الاستطرادية ذات الطابع الهادىء والتمكن اللغوي المتكأ المريح للشعر من اجل الشعر دون أن يكون فيها الدافع الاستدلالي لتومسون ، أو البريق الشهواني لكريستوفر سمارت (Christopher Smart) مؤلف « اغنية لداوود »(A Song to Dvid) ۱۷٦۳ ، « وترانيم »(Hymns) وهما قصيدتان تمجدان دقائق الطبيعة ، التي ترمز الى حب الله للانسان .

كرس الشاعر الغنائي المبدع ، وليام كولنز (William Colins) نفسه لكتابة القصيدة الغنائية من نوع « الاود » وهي صيغة شعرية ترفع حسب اعتقاد الاوغسطيين من قدر قوة الربط في خيال الشاعر منزلة اياه فوق هيكل النقاش الصقلي . وقصيدة توماس جراي (Thomas Gray) « مرثاة في مقبرة ريفية في ساحة الكنيسة » (نشرت عام ١٧٥١) توحي بصورة مصغرة عن مثل الشعر التأملي الاغسطي ، باطار موضوعها ، وطابعها الوقور الذي يوحي بالالفة والدفء .

شعر بيرنز وبليك :

يقع الشاعران الغنائيان الكبيران روبرت بيرنز (Robert Burns) ووليام بليك (William Blake) الى حد ما خارج تقاليد القرن وأعرافه ، وحظي ديوان بيرنز « قصائد باللهجة الاسكتلندية بصورة رئيسية » (Poems, Chiefly in the Scot Tish Dialect) ١٧٨٦ بنجاح آني ، وذلك بسبب الاهتمام المتزايد بالشعر « البدائي » ، مع أن هذا الاهتمام كان في الغالب علمياً او يتصف بالهواية الفنية . على أية حال ، لم تنشأ مفردات بيرنز وجرسه من اية نظرية شعرية بل من اللغة العامية الدارجة في بلدة ايرشاير (Ayrshire) ومن الثروة الضخمة لأغاني الشعب الاسكتلندي التي كم نظم الشعر لالحانها القديمة ، كما اعاد لها عدة مجموعات من الكلمات . كان بيرنز ناقداً ناجحاً وحيوياً للنواحي الشخصية والاجتماعية ، ولأن خلفيته لم تكن علمية اكاديمية ، لذا غذت قراءاته عبقريته ، دون ان تخضعها لمتطلبات التعليم (التي اعاقت شاعراً مثل جراي(Gray) . ويعتبر واحداً من كتاب العصر القلائل الذين احتفظوا بصورة شعبية عن العالم . اما قصائد بليك بعنوان « اغاني البراءة » (Songs of Innocence) ١٧٨٩ » وأغاني الخبرة » (Songs of Experience) ١٧٩٤ فهي حقاً سليلة ترانيم اسحق واتس (Isaac Watts) لكن ما ادركه واتس في ضوء المبادىء الاخلاقية ، ادركه بليك بحدث واسلوب فريدين ، أصيلين ، فصاغة قصائد دقيقة مؤثرة تتميز برؤيا شخصية غريبة يمكن وصفها بأنها « حلم السائح الضائع » . وعندما اصبحت ارتباطاته أكثر خصوصية زاد بليك عزلته عن أي جمهور من القراء يمكن أن يستجيب له ، وهكذا ابتعد شعره اكثر فأكثر نحو الرمزية الصوفية المعقدة التي نجدها في كتبه التنبؤية مثل « اول كتاب لاورايزن » (The

First Book of Urizen) أو « كتـاب لوس » (The book of Los) ١٧٩٥ الـذي لم ينشره حسب المفهوم العادي للكلمة ، بل حفره بشكل جعل فهمه عسيراً ، وكانت النتيجة تلك الكتب المصورة الرائعة التي تتكامـل فيهـا القصيدة والصـورة . . . وشأنه شأن بيرنز ثار بليك على الامكانيات المحدودة للبشر ، وتلك ناحية يتميز بها هذان الشاعران عن عصرهما .

النثر الخيالي والنثر الغريزي المعرفة :

ادى ازدياد السفر وتوفر وقت الفراغ ، وهواية الادب بين الأسر الغنية ، بله ازدياد أهمية الملاحظات الشـخصية الى تجميع عدد وافـر من مجموعـات الرسائـل والمذكرات التي بلغت اوجها أولاً في فرنسا ممثلة برسائل ومذكرات مدام دوسيفينيه (Mme De Sevigné) ودوق دوسانت سيمون (Duc De Saint Simon) وفي عام ١٧٠٩ بدأت رسائل الليدي ماري وورتلي مونتاغيو (Lady Mary Wortley Montagu) وبعد ١٧ عاماً بدأت مذكرات اللورد هارفي (Lord Harvey) المسماة (Memories of The REign of George) « مـذكرات حكم الملك جورج الثانـي » ، بينما بدأ اللــورد تشيسترفيلد وهوراس وولبـول سلسـلتيهما من « الرسائـل » (Letters) حوالي عام ١٧٤٠ . اما رسائل جيلبرت وايت (Gilbert White) التي نشرت عام ١٧٨٩ تحت عنــوات « التــاريخ الطبيعــي وآثــار سلبــورن » (The Natural History And Antiquities of Selborne) فهي اقل تمشياً مع الطراز السائد آنئذٍ الا انها ممتعة لسحرها الخالي من أي تظاهر ؛ وتوضح ان عين الريفي المحبة للتفاصيل لم تكن نشطة في الفترة الرومانطقية وحدها . من ناحيته انتج وليام كوبر مجموعة من الرسائل الخاصة الجميلة الرشيقة الحادة الملاحظة . ومن حيث الاسلوب يقف شيستر فيلد في الناحية المقابلة اذ نشد متعمداً صيغة من التعبير أرادها مثالا للكمال في اللباقـة ، وحسـن الترتيب والكياسة ، وذلك عندما عالج عادات عصره ولباقته . وأكثر الرسائل عبثاً وقسوة هي رسائل هوراس وولبول (Horace Walpole) الذي تعتبر كتاباته موجـزاً لذوق وتاريخ وسيرة الفترة الجيورجية ، وفي نواح منها يتسم بالاصلاح والاعتدال كما كان في مجال الفن ذواقة محباً للفن القوطي وللطباعة الغريبة الثمينة ، والصور القديمة الموّضحة ، والزجاج الملون بالصور والزخارف .

كان بوزويل (Boswell) الذي اشتهر منذ امد طويل بكتابه « حياة جونسون » (Life of Johnson) استاذاً في النثر الانكليزي . وعندما نشرت يومياته في القرن العشرين كشفت عن رائد متمعن في دخائل الانسان وعن ناقد وافر المعلومات عن لندن في القرن الثامن عشر . كما أن « مذكرات ورسائل مدام اربليه » (The Diary And Letter of Mme D'Arblay) (فاني بيرني Fanny Burney) « وسيرة حياة » المؤرخ ادوارد جيبون (Edward Gibbon) تمثلان بدورهما ما هو رائع كثير التنوع في عصرهما .

لم تستطع الكتابات التاريخية الانكليزية أن تتخلص مما وصمت به بأنها تأتي في المؤخرة بالنسبة لفرنسا وايطاليا والمانيا حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اذ نشر ديفيد هيوم (David Hume) أول مجلد من كتابه «تاريخ انكلترا» (History Of England) عام ١٧٥٤ . ثم ظهر كتاب وليام روبرتسون (William Robertson) «تاريخ اسكتلندا» (History Of Scotland) عام ١٧٥٩ وكتاب «تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس» (History Of The Reign Of The Emperor Charles V) عام ١٧٦٩ بالاضافة الى المساهمة المتزايدة عن مدينة ادنبره في الكتابات الفلسفية والاجتماعية . ثم جاء سفر ادوارد جيبون «تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها» (History Of The Decline And Fall Of The Roman Empire) عام (١٧٧٦ - ١٧٨٨) ويشتهر هذا العمل العظيم بعناية الدؤوب المفرقة بالتفاصيل ، وبأحكامه المحنكة . وكان اسلوب جيبون رائعاً متزناً . اذ تجلى بالاضافة الى تشكك هيوم واسلوب روبرتسون - بالانسجام الفكري بين النثر الذي استعمله ، والفكر الذي عرضه وبتحيز ممتع خاص به .

اما بالنسبة للكتابات الفلسفية والسياسية في أواخر القرن فالملاحظ ان الفكر الحر شرع ينهك المدافعين الدينيين ويزحزحهم عن مواقعهم ، متجلياً في كتابات توماس بين (Thomas Paine) وجوزيف بريستلي (Joseph Priestley) ووليام جودوين (William Godwin) والسير جيمس ماكنتوش (Sir - James Mackintosh) وكان ادموند بيرك (Edmund Burke) المنافح الاكبر عن التقاليد والحفاظ عليها ، واستاذ

الاسلوب العاطفي في النثر ، ومن اعظم العقول المسيطرة في فن الرسائل السياسية وبالتالي فهو على طرفي نقيض بهذا الصدد مع جونيوس(Junius) وهو الاسم الادبي لكاتب لم تحدد شخصيته ، والذي كانت موهبته الصحفية الهجائية ذات قيمة عابرة .

المسرحية :

مع ان القرن الثامن عشر كان عصر الممثلين الكبار أمثال صاموئيل فوت (Samuel Foote) وديفيد جاريك(David Garrick) فهو هزيل بكتابة المسرحيات . ولم يكن من كتاب مسرحيين باستثناء فيلدينج الذي تمتع ببعض الاصالة ، وجولد سميث «تمسكنت فتمكنت»(She Stoops To Conquer) ١٧٧٣ .

ورغم الكثرة التي كتبت للمسرح فالموهوبون ادبياً لم يكونوا ما خلا ريتشارد برنزلي شيريدان الذي لمع - في نهاية القرن -(Richard Brinsley Sheridan) في مسرحية «المتنافسون»(The Rivals) ١٧٧٥ وبخاصة في مسرحية «مدرسة الفضائح» (The Schol For Scandal) وأظهر بأن له مقدرة مسرحية وأدبية قمينة بكتابة مسرحيات عظيمة بالمعنى الصحيح للكلمة .

الأدب الاسكتلندي بالانكليزية والاسكتلندية :

بينما كان كتاب النثر الاسكتلنديون يعدون العدة لتحدي الانكليزية في أرضها وبينما كان اتحاد عام ١٧٠٧ يشير الى الوشائج الثقافية الاوثق بين البلدين عما كانت عليه قبل قرن ، كان هناك تيار معاكس ظاهر في الشعر . وفي سنة الاتحاد تقريباً ظهر أول مجلد لجيمس واطسون(James Watson) وعنوانه «مختارات من القصائد الاسكتلندية الهزلية والجدية» ١٧٠٦ ضمت شعراً باللغة العامية الدارجة بالاضافة الى الانكليزية ، امتدت من قصيدة «كرستيس كيرك اون ذي كرين»(Christes Kirk On The Green) الى شعر أحدث مثل «سبمسون السعيد»(Happie Simson) ثم تلاه ديوان آخران ألين رامزي (Aline Ramzi) وهما «دائم الخضرة»

١٧٢٤ ، ثم توالت مجموعات ديفيد هيرد(David Herd) وجون بنكرتـون(John Pinkerton) وجيمس جونسون ، وجورج تومسون . وجميعهـا تكشف عن وعـي قومي جديد شرع باعادة متعمدة للمنجزات السابقة الى الذاكرة ، وبالتالي لكتابة اعمال اصيلـة تحـذو حذو هذه المنجـزات «عرفـا وتقليداً» . وبضياع الشـخصية السياسية للبلاد أصبحت الفروق الثقافية ذات بال ، فلغة المتعلمين كانت تسلك السبيل الذي طرقه النثر المكتوب بالانكليزية الدارجة في انكلترا ، اما في الشعر فما زال قلب اللغة الاسكتلندية ينبض بوهن ، وعدته اللغـة الشائعـة ولغـة الاغانـي والقصائد الغنائية من نوع «البالاد» التي أعيد طبعها آنئذ . وازدهر شعر رامـزي (Ramsy) شأنه شأن روبـرت فيرغسـون(Robert Fergusson) (١٧٥٠ - ١٧٧٤) وروبرت بيرنز (١٧٥٩ - ,! . ظ(باتحاد هذه العناصر . لان القوة السريعـة للغـة الحديث الاسكتلندية ، والخفة الموسيقية المرحة للاغاني ، والاشكال والاسـاليب الشعرية ، مثل القطعة الشعرية في قصيدة «سمسون السعيد»(Happie Simson) والشعر التأملي المرح ، والرسالة الشعـرية ، كل هذا ساعـد على تلاحـم التقليد العامي للغة وبخاصة بما استعمله الشعـراء امثـال الاخـوة سمبيلـز(Sempills) ، ووليام هاملتون من جلبرت فيلد(Gilbert Field) وان لم يكن لهذا الشعر الجـديد البعد والقوة الفكرية مما اتصف بها شعر «المكارس» ومع ذلك كانت صفات بارزة ، شديدة الجاذبية . ويتجلى هذا اكثر ما يتجلى في اغناني الحب مثل «دنكان جراي» (Dincan Gray) «ولو كنت في الهـواء البـارد»(O'wert Thou In The Cauld Blast) واغاني المرح والعاطفة مثل قصيدة «الشحاذون المرحون»(The Jolly Beggars) وفي قصائد فيرغوسون(Fergusson) الرصفية اللاذعة دون مرارة ، مثل «ركي العجوز» (Auld Reikie) «والفراشة»(Butterfly) . وابدع بيرنز في شعر الحب الغنائي والنقد والهجاء متابعاً السير من حيث توقف دنبار(Dunbar) . اما الشعر الغنائي فقد بلور الاغاني المتناقلة والمجهولة التأليف في اشكال شعبية موثوق بها . وفي بيرنز يلتقي الكثير من التقاليد ، لانه يؤكد بشعره على المواضيع والاشكال الادبية القائمـة في عصره ، ويطورها ويرسخ من اقدامها نازعاً بها الى الكمال ، وبشكل يبين فيه انه بحق شاعر قومي ، وإن كان هناك اي شاعر اهلا بوصف «باعث على الحياة» فهو

بيرنز ، لكن لسخرية التاريخ الادبي ـ ان برهن على شيء ، فعلى انه محرر للشعر الانكليزي وليس لشعر بلاده .

كانت الشاعرات من بين أفضل الشعراء الثانويين لهذه الفترة ، مثل الليدي كريزل بيلي(Lady Grisel Baillie) وجين اليوت(Jane Eliot) والليدي آن ليندسي (Lady Anne Lindsay) والليدي نيرن(Lady Nairne) اما الشعراء الذين نظموا بالانكليزية فقد شارك تومسون في قصيدته «الفصول» (١٧٢٦ ـ ١٧٣٠) جافين دوغلاس(Gavin Donglas) المقدرة على جعل الشتاء أروع من الصيف ، ويعطينا صوراً بطيئة الحركة «لكالدونيا في جو رومانطيقي» . وتبدي قصيدة «القبر» لـ روبرت بلير(Robert Blair) ١٧٤٣ تذوقاً كئيباً مروعاً وان كان شائعاً في الشعر الاسكتلندي . وجديرة بالذكر ـ في هذا الصدد قصيدة «تحطم سفينة»(Shipwreck) (١٧٦٢) للشاعر وليام فالكونر(William Falconer) ١٧٦٢ ، التي أعجب بها بيرنز . كما ان قصيدة «الشاعر الشعبي» ١٧٧١ ـ ٧٤ لـ جيمس بيتي(James Beattie) قمينة بالاعتبار لاهميتها التاريخية كقطعة رومانطيقية مبكرة . ويجب ان نلاحظ هنا ثلاثة مؤلفات شعبية كان لها أثر في هذا العصر هي : مأساة جون هوم (John Home) المسماة «دوغلاس» ١٧٥٦ الاسكتلندية موضوعاً لا لغة ، وبعض الاجزاء العظيمة من القصائد المسماة «اوسيان»(Ossian) لـ جيمس مكفرسون (James Macphersoni) التي أعطت اوروبا صورة عن «الغالي» النبيل ، ورواية «رجل الاحساس» ١٧٧١ لـ هنري مكنزي التي فضلها روبرت بيرنز الشاب على غيرها .

الفَصْل الثّاني

الأدَب الامريكي في القَرن الثامِن عَشر

وفي امريكا استمر كوتن ماذر(Cotton Mather) ـ بمطلع القرن الثامن عشر ـ في السير على النهج القديم . وكانت اعماله مثل تاريخه الضخم عن «نيوانجلند» البيورتانية المسمى «ماغنا ليا كريستي امريكانا»(Magnalia Christie Americana) عام ١٧٠٢ ، وكتابة المكين «مانيود كتيو أد مينيستيريوم» (Manuductio Ad Ministerium) أو «مقدمة للكهنوت» ١٧٢٦ دفاعاً عن العقائد البيورتانية القديمة .

كما دافع جوناثان ادواردز(Jonathan Edwards) ـ مؤسس «اليقظة الكبرى» وهي احياء ديني حرّك الساحر الشرقي لامريكا لعدة سنوات ـ بفصاحة عن اعتقاده وايمانه المتقدين بالعقيدة الكلفينية ، وخاصة المبدأ القائل ان الانسان الذي وجد ساقطاً لا يستطيع ان يحصل على الفضيلة والخلاص الا برحمة الله ـ وذلك في مقالته «حرية الارادة»(Freedom Of Will) ١٧٥٤ . وقد دعّم دعواه تلك رابطاً اياها بنظام ميتافيزيقي معقد ، كما تجلّى جداله بنثر واضح ، وجميل احياناً .

الا ان ماذر وادواردز كانا يدافعان عن قضية كانت بحكم المنتهية . فقد اتجهت مجموعة قساوسة نيوانجلند امثال جون وايز(John Wise) وجوناثان ميهيو (Jonathan Mayheo) وجهة دين اقل تزمتاً . وبشرّ صاموئيل سيول(Samuel Sewall) بتغييرات اخرى في «يومياته» المسلية التي تغطي السنوات ١٦٧٣ ـ ١٧٢٩ . ورغم كونه متدينا مخلصاً فقد أظهر في سجلاته اليومية كيف ان الحياة التجارية في نيوانجلند حلت محل البيورتانية المتزمتة باتخاذها مواقف اكثر دنيوية . وتصف «يوميات»(Journal) السيدة سارا نايت(Mme Sara Knight) بتفصيل او بروح هزلية ، رحلة قامت بها تلك السيدة الى نيويورك عام ١٧٠٤ . وعبّرت

بوضوح وواقعية عما شاهدته وعلقت عليه من وجهة نظر مؤمنة صحيحة العقيدة ، الا ان صفة من الخفة في كتاباتها الفكهة اظهرتها أقل حماساً بكثير من المؤسسين الحجاج لمستعمرة نيوانجلند . كما ان وليام بيرد(William Byrd) من فيرجينيا في الجنوب وهو احد اصحاب المزارع الارستقراطيين - اظهر ذلك البون الشاسع بينه وبين سبعة من كتاب تآكلت قلوبهم من الكآبة والسوداوية في نظرتهم للحياة . اما مؤلفاته الرئيسية فهي «تاريخ الحد الفاصل»(The History Of The Dividing Line) ١٧٢٨ وهو سجل لرحلة استطلاعية قام بها عام ١٧٢٨ «ورحلة الى ارض عدن»(A Journey To The Land Of Eden) وهو وصف لزيارة قام بها الى املاكه على الحدود عام ١٧٣٣ . هذا وان السنوات التي امضاها في انجلترا وفي اوروبا وفي اوساط ارستقراطيي الجنوب مدّته بالمرح ورشاقة الاسلوب . ورغم انه انجليكانيا متدينا فقد كان فكها خفيفاً ، كأنه واحد من اصحاب الظرافة في فترة عصر «عودة الملكية» الذين اعجب بمؤلفاتهم . اكد عنف الثورة الامريكية على وجود خلافات آخذة بالتفاقم بين المفاهيم السياسية الانكليزية والامريكية . وبينما كان المستوطنون الامريكيون يميلون للاعتقاد بان الثورة متفجرة ولا بد ، لكن بينما هم يخوضون حرباً ضروساً ، ويجهدون لتأسيس حكومة امة جديدة كان يستأثر بمشاعرهم عدد من الكتاب السياسيين المؤثرين جداً أمثال صاموئيل آدمز(Samuel Adams) وجون ديكنسون(John Dickinson) اللذين آزرا المستوطنين ، والموالي جوزيف كالاوية حتى أطل كل من بنجامين فرانكلين(Benjamin Franklin) وتوماس بين(Thomas Paine) مشرفين، ففاقوهم جميعاً.شرع فرانكلين المولود عام ١٧٠٦ بنشر كتاباته في جريدة أخيه المسماة «نيوانجلند كورانت»(New England Courant) **بدءامن عام** ١٧٢٢ . وفيها تصدى للدفاع عن طبقة الحرفيين والمزارعين ؛ واستجاب لها القراء لبساطة لغتها ونقاشها العملي . وحظيت بشعبية واسعة فكرة فرانكلين القائلة ان التفكير السليم خير دليل ، وتجلت بوضوح في «تقويم ريتشارد الفقير»(Poor Richard Almanac) بين عامي ١٧٣٣ و١٧٥٨ وقد شحنها بأقوال مأثورة فكهة كتبها ريتشارد سوندرز(Richard Saunders) الذي لم يكن متعلماً بل خبيراً واسع المعرفة . كما ظهرت له «سيرة الكاتب الذاتية»(Autobiography) التي كتبها بين

عامي ١٧٧١ و١٧٨٨ وهي سجل لنشوئه من ظروف متواضعة ، كما تعطي درساً دنيوياً يشير الى اقتراحات بشأن النجاح في المستقبل . ان ثقافة فرانكلين ـ حصيلة جهده الذاتي ـ التي تتصف بالعمق والشمول كانت المعين المتدفق مادة ومهارة لمقالات متنوعة ، وكراسات وتقارير حول النزاع مع بريطانيا العظمى وكثير منها كان بالغ التأثير في تقرير وصياغة قضية المستوطنين الامريكان .

غادر توماس بين موطنه انكلترا قاصداً فيلادلفيا ليصبح محرراً لمجلة ، (١٤) شهراً ليصبح اكبر مدافع عن قضية المستوطنين ورافع للوائها . وقد خلفت كراسته المسماة «التفكير السليم» بصماتها على المستوطنين ، وشجعتهم على اعلان استقلالهم . اما مقالات «الازمة الامريكية»(The American Crisis) (كانون الاول ١٧٧٦ الى نيسان ١٧٨٣) فقد شجعت الامريكيين محرضة اياهم على الاستمرار في القتال خلال احلك سنوات الحرب . ولما كانت تستند الى معتقدات بين «الربوبية» البسيطة ، لذا أظهرت النزاع على انه ملودراما مؤثرة ، يمثل المستوطنون فيها دور الملائكة ، والمستعمرون الانكليز دور قوى الشر . ودعائياً كانت مثل هذه اللوحات بالاسود والابيض بالغة الاثر ، ويكمن السبب الآخر لنجاح بين في حماسة الشعري الذي ارسله بكلمات وتعابير عاطفية ، اقتبست وحفظت في الذاكرة امداً طويلاً .

الأمة الجديدة :

في فترة ما بعد الحرب لم يعد بعض هؤلاء الرجال قادرين على التأثير، اذ كان ينقص توماس بين وصاموئيل آدامز الأفكار البناءة التي يستجيب لها المهتمون بتشكيل حكومة جديدة، الا ان بعضهم كان اكثر توفيقا. ففرانكلين اثر تسامحه وادراكه السليم على المؤتمر الدستوري، فضلا عن لفيف من المؤلفين ارتفعوا لمصاف القادة في الفترة الجديدة مثل ثوماس جفرسون(Thomas Jefferson) والكتاب الموهوبين للمقالات التي نشرت في «الفيدرالية»(The Federalist) وهي سلسلة من ٨٥ مقالا نشرت عام ١٧٨٧ وعام ١٧٨٨ تحث على فضائل الدستور الجديد المقترح، كتبها الكساندر هاملتون(Alexander Hamilton) وجيمس ماديسون(James Madison) وجون جاي(John Jay) . ولما كانت هذه الاعمال تتميز بعمق البصيرة في معالجة قضايا

الحكومة، وبمنطقها الهادئ اكثر من تمييزها بالفصاحة غدت بمثابةتقرير كلاسيكي عن النظرية الحكومية لأمريكا. فضلا عن أنها كانت ـ بنفس الوقت ـ بالغة الأثر على المشرعين الذين صوتوا على الدستور الجديد. واصبح هاملتون الذي ربما كتب ٥١ مقالا فيدرالياً أحد قادة الحزب الفيدرالي(Federalis Party) . وبوصفه اول سكرتير للخزينة (١٧٨٩ ـ ٩٥) ـ كتب رسائل رائعة الاثر في تدعيم الحكومة القومية على حساب حكومات المقاطعات.

كان توماس جفرسون كاتبا سياسيا ذا أثر اثناء الحرب وبعدها. وكما اشار ماديسون(Madison) تتلخص فضائل موجزه الرائع حول«اعلان استقلال» في انه شرح واحد للحقوق الانسانية، كتب باسلوب وطابع يلبي المناسبة الكبرى كما يناسب روح الشعب الامريكي. وبعد الحرب صاغ المبادىء الدقيقة لعقيدته، ونشرها مسلسلة في عدة مقالات، لكنه شرحها بشكل أوفر واغنى في رسائله وفي كلماته «التدشينية» التي حث فيها على الحريةالشخصية والفردية والاستقلال المحلي ـ وهي نظرية في اللامركزية تغاير ايمان هاميلتون بدولة فيدرالية قوية. ومع اعتقاده بان كل الناس خلقوا متساوين ظل جفرسون يؤمن بان «ارستقراطية طبيعية» من (الفضائل والمواهب) يجب ان تتولى المراكز الحكومية العليا.

الشعراء والشعر:

اصبح الشعر خلال الثورة الامريكية سلاحا ذا حدين، اذ استعمله الموالون للتاج، والداعون الى الاستقلال على حد سواء، يعبرون فيه عن جدلهم، ويمجدون ابطالهم شعرا واغنية مثل «يانكي دودل»(Yankee Doodle) «وناثان هيل»(Nathan Hale) «والخاتمة»(Epilogue) وقد لحن معظمها حسب الحان بريطانية شعبية، وبالأسلوب يشابه قصائد بريطانية أخرى للفترة .

واستخدمت اولى قصائد فيليب فرينو(Philip Freneau) الهجائية الشهيرة كمحرك في الحرب الاهلية، وهكذا كانت أداة دعائية قوية الأثر. وبعد هذه القصائد التفت الى النواحي المختلفة على الساحة الامريكية. ومع انه نظم الكثير حسب الاسلوب الجامد للكلاسيكيين الجدد الا ان قصائد مثل «صريحة الجدي البري»،

وحول «النحلة» كانت غنائية رشيقة دقيقة الاحساس، وتبشر بحركة أدبية قدر لها ان تصبح هامة في القرن التاسع عشر.

المسرحية والرواية:

وفي السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر تم تأليف مسرحيات وروايات تتحلى ببعض الاهمية التاريخية. ومع ان المجموعات المسرحية كانتنشطة في امريكا منذ امد قصير الا ان اول هزلية امريكية اخرجها محترفون ممثلون كانت «المقارنة» (١٨٧٨)(contrast) ل رويال تايلر(Royall Tyler) وهي تعكس اصداءً كثيرة من جولدسميث وشريدان، الا انها جلت شخصية امريكية من نيوانجلند مما يسمى «يانكي» وكانت سابقة لكثير غيرها في السنوات التالية، كما كان لها فضل اضافةعنصر وطني محلي للمسرح.

كتب وليام هيل براون(William Hill Brown) اول رواية امريكية عنوانها «قوة التعاطف»(The Power of Sympathy) ١٧٨٩ التي اظهرت للمؤلفين كيف يتغلبون على دميم التعصب القديم ضد هذا الشكل الادبي باتباع الرواية العاطفية التي ابتدعها ريتشاردسون. وقد أخذ باسلوب هذه الرواية فيض من الروايات العاطفية حتى نهاية القرن التاسع عشر اذ نهج هيو هنري براكنريدج نهج دون كيشوت لسرفانتيس، كما سار على درب فيلدنج، ونال بعض النجاح الشعبي في رواية «الفروسية الحديثة»(Modern Chivalry) ١٧٩٢ ـ ١٨١٥ التي تفتقد الديموقراطية وتصور بشكل ممتع حياة الحدود اما الروايات القوطية المثيرة فقد لبست طابعاًأمريكياً الى حد ما، في ورايات شارل بروكدين براون(Charles Brackden Brown) مثل «ويلاند»(Wieland) ١٧٩٨، و«لآرثر ميرفين»(Arther Mervyn) و«ادغار هنتلي» (Edgar Huntly) لكن اهمية جميع هذه المؤلفات لا تكمن في كونها منجزات فنية بارزة بقدر ما كانت بدايات ذات قيمة تاريخية.

الفَصْـل الثّالث

الأدب الفرنسي في القــرن الثامن عشر

سنوات الانتقال :

من الممكن القول بأن مرحلة جديدة في الأدب الفرنسي دشنت عام ١٦٨٥ نتيجة لالغاء «مرسوم نانت» (Mantes) الذي كان قد أدى الى كبت سائـر اشـكال التعبير البروتستنتي ، كما ويمكن اعتبار الثورة الفرنسية نهاية لهـذه الفتـرة . فقـد اختفت من الصـورة شخصيات عظيمـة مثـل موليير وكونيي ولاروشفوكولـد(La Rachefaucauld) وراسـين ومعظـم الكتّـاب الـرئيسيين الآخـرين ، إلاّ ان روح الـكلاسيكيين وعبقريتهـم ما زالـت ماثلـة حية . وقـد كان هنـاك تعـديل لهـذه الـكلاسيكية في الوجـدان الاجتماعـي الـذي تكشف في كتـاب «شـخصيات» (Caractères) لمؤلفه جان دولا برويير (Jean de la Bruyère) مبشراً بالاحسان الذي دعا اليه القرن الثامن عشر.

وفي هذه الأثناء اهتم كتّاب كثيرون بالنقد اكثر من التفاتهم للعمل المبدع . فان شارل بيرولـت (Charles Pearault) الـذي يذكر بشـكل رئيسي بقصص عن الجنيات المسماة «قصص الوزة الام» (Contes De Ma Mère L'Oye) (١٦٩٧) هاجم سمعة العالم القديم وشهرته في قصيدته «عصر لويس العظيم» (Le Siècle De Louis Le) ١٦٨٧ ، حيث يؤكد ان عصر لويس الرابـع عشر يقـارن بعصر الامبراطـور الرومانـي اغسطـوس. إلاّ ان نيقـولا بوالـو ـ شأنـه شأن لافنتـين(La Fontaine) ولابـرويير (La Bruyère) استقبـل باشمئـزاز آراء بيرولـت، ولـم تحـدث المهادنـة والتسوية ما بين دعاة القديم (Ancien) وهم جماعة بوالو ودعاة الحديث(Moderne) الا في عام ١٧٠١ .

ومع ان الاجيال التي تلت اعتبرت عودة راسين الى المسرح بمسرحية «إستر» (Esther) (اخرجت للمرة الأولى عام ١٦٨٩)، وبشكل خاص بمسرحية «اثالي» (Athalie) ١٦٨١، اعظم حدث بتاريخ المأساة في الثلاثين عاماً الأخيرة من حكم لويس الرابع عشر، الا ان كاتيا مسرحياً آخر هو بروسبر جوليو دو كربلون (Prosper Jolyot de Crébillon) تسنم ـ عهد ذاك ـ قمة الشهرة بمسرحيات رهيبة تجمد الدم في العروق، اشهرها «رادامیست وزنوبيا» (Rhadamiste et Zénobie) ١٧١١ المليئة بالاغتيالات، والتباس الشخصية والنزاع الأودبيبي.

وكتب جان فرانسوا رينارد (Jean-François Regnard) عدداً كبيراً من المسرحيات الهزلية الخفيفة السطحية، معتمداً أساليب الهزليات الفنية من نوع «الفارس» اشهرها «المقامر» (Le Joueur) ١٦٩٥.

وكان فلورنت كارتون دانكور (Florent Carton d'Ancourt) المشهور باسم دانكور (Dancourt) كاتباً آخر غزير الانتاج بكتابة الهزليات، وذا مهارة في رسم الانماط الاجتماعية. وارتقى الين ـ رينيه ليساج (Alain-René Lesage) مستوى ارفع؛ وكان اول نجاح له على المسرح عندما اخرج مسرحية «كريسبين» ؛ منافس سيده» (Crispin, Rival de Son Maitre) عام ١٧٠٧ ومسرحية «تورکاریه» (Turcaret) ١٧٠٩ وكلتاهما جريئة نابضة بالحيوية.

إن اهم رواية كتبت خلال هذه السنوات هي «مغامرات تلماك» (Les Aventures de Telemaque) (نشرت عام ١٦٩٩) لِـ فرانسوا فينيلون (François Fénelon) الذي اشتهر ليس كالكيركي فقط، بل كأديب مبدع بمقالة «تعليم البنات» ١٦٨٧. اما «مغامرات تلماك» التي تروي بنثر بديع، رحلات تلماخوس ابن عوليس بعد حصار طروادة فقد كتبت للدوق بورغون (Duc de Bourgogne) وريث العرش الفرنسي، وبلغت غاية في النجاح بعد نشرها مباشرة. عبر فينيلون فيها عن افكار تقدمية ذات صفة سياسية واجتماعية، وغالباً ما بطّنها بنقد خفيّ لسياسات لويس الرابع عشر، كما قدم فيها مزيجاً غريباً لاقطاعية وسيطية وحكم مطلق متنور، واصبحت الرواية على يديه اداة لنشر افكار معينة متطورة.

ان التراجع عن «الارثوذكسية» المطلقة لرجل الدين جاك بنين بوسيه (Jacques

(Benigne Boussuet) عبر عنه اكليريكيون آخرون امثال اسبري فلاشيير(Esprit
(Fléchir) اسقف نيم (Nimes) وجان بابتيست ماسيلون(Jean-Baptiste Massilon)
اسقف كليرمون (Clermont) وجانسنييت باسكيه كيسنيل(Jansenist Pasquier
(Quesnel) وبخاصة فينيلون الذي انتقد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كتابة «تفسيرات لمبادىء القديسين حول الحياة الداخلية»(Explications Des Maximes
(Des Saints Sur La Vie Interieure) اما ريتشارد سيمون (Richard Simon) الذي ادى به تطبيقه للأساليب الشديدة من النقد الانجيلي، في كتابه «تاريخ نقدي للعهد القديم» (Histoire Critique du Vieux Testament) ١٦٧٨ الى تهمة الهرطقة فطرد من سلك النظام الذي كان يتبعه.

ويظهر اتجاه نحو مفهوم نسبي عالمي ـ وهي وجهة نظره القائلة بان الحسن والسيء والصالح والطالح، هي مفاهيم نسبية، وان ما هو صالح في مجتمع ما قد يكون غير صالح في مجتمع آخر ـ في مؤلفات شارل دوسان دنيس دوسان افريمو (Charles De Saint-Denis De Saint-Evremond) الذي عاش في المنفى في انجلترا وهولندا من عام ١٦٦١ حتى وفاته عام ١٧٠٣ . وقد تمتع كفرد ومفكر حر بذكاء حاد ونقدي ، وشجع على النسبية الآنفة الذكر كتاب «رحلات وذكريات حول امريكا» (١٧٠٣) (Memoires sur L'Amerique) للبارون دولاهورتان(Baron De La Horrtan) وبترجمة انطوان غالان (Antoine Galland) لكتاب الف ليلة وليلة.

ميزت النظرية النسبية معظم أعمال برنار لوبوفييه سير دو فونتنل(Bernard Le Bovier, Sieur De Fontenelle) الذي اشتهر بطلاوة اسلوبه، وبذكائه الوقّاد قبل عام ١٦٩٠ . ويعتبر كتابه «ازدواجية العالمين»(Entretiens sur la Pluralité Des Monde) عام ١٦٨٦ فريداً في بابه كمثال على التعميم العلمي، وعلى الهجوم العنيف على التعصب. وقد أظهر هنا كما اظهر كتابه «تاريخ المعجزات»(Histoire des Oracles) ١٦٨٧ عقلاً مشككاً لا يتأثر بثقات الفلسفة والدين.

كان بيير بيل(Pierre Bayle) الذي نفي لكونه بروتستنتياً مجادلاً بشكل رئيسي ـ يهاجم الخرافات ، ويبحث في فضائل الملحد في كتابه «افكار متنوعة حول المذنب» (Pensées Diverses Sur La Comète) ويدافع عن حرية الضمير في كتابه «تعليق

فلسفي» (Commentaire POhilosophique) ١٦٨٦ . واهم مؤلفاته وابلغها اثراً هو معجم تاريخي ونقدي (Dictionnaire Historique et Critique) ١٦٩٧ . ولربما كان هذا الزخم من المعرفة اضخم واعظم كمّاً مما يقدمه رجل واحد . وفي القرن الثامن عشر اعتبر بيل مشككاً، الا ان بعض القرّاء الحديثين يأنسون فيه شعوراً دينياً راسخاً .

كان فونتنيل وبيل أبرز مبشرين بالحركة التي عرفت فيما بعد بحركة «التنوير». ومن المؤلفات التي اسهمت في هذا الصدد «تنهدات فرنسا المستبعدة»(Les Soupirs De La France Esclave) (١٦٨٩ - ١٦٩٠) وهو كتاب مجهول المؤلف. ومن المؤلفين نذكر القس كاستيل دوسان بيير(Abbé Castel de Saint Pierre)

الادب الخلاّق :

المسرحية :

اغرى نجاح كربلون فرانسوا ماري اروي (François-Marie Arouet) - الذي كان يكتب تحت الاسم الادبي «فولتير» - بالكتابة للمسرح المأساوي، وفي عام ١٧١٨ اخرجت مسرحية «اوديب» (Oedipe) وهي الأولى من ٣٠ مأساة حاز بعضها نجاحاً لامعاً وخاصة «زاير» (Zaire) (اخرجت للمرة الأولى عام ١٧٣٢) و«محمد» (Mahmet) عام ١٧٤٢ . وقد تميّز الشكل الأدبي الذي استعمله كسلاح في جدله الفلسفي بالاسلوب الايقاعي العنيف، والتأثيرات العاطفية المغرقة، التي غالباً ما اوحى بها شكسبير، واحترام متفاوت الدرجة لذوق وأعرف عصر سابق وقد تمتع كتّاب آخرون بشهرة واسعة في عصرهم، اذ ضرب هودار دو لا موت(Houdar De La Motte) الرقم القياسي في النجاح المالي، بمسرحية «اينس دو كاسترو»(Ines De Castro) ١٧٢٣، كما أن مسرحيات بيريت دوبلوي(Buyrette De Belloy) اخرجت اكثر من مرة.

ألف فيليب نيريكول دستوش (POhilippe-Nericault Destouches) هزليات من النوع الذي يعتمد على الشخصيات بالدرجة الأولى، وكان هدفه منها اخلاقياً،

مثل «الكونت المغرور» (Le Glorieux) ١٧٣٢ التي تعتبر افضل ما كتب في هذا المجال. وتناولت الشعراء بالهجاء مسرحية «مجانين الشعر» (Metromanie) ١٧٣٨ - للكاتب الكسي بيرو (Alexis Piron) وعلى اية حال فان اعظم شخصين موهوبين من كتاب الهزليات هما بيير كارليه دو شمبلان دو ماريفو (Pierre Carlet de Chamblain de Marivaux) وبيير اوغسطين كارون دوبومارشيه (Pierre-Augustin Caron de Beaumarchais) . كتب اولهما هزليات نثرية قوامها المكيدة الناعمة ويشكل فيها الحب القوة الدافعة، واشهر هزلياته: «لعبة الحب والحظ» (١٧٣٠) (Le Jeu de l'Amour Et Du Hasard) يتميز دو ماريفو بمهارة التحليل النفسي ورشاقته وبأسلوبه البديع الصقل وبشخصياته المسفسطة المتطورة حضارياً. تصور مسرحياته المجتمع الباريسي المخملي المعاصر في القرن الثامن عشر.

وكتب المغامر السياسي والمتآمر المالي بومارشيه عدداً من المسرحيات اجدرها بالتقدير «حلاق اشبيلية» (Le Barbier de Sciville) ١٧٧٥ «وزواج فيغارو» (Le Mariage de Figaro) ١٧٨٤ . أدت الى نجاح المسرحيتين المستمر، رفعة الفكاهة ، والنقد الاجتماعي الجريء لطبقة النبلاء، وبخاصة شخصية فيغارو المرح، والخالي من كل وهم، والفصيح الذي لا يحفل بأي رادع اخلاقي.

جرت عدة محاولات للتخلص من التمييز الكلاسيكي المتزمت ما بين المأساة والملهاة اذ كتب نيفيل دو لا شوسيه (Nivelle De La Chaussée) - الذي كانت مسرحيتاه الرئيسيتان «التعصب الدارج» (Le Prejuge A La Mode) ١٧٣٥ «وميلانيد» (Mélanide) (١٧٤١) - هزليتين حذف منهما ما هو هزلي ، فتمثلتا بذلك القلق والأزمات المنزلية. لكن اكثر المسرحيات اهمية من حيث استمرارها هي المسرحية المنزلية، وهي ما يسمى بمأساة الطبقة المتوسطة (Tragédie Bourgeoise) التي طورها دنيس ديدرو (Denis Diderot) الذي ابتدع نظرية عن مسرحية تصعِّد المشاعر ، منتقياً شخصياتها من طبقة اجتماعية اكثر تواضعاً، لاعتقاده بأن الأشكال الأدبية التقليدية استنفدت اغراضها بالتالي فالمسرحية اداة مفيدة لاستنتاج هذه الدروس الاجتماعية التي كانت عزيزة بالنسبة للقرن الثامن عشر.

وتعزيزاً لرأيه هذا كتب مسرحيتين هما «الابن الطبيعي» (Le Fils Naturael)

١٧٥٧ «والاب» (Le Père De Famille) ١٧٥٨ . ممهداً بذلك الطريق لكتّاب آخرين وبخاصة ميشيل جان سيدان (Michel Jean Sedaine) بمسرحية «الفلسفة بدون معرفة» (La POhilosophie sans le Savoir) ١٧٦٥ . وسبسطيان ميرسيير (Sebastien Mercier) الذي حوّر مسرحية «روميو وجولييت» ، تحت عنوان «قبور فيرون» (Les Tombeaux de Verone) (١٧٨٢) . تكمن اهمية هذا النوع من المسرحية بانها مهّدت السبيل للمسرحية الرومانطيقية في القرن التاسع عشر.

الشعر :

في عداد الغنائيات من طراز «الأود» هناك عدة قصائد قيمة «مسيحية وفلسفية» (Odes Chrétiennes Et Philosophiques) نشرت عام ١٧٧١ للشاعر فرانك دوبومبينيان (Le Franc De Pompignan) . ويستحق ابن راسين العظيم لويس راسين (Louis Racine) الذكر هنا لقصيدته «الدين» (La Religion) ١٧٤٢ وفيها يعبّر عن عواطف الكاثوليكية «الجانسنية» (Jansenist) وقد نظمها بروح تذكرنا بلغة باسكال ـ شأنه شأن شارل ـ بيير كولاردو (Charles-Pierre Colardeau) في رسائله المسماة «هيرويد» (Heroides) . على اية حال كان فولتير الشخصية الشعرية الرئيسية حتى اواخر القرن ، لأنه كان الوحيد من ابناء عصره الذي استطاع ان يكتب قصيدة ملحمية بعنوان «الهنرياد» (La Henriade) . لكن الكثير من قصائده ليس سوى نقد لاذع ، بينما يفيض بعضها مثل «قصيدة حول مصيبة ليشبونة» (Poeme sur la Desastre de Lisbonne) ١٧٥٦ برقة كبيرة.

في النصف الثاني من القرن نشر جاك دوليل (Jacques Delille) قصيدته الوصفية التعليمية «الحدائق» (Les Jardins) في أربعة أجزاء كما كتب انطوان ـ لينارد ثوماس (Antoine-Léonard Thomas) مسرحية غنائية عنوانها «الأود عن الزمن» (Ode Sur La Temps) ١٧٦٢ . ويشمخ من بين هؤلاء جميعاً الشاعر الأعظم ربيب القسطنطينية : اندريه شنييه (André Chénier) الذي انتهى عنقه تحت المقصلة وذلك «بقصائده» من نوع الأود وبمرثيات وقصائد وهجاء من بحر الأامب (Odes, Elegies, Iambes) المتسمة جميعاً بالعاطفة الشخصية والجمال الكلاسيكي النقي.

الرواية :

اخذت الرواية في القرن الثامن عشر في الارتقاء، اذ نشر الآن رينيه ليساج (Alain-René Lesage) «جيل بلاس» (Gil Blas) على ثلاث مراحل بفترات زمنية يفصل ما بينها عشرة اعوام (١٧١٥، ١٧٢٤، ١٧٣٥) وذلك بعد ان نشر قصة نقدية عنوانها «الشيطان على عودين» (Le Diable Boiteux) ١٧٠٧ يدين فيها بالكثير للأدب الاسباني ولا سيما وصف رحلات جيل بلاس (Gil Blas) عبر اسبانيا. اما صورها النقدية فعديدة ولكن الرواية تخطت ذلك بعيداً، بعد ان نشر القس بريفوس (Abbé Prévost) في آخر مجلد من مذكراته المسماة «مذكرات رجل من الطبقة الرفيعة اعتزل العالم» رواية «مانون لسكو» (Manon Lescaut)، فهي تجسد الجمال والخيانة في شخص البطلة مانون، بينما يمثل حبيبها دي غريو (Des Geieux) الذي كان وجدانه أبداً اضعف من مشاعره العاطفية المفرطة المعروفة باسم الاحساس المرهف. اما روايات ماريفو (Marivaux) مثل «حياة ماريان» (La Vie De Marianne) (١٧٣٦ - ١٧٤٢) و«الفلاح السعيد» (Le Paysan Parvenu) ١٧٣٥ - ١٧٣٦ فهادئة بالمقارنة بغيرها. كما تظهر قوة بريفوست (Prevost) كذلك في «رواية هلوييز» (La Nouvelle Héloïse) ١٧٦١ لِـ جان جاك روسو التي تعكس تأثير الكاتب الانكليزي صاموئيل ريتشاردسون. تمتعت هذه الرواية التي سيقت باطار رسائل بشهرة فائقة. فالتشخيص مرح، ووصف الجمال الطبيعي وافر، وهو شيء غير معتاد في القرن الثامن عشر.

ويمثل هذا المؤلف اوج ما يعرف «بالاحساس المرهف» الذي بشّر بالحركة الرومانطيقية. تجلى هذا الخط من التطور بنشر الرواية الغربية «بول وفيرجيني» (١٧٨٧). لبرناردان دو سان - بيير (Bernardin De Saint-Pierre) ورواية «معارف خطرون» (Les Liaisons Dangereuses) ١٧٨٢ المكتوبة على شكل رسائل لمؤلفها كودلالودو لاسلو (Choderlos de Laclos) وروايات ديدرو. وتجمع قصص فولتير القصيرة والفلسفية مثل «زاديك» (Zadig) ١٧٤٧ و«كانديد» (Candide) ١٧٥٩ ما بين النقد السياسي اللاذع والأسلوب الفكه الهش وهما ما تزالان تحتفظان بروعتهما بعد قرنين. ازاء نشوء الرواية في القرن الثامن عشر ثمة تطور مماثل في المذكرات التي

تعتبر الآن مفيدة للمؤرخ والناقد الأدبي. وتمدنا «مذكرات» (Mémoires) الدوق سان سيمون بمعلومات وافرة عن حياة البلاط والنشاط السياسي بين عامي ١٦٩١ و١٧٢٣. وروسو هو الشخصية الهامة الثانية في هذا المجال، اذ اتصفت «اعترافاته» (Confessions) (١٧٦٥ - ٧٠) بصراحتها والكآبة في تجملاتها لشخص الكاتب، وتمتاز بما تتبسط به من تحليل شخصي ذي تعمق نادر، يساق ادبياً باسلوب بالغ المهارة. وبذا فهي نوع جديد من السيرة الذاتية، مما يقوم دليلاً على انه كان ممن استبقوا الرومانطيقية.

التنوير:

كان القرن الثامن عشر اقل روعة في اشكاله الأدبية التقليدية منه في تطور الفكر الذي التقت تياراته لتؤلف ما يسمى الآن بعصر التنوير. فقد نفخ فونتنيل الفكر الفرنسي توجيهاً جديداً عقلانياً ومشككاً. وشاركه في هذا المنحى بيل(Bayle) وترجمات لمؤلفات الفيلسوف الانكليزي جون لوك (John Locke). وتنطوي «رسائل فارسية» (Lettres Persanes) ١٧٢١ لـ شارل لويس دوسكوندا دو مونتسكيو (Charles-Louis de Secondat de Montesquieu) على افكار اكثر تطوراً تكسوها صيغة ادبية فكهة جذابة.

وتشمل هذه الأفكار النواحي التالية: الأهمية الأكبر للأخلاق بالمقارنة بالعقيدة؛ الدين ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى، اذا عري من عناصره الموحى بها، وأخضع لضوء العقل، والحاجة الى التسامح الديني، وظلم الطغيان. ولما كانت هذه الأفكار جديدة بالنسبة للقارىء الفرنسي في القرن الثامن عشر، فقد حرّضت الفكر وهزت اركان التعصب. كان نجاح «رسائل فارسية» رائعاً.

انتشرت المقالات الربوبية والملحدة انتشاراً واسعاً خلال العقد التالي من القرن الثامن عشر، اذ عالج كاتب «سيرة محمد» هنري دو بولا نفير(Henri De Boulainvilliers) حقوق النبلاء ضد الحكومة، وقدم نظرية شهيرة حول الأصل الألماني للدولة الفرنسية في كتابه تاريخ الحكومة القديمة لفرنسا» (١٧٢٧)(Histoire De L'Ancien Gouvernement De La France) ثار النقاش حول مواضيع سياسية

مماثلة، بدأ احياناً غير ضار في نادي انترسول (Club De L'Intersol) حين التقى النبلاء والبورجوازيون على قدم المساواة. أسس هذا النادي عام ١٧٢٤، ونظمه الأب آلاري (Alary) كما ضم في عضويته الأب دوسان بيير (Abbé De Saint-Pierre) ورينيه لويس (René Louis) والماركيز دارغنسون (D'Argenson) (الذي اصبح فيما بعد - ولفترة قصيرة - وزير خارجية) ومونتيسكيو. كان النقاش حراً والآراء لا تسير حسب ما جرى التعارف عليه، وبكل تأكيد لم تكن ترضي للسلطة لأن النادي حل عام ١٧٣١ بقرار رئيس الوزراء الكاردينال دوفليري(Cardinal De Fleury).

حدثت تطورات كبيرة في العشرين سنة التي تلت، وكان السبب الرئيسي هو نزول فولتير الى الحلبة، اذ لم يلبث ان رفع عقيرته بانتقاد رجال الدين والنبلاء وسخريته اللاذعة من الفلاسفة الذين عفا عليهم الدهر، كل ذلك بلغة بسيطة، وبمزيج من رائع التهكم اللطيف والنقد المعتدل، وجاءت آراؤه هذه في كتابه «رسائل فلسفية» (Lettres Philosophiques) (١٧٣٤). إن الانجازان الرئيسيان لهذا العمل هما تقديم الحضارة الانكليزية على انها النموذج الذي يجب ان يحتذى، ونشر فلسفة «لوك» على صعيد شعبي. بعد عام ١٧٣٤ كانت «الاحساسية» - او النظرية القائلة بأن جميع الأفكار تنبع من الأحاسيس - احدى المبادىء الأساسية لحركة التنوير. حمل (البرلمان) ومحكمة القضاة على «الرسائل الفلسفية» في باريس وأمرا بحرقها.

في نفس العام ظهر كتاب مونتيسكيو «بحث اسباب عظمة الرومان وانحطاطهم» (Considérations Sur Les Causes De La Grandeur Des Romains Et De Leur Descendence) ١٧٣٤. وفيه عرض للعوامل العقلية والمادية والعسكرية والسياسية التي تكمن خلف عظمة وانحطاط روما. في الكتاب ايضاً تعليقات ومقارنات عديدة تجعله واقعياً، كما يتضمن نظرية سياسية واسلوباً تاريخياً. كما عبر فينيلون، مثله مثل مونتيسكيو، للطغيان في كتابه «نقاط الفحص الذاتي للملك» (١٧٣٤) (Examen De Conscience D'un Roi).

وقبل عام ١٧٨٩ كانت مقالة الكساندر بوب بعنوان «مقالة عن الانسان» قد

طبعت بالفرنسية اكثر من - ٦٠ مرة -، ورحب الجمهور المتعطش، والذي اعدته فلسفة غوتفرد ولهم ليبتز (Gottfried Wilhelm Leibniz) للمبادىء التي دعت اليها المقالة، وهي الانسجام والنظام والتفاؤ ل. كما الهمت مقالة بوب فولتير اثناء كتابته «محاضرات شعرية عن الانسان» ١٧٣٨ (Discours En Vers Sur l'Homme) .

تعتبر الدعاية القوية لأفكار لوك لولب «مقالات فلسفية حول عدم استقرار المعلومات الانسانية» (La Philosophie Du Bon Sens) ١٧٣٧ للماركيز دارجان، (Marquis D'Argens) . وحدث الشيء نفسه لأفكار السير اسحاق نيوتن على يد العالم الفلكي والرياضي بيير لويس مورو دو موبيرتيوس (Pierre Louis Morea De Maupertius) ثم على يد فولتير في كتابه «عناصر فلسفة نيوتن» (Eléments De La Philosophie De Newton) ١٧٣٨ .

كما يظهر تقبل الرأي العام المتزايد لهذه الأفكار من نشر مجلد صغير عام ١٧٤٣ من خمس مقالات يحمل عنوان «الحرية الجديدة في الفكر» (Nouvelles Libertés) ، نسبت مقالتان منها لفونتينل ومقالة اخرى وهي اكثرها اهمية بعنوان: «الفلسفة» (La Philosophie) نسبت الى اللغوي الموسوعي سيزار شسنو دومارسيه (Cesar Chesneau Dumarsais) تصف مقالة «الفلسفة» الفيلسوف بأنه آلة انسانية تستطيع بحكم تركيبها الميكانيكي التأمل في عملها. والفيلسوف يعمل بفعل العقل. إن مفهوم الفيلسوف او الحكيم على انه عضو من الصفوة المختارة غير المسيحية، يقوده العقل، اكثر ميلاً للشك منه الى التصديق، ويجنح الى المادية، كان مفهوماً يميز حركة التنوير الفرنسية. كان هذا اول تعريف واضح للكلمة.

وتحتوي مقالة عنوانها «مقدمة لفهم الروح الانسانية» (Introduction A La Connaissance De L'Esprit Humain) ١٧٤٦ بقلم لوق دو كلابيير ماركيز دو فوفينارغ (Luc De Clapiers, Marquis De Vauvenargues) عناصر من مبدأ النفعية (اليوتيليتارية) وعلامات تأثر بكتاب بقلم ايرل اوف شافتسبري عنوانه «استيضاح عن الفضيلة» ترجمه الى الفرنسية ديديرو الذي أقدم النائب العام على حرق كتابه «افكار فلسفية» (Pensées Philosophiques) عام ١٧٤٦ وفيه دافع «ديدرو» عن «الربوبية». ولم يلبث ان الحق كتابه هذا «بمقالة عن العمى» (Lettre sur Les

(Aveugles) حوالي ١٧٤٩ وهي نقاش صريح للنتائج الخلقية للأعمال المثيرة، وقد أدت الى حبسه. كما ان كتاب «عادات» (Les Moeurs) ١٧٤٨ لفرانسواز فنسان توسان (François-Vincent Toussaint) كان دفاعاً اوسع نطاقاً عن الربوبية والأخلاقية الطبيعية. وقد حاز هذا العمل على شعبية كبيرة، لكنه أحرق علناً ـ كانت مؤلفات جوليان اوفروي دو لامبتري (Julien Offroy De La Mettrie) اكثر تطرقاً في دعوتها الى المادية الكاملة، كما انكر دولاميتري بصراحة وجود الروح في كتابة «التاريخ الطبيعي للروح» (Histoire Naturelle De L'Ame) ١٧٤٥. وفي عام ١٧٤٨ أرسى مونتسكيو احدى دعائم الفكر الفرنسي، بكتابة «روح القوانين» (L'esprit Des Lois)، ورغم ان المؤلف كان دائماً يفضل ان يفسر لا ان يصدر أحكاماً، فيما يتعلق بالأنظمة دينياً وسياسياً، فقد وجد نفسه متورطاً في جدل مر. كان التراث الرئيسي الذي خلفه هو نظريته عن الملكية الدستورية، وفصل السلطات، ونظرية اثر المناخ على طبيعة الشعوب. كما اعطى مونتيسكيو في كتاب «روح القوانين» فلسفة القرن الثامن عشر نزعة سياسية لم تكن معهودة من قبل.

كان هناك ايضاً كتابات أدبية تناصب الفلسفة العداء، اذ حاول الأب جان بابيتست غولتير (Jean-Baptiste Gaultier) ان يبرهن على إلحاد «مقالة عن الانسان» و«رسائل فارسية» (Lettres Persanes) كما هاجم كتاب ديدير و «تأملات فلسفية» بمقالتي «تأملات معقولة» (Pensées Raisonnables) «وتأملات ضد الفلسفة» (Pensées Anti-Philo Sophiques). هذا إضافة الى عدة مقالات نقدية تهاجم كتاب «روح القوانين». لكن افضل كتاب معاد للفلسفة في النصف الأول من القرن هو كتاب «ضد لوكريشوس» (Anti-Lucretius) ١٧٤٧ للكاردينال مليشور دوبولينا (Cardinal Melchior De Polignac) حاول فيه ان يدافع بأسلوب لاتيني رصين عن فلسفة ديكارت ضد المادية الآخذة آنئذ بالتزايد.

وفي النصف الثاني من القرن اتسمت الحركة الفلسفية بمنجزات عظيمة وبمقاومة عنيفة. يبدو هذا الأمر بوضوح وخاصة في «الموسوعة» (Encyclopedie)، التي اوكل مشروعها الى ديديرو وجان دالمبرت (Jean D'Alembert) وسرعان ما توسع المشروع الى انتاج مجموعة كاملة اصيلة للمعرفة ذي قاعدية نظرية لدراسة

المعرفة والتاريخ الثقافي، وهذا ما لخصه دالمبرت في مقالته الأولى. بسط العديد من المقالات الأفكار الجديدة بالنسبة للدين والسياسة، ولذا واجهت «الموسوعة» مصاعب جمة وخطيرة اثناء مرحلتي نشرها. كانت اولى المشاكل حين وجهت تهمة الهرطقة الى احد المساهمين، وهو الأب جان مارتان دوبراد (Jean-Martin De Prades) بسبب اطروحة كتبها. اما الثانية فكانت نتيجة تصادف نشر بعض المقالات الخطرة (ولا سيما مقالة والمبرت عن جنيف) مع ازمة سببتها محاولة للاعتداء على الملك. واخيراً بمساعدة الفارس لويس دوجوكور (Louis De Jucourt) نجح ديدرو في إنهاء العمل عام ١٧٦٥. وهكذا ساعدت الموسوعة، وكتاب كومت دو بفون (Comte De Buffon) «التاريخ الطبيعي» ١٧٤٩ - ١٨٠٤ (Histoire Naturelle) الذي عالج علوم الجيولوجيا والنبات والحيوان بتعمق كبير - كثيراً على تقدم المعرفة. والأهم من ذلك مساهمة «الموسوعة» في نظرية التقدم العلمي التي تبناها معظم المؤلفات الفلسفية لهذه الفترة، كما كانت موضوعاً لمحاضرة في السوربون عام ١٧٥٠ القاها ترغو (Turgot) الذي اصبح فيما بعد رئيساً للوزراء، فضلاً عن انها ألهمت كتابات عن المدينة الفاضلة «يوتوبية» وتلقت آخر تعبير لها في مؤلف يلم بطموح القرن الثامن عشر عنوانه «صورة تاريخية مجملة وسريعة لتقدم العقل الانساني» ١٧٩٥ (Esquisse D'Un Tableau Historique Des Progrès De L'Esprit Humain) كتبه الرياضي والفيلسوف الثوري الماركيز دو كوندورسيه (Marquis De Condorcet).

كان جان جاك روسو احد المنشقين عن نظرية التقديم، اذ النظرية القائلة بالطبيعة الخيّرة للبشر. والأثر المفسد للمجتمع في مؤلفيه «محاضرات في العلوم والفنون» (Discours Sur Les Sciences Et Les Arts) ١٧٥٠، ومحاضرة في «أصول وأسس عدم التساوي بين البشر» ١٧٦١، وفيها يهاجم الملكية، ويؤكد على حق الانسان في الثورة على الحاكم الطاغية. تبع هذين الكتابين المؤلف الاشتراكي الجريء «دستور الطبيعة» (Le Code De La Nature) الذي كتبه مورلي (Morelly). وهو هجوم على الملكية الفردية باعتبارها رأس كل الشرور، ووضع مبادىء المجتمع الجيد والصالح على اساس دستور من القوانين. كما استعرض اتيان دو دوكوندياك (Ettenne De Condillac) في كتابه «خصائص الأنظمة» (Traite Des Systèmes)

١٧٤٩ الفلسفات السابقة وسعى الى وسيلة لتجنب اخطائها. اكد كونـدياك على العنصر اللغـوي في الفلسفـة. امـا «خصـائص الاحسـاس» ١٧٥٤ (Traite Des Senations) فهو أبلغ تعبير لنظرية الاحساس الوفير.

هاجم الفيلسوف كلود اندريان هيلفاتيوس (Claude-Andrien Helvetus) في مقالته البليغة «حول العقل» (De L'Esprit) سائر أشـكال الأخـلاقية المستنـدة الى الدين ، واقترح المبادىء النفعية كبديل لها . وقد أثار نشر هذه المقالة علناً وبإذن ملكي اعطي دون انتباه ـ ازمة ، اضطر الكاتب على إثرها ان يسحب أقواله، كما اوقف نشر «الموسوعة» وحرقت مقالة «حول العقل» مع مؤلفـات فلسـفية اخـرى متنوعة منها مؤلف لفولتير لا ينطـوي على اي ضرر عنوانـه «قصيدة حول العقـل الطبيعي»(Poéme Sur La Loi Naturelle) .

تحسن وضع الفلاسفة بسرعة وبشكل مفاجىء بسبب عداء نشب بين الحكومة وألد اعدائهم، «جمعية يسوع» التي حرمت في فرنسا عام ١٧٦٤ . وسمح للموسوعة بالاستمرار في تلك الأثناء كان كتاب روسو «العقد الاجتماعي»(Le Contrat Social) قد نشر عام ١٧٦٢ . وفيه اعلن ان الرجل البدائي طليق من كل قيد، وان المجتمع لا يوجد الا برضاء الانسان الفرد وبمحض إرادته بواسطة العقد الاجتماعي وان السلطة العليا للحكم في أي مجتمع شرعي تكمن في ايدي الشعب . بعد عامين ظهر كتاب «نظرات في حكومة فرنسا القديمة والحديثة» للماركيز دارغنسون (D'Argenson) بعد وفاته، وفيه يطالب بتوسيع للديمقراطية ضمن اطار الملكية الفرنسية.

وقبل ان تهدأ عاصفة «العقد الاجتماعي» نشر روسو كتاب «اميل»(Emile) فأثار اعصاراً من النقـد . ويعتبـر موضـوع «اعتـراف عقائـدي يقـوم به قس من سافويارد» الذي يتضمنه كتاب «اميل»، «أقوى وافصح دعوة الى الربوبية» البناءة، بينما كان للكتاب اجمالياً أثر عميق ودائم على التعليم الأوروبي.

ترك قسيس ابرشية مغمور يدعى جان مسلير (Jean Meslier) رفضاً مطولاً لكل الأديان ودفاعاً عن الالحاد . وفي عام ١٧٦٢ نشر فولتير كتاب «ملخص عن شعـور جان مسـلييه» (Extrait Des Sentiments De Jean Meslier) حافـظ فيه على عدائه الدائم للمسيحية بما أوتي من قوة تعبيرية . وجاء بعده كتـاب بول هنـري

ديترتش بارون هولباش، بعنوان «الكشف عن المسيحية» (١٧٦١) الذي اتبعه بعدد من المقالات. وفي عام ١٧٧٠ نشر اشهر مؤلفاته «نظام الطبيعة»(Système De La Nature) الذي بلغ فيه الفكر المعادي للدين اوجه في القرن الثامن عشر، اذ عرف الروح بانها فكرة زائفة، او انكر وجود الله، واعلن ان الحاجة تملي جميع ما يقوم به الانسان من أعمال.

لا يمكن الذهاب الى أبعد مما وصلت اليه آراء هولباش التي تعتبر أقصى نقطة تصلها حركة التنوير في علاقتها بالدين وما وراء الطبيعة. وفي هذه الأثناء نادى ديديرو بمبدأ مادي يستند الى تفسير شخصي لعلمي الطبيعة والحياة بشكل خاص وذلك في محاورات له على شكل ملحق «برحلة بوغانفيل» (كتبت عام ١٧٧٢ ونشرت عام ١٧٩٦) «وحلم دالمبرت» (كتب عام ١٧٦٩ ونشر عام ١٨٣٠ ـ وقد سأل ديديرو ـ بمرونة عقلية متناهية ـ عدداً من الأسئلة تفوق ما أجاب عليه.

دفع القس رينال(Abbé Raynal) بالفكر الاجتماعي والسياسي لتلك المرحلة قدماً بكتابه «التاريخ الفلسفي والسياسي للمؤسسة الأوروبية والتجارة في الهندين (الشرقية والغربية)» (١٧٧٠ ، نقح عدة مرات) ، ثم اقتفى أثره القس مابلي (Abbé Mably) الذي عبر عن أفكار أشتراكية في كتابه «التشريع» ١٧٧٦ ، بينما نجد أن كتاب هولباش «النظام الاجتماعي» ١٧٧٣ (Systeme Social) هو أفضل عرض فرنسي لفلسفة سياسية نفعية . وبعد ان تسلم لويس السادس عشر العرش عام ١٧٧٤ لم يكتب الا القليل من الفكر الجديد لسنوات عديدة . فقد بالغ الفلاسفة في عرض قضيتهم ، ومع ذلك قدموا للاجيال كسباً غير منقطع المعين للفكر الانساني .

الأدب الاقليمي (البروفنسالي) :

كان القساوسة في القرن الثامن عشر مسؤولين بشكل رئيسي عن الانتاج الأدبي بلغة لانجدوك(Languedock) لهجة الجنوب . ومن الشخصيات الأدبية التي يجدر ذكرها هنا الأب ج . ب فافر(J.B. Favre) الذي كتب رائعة من الوعظ ،

وقصيدة بطولية ساخرة «حصار كادار وسا» (Le Siège De Cadaroussa) ، ورواية تصف العادات الريفية في عصره ومسرحيتين هزليتين . كما نشر قس آخر هو جان كلود بيرو دو برادنياس (Jean - Claude Peyrot De Pradinas) قصيدة عنوانها «الفصول الأربعة» (Les Quatre Saisons) عام ١٧٨١ . وهناك شاعران اصيلان هما الاخوان اوغست وسيريل ريكو أوف مونتبلير (Rigaud Of Montpellier Auguste, Cyrille) . كما كان للشاعر الشعبي بيير هلييه (Pierre Hellies) من طولوز ـ نوعاً من الخشونة الجذابة . في بروفانس ، كان توسان غرو (Toussain Gros) من ليون ذا تأثير كبير ، وكان اسلوبه ولغته يدعوان الى الاعجاب ، لكن من المؤسف انه أضاع مواهبه في تأليف أعمال تافهة خاصة بمناسبات معينة . أما غاسكونيا فأشهر شاعر فيها كان سيرين ديسبورين (Cyrien Despourins) .

الأدب الوالوني[1]

ازداد انتشار اللغات واللهجات المحلية ، وقد أدى نجاح الأوبرا الهزلية في لييج (Liege) الى كتابة عدة نصوص مسرحية شهيرة . كما نتج عن مسرحيات «الرحلة الى شود فونتان» ١٧٥٧ «والمجند اللييجي» «ومرض الوسواس» تشكيل المسرح «اللييجي» نسبة الى لييج (Liege) . وفي الشعر الغنائي اتصفت القصيدة الغنائية الراقصة المسماة «جرامينيون» (Cramignon) ، واغاني عيد الميلاد المسماة «نويل» (Noels) بصبغة واقعية أصلية .

(١) الوالونيون (Wallon) شعب يقطن جنوبي شرقي بلجيكا وشمالي فرنسا

الفَصْل الرَّابع

الأدب السويسري في القرن الثامن عشر

الأدب السويسري الفرنسي :

رغم أن بدايات الأدب السويسري الفرنسي تعود الى عصر الاصلاح لم يبرز أدباء سويسريون كتبوا بالفرنسية على مستوى عالمي قبل نهاية القرن الثامن عشر ، أشهر هؤلاء وأولهم جان جاك روسو الذي ولد في جنيف ، والذي وصف نفسه في «العقد الاجتماعي» بأنه مواطن دولة حرة . شارك روسو في المفاهيم السياسية والنفسية لجميع سكان سويسرا ، كما يظهر في كتابه «نظرات في حكومة بولندا» . ومن الكتاب الذين عالجوا مادة سويسرية نذكر هـ .ب سوسور(H.B. Saussure) أحد مؤسسي علم الجيولوجيا الحديث ، كما يتضح من كتابه «رحلات عبر الألب» (Voyage Dans Les Alpes) (١٧٧٩ - ١٧٩٦) .

الأدب السويسري الالماني :

تتميز بدايات أدب القرن الثاني عشر في سويسرا الناطقة بالالمانية بأعمال الشاعر البيرني (نسبة الى مدينة بيرن) البرخت فون هيلر(Albrecht Von Haller) الذي تعبر قصيدته «الالب»(Die Alpen) عن جمال مناظر جبال الألب ورفعتها والصفاء الأخلاقي الذي يتميز به سكانها . اما سلومون جيسنر(Salomon Gessner) فيشتهر بقصائده الرعوية المنثورة . ان أكثر أعمال يوهان فون ميلر(Johannes Von Muller) أهمية هو«تاريخ الاتحاد الفيدرالي السويسري» (١٧٨٦ - ١٨٠٨) ، الذي

لم يصلنا منه سوى بعض أجزائه ، ومع ذلك فهو يعتبر اكثر المؤلفات التاريخية تمثيلاً للنيو كلاسيكية الالمانية ، وقد كان له تأثيره البعيد على اسلوب الكتابات التاريخية . قاومت مدرسة للنقد الادبي في زوريخ العقلانية والكلاسيكية الفرنسية ، وشجعت تذوق الأدب الانكليزي في المانيا . وهكذا أدت مؤلفاتهم الى بدء احياء للمفاهيم الدينية والقومية ، اذ كتب .ج . هـ . بستالوزي (J.H. Pestalozzi) أول قصة قروية بالالمانية ، الا انه ضمنها نواة تأملاته اللاحقة عن الطبيعة وقدر الانسان .

الفصل الخامس

الأدب الألماني في القرن الثامن عشر

عصر التنوير :

اذا كان الدين العامل المسيطر فكرياً وروحياً في القرن السابع عشر ، فقد أدت حركة التنوير في القرن الثامن عشر الى ردة فعل . اذ ادعى الانسان الآن بأنه قادر على فهم الكون بفضل امتلاكه لهبة العقل السماوية . رفض المفكرون المثاليون والتجريبيون على حد سواء السلطة التقليدية واعتقدوا انه لا مكان للغموض أو لمبادىء الخطيئة الاصلية او للقدرية في عالم عقلاني تتحكم به قوانين العلة والنتيجة ، فالشر في نظرهم كان نتيجة لاوضاع حياتية غير عقلانية ، والانسان قادر على تحسين قدره بمتابعة العلم والتعليم . كما أصبح الاعتقاد المتفائل بكمال الانسان شائعاً .

كان هذا الاعتقاد يعتمد على استعمال العقل وبذل الجهود التي لا تكل في خدمة تحسين اوضاع البشر . ولما كان الانسان العملي الناجح يحظى باحترام اكبر من المسيحي المتدين ، فقد اشتد التركيز على الذوق والادراك السليمين وهكذا تميز الأدب بصفة تعليمية ظاهرة .

العقلانية :

استعادت الحياة الفكرية في المانيا نشاطها بسرعة بعد الانتفاضات الاجتماعية حرب الثلاثين عاماً . أرسى ليبنيز قواعد العقلانية ، وهو أول الفلاسفة الألمان العظام ، وبظهوره على المسرح الفكري لم تبق العلاقة بين الله والانسان ضمن حدود العقيدة المسيحية . تميزت الحياة الدينية الالمانية بعودة الى مبدأ «التقوى» وهو

حركة دينية في القرن السابع عشر في المانيا ، دعت الى التقوى والرجوع الى الكتاب المقدس ـ وقد تركت آثارها في مجال الشعر الديني . أصبح التأكيد ليس على اتباع التعاليم بل على التجربة الروحية الفردية .

في الأدب بدأت الافكار الجديدة بالظهور ، وساعدت حركة تقليد للدوريات الانكليزية ، مثل «السبيكتيتور» و«التاتلر» و«الفارديان» على احياء الذوق الأدبي . وكانت احدى مميزات الأدب الالماني في القرن الثامن عشر هي التأثير المستمر بالأدب الانكليزي . بدأ هذا التأثير أول ما بدأ بـ جوزيف أديسون وجوناثان سويفت ودانيال دوفو والكساندر بوب ، ثم تبعه أثر جيمس تومسون وجون ملتون وادوارد يونغ . وأثر ريتشاردسون تأثيراً عميقاً على نشوء الرواية الاخلاقية ، بينما بشر كتاب يونغ «تخمينات حول الكتابات الأصلية» بحقبة جديدة في الأدب الالماني قدر لها ان تتأثر بعمق بالشعراء الاسكتلنديين امثال جيمس ماكفرسون مجموعة «اوسيان الشعرية» ، والاسقف بيرسي «بقايا وأثار الشعر الانكليزية القديم» وشكسبير ، وهذه الحقبة هي التي تعرف بحركة «العاصفة والقهر» .

رد الفعل ضد العقلانية :

نجح الناقد جوهان كريستوف كوتشد (Johann Christoph Gottsched) بين عامي ١٧٢٤ و١٧٤٠ في القيام باصلاحات أدبية في ليبزغ تتفق والكلاسيكية الفرنسية في القرن السابع عشر . فقد نقى المسرح من الشوائب ووضع القواعد التي سينتج على أساسها الأدب الجيد وينقد . الا أن القيود التي وضعها كوتشيد سرعان ما واجهت مقاومة من عالمين سويسريين هما ج .ج بودمر (J. J. Bodmer) وج .ج برتنجر (J. J. Breitinger) ، إذ أصرا على أنه لا يجوز للعقل أن يسيطر على الخيال ، مستشهدين بملحمة ملتون الشهيرة «الفردوس المفقود» . أسفر الجدل في حوالي منتصف القرن عن ظهور جماعة من الكتاب في ليبزغ من مدرسة كوتشر نفسه أطلق عليهم اسم «المساهمون البرمنيون» (Bermen) نسبة الى الصحيفة التي نشروا مؤلفاتهم بها ، وقد ظهرت فيها عام ١٧٤٨ الدفعة الأولى لملحمة «المسيح» (Der

(Messias) (انهيت عام ١٧٧٣) من نظم ف . ج . كلوبستوك (F.G. Klopstock) والتي سبب موضوعها ضجة عندما ظهرت أجزاؤ هـا الاولى . لكن عبقـرية هذا الشاعر كانت أقرب الى الغنائية ، لذا اشتهرت قصائده من نوع «الاود» التي برزت فيها مواضيع وطنية وعاطفية . كما أظهر ـ في هامبورغ ـ فردريك فون هاجيدورن (Friedrich Von Hagedorn) الى أي مدى من الكمال يصـل شعر المناسبات . بينما نظم ايوالـد كرستيان فون كليسـت (Ewald Christian Von Kleist) شعـر طبيعـة رائعاً . في هذه الاثناء ساعد الاهتمام بالآثار الالمانية القديمة على نمو الحركة «الباردية» (الشاعر الشعبي) التي قادهـا هـ .و فون جرستبـرغ (H. W. Von Gerstenberg) وف . ف كرتشمان (F. F. Kretschmann) ومايكل دنيس (Michael Denis) مترجم قصائد «اوسيان» لماكفرسون .

تأثير ليسينغ (Lessing)

كان جوتهولد افريم ليسينغ (Gotthord Ephrain Lessing) أو ناقد ألماني حظي بسمعة في سائر انحاء اوروبا ، كما كان كلوبستـوك أول شعـراء المانيا الحديثـين الملهمين ، وكان (شأنه شأن كوتشد) على ثقة تامة بالكلاسيكية الحديثـة . الا أن كلمة كلاسيكي كانت تعني بالنسبة له ـ كما عنت بالنسبة لمعاصره جج ونكلمان (J.J. Wincklemann) ـ الفـن والادب اليونـانيين ، وليس مجـرد شبـه الـكلاسيكية الفرنسية . مع أن شرح ليسينغ لنظرية ارسطو في المأساة كانت مليئة بالاهتمامـات الاخلاقية لعصر التنوير ، فقد تطلـع الى انجلتـرا ، وليس فرنسـا لاحياء المسرح الالماني . وكانت مسرحياته اعمالاً رائدة في هذا المجال ، اذا كانت «الآنسة سارة سامبسون» (Miss Sarah Sampson) (أخرجـت للمـرة الاولى عام ١٧٥٥) مأسـاة بورجوازية حسب النمط الانكليزي . كما كانت «مينا فون بارنهلم» (Minna Von Barnhelm) ١٧٦٧ هزلية تنضـح بروح مسرحيات جورج فاركوهـار (George Farquhar) وفي «امليا كالوتي» (Emilia Calothi) ١٧٧٢ أعاد ليسينغ كتابة «مأساة الحياة العامة» بصيغة مقبولة لحركة «العاصفة والقهر» (Sturm And Drang) . وأخيراً لاقى ليسينغ قبولاً لشعره غير المقفى (بلانك) حسب وزن «الايامب» كوسيلة تعبير في الدراما الرفيعة وذلك في مسرحية «ناتان الحكيم» (Nathan Dervise) ١٧٧٩ .

تقدم الأدب الالماني الى الامام بفضل ليسينغ ابعد بكثير من المنجزات الضعيفة للنصف الأول من القرن . وبشرت المأساة المنزلية بحبكتها التي تركز على مشكلة التمييز الطبقي بمسرحيات تتضمن نقداً اجتماعياً وسياسياً واضحاً في فترة «العاصفة والقهر» ، كما بشر ناثان «بمسرحية الافكار» حسب الكلاسيكية الجديدة لويمار(Weimar) . أما مؤلفات ليسينغ النظرية فقد انزلت النقد في المقام الأول من الفنون الادبية . وكان لرفضه الحاسم للشعر الوصفي أثر بالغ على كتابات الجيل الذي تلاه ، بينما مهد هجومه على سلطة فرنسا الأدبية لاهتمام أكبر بالنماذج الانكليزية ولتوخي أصالة وطنية محلية .

ساهم س . م ويلاند(C.M. Wieland) في اتساع آفاق الخيال الالماني بادخاله خلفيات بعيدة وغريبة تحت تأثير الوحي الفرنسي . وقد طوى الاهمال جميع اعماله باستثناء رومانسيته الشعرية «اوبرون»(Oberon) (نشرت عام ١٧٨٠) . لكن ويلاند ساهم في تطوير القصص بخدمة النثر الالماني بروايته النفسية «أغاثون» (Agathon) (١٧٦٦ - ١٧٦٧) ومؤلفه الهجائي «البلهاء»(Die Abderiten) ١٧٧٤ . كان لويلاند كثير من الاتباع الذين نهجوا نهجه ، كما أن الرواية الالمانية مدينة بالكثير للنموذج الذي قدمته «أغاثون» الا ان قاعدتها وشكلها الأدبي اقتبسا عن الانماط الانكليزية .

عصر غوته(Goethe) : **العاصفة والقهر** :

وقعت الفترة النيوكلاسيكية والرومانطيقية ، وهي أعظم فترة في الأدب الألماني ، ضمن حياة يوهان وولفغانغ فون غوته(Johann Wolfgang Goethe) . وذهب عصره الى أبعد مما ذهبت اليه حركة التنوير في استبدالها الدين بالعلم ، ذلك أنه لم يعط العلم الا مكانة نسبية لقضية الحياة الرئيسية ، بل وضع أهمية كبيرة على الشعور بسبب الامكانات المحددة للعقل . وهكذا أصبح للحافز والغريزة والعاطفة والخيال الواسع والحدس أهمية شبه دينية ، على انها الوشائج التي تربط الانسان بالطبيعة الالهية . وأصبح المثل الاعلى للعصر الكلاسيكي ، الذي سرعان ما سمي «بالانسانية»(Humanitat) ، هو الشخصية الكاملة التطور التي يتوازن فيها

العقل والشعور بانسجام تام . وهناك ثلاث مراحل يمكن تمييزها في تطوير هذه النظرة : العاصفة والقهر ، والكلاسيكية ، والرومانتيكية .

كان غوته ينتمي الى ما عرف بحركة «العاصفة والقهر» ، كما أنه أثر فيها أعمق الأثر . ولقد هدفت هذه الحركة الى التخلص من مذهب العقلانية . يمكن تبين بذور حركة العاصفة والقهر في كلوبستوك والقوى الروحية لحركة «التقوية» (Pietism) وكذلك في المقاومة المتزايدة للذوق الكلاسيكي الفرنسي بينما تبدأ تأثير روسو وادوارد يونغ وجيمس ماكفرسون وشكسبير ، الذي ترجمت مؤلفاته مؤخراً ، مركزاً بالغ الاهمية . اصبحت الطبيعة والعبقرية والاصالة الشعار الذي نادت به هذه الحقبة ، وجابه الجيل الجديد شعوراً متزايداً بل طاغ من عدم الرضاء بحضارة العصر . وحلت عبادة الطبيعة محل الدين التقليدي ، ولم يعترف بسمو أي قانون على الوجدان الفردي . وهكذا تطلبت النظرة النموذجية للحياة جهداً دائباً كجهد فاوست(Faust) . أصبح القهر والاحتجاج والثورة والتطلع وخيبة الأمل أموراً ظاهرة من كافة النواحي ، وغدت الفردية ممثلة بالـ «أنا» ظاهرة مسيطرة في الادب والفكر .

اكدت الكتابات النقدية لـ هـ . و . فون جيرستنبرغ(H .W . Gerstenberg) الشعور الشخصي في مسائل الذوق ، الا ان الدفع الرئيسي في هذا المجال جاء من يوهان جورج هامان(Johan George Hamann) الذي أكد على وظائف اللغة الايمائية والرمزية ، وكان تلميذه يوهان كوتفريد فون هيردر(Johan Gottfried Herder) الذي ادرك - كما لم يدرك احد من قبل - فكرة التطور التاريخي وهكذا أوجد التيار الرئيسي لحركة «العاصفة والقهر» . كان مذهب هيردر المسمى «الانسانية» أساسياً بالنسبة للكلاسيكية الالمانية الحديثة . فقد أكد على قيمة الاستمرار التاريخي في الأدب وأشار الى الأغنية الشعبية والقصيدة الغنائية من نوع «البالاد» ورومانسيات العصور الوسطى باعتبارها مصادر ايحاء ، اذ كانت «بقايا وآثار الشعر الانكليزي القديم» للاسقف بيرسي قد. أثارت الاهتمام بهذه الأشكال الأدبية المتوارثة . أثر هذا العمل «على الشعراء الذين أسسوا عام ١٧٧٢» أخوة الايكة» والذين ينتسبون الى سواد الفلاحين او الطبقة المتوسطة الدنيا . كان ج .هـ . فوس(J.H . Vos) قائد

هذه المجموعة ومؤلف القصيدة الرعوية الشهيرة «لـويز»(Luise) (١٧٩٥) ، كما كان فلاحاً المانياً شمالياً يمثل طبقته خير تمثيل .

كان اسم حركة «العاصفة والقهر» يقترن بصورة وثيقة باسم غوته الذي تعرف على هيردر الذي أثار اهتمامه بالفن المعماري القوطي والاغنية الشعبية وشكسبير . وكان الكراس الذي حمل عنوان «طريقة الحياة الالمانية والفن الالماني» (١٧٧٣) بياناً رسمياً لحركة «العاصفة والقهر» . ويبدو أن تلك الآراء الجديدة أطلقت عبقرية غوته من عقالها . جاءت أول مسرحية هامة للحركة وعنوانها غوتز فون بيرليخنفن (Gotz Von Berlichingen) بقلم غوته (عام ١٧٧٣) ، ثم أتبعها بأول رواية هامة لحركة «العاصفة والقهر» ، وهي «آلام فرتر»(Dieleidem Des Jungen Werthers) (عام ١٧٧٤) التي اطلقت شهرة المؤلف في العالم أجمع . وضع غوته نماذج لجميع الاشكال الادبية ، فاصبحت الصورة المثلى لعصره . كان ج .م .ر . لينز (J.M.R. Lenz) و .ف .م . فون كلينغر (F.M.Von Klinger) وج .آ . ليزويتز(J.A. Leisewitz) وهـ .ل . فاغنر(H.L. Wagner) وفردريك مولر (Friedrich Muller) من مقلدي ما عرف بالقلق الشكسبيري (نسبة الى شكسبير) الواضح في مسرحية «كوتز فون بير ليكنغين»(Götz Von Berlichingen) الأدب المسرحي أهم انتاج أدبي لحركة «العاصفة والقهر» وأكثره تمييزاً لها . مسرحياً ألهم هذا الانتاج الرغبة في عرض شخصيات شكسبير العظيمة التي تسيطر عليها العواطف القوية . وهكذا اعطيت جميع النواحي الاخرى في المسرحية من حبكة وتركيب وشكل مرتبة ثانوية بالنسبة للشخصيات ، فرفضت بذلك كل الاعراف المقبولة ـ أدبياً واجتماعياً وسياسياً واخلاقياً . .

دخلت حركة «العاصفة والقهر» مرحلة جديدة باخراج مسرحية «اللصوص» (Die Rauber) ١٧٨١ لـ يوهان كريستوف فردريك شيلر(Johan Christoph FriedrichChiller) وكان المؤلف قد كيفها بمهارة حسب متطلبات المسرح أكثر من سابقاتها . كانت هي ومسرحية شيلر التالية ، وعنوانها «المكيدة والحب»(Kabale Ind Liebe) ١٧٩٥ تحفاً تبشر بالكثير . وتدين المانيا بمسرحها القومي الى فترة «العاصفة والقهر» اذ تأسست خلالها المسارح الدائمة في هامبورغ ومانهايم وغوتا ،

كما أسس مسرح بيرغ(Burg Theater) الذي يسمى الآن مسرح هوفبرغ(Hofburg Theater) في فيينا عام ١٧٧٦ .

الكلاسيكية الجديدة(Neoclassiciem) :

كان ضبط النفس مفقوداً كموضوع في حركة «العاصفة والقهر» ، لذا سرعان ما انهكت هي نفسها . نتج عن ذلك شكل من المثالية الأخلاقية أكثر ايجابية في شعر غوته وشيلر وفلسفة عمانويل كانت(Immanuel Kant) ، وأصبحت مشكلة الحرية مشكلة خطيرة بتأثير الثورة الفرنسية التي أعتبرها الأدب الالماني بشكل عام نوعاً من التحذير . آمن شيلر بان التناقض بين الواجب والميل الطبيعي يمكن أن يحل بمجرد أن تصبح الاخلاقية طبيعة ثانية ، وهذا لا يتم الا من خلال تأمل الجمال وانتاجه . وهكذا أصبح للفن وظيفته التعليمية وبالتالي كان التعليم الجمالي احد الاهداف الرئيسية للكلاسيكية الجديدة . بدأ غوته مرحلة جديدة بسفره الى مدينة ويمار (Weimar] عام ١٧٧٥ ، بينما اتجه شيلر بعد كتابه «دون كارلوس»(Don Carlos) (أخرجت عام ١٧٨٧) من الشعر الى دراسة التاريخ والفلسفة . وقد أتسمت السنوات العشر الاول التي قضاها غوته في ويمار بتجديد صداقته مع هيردر (Herder) ، وبوظيفته العامة كوزير دولة ، وبارتباطه العاطفي بشارلوت فون ستين (Charlotte Von Stein) ولم تتضح افكاره تماماً الا بعد اقامته في ايطاليا (١٧٨٦ - ١٧٨٨) حيث ركز أهتمامه على ثلاثة اعمال مسرحية ، فاعطى «افيجينا يافي تورس» (Iphigenie Auf Tauris] شكلها النهائي وأكمل «اغمون»(Agmont) واعاد تصميم «توركواتوتاسو»(Torquato Tasso) . وفي حوالي هذا الوقت كانت رواية «تدريب ويلهام ميستر»(Wilhelm Meister Lehrjahre) (١٧٩٥ - , ! . ظ(قد أصبحت كتاباً يبحث في سلوك الحياة . وهي مثال بارز على الرواية التعليمية بل صيغة مميزة للأدب الألماني ، ذات تأثير على الذين مارسوا هذا الشكل الأدبي في المستقبل .

قبل ان ظهرت رواية «ويلهلم ميستر» كان الادب والفكر الالمانيان ، قد بلغا درجة من الاستقرار في الشكل والافكار ضرورية لكل فترة أدبية عظيمة . وفي العام الذي توفي فيه ليسينغ (١٧٨١) كان «كانت»(Kant) قد نشر كتابه «نقد العقل

«المجرد»(Critik Der Reinen Vernunft) . وتحت تأثير هذا الكتاب أتجه شيلر لدراسة علم الجمال الذي كانت اولى ثمراته قصائده الغنائية الفلسفية ، ومقالاته مثل تلك «حول التعليم الجمالي للانسان» (١٧٩٥ - ١٧٩٦) «وحول الشعر البسيط والعاطفي» .

تتميز السنوات ١٧٩٤ - ١٨٠٥ وهي الفترة التي ارتبط فيها غوته وشيلر بأواصر صداقة متينة في جينا(Jena) وويمار - بأنها شهدت أوج الحركة الكلاسيكية الجديدة الأدبية في المانيا ، إذ زود شيلر الحركة بالقاعدة النظرية ، كما أثر غوته بصفته مدير المسرح الدوقي على مجمل الانتاج المسرحي في المانيا . وبتشجيع منه اتجه شيلر من الفلسفة الى الشعر ، وبين عامي ١٧٩٨ و١٨٠٥ - سنة وفاته - كتب شيلر سلسلة من المسرحيات الكلاسيكية تعتبر أروع ما كتب بالالمانية ، وهي الثلاثية «ولنشتاين» و«ماري ستيوارت» «وعذراء اورليان» ثم «وعروس مسينا» «ووليام تل» وقد أنهى عمله المسرحي بالمسرحية غير الكاملة «ديمتريوس» .

على كل ، وباستثناء هذين الشاعرين ، لم يكن الأدب معافى اذ سيطرت على الخشبة المسرحيات الشعبية الى اقصى الحدود من انتاج أ . فون كوتزبو. A) (Von . Kotzebue . هناك فجوة كبرى بين مؤلفات ك . ب . موريتز.(K . P Moritz) أو روايات ف . م . فون كلينكر الفلسفية اللذين كتبا في السنوات التي تلت ، وبين رواية غوته «ويلهلم ميستر» . ان أروع ما كتبه غوته في سنواته الاخيرة ، مسرحية «فاوست»(Faust) التي تعتبر أعظم مساهمة المانية في الادب العالمي . في الجزء الاول(Part . I) ١٨٠٨ نرى يأس فاوست وعقده مع مفستوفليس (Mephistopheles) وحبه لغريتشين(Gretchen) ، اما الجزء الثاني (١٨٣٢) فيغطي حياة الساحر في البلاط وكسبه هيلانة طروادة وخلاص فاوست بعد تطهيره . كان مبدأ تحقيق اغراض الحياة بتوسل العمل الدؤوب والنشاط الغبري الذي يتكشف في فاوست موضوعاً اساسياً لكتابه غوته وهو في أوج نضوجه . وقد أكدت روايته المأساوية «دي والفرواند شافتن»(Die Wahlverwand Tschaften) عام ١٨٠٩ على موضوع «الاعتزال» . اما «رحلات ويلهلم ميستر» -(Wilhelm Meister Wander Jabre ١٨٢١ - ١٨٢٩ ذات اليوتوبية «الاجتماعية والتي تعلم الكبت فتعطينا صورة

نقدية عن نشوء التصنيع . وتدل مؤلفات «الشعر والحقيقة»(Dichtung And Wahrheit) ١٨١١ ـ ٣٣ والقطع المسرحية ، والكتابات العلمية ، والقصائد الغنائية على تعدد جوانب منجزات غوته .

الحقبة الاولى من الحركة الرومانتيكية :

لم تبدأ الحركة الرومانتيكية كحركة احتجاج ضد الكلاسيكية الجديدة لمعدنية ويمار(Weimar) بقدر ما كانت امتداداً راديكالياً لبعض معتقداتها واهتماماتها ، وبخاصة تأكيدها على القديم الاغريقي باديء الأمر الذي تاق اليه الكتاب توقهم للفردوس . يستطيع الشاعر الرومانتيكي ان يخلق عالمه الشخصي من الواقع أو من الخيال ، كما يحول كل ما يشتهيه الى شعر . ولما كانت طبيعته الفردية ، وطرق معالجته للقضايا متنوعة ، غير محدودة ، لذا لم يكن هناك من حدود للمبتكرات التي تمت مضموناً وشكلاً بفضل تلك الثروة الهائلة من المواهب الأدبية التي برزت حينذاك في طول المانيا وعرضها نابعة من مختلف طبقات المجتمع . شعر الجيل الصاعد بأنه حر وقادر على أن يعد النظر في كل القيم المقبولة والممثلة ليس فقط في مجال الفن والأدب بل في سائر المجالات الاخرى . اصبح اللاوعي موضوعاً للدراسة الجدية ، وشاعت عناصر ما فوق الطبيعة ، بينما أدت الذاتية الرومانتيكية الى الصوفية دينياً . وقد قام الفيلسوف ي . ج . فيخته(J . G . Fichte) واللاهوتي ف . د . ا شليرماكر(F . E . E . Schleiermacher) بدور هام في نشوء الرومانتيكية الالمانية وتطورها .

كان من المحتم ان تنتج خيبة أمل من «الانا» في الفكر والأدب . نشأ فردريك هولدرلين(Friedrich Holderlin) أحد أعظم الشعراء الغنائيين الالمان ومؤلف رواية «هايبريون»(Hyperion) ١٧٩٧ ـ ٩٩ كمعجب بشيلر . ثم داهمه اليأس عندما ادرك استحالة توقه الى عصر من المثالية البطولية والجمال ، على شاكلة اليونان القديمة . اما يوهان فردريك ريختر(Johann Freidrich Richter) المعروف باسم جان بول(Jean Paul) فكان تلميذاً لهيردر . وحازت رواياته التي تفتقر الى الشكل على شعبية رائعة لما زخرت به من عاطفة وأبداع واسلوب غريب وتفاصيل وافرة .

كما أن اهتمامه المستمر بالحياة المعاصرة كان ظاهرة جديدة مما جعل عمله يبشر «بقصة القرية»(Dorfge Schichte) التي شاعت في العقود التالية . اما رواياته الرئيسية التي كتبت بين عامي ١٧٩٥ و١٨٠٤ فهي «هسبيروس»(Hesperus) «وكوينتوس فيكسلين» (Quintus Fixlein) «وسيبنكاس» (Siebenkas) «وتايتان» (Titan) «والعصر الغريب»(Flegel Jahre) .

أسست أول مدرسة رومانتيكية صحيحة في جينا(Jena) عام ١٧٩٨ . وكان لودفيك تيك(Ludvvig Tieck) وهو أحد قادة المدرسة ، قد شرع بتطوير حماس لشكسبير وللدراما الاليزابيثية والاصبانية سايره طيلة حياته . اما القاعدة النظرية للرومانتيكية فقد أرسى دعائمها الاخوان اوغسط وهلم وفردريك فون شليغل (August Wilhelm, Freidrich Von Schlegel) . أصر هذان الناقدان الرومانتيكيان على القول بان أولى واجبات النقد الفهم والتذوق . ويمكننا ان نجد أعظم انجاز خيالي في القصائد الغنائية والروايات المقطعة الاوصال التي كتبها نوفاليس(Novalis) (الاسم الأدبي لفردريك فون هارنبرغ) ، والتي تنقل القارىء الى عالم القصة الخرافية عن الجنيات(Marchen) ، بما فيها من صوفية مسيحية ورومانتيكية وسيطة ورمزية . كل هذا واضح بشكل خاص في مؤلف «هنريخ فون اوفتر دنجن» (Heinrich Von Ofter Dingen) عام ١٨٠٢ . وتتضح الشعبية العالمية التي اكتسبتها هذه الحركة في الترجمات العديدة الرائعة ومن أبدعها ترجمة مسرحيات شكسبير بقلم . ف شليغل(A.V Schlegel) الذي نادت مقالاته وآرؤه بان الأدب الحديث (او الرومانتيكي) يجب ان يعالج الحياة الحديثة في جميع مؤاهرها ، وقدمت «ويلهلم ميستر» كنموذج يحتذى .

الفَصْل السَّادس

الأدب الهولندي في القرن الثامن عشر

كان ظهور أول جمعية أدبية(Dichtgenootschap) عام ١٦٦٩ نذير انحطاط في الأدب الهولندي أستمر خلال القرن الثامن عشر . لقد أستنزف الرخاء المادي حيوية الأمة ، وحتى الشاعر الموهوب هيوبرت بوت(Hubert Poot) خالطه الوهم الذي شاع في زمانه بأن الزخرف الشديد والشكل المحدد هما مقياس الشعر الجيد . والنثر ايضاً أصبح يتألف بمعظمه من الترجمات والمقـالات المفخمـة . ومما له دلالتـه أن جستس فان ايفن(Justus Van Effen) كتب بالفرنسية قبـل ان يؤسس «المشاهـد الهولنـدي» (دو هولنـدش سبكتيتـور)(De Hollandsch Spectator) (١٧٣١ - ١٧٣٥) . إن المقارنـة تكشف عن بون واسـع بـين أسلوبـه البسيط وأسلـوب معاصريه ، كما أن واقعيته الوصفية تربطه بمؤلفين شعبيين هما اليزابيث ولف ـ بكر (Dlithabeth Wolff - Bekker) وآجي دكن(Aegi Deken) .

استطاعت اليزابيث ولف ـ بيكر الشاعرة وكاتبة المقالات ـ بعبقرية خلاقة ان تجمع بين العقلانية والرومانتيكية . أدت علاقتها مع اغاتا دكن(Agatha Deken) كصديقة وزميلة في الكتابة الى تأليف اول رواية هولندية عنوانها «سارة بيرج هارث» (Sara Burger - Hart) عام ١٧٨٢ ، على شكل رسائـل رفعتهـا الى السيدات الهولنديات الشابات . والرواية رائعة بما فيها من فكاهة وواقعية ، الا انها مدينـة بالكثير للروائي صاموئيل ريتشارد سون ، كما ان ذكاء اليزابيث وفكاهتهـا تسـود كتابها المؤلف من ثمانية مجلدات والذي يهدف الى تهذيب الشباب وعنوانه «ويلم ليفيند»(Willem Leevend) ١٧٨٤ ـ ١٧٨٥ .

في حوالي نهاية القرن كان لفيف من الشعراء بينهم هيرونيمـوس فان الفـن (Hieronymus Van Alphen) ورجنفيس فيث(Rhijnvis Feith) وجاكوبس بلامـي

(Jacobus Bellamy) وانتوني ستارينغ (Antony Staring) في حالة من رد الفعل ضد الكلاسيكية الجديدة ، الا ان ستارينغ كان الوحيد الذي أظهر أكثر من صدى عن العاطفة الالمانية لما أتسم به من حذاقة ، ولموهبته باجادة الوصف . اما معاصروه فقد فضلو ويلم بيلدرديجك (Willem Bilderdijik) الذي غطت المبالغة في أسلوبه المجلجل على عبقريته ، الا ان حماسة البروتستنتي أبقى على بصماته في حركة الاحياء (Réveil) وهي حركة روحية حفزت الانتعاش الأدبي في الثلاثينات من القرن الثامن عشر .

الفَصْل السَّابع

الأدَب الايطالي في القــرن الثامن عَشــر

المأساة :

في عام **١٧١٣** أخرج عالم الآثار من فيرونا اسمه فرانسيسكو سكبيون مافي (Francesco Scipione Maffei) مسرحية «مـيروب»(Merope) وهـي مأسـاة لاقـت نجاحاً منقطع النظير ومهدت السبيل لاصلاح المسرح الايطالي التراجيدي . وبين عامي **١٧٢٦ - ١٧٤٧** كتـب انطـونيو كونتـي(Antonio Conti) - احـد المعجبـين بشكسبير - أربع مآسي رومانية باسلوب شعري غير مقفى (بلانك فيرس) . ولـم يبرز أي كاتب مسرحي تراجيدي هام قبل عام **١٧٨٢** ، وهو تاريخ كتابة «سول» (Saul) **للكاتب فيتوريو الفييري**(Vittorio Alfieri) . **بالمقارنـة بمسرحيات بيتـر و ميتستـاسيو**(Pietro Metastasio) **و باولـو رولي**(Paolo Rolli) **المسماة ميلودرامـا** (Melodrama) **وهي نصوص لحنت أو أخرجت كمسرحيات تراجيديات «الفيري» خشنة مريرة غير مرنة . وقد اختار المواضيع الكلاسيكية والانجيلية وطمح في ان يحرك جمهوره بعواطف نبيلة وحماس وطني نتيجة لكرهه للطغيان وحبه للحرية . كان أثر الفييري في الفترة الرومانتيكية عظيماً ، كما انه مثل كارلو كولدونـي كتـب سيرته الذاتية بنفسه ، وتتكشف ثناياها عن وصف لنضاله من اجل تزويد ايطـاليا بمجموعة درامية تضاهي مالدى الأمم الاوروبية الاخرى .**

الهزلية :

كان اصلاح متيستاسيو لنص الاوبرا موازياً في منتصف القرن الثامـن عشر لاصلاح كولدوني(Goldoni) للهزلية . أثناء القرن السابع عشر كانت الـكوميديا

ديلارتي (Commedia Dell'Arte) - وهي ضرب من المسرحية تعتمد على الحركات وتمتلىء بالارتجال والغناء والتقليد الصامت واللعب على الحبال ، وغالباً ما ادّاها ممثلون قديرون قد حلت بالتدريج محل الملهاة العادية ، لكنها أنحطت في بداية القرن الثامن عشر الى مجرد التهريج والهزل البذيء بشخصيات ثابتة ، وسلوك تقليدي . كان معظم الحوار مرتجلاً ، والحبكة (وهي سلسلة معقدة من الارشادات المسرحية تعرف باسم السيناريو) كانت غالباً ما تشمل الزواج بالاكراه ، وسوء طالع المحبين ، ومكائد الخدم واسيادهم . ونجح كولدوني في استبدال هذا النوع التقليدي من الهزل المرتجل الذي عماده الحركة والبذاءة بهزليات ذات نص مكتوب . كان يعطي وصفاً دقيقاً لشخصياته الا انه على عكس موليير لا يغوص الى أعماق النفس . صور بفكاهة وحيوية الحياة في البندقية ، وبلهجة أهلها الف الكثير من هزلياته . كما كتب منافس كولدوني الجدلي المر وابن مدينة (البندقية) كارلوكوسي (Carlo Gozzi) هزليات وشعراً هجائياً .

دنيا العلم :

كان جيامباتيستا فيكو (Giambattista Vico) ولودفيكو انطونيو ميوراتوري (Ludvico Antonio Muratori) ، وأبوستولو زينو وشبيوني مافي (Scipione Maffei, Apostolo Zeno) كتّاباً انعكس فيهم الوعي التاريخي ، اذ جمع ميوراتوري المصادر الأساسية لدراسة العصور الوسطى الايطالية ، بينما تحرى فيكو في كتابه «العلم الحديث» (Scienza Nuova) ١٧٢٥ - ١٧٤٤ القوانين التي تتحكم بتقدم الجنس البشري ، ومن دراسة للانسان حاول أن يستنتج القوانين التي تقوم بموجبها الحضارات وتزدهر ثم تنحط . كرس جيوفاني ماريا مازوشيلي وجيرو لاموتيرابوشي نفسيهما لدراسة التاريخ الادبي . كما أن النقد الأدبي أثار الاهتمام اذا أدرك جيان فنسير وكرافينا وفيكو ومافي ولودوفيكو انطونيو ميوراتوري وآخرون غيرهم فيما كانوا يدافعون عن تقليد الكتب الكلاسيكية ان هذا التقليد يجب أن يتم بحذر وهكذا استبقوا وجهات نظر شاعت فيما بعد .

التنوير :

مع انتهاء السيطرة الاسبانية ، وأنتشار افكار التنوير في فرنسا أدخلت الاصلاحات بالتدريج في اجزاء مختلفة من ايطاليا . وقد قادت روح العصر الجديدة رجالاً من الطبقة الوسطى ـ العليا لأن يدرسوا كيف تعمل القوانين الاقتصادية والاجتماعية . كما وجدت افكار ومطامح حركة التنوير صدى لها في الصحافة الجديدة مثل دورية «بيترو فيري»(Pietro Verri) «الكافي»(Il Caffè) ١٧٦٤ - ,, . ظ .

يجسد جيوسيب باريني ـ(Giuseppe Parini) الذي يقابل الكساندر بوب في انجلترا وبوالو في فرنسا ـ أكثر من أي كاتب آخر الاحياء الادبي في القرن الثامن عشر . اذ وصف في مؤلفة « اليوم »(Il Giorno) (نشر في أربعة اجزاء ١٧٦٣ - ١٨٠١) وهو عمل نقدي طويل لما يسمى « حقوق ذوي الدم الأزرق » ـ يوما في حياة نبيل من ميلان ، وأظهر بسخرية مبطنةٍ عبث طريقة كاملة من الحياة وتفاهتها . وتعتبر قصائده الغنائية من نوع « الاود » المشبعة بنفس الروح في الاصلاح الخلقي والاجتماعي من روائع الشعر الايطالي .

ويعتبر الهجاء المتضمن في « المواعظ »(SERMONI) ١٧٦٣ لـ غاسبا روكوزي(Gasparo Gozzi) (الأخ الأكبر لكارلو) اقل حدة ، مع انه موجه لاغراض مماثلة وقد عرض في دورييه « لاغازيتا فينيتا »(La Gazzetta Veneta) « ولوسرفاتور »(L'osservatore) تاريخا حيوياً للحياة في البندقية ، ضمنه درساً عملياً في الاخلاق ، فيه الكثير من المنطق السليم . هذا وان تلك الشخصية المثيرة للجدل جيوسيبي(Giuseppe Baretti) صاحب الدورية النقدية « السوط الادبي » (La Frusta Letteraria) التي هاجم فيها المؤلفين السيئين ، تعلم الكثير في انكلترا نتيجة اقامته الطويلة فيها ، وقد ساعدته صداقته لصاموئيل جونسون على الاستقلالية والقوة ، وان لم يكن ذا رأي صائب دوما . كانت الرواية الفلسفية المسماة « رحلة أنريكو وانتون »(Viaggi di Enrico Wanton) ١٧٤٩ ـ ١٧٦٤ والتي اتخذت شكل رحلة خيالية للكاتب البندقي زاكاريا ساريمان(Saccaria Seriman) أكثر المؤلفات الهجائية شمولاً في عصرها .

الفَصْل الثّامِن

الأدب الاسباني في القرن الثامن عشر

بدأ تجديد الحياة الفكرية في اسبانيا بعد تأسيس سلالة بوربون على أثر حروب النزاع على العرش الاسباني (١٧١٠ - ١٧١٤) . وقد انشئت عدة اكاديميات ابقاها أثراً الاكاديمية اللغوية الاسبانية لريال التي تعرف الآن باسم « اكاديمية ريال الاسبانية »(Real Academia)(Espanola) التي اسست عام ١٧١٣ بغية الحفاظ على نقاء اللغة . بدأ الادباء يدرسون خارج اسبانيا ، فاكتشفوا الى أي حد خرجت اسبانيا عن الطريق الفكري لغربي أوروبا . كما أن روحا جديدة من البحث في التراث القومي جعلت العلماء يفيئون الى الماضي ليكشفوا عن الادب الوسيطي المنسي . فكتب قيّم المكتبة الملكية غريغوريوميان اي سيسكار(Gregorio Mayans Y Siscar) أول دراسة لسيرة حياة أعظم روائي اسباني هو ميغويل دوسيرفانتيس . كما قام مؤرخ كنسي يدعى انريك فلوريز(Enrique Florez) وفيه ساعد على احياء الخلفية الثقافية الكاملة لاسبانيا الوسيطية المسيحية . وهناك اعمال أدبية بارزة اكثر أهمية مما ذكر ، وهي نشر ملحمة من القرن الثاني عنوانها « قصيدة سيدي » (Pozma de mio Cid) من تأليف كونز الودو برسيو ، « وكتاب الحب الطيب » (Libro de Buen Amor) لجوان رويز(Juan Ruiz) وقد نشر للمرة الاولى . نتج عن هذا كله نقاش بين القديم والحديث جرى خلال العفود الوسطى للقرن ، مما اضطر الجانبين الى أن يراجعا موقفيهما ، مما بشر بمولد معالجة نقدية جديدة للأدب . وهنا يبرز اسمان هما اغناسيو دولوزان كلارامنت(Ignacio de Luzan Claramunt) الذي ادى مؤلفه في قضايا الشعر الى اثارة الجدل الكلاسيكي الجديد الكبير في اسبانيا ، وبنيتو جيرونيمو فييجو اي مونتجرو(Benito Jeronimo Feijoo Montenegro) وهو راهب بندكتي قدم مساهمة كبيرة لتحرر اسبانيا الفكري ، بمهاجمته الخطأ والتعصب

والخرافة أنىّ وجدها . في مجال النثر الخيالي نجد مؤلف « ليالٍ حزينةً »(Noches Lugubres) لـ جوزيه كاد السوفــازكويز (José Cadalso Vazquez) الــذي يبشر بالرومـانتيكية ومـؤلف « فـريه جيرونــديو »(Fray Gerundio) ١٧٥٨ لـ جوزيه فرانسيسكو دواسلا(José Francisco de Isla) ، وهـو عمـل هجائـي يذكر برواية الكدية(Picaresque Novel) .

أما الشعر الذي كان يغط في سبات عميق طيلة مائة عام ، فقد رفع رأسـه بوجل على أيدي مجموعة من الشعراء من سلمنكا يقودهم دييغو كونزاليس(Diego Gonzalez) تطلعوا حوالي عام ١٧٧٥ نحو لويس دوليون(Luis de Leon) سعيا وراء الالهام ، كما حاولت مجموعة اخرى في أشبيلية بعد عقدين من الزمن احياء امجاد هريرا(Herrera) . أما خوان ميلنديس فالديس(Luan Melendez) ـ الذي تعلـم كيف يفكر على طريقة الانكليزي جون لوك ، ويشعر على طريقة الانكليزي ادوارد يونغ ـ فقد جسد مجموعة من التأثيرات الجديدة العاملة آنئذ . وساعد خلال تمرنه على احياء الشعر ليعودا الى حياته الطبيعية رغم ما تكشّف عنه انه كان رجل صناعة اكثر منه شاعراً عظيما .

شهد النصف الثاني من القرن في مجال المسرحية معركة كبرى حول القواعد الكلاسيكية التي عنت بشكل رئيسي الوحدات الثلاث : المكان والزمان والعمل . وأظهرت مسرحية « لاراكيل »(La Raquel) ١٧٧٨ لـ فنسنت انطونيو غراسيا دولا هيرتـا اي مينـوز(Vincente Antonio Gracia de la Huerta Y Munoz) امـكانيات مدرسة الاصلاح . وكان من نصيب رامون دولا لا كروز(Ramon de la Cruz) أن يسد الثغرة باحيائه الهزلية النقـدية النثـرية ذات الفصـل الواحـد(Paso) والقطـع المسرحية المتوسطــة الطــول لـ لوب دوريدا (Lope de Ruzda) وسيرفــانتيس (Cervantes) ولويس كونيونيس دوبنافنته(Luis Quinones de Benavente) وكانت مسرحياته المكونة من فصل واحد والتي تقدم صوراً نقدية للحياة في مدريد ، تتبع قانون الوحدات الثلاث ، ولا تثير حفيظة دعاة الصفاء الكلاسيكي . كانت بآن معاً متعة للجمهور كما عادت بالمسرحية الى التعليق على الحياة والمجتمع . وطبق لياندرو فرناند يزد موراتن (Leandro Fenandez de Moratin) القاعدة نفسها على المسرحية

الكاملـة الطـول ، وانتـج هزليات زاخـرة بالجـدية الاجتماعية العميقـة وصالحـة للاخراج . ويعتبرُ حواره في « الكوميديا الجديدة » (La Comedia Nueva) ۱۷۹۲ « وموافقه العذراء » (El si de Las Ninas) ۱۸۰٦ من أجود ما كتب نثراً في القرن الثامن عشر .

الفصل التاسع

الأدب البرتغالي في القرن الثامن عشر

كان القرن الثامن عشر في البرتغال شأنه في اسبانيا ، نثرياً حتى في شعره . لكن بالتدريج ظهرت علامات ثورة ادبية ما لبثت تتطور حتى غدت حركة رومانتيكية ، اذ صب لويس انطونيو فيري (Luis Antonio Verney) جام احتقاره على اساليب التعليم في كتابه « الطريقة الصادقة للدراسة »(Verdadeiso Metodo de Estudar) ١٧٤٦ . كما تطلع الليبراليون في افكارهم الى انكلترا وفرنسا ، واليهم بعود - بشكل رئيسي - الفضل في الاصلاح الذي اصاب كل فرع من فروع الادب . من هؤلاء الاشخاص يمكننا ان نشير الى الكساندر دوغوزماو(Alexandre de Gusmao) وزفير دوا وليفيرا (Xavier de Oliveira) وانطونيو ربيروسانشيس (Antonio Ribeiro Sanches) وجوزيه كوريا داسيرا(José Correia de Serra) وأفيلاربرو تيرو (Avelar Brotero) وفرانسيسكو مانويل دونا سيمنتو(Francisco Manuel Do Nascimento) ، كما اسهمت الجمعيات الادبية الجديدة بدورها في عملية الاصلاح . في عام ١٧٢٠ أسس الملك جون الخامس اكاديمية ريال التاريخية البرتغالية (Accademia Real da Historia Portuguesa) التي ضمت في عضويتها رجالا مثل مانويل كاتانودوسوسا (Manuel Caetano de Sousa) مؤلف السفر الضخم « التاريخ سلالة البيت الملكي البرتغالي » (١٧٣٥ - ٤٩) اما اكاديمية ريال العلمية التي أسست عام ١٧٧٩ فقد قدمت دراسات في تاريخ الادب البرتغالي . ضمت هذه الجمعية بعضويتها سائر العلماء المشهورين تقريباً في نهاية القرن ، امثال المؤرخ الاكليريكي فري مانويل دوسينا كيولا (Frei Manuel do Cenacula) ، والعالم انطونيو ربيرودوس سانتوس ، وجوابيدرو ربيرو(Joao Pedro Ribeiro) الذي ربما اعتبر أول مؤرخ عصري لبلاده . كما ضمت نقاداً أمثال فرانسيسكو

ألكساندر لوبو (Francisco Alexandro Lobo) وفريه فورتوناتو دوساو بوفنتورا (Freil Fortunato de Sao Boaventura) .

في عام ١٧٥٦ أسس أنطونيو دنيس داكروزاي سيلفا (Antonio Dinis da Cruze Silva) الاركاديا لويزيتانيا (Arcadia Luisitania) التي كان على رأس اهدافها التخلص من الأثر الاسباني . وقد دَلّ الشعر الرعوي لِدومنيغوس دوس ريس كوتيا (Domingos dos Reis Quita) على عودة الى التقليد الوطني قبل قرنين . يظهر الاخلاص والمعاناة في القصائد ذات الشهرة الأكبر وعنوانها « ماريليا دي درسيو » (Marilia De Dirceu) ١٧٩٢ وهي قصائد غنائية في الحب ذات خلفية رعوية كتبها توماس انطونيو كونزاغا (Toma's Antonio Gonzaga) . وفي عام ١٧٩٠ ظهرت اركاديا جديدة (Nova Arcadia) كان ابرز اعضائها الشاعران المتنافسان مانيول ماريا باربوسا دو بوساج (Manuel Maria Barbosa du Bucage) وجوزيه اغوستينيو دو ماسيدو (José Agostino de Macedo) .

خارج نطاق الجمعيات الادبية وقف المنشقون الذين تميز بينهم كاتبان على الأقل . قلائل هم النقاد البرتغاليون الذين تمكنوا من الهزء والسخرية ، كما تمكن نيكولاو تولنيتو دو الميدا (Nicolau Tolentino de Almeida) الذي صور عادات عصره وشوائبه بدقة مدمرة . كما كرس فرانسيسكو مانويل دو ناسيمنتو (Francisco Manuel do Nascimento) المعروف باسمه الادبي فيلينتو اليسيو (Filinto Elisio) نفسه لتنقية اللغة واعادة عبادة شعراء القرن السادس عشر ، متحولا الى الرومانتيكية قبل وفاته بقليل ، وهكذا مهّد الطريق لنجاحها في البرتغال .

في اوائل القرن حاول المؤلفون الشعبيون انعاش المسرحية في لشبونة ، وتدين الاوبرا البرتغالية (Operas Portuguesas) ١٧٣٣ - ١٧٤١ لانطونيو جوزيه داسيلفا (Antonio José da Silva) علمها لترصيع الحوار النثري بالالحان والرقصات والاغاني الشعبية الخفيفة . وقد حاولت الاركاديا لنزتانيا (Arca'dia Lusitana) أن ترفع من مستوى المسرح فوجدت نماذجها مفضلة في الروائع القديمة في القرن السادس عشر ، لكنها فتشت عن الايحاء والالهام في المسرح الفرنسي . الا أن محاولاتها باءت بالفشل بسبب نقص الموهبة المسرحية ، والاستجابة الشعبية . وكان

مانويل دوفيكريدو (Manuel De Figueiredo) نموذجاً يمثل هذا الاتجاه خير تمثيل اذ انتج ـ نثراً وشعراً ـ ١٤ مجلداً من المسرحيات في مواضيع قومية ، عندما حاول ان يكتب مسرحيات « صحيحة اخلاقياً ومسرحياً » ، لكنها لم تمثل على المسرح اطلاقاً ، لافتقارها للحيوية .

الفَصْل العَاشِر

الأدَب الاسكندنافي في القرن الثامن عَشر

الادب السويدي :

بعد وفاة شارل الثاني عشر عام ١٧١٨ ، وانهيار امبراطوريته ، تطور في السويد بالتدريج موقف نفعي من الحياة والادب . كان اولوف فون دالن (Olof Von Dalin) المصمم الأكبر للافكار الجديدة التي عممتها حركتا التنوير في انكلترا وفرنسا . تلّقى ثقافته في لند (Lund) ثم انقلب الى استوكهام ، وبدأ ينشر دورية اسبوعية غفلاً من اسمه اطلق عليها : « الآرغوس السويدية » (Then Swanska Argus) (١٧٣٢ ـ ١٧٣٤) ، صممت على نمط مجلة جوزيف اديسون . كانت هذه الدورية أول مشروع صحفي جدي في السويد ، وعلامة مميزة لبداية حقبة جديدة حلت فيها أفكار التشكيك والتنوير والباروكية حتى الكلاسيكية محل الآراء التقليدية الراسخة ، كما انحسر التأثير الألماني ليحل محله التأثير الانجليزي والفرنسي الطبقة المتوسطة تستلم مقاليد الادب . انتقد دالن في ارغوس (Argus) مثالب العاصمة وسخر منها ، وفي « قصة الحصان » (Sagan Om Hasten) ١٧٤٠ اثبت انه متمكن من الهجاء المجازي . وكتب ـ فضلا عن ذلك ـ بعض المسرحيات شبه الكلاسيكية ، كانت اكاديمية الطابع ، لكن دونما حياة شأنها شأن الكثير من المحاولات المسرحية في اوائل القرن الثامن عشر ومنتصفه . اما مسرحية « الغندور السويدي » (Den Suenska Spratthoken) ١٧٤٠ ، وهي هزلية كتبها الكونت كارل كيلينبورغ (Count Carl Gyllenborg) والأبيقوري غوستاف فيليب كروتز (Gustan Philip Creutz) وصديقه الردافي غوستاف فردريك كيلبرغ (Gustaf Fredrik Gyllenborg) وفي المجموعة الشعرية « الحمامة الحزينة » (Den Sorgande

(Turturdulfwan تندب فر و نوردنفلخت (Fru Nordenflycht) تقترن اسماء هدفك شارلوتا نوردنفلخت (Hedvic Charlatta Nordenflycht) وفاة زوجها في قصائد غنائية ذات نغمة ذاتية بالغة العمق . كان كروز شخصية مقلدة اكثر سفسطة ، ومع ذلك فكتاباته القليلة التي تتصدرها قصيدته الرعوية « آتيس اوش كاميلا » (Atis Och Camilla) تكشف عن تمكنه من الصيغة الادبية ومن الفن الشعري .

كان تطور النثر ـ وبشكل خاص الرواية ـ أبطأ . وأول رواية حقة هي « ادالريك جيوتلداس افنتير » (Adalrik Och Giothildas Afventyr) ١٧٤٢ ـ ١٧٤٤ لِـ جاكوب مورك (Jacob Mork) وأندرز تورنجرين (Anders Torngren) ويبرز فيها اثر الملاحم الايسلندية . لم يكن في السويد في القرن الثامن عشر الا كاتبان ذوا شهرة أوروبية ، وهما العالمان كارل فون لن (Car Von Linné) ١٧٠٧ ـ ٧٨ والصوفي امانيول سويدنبرغ (Emanuel Swedenborg) ١٦٨٨ ـ ١٧٧٢) .

تأخذ الفترة الغوستافية اسمها من الملك غوستاف الثالث (Gustav III) ١٧٤٦ ـ ١٧٩٢ وهو رجل لامع وراعية للأدب والفن اولى المسرح والأوبرا اهتماماً خاصاً ، وبفضل رعايته تطور تقليد مسرحي مناسب . وقد كتب غوستاف نفسه بعض الأعمال الادبية افضلها اوبرا بعنوان « غوستاف فازا » (Gustaf Vasa) ، كتب نهايتها بالتعاون مع يوهان هنريخ كلجرين (Johan Henrik Kellgren) والملحن ي . ج نومان (J .G . Noumann) اصر كلغرين (Kellgren) الشاعر الاكاديمي العظيم والفصل في الذوق الأدبي ، على أن يبني الادب السويدي على الانماط الكلاسيكية الفرنسية ، وقد بدأ حياته الادبية كرجل عقلاني وناقد على طريقة فولتير ، الا انه تقبل على مضض افكاراً مهيئة للرومانتيكية فيما بعد .

في المجلة الرئيسية الناطقة باسم ادباء العاصمة « استكهلمسبستن » (Stockholmsposten) استعمل فكاهته العقلية الجدلية ، ضد توماس ثوريلد (Thomas Tjorild) أحد المنادين المشاكسين بالعبقرية الفردية . وبعد وفاته حل كارل كوستاف أف ليوبولد (Carl Gustaf Af Leopold) محله واستمر الجدل محتدماً . الا أن كارل هذا فرض المقاييس شبه الكلاسيكية على الاكاديمية وطبقّها في قصائده الغنائية ومآسيه المنمقة الاسلوب . كتب يوهان غابرييل اوكزنستيرنا (Johan

Gabriel Oxenstierna أكثر مؤلفاته أصالة بينما كان يعمل كدبلوماسي في فيينا . وتتجلى قصيدته « الحصاد » (Skördarne) ١٧٩٦ وقصيدته الغنائية من نوع « الاود » « وعنوانها كاميلا » (Ode to Camilla) بشعور جمال الطبيعة من النوع الذي يسبق الرومانتيكية . وشعرياً كان بينت لدنر (Bengt Lidner) الداعية الرئيسي لحركة ما قبل الرومانتيكية ، وأبرز أعماله قصيدته الغنائية « غريفنان سباستاراس دود » (Grefvinnan Spastaras Dod) ١٧٨٣ .

يقف كارل مايكل بلمان بعيداً عن مثل العصر المتصارعة ، فكان شاعراً وموسيقياً جمع بين الواقعية في الاسلوب وروح النكتة والادراك الدقيق الفريد للغة والجرس وبذلك كان اعظم شاعر غنائي سويدي في القرن الثامن عشر .

عبرت اطروحة السكرتير الأول للاكاديمية السويدية نيلزفون روزنشين (Nils Von Rosenstein) في التنوير (Om Upplysning) (١٧٩٣) عن مثل الحقبة الغوستافية . وهناك عدة مذكرات كتبها ج . ي أدلربيث (G.J. Adlerbeth) و ج . ي إهرنسفارد (G.J. Ehrensvard) وغيرهما ، وكلها تخلق المناخ الفكه والمصطنع لبلاط غوستاف الثالث فأما خلفه غوستاف الرابع فلم يشجع الادب ، ومع ذلك كتبت انّا ماريا لنغرين (Anna Maria Lenngrein) بعض افضل شعرها الهجائي بين عامي ١٧٩٥ و١٨٠٠ ، وأغلبه موجه ضد العيوب الارستقراطية . اما القصائد الرعوية العاطفية التي نظمها فرانس ميكائيل فرانزن (Frans Mikael Franzen) فمشحونة بالمثالية التي سبقت الحركة الرومانتيكية المستقاة من مصادر انكليزية والمانية كما نظم بصفته اسقفاً بعضاً من اكثر الترانيم شعبية في الكنيسة السويدية .

الادب الدانمركي :

كان القرن الثامن عشر فترة خصبة بالادب الدانمركي ، وكان الاسم العظيم في النصف الاول منه هو لدفيغ هولبرغ (Ludvig Holberg) النرويجي المولد . اعظم مساهمات له كتبها للمسرح الدانمركي الذي افتتح عام ١٧٢٢ هي ٣٢ مسرحية كوميدية من النوع الذي يركز على الشخصية والعادات ، بالاضافة الى بعض

المسرحيات المجازية الداعية للاخلاق كتبها في شيخوخته . كان يهدف الى ايجاد ادب دانمركي حديث حسب الخطوط الأوروبية ، وأن يضحك الناس بكشف عيوبهم امام انظارهم . وكان عقلانياً معتدلاً متأثراً بالمفكرين الانكليز والفرنسيين ، وفضلا عن ذلك نظم قصائد هجائية مثل « بيدربارس » (Peder Paars) ١٧١٩ ، وهي قصيدة بطولية ساخرة ، ورحلة نيقولاى كليمي الى العالم السفلي (باللاتينية (١٧٤١)) . ويعتبر مؤلفاه « افكار اخلاقية » (Moralske Tanker) ١٧٤٤ « ورسائل » (Epistler) ١٧٤٨ - ١٧٥٤ ابدع الامثلة على صيغة المثال السياسي الدانمركي . هذا بالاضافة الى اسهامة ببعض المؤلفات التاريخية القيمة .

من معاصري هولبرغ كان أنبغ الشعراء الغنائيين هم هـ - م بروسون (H . A Brorson) ، وهو شاعر صوفي تتصف ترانيمه التقوية بخلفية من الحزن والالم الشخصي ؛ وأمبروزيوس ستب (Ambrosius Stub) وأغلب قصائده دينية أو تربوية ، او حكم فكهة ، او اغاني شراب . اما الهجّاء كرستيان فولستر (Christian Falster) فكان الجزء المحافظ المتمم لهولبرغ . وكان فردريك ايلشوف (Friedrich Eilschov) ويانز شلورب سيندورف (Jens Schelderup Sneedroff) الذي حرر دورية « المشاهد الوطني » (Den Patriotiske Tilskuer) تلميذين عقلانيين لهولبرغ .

في نهاية القرن تقريباً حدث احياء ذو أهمية للادب الدانمركي ، اذ كتب النرويجي يوهان هرمان وسل (Yohan Herman Wessel) - وهو احد اعظم الفكاهيين الذين كتبوا بالدانمركية « حب بدون جوارب » (Kierlighed Vden Strom per) وهو تقليد ساخر من تقليد الدانمركيين فلاوبرا الايطالية والتراجيديا الفرنسية التي حلت محل هزليات هولبرغ ، ولا سيما مسرحيات نيلز كروغ بردال ، ويوهان رودال برون ، وما زالت قصائد الأخير الخفيفة الفكهة ، وقصصه المنظومة شعراً شائعة محبوبة .

في الوقت نفسه كان هناك احياء للشعر العاطفي متأثر بالأدبين الالماني والانكليزي ، وكان يوهان ايوالد (Johanns Ewald) الذي ربما كان اعظم شاعر غنائي دانمركي - اول من غاص في الماضي الدانمركي ليكتشف الروعة الشعرية الكامنة

في كتاب « جستا دانوروم » (Gesta Danorum) للكاتب سكسوكراماتيكوس (Saxo Grammaticus) وخاصـة في الاساطـير والملاحـم والقصائـد البطـولية من نوع « البالاد » . وقد نظم مسرحيات شعرية وقصائد وصـفية ذاتية عميقـة . كانـت « الصياد » ١٧٧٩ (Fiskerne) أول مسرحية دانمـركية جدّية عومـل فيهـا النـاس العـاديون بشـكل بطـولي . كما تأثـرت مذكراتـه « حياة افـكار » (Levnet of Meninger) بالكاتب الانـكليزي لورنس ستـيرن ، والكاتـب الفـرنسي جان جاك روسو . وقلّـد يانـز بكيسـن (Jens Baggesen) ـ باديء ذي بدء ـ اعمال هولبـرغ ويسل الهجائية ، لكنه تطور بالتدريج ليصبح شاعراً متميزاً بارزاً رغم اختلاف نوعية شعـره من قصيدة الى اخـرى بشـكل واضـح . وفي مؤلف « المتاهـة » (Labyrinten) ١٧٩٢ ـ ٩٣ وصف رحلاته في اوروبا حسب طريقة سترن (Sterne)

تميزت نهاية القرن الثامن عشر بالكثير من الهواية الادبية ، ومثال ذلك ب . ج هايبرغ (P. A. Heiberg) الهجاء العنيف الراديكالي الذي تأثر بالثورة الفرنسية ، وطرد من الدانمارك وقضى سحابة (٤٠) عاماً من حياته لاجئاً سياسياً في فرنسا . كما وشاطره هذا المصير مولت كونراد برون (Malte Conrad Bruun) بتأليفه كتاباً أسماه «الارستقراطيين» .

الأدب النرويجي :

كان عدد من كتاب الدانمارك الرئيسيي من مواليد النرويج ، ومن أبرزهم ليدفغ هولبرغ (Ludvig Holberg) ، ثم في نهاية القرن برز منهم أعضـاء الجمعية النرويجية . أسسـت هذه الجمعية في كوبنهاجـن عام ١٧٢٢ على أيدي نرويجيـين مقيمين فيها ، وتطلعت الى الأدب الفرنسي لايجاد نماذج تحتذى اكثـر من اهتمامهـا بالادب الانكليزي أو الالماني . كان من اعضائها يوهان هرمان ويسل ، ويوهان نوردال برون الـذي نالـت مأساتـه «زارين» (Zarine) جائـزة أدبية عام ١٧٧٢ ، والمفكر كلاوس فاستنغ (Claus Fasting) . اما في النـرويج نفسهـا فكان النشـاط الأدبي الملحوظ قليلاً ، مع آن تأسيس الجمعية الملكية النرويجية للمعرفة عام ١٧٦٠ في تروندهايم كان دليلاً على أن النرويج شرعت تؤكد على مطامحها الثـافية .

الأدب الايسلندي :

يعتبر كتاب «مواعظ للمنزل»(House - Postil) لمؤلفه جون فيدالن(Jon Vidalin) اسقف سكالهولت أفضل مثال على النثر الايسلندي في أوائل القرن الثامن عشر . وهناك أدباء مرموقون في أواخر القرن الثامن عشر منهم أكرت اولافسون (Eggert Olafsson) الذي قام بمسح جغرافي لايسلنده وشعبها نشر عام ١٧٧٢ . وقد عبر في شعره عن العقلانية في القرن الثامن عشر ممتزجة بالوطنية الرومانتيكية . اما جون شتاينغريمسون(Jon Steingrimsson) فيذكر الآن بسيرته الذاتية التي يصف فيها ثوراناً بركانياً عام (١٧٨٣) ، والمجاعة التي تلت ذلك . كما ترجم جون بورلاكسون(J ón Porlaksson) قصيدة «الفردوس المفقود» لملتون وقصيدة «مقال عن الانسان» لبوب .

كتب فنرجونسون(Finnu Jonsson) أسقف سكالهولت «التاريخ الاكليريكي لايسلنده» ١٧٧٢ ـ ١٧٧٨ ، وهو يغطي تاريخ المسيحية في ايسلنده . اما جون اسبولين(Jon Espolin) فكتب «سجلات ايسلندية» وهو تاريخ لايسلنده من عام ١٢٦٢ .

الفصل الحادي عشر

الادب الروسي في القرن الثامن عشر

يرجع تاريخ الأدب الروسي الحديث الى العقد الأول من القرن الثامن عشر عندما بدأت المؤلفات الادبية تطبع بشكل متميز عن الكتب الرسمية والدينية . كانت الكلاسيكية هي الحركة المسيطرة في أدب القرن الثامن عشر ، ولكن في النصف الثاني منه حلت الحركة العاطفية محل الكلاسيكية ، كما ان الحركة العاطفية نفسها كانت تفسح المجال لتتراجع أمام الرومانتيكية والواقعية حوالي عام ١٨٠٠م .

نشوء الكلاسيكية الروسية :

ان أبرز شخصية أدبية في مطلع القرن الثامن عشر هي شخصية **فيوفان** بروكوبوفتش(Feofan Prokopovich) رئيس اساقفة نوفغورود ، واحد ندماء بطرس الاول الكبير ، وقد أرسى أسس موضوعين رئيسين في الأدب الروسي هما الاوتوقراطية كنوع من الحكم والهجاء كوسيلة لمهاجمة الخصوم السياسيين .

في السنوات الاولى من القرن انتشر بعض الشعر الوقور في المديح تخليداً لذكرى الانتصارات الروسية ، كما كانت امثلة على الصيغة الادبية الجديدة من قصائد الحب الغنائية والقصائد التأملية الرثائية . كذلك شهدت هذه الفترة تطور المسرحية الروسية العلمانية ، ولكنها ـ بشكل عام ـ كانت فترة تحضيرية للتطور الذي تم فيما بعد .

شجع نمو المؤسسات الثقافية وتأسيس أول اكاديمية للعلوم في سانت بطرسبورغ(St . Petersburg) عام ١٧٥٥ وأول جامعة في موسكو ١٧٥٥ ، وأول مسرح في سانت بطرسبورغ ١٧٥٦ ، على تطوير الميول الادبية . كانت القصيدة

الغنائية من نوع «الاود» والمأساة هي الاشكال الادبية الرئيسية ، وقد دعت كلتاهما الى الحتمية المتنورة . وكما هي الحال في غربي أوروبا كانت عبادة العقل أساس التذوق الجمالي للحركة الكلاسيكية الجديدة .

كان الكتاب الرئيسيون للحركة الكلاسيكية هم الأمير انتيوخ ديمتريفتش كانتمير(Antiokh Dmitriyevich Kantemir) أول شاعر علماني روسي وفاسيلي كيريلوفتش تردياكوفسكي(Kirillovich Trediakovsky Vasily) احد أبرز علماء عصره وميخائيل فاسيليفتش لومونوسوف(Michail Vasilyevich Lomonosov الشاعر واللغوي والعالم والناقد الادبي والكساندر بتروفتش سوماروكوف (Aleksandr Petrovich Sumarokov) الشاعر والكاتب المسرحي . يشتهر كانتمير بشكل رئيسي بقصائده الغنائية وأعماله الهجائية التسعة ، ويعتبر مؤسس النقد الروسي . اما ترديكوفسكي فبدأ عمله الادبي بترجمة مؤلف بول نالامنت(Paul Tallemant) «رحلة الى جزيرة الحب» أول عمل في الحب الجنسي ينشر في روسيا ، كما ساعد على اصلاح العروض الروسي اما لومونوسوف فابتكر الاساليب الثلاثة الشهيرة للشعر التي تميزت بها الحركة الكلاسيكية الجديدة الروسية وهي : الاسلوب الفخم للقصائد البطولية ، والقصائد الغنائية من نوع «الأود ، والاسلوب المتوسط للاعمال المسرحية التي تتطلب الحديث العامي والدارج ، والاسلوب الادبي المنخفض للهزليات والحكم والاغاني والرسائل النثرية والوصف الدقيق .

طور لومونوسوف كذلك الدراسة النظرية للغة الروسية التي ادعى انها لا تقل مستوى عن أية لغة اوروبية اخرى في غناها الطبيعي وجمالها وقوتها .

كان سوماروكوف(Sumarokov) الذي كتب أول مأساة روسية كلاسيكية عنوانها «خوريف»(Khorev) ١٧٤٧ متمرساً في اشكال أدبية متعددة ، ومعارضاً لاسلوب لومونوسوف المنمق . ويدين بشهرته وشعبيته لقصائده الغنائية العديدة في الحب ، والى مراثيه وشعره الرعوي . كما كتب ست مسرحيات مأساوية بما فيها اقتباس لمسرحية «هاملت» ، واربع ملاه . وقصد بأعماله المأساوية المتأثرة براسين الى تعليم الطبقة النبيلة دروب أخلاقية ، وهذا نفس ما هدف اليه في مسرحياته الهزلية . كما كشف في دوريته «النحلة الدؤوب»(Trudolyubivaya Pchela) عن

الفساد بين الموظفين ، وهاجم ملاكي الاراضي لسوء معاملتهم عبيد الارض ، الا انه دافع عن عدم المساواة الاجتماعية باعتبارها شيئاً طبيعياً وقانونياً . كما ارست مقالاته النقدية وقصصه الخرافية أسس النقد في العقد التالي .

كان أول تحول عن الكلاسيكية من عمل ميخائيل متفيفتش خيراسكوف (Mikhail Matveyevich Kheraskov) الذي أشتهر بقصيدتين ملحميتين بناهما على نمط فولتير ، وهما «هنرياد روسيادا» (Henriade - Rossiyada) التي نظمها عام ١٧٧١ - ٧٩ حول احتلال ايفان الرهيب لـ قازان (Kazan) ، «وفلاديمير فوزروجديوني» (Vladimir Vozrozhdyonny) ١٧٨٥ حول موضوع ادخال القديس فلاديمير المسيحية الى روسيا .

المواضيع السياسية والعاطفية :

اختار كتاب الفترة - متأثرين بثورة القوزاق والفلاحين - موضوع عبودية الارض على انه اكثر المواضيع التي عالجوها أهمية . وازداد الاثر الاجتماعي للادب ازدياداً ملحوظاً مما ادى الى توسع دائرة القراء والى المشاركة النشيطة في الادب لجميع الطبقات . هاجم سوماروكوف في مآسيه الثلاث الاخيرة فكرة الحاكم المستبد ، ودعا الى ان يكون الامبراطور متنوراً . في مسرحية «تيلمخيدا» (Tilemakhida) ١٧٦٦ - وهي ترجمة حرة لمؤلف فنلون المسمى «تلماك» - اعلن سوماروكوف انه اذا كان للقيصر سلطانه على جميع ابناء الشعب ، فللقوانين سلطانها على القيصر نفسه . بينما قامت الامبراطورة كاثرين الثانية بتحرير دورية على نمط الـ «سبيكتيتر» الانكليزية حيث صبت فيها جام احتقارها على ترياكوفسكي (Trediakovsky) كان أعظم كابتين في هذه الفترة هما كاتب مسرحي اسمه دنيس فونفيزين (Denis Fonvizin) وكاتب وناشر اسمه نيقولاي نوفيكوف (Nikoloy) . بدأ فونفزين عمله الادبي بترجمة قصص خرافية ، ثم انتقل الى كتابة خرافات اصيلة هجائية مثل «الثعلب والواعظ» ١٧٦٢ التي كتبها مباشرة بعد وفاة الامبراطورة العجوز اليزابيث (يلزفيتا بتروفنا) هاجم فيها رياء رجال بلاطها . ولكن فونفيزين نجح ككاتب مسرحي عندما اخرج هزليتين نثريتين هما «برغادير» (Brigadir) «ونيدوروسول»

(Nedorosol) . شأنـه شأن فونفيزين وجـه نوفيكوف ـ هجـاءه ليس ضد عبـودية الارض بالذات ولكن ضد اساءة ملاكي الاراضي استعمال سلطاتهم . وقد صدّر دوريته «ذكر النحل»(Truten) (١٧٦٩ ـ ١٧٧٠) بالعبارة ذات المغزى : «انهـم يعملون وانت تعيش على جهدهم» . أوقفت الامبراطورة كاثرين الثانية الدورية لشهر عام ١٧٦٩ ، وبعد ذلك خفف نوفيكوف من هجائـه ، وفي نهـاية ١٧٧٠ توقفت عن الصدور امـا دورية نوفيكوف الثـانية المسماة «المدعـي»(Pustomelya) فعُلقـت بدورهـا بعــد صدور عددين منهـا . وفي دوريتــه الثالثــة «الرســام» (Zhivopisets) نشر عام ١٧٧٢ عملـين هجـائيين شهـيرين هما «جـزء من رحلـة» ورسالة الى فلالي . تعطي الاولى انطباعاً صارخاً عن فقر الفلاحين وعبوديتهم ، بينما تعكس الثانية عقلية اسيادهـم . ان عدم هجـوم نوفيكوف على نظـام عبـودية الارض أنقذه من غضب كاترين ولكنه سلب نقده من فعّاليته كاداة ثورية . كان أهــم روائــي في هذه الفتــرة هو فيودور اليكسانــدروفتش ايمــين (Fyodor Aleksandrovich Emin) الذي تعتبر أفضل رواياتـه «رسائـل ايرنسـت ودورافـرا» ١٧٧٦ وهي ترجمة حرة «لرواية هلواز» لجان جاك روسو ، وهي هامة لكونها محاولة في الرواية الروسية للتحليل النفسي لمشاعر الناس العاديين وافكارهم . وفيها كشف ايمين عن شرور العبودية ، لكنه لم يهاجمها كمؤسسة . امـا ابنـه نقـولاي ايمـين (Nikolay Emin) ـ وهو بدوره روائي شعبي ـ فكان أقل اهتماماً بالظلم الاجتماعي في عصره . وتظهر رواياته الاثر المتزايد للمدرسة العاطفية . كان ميخائيل ديمتريفتش تشلكوف(Mikhail Dmitriyevitch Chulkov) ـ وهو روائي شعبي جاء من الطبقات الدنيا ـ مهتماً بتسلية قرائه ، لذا كانت تنقص رواياته الدعوة الى الاخلاق الرفيعة التي تزخر بها أعمال الكتاب الكلاسيكيين .

بين عامي ١٧٧٠ و١٧٨٠ ترسخت الحركة العاطفية في الأدب ، وظهـرت بوضوح في ترجمات حرة للأوبرا الفرنسية الهزلية . وتبع هذه الترجمات اوبرا هزلية محلية مثـل «روزانـا اي لوبيم»(Rozana i Lyubim) ١٧٧٨ لنيقـولاي بتــروفتش (Nicolay Petrovich) التي كان موضوعها الرئيسي تفوق المساواة الاخلاقية على عدم المساواة الاجتماعية . ويمكن تلمس الطابـع المعـادي للعبـودية في الاوبـرا الهـزلية

الاخرى في هذه الفترة مثل «حادث مع عربة»(Neschastye Ot Karety) (١٧٧٩) لـ ياكوف بوريسوفيتش كنياشنـن(Yakov Borisovich Knyazhnin) وقارئـة الفنجـان (Kofeynitsa) لـ «ايفان كريلوف»(Ivan Krylov) وهو أعظم كاتب خرافات روسي و«الطحـان والمشعـوذ ووسيط الـزواج» لـ الكسانـدر اونيزيمـوفتش ابلسيمـوف (Aleksandr Onisimovich Ablesimov) اثـارت الثـورة الامـريكية التـي غطاهـا نوفيكوف في دوريته «أخبار موسكو» مشكلـة واجبـات الحـاكم الاتوقراطـي نحـو رعاياه . وأكد فونفيزن(Fonvizin) ان على القيصر ان يخضع لقوانين البلاد ، كما يخضع ادنى رجال رعيته . وقد عالـج ايفـان ايفانـوفتش خمنتسر(Ivan Ivanovich Khemnitser) الموضوع نفسه ، بينما طالب كنياشنين في مأساته «روسلاف» (١٧٨٤) بأن يكون الامبراطور خاضعاً لقوانينه وحمل هذا الشعور كاترين على ان تأمر باتلاف جميع نسخ هذا المؤلف . وحتى نيكوليف(Nikolev) صرح في مأساته «سورنيا أي زامر»(Sorena i Zamir) ١٧٨٤ بأن تحطيم الطاغية واجب وليس جريمة . وتبدت أول ظاهرة تشير الى تدني قوة الكلاسيكية في القصائد القصصية الشعبية لابوليت فيودوروفيتش بوغدانوفتش(Ippolit Fyodorovich Bogdanovich) وخاصة في مؤلفة «داشنكا»(Dushenka) (١٧٧٥) المقتبس عن مؤلف لافونتين(La Fontaine) «حب سايك وكيوبـد»(Les Amours De Psiché Et De Cupidon) وقـد أعتبـر الكتـاب العاطفيون بوغدانوفتش على انه سلفهم .

كان صوت كافرلا درشافـن(Gavrila Derzhavin) أعظـم شاعـر روسي في القرن الثامن عشر أقوى تعبير عن التغير من الكلاسيكية الى العاطفية . وأظهرت مؤلفاته الاولى ـ القصائد الغنائية من نوع «الاود» وغيرها ـ تأثره بـ لوموندسوف ، وسومار وكوف ، لكنه سرعان ما أتخذ لنفسه موقفاً مستقلاً من الشرور الاجتماعية . وتمتلىء قصيدته (من نوع الاود) التي نظمها بمناسبة وفاة الامير مشيرسكي(Prince Meshchersky) (١٧٧٩) بالتأملات في سرعة زوال الحياة وحتمية الموت ، لكنهـا تنتهي بالتسليم للقدر بمرح يذكرنا بالشاعر الروماني هوراس . وفي العقد التالي بلغ درشافن أعلى مستوى له بنظمه قصائد من «نوع الاود»(Ode) مثل «اسر اسماعيل و الى النبيل» . وتعود أفضل قصائده مثل «الشلال» ١٧٩٤ «والطاووس» وقصائـده التي نظمها حسب تقليد الشاعر الاغريقي القديم اناكريون جمعت عام ١٨٠٤ مثل

«دعوة على العشاء» و«الحياة في زفانكا» (من املاك الشاعر) الى هذه الفترة . تقبل درشافن العبودية باعتبارها امراً طبيعياً وقانونياً كما أن شعره عبر عن وجهة نظر الطبقات الحاكمة . الا ان في عرضه للحياة اليومية بشكل واقعي ، وتبسيطه للاسلوب الشعري بادخاله اللغة الدارجة دعا الى جعل الشعر ديموقراطياً .

أثار الأدب الروسي في التسعينات من القرن الثامن عشر الذي تأثر بالثورة الفرنسية مواضيع حقوق الانسان ودور الأمة ككل . رحب اليكساندر راديشيف (Aleksander Radichef) في قصيدته الغنائية من نوع «الاود» المسماة «الحرية» (١٧٨١ - ٨٣) بالثورة الاميركية ، وهاجم العبودية . الا ان هجاءه الاتوقراطية جعل كاترين الثانية تعتبر قصيدته ثورية ، اذ هدد فيها القيصر بالاعدام .

وباستثناء المؤلفات النقدية العنيفة التي كان من بينها الهزلية الشهيرة «تشيكان»(Chicane) ١٧٩٨ لـ فاسيلي فاستليفتش كابينت ، كانت الحركة الأدبية الرئيسية هي العاطفية المفرطة ، التي قادها نيقولاي كارامزين(Nikolay Karamzin) تتميز العاطفة الروسية بأنها تجمع بين الادراك الذاتي للأمور ، وترفض التجديد الكلاسيكي والادعاء الكلاسيكي بان الانسان بطبيعته يعمل بشكل مثالي . وقد قابل كارامزين التركيز الكلاسيكي على العقل بالمبدأ القائل بان تعبير عن الشعور ايضاً .

فضلاً عن ذلك تبنى العاطفيون ادعاءات الاحساسية بأنها شرط مسبق للانطباع الجمالي ، مؤكدين على القاعدة العاطفية للفن . كان كارامزين على عكس درشافن أقل اهتماماً بالواقع منه بالمشاعر والأمزجة التي يثيرها الواقع في الشاعر . وكان أعظم ابداع شعري له «تدفق القلب الحزين الواهن» . وقد عبر كرامزين عن هذا المزاج المرثاوي ، الذي تميز به شعره الاخير في روايته الشهيرة «ليزا المسكينة» (Poor Liza) ١٧٩٢ التي نجد فيها لاول مرة في أدب الرواية الروسي النصوص الوصفية المستعملة للتأكيد على مشاعر البطل تصبح عنصراً اساسياً هاماً في الرواية . وفي روايته «جوليا»(Julia) جعل حياة الريف تبدو مثالية شأنها شأن «عناق الطبيعة» . وكانت رواياته مثل «جزيرة بور نهلولم» «وسيراموروينا» ١٧٩٣ تبشران بظهور الرواية الروسية الرومانتيكية .

الأدب الجيورجي :

انتعش الأدب في جيورجيا على يد مصنف المعاجم سلخان ـ سابا اوربلياني (Sulkhan - Saba Orbeliani) (١٦٥٨ ـ ١٧٢٥) الذي كتب مجموعة خرافات سماها «كتاب الحكمة والكذب» . اما الشعراء الرئيسيون للفترة فكانوا ديفيد كيراميشقيلي David Kuramishvili وبيساريون كباشفيلي(Bissarion Gabashvili) .

الأدب اللاتفي :

أدى فقدان الاستقلال السياسي في القرن الثالث عشر الى منع تطور طبيعي للأدب اللاتفي من الشعر الشعبي . والكثير من الشعر اللاتفي انما هو محاولة لاعادة هذا الاتصال . اتى الادب المكتوب متأخراً ، وكان الالمان من رجال الكنيسة هم الذين شجعوه اما الادب العلماني اللاتفي فبدأ في القرن الثامن عشر على يد ج . ف . ستندر(G . F. Stender) الذي أنتج قصصاً تعليمية أو تصويراً رعوياً لحياة الريف متمشياً وروح عصر التنوير . عبثاً حاول ان يستبدل الاغاني الشعبية بقصائد غنائية من تأليفه . وهكذا ، وبطريقته الخاصة ، أكد على ان الثروة الهائلة من الاغاني الشعبية (حوالي ٤٠٠ الف منشورة وحوالي مليون مسجلة ولكن غير منشورة) كان على الدوام وفي جميع العصور ذات وجود شائع ومنتشر في الأدب اللاتفي . وفي القرن السابع عشر حارب فيوريكرز(Fuereccerus) الفلوكور بروح محبة اكثر مما هي عدائية ، وهو شاعر حساس أدخل اعرافاً وتقاليد شعرية وقوافي جديدة ، كما استعمل احياناً عناصر اسلوبية استقاها من الاغاني الشعبية اللاتفية ومن ج . مانسيليوس(G . Mancelius) مؤسس النثر اللاتفي .

الفَصْل الثّاني عَشَر

آداب أوروبا الشرقيّة الأخرى
في القرن الثامن عشر

الأدب البولندي :

أدى الاتصال مع غربي اوروبا وبخاصة مع فرنسا وانكلترا الى اضفاء صفة مميزة على أدب فترة التنوير في بولندا التي شحنت مشاعر كتابها بالرغبة في انقاذ الثقافة القومية من آثار التقسيم والحكم الاجنبي . شملت التطورات الادبية نشوء المسرحية وادخال الدوريات والرواية ونشر اول قاموس بولندي ، وظهور القصائد البطولية القصيرة من نوع «البالاد» .

جاء تأسيس المسرحية في بولندا متأخراً . وأقدم حادثة ذات مغزى في هذا المجال كانت تدشين المسرح القومي في وارسو عام ١٧٦٥ . كان هناك ثلاثة كتاب مسرحيين رئيسيين هم : فرانسيسزك بوهومولك (Franciszek Bohomolec) الذي أنتقد الارستقراطيين في ترجمات حرة مكيفة لاعمال موليير . وفوجيك بوغسلوسكي (Wojeiech Boguslawski) الذي كتب أوبرا قومية هزلية عنوانها «كراسوفيون وجبلون» ١٧٩٤ ، وفرانسيزك زابلوكي (Fricyk W Zalotach) ١٧٨١ ومسرحية «صرماتزم» (Sarmatyzm) ١٧٨٥ . ظهرت هزليات الكساندر فردرو (Aleksander Fredro) عندما كانت الحركة الرومانتيكية في طريق التطور . وأظهرت تأثيرات موليير وكارلوكولدني ، كما يبدو في مسرحية «الانتقام» (Zemsta) عام ١٨٣٤ . تبرز هذه المسرحيات بتشخيصها اللامع للانماط البشرية ، وبتركيبها المسرحي الحاذق وبسهولة أوزانها . كانت معظم الكتابات النثرية في تلك الفترة مشبعة

بالتعليم الاخلاقي ، وفيها ظهرت الدوريات (مثال ذلك «مونتيو» ١٧٦٥ - ١٧٨٥) ، ونشر قاموس بولندي بين عامي ١٨٠٧ و١٨١٤ . كما كتب الاسقف آدم ناروزويز(Adam Naruszewicz) في اوائل فترة التنوير ، وتعكس مؤلفاته الشعرية اذا أخذت حسب ترتيبها الزمني الانتقال من الشعر الباروكي الى الشعر الكلاسيكي . ناهيك عن انه كتب تاريخياً لبولندا استعمل فيه الاساليب العلمية الحديثة في البحث. ونظم أهم شاعر وهو الاسقف كراسيكي(Ignacy Krasicki) ذو النظرة الاوروبية والميل الفكري المشكك قصيدتين هزليتين بطوليتين هما «مايزيس» (Myseis) ١٧٧٥ «وموناكوماكيا» (Monachomalia) (١٧٧٨) بالاضافة الى «ساتيري»(Satyry) ١٧٧٩ وقصص خرافية واخلاقية . كان رائعاً بتعابيره المختصرة ، واناقته الشكلية ، وفكاهته العقلية . كما أدخل الرواية «مغامرات ميكولاج دوزديادشنسكي» ، فاظهر بذلك تأثره بسويفت وروسو . هناك شاعران آخران بارزان هما ستانسلاوترمبيكي(Stanislau Trembecki) الذي كان لدواوينه مكانة هامة في الكلاسيكية البولندية ، على انها نماذج للسلاسة في الاسلوب ، وتوماز كاجيتان واجيرسكي(Tomaz Kajetan Wegierski) وهو مفكر حر معجب بفولتير فعبر عن نظرة عقلانية في قصيدة بطولية ساخرة عنوانها «اورغاني» (Organy) . أستمر الشعر الغنائي بالتطور ، اذ طور فرانسيزك كاربنسكي (Franciszek Karpinski) ملامح الاسلوب الباروكي في قصائد رعوية شعرية شعبية واغان دينية ، بينما اعاد الكاتب التجريبي فرانسيزك ديونيزي نيازنين(Franciszek Dyonizy Kniaznin) كتابة الكثير من مؤلفاته السابقة لاضفاء تناسق في اسلوبه . وبشرت مؤلفاته الشعرية الهادئة والعقلانية بالمواضيع الرومانتيكية للشعر الشعبي والخرافة الشائعة وحياة الغجر .

الهم الاهتمام بالاصلاح وحب الوطن كتابات جوليان ايرسن نيامسويز(Juhan Ursyr Niemcewicz) الذي تعمق في الشعر الانكليزي ، وقام بترجمات لقصائد غنائية انكليزية من نوع «البالاد» في وقت مبكر من حياته . كانت قصيدته الاصيلة المسماة «دمي»(Dumy) الاولى من نوعها في بولندا ، كما أدخل الى وطنه الرواية التاريخية بروايته «جان زتيزينا»(Jan Z Teczyna) ١٨٢٥ التي يظهر فيها أثر السير

وولتر سكوت(Sir Walter Scott) وكانت هزليته «عودة الرسول» واحدة من أفضل المؤلفات الدرامية للفترة ، كما كانت «اغان تاريخية»(Spiewy Historyczne) ١٨١٦ واسعة الانتشار .

بعد فقدان الاستقلال الوطني على أثر تقسيم البلاد للمرة الثالثة بين روسيا والنمسا وبروسيا ١٧٩٥ ـ ١٧٩٦ ، أستمر تقليد الشعر الوطني على يد الشعراء الجنود اللاجئين في الكتائب البولندية لجيش نابوليون . نذكر في عدادهم جوزيف وبيكي(Josef Wybicki) الذي أصبحت قصيدته الوطنية «مازوك دابروسكييجو» (Mazurek Dabrowskiego) ١٧٩٧ نشيداً قومياً لبولندا عام ١٩١٨ .

الأدب الهنغاري :

كانت الفترة الممتدة بين عامي ١٧١١ و١٧٧٠ فترة انحطاط في الأدب الهنغاري فلم تظهر سوى اعمال بارزة في مجالات المذكرات والتاريخ وتاريخ الادب . ومن أبرز المؤرخين ماتياس بل(Matyas Bél) وجيورجي بري(Gyorgy Pray) واستيفان كاتونا(Istvan Katona) .

أما الفترة بين عامي ١٧٧٢ و١٨٢٥ ، وهي فترة التنوير ، فمع أهميتها البالغة بالنسبة لتطور الروح الهنغارية ، لم تنتج سوى كتاب قلائل من الدرجة الاولى . وكان التنوير الهنغاري اكثر تقبلاً للافكار الانكليزية والفرنسية من ابتكار وانتاج تطورات اصيلة .

بدأت الفترة الجديدة عام ١٧٧٢ بنشر اول مؤلف لجيورجي بسينيه(Gyorgy Bessenyei) وهو ترجمة من الفرنسية لقصيدة الكساندر بوب «مقال عن الانسان» . هدفت جميع مؤلفاته لان تكون تعليمية ، وكانت مسرحية «مأساة اجيس»(Agis Tragediaja) ١٧٧٢ مجرد أداة لنشر أفكاره المعادية للحكم المطلق . واتسمت اول رواية حقيقية بالهنغارية «رحلة تاريمنيس»(Tarimenes Journey) (١٨٠٢ ـ ١٨٠٤) بالهجوم المر على كل ما يتعارض ووجهات نظر التنوير . وفيها يهاجم باسينيه بالتلميح المدمر نقائص المجتمع الانساني . وقد أدى تأثيره الشخصي الى حمل عدد

من زملائـه الضبـاط مثـل سانـدرو باروشي(Sandor Baroczi) وابراهـام بركاسي (Abraham Barcazy) على محاولة نقل افكار حركة التنوير الى الجمهـور الهنغـاري بالهنغارية .

أدت الافكار الجديدة ، التي كانت من حيث الاساس تقليدية ببعض الادباء امثـال جوزف كفادانـي(Josef Gvadanyi) وانـدراس دوغـونيكس (Andras Dugonics) لكتابة مؤلفات لها بعض القيمة الادبية ، وكانت في نفس الوقت ـ مسلية مما زاد في شعبيتها . تعتبر «رحلة الكاتب بالعدل الريفي الى بيودا» ١٧٩٠ ، وهي افضل مؤلفات كفاداني ، اعتذاراً ودفاعاً عن القيم التقليدية موجهة ضد الافكار الاجنبية الغازية . وكانت قصة الحب العاطفية ذات الخلفية التاريخية رواية «اتلكا» (Etelka) ١٧٨٨ لـ دوغورنكس اول اكثر الكتب الهنغارية رواجاً وقـد استعمـل كفاداني ودوغوتيكس لغة شعبية خالية من الأثر الاجنبي ، وربما كان هذا أعظـم فضائلها . وخلف ادام بالتوزي هورفات(Adam Paloczi Horvath) كنزا من الشعر الشعبي والموسيقا ممثلاً بمجموعة من ٤٥٠ قصيدة .

كانت نهاية القرن الثامن عشر فترة اكتشاف وتجارب لغوية . وقد تبع الرواد الاوائل الذين استعملوا الوزن الشعري الكلاسيكي الشاعر بندك فيراغ(Benedek Virag) الذي اسبغ اصالة شاعرية على أشكال شعرية كانت بالنسبة لمن سبقه مجرد تجارب شكلية . وكان دور دانيال برزيني(Daniel Berzsenyi) الذي نشر مجلداً من الشعر عام ١٨١٣ أنه اظهر ماذا يستطيع الشاعر الاصيل ان يعمله بالوزن الشعري الكلاسيكي . يعتبر برزيني عملاقاً في فن التعبير ، والذي يجعلنا نتذكر شعره ابداً ما يتصف به من قوة وزخم في التعبير ورسوخ في العقيدة . تعتبر قصيدته الغنائية من نوع «الاود المسماة» الى الهنغاريين «وصلاة» «وقصيدته التأملية» عندما يقترب الشتاء تعبيراً عن سرعة زوال القوة والصداقة وكل شيء ما عدا الله .

بشكل عام لم تلق أفكار حركة التنوير في هنغاريا ترحيباً ، فقد سجن عدد من الكتاب لتعاطفهم معها ، وكان أكثرهم موهبة الشاعر جانوس باتساني(Janos Batsanyi) الذي ضمن لنفسه مكانة في تاريخ الادب الهنغاري ، بقصيدته «حول

التغييرات في فرنسا» التي تعتبر انذاراً عنيفاً لكل الطغاة لكي يعتبروا بما جرى في بلاد السين .

كان العمل الوحيد ذو القيمة الادبية لـ جوزيف كرمان(Josef Karman) رواية عاطفية اسمها «اوراق فاني»(Fanni Hagyomanyai) وهي تمثل خطوة هامة في تاريخ الرواية الهنغارية .

وأول شاعر غنائي هام منذ شاعر عصر النهضة بالنيت بالاسي هو مهالي كزوكوناي فيتيز(Mihaly Csokonai Vitez) الذي اكمل التقليد الهنغاري الشعري الصافي . وتعتبر اغانيه الكثيرة «الى ليلاّ»(Lilla) مزيجاً موفقاً من رشاقة أسلوب الروكوكو (الشعر الزخرفي) ، ومن افكار أقل سطحية مما تبدو . ويظهر أثر روسو واضحاً في بعض قصائده الطوال . وكانت قصيدة «اغتصاب الضفيرة» للاكساندر بوب مصدراً روحياً للمحمته «دوروثي»(Dorottya) ١٨٠٤ ، ومع ذلك تظل قصيدته اصيلة وهنغارية في طابعها . فلغة القصيدة محكمة حيناً ، مبتذلة احياناً ، اما المواقف الهزلية فخشنة ينقصها التهذيب الا أنها مسلية . ضمن الشاعر ساندور كزغالودي(Sandor Kisfaludy) لنفسه مكانة في الأدب الهنغاري بمؤلفه «الحب الكئيب»(Kezergo Szerelem) وهو سلسلة من الاغاني يربط ما بينها خيط قصصي واه ، وقد أظهر الشاعر مهارة في ابتداع تنويعات لموضوع الحب التعيس مبتكراً شكلاً شعرياً شديد التعقيد من اثني عشر بيتا سمي شعر «هيمفي»(Himefy) . ومن بين مؤلفاته الجيدة ثلاث قصص نشرت مجتمعة عام ١٨٠٧ وهي «كزوبانك» (Csobanc) «وتاتيكا»(Tatika) «وسوملو»(Somlo) . وقد كتبها جميعاً حسب طابع الرومانسي الفروسي . كان فرنك كزنسي(Ferenc Kazinczy) شاعراً عادياً ، الا انه شديد الاثر كأديب لانه كان محور الحياة الادبية طيلة ٤٠ عاماً . وكانت مفاهيمه السياسية متطورة تقدمية ، وقد كلفته فترة سجن لست سنوات . كان يهدف دوماً الى النهوض بالادب وصفائه ، ليس باروكياً ولا شعبياً ، كما أنصب اهتمامه على الاسلوب ، وترأس المجددين اللغويين(Neologi) الذين قاومهم دعاة الفاء اللغوي (Orthologi) . وهدف الى تجديد اللغة الهنغارية واغنائها ليجعلها مناسبة ، صالحة للتعبير عن أكثر المفاهيم تعقيداً .

الادب الروماني :

يعكس معظم القرن الثامن عشر صورة من الاضطهاد الاجتماعي والانحطاط . وقد شاع بين الناس أدب علماني وشبه ديني غني على شكل مخطوطات . الاّ أنه لم يحدث أي تقدم بالمقارنة بالماضي . وفي مولدافيا نشأ مركز ثقافي جديد في راداوتي(Radauti) . وكانت اعظم منجزات العصر «سير القديسين »(Minei) (الاعوام ١٧٧٦ ـ ١٧٨٠ ، ١٨٠٧ ، ١٨١٥) وتألف كل منها من ١٢ مجلداً نشرت في رمنيكو فيلسيا وفي دير نيامت(Neamt) وتميزت بلغتها الفنية الصافية مما جعلها تضاهي الكتاب المقدس الذي نشر عام ١٦٨٨ .

أما الشعر الغنائي فقد نظم حوالي نهاية القرن حسب تقليد وعرف الشاعر الاغريقي القديم اناكريون على شكل أغان غزلية (١٧٦٩ ـ ١٧٩٩) قام بقرضها الشاعر اليكو فاكارسكو(Alecu Vacarescu) ، الذي ألف أبوه اناشيتا (Ienachita) ـ وكان بدوره شاعراً وداعية للأخلاق ـ أول كتاب نحو بالرومانية ، بينما فاق ابنه ايانكو مؤسس الشعر الروماني من سبقه بقصائده . اما رابع شاعر من عائلة فاكارسكو فهو نيقولا .

وفي ولاشيا (Walachia) سار الشاعر . ب . ب موميلينو (B. P. Mumuleanu) حسب التقليد والعرف الغنائي الآنف الذكر .

الأدب السلوفيني :

في حوالي عام ١٧٥٠ ظهرت حركة بعث جديد للادب في سلوفين بدأها الراهب ماركو بوهلين(Marco Pohlin) المعارض لادخال الصبغة الالمانية على الادب السلوفيني . وقد كتب مؤلفات تعليمية وترفيهية ودينية . وبمبادرة منه بوشر بنشر أول تقويم شاعري عنوانه « تمارين في الكتابة »(Pisanice) (١٧٧٩ ـ ٨١) كما قام انطون لنهارت(Anton Linhart) بجمع تاريخ نقدي ثم اقتبس ملهاتين تستند احداهما على مسرحية « زواج فيغارو » لبو مارشيه.

وكان الشاعر العقلاني والتعليمي فلنتين فودنك(Valentin Vodnik) محررا

لاول دورية تكتب بالسلوفينية وهي « اخبار لجبجانا »(Lublanske Novice) (١٧٩٧ ـ ١٨٠٠) ، ونحويا ومصنف معاجم وداعية للفرنسية ، لأن اللغة السلوفية كانت معترفا بها في أليريا(Illyria) محافظة نابليون (١٨٠٩ ـ ١٨١٤) . أصبح الأدب علمانيا ، وقدر له أن يكون وسيلة ايقاظ الوعي القومي .

الفَصْل الثّالِث عَشَر

الآداب الكلتية في القرن الثامن عشر

الأدب الويلزي :

كان منتصف القرن الثامن عشر أغزر فترات الادب الويلزي بعد القرن الرابع عشر ، إذ عاد الى الانتعاش بعد حقبة من الركود . فقد حسّ كورونوي أوين (Goronwy Owen) ـ الذي الهمته الفترة الأوغسطية الانكليزية ـ وأعاد استعمال البحور المتزمنة « للسيود »(Cywydd) بالويلزية « أودل »(Awdle) وكذلك الاشكال الشعرية القديمة التي اعتمدت على التناسق الصوتي(Cynghanedd) وهو نظام معقد من الجناس والسجع . كما ادخل مقداراً جديداً وواسعاً من المواضيع ، وهكذا أسس مدرسة كلاسيكية جديدة من الشعر الويلزي . أما الشعراء الرئيسيون لهذه المدرسة فهم وليام وين أوف لانكن هافل ، وادوارد ريتشارد ، وايفان ايفانز . يرتبط الكثير من نشاطهم بالجالية الويلزية في لندن ، وجمعية سيمرودوريون (Cymmrodorion)، . وانتهى نشاطهم هذا الى تأسيس مهرجانات شعرية في ويلز نَشرت الاشكال الكلاسيكية للشعر الويلزي .

كان ديفيد توماس (دافيد دو أريري) من أعظم الشعراء الذين خلفوا أوين ، لكنه مع ذلك تمرد على التزمت الكلاسيكي شأنه شأن شعراء آخرين اشتركوا في المهرجان السنوي للشعر .

اتخذ كلاسيكيو القرن الثامن عشر موقف الحياد من حركة الاحياء الديني المنهجي (Methodist) إلاّ أن الحماس الديني ادى الى وضوح جديد، ومصدر الهام خصب للشعراء ، وبخاصة الشعر الحر ـ ومؤلفي الترانيم الدينية ، مثل وليام وليامز اوف بانت ـ اي ـ سيلين اول شاعر نظم على البحور الحرة لهدف جدي، وآن

جريفتس (Ann Griffiths) وكثيرين غيرهما . والترانيم هامة هنا لما لها من تأثير على الشعر العلماني الذي نُظم فيما بعد .

كان النثر الويلزي ضيق النطاق لمدة طويلة بعد عام ١٧٥٠ . وشهدت نتائج الثورة الفرنسية الكثير من النشاط في الفكر السياسي. كان اهم شاعر سياسي هو جون جونز (John Jones) وبعد تأسيس مطابع الدوريات اصبحت الكتابات السياسية جزءاً هاماً من الأدب الويلزي الذي استمر الى القرن التاسع عشر.

الشعر البريتاني :

يعتقد الكثيرون ان الأدب البريتاني يبدأ عام ١٦٥٩ ، عندما ادخل جوليان مونوار (Julien Maunoir) كتابة اكثر صوتية. ولكن المؤلفات من نوع الأدب البريتاني الأوسط ظلت تظهر حتى القرن التاسع عشر، ويتألف معظمها من مسرحيات تعالج خلق الكون ومعجزات المسيح والقديسين استنبطت مواضيعها من الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث وقصص الفرسان التي اقتبست عن الفرنسية او اللاتينية . أظهرت المسرحيات التي تصور القديسين البريتانيين ملامح من الأصالة. وفي القرن الثامن عشر وضع العديد من المعاجم البريتانية الا أنها كانت قليلة الأهمية من الناحية الأدبية، ولكن هناك اسماً واحداً ظل حيّاً هو اسم كلود ـ ماري لولي (Claude-Marie Le Lae) الذي نظم قصائد هجائية مثل «الكلب» و«موعظة مايكل مورن»(Mikel Morin) .

الادب الاسكتلندي الغيلي (Scottish Gaelic)

يمكن القول بانه لم ينشر اي أدب علماني بالغيلية قبل عام ١٧٥١ . بعد هذا التاريخ دوّن الشعر القديم بجمعه من افواه الرواة. ويقدر أن معظم الالهام الذي دفع بالادباء الى طبع المؤلفات بالغيلية في القرن الثامن عشر بحافز من الكساندر ماكدونالد (Alexander Macdonald) الذي نشر مجموعة من المفردات غيلية عام ١٧٤١ وأول كتاب اسكتلندي غيلي من الشعر العلماني عنوانه «بعث الانسان

الاسكتلندي القديم» عام ١٧٥١ . وقد جمّع رفاقه نازلاً بهم من المرتفعات لينضموا الى الأمير شارل ادوارد في ثورة ١٧٤٥ ، وذلك بقصيدة عنوانها «دعوة مثيرة لعشائر المرتفعات» وبأغنية ترحيب بالأمير. اما أروع ما كتب فمسرحية من نوع «الاسكترا فاغانزا» (وهي تقليد مفرط السخرية لمواضيع جدية) عنوانها «ذي بيريلين اوف كلان رنالد» (The Birlinn of Clanranald) التي تصف رحلة من ييست الجنوبية (South Uist) في جزر الهبريديز الى كاريكفرغوس (Carrickfergus) في مقاطعة انتريم (Country Antrim) من ايرلندا الشمالية، ونظم فضلاً عن ذلك قصائد في وصف الطبيعة والحب واغاني شراب وقصائد هجائية مرّة لاذعة.

نشر دنكان ماستناير (Duncan Macintyre) الذي تأثر كثيراً بـ ماكدونالد ، قصائده عام ١٧٦٨ ، إلاّ أن الرجلين اختلفا في المزاج والتدريب لأن ماكدونالد تلقى تعليماً رسمياً ، بينما كان ماستناير اميّاً . كما كان ماكدونالد طموحاً ومستقلاً وقلقاً ، بينما كان ماستناير على عكس ذلك. حارب الأخير الى جانب آل هانوفر في معركة فالكيرك ، ثم قام بمدح جورج الثالث في قصيدة «آروان دون راي» (Oran Don Righ) ، لكنه كان مراقب حراج في شبابه يعمل على حدود مقاطعتي بيرت وارغايل، وتلك خلفية اعظم قصيدتين من قصائده هما «مديح بن دورين» (The Praise Of Ben Dorain) و«اغنية الى مستي كوري» ، (Song To Misty Corrie) وتشتهران بقربها الحميم ، من الطبيعة، وتفاصيلها الدقيقة ، ونوعيتها الشخصية والغنائية . اما اشهر اغنية حب له فقد وجهّها الى زوجته ماري(Mairi) .

من الشعراء المشهورين في القرن الثامن عشر نأتي على ذكر جون ماكدّرم (John Maccodrum) مؤلف مرثاة للسير جيمس ماكدونالد اوف سليت ، والكثير من الشعر الفكه والنقدي، وروبرت ماكييه (Robert Mackay) الذي ادت ملاحظته الدقيقة، وموهبته في النقد المتعلق بابناء اقليمه الى الكثير من النقد الاجتماعي الشعري، والى الفهم الذكي والدقيق والمرح للطبيعة الانسانية ، ووليام روس (William Ross) شاعر المجموعة الرومانتيكي الذي كان الحب التعيس مناسبة لأفضل قصائده مثل «فيز غار لوأين (Feasgar Luain) و«اوران ايل» (Oran Eile) .

كان دوغالد بوكانان (Bugald Buchanan) ، الذي ساعد المبجل جيمس

ستيوارت اوف كيلبن في تحضير ترجماته الغيلية للعهد الجديد عام ١٧٦٧، اعظم ناظم للشعر الديني الغيلي في القرن الثامن عشر وتتصف قصيدتاه «يوم القيامة» و«الجمجمة» بقوة التأثير والكآبة وسعة الخيال.

الغيلية الايرلندية (Irish Gaelic)

يُعد القرن الثامن عشر فترة انحسار بالنسبة للأدب الغيلي الايرلندي. كان آخر ازهار عظيم للتقليد الشعري في منستر (Munster) قصيدة «فناء وسط الليل» (The Midnight Court) نظمها بريان ماريمان (Biran Merriman) الاستاذ في مدرسة كلير. وبعد هذه القصيدة اصبح الشعر الايرلندي مجرد اغان شعبية.

وفي خلال القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر، كانت الكتب الوحيدة المكتوبة بالنثر الايرلندي اسفاراً تعليمية كنيسة وكتب العبادة. كما استمر تقليد كتابة المخطوطات على يد بعض النسّاخ حتى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن في ايرلندا اي نشاط ادبي باستثناء حفنة من المتعلمين، اذ كان الجميع من اميين.

الادب الالماني (١) (Manx)

ليس لدينا من أدلة تذكر على اي وجود لتراث شفهي غني سابق في «جزيرة مان» (Isle of Man). وكان اول نص مكتوب باللغة الألمانية ترجمة لكتاب «الصلوات العامة» قام بها ويلزي اسمه جون فيليبس اسقف سودر ومان (Sodor and Man). وقد وصلتنا هذه الترجمة في مخطوطة فريدة ترجع الى حوالي عام ١٦٣٠.

أما القصائد الغنائية البطولية القصيرة من نوع « البالاد » - والتي تناقلها الناس فهدفت الى إعطاء معلومات ملخصة عن تاريخ الجزيرة - دونت في المخطوطات ابتداء من عام ١٧٧٠، لكنها لم تطبع قبل عام ١٠٨٢. ويعود تاريخ نظمها الى القرن السادس عشر، كما يرجع أول وجود مكتوب لقصيدة « تاس اليام

(١) نسبة إلى جزيرة «مان».

دون » (Bss Illiam Dhone) (وهي من نوع « البالاد » تتحدث عن اعدام وليام كرستيان عام ١٩٦٣ ، ويبدو أنها كتبت بعد هذا التاريخ بقليل لأنها تشير الى مصير عائلات خصومه الى عام ١٧٨١ بعد إحيائها وتوسيعهـا . ويحيا التقليد البطولي في جزء من قصيدة عنوانها (Fin As Osshin) ، وهي من نوع « البالاد » تدور حول موضوع « أوسياني » جمعت من التقاليد الشفهية .

ويأخذ الشعر الالماني ـ في معظمه ـ شكل الأغاني التي تنشد في عيد الميلاد ، أو مجرد أغان دينية تتحدث عن مواضيع مثل سقـوط الانسـان وفدائـه (موضـوع مفضل) ألفت لتنشد عند الصلاة التي تقام أمسية عيد الميلاد .

الفهـرس

هذا الكتاب

يقدم لنا هذا الكتاب صورة متكاملة ومختصرة لتطور العلوم والفنون والآداب الغربية مع لمحة عن تراجم مشاهير الكتّاب والأدباء الذين ساهموا في تطوير الآداب الغربية منذ نشأتها وحتى عصرنا الحاضر. كما يلقي الضوء على التأثير المتبادل بين ثقافات الشعوب الغربية وأثرها في نموّ ثقافة العالم وحضارته وما عمل حولها من ترجمات وبحوث ودراسات، مع وصف تاريخي لأساليب الكلام ومنازع إنشائه وصياغته ومذاهبه ومدارسه ومناهجه في مختلف العصور الأدبية ولكل شعب من الشعوب التي تنتمي الى عالم الغرب، شاملاً أسماء الأدباء من كتّاب وشعراء وعلماء وفلاسفة وأشهر ماكتبوه باللغات الاوروبية بدءاً من الإغريقية القديمة وانتهاءً باللغات التي تتحدث بها شعوب أوروبا والأمريكيتين.

والكتاب هو مجرّد دليل يتلمس به الطالب، في مختلف كليات الآداب، والدارس طريقه للوصول الى المعرفة بالآداب الغربية وأخذ فكرة عنها يساعده في انتقاء مصادره للاستزادة من العلم في هذا المجال، كما أنه زاد مفيد للمثقف يفتح أمامه آفاق مواطن الأدب ومناهله في الغرب.

ولا نبالغ اذا قلنا ان هذا الكتاب يغني المثقف عن مطالعة مائة كتاب من الكتب المختصة بالآداب الغربية.